

تاريخ العباسيين

تاريخ العباسيين

لابن وادران

(وبآخره عمّال بني العباس بافريقية الى آحر الأغالبة)

تقديم وتحقيق

الدكتور المنجي الكعبي



الطبعة الأولى

1993

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 5787 / 113
بيروت - لبنان

تاريخ العباسيين لابن وادران

أو

دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

(وبآخره عمّال بني العباس بافريقية الى آخر الاغالبة)

مسوّدة لمجهول بيّضها وزاد فيها

حسين بن محمّد وادِران (كان حيّا سنة 1172هـ)

حقّقها وقدّم لها

الدكتور منجي الكعبي

وقابلها على مخطوط

«المختار من الدر المكنون المنتظم في أخبار
الرشيد وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم»

(لمجهول من القرن 12هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

تمهيد

ظهور مخطوط ابن وادران في تاريخ العباسيين

المخطوط التونسي المفقود المنسوب لابن وادران في تاريخ العباسيين ، الذي كان موجودًا بمكتبة جامع الزيتونة في القرن الماضي والذي نشرت منه قطعة مترجمة بالجزائر سنة 1855 ، بعنوان «موجز تاريخي حول إمارة الاغالبة» ، عثرنا عليه أخيرًا في دار الكتب الوطنية بتونس ، ضمن مجموع من المخطوطات العتيقة ، أهملتها يد الفهرسة مع الاسف ، أو لم تكن قد شملتها بعد .

هذا المخطوط ، أهميته كبرى من حيث بعدد الكتب والمصادر التي ينقل منها . ومع أن صاحبه يستقي في الاكثر من كتب متأخرة عن تلك الاصول المعتمدة عادة في تدوين أخبار هذه الفترة الممتدة من أواسط القرن الثاني الى أوائل القرن الثالث للهجرة ، إلا أن المفارقة تكمن في أنه من بين الثمانين كتابًا أو تزيد التي رجع اليها يوجد عدد وافر منها لا يفكّر الباحثون عادة في الرجوع اليها حول العصر العباسي ، وعدد آخر قلّ من ينتبه من الدارسين الى ما يحتفظ به من روايات مهمة مفقودة من أصولها المعروفة ، أو ضاع بعضها .

والغريب في أمر هذا المخطوط المنسوب على وجه غير صحيح لابن وادران أنّ مؤلفه الاصلي غير معروف لدينا . وبقي مجهولا مع الاسف تحت قلم ابن وادران ناقله الينا وصاحب الفضل الكبير في حفظه ؛ عدا ما وصفه به في مقدمته من أنه كان من جيل آبائه المتقدمين . ولكننا نجهل من هو ابن وادران نفسه ، ولا نجد أدنى ترجمة في كتب الفهارس والاعلام تعرّف به أو بكتاب صاحبه . فقط ، علاقة ابن وادران بهذا الكتاب يعرّفنا بها هو نفسه في المقدمة ، حيث

يذكر وقوعه عليه في شكل مسوّدة ؛ فآسفه لأهميته ، فقام بنقلها وتبييضها .

ويبدو أن المؤلف الاصلي قد بذل جهدًا كبيرًا ، فريدًا من نوعه فيما نعلم ، ليجعل كتابه يستوعب بكل دقة وترتيب كل الاخبار الواردة في المؤلفات السابقة ذات العلاقة بموضوعه ، دون الوقوع في الإحالة أو التكرار . فقد قام ، وإن في نطاق ضيق ، بما يشبه ما قام به قبله الطبري في تاريخه ، بل لعله من بعض الوجوه كان أكمل من الطبرى ، إذ جمع كلّ ما انتهى إليه من مؤلفات المتقدمين حول الرشيد والعباسيين الخمسة بعده .

وهناك أسئلة كثيرة يثيرها البحث في هذا المخطوط ؛ بعضها قد يجد جوابًا وبعضها الآخر سيبقى لغزًا إلى ما شاء الله . من ذلك مواطن الزيادة التي زادها ابن وادران وحجمها ، ونوع الترتيب الذي رتبه به والتنقيح التي أدخله عليه ، وهي أمور يدعيها لنفسه ابن وادران في هذا الكتاب . وربما تعتبر هذه المسائل قليلة الاهمية بالقياس الى أمور أخرى مهمة لا نظفر بإجابات كافية عنها . من ذلك مثلا اسم صاحب المسودّة ، وما هي علاقة ابن وادران به ، وما هي ظروف عثوره على مسوّدته . بل إن اقصى ما يعرّفنا به ابن وادران في المقدّمة هو أنّ مؤلف تلك المسوّدة أحد أبناء جنسه ممن قارن الآباء . وهذا كلام غامض قد لا يكون مقصودًا لشيء ، لأننا لا نعرف حقيقة ابن وادران ولا يمكن التخمين بها . والشيء الوحيد الثابت هو أن ابن وادران كان يعيش في القرن الثاني عشر للهجرة . وليس صحيحًا ما أثبته شاربنّو ، في مقدمة ترجمته للكتاب ، دون ذكر المرجع ، من انّ ابن وادران كان وزيرًا بفاس بعد عصر الاغالبة بقليل . مما يدل على عدم الاطلاع من جانبه على كامل الكتاب ، وعلى قلة الانتباه – حتى وقته على الاقل – الى تلك إشارة داخله حول تاريخ تبييضه . وهذه الاشارة الهامة هي التي قد يكون استند اليها بروكلمان حين ذكر أن ابن وادران كان يعيش في القرن الثامن عشر للميلاد ، مع أنه لا ينوّه بما سوى تلك الترجمة التي نشرها المستشرق الفرنسي .

وابن وادران عاش فعلاً في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للثامن عشر الميلادي . فقد عرض له في الثلث الاخير من كتابه استطرادٌ كشَفَ خلاله عن تاريخ اشتغاله بتبييض المسوّدة ، وهي سنة 1172هـ/1758–1759م . فهل يكون المؤلف الاصلي للكتاب غير متقدم جدا عن ابن وادران . من أهل القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري ؟

كما أننا لا نعرف شيئاً عن عنوان كتابه وهو بحاله مسوّدًا ، ولا نعرف كذلك إن كان كتَب له مقدّمة أوختمه بخاتمة .

ومع الاسف لا تمدنا كتبُ تراجم القرن الثاني عشر المعروفة بشيء عن ابن وادران ، ولا أيضًا بعض الكتب المخطوطة التي كانت مجال ظننا . ومع ذلك فلا نستبعد أن يكون ابن وادران من رجال تونس في العهد التركي الاول . بل إننا لم نقف على اسم بصيغة وادران الا علَمًا على منطقة في تونس الحفصيّة تدعى وادران ، ذكرها الوزير السراج . علمًا أيضًا بأن واديًا يعرف اليوم بهذا الاسم في تونس الوسطى .

ولم نعثر كذلك على كتاب بهذا الاسم منسوبًا الى أحد في فهارس المخطوطات . وهذا الكشف عنه من جديد لا تنحصر اهمّيته في ظفرنا بالنص العربي لترجمة شاربنو ، كما كان المؤمل قبل ذلك ، بل أهميته في أن ما نشر منه لا يعدو 20 صفحة من مجموع حوالي 700 صفحة من القطع المتوسط . وما تاريخ الاغالبة إلا خاتمة قصيرة بآخره للابواب الستة الرئيسية في الكتاب . وهي أبواب مطوّلة ، تتعلّق بالخلفاء العباسيين الخمسة المشهورين ، الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق .

وعثورنا على هذا المخطوط ليس فقط يصحّح معلوماتنا عن حقيقة هذا الكتاب وعن مؤلّفه ، بل يمدنا فضلا عن ذلك بمعلومات جديدة . فهو ليس لابن وادران كما سبق أن تبادر لأغلب من وقع الكتاب بين أيديهم ، وانما هو لمؤرخ مجهول ، ترك كتابه دون تبييض ووقع عمله بعد زمن قصير في يد ابن

وادران فنهض بمهمة تبييضه ونسبه لنفسه ، لا انتحالا ، ولكن لعدم علمه بصاحبه من ناحية واستحقاقًا لفضله في حفظ مسوّدته مبيّضة ومرتّبة ومزيدة من ناحية ثانية .

وقد لا يكون ابن وادران من المؤرخين ، ولكنه ككل عالم لم يتردد حين وقف على أهمية الكتاب من الناحية التاريخية والأدبية في العناية اللازمة به . خصوصًا وأنه قد أدرك قيمته الكبرى بالنظر في غيره من المصنفات الموضوعة في بابه أو القريبة منه . والحقيقة أن الكتاب كما يتجلّى للقارىء المتخصص وحتى قبل الفحص الدقيق يعتبر نسيجَ وحده . فهو بمثابة «ببليوتيكا» أو جمهرة حضاريّة عن عصر الرشيد والخلفاء الخمسة المتعاقبين بعده . وذلك لأننا نرى المؤلف يسعى بكل ما في وسعه من جهد الى استخراج جميع الاخبار المتعلّقة بحياة هؤلاء الخلفاء الستة الكبار من المؤلفات الكثيرة التي وقعت تحت يده مع تراجم العلماء والكتاب والفنانين الذين كانت لهم بهم صلة . ويشهد كتابه بمدى التوفيق الذي أصابه في ترتيب تلك الاخبار وتحقيق رواياتها ، مشفوعًا بهمة علمية واضحة في تدقيقها وبيان المتفق والمختلف فيه منها ، الى جانب عنايته عناية خاصة بضبط التواريخ والحوادث وتصحيحها .

وقد وجدنا فيه نصوصًا مطوّلة أحيانًا تخلو منها الكتب المطبوعة التي بين أيدينا اليوم عن بعض رجالات ذلك العصر وحوادثه وأخباره . وأعثرنا البحث بعد الكشف عنه على مخطوط آخر عجيب ، لأحد المتأخرين ، مجهول المؤلف هو أيضًا وينقل بالحرف أو يكاد عن مسوّدة ابن وادران أو عن أصل مشابه ، دون توضيح لذلك . مما وفّر لنا تحقيق الكتابين معًا «بحجر واحد» ، وخاصة تصحيح الاخطاء في ابن وادران ، أو مواضع السقم ، أو سوء النسخ في مخطوطته .

المقدمة

1 - تقديم المخطوط

هذا مخطوط في أخبار ستة من خلفاء بني العباس كان موجودًا بمكتبة جامع الزيتونة بتونس الى أواسط القرن الماضي ، ثم فقد ولم يظهر له اسم في فهارس مخطوطات ولا في دار الكتب الوطنية بتونس التي آلى اليها تراث تلك المكتبة العظيمة . وكان الاسف عليه شديدًا بعد نشر قطعة منه في منصف القرن الماضي بالجزائر عن أخبار الاغالبة مترجمة بعناية أحد المستشرقين ، لأهميتها في نظره «لتأريخ دول المسلمين والعرب بشمال افريقية» . وهي قطعة صغيرة جدا منه بالقياس الى سائر الكتاب .

واشتدّ الاسف على فقد هذا الكتاب المنسوب لابن وادران بسبب الحاجة اليه لتدقيق القطعة المترجمة المنشورة منه حين ظهر نقصها برأي بعض الباحثين

في تاريخ الاغالبة . مما يفهم منه أيضًا ضياع نسخة الجزائر المنقولة عن الاصل الموجود بتونس ، أو على الاقل الجزء منها الذي قد يكون انتسخ لغرض تلك الترجمة .

فبقي اسم ابن وادران منذ ذلك الحين مظنة للبحث وكتابه لغزًا محيّرًا . خاصة وأنّ المعرفة بالمؤلف وبالمخطوط لم يتناولهما وصف دقيق من خلال مقدمة المترجم لتلك القطعة المنشورة .

فلما كنتُ في السنوات التي اهتممت فيها بتتبع السّجلاّت القديمة لمقتنيات دار الكتب الوطنية في تونس من خزائن المخطوطات الواقعة اليها ، بهدف العثور على ما قد يكون ندّ عن الاحصاء والفهرسة من عناوين مهمة أو أسماء لافتة ، وخصوصًا ضمن المجموعات المجهولة المؤلف أو المجهولة العنوان ، وأيضًا ضمن المجاميع ذات العناوين الكثيرة المدرجة اختصارًا تحت عنوان موحّد ـ وخصّصت لذلك وقتًا يندر التضحية بمثله لاستعراض ما تحويه الدار من تلك الدفاتر والسجلات الرثة المتروكة غالبًا للتلف ، أو للتقليب في موضعها أحيانًا بين المخطوطات نفسها ـ كان اسم ابن وادران ، الذي ارتبط في ذهني بتلك القطعة المنشورة له حول أخبار الاغالبة ، بعض من استوقفني دخول كتابه ضمن مقتنيات الدار . فلم يمهلني البحث حتى وقفت عليه تحت عنوان غريب هو تاريخ العبابسة .

وبقيت منطويًا على لذة العثور على كتاب ابن وادران الى أن أذعت خبر الكشف عنه بعد سنوات في مداخلة لي بمؤتمر المستشرقين التاسع والعشرين بباريس سنة 1973م . (انظر : ظهور مخطوط ابن وادران في تاريخ العباسيين، أعمال المؤتمر التاسع والعشرين للمستشرقين بباريس سنة 1975م. Actes du Congrès international des Orientalistes, Section organisée par Claude Cahen, Etudes arabes et islamiques, Histoire et civilisation, vol. II, p. 97-8) .

2 – صفة المخطوط

يقع كتاب ابن وادران في جحم متوسط ، مقاسه 20.50 x 10 ، ومسطرته 22 سطرًا بالورقة الواحدة ، وعدد أوراقه 364 ورقة ، جميعها من نوع واحد مائل الى الصفرة وسميك نوعًا ما . مكتوب بخط مغربي متماثل من أوله الى آخره وبحبر أسود ، وعناوين أبوابه باللون الاحمر ، وكذا عناوينه الفرعية ورؤوس فقراته وأسماء من ينقل عنهم من المؤرخين والكتاب وكذا أسماء كتبهم ، إلا فيما ندر ، وكذا فواصل السجع في المقدمة . ومن مميّزاته الفنية كتابة الواو بالحرف الغليظ كلما تعلق الامر بخبر جديد أو رواية أخرى أو تمييز أسماء متعاطفة . وكذا كتابة القاف بالحرف الغليظ في مثل «قال» و«قول» ، ونحوهما .

وكتابته غير مشكولة لا في نثرها ولا في شعرها ، وحتى في المستصعب من ألفاظه وأسمائه إلا نادرًا ، مثل «حنيْن» في الورقة 9أ ، و«الورادُ» في الورقة 9ب . وعدا اختلاف قليل في الرسم بيننا وبين عهده ، قبل قرنين ونصف ، فإن أخطاء غير قليلة من أخطائه الكثيرة لا تعود الى السهو بقدر ما تعود الى مستوى عربية الكاتب وثقافته التاريخية ، وخاصة أخطاءه في الشعر . فقد كان ينبغي في أضعف الاحوال أن ينبّهه الوزن اليها ، من ذلك مثلا البيت الثاني في شعر الخنساء الورقة 9ب (وانظر تعليقنا كذلك على جمعه بين الكلمة وتفسيرها في بيت من الشعر دون انتباه الى ذلك ، ص 75ب) . وحتى من غير التفكير في شخصية ابن وادران المنسوب اليه هذا المخطوط ومن يكون ، فإن صفة الناسخ تغلب على صاحبه من خلاله أكثر من صفة العالم المميز لما يقرأ وينقل .

ولا تثير أوراق الكتاب في ترتيبها صعوبة تذكر لأنها متسلسلة بالطريقة القديمة المعروفة في الكتابة العربية ، عن طريق تدوين الكلمة التالية في ذيل الورقة التي تسبقها . لكن كان قد دخله شيء من الاضطراب عند ترقيمه

بالاعداد الحسابية بيد متأخرة تاريخيا ، فقفز العدد بالعشرة سهوا منها عند العدد 280 الذي تناسب ورقته في الحقيقة الورقة 270 ، ومع اعتبار خطأ حصل قبل ذلك بالقفز على عدد بين الورقة 275 والورقة التي بعدها ـ لأن الكلام متسلسل وليس فيه نقص ـ فإن الورقة 270 هي في الحقيقة 269 . هذا مع الاشارة الى أن التصفيح يبدأ على وجه كلّ صفحة ابتداء من الثالثة (وهي الورقة الثانية) الى غاية الصفحة السابعة ثم ينقطع ليقتصر على ترقيم وجه كل ورقة الى الآخر . ولكن مع ملاحظة أخرى أيضًا وهي أن الورقة رقم 8 الحقيقية ضائعة من الكتاب . ويجب أن نقدر احتمال أنها هي النقص الوحيد الموجود بالكتاب ، وإن كان ليس ما يدل على أنها الوحيدة ، لأننا بصدد أخبار متفرقة عن الرشيد . غير أننا تحققنا فيما بعد من أن النقص لا يشمل غيرها بفضل مراجعتنا لكتاب الدرّ ، المتّفق مع هذه النسخة كما سنشير الى ذلك بعد قليل . وتجدر الاشارة أيضًا الى تقديم وتأخير بين ورقتين في الآخر ، هما الورقة 352 التي تقدمت على الورقة 351 ، الموافقتين لـ 362 و361 بالترقيم الخاطىء للكتاب .

ولا يخلو الكتاب من آثار قراءة عليه من أكثر من قارىء . ونستدل على ثلاثة منهم على الاقل عن طريق خطوطهم المختلفة على الهامش ، فلأحدهم تعليق في ظهر الورقة 22 ، يقلل فيه من أهمية ما سماه اعتذار المؤلف (أو ابن وادران) على حديث الهدية التي جاءت أبا يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة . والثاني سجّل عبارة : «قف على دعاء موسى الكاظم» (الورقة 36) ووقفات أخرى لصاحب الخط نفسه في الورقة 225أ ، مكتفيًا في الغالب بكلمة «قف» فقط . والثالث توقّف عند شرح كلمة غريبة في سياق استئذان مُغنّ سيّدَه للغناء بما حضره ، وهي «بدستور مولاي» ، فجاء أمامها في الحاشية وكتب : «أي بإذنه ، كذا نعرفه في خطاب العامة وانظر علّ له أصلُ لغة» ، ولصاحب هذا الخط نفسه فيما نقدّر تعليقات شعرية من حفظه في بعض المواضع (100أ

و332أ) أشرنا اليها في حاشية التحقيق .

3 – نسبة الكتاب

لا يحمل الغلاف على وجهه عنوانًا محددًا لهذا المخطوط ولا اسمًا لمؤلفه ، في حين تتزاحم عليه خطوط غير مقصودة لذاتها ، بل تدل على مجرّد تجريب ، لأنها تردد عبارة «تجريب قلم لا أفلح من ظلم» وبخط مغاير في أعلاه وفي طرته اليمنى أبيات مضطربة من النظم أولها :

«لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا وبتّ أشكو الى مولاي ما أجد»

ومجموعها خمسة أبيات في الدعاء آخرها :

«ثم الصلاة على المختار سيّدنا ما دامت الشمس في الابراج تتّقد»

وفي مواضع أخرى تقييدات ، يميّز من بينها هذا التقييد الغريب الذي قد يكون لصاحب تجريب القلم ، وفيه : «الحمد لله سرّحنا ولدنا الحاج محمد بن نور ليسافر الى برّ مصر» ، وقريب منها في الاول عبارة «سرحنا» مرة أخرى ، وتحتها : «الحاج محمد بغزالي» (قراءة مشكوكة) وبعد كلمتين غير واضحتين نقرأ : «على يد ولدنا حمودة» ثم كلمة أخيرة غير واضحة كذلك ؛ الى جانب توقيعات غير واضحة هنا وهناك من الغلاف . ويمكن أن نقرأ في أسفله وفي أعلاه كلمة «شيخ» بالتعريف وبدونه متكررة بكثرة وفي سطور منتظمة أحيانًا وكذلك كلمة «فتح» ، وهي بخط صاحب تجريب القلم .

وهناك تسويد واضح بأعلاه على كتابة لم يبق متبيّنا منها إلا الأطراف ، ولا تبدو قابلة للقراءة إلا باستعمال الاشعة الخاصة ، وتحتها تاريخ «28 محرم 1189» ، وهو أهم ما قد يستوقفنا من العناصر لتأريخ الكتاب كما سنراه فيما بعد . وقبل التاريخ سطران مجزوءان بسبب قصّ طولي في الغلاف نتبين في آخرهما كلمة «ناتج» والاخرى لم نتبين معناها (انظر مصورة الغلاف) ، وأخيرًا

نجد رقمين مختلفين أحدهما «BPT 265» إشارة الى تسجيله الاول بالمكتبة العمومية بتونس (اسمها القديم) ، والثاني صورته «n° 1446 mss-or» إشارة الى تضمينه ضمن المخطوطات الشرقية في نطاق ترقيم جديد بالمكتبة نفسها في وقت لاحق . وهو الرقم الذي يحمله في الفهرسة الحالية بدار الكتب الوطنية ، تحت عنوان غريب على مجلدته الخارجية وهو «تاريخ العبابسة» .

ويمكن التقدير أن الغلاف لا علاقة بأصل المَخطوط لأنه لا يحمل البتة عنوانًا ولا اسمًا يدل على مؤلف أو إشارة تدل على توثيق للكتاب . ولا يمكن اعتبار الكتاب إلا يبدأ من وجه الورقة الاولى الداخلية المسجل بطالعها البسملة والحمدلة وبعدهما بفراغ يسير نص المقدمة . وهي قصيرة ومسجوعة ، يحمّد المؤلف (الذي سنكتشف فيما أنه ليس سوى مبيّض لمسوّدة مجهولة العنوان والمؤلف معًا) في أولها الله سبحانه وتعالى ويقابل بين قدرته على فناء الامم وتنزّهه بالبقاء وحده ، ويحمده ثانيًا على تأييده الدين بتأييد الدولة العباسية ، ويصف من عظمتها في عهدها ما جعلها تفوق بها جميع ملوك البرية . وبعد الصلاة والسلام على الرسول وعلى آله وأصحابه يعرّف المؤلف نفسه بالعبارة التالية : «وبعد ، فيقول العبد الفقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، المرتجي فيض النوال والغفران ، عُبيد الله ، حسين بن محمد وادران ، قد كنتُ ظفرت فيما ظفرت به من الاوراق ، بمسوّدة تاريخ لم يبيّض ويرتّب منه السياق ، فجعلت أتصفّح ما فيه ، وأتأمّل في معانيه ، فإذا هو في دولة الرشيد من بني العبّاس وبنيه ، ومع هذا قد أُخبِرت أنّه قد جمعه بعض أبناء /3/ جنسنا النُّجباء ، ممّن تقدّم عصرنا وقارن الآباء ، غير أنه لم يجدّد منحاته الشوقية ، وينقّح رشحاته الذوقية ، فبينما أنا في رياض تلك السطور ، أقتطف من أزهار ذلك المنثور ، إذْ أبهاني شارق أنواره ، وناجاني طارق أخباره ، أن أبيِّض تلك السطور الجليّة ، وأنقح تلك المعاني السَّنِيّة ، بأن أميّز مراتب ذلك المكتوب ، وأجعل له هيئة و أسلوب (ترك الاعراب لضرورة السجع ، وهو قليل في النثر) ، مع ما أدمجنا فيه من الأنقال ،

ووشحنا حُلّته بهواتف الفِكر والبال ، ليكون من جالس مصابيحَ غُرره اغتنى عن كلّ جليس ، ومن آنس بنفائس دُرره انثنى عن كل أنيس ، اذْ تبسُّم طيب أخباره يُرقص رؤوس العلماء طرَبًا ، وتجاذبُ نشْقَ أريجه يُزهق نفوس الحُكماء عجَبًا ، وها أنا أجمع غرائبه المستفِزّة للخواطر ، وأؤلف بدائع عجائبه المستلذّة لذوي البصائر ، وقد جاء بحمد الله تعالى نزهة لذوي الألباب ، مرتبًا على ستة أبواب» .

فحدّد بذلك صاحب التبييض دون لبس أو ادّعاء علاقته بالكتاب وأوضح ما له ولمؤلفه الاصلي فيه [وإن كنا نجده في التأريخ للفراغ منه استعمل عبارة «مؤلفه» للكناية عن نفسه ، ونعتقد أنه فعل ذلك على سبيل المجاز . ص 353ب] . وربما تطلبنا منه اليوم أكثر من ذلك التوضيح عن حالة الكتاب وما وجدها عليه أو عن تقديره لمؤلف ذلك الكتاب ومن يكون . ولكن ليس أمامنا ما يسمح بالشك في صدقه .

وإذا كنا اليوم في الجهل بالمؤلف فلسنا في أقل من الجهل بابن وادران ناقله إلينا . وقد أعجزنا البحث عن العثور له على ترجمة ، أو حتى على مجرد ذكر في المظان . أقصى ما هنالك تاريخ الفراغ من تبييضه للكتاب ، وإن كان جاء بشكل ملغز يعجز اليوم غير المختصين عن حله ، وأيضًا تاريخ صريح في أثناء النص يحقق حياته في بعض السنين ، وتاريخ آخر أيضًا على ظهر الغلاف يطابق في ظنّنا نتيجة ذلك التاريخ الملغز في الفراغ منه .

فإذا قدرنا حياة ابن وادران وأنها ابتدأت قبل نحو ثلث قرن من التاريخ الذي ذكره داخل الكتاب لزمن اشتغاله بتبييضه ، وهو 1172هـ الموافق له 1758–59م ، يكون المؤلف الاصلي الذي قدّر معاصرته لآبائه ممن عاشوا في أواسط القرن الحادي عشر . إلا أن يكون قبل ذلك على معنى آبائه الاسبقين ، ويستبعد ذلك ، على فرض أنّ السجع لم يضطره الى هذه العبارة الدالة مجازًا على الاجداد .

وما دمنا لا نملك معلومات عن مكان ابن وادران وجنسه ، فكيف يسمح لنا تعبيره الغامض بالتعرف على المؤلف الحقيقي ، على الاقل من هذه الناحية . أما كونهما كلاهما من أهل هذا القطر أو ذاك من أقطار الاسلام فهذا كان يقفنا على مناسبة وقوع المسودة بيد ابن وادران . وحتى هذه ، أي المسودة لا يطنب ابن وادران في تفصيل ظفره بها ، حين يستعمل هو نفسه كلمة ظفرت بها . وكلامه نفسه يوهم أنه ظفر بأشياء أخرى بمناسبتها قد تكون هي أيضًا من جنس الكتب أو المنقولات .

ونعتقد دائما مع شيء قليل من حسن الظن أن ابن وادران لا يخفي من شيء هوية المؤلف ، لأنه فيما ذكر في المقدمة أنه قد سأل عنه ولم يظفر بأكثر من كونه من المعاصرين لآبائه من أهل بلده ، ولا يعلم لكتابه أصلا مبيضًا غير تلك المخطوطة الاولية ، إذا صح التعبير ، أو «المكتوب» كما يقول هو ، والتي يسميها مسوّدة دون أن يُدرينا ما الذي سوغ له بالضبط اعتبارها كذلك ، لأن الاحتمال بكونها نسخة لأحد السابقين على الاصل أدخلَ عليها شيئاً من التسويد على معنى قولهم «لا يبيّض الكتاب حتى يسوّد» ، أي لا يفهم وتتضح معانيه إلا بعدما يكثر التعليق عليه . ولكن لم تتخلف لنا نسخة ابن وادران التي عمل عليها . لا هي ولا أصلها ، ولا علم لنا بين الكتب المعروفة عن العباسيين بكتاب يطابقه بناء وتركيبًا . فبقينا نقرّ بالفضل لابن وادران على توريثه إيانا لهذا الاثر الجليل بالطريقة التي رآها خدمة للعلم وحفظًا لحق العلماء من أمثال صاحب مسوّدته .

4 – عنوان الكتاب

ونحن أقرب الى الجهل كذلك بعنوان الكتاب الاصلي ، وكذا عنوانه بعد التبييض على يد ابن وادران . فلو لا تقدير ضرورة السجع الذي جاء في سياقه ما يشبه عنوان الكتاب لقلنا إن ذلك عنوانه الاصلي . ولكن كون الكتاب وجده

ابن وادران في حالة مسوّدة ، لم يخرج بعد على يد مؤلفه للتنظيف أو للتبييض كما يقال ، وكون ابن وادران يقول هو نفسه إنه بالنظر فيه وجده في أخبار الرشيد من بني العباس وبنيه يدل على عطَل الكتاب من كلّ عنوان أصلا . وربما أيضًا ـ وهو الاقرب ـ عطله أو خلّوه من كلّ مقدمة للمؤلف الاصلي أصلا .

ولما كنا نفتقد صفحة الغلاف فلا نعتقد أن ابن وادران تركه بدون عنوان كما وجده ، بل نظنّ ظنا قويا أن العنوان الذي وضَعه قد لا يخرج عن تلك العبارة التي أوردها في سياق التعرّف على موضوع الكتاب وهي «أخبار الرشيد من بني العباس وبنيه» ونجده في الأخير أي في خاتمة كتابه يسمي موضوعه اختصارًا بقوله : «في أخبار بنى العباس» (الورقة 343أ) .

ولم نتحرّج هنا من الاضافة اليه للدلالة على بقية ما فيه : «وعمالهم بافريقية الى آخر الاغالبة» . استنادًا الى قوله في الآخر : «وراجعنا فيه ذكر بني الاغلب ، مع ما نقلناه من المسوّدة بعزو لابن الشبّاط وابن الشمّاع وغيرهما الا أنّ فيه تخليط ، فصححنا ذلك من المختصر للمؤيد رحمه الله تعالى» (353أ) .

ولا بد أن نقول هنا إن إرداف العباسيين بذكر ولاتهم بإفريقية وآخرهم الاغالبة هو أمر ليس من المسوّدة بل هو زيادة لابن وادران بدليل قوله في آخر خلافة المتوكل ، وهو الباب السادس : (و343أ) « . . وهنا ألقى القلم رحله وطوى ، وألقت عصاها الضمير يعود على مقدّر ضرورة ، وهو الراحلة أو القافلة واستقرّ بها النوى ، إذ هذا آخر ما وجدناه مما جمع في أخبار بني العباس ، وقد أوعدنا فيما سبق بتبييضه وتنقيحه لتتشنّف الاسماع ، وتروق بأخبارهم الانفاس ، والحمد لله على بلوغ المقاصد والامال ، مما أردنا تنقيح ما أهمل وانخرم وكان في زوايا الاهمال» . وبعده مباشرة عنوان : «خاتمة في ذكر عمال بني العباس بافريقية ومن دخلها من عمالهم . . . » . وفي آخره ، أي آخر الكلام عن الاغالبة يقول ابن وادران : (و361ب) «هذا آخر ما أردناه من غرضنا من هذا الكتاب ، والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب ، ولكن حيث

انتهى بنا الكلام الى المقتدر ، وكان هو الثامن عشر ، فينبغي أن نذكرهم أسماءهم ومددهم على سبيل العدّ والتحصيل ، ليحصل العلم بهم من غير إطناب ولا تطويل ، فنقول إنّ أولهم . . . » ثم يمضي في تعدادهم وعندما يبلغ الرشيد والخلفاء الخمسة بعده يقول : «وقد جعلنا لهذه الستة لكل واحد منهم ، بابًا يخصّه . فراجع ذلك إن شئت إذ هم المقصودون من هذا الكتاب» . ويتابع سرد أسماء الباقين ومددهم الى آخرهم ، أي المقتدر ، ويقول عنده : (و364أ) « . . . فكان المقتدر هو آخر الخلفاء من بني العباس بافريقية . ثم صارت الخلافة لبني العبيد الفواطم بافريقية ، وقُسّموا بالبلاد مع بني العباس الى أن استولوا على مصر وغيرها . انتهى كذا نقلناه من تاريخ المؤيد ، من أماكن منه ، وراجعنا فيه ذكر بني الاغلب مع ما نقلناه من المسوّدة ، بعزو لابن الشبّاط وابن الشمّاع وغيرهما الا أنّ فيه تخليط ، فصحّحنا ذلك من المختصر للمؤيد رحمه الله تعالى . وهذا آخر ما أردناه من هذا الكتاب ، والله الموفق /353ب/ للصواب . . (دعاء) قال مؤلفه الفقير الى الله الديّان حسين بن محمد وادران : ووافق الفراغ من تبييض هذا الكتاب ، الخ» .

و لا لبس في كونه لم يجد في المسودة أخبار ولاة بني العباس والاغالبة الذين ذكرهم وربط ذكرهم بملك العباسيين الثمانية عشر الذين نقل أسماءهم ومددهم من مختصر المؤيد ، وراجع في الوقت نفسه على هذا الكتاب ذكر بني الاغلب وصحح التخليط الذي وجده في كلام من أرخ لهم من أمثال ابن الشماع وابن الشباط ، ولعله يقصد كتاب صلة السمط للاول والادلة البيّنة للثاني . وسنقف بعد قليل على نسبة ما بين مسوّدة ابن وادران أو بالأحرى مبيّضته التي بين أيدينا وكتاب آخر غريب الاطوار لأنه أيضًا مجهول المؤلف وإن كان معلوم العنوان إلا أنه يحمل مشابه كبيرة تكاد تكون الى حد التطابق مع ابن وادران فيما دوّنه بين أيدينا في هذا الكتاب . لأن هذا الكتاب وهو الدرّ، كما سميناه فيما تقدم ، ينقل أيضًا في آخره مختصرًا لأخبار بني الاغلب

وعمال بني العباس من أولهم في إفريقية ؛ وتجري أخباره فيما تقدم على ذلك مجرى أخبار الرشيد من بني العباس وبنيه مثل ابن وادران الحافر بالحافر .

وعودًا الآن الى ما يشغلنا من أمر مخطوطنا الاصلي لنقول إنه لا شكّ كذلك في أن ابن وادران أخذ نفسه بمراجعة المؤيد في الاخبار المنقولة من كتابه في المسودّة للتحقق منها عند تبييضها . وهو ـ لعمري ـ منهج الباحث المحقق هذا المنهج الذي اتبعه ابن وادران ، رحمه الله .

وعلى هذا التقدير يكون آخر ما وجد في المسودة وهو نهاية الكلام عن المتوكل في الباب السادس ، والذي يعلن بعده ابن وادران نهايةَ الكتاب حيث يقول في العبارة التي تقدمت لنا : (و343أ) وهنا ألقى القلم رحله وطوى ، وألقت [الضمير يعود تقديرا على الراحلة أو القافلة] عصاها واستقرّ بها النوى ، إذ هذا آخر ما وجدناه مما جمع في أخبار بني العباس ، وقد أوعدنا فيما سبق بتبييضه وتنقيحه لتتشنّف الاسماع ، وتروق بأخبارهم الانفاس ، والحمد لله على بلوغ المقاصد والآمال ، مما أردنا تنقيح ما أهمل وانخرم وكان في زوايا الاهمال» .

5 – منهج الكتاب وعمل ابن وادران عليه

يبدو أن التبويب الذي اتبعه ابن وادران في مبيّضته هو نفس التبويب الذي وجده في المسوّدة ، وهو أبواب ستة وزع عليها أخبار الخلفاء العباسيين المعنيين بالتأليف في هذا الديوان ، وهم الرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . ولكن ابن وادران لا يقول إنه بنى الكتاب على أصل الترتيب الذي وجده عليه ، لأنه عدا هذه الابواب لا نستطيع أن نتحقق من نسبة تلك العناوين الفرعية التي تحدّد الى حدّ ما فقرات كل باب ، وهي عناوين مسجوعة . وأحيانًا التزام السجع فيها متكلف ولا يدلّ بدقة على موضوعها ، وقد تكرر بعض منها ربما على سبيل السهو لطول ما بينها وبين ما تقدم (انظر 28ب ، 38ب ،

53أ، 82ب ، 184ب و94ب ، 173ب و29ب ، 200ب في المحتوى) ، وقد تكون من صنع ابن وادران لأنه يشيد بالترتيب الذي أدخله ، ولا نكاد نفهمه إلا تحت هذا التقدير ، حيث يصعب أن يكون الاصل غير خاضع لترتيب أصلا . وإذا كان التبويب هو تبويب المؤلف الاصلي في هذا الكتاب فإن المقدمة محقّقة لابن وادران وكذلك الخاتمة ، وهي التي يخصصها لذكر عمال بني العباس بإفريقية ومن دخلها من عمالهم . وهو أمر مثير يحفّزنا لنسبة ابن وادران التونسية أو الافريقية ، فإن لم تكن فالمغربية عمومًا (كما سنرى عند محاولة البحث عن شخصيته) ، دون ما يمنع أن نجده يخطىء في تسمية الرقيق بابن رشيق ، لما قد يكون ـ كما سنرى ـ من قلة بضاعته الادبية .

وأردف الخاتمة بسردٍ ، به أسماء الخلفاء العباسيين الثمانية عشر الذين كانت افريقية تحت حكمهم ، من السفاح الى المقتدر .

ويقول ابن وادران إنه ميّز مراتب ذلك المكتوب وجعل له هيئة وأسلوبًا وأدمج فيه من الانتقال ووشحه بهواتف الفكر والبال . قال ذلك كله في سجع لا يخطىء في تقديرنا التعبير فيه عن حقيقته . ويظهر جليًا أنه لم يقم بعملية بسيطة إزاء هذا الكتاب الذي وجده في حالة إهمال وانخرام في زوايا النسيان ، لانه يذكر أنه اشتغل فيه مليًا قبل تبييضه حتى كان يؤرّقه السهر ويملّ النظر فيه لطول ما يعانيه من جمع وتأليف ـ كما قال ـ لغرائبه وبدائعه ، والعبارتين له . وقد استعمل مرة لفظة التنقيح للإشارة الى مواضع يده في هذا الكتاب . ولا يمكن أن نضع بالضبط حدودًا لهذه الانتقال والتنقيحات إلا فيما يخص الخاتمة التي بيّن في مقدمتها أنها من عمله وزياداته على الكتاب ، وكذلك أسماء العباسيين الثمانية عشر وأطوال مددهم في الحكم . وفيما عدا ذلك يتبيّن حرصه على الامانة في النقل من المسودة عندما نجده يقول في أكثر من موضع «كذا وجدناه في المسودة» أو ما يقرب من هذا التعبير . وقد حصرنا هذه المواضع (انظر فيما يلي ص 713 وما بعدها) . ولم نجد سببًا لهذا التذكير بمهمته في

النقل سوى أنه قد يكون يريد ردّ المسؤولية في صحة ما يستفاد من تلك النقول على عاتق المؤلف الاصلي ، أو ليميّز بينها وبين ما سيتدخل به بعد في السياق . ولذلك نجده كلما عرضت له بعض الصعوبات في تصحيح بعض الاخبار أو الروايات أو ردّها الى مصادرها المنقولة منها يشير الى ذلك بقوله «كذا في المسودة» ، «كذا وجدناه في المسودة» ، «كذا وجدناه غير معزو» ، «انتهى كله من المسودة» . [ومنه يصعب التعرّف على زيادات ابن وادران ما عدا المقدمة والخاتمة التي تحدثنا عنها وبعض الاسطر هنا وهناك التي ليس لها في الكثير من علاقة بما هو تاريخ حقيقة ، من نحو قوله تعليقًا على قول أبي يوسف في الهدية وكيف أصبح الناس يتغالى فيها : «قلت ولعله إنما قال ذلك ليداعب جلاسه أو ليكنّي لهم أن الشركة لا تكون الا في جنس المأكول لا في غيره مما لا يستهلك، فإنّ النفس ترغب في ادخاره ولا سيما في النقود» (22ب) . وورود هذا القول بعد عبارة انتهى التي تحدد نهاية الخبر المنقول توهم أن القول هو قول المؤلف وربما ابن وادران ومثله في 84أ : «قلت وهذا مني على قاعدة فقهية وهي أن العاطس لا يجب تشميته إلا إذا حمد الله ، فلقنه – رضي الله عنه – للتحميد وشمّته» ، ووردت عبارة مشابهة بعد عبارة انتهى كذلك تتعلق بالاختلاف في وفاة موسى الكاظم عليه السلام حيث يقول بعدها : «والاصح أنه سنة ثلاث وثمانين في حبس الرشيد» (36أ) ، وانظر كذلك تدقيقه في وفاة الامين (118ب) : «وذكر الملك المؤيد في مختصره والخطيب في تاريخ بغداد وغيرهما أن قتل الأمين كان لستّ بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة ، قلت : وهنا كلام لمن تأمّل في عباراتهم ، فإنهم يقولون إنّ الأمين خرج لخمس بقين من المحرم ثم يقولون وكان قتله لستّ بقين من المحرم ، وهذا شيء سبقت اليه أفهام النساخ وزعموا بذلك الاصلاح حيث وجدوا أنّ خروجه كان لخمس بقين . ومعلوم أنّ ما بعد الخمسة من الأعداد يكون ستّ إذا سرَدت الاعداد ، فجعلوا قتله كان لستّ بقين ، ولم ينظروا الى لفظة «بقين» وما فيها

من معنى الإسقاط ، لأنه إذا بقي عدد من الشهر ثم جاء يوم وأسقطه أيضًا يكون الباقي أقلّ من العدد الاول كما في هذا ، إنّ خروجه كان لخمس بقين من المحرم ، فليتدبّر وليراجع النقل في ذلك ولا يعوّل على البحث ، فإنه مقام نقل لا بحث» [ويظهر بالمقارنة مع ما هو موجود في الدّر أنه تعليق ابن وادران (أو صاحب المسودة) لأنه غير وارد في الدرّ] . وفي موضع آخر (128ب) يقول : «وأظنّ» . ولعل القائل هو ابن وادران . وفي موضع واحد فقط (219ب) نجده يقول : «نقلته من بعض الخطوط» . (وقد جردنا المواضع التى جاء فيها ذكر المسوّدة ، ص 713) . ومن تحرياته التاريخية ردّ سند الى عبد الله بن المبارك (237أ–237ب . حيث نجد المؤلف يحقق في حديث رؤية ابن المبارك لزبيدة في المنام 237أ–237ب) .

وطريقة جمع أخبار هذا الكتاب (المسوّدة) هي المعهودة غالبًا في مثله من الكتب وهي : «ذكر ، حكي ، نقل ، روي ، قيل» ، بصيغة المجهول .

ونجده يتّبع طريقة تأليف الاخبار مع الاشعار المتصلة بها . وكان معظم المؤلفين يأخذون الأخبار عن الحدث الواحد من جملة مصادر يوردونها بأعيانها مراعاة للاختلافات النصيّة بينهم . وكان هذا شأن الطبري على سبيل المثال ، أما الواقدي وعدد آخر من المصنفين فكانوا يستخدمون للخبر الواحد عدة مصادر غير أنهم كانوا يضمّون الاسانيد في أول الكلام مع عبارة «دخل حديث بعضهم في حديث بعض» .

وليس هناك استطراد كثير في الكتاب ، ولكن وحيثما وقع يعود بنا المؤلف الى ذكر ما كان بصدده ، فيقول مثلاً ولنرجع الى ذكر الرشيد أو الامين أو المأمون . . الخ . انظر 29ب ، 37ب ، 86أ ، 87ب ، 112أ ، 173أ . وربما ندّت عن المؤلف ، أو عن ابن وادران ، بعض الاخطاء الراجعة الى رسم الكلمات ، في 8ب (سدات = سادات) ، 9ب (عمرو بن أبي ربيعة = عمر ابن أبي ربيعة) ، 12ب (العظيمي = العظمي) ، 36ب (الكاضم = الكاظم) ،

131أ (ثم إن أبو السرايا = . . أبا السرايا) وأخطاء أخرى أشرنا الى بعضها في هامش التحقيق (انظر الحديث فيما يلي عن تحقيق النص) مثل «هجى» (35أ) وأصله واوي وكذا جرى وجزى ، فقد كتب الاولى بخلاف الثانية . الورقة 39ب ، قد تكون جاءته من صعوبة القراءة في المسودة أو من أخطاء صاحبها وقلة علمه بأسماء من أخطأ في ذكرهم ، من ذلك ايراده شعرًا «لعمرو بن ثابت» وإنما هو عمرو بن بانة ، و133أ ، ومثله «صريع الغواني» ، في موضع صريع الغواني وهو الشاعر المشهور ، مما يدل على ثقافة المؤلف أو الناسخ المشرقية الضعيفة . وقد لاحظنا عند التحقيق أن جهله بموازين الشعر أوقعه في كثير من الخلط بين الصدور والاعجاز مما كانت تدركه الاذن العروضية لا محالة ، مثل هذا البيت الذي كتبه بصورة واضحة ولكن خفي عليه أنه مكسور وغير متعادل الشطرين :

نادیته من ذا الذي أرجوه لي　　　فرج نادى أنا فرج زن لي كرا بيت

وإنما هو :

ناديتُ من ذا الذي أرجوه لي فَرَجٌ　　　نادى أنا فرج زنْ لي كِرًا البيتِ

وذكرنا فيما بعد ، في فقرة تحقيق النص أننا صوّبناه وغيره دون إشارة أو تعديد على المؤلف لكي لا نشغل القارء عن القراءة المسترسلة (195ب) .

وربما يرجع الى مميزات الكتابة في عصره رسمه «لاكن» كما تلفظ أو من قبيل الاصطلاحات المخالفة للقواعد ونجدها شائعة في بعض العصور . مثل «عفى» عنده بالالف المقصورة دائمًا ، وإنما هو واوي ، و«الغيظ» وما اشتق منه دائما بالضاد على غير الصحيح في المعاجم ، و«ربيع الاولى» في المرات التي ذكرت فيها (343ب) . وله أحوال غريبة أحيانًا في رسم الهمزة مثل هذه الكلمة «سوئني» التي لو لا ورودها في الشعر لعجزها عن التفطن الى أنها ليست غير «سأئني» (61ب) . ووقفنا في هذا الكتاب على أخطاء ربما

عددناها من قبيل كلال الذهن عن التمييز بين الصحة والخطإ والاكتفاء بتصوير ما تراه العين من حروف بعض الكلمات دون فهم ، فلقد أورد شعرًا لابراهيم بن المهدي في رثاء الامين والتشنيع على قاتله طاهر بن الحسين هو غاية في جهل المؤلف بما ينقل أو يكتب ، وكذلك في شعر لخزيمة بن الحسين على لسان زبيدة في الموضوع نفسه ، حتى أن اسم زبيدة كتبه ابن وادران «زهرة» (118أ) ونظرا لفقدان هذا الشعر من الدرّ (انظر عن هذا المخطوط فيما سيأتي) تبدّى لنا كأن صاحب الدرّ تلافى نقل هذا الشعر عندما عجز عن قراءته في المصدر الذي ينقل منه .

ولو لا رجوعنا للتحقيق فيما ينقله من الامهات التي يذكرها لأعجزنا سوء تبييضه للمسودة أحيانًا عن تصحيح كثير من أخطائه . فهل يستطيع الانسان أن يخمّن عن وجه الصحة في قوله نقلا عن المبرد بأن أبا العتاهية كان استأذن في «أن يطلق له ابن مهدي الى أمير المؤمنين في النيروز والمهرجان . . » ، وكلمة «ابن مهدي» واضحة تمامًا وتدفع الى الصحة ، بينما لا وجود لابن مهدي في الخبر ، وإنما هو : «في أن يطلق له أن يهدي . . الخ» (182أ) .

ونحن نعتقد على هذا الاساس أن الكتاب لم يراجعه صاحبه بالكامل بعد الفراغ منه ولم يقع بعده بين أيدي قرّاء متمكنين من التاريخ والعربية ليجروا عليه التصحيحات اللازمة .

وهناك غير قليل من العبارات عنده تسقط من المصادر المطبوعة أو يقفز عليها المؤلفون بسبب غموضها أو بسبب توقّفهم عن قراءتها ، ورغم ما تحدثه أمامنا مواقفهم من تشكيك وتثبيط ، إلا أننا نوفّق في كثير من الاحيان الى حل لغزها وتوضيحها . وفي المرات القليلة نصوّرها كما وجدناها لعناية القاريء . من ذلك مثلا ما يضمره المأمون لطاهر حين قال لمن سأله عن سبب بكائه لـمّا دخل عليه ، قال المأمون : إني ذكرت محمدًا أخي ، وما أناله من الذِلّة ، فخنقتني العَبْرة . وأين يفوتُ طاهر مني . والله لآخذنّه بدم أخي وأين تروح الشمس من

القصّارات !» . فلقد سقطت الجملة الاخيرة «والله لآخذنه . . » الخ . بسبب غموض كلمة القصارات (132أ) ، التي وردت في النص «القصرات» بينما السياق يدل على أنها القصارات أي اللائي يقصّرن الثياب ويطلبن الشمس لذلك . وفي بعضِ المواطن من الدرّ قراءات مضحكة وتكاد تصدّق بينما المقصود خلافها ، من ذلك قول لقمان لولده : «يا بُني إِحذر الكذب ، فإنّه شهي كلحم العصفور !» (120أ) وهو تصحيف واضح لليعفور ، وهو ولد البقرة الوحشية أو التيس من الظباء (149أ) .

ولآبن وادران أو للمؤلف ميل الى كتابة فعل «استوسق» بسين ثانية وهو يريد استوثق وقد صححها في بعض المواضع (130ب) . ومن أخطائه الشائعة إضافة ألف الجماعة في الفعل المفرد «يحلوا» وهو يريد المفرد (85ب) . وهناك أخطاء نحوية واضحة قد يكون مردّها إجراء الكلام على عواهنه في بعض المخاطبات بدون اعراب ، مثل إثبات لام المعتل الآخر في الامر (أدّي ، 136أ) . ولكن نعجب أحيانًا لتكلف الاعراب في «وهو فزعًا مرعوبًا» على غير وجه (81أ) . وقد يدل هذا على ضعف عربية الكاتب الاصلي أو ابن وادران نفسه . والاكثر عندنا ابن وادران ، لأن هذا الضعف يظهر بصورة مؤكدة في العبارات القليلة التي تدخّل بها بنفسه في سياق المسودة وجاءت على قدر كبير من الاخطاء الكتابية ، والاسلوبية ، وخاصة منها قوله ، دون تصحيح من جانبنا هنا للكلمات المسطورة : «قد كنت ليلة الخميس ، ثالث عشر شهر ربيع الثاني سنة **اثنين** وسبعين ومائة وألف اشتغلت بالنظر في هذه المسودّة قبل تبييضها ، وقد أرّقني السهر ، ومللت النظر ، فأخذت مضجعي ونمت . وقد **استغرقت** النوم وإذا أنا بهيئة ، لم **أشعرها** بعد الانتباه ، وكأنّ شخصًا يخاطبني وهو يقول لي : ثلاثة تنزل الرحمة عند ذكرهم ، الحسن والحسين وعبد الله بن المبارك . فانتبهت وأنا أقول ذلك ، **واستيقضت** عند قولي والحسين ، ولم أذكر الثالث الا **يقضة** ، ولم أشعر بغير ذلك ولم أتذكّر الرجل على أيّ هيئة هو ، وقد سررت

بروثيايا والحمد لله» .

ولكن هذا كله لا يقلّل من عمله ، بل بالعكس يجد عمله لدينا أكثر من موضع إعجاب وتقدير ، وسنقف بعد قليل على التناظر بينه وبين صاحب الدرّ الذي قلنا فيما تقدم إنه صاغ كتابه على نحو كتاب ابن وادران ، إن لم يكن كان ينقل منه مباشرة أو من أصل مشترك لهما .

6 - أهمية الكتاب

وهذا اللون من التأليف في أخبار الخلفاء ومن عاصرهم من الأمراء والوزراء والعلماء والكتاب والشعراء ، بطريقة انتقائية لأعيان منهم وبشكل متسلسل كان معروفًا قبل مسودة ابن وادران ، ولكن العناية في عصر مجهول هذه المسودة وعناية ابن وادران بها بعده هو الطريف في الامر ، لانّ المشروع في حدّ ذاته قد يحمل على أكثر من مجرد الاعجاب بقسم من الخلفاء العباسيين ليصوّر مدى ما تمثله الخلافة العباسية في أطوار قوتها ونفوذها من اعتزاز بها في زمن تنكدّت فيه الحياة على ذوي النفوس الأبية بسبب العيش تحت حكومات مقتطعة أو منقطعة عن أمجاد دول الاسلام الكبرى .

كما يثير هذا التأليف لمجرد ضم أخبار الافريقيين من ولاة بني العباس اليه أهمية الدولة الاسلامية قبل أن تتوزعها الخلائف وتكونَ أقصى البلاد كإفريقية تحت حكم سلطة واحدة مركزية وتكون الدولةَ الكبرى في أوج الترابط مع أقاليمها حتى لا تطمع فيها الاعداء . وإن كان هذا الضم للكتاب للأصلي ترك الانطباع لدينا بإمكانية التفكير في نسبة ابن وادران الافريقية .

وقد لا نجد كتابًا خص عمّال بني العباس في افريقية الى نهاية الاغالبة إلا هذا الكتاب ، لأن الكتب التاريخية الأخرى لم تتحر هذا التحديد الذي أملته مناسبة الكتاب ورغبة الربط فيه بين خلفاء بني العباس وولاتهم في افريقية الى حين خروجها من حكمهم . ورغم أن أهميته من هذه الناحية قد قلّت لظهور

مدونات تاريخية أخرى كالقطعة المطبوعة من كتاب الرقيق إلا أن اكتشافه في أواسط القرن الماضي قد قدّم خدمة جليلة للدراسات الافريقية في العصر الاموي والعصر العباسي وخاصة لمؤرخي الدولة الأغلبية التي كانت تعوزهم المصادر المتخصصة . ولم يكن كتاب المختصر لأبي الفدا قد طبع أو الكتب التاريخية التونسية المتأخرة التي أخذت عنه كالحلل للوزير السراج قد طبعت . (والمقارنة بينه وبين الكتاب الثالث من «المونس في أخبار افريقية وتونس» لابن أبي دينار القيرواني حملت شربنو على تقدير أن يكون كتاب المونس مجرد تجميع لما في ابن وادران ، ويمكن المقارنة كذلك بالخلاصة النقية في أمراء افريقية للباجي المسعودي المتوفى 1297هـ/1880م) .

وسواء نظرنا اليه من جهة أخبار الخلفاء الذين يستعرضهم ويستعرض الوجوه المشهورة في عصرهم أو من جهة عمالهم بإفريقية فإن المصادر التي رجع اليها المؤلف الاصلي ـ وبقدْر أقل ابن وادران ـ تضعنا أمام حشد لا مثيل له في المدونات التاريخية السابقة من أسماء الكتب التي استفرغ المؤلف ما فيها في هذا الكتاب ، حتى لنكاد نظنّ أن مؤلفه ما فرط في الكتاب من شيء يتصل بالعباسيين في تلك المراجع . وقد بلغت لدينا في العدّ أكثر من ثمانين إسمًا وعنوانًا. وورغم أن أكثر هذه المراجع معروفة ولكنها ومن غريب ليست المستعملة عادة في التاريخ العباسي ، ربما لانها متأخرة كثيرًا عن العصر وربما لانها منشورة دون تحقيق (من ذلك مثلا كثير مما وقفنا عليه من سوء قراءة فيما نشر من الفرج بعد الشدة وفي بعض الكتب التاريخية . ففي البداية والنهاية في ترجمة مالك بن أنس أنه ابن غيلان ، والصحيح «ابن غيمان» كما ضبطه ابن خلكان) وفهرسة تُيسّر استخدامها ، وربما أيضًا لانها أصبحت في حكم النادرة أو المفقودة . ومن هذه المراجع تاريخ ابراهيم الاشعري وتاريخ العظمي وتاريخ القضاعي وتاريخ البدري وكتاب ابن المتوج في عجائب مصر وكتاب الوزارة لجحظة البرمكي وكتاب الوزارة لابن عبدوس وكتاب مناهج الفكر

للوطواط وغيرها .

وهناك مرجع واحد أثار لدينا عظيم الاستغراب ، وهو نسبة كتاب في التاريخ لابن رشيق القيرواني ، ويظهر أن هذا الخطأ متواتر في التاريخ ، إن لم يكن حقا لصاحب العمدة كتاب حقيقي في التاريخ وليس فقط ذلك الكتاب المشار اليه غالبًا في ترجمته بعنوان ميزان العمل . والغريب أننا نجد أحد كبار المفهرسين وهو حاجي خليفة يسوق في كتابه كشف الظنون ثبتا لـ «تواريخ القيروان» ، منها : «تاريخ أبي علي حسن بن رشيق القيرواني المتوفى 463» وفي موضع آخر يذكر : «ميزان العمل في التاريخ لحسن بن رشيق القيرواني المتوفى 456 ، اقتصر فيه على عدد الايام من دول الملك» ، واختلاف تاريخي الوفاة لا ينفي كون المقصود بهما واحد ، لأنه بالتاريخ الثاني أي 456 يذكر كتاب العمدة وقراضة الذهب وكلاهما لابن رشيق كما هو معلوم . ولا ندري إن كان المقصود كتابين في التاريخ أم كتابًا واحدًا . بيد أن أكثر الباحثين يخامرهم الشك في نسبة كتاب في التاريخ لابن رشيق بالمرة . لكن من المحقق لدينا أن الموضعين أو أكثر التي ذكر فيها نقل عن ابن رشيق يتعلق بالتاريخ لا تخص إلا ابن الرقيق أو الرقيق كما يلقب غالبًا ، صاحب تاريخ افريقية والمغرب المشهور .

أما المصدر الذي يأتي في الطليعة وتقع المراجعة عليه في كثير من مواد الكتاب وعند التحقيق في الكثير من مسائله فهو كتاب الملك المؤيد ابي الفدا المعروف بالمختصر في أخبار البشر (أو مختصر تاريخ البشر) ، المطبوع عام 1325هـ ، والباقي الى الآن دون تحقيق وفهرسة (ويتناول مختصر أبي الفدا التأريخ من عهود ما قبل الاسلام الى سنة 729 للهجرة ، وهو من أشهر التواريخ في عصره ، وذيله كثيرون منهم ابن الورش وابن حبيب الدمشقي وابن شحمة الحلبي . (وأبو الفدا هو اسماعيل بن علي ، الملقب بالملك المؤيد ، من ملوك الدولة الايوبية ، وكان صاحب حماة ، عاش بين سنتي 672 و732/

1273–1331م ، ترجم له في الدرر الكامنة 371/1 ، والبداية والنهاية 158/4 ، فوات الوفيات 16/1 ، طبقات السبكي 84/6 وغيرهم) .

وقريب من نصف ما اعتمد عليه أبو الفداء من الكتب مفقود اليوم ، وبعضها أصول جيدة بالنسبة لما هو مطبوع منها اليوم . يقول في المقدمة : « . . فاخترته واختصرته من الكامل لابن الاثير الجزري من ابتداء الزمان الى 628 هجريا ، تجاريب الامم لابن مسكويه ، من تاريخ أبي عيسى أحمد بن المنجم ، من التاريخ المظفري للقاضي شهاب الدين ابن ابي الدم الحموي في ستة مجلدات . من تاريخ القاضي ابن خلكان المسمى وفيات الاعيان ، من تاريخ اليمن للفقيه عمارة ، من تاريخ القيروان المسمى بالجمع والبيان للصنهاجي (المعروف بابن شداد القيرواني) ، من تاريخ الدول المنقطعة لابن أبي منصور ، من تاريخ ابن سعيد المغربي ، من تاريخ حمزة الاصفهاني ، من تاريخ خلاط . . الخ » .

ومنه أهمية ابن وادران في هذه المبيّضة ، لتصحيحه على النسخة التي كانت بين أيدي المؤلف أو تحت يد ابن وادران من خلال ما نقله عنها في هذا التأليف .

والباب الآخر من أهمية ابن وادران في هذه المبيضة هو احتفاظه لنا بمعلومات هامة وأخبار لا غنى لنا عنها في وقائع غير قليلة من تاريخ العباسيين والمتصلين بهم من العلماء والكتاب والشعراء . ففي غضون هذه المدونة العباسية الهامة التي تضم سير ست من أعاظم الخلفاء من بني العباس والتي تصوّر الحياة في عصورهم في أطرف جوانبها وأكثرها اعتبارًا ووعبرة نجد أخبارًا مهمة لا تكاد تُعرف تفاصيلها ، من ذلك ما يتعلق بالبرامكة وظروف نكبتهم على يد الرشيد ، ومن ذلك أيضًا قيام الدولة الطاهرية في عهد المأمون وما حفّ بها من ملابسات ، نحمد لصاحب هذا التأليف ايرادها وتتبعها . ومن طريف ما تفيدنا به تلك القطعة التي أضافها ابن وادران للكتاب والتي تتعلق بأخبار عمال بني العباس بإفريقية حديثه عن الطنبذي . وهو منصور الطنبذي

الذي ثار بإفريقية على عهد المأمون . فلا نعلم حسب علمنا بأخباره في كتب التاريخ المعروفة من قال لنا من المؤرخين إنه كان مُظاهرًا للامين على المأمون وأن ثورته كانت تتغذي بذلك ومن الفتنة التي كانت بين الاخوين في بغداد وخراسان ، يقول (346أ) : «وكان [منصور الطنبذي] من قواد الجيش وفيه ميل لمحمد الامين . . واستولى على افريقية وبرقة والمغرب كله ودام أمره نحو اثنتي عشرة سنة وآخر الامر انتصر عليه أبو العباس عبد الله [بن ابراهيم بن الاغلب]» . وهنا يلاحظ المترجم (شربنو) انّ المؤلف أخطأ في اسم أبي العباس لأن الثورة وقع الانتصار عليها في عهد زيادة الله الاول (قد يكون الامر مجرد رواية وليس خطأ من المؤلف) . ولا يذكر صاحب كتاب إمارة الاغالبة (ص 170) ميل الطنبذي للأمين (علمًا بأن ابن خلدون الذي نجده ضمن مراجعه أشار الى صلة ثورة الطنبذي بالامين) ولا ينص بالمرة على ابن وادران في هذا الصدد .

ومثل ذلك أيضًا ذلك الاستجواب الهام للمأمون (129أ) حول مشروعية خلافته غير المعروف في المصادر التي بأيدينا ، اللهم خبرًا مشابهًا في ابن بابويه .

ومن المهم جدا الاشارة الى آثار مصر الاهرام والخيل في ابن وادران لطرافتها (245ب وما بعدها) .

أما أمتع ما وقعنا عليه من نوادر هذه المسودة التي أُحسن ابن وادران صنعًا بتبييضها ، فهو عشرات الفقرات التي تصل الى حد العشرين صفحة (220أ–230ب) من كلام سهل بن هارون الكاتب ، المفقودِ كثيرٌ من تراثه في الفلسفيات والموسيقى . فقد أُعثرنا الحظ في هذه المخطوطة الفريدة ، التي أُنقذت من الاهمال والنسيان ، على مباحثة طويلة بين سهل والمأمون عن فلاسفة اليونان وعلومهم في الحكمة والطب والموسيقى ، قد وقفنا عجبًا لفقدها في معجم ابن ابي أصيبعة والقفطي ، وكذلك في ابن فاتك ممن ترجموا لأولئك الاعلام من الإغريقيين ، الذين ذكرهم سهل في مباحثته مع المأمون ، وإن كان قد يقلل منها قول ابن

وادر نا: «والظاهر أنها ليست جميعها مخاطبة سهل للمأمون وإنما أدخل فيه كلام غيره مع عدم تبيّنه والله أعلم» (230ب) . (وسنجد نص هذه المباحثة وبصورة أكمل من حسن الحظ في الكتاب المنقول عن مصدر مجهول أيضًا ـ لعله أصل ابن وادران أو مسودّته كما قلنا ـ وهو كتاب الدرّ) .

ويمكن أن نكتشف أشياء أخرى جديدة بالنسبة لمعلوماتنا التاريخية غير ما ذكرنا ، من ذلك نص منقول من الرقيق يؤكد صحة الكتاب المطبوع للرقيق وهو خبر روْح (تاريخ افريقية والمغرب ، ص 172 . وقارنه بما في ابن وادران و355ب) . وأخبار عريب التي قد يكون أوردها ابن المعتز في طبقاته ليس منها شيء يذكر في الطبقات المطبوع بالقياس الى ما هو منقول عنه في هذا الكتاب بل لعله منقول من كتاب آخر لابن المعتز ضائع الآن هو «الجامع في الغناء» .

ومن تحرياته التاريخية ردّ سند الى عبد الله بن المبارك (حيث نجد المؤلف يحقق في حديث رؤية ابن المبارك لزبيدة في المنام 237أ–237ب) .

وهناك نصوص عديدة من الفرج بعد الشدة للتنوخي تنقص أو تختلف عن طبعته المعروفة وتتمايز ـ فيما يظهر من بعض المقارنات ـ عن نسخته المخطوطة في مكتبة باريس (انظر من ذلك الورقة 133ب وما بعدها وقارن رواية التنوخي هنا وفي كتاب سوردال على مخطوط باريس في ص 220 ذكر فيه حكاية ابن عبدوس ، و135ب الخ) .

وأطول حكايات الفرج بعد الشدة (98–102) محشورة بالاخطاء المطبعية مقارنة بنصها هنا .

وهناك قصة طويلة في الفرج بعد الشدة غير موجودة في المطبوع منه (انظرها في 133ب) ، وأخرى كذلك (انظرها في137ب) ، وأخبار أخرى فيها معنى الفرج بعد الشدة ومنقولة عن التنوخي وليست في كتابه المطبوع (انظرها في 149أ و258ب و308أ) .

وعندما ينقل مؤلفنا عن التنوخي يميّز أحيانًا بين كونه ينقل من كتابه الفرج بعد الشدة وبين كونه ينقل من كتاب له غيره فيما يظهر في ص 22أ .

ومن المخطوطات التي فقدت بالنسبة لنا الآن والتي كانت بين أيدي مؤلفنا نسخة منها أكمل ، أو بين أيدي من نقل عنه ، كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان . ففي التحقيق الاخير المنشور من هذا الكتاب خطأً عجيب في ترجمة موسى الكاظم : حيث قال له المهدي : «فتؤمّنني على أن لا تخرج عليّ أو على أحد من أولادي . فقال : والله لا فعلت ذلك ولا هم من شأني !» نجدها في التحقيق المذكور للدكتور إحسان عباس بحذف «على» و«لا» النافية . (انظر أخبار موسى الكاظم في 35ب وما بعدها) .

وهي أكمل أيضًا من المطبوع بدليل ما جاء في ترجمة عبد الله بن المبارك (84أ–84ب . راجع ابن خلكان 629/8) .

وهي أدق من المطبوع كما تبيّنه لنا أيضًا بعض الامثلة ففي حديثه عن مآثر أبي دلف ذكر مدينة الكرج التي أتمها بعد أبيه ، وتهجّى بالعبارة حروفها (بفتح الكاف والراء وبعدها جيم) استنادًا الى ابن خلكان بينما هي بالخاء في الوفيات (77/4 ، طبعة د . إحسان عباس) ، في التباس واضح بينها وبين الناحية المسماة الكرخ من بغداد (262أ) .

ومما يلاحظ على مؤلفنا أنه لا ينقل دون تصرف . مثلاً في خبر الفتنة بين اليمنية والمضرية بدمشق في أول خلافة الرشيد نراه يقدّم السبب على النتيجة ، ص 12أ .

كما يجب التنويه هنا بقدرته على المقارنة بين الروايات التي ينقلها (و136أ مثلا) وعدم إهمال التباين بينها . وإذا اتحدت روايتان أو أكثر إلا يسيرًا من الاختلاف في العبارة ذكَر ذلك ووقف عنده . وكذلك التنويه بتصحيحه بعض التواريخ المرجوحة (حيث نراه بعد النقل عن ابن خلكان يأتي بتاريخ مغاير ويقول الاول أصح . 285أ) .

ويمكن أن نفتقد عنصر التاريخ بمعناه الدقيق لرجال هذه الفترة وأحداثها الكبرى والمؤثرة ، ولكننا لسنا في الحقيقة بإزاء كتاب تاريخ ، بقدر ما نحن أمام لون من التأليف الأدبي القريب الى الامتاع والاثارة الفكرية المتنوعة . وهي لوحات ومشاهد مقصودة لذاتها ، أي مقتطفة من سياقها دون تمحيص إخباري دقيق كما يريد ابن خلدون ، لأن الهدف منها ليس التاريخ بقدر ما هو نقل انطباع مستحسن أو مستهجن عن الاشياء والاشخاص . فهو غرض أدبي لوحده . ولا يمكن أن نقلل من أهميته لمجرد خلوّه من التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي كما نقول اليوم لهؤلاء العباسيين الذين يعنون الكِتاب بهم نفسه . فهناك مدونات تاريخية أخرى يمكن أن تكمّل الصورة التي نفتقدها في هذا الكتاب عن شخصية الرشيد أو الامين أو المأمون أو المعتصم في جوانب عظمتها الأخرى أو ضعفها الأخرى .

ومطالعة هذا الكتاب اليوم قد لا تفيد تاريخًا كثيرًا بالمقاييس الموضوعية ولكنها تفيد بالمقابل أدبًا جمًا ولغة ثرية غنية متنوعة استغرقت مختلف ألوان التعبير عن أغراض الحياة والدين ومجتمعات الحكم والسياسة واللهو والطرب والنساء والمرافق العامة في البادية والحضر . وهي مفردات ومصطلحات نفتقد اليوم الكثير منها على لساننا للتعبير بها عن نفس الاغراض أو ما يشبهها أو يقوم مقامها ، بسبب التياث لسانها باللسان الاجنبي وسبقه الى مفرداته دون مفرداتنا العربية الاصلية ، جهلا منا بها أو لقلة جريانها على مخاطباتنا . ولذلك ففي إحياء هذا الكتاب ونحوه إحياء لها ومقاومة لحركة التغريب التي نعاني منها الى الآن . وتلك الكتب القديمة المؤلفة بأسلوب عربي أصيل ولغة هي لغة الناس في ذلك الوقت ، دون عجمة غالبة ودون حصر في ألسنة أقوامها بسبب غلَبة أجنبية أو هُجنة لغوية أو انقطاع عن الأصول والتراث هي الكتب المفتقدة اليوم في مطالعاتنا ، ولكنها هي المفيدة اليوم لإعادة لساننا سليقتَه القديمة وتزكيته بمواد لغته الجديدة التي بإمكانه أن ينسج أكثر مفرداتها من مدوناتنا القديمة .

فالمطالع لهذا الكتاب يجد هذه المتعة بلغته عندما يصادفها على لسان أكثر المتطبّعين بها تجري كالماء الرقراق لا تتعثر في شيء أو تفتقد المعنى لشيء ، أقصد أو تفتقد العبارة لشيء من أغراض حديثها وخطرات بالها ، صغُرت ما صغُرت أو كبرت ما كبُرت .

وهو وإن كان فيه ، كما أشرنا ، من الحكايات والمخاطبات ما يخدش عادة الحياء بين عامة الناس ، إلا أنه ليس مما يمنع تداوله في المقامات الخاصة للطرافة وطلب الضحك . ولم يتأخر قديمًا ابن منظور عن تدوين أخبار أبي نواس على منافاة ما فيها للآداب العامة ولا تورّع الشيخ ابن عاشور حديثًا من نشر أشعار بشار على سوء ما فيها على الاخلاق والدين ، ولا تحرّج السابقون من المحدثين عن مرويات كثيرة من الاحاديث والآثار التي ربما تأفف بعض الناس اليوم من سماعها فضلا عن نسبتها اليهم . وربما كان يقال بكل أدب : لا حياء في الدين ولكن ربما كان ينبغي أن يقال كذلك بكلّ دين : لا حياء في الادب !

ويظهر أن مؤلف الكتاب أو مبيّضه ، لم يكن أحدهما أو كلاهما يتحرّج من هذه الاخبار الشنيعة ، بل ربما أوحي لبعضهما أن يصفها باللطايف ويزوقها بالحبر الأحمر والقلم الغليظ ليُعْلِمها في كتابه (انظر اللطيفة ـ كما يسميها ـ في ص 339ب) .

7 – من هو ابن وادران

سمّى ابن وادران نفسه في هذه المخطوطة مرتين بما لا يزيد عن الاسم واسم الأب واللقب ، وهو حسين بن محمد وادران . جاء ذلك في مقدمة التبييض وجاء ثانية في آخره . غير أننا في غضون الكتاب نجده يذكُر نفسه عرضًا في أثناء حديثه عن تنزّل الرحمة عند ذكر المحدّث الكبير عبدالله بن المبارك ، يقول : (84أ) : « . . . وروي أنه عند ذكره (يقصد عبدالله بن المبارك) تَنْزِل الرّحمة . قال فقير الديّان حسين بن محمّد بن وادران : قد كنت

ليلة الخميس ثالث عشر شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف اشتغلت بالنظر في هذه المسوّدة قبل تبييضها وقد أرّقني السَّهَر ومللت النظر فأخذت مضجعي ونمت وقد استغرقتُ النوم وإذا أنا بهيئة لم أشعرها بعد الانتباه وكأنّ شخصًا يخاطبني وهو يقول لي : ثلاثة تنزل الرحمة عند ذكرها ، الحسن والحسين وعبدالله بن المبارك . فانتبهت وأنا أقول ذلك واستيقظت عند قولي والحسين ولم أذكر الثالث الا يقظة ولم أشعر بغير ذلك ولم أتذكّر الرّجل على أيّ هيئة هو ، وقد سررت برؤياي والحمد لله» . فهو هنا يتبرك باسمه حسين دون ما يفيدنا أنه ينزع نزعة شيعية .

وقد قلنا إنه بتفكيره في إلحاق تراجم عمال بني العباس بإفريقية بالكتاب قد يدلنا على إفريقيته ؛ وإن كان خلطه في نسبة كتاب قطب السرور لابن رشيق يشككنا في الامر ، الا على فرض معرفته غير الدقيقة بعلماء القيروان ، أو على فرض أن يكون ذلك مجرد وهم منه أو من صاحب المسودة . وقد تكرر . ولم نستبعد على أساس ذلك عدم سبق اشتغال ابن وادران بالتاريخ قبل هذا الكتاب ، ولو كان ممن يتعاطون هذه الصناعة تطفّلا لكان تجرأً على استفراغ الكتاب في صياغة نَحَلها لنفسه دون تعييب أحد عليه كجلّ المؤرخين . وربما تدلنا كلمة قالها في حديث تشميت العاطس وما يجوز فقهيا في حالة نسيانه التحميد أنه من أهل الفقه أكثر منه من كتّاب التاريخ (84أ) .

كما قد تدلنا عنايته بالحساب بمناسبة تدقيقه في مقتل الأمين (118ب) وكذلك تأريخه بطريقة كسرية ملغزة للفراغ من كتابه (353ب) على فطنته فيه . فإن من يقرأ مثل هذا الكلام يقف على رجل لا يخطئه وجه الصواب في الاعداد ، فهو يقول : «وذكر الملك المؤيد في مختصره والخطيب في تاريخ بغداد وغيرهما أن قتل الأمين كان لستّ بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة ، قلت : وهنا كلام لمن تأمّل في عباراتهم ؛ فإنهم يقولون إنّ الأمين خرج لخمس بقين من المحرم ثم يقولون وكان قتله لستّ بقين من المحرم ، وهذا شيء

سبقت اليه أفهام النساخ وزعموا بذلك الاصلاح حيث وجدوا أنّ خروجه كان لخمس بقين . ومعلوم أنّ ما بعد الخمسة من الاعداد يكون «ستّ» إذا سرَدت الاعداد ، فجعلوا قتله كان لستّ بقين ، ولم ينظروا الى لفظة «بقين» وما فيها من معنى الإسقاط ، لأنه إذا بقي عدد من الشهر ثم جاء يوم وأسقطه أيضًا يكون الباقي أقلّ من العدد الاول كما في هذا ، إنّ خروجه كان لخمس بقين من المحرم ، فليتدبر (في الاصل : فلتدبر) وليراجع النقل في ذلك ولا يعوّل على البحث ، فإنه مقام نقل لا بحث» . والعبارة الاخيرة في هذا الكلام تدل على أن المتكلم هو ابن وادران لا المؤلف الاصلي .

أما تفضيله لطريق الكسور الملغزة لتأريخ الفراغ من تبييض الكتاب ، وهي قوله : (364ب) «ووافق الفراغ من تبييض هذا الكتاب في أول جزء من نصف السدس الخامس في أوّل سبع من السبع السابع من الخمس الخامس من السدس الخامس من الربع الثالث من الثلث الثاني وهو ثاني الخمس الاول من العشر الثامن من ثاني السدس السادس من الهجرة النبوية» ، فإنها لا يمكن أن تدل إلا على رجل من الحذاق في عمل الحساب ، وربما رجل من أصحاب التقاويم والرياضيات . وليس بغريب إن كان فقيها أن يكون كأغلب الفقهاء على علم جيّد بالحساب للحاجة اليه في الميراث والمقاسمات .

ومن المعلوم أن هذه الطريقة لتأريخ الاشياء قد لا تختلف في الغرض منها عن الطريقة الاخرى القائمة على حساب الجمل وهو ضبط التاريخ بالحروف استنادًا على اعدادها الاصطلاحية في جدول الابجدية . وما عمد اليه ابن وادران قد يكون لجأ اليه لضبط تاريخ لا يريد أن يعتوره التحريف . ونجده على اهتمام ومعرفة دقيقة بأصول التاريخ بالحروف الابجدية في الموضع الذي يقارن فيه بين تاريخ ذكره بعضهم لوفاة الامام مالك والتاريخ الذي ضبطه بالحرف شعرًا الشيخ أبو مهدي الثعالبي الجزيري ، الورقة 18أ .

ولم نقف على أصل لما ذكره شربنو من أن ابن وادران كان يتولّى خطة

الوزارة في فاس بُعيد وقت من حكم الاغالبة (انظر مقدمة الترجمة) . ولعل أول من صحّحه هو 'أماري' في المكتبة الصقلية بصدد ما نقل منه عن هذا البلد ، فقد أشار في تعليق له نقلا عن ابن أبي الضياف أن ابن وادران الذي ذكر اسمه بالكامل كان يعيش في منصف القرن الثامن عشر . وبروكلمان الذي أشار الى ما نشره شربنو من ابن وادران اكتفى بوضعه في القرن الثامن عشر (.GAL, S II, 689) دون ذكر المصدر ودون إشارة الى مكان وجود مخطوطه . وهو ما أوقع الاسف لفقدة عند بعض الباحثين المتأخرين (انظر الطالبي ، إمارة الاغالبة ، ص 170) . ولكن كيف غاب عن شربنو أن يفحص سرّ التاريخ الذي ذكره ابن وادران في آخر الكتاب بطريقة ملغزة ، أو كيف لم يهتد الى إشارة المؤلف في موضع داخل الكتاب الى تاريخ تبييضه للمسوّدة . هل تكون القطعة المتعلقة بأخبار الاغالبة هي كل ما وقع بيده من الكتاب ؟ ذلك هو الاحتمال الاقرب . (انظر ما تقدم ص 10) .

والطريف في شخصية ابن وادران أنه لم يتعفّف عند تبييض الكتاب مما يتعفف من ذكره عادة كثير من المتشددين ، نقصد ما وجده في المسودة من الاخبار والنوادر والاشعار من جنس تلك التي أقل ما يقال فيها أنها لم تكن لتمرّ تحت قلمه دون تحوير لو كان من أولئك الفقهاء المتزمتين . وقد أشرنا الى ذلك سابقًا . فيظهر أنه كان من أقلّ أهل زمانه تحرّجًا في رواية الاخبار بنكهتها الاصلية دون تشذيب فيها لتشدّدات أخلاقية . فقد كان كما يقال عن مثله رجلا واسع العَطن كثير التقبّل لملح القدماء وممازحاتهم الأدبية . ولا يمكننا الا أن ننوه بأمانته في النقل . ولا ندري إن كان ينبغي ردّ هذه الميزة الى صاحب المسودة قبل ابن وادران أم اليهما جميعًا .

ومن جوانب الطرافة الأخرى في الكتاب ، ذلك اللغز المحيّر عن تاريخ الفراغ منه . فنحن نجد أنفسنا أمام لغز من أشد الالغاز تعقيدًا . وهو مبني على كسور رياضية متعلقة بمجهول . وكان لا بد لمحاولة حل ذلك اللغز من الرجوع

الى المؤلفات التي عالجت هذا الفنّ . وهو فن يظهر أنه ازدهر في عصر ابن وادران فضلا عن العصور المتأخرة ، طلبًا للتأنق في التأليف أو بحثًا عن الابتداع والتجديد . ونجد أصول هذا الفن مبسوطة في كتاب مفتاح السعادة لطاش كبري زاده (المسمى : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، طبع حيدر آباد الدكن، 1329 ، 224/1 – رقم 35) وفي كتاب : تسهيل المجاز الى فنّ المعمّى والالغاز لطاهر بن صالح الجزائري ، دمشق ، مطبعة ولاية سورية 1303 ، ص 128 (ذكر فيه الكتب التي وضعت في هذا الفن بالفارسية والتركية والعربية ، وعليه نقد في المقتطف 18/(1889) : 253 . وانظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مقال «المعمى» ص 658 ، لمحمد بن شنب) .

ولما كنا لم نتوصل الى ترجمة لابن وادران في المظان المعروفة ، فقد فضلنا الاشارة فيما يلي الى أكثرها لتجاوزها هنا والبحث فيما عداها ، وهي : الاعلام للزركلي ، معجم المؤلفين لكحالة ، هدية العارفين للبغدادي ، كشف الظنون لحاجي خليفة ، فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، تاريخ المؤلفات الاسلامية لفؤاد سزكين ، تكميل الصلحاء للكناني ، المؤرخون التونسيون لعبد السلام ، تراجم أعيان القرن التاسع الى القرن الرابع عشر الهجري لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لابي الفضل محمد خليل المرادي ، طبع القاهرة 1292هـ/1301م .

وتجدر الاشارة أخيرًا الى ورود الاسم «وادران» علمًا على موضع في العهد الحفصي . وهو الى الآن اسم لأحد الاودية الجارية بتونس الوسطى .

ولذلك قدرنا تونسيته اعتمادًا على دراسة اسمه وتفسيرًا لعنايته بالاغالبة في كتابه .

أما شربنو الذي يعود اليه فضل الكشف أولا عن أهمية ابن وادران من خلال نشر ترجمة لأخبار الاغالبة فيه ، فنخصّه هنا بكلمة .

ومن عجيب أنه لا أثر اليوم لنسخته التي اعتمد عليها . ولو لا عثورنا على أصل ابن وادران لكان الاسف عليها وعلى الكتاب مضاعفًا . ويلاحظ أن شربنو نشر هذه القطعة عن الاغالبة من ابن وادران لأول مرة . وكأنه يشير الى أنها أول نص يظهر عن الاغالبة على غاية من الأهمية مع أنه لا يشير الى سلفه نوال ديفرجي Noel Devergers الذي نشر تاريخًا للأغالبة بباريس 1841 وأعاد نشره أماري في مكتبته العربية الصقلية ص 464 وما بعدها .

وشربنو ، ويدعى جاك أوقست شربنو (1813–1882) ، مستشرق فرنسي عاش قسمًا من حياته في الجزائر ، وشغل أستاذ كرسي العربية بقسنطينة ، من آثاره في المجلة الآسيوية تاريخ العباسيين (ويظهر أنه مختارات من ابن الطِّقْطقَى) ، باريس 1852 والقطعة المترجمة عن الاغالبة من كتاب ابن وادران ، منشورة بباريس 1853 (وفي مكتبة أماري نجد ترجمة شربنو للأغالبة واقعة تحت : ابن وادران ، تاريخ تونس . .] M. Amari, Biblioteca, al-bab as-sabi' wa l-hamsun min Tarih Tunis, pp. 540-4; traduit par Cherbonneau sous le titre Précis historique de la dynastie des Aglabites. Paris (s.d.) in 8 (extrait de la Revue de l'Orient, de l'Algérie et des colonies. Déc. 1853 pp. 1-44] .

وانظر (Chauvin, Biblio., I, 112, 111. . نقلا عن نجيب عقيقي ، المستشرقون 198/1 . وانظر عنه آداب شيخو 146/2 مكرر ، ومعجم المطبوعات ، 1108.

وشربنو هو نفسه صاحب ترجمة ابن حماد عبد الله بن محمد بن علي ، بعنوان وثائق لم تنشر عن عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية ، باريس 1855 .

وإذا قلنا إن ابن وادران من صغار المؤرخين أو من أغفالهم ، فماذا نقول عندما نفكر في إهمال مخطوطه من كتب الفهارس قبل افتقاده من مكتبة جامع الزيتونة ؟ فلم تذكر تلك المعاجم اسمًا لمخطوط بعنوانه أو قريب من عنوانه يدلّ

عليه . فهل يكون المؤلف الأصلي هو أيضًا من غير مشاهير الاعلام ، فنُسي ذكره بمناسبة كتابه هذا وهو مسوّدة أو ما قد يكون من كتب أخرى له معلومة . الواقع أن الذين نعرفهم ونفتقد كتبهم في التاريخ ـ وأحيانًا نعرفها بأسماء عامة أو مختصرة ـ لم نستطع أن نخمّن من بينهم من يمكن أن يكون صاحب مسوّدة ابن وادران .

8 – مخطوط الدرّ وعلاقته بالمسوّدة

ومنذ القرن الثالث ونحن نجد في الواقع أسماء كتب كثيرة متشابهة في صيغتها تشابهًا يصل أحيانًا الى حدّ انطباق الحافر على الحافر . وإذا كان كتابنا هذا في أخبار الرشيد وولده لمجهول ، فلمجهول آخر كذلك من القرن الثالث كتاب بعنوان «أخبار العباس وولده» (انظر : أخبار الدولة العباسية ، وفيه أخبار العباس وولده لمؤلف من القرن الثالث الهجري ، عن مخطوط فريد من مكتبة مدرسة أبي حنيفة ، بغداد . تحقيق د . عبد العزيز الدوري ود . عبد الجبار المطلبي ، بيروت 1971 . يقول د . الدوري إن مؤلف هذا الكتاب له علاقة بكتاب تاريخ الخلفاء الذي نشره غريازنيويج . وتجدر الاشارة هنا الى كتاب «الاصطفاء في أخبارالخلفاء» لأبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري (مخطوط لغاينج M. de Gayanges) ، وكذلك كتاب العمراني ، «مختصر تاريخ الخلفاء» (مخطوط ليدن رقم 595) . وفي فانيان (Fagnan) ، فهرس مخطوطات الجزائر ، إشارة تحت رقم 1587 الى مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس بعنوان تاريخ العباسيين مجهول المؤلف (Cat. Fagnan) [(Ce ms. est décrit dans Diversions, presented to The participants in the 29th Inter. Congess of Orientalists, où sous le n° 23 on lit "unidentified work on the History of The Abbasids, propably part of a bigger Historical text identical with ms. Algiers 938-439)] .

ومضينا في البحث في فهارس المخطوطات المجهولة المؤلف الى أن وقفنا على مخطوط غريب في بابه ، وصفه Roy (روا) في مستخرجاته من دفاتر مخطوطات جامع الزيتونة تحت عدد 4816 (Roy (B), Extraits du catalogue des manuscrits et des imprimés de la Bibliothèque de la Grande Mosquée de Tunis. (Histoire) avec la collaboration de Mhammed bel Khodja et de Mohammed el Hachaichi, Tunis, 1900) ووصفه بأنه : «مخطوط مجهول المؤلف ، في دولة الرشيد وأبنائه الى 247 هـ/861م أي الى آخر خلافة المتوكل (الذي جعله مخطوطنا المنسوب لابن وادران يتوفى في 248هـ) .

وهو نفس المخطوط المذكور في فهرس مخطوطات الاحمدية ، لعبد الحفيظ منصور ، بيروت 1969 ، ص 395 : «المختار في الدرّ المكنون المنتظم في أخبار الرشيد وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم» (ذيل كشف الظنون ج 447/2) ، بالرجوع الى هذا المخطوط (المحفوظ في دار الكتب الوطنية تحت رقم 4816 أحمدية أو 13337) للمقابلة بينه وبين ابن وادران ، تبيّن أنه يكاد يكون نسخة مطابقة للأصل ، أي لابن وادران المبيّض ، وإن بقليل من الاختصار وبشيء من التقديم والتأخير واختلاف في التبويب والعناوين . فجعلنا هذا التشابه الكبير نفترض عدة افتراضات ، منها وأقربها الى الاحتمال أنه قد يكون مخطوطُ مجهولِ ابن وادران وقع في يد بعض المختصرين ، فانتخب منه ما سماه بـ «المختار من الدرّ المكنون المنتظم في أخبار الرشيد وأبنائه . . » . أو لعل صاحب المختار من الدرّ . . هو الآخر حصل له ما حصل لابن وادران ـ أو ما سيحصل لابن وادران ـ من عناية بالمسوّدة وقيام بتبييضها . وقد تكون وقعت المخطوطة لهما بطرق مختلفة ، ودون علم أحدهما بالآخر ، أي المتأخر منهما بالسابق .

وهو ما جعلنا نتخذ هذا المخطوط الجديد الذي اكتشفنا علاقته الحميمة بمسودة ابن وادران ، أو بالأحرى بمبيضته ، أساسًا لعملنا في تحقيق الكتاب .

وقد فعلنا ذلك بكل حرص لما كنّا نشكوه من توقّفات كثيرة فيه بسبب الخط أو النقص ونحو ذلك . فخرجنا بالنهاية بتحقيق مخطوطين ، مخطوط ابن وادران ومخطوط الدرّ ، كما سنجري في تسميته اختصارًا .

* * *

كتاب المختار في الدرّ المكنون المنتظم في أخبار الرشيد وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم

لقد اعتبرنا هذا المخطوط الذي تقدمت الاشارة الية بمثابة النسخة الثانية المعتمدة لدينا لتحقيق ابن وادران . ولذلك لزم هنا وصفه بدقة والحديث عن مميزاته .

أولا : قد يكون عنوان صاحب «المختار» لا علاقة له بالعنوان الاصلي للمخطوط الذي قد يكون مفقودًا منه أو بدون عنوان . ومؤلف المختار مجهول هو أيضًا مثل مؤلف المسوّدة لابن وادران ، غير أنه بالرجوع الى آخر من يذكرهم في كتابه من المؤلفين ، وهو السيوطي (911هـ) يمكن التقدير بأنه كان يعيش على الاقل في القرن العاشر (لا القرن التاسع ، كما ذكر في الفهرس) . على أنه ليس من المستبعد أن يكون معاصرًا لابن وادران أو عاش بعده . وهناك إشارة قد تقرّبنا من عصره على وجه أفضل ، وهي عدّه (ص 8أ) أبا مهدي عيسى الثعالبي الجزيري (المعروف زمنه في القرن الحادي عشر (1020-1080هـ/1611-1669م نشأ في الجزائر ورحل في طلب العلم واستقر بمكة وتوفي بها . انظر ترجمته في الاعلام للزركلي ، ط . 7 ج 5 ص 108) من مشائخ شيوخه ، في حين جاء ذكر هذا الاسم تحت قلم ابن وادران دون تنصيص على المشيخة له عليه (ص 18أ) . لكن هذه الاشارة قد تكون متعلقة بالمؤلف الاصلي أي بصاحب المسوّدة ولذلك أُسقطها ابن وادران تجنبًا للبس . وما أكثر ما وقفنا عليه من اللبس هنا وهناك ، وخصوصًا عند كلّ تعبير عندهما بـ «قلت» ونحوها .

والمخطوط لا يحمل تاريخًا بالمرة ، وكتابته تونسية أو مغربية عمومًا ، مقاسه 29 x 19 ، عدد أوراقه 242 ، مسطرته 29 سطرًا بالصفحة . ويبدو خلافًا لاسمه أنه أكثر من اختيار من كتاب أصلي . مما يسمح لنا بتقدير كونه أصل مسودّة ابن وادران . ومؤلفه أحرى بصفة الناقل منه بأي اسم آخر وإن كان يسمى نفسه في موضع من كتابه باسم «جامع» : «قال جامعه غفر الله عنه» (84أ) فهل تكون هذه المسوّدة خضعت لاستغلال مشترك منه ومن ابن وادران وربما من مؤلفين آخرين متأخرين زمنًا .

وحتى الفصل الخاص بعمال افريقية في العهد العباسي نجده مشتركًا بينهما ، رغم اختلاف قليل في تراجم بعض أمراء الاغالبة ، ومع هذا الفارق الغريب أيضًا وهو أن صاحب المختار ينهى النقل بإشارة الى مصدره ، وهو ابن خلدون خلافًا لابن وادران الذي نبّه الى أنه صحح أخبار ولاة العباسيين بإفريقية من مصادر عديدة (انظر ص 353أ) . وأظهر نقط الاختلاف بينهما هي خبر منصور الطنبذي الذي يجعل ابن وادران الانتصار عليه لأبي العباس ، ويجعل صاحب المختار الانتصار عليه لزيادة الله الاغلبي . (انظر التعليق على ذلك في النص ، ص 643أ) .

ويفتقر المختار الى ذلك الجدول الذي بسطه ابن وادران في أسماء خلفاء بني العباس ومُددهم اختصارًا . . وتمتاز مخطوطة المختار على ابن وادران بتشكيل الكثير من كلمات شعرها وعديد الاسماء والمواضع الصعبة ، ولكنها أكثر اختصارا في بعض المواضع منها ، وخاصة في الشعر .

يبدأ صاحب المختار كتابه بقوله : «هذا كتاب جمعت فيه ما وقفنا عليه من فضائل بعض الخلفاء ومحاسن الظرفاء وفضائل الاولياء والعلماء ووشحته بأشعار غريبة وحكايات عجيبة وسميته المختار من الدرّ المكنون المنتظم في أخبار الرشيد وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم ورتّبته على أربعة أبواب والله المستعان وهو الكريم الوهاب» . لكن الملاحظ أنه بعد الباب الرابع نجده تحت عنوان

«تكميل وإيضاح» (200ب) يقول : «لما تولى الواثق الخلافة أصرّ أيضًا على ما كان عليه أبوه وعمّه المأمون من القول بخلق القرآن ثم إنه توقّف حتى جاء الامر الى المتوكل فأبطله ورفع المحنة على العلماء من البدعة والقول بخلق القرآن وأظهر السنة ، وسنذكر إن شاء الله نبذة من أخبارهما وما وقع في أيامهما» ويمرّ مباشرة الى «ذكر خلافة الواثق . . » ويستطرد قبل أن يتم الكلام عليه الى ذكر أخبار ولاة افريقية في عهد العباسيين بقوله (ص 202أ) « فصل ، ولما آل بنا الغرض الى هنا نذكر الآن من دخل افريقية من أمراء بني العباس ونسرُد أسماءهم على الوّلاء من غير إطناب والله الموفق للصواب . . » ويعود الى الواثق لذكر وفاته في ص 217ب ، ويختم كتابه بذكر خلافة المتوكل (219ب-243ب) الذي يجعل وفاته خلافًا لابن وادران ــ كما قلنا ــ في سنة 247 (861م) وفي الآخر يقول : «انتهى ما أردنا جمعه من الدرّ المنتظم في خلافة هارون وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم بحمده وتوفيقه (ودعاء)» (و243ب) .

و«المختار» كما يدل اسمه قد لا يعدو اختصارًا لمصدر مطوّل ليس ما يدل على أن مجهول ابن وادران عوّل على النقل منه مكتفيًا ، لما تدل عليه نقوله الكثيرة المباشرة من مراجع مختلفة . فإذا كان «المختار» ينقل من أصل ابن وادران ، فالفضل لابن وادران دونه ، لأنه ينقل لنا المخطوطة كاملة ، أو بعبارة أخرى لأنه احتفظ لنا بكامل مسوّدة المجهول .

وفي التراث كتب كثيرة فُقدت أُصولها المطوّلة وبقيت لنا في مختصرات كالتاريخ الكبير لابن عساكر . فليس معروفًا منه الا أجزاء قليلة وبها نقص لو لا ما نشر من تهذيب الشيخ بدران له ومختصر ابن منظور منه . ويذكرنا صاحب المختار وكذلك ابن وادران بالمقريزي (-845) على شهرته ، فإن خططه ليس إلا مسوّدة الأوحدي (-761) في خطط القاهرة ، نقلها وزاد فيها زوائد غير كثيرة .

ويتميز الدرّ عن ابن وادران بإبراز تتبعه لذكر ما يقع من حوادث السنين

والوفيات فيها ، ويعنون بفصول لذلك (انظر مثلا 92أ و93أ) ، وهو أمر لا نجده إلا قليلا في ابن وادران ، ويكاد يكون عرضًا ، لا انتظامًا مثل ما يفعله الدرّ (وذكر السنين وما حدث فيها من الوفيات جعل الدرّ يحيل عند ذكر زيادة الله (204ب) على ما ذكره في موته في 184أ) . ويتميّز كذلك بتكرار بعض الاخبار دون تفطّن لها فيما يظهر . وهو أمر اجتنبه ابن وادران أو وقع فيه استدراكًا أو على سبيل الاحالة . ويتميز كذلك بشيء من التقديم والتأخير في الاشعار في بعض المواضع وباختصار فيها في بعض المواضع ، ونجده في حالة بعض تراجم الصالحين وأخبارهم يعلل ذلك بقوله (في 41أ) : «قلت وقد كان ينبغي لهذا الفصل أن يجب تقديمه ويتوجه تعظيمه لكن جعلناه طبق حلواء ، كتأخير الطيّب من الاشياء . . الخ » .

ونجده كذلك يطنب في أخبار بعض أصحاب التراجم الذين يعرض لهم أكثر من ابن وادران . وقد يعلل ذلك كما قال في ترجمة الشافعي : «وفضائله أكثر من أن تعد ومناقبه أجل من أن تحصى رضي الله عنه ، وقد ذكرنا نُبذًا منها في هذا الكتاب رجاء بركته وطمعًا بأن يحشرنا في زمرته مع النبيئين والصدّيقين والشهداء والصالحين» (89ب–90أ) .

وقد أطال الدرّ في ترجمة الشافعي وأصحابه أيضًا (انظر الاقوال الكثيرة فيه لابي يوسف ، و115 و116أ) . ونجد له الاستطرادات الكثيرة الغالبة ، من ذلك بمناسبة ذكر علمي الكلام والنجوم وعناية المأمون بهما ، فقد استطرد صاحب الدرّ لبيان مفهوم علم الكلام والتوحيد والفرق بينهما وبين علم النجوم، وسبب النهي عنه وعن علم الكلام . . . (آخر و115ب الى و117ب) .

ولكنه ينبه عند نهاية كل استطراد بمثل قوله «ورجع الكلام الى سياق التاريخ» (59أ) ، كما رأينا لابن وادران ترددًا لعبارة «على سبيل الاستطراد» في المواضع التي يقع له فيها استطراد .

وفي الدرّ أخبار متعلقة بالحمير لم يذكرها ابن وادران ، وكذا بعض الغرائب نقلا من كتاب النصائح لابن ظفر ، منها خبر راهبين من طُليلة ، وخبر في كيفية إحياء الموتى نقلا عن البيهقي (و128أ و129أ وب) ، وسيَر بني اسرائيل وكيف ارتحل عُزيْر من بابل على حمار (و131ب) ، وما كتبه قيصر ملك الروم الى عمر بن الخطاب ليبعث له شجرة من قِبله تخرِج له مثل آذان الحمير ثم يشقّق عن مثل اللؤلؤ (132ب) (وأخبار أخرى كثيرة عن الحمار من عدة كتب) . ومثل أخبار الحمير في الدرّ التي يخلو منها ابن وادران أخبار أخرى عن الخيل بشكل مطوّل فيه جدا (161أ–172أ) .

ومما نجده في الدرّ ولا نجده في ابن وادران استعراض طويل للنحو ومسائله. وأردفها بشرح مقتضب لبعض السجعات تتعلق بالصرف والمذاهب ، يمتد من الورقة 208 الى 213ب . ونجد فيه كذلك أقوالا مفصلة عن علم الكلام لعدد من مشاهير العلماء (أثبتناه في موضعه من نصنا عند التعليق على اهتمام المأمون بعلم الكلام ، الورقة 179أ وما بعدها ، انظر ص 351) .

ومن النصوص القليلة التي أوردها الدرّ ولا أثر لها في ابن وادران مع أن منها ما يتعلق بالرشيد ، كتلك الاخبار (49أ–59أ) التي نقلها الكسائي عن هذا الخليفة وفيها حديث عن أول من سنّ في الاسلام الكتابة على الذهب والفضة . وكذلك خبر للكسائي مع المأمون حول الغلط (84أ) ، وخبر الرشيد مع يحيى بن خالد حول الصراع بين الامين والمأمون . وبعد هذا الخبر يقول (85أ) شارحًا بعض ألفاظه : «وتفسير ألفاظ تضمنها هذا الخبر . . » وهو أمر لم يفعله قبل . ويتضمن تفسيره إشارة الى شعر لعمرو بن صخر بن الشريد ، فيأخذ بدوره في تفسير كلمات هذا الشعر . ويورد حكاية عن الرشيد وابنه عبد الله المأمون ، وقد رآه من منظرة وهو يكتب على حائط (87أ) . وبعده خبر آخر بين الكسائي والمأمون وقد ضربه الكسائي وحضر جعفر بن يحيى فأخفى المأمون دموعه . . الخ (86أ و86ب) ثم خبر المأمون مع الحسن بن الحسن

اللؤلئي ، ويردف ذلك بقوله : «من مستحسن الاخبار ما قيل في قطر الندا بنت خمارويه (86ب) وخبر وصيفة ملك الفرس التي خرّت ساجدة ضعفًا أمام هيبة الملك (86ب–87أ) . هذه كلها أخبار غير موجودة في ابن وادران . وبعدها انتقل الى : «فصل في ذكر من توفي في السنة الرابعة بعد المائتين من العلماء والاعيان» . ومن الاخبار القليلة الواردة في الدرّ دون ابن وادران خبر التكبير ثلاثًا بعد الصلاة الذي ابتدعه المأمون سنة 216هـ (155أ) .

وخص صاحب الدرّ صفحات طويلة من مجموعه لذكر فضائل علي رضي الله عنه وأبنائه ، وجاء في طالعة ذلك أنه من كتاب المجالسة (49ب–59أ قارنه بابن وادران ص 69ب) .

ومن الملاحظات العامة على كتاب الدرّ أنه لا ينقل ولا خبرًا واحدًا عن الملك المؤيد الذي أغرم به صاحب المسوّدة ، اللّهم مرة واحدة (في الورقة 70أ) . وأنه يذكر المصادر سابقًا ، لا لاحقًا كما هو الغالب على ابن وادران . وأنه يخطىء نفس الخطإ لدى ابن وادران عند تسميته قطب السرور لابن رشيق (71أ) . وهو أمر محيّر حقا ، لأن التفكير أيضًا في قلة بضاعة صاحب الدرّ من آدب أهل المغرب أو غلبة صفة الجامع عليه أكثر من المؤرخ المحقق تجعلنا نقدّر وحدة الاصل الذي نقلا منه وتجعلنا في الوقت نفسه نشك في شخصية صاحبه لاختلاط ابن رشيق بابن الرقيق على يديه ، ونسبة كتاب قطب السرور اليه ، وهو الكتاب الذي جمع منه جميع أخبار منادمات المأمون .

وخلافًا لابن وادران نجده يحكي عن مصدر قيرواني هو ابن سعدون (204ب) . وابن سعدون هو محمد بن سعدون بن علي أبو عبد الله القيرواني ، عالم بالفروع والاصول من فقهاء المالكية ، ولد بالقيروان ورحل الى المشرق وطاف بلاد المغرب والاندلس للتجارة ومات في أغمات من كتبه «تأسي أهل الايمان بما طرأ على مدينة القيروان» ومناقب أبي بكر بن عبد الرحمن وأصحابه ، وكان أبو بكر من شيوخه ، وكتاب في الفقه على مذهب مالك ،

(معالم الايمان 245/3) .

وقد راجعنا المواضع التي نسب فيها صاحب الدرّ القول الى نفسه وتلك التي فهمنا من تعليقاته فيها أن القول له ، فتحققنا في موضع منها على الاقل بخلاف ذلك ، حيث يقول ابن وادران في أعقاب نقل له : «انتهى كذا نقلناه من المسودة» (240ب) . مما أوحى لنا بأن ابن وادران أكثر أمانة في نقل كلام غيره منه ؛ إن كان لم يتفطن الى ذلك حقا ولم يلبّس علينا كلامَه بكلام غيره ، أو ينتحل من كلام غيره ما ليس له .

ولقد توقّفنا بصورة خاصة أمام عبارة «كذا نقلته من بعض الخطوط» (219ب) التي تفرد بها هنا ابن وادران وتساءلنا إن كانت تدل على شيء مهم ، وهو أن صاحب المسودة هو الذي نقل أو أنه ابن وادران نفسه . ففي الحالة الاولى يكون الدرّ وصاحب المسودة أمام مصدر واحد نقلا منه ، وفي الحالة الثانية يكون ابن وادران نقل من مجهول ، ولذلك قال من بعض الخطوط ؛ وهو ما يقابل لفظ «جامعه» في الدرّ في قوله في أول الخبر نفسه المنقول : «قال جامعه عفا الله عنه وهو أول من تسمى بالمأمون وتسمّى به ولد المعتمد بن عباد . . الخ» (84أ-219أ-219ب) .

وفي الموضع الذي يقول فيه صاحب المسوّدة «قلت في تحقيق مقتل الامين» (118ب) يظهر بالمقارنة مع ما هو موجود في الدرّ أنه تعليق ابن وادران أو صاحب لمسودة ، لأنه غير وارد في الدرّ .

و نجد في الدرّ (114ب) : «قلت ما أحسن ما قاله ابن الرومي . . الخ» . وهذا يوهم أن القول للمؤلف بينما أسقطها هنا ابن وادران (180أ) .

وقد قلنا إن مؤلف الدّر مجهول . وبقي كذلك لدينا ، رغم محاولات التعرف عليه من داخل نصه . وقد تبين لنا أنه لا يمكن أن يكون من أهل تونس ولا من غيرها من بلاد افريقية والمغرب لما ذكرناه من تخليطه بين ابن رشيق وابن الرقيق ، ولأنه من جهة أخرى لا يعقل أن ينقل اسم رقادة بلفظ رمادة

وهو لا يعرفه (204ب) ، اللّهم أن يكون سبق قلم أو لا يكون الخط خطه في الكتاب .

ولعله وهو يذكر كتاب «نزهة الابصار في أخبار ملوك الامصار» ويتأسف على عدم معرفة أسم صاحبه بقوله «وهو كتاب عظيم المقدار ولا أعلم مصنّفه» (126ب) لم يكن يدري أنه سيحمل الينا نفس الاسف على كتابه .

ويبدو جانب من شخصيته من خلال بعض تفضيلاته ، فهو يوضح سبب تأخيره أخبار الصالحين مع الرشيد بهذه العبارة : «قلت وقد كان ينبغي لهذا الفصل أن يجب تقديمه ويتوجّه تعظيمه لكن جعلناه طبق حلواء ، كتأخير الطيّب من الاشياء . . الخ» . وقد كاد يعرفنا بنفسه لو أطال قليلا ، لأنه جعل يدعو لنفسه (41أ) . وهذا الميل لديه هو أساس ما لاحظناه عليه من إطناب في أخبار الشافعي وأصحابه . وهو يطنب أكثر من ابن وادران في ذلك ؛ وفي ترجمة الشافعي نجده يقول : «وفضائله أكثر من أن تعد ومناقبه أجل من أن تحصى رضي الله عنه . وقد ذكرنا نبذًا منها في هذا الكتاب رجاء بركته وطمعًا بأن يحشرنا في زمرته مع النبيئين والصدّيقين والشهداء والصالحين (89ب–90أ) . فهل يكون ما خصه به من دعاء عن ورع أو ائتمامًا به في المذهب .

وهناك إشارة عابرة تعرّفنا بأحد مشايخه ، بل بأحد مشائخ مشايخه ، وهو أبو مهدي عيسى الثعالبي الجزيري المتوفى سنة 1080هـ/1669م (8أ–18أ) .

وهناك احتمال بأن يكون مؤلف الدرّ أو مؤلف الكتاب المنقول منه الدرّ ، أصله من اليمن ؛ لأنه يتحدث عن بعض ملوك اليمن حديث عارف بدولتهم ويقول الآن (وسنذكره . . تاريخ 412هـ (80أ–80ب) ، ويراجع النويري ، لعل الكلام له ، لأنه في آخره يقول انتهى ، ولأنه ينفرد بهذا النص دون ابن وادران ويوليه هذه العناية ، ويضعه تحت عنوان : ذكر ابتداء دولة بني زياد .

ونجده كذلك يعرض لخروج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عكة في اليمن يدعو الى الرضا من آل محمد عليه السلام . . فلما بلغ أمره المأمون بعث اليه دينار بن عبد الله في جيش (92ب-93أ) .

وهذه جملة من الملاحظات حول الكتابين :

- ذكر السنين وما حدث فيها من الوفيات جعل الدرّ يحيل عند ذكر زيادة الله (204ب) على ما ذكره في موته في الورقة 184أ .

- بعض اختصارات في الدرّ من صفحة 15ب الى صفحة 17ب في ابن وادران . وميله الى الاختصار كذلك في سند الحديث .

- قلة ضبط الدرّ للاسماء التاريخية من نحو بابك الجرمي وإنما هو الخرمي ، ونصر بن شيث ، وإنما هو بن شبث .

- وقوع تكرار بعض الاخبار في الدرّ دون المسوّدة .

- واستطرادات مطوّلة أحيانًا في الدرّ ، كما في 225أ : «حكاية لطيفة أردت أن أذكرها ولو خرجت عن المقصود لكن الكلام يسوق بعضه بعضًا ، وقد رأيت في بعض المجاميع أن عبد الله بن المعتز كان يقول أربعة من الشعراء سارت . . الخ» وبعدها ذكر حكاية لمحمد بن حازم ثم أخرى لابي الحسن علي بن المنجم ثم ختم بقوله : « . . وهذا كله وإن كان خارجًا عن المقصود لكنه فيه فوائد فأحببت ذكرها» (229أ) .

- بدأ الدرّ يعنون بفصول لاستعراض حوادث السنين بين صفحتي 92أ و93أ .

- تختلف العناوين بين الكتابين ، ففي حين نجد العناوين المسجوعة ذات الاشارات العامة مثل «تذكرة أعلام ووفاة إمام» نجد صاحب الدرّ (5أ) يعنون لهذه الفقرة بالذات بقوله : «فصل في وفاة الامام مالك رضي الله عنه» .

– من مميزات خط الدرّ : حركة الحرف المشدد . يضعها سواء كانت فتحة أو كسرة تحت الشدة ، مع وضعهما تحت الحرف إذا كانت كسرة والعكس إذا كانت فتحة . (الرّكيّ) 8أ .

– من أغرب الخط في الدرّ : «كونوا له ولاتا ولحزبه حماة» ، يريد ولاة . . . . (191أ)

– وهذا مثال آخر من تصحيحات ابن وادران : فقدتني ! وصحتها فقّرتني 37ب ، بخط ابن وادران ، والاخرى بخط الدرّ .

– ومن غريب الاخطاء في النقل ما كشفت لنا عنه المقابلة بين المخطوطين ، ففي الدرّ 43أ بيت من الشعر فوق إحدى كلماته تفسير يؤوب ، يرجع . ونجد الكلمة وتفسيرها على أنهما معًا من البيت في المسوّدة 75ب ، مما يدل على قلة انتباه لوزن الشعر ؛ وإن كنا نستبعد أن يكون ابن وادران على غير ذوق بالشعر .

– «وسيأتي إن شاء الله ما وقع من ذلك الامر الفظيع في دولة المعتصم» . هذه العبارة موجودة في الكتابين ! 161أ/240ب .

وبمخطوطة الدرّ من حيث الشكل قطع جزئي بالورقة 237 . وخطأ في ترقيم الاوراق مثل المسوّدة ، ولكن بصورة أخف وآثار الرطوبة والماء عليها وبعض النقص في أجزاء من أوراقها بسبب ذلك ، في الاوراق الاولى والاخيرة .

ويذكر الدرّ المصادر التي ينقل عنها غالبًا عند أوّل نقله ، في حين يذكرها في الآخر صاحب المسودة .

وينهى صاحب الدرّ كتابه كما قدمنا بذكر وفاة المتوكل وبعدها يقول : «انتهى ما أردنا جمعه من الدرّ المنتظم في خلافة هارون وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم بحمده تعالى وحسن عونه وتوفيقه وشكره المتوجب لمزيده والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين وآخر دعوانا

إن الحمد لله رب العالمين . انتهى» (وهو آخر الورقة 243ب) .

9 – تحقيق النص

توخينا في التحقيق قراءة واضحة للنص ، عن طريق شكل المشكل من كلماته وخاصة في الأسماء ، وبالاشارة بقدر ما يتطلب السياق الى الخلافات اللفظية أو المعنوية بين النص والمصادر التي نقل منها أو المراجع التي عدنا اليها . وفي كل مرة ذُكر فيها مصدر أو مرجع إلا وأشرنا الى اسمه كاملاً واسم مؤلفه وطبعته ، ومكانه إن كان مخطوطا . ونكتفي فيما بعد بالاشارة اليه أو الى مؤلفه اختصارًا . ولم نتقصّ ردّ جميع النقول الواردة في الكتاب الى أُصولها المنقولة منها نصا أو تلميحًا والمقابلة بينها ، لأن ذلك كان سيثقل علينا من ناحية ولكنه كان سيخرجنا الى غير غرضنا من تقديم قراءة صحيحة للمخطوط الذي بين أيدينا ، خصوصًا وأنهما أصبحا مخطوطين (المسوّدة والدرّ) ولأن ذلك كان سيجعلنا نتقصّى الطبعات المختلفة من الكتاب الواحد ونسبتها من التحقيق والنشر التجاري المستعجل . فأضربنا على هذا التقليد الذي يطالب به المبتدئون في التراث عادة وغير العرب أو المستعربون لسانًا . وعوّلنا على تقدّم العصر بكيفية التحقيق والتخريج ، لأن المراجع والمصادر أصبحت في أكثر من طبعة ومعظم ما أُعيد صدوره شفع بفهارس مدققة . وأصبح من الإثقال على الكتب المحققة حديثًا استقراء الاختلافات غير ذات الجدوى العلمية والتي هي من قبيل مضيعة الوقت على القارىء والمحقق وتضخيم الكتب . فلم نقف إلا عند الاختلافات المهمة وتخففنا من الاشارة عند إجراء التصحيحات الى هذه الطبعة أو تلك من الكتب المنشورة إلا عند الضرورة أو للتمييز أو بغرض التنويه والتصحيح .

ولم نشرح من ألفاظه الا ما يساورنا الشك في تبيّن القراءة لمعناه من السياق . وقد وقفنا على نقص يتراوح بين الكلمة والسطر والفقرة الكاملة في بعض

المصادر المطبوعة ، ولم نلتزم بالتنبيه الى ذلك الا في حالات قليلة تجنبًا للاطالة والتدخل في تحقيق ما ليس من غرضنا هنا ، وكذلك ما وجدناه في المصادر المطبوعة من تحريفات نصيّة ، راجعة الى سوء قراءة أو تحقيق ، وهي قراءات خاطئة تعزّز من أهمية نصّنا . وكمثال من ذلك ، ينظر الى تلك القصة الطويلة التي نقلتها المسوّدة عن ابراهيم الاشعري في كتابه لبّ اللبيب والتي تعجّ مخطوطة الدرّ بالاختلافات السقيمة في ألفاظها ومعانيها (96ب–100ب) ، وكذلك بالمقارنة مع صفحات بأكملها في كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ، التي قلنا إن إعادة تحقيق ما جاء فيها على ضوء هذا المخطوط يصحّح الكثير من ألفاظه وتعابيره الغامضة أو المحرّفة .

ولم نشر في التعليقات الى الاخطاء الواقعة من قبيل السهو أو سبق القلم من صاحب المسودة أو من ابن وادران ، كقوله «عشر الخنساء» في موضع شعر الخنساء أو «الفرسدق» عن الفرزدق (142أ) أو قوله «وتوفي بهى يوم الجمعة» (176ب) وهو سهو محقق ، لأنه غير مكرر ؛ أو الاعجام الخاطيء لبعض الحروف ، كالعين بدل الغين ، ونحو ذلك مما يشغل القارىء لو تتبعناها دون فائدة . (وقد كان المستشرقون أو من تابعوهم عن تقليد يصرفون الجهود المضنية في تتبع الاختلافات بين النصوص . وكنّا نعجب بها اعتقادًا منّا أنها الموضوعية والتحقيق العلمي . ولكنها تحرّج في الاكثر من جانبهم لقلة علمهم بالصحيح من الخطأ في الكثير من كلام العرب ، ولذلك كانوا يصوّرون الاشياء تصويرا أمانة واحتياطًا . ولكننا نحن أرباب اللغة لا يساورنا خطأ في ألفاظ النساخ التي يتصحّفها الخطأ أو فيما يقع لهم من وهم وتخييل فيما ينسخون عن جهل أو قصور) .

وتقيّدنا الى حدّ ما بتمييز فقرات الكتاب ، لا بالقلم الغليظ ــ كما في الاصل عبر استرسال رتيب للاسطر بمقاس واحد ــ ولكن بالرجوع الى السطر كلما تعلق الأمر بخبر جديد أو فكرة متميزة .

ولم نجد بدّا من التخلّص من استعمال علامات الوقف الحديثة ، المصطلح عليها ، من فاصلة ونقطة وعلامات تعجب واستفهام ونحوها ، رغم حجمها الذي يزيد في ثقل الكتاب . وإن كنّا نعتقد أن اللغة العربية على عكس بعض اللغات الاخرى تسمح حروف العطف والنسق فيها ويسمح الاعراب بها والتركيب بمختلف وجوهه بتمييز الكلام في حدود ثقافة القارىء ومستواه لفهم المعنى . مع الملاحظ هنا أن القرآن الكريم حظي من علماء العربية بنظام للوقف فيه على غاية من الدقة والاكتمال . ولم يغفل المؤلفون في العصور المتعاقبة من تطوير وسائل اصطلاحات للوقف ولتمييز الكلام من الشعر ، ولتمييز السجع وتحديد فواصل الكلام . وقد عني ابن وادران هنا لهذا الغرض بالمراوحة بين اللون الاسود والاحمر للعناوين ولأسماء الكتب والمؤلفين وباستعمال القلم الغليظ لتعيين أوائل الفقرات ولتطويل الحرف الاول فيها ووضع خط أحمر مواز على امتداده لإبراز مواقف الكلام ، كما أنه يحصر الاشعار بين فواصل منفردة ملونة وفواصل مزدوجة بين شطورها (ولم يختلط عليه الشعر بالنثر إلا مرة واحدة في ص 208ب) ، مما يجعل القراءة فيه للمتعوّد غير صعبة . ولكنّ التأثير الذي حدث لنا حديثًا بفعل اللغات الاجنبية لم يعد يجعلنا نستغني عن ملء نصوصنا بتلك القوافل المتراصة من الفواصل والنقط لتسهيل القراءة وفهم المعنى؛ بينما عبقريتنا الاصلية في فهم المعنى هو حسن القراءة . وحسن القراءة لا يكون الا بالسليقة والمستوى أي وبالارتفاع لفهم المعنى ، وهو ملكة تتربّى وتكتسب ؛ وإلا فما تغنى قراءة سليمة لإنسان جاهل لأصول النحو والبلاغة والاشتقاق والتركيب في العربية أو لإنسان جاهل للمعارف الاساسية ذات العلاقة بما يقرأ أو يكتب ، كمن يهجم على قاموس للعربية ليشطاط فيما بعد لعدم قدرته على البحث فيه مثل «لاروس» أو «روبير» أو غيرهما من القواميس الفرنسية !

والكتابة منتظمة جدا في الكتاب ، كما تكون قد كتبت لليلة واحدة ، لا أثر

فيها للتوتر أو التردد ، وكأنه قد كتبه بقلم واحد وسنّ واحد وحبر واحد . وهو أمر يدل على اطمئنان في نفس الكاتب وعلى شغفه بما يقوم به . ونكاد لا نعثر إلا على مواضع قليلة جدا ، بعدد أصابع اليد ، يدرج فيها ابن وادران مُخرَّجًا لكلمة نسيها أو عبارة سقطت منه . لا كشط ولا تشطيب ، وما عرض له مرة من ذلك اعتنى بالتسطير فوقه بنقط متتابعة (151ب) حتى لا يحدث تسويدًا واضحًا على ظهر الصفحة . وفي حالات الشك عن فهم بعض الكلمات ترك بياضًا بموضعها ، لعله كان ينوي العودة اليه بعد التحقق (223ب و224ب) .

ولو لا طول هذه المقدمة لبسطنا القول في وصف خطه وخصائصه والتأريخ له لأهمية ذلك والدلالة به على عصور الخط العربي وما حدث في بعض العصور الحديثة عليه من التدهور بسبب الجهل واضطراب التعليم بين المناهج وتزاحم اللغات وفقدان التعصب للغة القومية . فقلّما تجد اليوم مثلاً من يميّز عند كتابة الظاء المعجمة بين وضع الإشالة قبلها أو بعدها . فهي على الاصح بعدها حتى لا يلتبس إعجامها بالحرف قبلها أو تتنازعه معه ، خصوصًا وأن تلك الإشالة ينبغي أن تكون مائلة الى الوراء ميلا يسمح بوضع الاعجام عليها وانفرادها به . وخصائص أخرى كثيرة تدلّ على مستوى ما ارتقت اليه الكتابة العربية حتى تكون مقروءة دون عسر أو تردد .

ولما كان الكتاب كله يدور حول وقائع وتراجم فقد رأينا تسهيلا لتصفحه ايراد اسم صاحب الترجمة مختصرًا أو عنوان الخبر وموضوعه بأقل لفظ وأوعب عبارة على الجانب المقابل خارج النص (كلما لم يعنون له المؤلف بعنوان فرعي داخل عناوينه الكبرى للموضوعات) .

ووضعنا بين معقوفين الزيادات التي وجدناها في المراجع مما لا يمكن الاستغناء عنها لإقامة النص ، أو مما ارتأيناها للغرض نفسه . على أن الزيادات التي تأتي وجوبًا لإقامة البيت من الشعر أو الشطر وتدلّ عليها المراجع المعتمدة

فلم نعلّق عليها ، لظهور سقوطها عفوًا من قلم الكاتب أو الناسخ ، من نحو ما ذكرَه من شعر لأحمد بن نعيم في هجاء يحيى ابن أكثم القاضي : «فالحمد لله قد ذهب العدل . . وقلّ الوفاء في الناس» وهو ظاهر الكسر في الأول وتمامه : فالحمد لله كيف قد ذهب العدل . . الخ . (176ب)

وقد لاحظنا عند التحقيق أن جهل المؤلف أو المبيّض بموازين الشعر أوقعه في كثير من الخلط بين الصدور والاعجاز والإدخال والإنقاص من ألفاظه ، مما كانت تدركه الاذن العروضية أو المتطبّعة بقراءة الشعر الصحيح باللفظ والمعنى. ولو لا أن أسعفتنا بعض تلك المراجع التي تنقل من المصادر التي نقل منها وتعرُض بالصحّة أو التصحيح للشعر الذي تورده لأعجزنا تقويمه لندرته أو للجهل بقائليه . من ذلك هذا البيت الذي كتبه بصورة واضحة وخفي عليه أنه مكسور وغير متعادل الشطور :

ناديته من ذا الذي أرجوه لي فرج نادى أنا فرج زن لي كرا بيت

وصوابه :

ناديتُ من ذا الذي أرجوه لي فَرَجٌ نادى أنا فَرجٌ زنْ لي كِرَا البيْتِ

(195ب) فصححنا ذلك ومثله دون إشارة في الهامش .

وأهم الاصطلاحات المستعملة في هذا التحقيق ، المعتادة في أغلب الكتب هي :

المسودة ، الأصل الذي وجده ابن وادران مسوّدا غير معلوم المصنف .

المبيضة ، المخطوط كما وصل الينا بتبييض ابن وادران وخطه .

الدر ، كتاب المختار من الدر المكنون . . .

١ ، الحدّ بين وجه الورقة وظهرها .

/ ، في الاحالات على الكتب للتمييز بين رقم الجزء والصفحة .

[ ] ، زيادة يقتضيها السياق ، أو من المراجع المذكورة أو من الدرّ .

(؟) ، كلمة غير مفهومة أو غير واضحة المعنى جيّدًا .

– (مصحوب بعدد ، في التعليق) ، رقم الترجمة في المرجع المذكور .

– (بين عددين) ، تكرّر ذكر المسمّى بين الصفحتين المذكورتين .

– (بعد اسم) ، اختصار لبقية الاسم المتقدم .

1 ، 2 ، 3 . . الخ ، أرقام أوراق مخطوط الدرّ .

1 ، 2 ، 3 . . الخ ، أرقام أوراق ابن وادران .

و ، ورقة

أ ، وجه الورقة ، وقد اكتفينا بالرقم دون (أ) إلا في الفهارس .

ب ، ظهر الورقة .

وتخفيفًا على القارىء أخّرنا التعليقات المشتملة على المقابلات والتخريجات والتحقيقات التي يتطلبها عادة أهل الاختصاص والبحاثين الى آخر النص ، كل تعليق وصفحته والفقرة الوارد بها . ولم نحتفظ للنص بأسفله الا بالتعليقات الضرورية أثناء القراءة ، كالاشارة الى ما بالاصل عند غموضه أو شرح بعض كلماته .

وألحقنا بالكتاب فهارس متنوعة عديدة ، وبيّنا مصطلحاتها في أسفل كل صفحة منها تسهيلاً للبحث فيها .

والاسماء في الفهرس هي على نحو ما وردت عليه في النص مع إحالات على اختصاراتها أو ما تُطلب به أحيانًا .

ويجد القارىء في مقدمة النص صورًا لأوراق من المخطوط للنظر في خطّها أو دراسة بعض جوانبه .

خاتمة

وما أنفقناه من جهد في إخراج هذا الأثر إنما أكثره خدمة للتراث الذي أصبحت العناية به لوجهه قليلة وسائره لمدّ الباحثين في تاريخنا وأدبنا وحضارتنا بمادة زاخرة من ذلك عن عصر من أزهى عصورنا ، جديدها كثير ومصححة أفضل في هذا الكتاب ، لعل الهدف من تأليفه والقصد اليه يكون من الوضوح لديهم بقدر ما أمّل صاحبه . والله الهادي الى سواء السبيل .

تونس في 18 جوان 1992

م ك

وجه الورقة الأولى من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

الإمام على ما فرق به من جنس الأمم في كل أوان وتفرد
بالبقاء والعظمة والجلال بلا مكان ولا زمان أشكرك
اللهم على ما منحت عبادك باتباع آثار السلف
وأسلكت عبيدك رشيد المناهج الشرعية وأبديت
الرشيد المعتصم العظيم بتاريخ الدولة العباسية حتى
دام من بشائرهم صولة سطوات ملوك البرية ومكانة
من بين الملوك في فخامة تناهى ما جمعه الأملاك البرية
وبين أصلابهم بحوائل لغاتهم ما هو فيها من البقاء بلا أمر
من صفات الثناء مما يكفي كثير العبارة أو تحيط الشفة
الأقلام بتقليله وفضلا عن أجله اللهم صل وسلم على سيدنا
ومولانا محمد الهادي والأمة المبعوث لتمييز الحرام من الحلال
بكمال التيسير وعلى آله خيار وعلى من بعده وبالتابعين
والأئمة المهديين فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز
والتقصير المرتجي عفو الله الغفار عبد الله حسين
بن محمد واحد زاده لما كنت متفقا فيما اجتمعت به من الأوراق
بمسودة تاريخ لم يبيض ولم يرتب منه إنسانا وفيها الجمع
ما فيه وأما في معانيه ما في دولة الرشيد من بني
العباس وبنيه ومع هذا فرأيت الله بجمعه ...

الورقة الثانية من مخطوط دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

فمنها النخبة من ذوي [illegible] وأدباء الأبناء عن الدول [illegible]
مع أنه الشرقية ويتضح رغائب الزوقية فبينما أنا أجري
وأصرف في المسطور اقتطف من أزهار ذلك المنثور إذ
ألفيت أخبارا وآثارا ومآثر كانوا أخبارا، من أن يحصى
تلك السطور الجليلة، وانتقي من ذلك المعاني الشريفة، بأن
أبين مراتب ذلك الكتب وأجمع الرقيقة والسلوك، مع ما
أجمع عجائب من الأنباء، ووقفنا عليه بمواقف العلم والجلال
ليكون من محاسن مصابيح غرر أعشر عن مجالسه ومن
أنس منها لسر ذوي التشر عن كل السر أو [illegible] بسبب أخباره
[illegible] من العلماء طريقة وتحلى بالتشوف [illegible]
الحكماء عجباء وهنا أنا أجمع غرائب المستحيرة للخواص
وأولها بدائع عجائبه المستقلة لذوي البصائر ومرجاة محمد
الله تعالى ترتيبه لذوي الألباب مرتبا على [illegible] أبواب

الباب الأول في [illegible] وليه
[illegible]
[illegible]

هو أمير المؤمنين أبو جعفر هارون الرشيد ابن محمد المهدي ابن أبي
جعفر المنصور الهاشمي العباسي خامس خلفاء بني العباس
أمه الخيزران وهي أم أخيه الهادي وكان [illegible] ولي الخلافة
في الليلة التي مات فيها أخوه الهادي وهي ليلة الجمعة منتصف
ربيع الأول من سنة سبعين ومائة كذا ذكره الملك المؤيد رحمه
الله وكان عمره حين ولي اثنين وعشرين سنة لأن مولده بالري

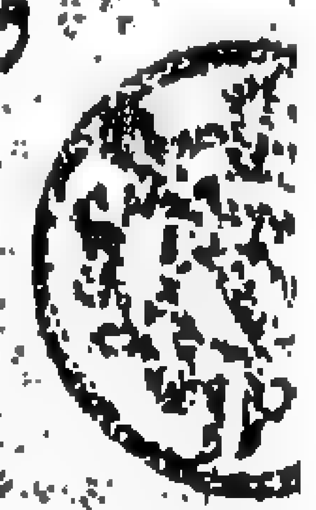
الورقة الثالثة من مخطوط دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

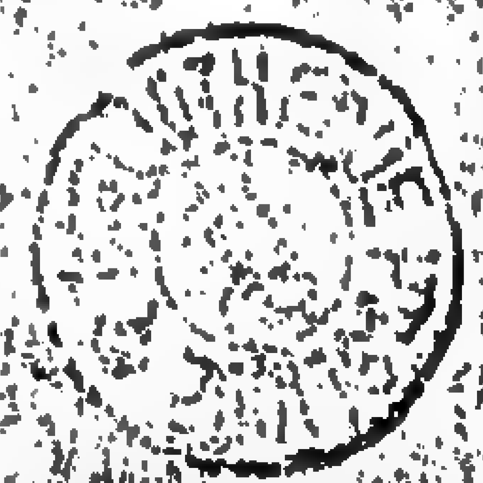
للمؤلف وإليه المرجع والمآب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وعلى
آله وأصحابه ذوي الفضل العميم فتمت [illegible]
[illegible] حسين بن محمد [illegible]
الفراغ من تبييض هذا الكتاب في أول جزء من نصف
السدس الخامس في أول سبع من السبع السابع من
الخمس الخامس من السدس الخامس من الربع الثالث من
الثلث الثاني وهو ثلثه الخمس الأول من العشر الثامن
من ثاني السدس [illegible] على صاحبها
أفضل الصلاة وأزكى التحية وعلى آله وأصحابه حتى ال
والحمد لله على الإكمال

انتهى

والحمد لله ع

[illegible]





آخر المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أحمدك اللّهم على ما قدَرْت به من فناء الأمم في كل آن ، وتنزّهت بالبقاء والعظمة والجلال بلا مكان وزمان ، وأشكرك اللّهم على ما منحت عبادك باتباع الحقائق السُّنيّة ، وأسلكت عبيدك رشيد المناهج المحمّدية ، وأيّدت الدين المعتصم القويم ، بتأييد الدولة العباسية حتى قاوموا بشهامتهم صولة سطوات ملوك البريّة ، فكانوا من بين الملوك في ضخامةٍ تُناطِحُ جماجمُهم الأفلاك الدرّية ، وبذلوا صلاتِهم ، بعوائد لفتاتهم ، فأحرزوا من الثناء بما لهم من صفات السَّناء ، ما لا يكفي كثيرُ العبارة بأقلّه ، ولا تحيط ألْسِنة الاقلام بقليله فضلاً عن أجلّه ، أصلّي وأسلّم على سيّدنا ومولانا محمد الصادق الأمين ، المبعوث لتمييز الحرام من الحلال بكمال التبيين ، وعلى آله خيرَ آل ، وعلى صحابته ذوي التأييد والإفضال .

وبعد ، فيقول العبد الفقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، المرتجي فيض النّوال والغفران ، عُبيد الله حسين بن محمد وادران ، قد كنتُ ظفرت فيما ظفرت به من الاوراق ، بمسوّدة تاريخ لم يبيّض ويرتّب منه السياق ، فجعلت أتصفح ما فيه ، وأتأمّل في معانيه ، فإذا هو في دولة الرشيد من بني العباس وبنيه ، ومع هذا قد أُخبرت أنّه قد جمعه بعض أبناء /3/ جنسنا النّجباء ، ممّن تقدّم عصرنا وقارن الآباء ، غير أنه لم يجدّد منحاته الشوقية ، وينقّح رشحاته الذوقية ، فبينما أنا في رياض تلك السطور ، أقتطف من أزهار ذلك المنثور ، اذْ أبهاني شارق أنواره ، وناجاني طارق أخباره ، أن أبيِّض تلك السطور الجليّة ،

وأنقح تلك المعاني السَّنيّة ، بأن أميّز مراتب ذلك المكتوب ، وأجعل له هيئة وأسلوب (ترك الاعراب لضرورة السجع ، وهو قليل في النثر) ، مع ما أُدمجنا فيه من الانتقال، ووشحنا حُلّته بهواتف الفِكر والبال ، ليكون من جالس مصابيحَ غُرره اغْتَنَى عن كلّ جليس ، ومن آنس بنفائس دُرره انْثنى عن كل أنيس ، اذْ تبسُّمُ طيب أُخباره يُرقص رؤوس العلماء طرَبًا ، وتجاذبُ نشْقَ أُريجه يُزهق نفوس الحُكماء عجَبًا ، وها أنا أُجمع غرائبه المستفِزّة للخواطر ، وأُؤلف بدائع عجائبه المستلذّة لذوي البصائر ، وقد جاء بحمد الله تعالى نزهة لذوي الألباب ، مرتبًا على ستة أبواب .

الباب الأول
في
دولة أمير المؤمنين المجيد
أبي جعفر هارون الرشيد

هو أمير المؤمنين أبو جعفر هارون الرشيد ، ابن محمد المهدي ، ابن أبي جعفر المنصور الهاشمي العباسي ، خامس خلفاء بني العباس . أمه الخيزران ، وهي أم أخيه الهادي ، وكانت أم ولد . ولِي الخلافة في الليلة التي مات فيها أخوه الهادي ، وهي ليلة الجمعة ، منتصَف ربيع الأول من سنة سبعين ومائة . كذا ذكره الملك المؤيد رحمه الله . وكان عمره حين ولي اثنتين وعشرين سنة ، لأن مولده بالريّ /3ب/ ، لـمّا كان أبوه أميرًا عليها وعلى خُراسان في سنة ثمان وأربعين ومائة . وكان المهدي عقد لابنه الهادي والرشيد بولاية العهد من بعده .

وأول من بايع الرشيد يحيى بن خالد البرمكي . وسبب ذلك ما حكاه بعضهم ، من أن موسى الهادي قد طالب أخاه هارون أن يخلع نفسه من العهد ، ليصيّره لابنه من بعده ويُخرج هارونَ من الامر ليؤول لابنه . وكان له ولد صغير عمره عشر سنين ، فلم يُجب هارون الى ذلك . فأحضر الهادي يحيى بن خالد البرمكي ولطُف به وداراه ووعَده ومنّاه وسأله أن يشير على أخيه هارون بالخلع ، فلم يُجب يحيى الى ذلك ودافعه عنه ، فتهدّده الهادي وتوعّده ، وجرت بينهما في ذلك خطوب ، وأشرف يحيى معه على الهلاك وهو مقيم على مدافعته عن صاحبه الى أن اعتلّ الهادي علّته التي مات فيها واشتدت به ، فدعا يحيى وقال له : ليس ينفعني معك شيء ، وقد أفسدت أخي عليّ حتى امتنع مما أريده ،

ووالله لأقتلنّك .

ودعا بالسيف والنِّطع وأُبرِك ليَضرب عنقه . فقال له ابراهيم بن ذكوان الحرّاني : يا أمير المؤمنين ، إن ليحيى عندي يدًا أريد أن أكافيه عنها ، فأحبّ أن تهبه الليلة لي وأنت في غدٍ أعلا عينًا وما تراه في أمره . فقال : وما فائدة ليلة ؟ فقال : إما أن يعود صاحبه الى رضى أمير المؤمنين ، أو يعهد في أمر نفسه وولده؛ فأجابه .

قال يحيى ، فأقمت من النّطع وقد أيقنت بالموت ، وعلمتُ أنه لم يبق من أجلي الاّ بقية الليلة فما اكتحلت غمضًا الى السَّحر . ثم سمعت القُفل يُفتح /5/ ومشيت مع الخادم الى ممرّ سمعت فيه كلام نساء ، فقلت عزم على قتلي بحُجّة ، فهو يُدخلني دار الحرَم ثم يقول من أذِن لك في الدخول على حريمي ؛ ويعتلّ بذلك فيقتلني . فوقفت فقال لي الخادم : ادخل ! فقلت : لا ، ولا يجوز أن أدخل ! فقال : ادخل ! فضحكت وقلت : والله لا أدخل ولو ضربتَ عنقي أو أسمعَ كلام أمير المؤمنين بالإذن لي بالدخول ! فإذا امرأة تصيح وتقول : ويلك يا هرثمة أنا الخيزران ، وقد حدث أمر عظيم استدعيتك له فادخل ! فورد عليّ ما تحيّرت منه ودخلتُ ، فإذا بستارة ممدودة وقالت مِن ورائها : إن موسى قد مات ، وأراحك الله والمسلمين منه ، فانظر اليه ! فجئت ، فاذا هو مُسجّى على سرير فمسست مِحبسته وقلبه ومناخره ، فإذا هو ميّتٌ لا شكّ فيه .

فقلت : ما كان خبره ؟ فقالت لي الخيزران : إني كنت بحيث أسمع خطابك معه وخطابه في أمر ابني هارون ، وفي أمر المحبّسين الطالبيين ، وفي أمر الكوفة ؛ فلما دخل عليّ استعطفته وسألته أن لا يفعل من ذلك شيئًا . وصاح عليّ . ولم أزل أرفُق به الى أن كشفتُ له ثديي وشعَري ، فأنتهرني وقال : والله لئن لم تسكتي لأضربنّ عنقك الساعة ! فخِفت وقمت فصفَفتُ قدميّ في المحراب أصلّي وأدعو الله عليه . فلمّا كان منذ ساعة طرَح نفسه على فراشه لينام . فشرق ، فتداركناه بكوز ماء فشرب منه ، فازداد شرَقه الى أن تلَف . فآمض يا

هرثمة الى يحيى بن خالد وعرّفه الخبر ، وآمضيا الى هارون وهاتاه قبل آنتشار الخبر ، وجرّدا له البيعة على الناس . ففعلت ذلك ، فما أصبحنا إلاّ وقد فرغ الامر وتواطأت الخلافة لهارون ، وكان /5ب/ ذلك سبب اختصاصي به .

وذُكر في تاريخ الخميس عن اليافعي : أنّ موسى الهادي أصابته قُرحة في جوفه فمات من يومه . وقيل سمّته أمه الخيزران لما أجمع على قتل أخيه الرشيد . وقيل إنها سمّته لسبب آخر ، وهو أنها كانت حاكمة مستبدة بالامور الكبار ، وكانت المواكب تهتدي الى بابها ، فزجرهم الهادي عن ذلك ، وكلّمها بكلام لحّ ؛ وقال : إنْ وقَف ببابك أحدٌ من الأمراء ضربتُ عنقه ؛ أمالك مِغزلٌ يشغلك أو مصحف يذكّرك ؟! وهو لا يعقِل من الغضب . فبعثت اليه بطعام مسموم ، وقد أُطعمت منه كلبًا فانتثر لحمه ، وعمدت الى قتله لـمّا وَعَك ، بأَنْ غمّت وجهه ببساطٍ جلسوا على جوانبه حتى مات .

قال البكري : كان موسى الهادي طويلا جسيمًا ، شجاعًا أديبًا جوادًا ، صعب المرام .اهـ .

قال بعضهم : وكان غيورًا ، وفيه يقول بعض الشعراء :

تَخفَى الملوك لموسى عند طلعته مثل النجوم لقَرْن الشمس إذْ طلعَا
وليس خَلْقٌ يَرى موسى وهيْبتَه مـن البـريّة إلاّ ذلّ أو خـضَعَا

وقال الملك المؤيد : وكان أبيض ، وبشفته العليا نقصٌ ، وله سبعة بنين وبنتان ، ومات وله من العمر ستّا وعشرين سنة ، وخلافته سنة وثلاثة أشهر، ودفن بعيساباذ الكبير في بستانه ؛ فصلّى عليه الرشيد وسار الى بغداد . اهـ .

وذكر في الإحياء عن الخولاني : أن الرشيد لما أن ولي الخلافة /6/ زاره العلماء وهنّوه بما صار اليه ، ففتح بيوت الاموال وأجازهم الجوائز السّنية . وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهّاد ويُظهر الزهد والتعفف ، وكان مواخيًا لسفيان بن سعيد الثوري . اهـ .

وذكر نفطويه في تاريخه : كان الرشيد يصلّي كلّ يوم وليلة مائة ركعة لم يتركها الا لعلّة ، ويتصدّق من خالص ماله بألف درهم على الفقراء في كل يوم وكان يحب العلم وأهله ويعظّم الاسلام ، ويبكي على نفسه وإسرافه وذنوبه ولاسيما إذا وُعظ ، ويأتي بنفسه الى الواعظ . وهو أجلّ وأعظم ملوك بني العباس .

قال بعضهم : وكان أبيضَ جميلا ، مليح الشكل طويلا عبْل الجسم ، وكان فصيحًا له نظر ومعرفة جيّدة بالعلوم .

قال الحافظ ابن عساكر : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره ، فوزراؤه البرامكة . وقد فوّض الامر الى يحيى بن خالد ، وقاضيه أبو يوسف ، ونديمه العباس بن محمد ، ابن عمه ، وحاجبه الفضل بن الربيع ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ومغنيه ابراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة ، وفتحت في أيامه فتوحات كثيرة .

مسرّة ملوكية واتفاقية وقتية

قيل : ومن غريب الاتفاق ما وقع للرشيد في بداية أمره ، وهو ما حكى الدميري في حياة الحيوان : أن موسى الهادي لـمّا ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم القدر كان لأبيه . فبلغه أن أخاه هارون أخذه فطلبه منه فامتنع من إعطائه فألحّ عليه فيه ، فحنِق عليه الرشيد ومرّ على جسر بغداد /6ب/ فرماه في دجلة . فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى الى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم رصاص فرماه في ذلك المكان وأمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا ، فاستخرجوا الخاتم الاول ، وعدّوا ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه . اهـ .

قال الملك المؤيد : لما أن ولي الرشيد استوزر يحيى بن خالد وألقى اليه مقاليد الامور . ووُلد له ولده محمد الأمين من زبيدة في شوال من سنة ولايته ، وفيها عَزل الرشيد الثغور كلّها من الجزيرة وقنّسرين ، وجعلها حيّزًا واحداً ، فسُمّيت

العواصم . وفيها أمر الرشيد بعمارة طرسوس على يد فرج الخادم التركي ونزلها الناس . اهـ .

مبرّة ماجدة ووفاة واحدة

في سنة ثلاث وسبعين ومائة توفيت الخيزران ، أمّ الرشيد ، وخرج الخليفة ابنها في جنازتها وهو ماسك بقائمة السرير ، حافيًا وعليه جبة وطيلسان أزرق قد شدّ به وسطه ، ماشيًا في الطين حتى أتى مقابر قريش ، فغسل رجليه وصلىّ عليها ونزل في قبرها . وفي هذه السنة حجّ الرشيد وأحرم من بغداد ، وسبب ذلك عليه نذْرٌ ، فاستوفاه وبرّ قَسَمه في جارية أخيه موسى الهادي كما سيأتي ذكرها .

وكان الرشيد كثير الحج ، ولذا قال فيه بعض شعرائه :

فمن يطلبْ لقاءك أو يُرِدْه ففي الحرمين أو أقصَى الثُّغور

قيل إنه كان يحج سنة ويغزو سنة ، واذا حج أُحجّ معه مائة من الفقهاء ، واذا لم يحج أحج ثلاثمائة من الفقهاء بالنفقة والاحسان اليهم .

وكان الرشيد يقول : إني لأحب أن أحج في كل عام /. . .7أ و7ب . . ./

[وفي الاغاني قال : حدثني اسماعيل بن جامع السهمي : ضمّني الدهر ضمًّا شديدًا بمكة ، فانتقلت منها بعيالي الى المدينة ، فأصبحت يومًا وما أملك إلا] ثلاثة دراهم فهي في كُمّي إذ أنا بجارية على رقبتها جرّة ، تريد الرَّكِيّ (الركي ، جنس للركية وهي البئر) ، تسعى بين يديّ وتترنم بصوت شجيّ ، تقول :

شكوْنا الى أحبابنا طولَ ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنَا
وذاك لأن النّوم يغشى جفونَهم سِراعًا وما يغشى لنا النومُ أعيُنَا
إذا ما دنا الليل المضيرُ بذي الهوىَ جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنهم كانوا يلاقُون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

قال : فأخذ الغناء بقلبي ولم يَدُرْ [لي] حرفٌ منه ، فقلت : ياجارية ! ما أدري ، وجهك أجمل أم غناؤك ، فلو شئتِ أعدتِ ! فقالت : حبًا وكرامة . ثمّ أسندت ظهرها الى جدار قريب منها ، ورفعت أُحدى رجليها فوضعتها على الأخرى ووضعت الجرّة على ساقها واندفعت تغنيه ؛ فوالله ما دارلي منه حرف ! فقلت لها : قد أحسنتِ ، فلو تفضلت فأعدتيه ! فقطبّت فيّ وكحَلت وقالت : ما أعجبَ أحدكم ، لا يزال يجيء الى جارية عليها الضريبة فيشغلها ! فضربت بيدي الى الثلاثة دراهم ، فدفعتها اليها وقلت لها : أقيمي بها وجهك اليوم الى أن تَلْقيْ . فأخذتها وهي كالكارهة ، وقالت : إنك تريد الآن أن تأخذ مني صوتًا ستأخذ به ألف دينار وألف دينار وألف دينار !

قال ، واندفعتْ تغني . فأعملت فكري في غنائها حتى دار لي الصوت وفهمته ، /8'ب/ وانصرفت مسرورًا الى أهلي ومنزلي أُردّده حتى خفّ على لساني . ثم خرجت أُريد بغداد فنزل بي المكاري على الباب المحوَّل لا أدري أين أتوجه ولا أين أقصد وأمشي مع الناس حتى أتيت الجسر ، فعبرت معهم حتى انتهيت الى شارع الميدان ، فرأيت مسجدًا بالقرب من دار الفضل بن الربيع مرتفعًا ، فقلت مسجد قومٍ سَراة ، فدخلت ، وحضرتْ صلاة المغرب فصليت ، وأقمت بمكاني حتى صلّيت العشاء على جوع وعطش . وانصرف أهل المسجد وبقي رجل يصلّي وخلفه جماعة خدم وخوَل ينتظرون فراغه ، فصلىّ مليًّا ثم انصرف فقال : أحسَبك غريبًا ؟! قلت : أجل ! قال : فمتى كنت في هذه المدينة ؟ قلت : دخلتها آنفًا وليس لي بها منزل ولا معرفة ، وليس صناعتي من الصناعة التي يُتقرّب بها الى أهل الخير . قال : وما صناعتك ؟ قلت : الغناء . فوثب مبادرًا ووكّل بي بعض من معه .

فسألت الموكّل بي عنه ، فقال هذا سلاّم الابرش . وانتهى بي الى قصر من قصور الخلافة ، وجاوز بي مقصورة ، ثم أدخلني مقصورة في آخر الدهليز

ودعا بطعام . فأوتيت بمائدة عليها من طعام الملوك ، فأكلت حتى آمتلأت . فإني لكذلك إذ سمعت ركضًا في الدهليز وقائلاً يقول : اين الرجل ؟ فقيل : هو ذا ! قال : ادعوا له بغَسول وخلعة وطيب . ففُعل ذلك ؛ وحُملت على دابة الى دار الخليفة ، وعرفتها بالحرس والتكثير . فجاوزت مقاصير عدة حتى صرت الى دار قوْراء ، فيها أسِرّة في وسطها ، قد أُضيف بعضها الى بعض ، فصعدت فإذا رجل جالس وعن يمينه ثلاث جوار في حجورهن العيدان ، وفي حجر الرجل عود . فرحّب /9أ/ الرجل بي ، وإذا مَجالسُ حِياله كان فيها قوم قد قاموا عنها ، فلم ألبث أن خرج خادم من وراء السِّتر ، فقال للرجل : تغنّ ! فآندفع يغني بصوت لي (الكلل ، مفرد كلّة ، وهي ستر يخاط كالبيت (ناموسية) . اليعافير : الظباء . والوهل : الفزع) :

لم تمش مِيلاً ولم تركب على قتَبِ ولم تر الشمس الاّ دونها الكِلَلُ
مشي الـهُوَيْنا كأن الشمس توحشها مشْي اليعافير في إخائه الوهَلُ

فغنى بغير إصابة أوتار مختلفة ، ثم عاد الخادم الى الجارية التي تلي الرجل فقال : تغنيْ ! فغنت في صوت لي كانت فيه أحسن حالاً من الرجل وهو (الناشط : حيوان الوحش ، الثور أو الحمار) :

يا دارُ أضحت خلاءً لا أنيس بها الا الظباءُ والا النّاشط الفَرِدُ
أين الذين إذا ما زُرتهم جَذِلوا وطار عن قلبيَ السُّلوان والكمَدُ

ثمّ عاد الى الثانية ، وأحسبه أغفلها وما تغنّت ، ثمّ عاد الى الجارية التي تليهما فاندفعت تغنّي الصوتِ لحكَم الوادي وهو :

فوالله ما أدري أيغلبني الهوى إذا جدّ وَشْكُ البَيْن أم أنا غالـبُهْ
فان استطع أغلب وإن يغلِبْ الهوى فمثلُ الذي لاقيتُ يُغلَب صاحبهْ

ثم عاد الغلام الى الجارية فغنّت بصوت لحُنَيْن :

مررنا على قَيْسيّة عامريّة لها بشَرٌ خافي الأديم هِجانِ
فقالت وألقت جانبَ السِّتر دونها مِن أيّة أرض أو مَن الرَّجُلانِ

/9ب/

فقلت لها أما تميم فأُسرتي هُديتِ وأمّا صاحبي فيَمَاني
رفيقان ضمّ الشعر بيني وبينه وقد يُجمع الشتّى فيقترقان

ثم عاد الرجل فغنّى صوتًا فشبّه فيه (شبه فيه ، يريد لم يؤده على وجهه) ، شعر لعمر بن أبي ربيعة :

أمسَى بأسماء هذا القلبُ معمودًا إذا أقول صحا يعتاده عِيدا
كأنّ أحورَ من غِزلانٍ ذي نَفَر أعارها شبَهَ العيْنين والجيدَا
ومشرقًا كشعاع الشمس بهجته ومسبطرًا على لَبّاتها سُودا

ثم عاد الى الجارية فتغنّت بصوت حكَم الوادي وهو :

تُعيِّرنا أنّا قليلٌ عديدنا فقلت لها إن الكرام قليلُ
وما ضَرّنا أنا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلُ
وإنا لقوم ما نرى القتل سبّة اذا ما رأتْه عامر وسلولُ
يُقَرِّب حبّ الموت آجالُنا لنا وتكرهُه آجالهم فتطولُ

وتغنّت الثانية :

ودِدْتك لمّا قيل ودّك خالصٌ وأعرضتُ لمّا صرتَ نهبًا مُقسّمَا
ولن يلبث الحوضُ الجديد بناؤه إذا كثُر الوُرّاد أن يتهدّمَا

وتغنّت الثالثة بشعر الخنساء :

وما كَرّ إلا كان أوّل طاعنٍ وما أبصرتْه الخيلُ إلا اقشعَرّتِ

فيدرِك ثأرًا وهو لم يُخْطِه الغنى فمِثْلُ أخي يومًا به العين قَرّتِ
/ 10أ /
فلست أُرَزّى بعده برزيّة فأذكُره إلا سَلَتْ وتجلّتِ

وغنّى الرجل في الدور الثالث :

لَحَى اللهُ صعلوكًا مُناه وهمّه من الوّفر أن يَلْقى كؤوسًا ومطعمًا
ينام الضحى حتى إذا ليله انتهى تنبّه مسلوب الفؤاد مُوَرّمًا
ولكنّ صعلوكًا يُساورّ همّه ويمضي على الهيجاء ليْثًا مصمّمًا
فذلك إن يلق الكريهة يَلْقها كريمًا وإن يسْتَغْنِ يومًا فربّمَا

وتغنّت الجارية بشعر عمرو بن معدي كرب :

ألم تر لمّا ضمّني البلدُ القَفْر سمعتُ نداء يصْدَعُ القلبَ يا عمْرُو
أغثنا فإنا عُصْبة مُذحَجية تزيد على وفر وليس لنا وفْر

وتغنّت الثالثة بشعر عمر بن أبي ربيعة :

فلمّا تواقفنا وسلّمتُ أسْفرتْ وجوهٌ زهاها الحُسن أن تتقَنّعَا
تبًّا لهنّ بالعَرْفان لمّا عرَفْنني وقلن امرؤ باغ لكلٍّ وأَوْضَعَا
فلمّا تَواضعْن الحديثَ وقُلن لي أُخِفت علينا أنْ تُغَرّ وتُخْدَعَا

قال : وتوقّفتْ ، فجاء الخادم اليّ فقلت للرجل : بأبي أنت ، خذ العود وشدّ وتر كذا وآرفع الطبقة وحُطّ دُسْتان كذا ! ففعل ما أمرته ، وخرج خادم فقال : تغنّ عافاك الله ! فغنيت بصوت الرجل الاول على غير ما غناه ، فإذا جماعة من الخدم يحضرون حتى استندوا من الأسرة ، قالوا : ويحك لمن هذا الغناء ؟ قلت : لي . فانصرفوا عني تلك الساعة ، وعاد الخادم فقال : كذبت ، هذا الغناء لابن جامع .

ودار الدّور فلمّا انتهى اليّ قلت للجارية التي تلي الرجل : خذي العود .

فعملت ما أريد ، فسوّت العود على غنائها في الصوت الثاني ، فتغنيت به ، فخرجت الجماعة من الخدم ، وقالت : /10ب/ ويحك ! لمن هذا ؟ قلت : لي. فرجعوا ، وخرج الخادم وقال : كذبتَ ، هذا لابن جامع ! قلت : فأنا اسماعيل بن جامع ، فما شعرت الاّ والرشيد وجعفر بن يحيى قد أقبلا من وراء السِّتر الذي كان يخرج منه الخادم ، فقال لي الفضل بن الربيع : هذا أمير المؤمنين قد أقبل إليك .

فلما صعد السرير ، مثُلت قائمًا . فقال لي : ابن جامع ! قلت : ابنُ جامع ، جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين . قال : ويحك متى كنت في هذه المدينة ؟ قلت دخلتها آنفًا في الوقت الذي علم بي أمير المؤمنين . فقال : اجلس ويحك يا ابن جامع . ومضى هارون وجعفر ، فجلسنا في بعض المجالس . فقال : أبشِرْ وآبسُط أمَلَك . فدعوت له . ثمّ قال : غنّ يا ابنَ جامع ! فخطر بقلبي صوت الجارية ؛ فأمرتُ الرجل بإصلاح العود على ما أردت من الطبقة ، فعرف ما أردت ، فوزن العود وزنًا وتعاهده حتي آستقامت الاوتار وأخذت الدساتين مواضعها واندفعتُ أغني بصوت الجارية الحميراء .

فنظر الرشيد الى جعفر وقال : سمعت كذا قطّ ؟! قال جعفر : لا والله ما خرق مسامعي قط مثله . ورفع الرشيد رأسه الى خادم له كان بالقرب منه ، فجاء بكيس فيه ألف دينار فرمى به . فصيّرتُه تحت فخذي ودعوت لأمير المؤمنين ، فقال : يا ابن جامع ، ردّ على أمير المؤمنين هذا الصوت ، فرددته وتزيّدت في غنائي . فقال له جعفر : يا سيدي أما تراه كيف يتزيّد في الغناء ، هذا بخلاف ما سمعناه أوّلا ، وإن كان في اللحن واحدًا . فرفع الرشيد رأسه الى ذلك الخادم ودعا بكيس آخر فيه ألف دينار ، فجاءني به . فصيّرته تحت فخذي ، وقال : تغنّ يا اسماعيل /11/ بما حضرك . فجعلت أقْصِد الصوتَ بعد الصوت مما كان بلغني أنه يشْري عليه الجواري فأغنيه ، فلم أزل أفعل ذلك الى أن عسْعس الليل ، فقال : أتعبناك يا اسماعيل هذه الليلة بغنائك ، فأعدْ على

أمير المؤمنين الصوت ! يعني صوت الجارية ، فتغنيت ، فدعا الخادم بكيس ثالث فيه ألفُ دينار فجاءني به . فصيّرته تحت فخذي ، وتذكّرْت ما كانت الجارية قالت لي فتبسّمتُ ، ولحَظني الرشيد فقال : يا ابن الفاعلة ، لِمَ تبسّمت ؟ فجثوْت على ركبتي وقلت : يا أمير المؤمنين ، الصدق منجاة . فقال لي : القصّة ؟! فقصصت عليه خبر الجارية .

فلمّا استوعبه قال : صدقت ، قد يكون هذا . وقام ونزل من السرير ولا أدري أين أقصد ، فآبتدرني فرّاشان ، وجازا بي الى دار قد أمر بها أمير المؤمنين ففُرشت وأُعِدّ فيها جميع ما يكون في مثلها من آلات جُلساء الملوك وندمائهم من الخدم وكلّ آلة وحوّل إليّ جَوارٍ ووصائف ، فدخلتها فقيرًا فأصبحت من أجِلّة أهلها ومياسرهم . انتهى .

وذكر التنوخي هذا الخبر بخلاف عن اسماعيل بن جامع ، قال : ضمّني الدهر وأنا بمكة ضمّا شديدًا فانتقلت الى المدينة ، فبينما أنا جالس ذات يوم مع بعض أهلها نتحدّث إذ قال لي رجل حضَرنا : والله لقد بلغنا ، يا ابن جامع ، أن الخليفة ذكرك وأنت في بلد ضائع . فقلت : والله ما بي من نهوض . فأحتلتُ شيئا (حتل شيئا ، يقصد تناول غذاء سيّئا . .) وشخَصْت الى العراق ، فقدِمت بغداد ونزلت عن بغل كنت أكتريته ، ثمّ ذكر في الحديث نحو الذي قبله في المعاني ، ولم يذكر خبر السوداء الذي أخذ الصوت عنها ، فأحسبه غلط في إدخاله تلك الحكاية ها هنا ولتلك خبر آخر . وقال /11ب/ في هذا الخبر : إنّ الدور دار مرة أخرى حتى صار اليّ ، فخرج الخادم فقال : غنّ أيّها الرجل!! فقلت : أما أنتظر ؟ ثمّ اندفعت أغنّي بصوت لي وهو :

فلو كان لي قلبان عِشت بواحد ... وخلّفت قلبًا في هواك يُعذَّبُ
ولكنّما أحيًا بقلب مُروّع ... فلا العيشُ لي يصفو ولا الموت يقرُبُ
ولي ألف وجه قد عرَفت مكانه ... ولكن بلا قلب الى أين أذهب

فخرج الرشيد حينئذ ، الى تمام ما ذكر . انتهى .

ومما يحكى عن فضل الرشيد وحسن تدبيره ، أنه خرج عليه يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وظهر أمره بالديلم ، سنة ست وسبعين ومائة ، كما ذكر الملك المؤيد ، وتحرّك هناك واشتدّت شوكته ، فأرسل اليه الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي في جيش كثيف . فكاتبه الفضل وبذل اليه الأمان وما يختاره . فأجاب يحيى بن عبد الله الى ذلك وطلب يمين الرشيد وأن يكون بخطه ويشهد فيه الأكابر ، ففعل ذلك وحضر يحيى بن عبد الله الى بغداد ، فأكرمه الرشيد وأعطاه مالاً كثيرًا . ثم قبض عليه وحبسه فلا زال محبوسًا حتّى مات الى رحمة الله تعالى .

قال الملك المؤيد : وفي هذه السنة هاجت /12/ الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية ، وسببها أن رجلا من القيْن أتى رحًى بالبلقاء ، ليطحن فيه ، فمرّ بحائط رجل من لخم أو جذام وفيه بطيخ ، فتناول منه ؛ فشتمه صاحبه وتضاربا ، واجتمع قوم من اليمانيين وضربوا الذي من القين ، فأعانه جماعة [من مضر]، فقُتل رجل من اليمانيين . وكان على دمشق عبد الصمد بن علي ، فجمع الرؤساء وسعوا في الصلح بينهم ، فأتوا الى بني القين وكلّموهم في الصلح فأجابوا وأتوا الى اليمانية وكلّموهم فقالوا انصرفوا عنّا حتى ننظر، ثم سارت اليمانية الى بني القين وقتلوا منهم نحو ستمائة ، فاستنجدت بنو القين قضاعةَ وسلحًا (في الاغاني «سليحا») فلم ينجدوهم ، فاستنجدوا قيسًا فأجابوهم ، وساروا معهم الى العواليك من أرض البلقاء ، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة ، وكثر القتال بينهم . ثم عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاّها ابراهيم بن صالح بن علي ، ودام القتال بين المذكورين نحو سنتين . انتهى .

تمام آجال ووفيات رجال

مات الفرج بن فضالة وصالح بن بشير القاريء ، وكان ضعيفًا في الحديث ؛

ونعيم بن ميسرة النحوي الكوفي . وفيها توفي شريك بن عبد الله ابن أبي شريك ، وهو الحارث بن أوس النخعي ، تولّى القضاء أيام المهدي وعزله الهادي. كان عالمًا عادلاً في قضائه كثير الصواب حاضر الجواب . جرى بينه وبين عبد الله بن مصعب الزبيري كلام بحضرة المهدي فقال له مصعب : أنت تنتقص أبا بكر وعمر ! فقال شريك : والله ما أتنقّص جدّك ، وهو دونهما !

ووصف عنده معاوية بالحِلم ، فقال : ليس بحليم من سَفّه الحقَّ ، قاتلُ عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه .

وخرج /12ب/ شريك يومًا على أصحاب الحديث ليسمعوا عليه فشمّوا منه رائحة النبيذ ، فقالوا : لو كانت هذه الرائحة منّا لأستحيينا ! فقال له : لا بدّ أن تُجيبني الى خصلة من ثلاث . فقال : وما هي ؟ فقال : إمّا أن تلي القضاء ، أو تحدِّث وُلْدي وتعلّمهم ، أو تأكل عندي أكلة . ففكّر وقال : الأكلة أخفها على نفسي . فأحضر الأكل وفيه ألوانًا من المخ وغيره ، فأكل . فلما فرغ قال الطباخ : والله لا يُفلح الشيخ بعد هذه الاكلة أبدًا ! فوُلّي بعد ذلك القضاء وحدّث أولاد المهدي . وكتب المهدي له الى الصيرفي برزقه ، فقايضه الصيرفي بالنقد ، وقال له : لم تبع به بزًا . فقال له شريك : ويلك ، والله بعت به ديني !

وفيها توفي حمّاد ، ابن الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان . وكان على مذهب أبيه ، وكان من أهل الصلاح ، وكان ابنه اسماعيل قاضي البصرة ، فعزل منها . كذا حكاه في تاريخ العظمي .

أدبية بارعة ووصمة يانعة

مـمّا يُحكى عن الرشيد في علوّ همته ومزيد نعمته .

ذُكر في كتاب الاغاني أنّ ربيعة الرقّي ابن ثابت كان ينزل الرَّقة ، وبها مولده ومنشؤه ، وكان ضريرًا أشخصه المهدي اليه فمدحه ؛ فأمر له بشيء كثير ثم مدح العباس بن محمد بقصيدة طويلة يقول فيها :

مَا أنْ أُعُدّ من المكارم خصلة	إلاّ وجدتُك عمَّها أو خالها
وإذا الملوك تَسايروا في بلدة	كانوا كواكبَها وكنت هلالَها
إنّ المكارم لم تزل معقودة	حتى حللْتَ براحتيْك عِقالها

وناولها العباس فبعث اليه دينارين فكادت أن تخرج نفسه غضبًا /13/ وقال للرسول : خذ الدينارين ، وهما لك على أن تردّ الرقعة اليّ من حيث لا يعلم العباس لألحِق فيها شيئًا . قال : نعم . وأحضرها اليه ، فأمر من كتب في ظهرها :

مدحتُك مِدحة السيف المُحلَّى	لتجري في الكرام كما جريتُ
فيا لك مِدحة ذهبت ضَيَاعاً	كذبتُ عليك فيها وافتريتُ
فأنت المرء ليس له وفاءٌ	كأنّي إذْ مدحتك قد رثَيْتُ

ثم دفعها الى الرسول فوضعها في موضعها . فجاء العباس من الغد ونظر فيها فرأى الابيات في ظهرها ، فغضب وقام من وقته فركب الى الرشيد وكان يُجلّه ، وقد عزم على أن يخطب اليه ابنته ، فقال له : قد هجاني ربيعة الرقّي ! فأمر بإحضاره وقال له : ويلك ، أتهجو عمي ، لقد هممت أن أضرب عنقك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، والله لقد مدحته بقصيدة ما قال مثلها أحدٌ من الشعراء في أحد من الخلفاء ؛ لئن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها . فلما سمع الرشيد كلامه سكن غضبه ، وأمر العباس بإحضار الرّقعة ، فتلكّأ عليه وعلم أنه أخطأ وغلط . فقال له : بحياتي أحضِرْها !

فأحضرها . فوقف الرشيد عليها وأعجب بها ، وقال : والله لقد صدق ، فكم أثبته عليها ؟! فسكت وتغيّر لونه وجرض بريقه ، فقال ربيعة : أثابني عليها والله يا أمير المؤمنين دينارين فقال : بحياتي يا رقّي بكم أثابك ؟ قال : وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثابني سوى الدينارين . فغضب الرشيد غضبًا شديدًا ، وقال للعباس : سوْأة لك ، أيّ حالة (أية حال) قعَدتْ بك عن إثابته ؛ أقلّة المال ،

فوالله موّلتك جُهدي ؛ أم /13ب/ انقطاع المادة عنك ، فوالله ما انقطعتْ بك ؛ أم أصْلُك ، فوالله الاصل ما يدانيه شيء ؛ أم نفسك ، فلا ذنب لي ، والله نفسك فعلت بك هذا حتّى فضحتَ آباءك وأجدادك وفضحتني وفضحت نفسك ، وخلّدت الأُحدوثة عنك الى الأبد ! فنكس العباس رأسه ولم ينطق بحرف ، فقال الرشيد : يا غلام ، إعط ربيعة ثلاثين ألف درهم وخلعة وآحمله على بغلة ، وقل له بحياتي يا رقّي لا تذكره في شعرك تعريضًا ولا تصريحًا . فقال : سمعًا وطاعة ! ثم إنّ الرشيد فتَر عن التزويج اليه وجفاه واطّرحه بعد ذلك .

قال : وكان الرقّي يعبث بالعباس بن محمد بعد ما جرى بينهما بحضرة الرشيد ، فجاء العباس يومًا ببَرنيّة (البرنية ، إناء من خزف) فيها غالية ، فوضعها بين يدي الرشيد وقال : يا أمير المؤمنين هذه غالية صنعتها بيدي ، واخترت عنبرها من بحر عُمان ومسكها من مفاوز التُبَّت وبانَها من قعر تِهامة . وأكثر من وصفها ، فقال له ربيعة : ما رأيت أعجب من صفتك لهذه الغالية عند من اليه يُجلب كلّ موصوف ، ألا أجريت اليه منها نهرًا أم حملت اليه منها وقْرًا ، والله إن تعظيمك هذه عن من تجيء اليه خزائن الارض وأموالها من كلّ بلد وتتحفه الملوكُ بظرائف بلدانها لعجيب ، كأنّك قد فُقت ما عنده وأبدعت اليه ما لا يعرفه ؛ بالله يا أمير المؤمنين إلاّ جعلت حظّي من جائزة توصلها اليّ هذه الغالية حتى أتلقاها بحقها . فقال : ادفعوها اليه . فأخذها وحلّ سراويله وطلى بها أُسته وذكره وتحت إبطيه ، وقال /14/ لغلامه : خذ هذه الغالية وقل لجاريتي طيّبى بها حرَك وأُسْتك وإبطيك حتي أجيء الساعة أنكحك ! فضحك الرشيد حتى غشي عليه وكاد العباس أن يموت غيظًا ، وأمر له الرشيد بثلاثين ألف درهم . انتهى .

تذكرة اعلام ووفاة إمام

كان مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه على عهد الرشيد ، فرحل لسماع

الموطإ عليه . وهذا مما يحمد عليه الرشيد ولم يشاركه فيه غيره من الملوك .

قال القاضي في بعض رسائله : ما أعلم لملِك رحلة في طلب العلم الا الرشيد ، لأنه رحل بولديه الامين والمأمون لسماع الموطإ على مالك . وكان أصل الموطأ سماع الرشيد في خزانة المصريين . قال : ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب الى الاسكندرية ، فسمعه على أبي طاهر بن عوف ولا أعلم لهما ثالث ، انتهى .

ذكر بعضهم ، أنّ الرشيد أعطى لمالك ثلاثة آلاف دينار فأخذها ولم ينفقها . فلما أراد الرشيد الشخوص الى العراق ، قال لمالك : ينبغي أن تخرج معنا فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن . فقال له : أمّا حمْل الناس على الموطأ فليس الى ذلك سبيل ؛ فإنّ أصحاب محمد ﷺ افترقوا بعده في الامصار فحدثوا ، فعند أهل كلّ مصر علم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : اختلاف أمتي رحمة ؛ وأمّا الخروج معك فلا سبيل اليه ؛ قال ﷺ : المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، تنفي /1ب/ خبَثها كما ينفي الكير خبَث الحديد ، وهذه دنانيرك كما هي ، إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها !

يعني انما تكلّفني الخروج معك ومفارقة المدينة بما اصطنعتَه لديّ ، فلا أؤثر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ . وهذا يدلّ على زهده رضي الله تعالى عنه ، انتهى .

وتوفي مالك رضي الله عنه في ربيع الاول سنة تسع وسبعين ومائة ، وقال الملك المؤيد سنة ثمان وسبعين ومائة . ومولده سنة خمس وتسعين للهجرة . اه .

وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان ، ـ بغين معجمة ـ الاصبحي ، يتصل نسبه الى سبأ . كان طويلاً ، شديد البياض الى شقرة ، وهو إمام دار الهجرة ، وأحد الائمة الاعلام ، أخذ القراءة عن نافع بن أبي نعيم وسمع الزهري ونافعًا مولى ابن عمر، وروى عنه الاوزاعي ويحيى

بن سعيد وأخذ العلم عن ربيعة الرأي فكان رضي الله تعالى عنه اذا أراد أن يحدّث توضأ وجلس بوقار وهيبة ، فقيل له في ذلك فقال : أحبّ أن أعظّم حديث رسول الله ﷺ . وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنّه ويقول: لا أركب في مدينة فيها جثّة رسول الله ﷺ . وكان يقول : إذا لم يكن للانسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير!

وفي الحِلية ، قال مالك رضي الله تعالى عنه : ما بتّ ليلة إلا ورأيت فيها رسول الله ﷺ . اهـ .

وقد مدحه بعض العلماء (المرجع السابق والديباج ، ص 24 . ويروى البيتان باقل بلاغة مما هنا : «يأبى الجواب فلا يراجع . . » ، «أدب الوقار وعز سلطان التقى ، فهو المطاع») فقال :

يدع الكلام فلا يُراجَع هيبة والسائلون نواكس الاذقانِ
سيما الوقار وعز سلطان الورى فهو المهيب وليس ذا سلطانِ

قال شيخ الاسلام محيي الدين النووي ، رحمه الله : روينا بالاسناد الصحيح في جامع الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ النبيء ﷺ قال: يوشك أن يضرب الناس إباط الابل في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة ! قال الترمذي : حديث حسن صحيح . قال ، وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس رضي الله عنه . اهـ .

والحديث مذكور رواه النسائي والحاكم في أول المستدرك . وروي من حديث سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيء ﷺ قال : يوشك أن يضربوا أكباد الابل فلا يجدوا أعلم من عالم المدينة . قال : صحيح على شرط مسلم . قال : ولم يخرجه مسلم ، اهـ .

قال الدميري : إنما لم يخرجه مسلم لانه سأل البخاري عنه فقال : له علّة ،

وهو أنّ أبا الزبير لم يسمع من أبي صالح . ولما روى النسائي في السنن الكبرى هذا الحديث من حديث ابن عيينة عن أبي الدرداء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عقّبه بقوله : هذا خطأ والصواب أبو الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه . وقيل : عالم المدينة عبد الله العمري /15ب/ وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنهم . روى عنه ابن عيينة وابن المبارك وغيرهما . وكان من أزهد أهل زمانه وأشدّهم تخليًا للعبادة ، عاصر مالك بن أنس رضي الله عنهما . وتوفي سنة أربع وثمانين ومائة بعد مالك بنحو ست سنين ، وهو ابن ست وستين سنة . قال عمر بن شبة : حدّثنا أبو يحيى الزُهري قال : قال عبد الله العمري بعد موته : بنعمة ربي أحدّث ، لو أنّ الدنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني عن أخذها الا أن أزيل قدمي عنها ما أزلتها .

وكتب العمري المذكور الى مالك وابن دينار وغيرهما بكُتب أغلظ لهم فيها ، فجاوبه مالك بجواب .

ففيه قال ابن عبد البرّ في التمهيد : كتب العمري الى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل ويرغب به عن الاجتماع اليه في العمل . فكتب اليه مالك : «إن الله عز وجلّ كتب الاعمال كما كتب الارزاق ، فربّ رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصيام ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام ، وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة . ونشر العلم وتعليمه من أشرف أعمال البرّ ، وقد رضيت بما فتح الله تعالى فيه من ذلك وما أظنّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه وأرجو أن يكون كلانا على خير ، ويجب على كلّ واحد منّا أن يرضى بما قسم الله تعالى له ، والسلام» .

وفي الاخبار ، في الباب السادس من أبواب العلم ، يحكي أنّ يحيى بن يزيد المتوكل كتب الى مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه : «أمّا /16أ/ بعد ، فقد بلغني أنّك تَلبس الرّقاق وتأكل الرُّقاق ، وتجلس على الوطاء ، وتجعل على بابك

حجّابًا ، وقد جلست جِلسة المعلم ، وضُربت اليك إباط المِطيّ ، وارتحل اليك الناس فآتخذوك إمامًا ورضوا بقولك . فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع . كتبت اليك بالنصيحة منّي كتابًا ما آطلع عليه الاّ الله تعالى ، والسلام» . فكتب اليه مالك : «بسم الله الرحمن الرحيم . من مالك ابن أنس الى يحيى بن يزيد ، سلام عليك ، أمّا بعد ، فقد وصل اليّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة من المشفق ، أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرًا ، وأسأل الله التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وأمّا ما ذُكرت من أنّي آكل الرّقاق وألبس الرقاق فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله العظيم ، وقد قال سبحانه : «قلْ مَنِ حرّم زينةَ الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرِّزق» . وإني لا أعلم أن ترك ذلك خيرٌ من الدخول فيه ، فلا تدعُنا من كتابك ، فإنّا لسنا ندعُوك من كتابنا ، والسلام» .

وفيه أيضًا أنّ الشافعي رضي الله عنه قال : شهدت مالكًا رضي الله تعالى عنه وقد سئل عن ثمان وثمانين مسألة ، فقال في اثنين وثلاثين منها لا أُدري . وهذا يدلّ على أنّه كان يريد بعلمه وجه الله تعالى ، فإنّ من يريد غير وجه الله تعالى بعلمه لا تسمح نفسه بأنه لا يدري . ولذلك قال الشافعي : إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، اهـ .

ونقل المؤيد أنّ الشافعي رضي الله تعالى عنه قال : قال لي محمد بن الحسن : أيّهما أعلم /16ب/ صاحبنا أم صاحبك ؟ يعني أبا حنيفة ومالكا . قال : قلت : على الأنصاف ؟ قال : نعم ؛ قال فقلت : أنشدك الله ، من أعلم بالقرآن صاحبنا أم صاحبكم ؟ قال : اللّهم صاحبكم ! قال فقلت : أنشدك الله من أعلم بالسنة ؟ قال : اللهم صاحبكم . قال فقلت : فأنشدك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله ﷺ المتقدمين صاحبنا أم صاحبكم ؟ قال : اللّهم صاحبكم . قال الشافعي : فلم يبق الا القياس ، والقياس لا يكون الا على هذه الاشياء .

وروي أنّ أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في الطلاق المكره ثم

دسّ عليه من سأله فروى عن ملإ من الناس : ليس طلاق على مكره ؛ فضربه بالسياط .

وذكر المؤيد أنّه سُعي بمالك الى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو ابن عم أبي جعفر المنصور ، فقالوا له إنّه لا يرى الايمان ببيعتكم هذه بشيء ، لأن يمين المكره ليست لازمة . فغضب جعفر ، ودعا بمالك وجرّده وضربه بالسياط ، ومُدّت يده حتى انخلعت كتفه ، وآرتكب منه أمرًا عظيمًا ، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علوّ ورفعة ، وكلّ ذلك بفضل العلم أول ما حدّثني به مالك بن أنس حين أتيته طالبًا لما ألهمني الله اليه في أوّل يوم جلست اليه ؛ قال لي : ما اسمك ؟ قلت : أكرمك الله ، يحيى . وكنت أحْدث أصحابه /17/ سنًا ، فقال : يا يحيى ، الله الله الجدّ في هذا الأمر ، وسأحدثك في ذلك بحديث يرغّبك فيه ويزهّدك في غيره . قال : قدم المدينة غلام من أهل الشام بحداثة سنّه فكان معنا يطلب ويجتهد حتّى نزل به الموت فلقد رأيت على جنازته شيئًا لم أر مثله علي أحد من أهل بلدنا الا طالب أو عالم ورأيت جميع العلماء يزدحمون على نعشه . فلما رأى ذلك الامير أمسك عن الصلاة وقال : قدّموا منكم من أحببتم . فقدّم أهل العلم ربيعة ، فألحده في قبره ، وزيد بن أسلم ويحيى بن سعيد وابن شهاب وأقرب الناس اليهم محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم وأبو حازم وأشباههم ، وبني على لحده ربيعة ، وهؤلاء كلّهم يناولونه اللّبِن .

قال مالك فلما كان اليوم الثالث من يوم دفنه رآه رجل من خيار أهل بلدنا في أحسن صورة وتحته فرس أشهب نازل من السماء ، فكان يأتيه قاصدًا ويسلّم عليه ويقول : هذا بلّغني اليه العلم ! فقال الرجل : وما الذي بلغك اليه ؟ فيقول: أعطاني الله بكل باب تعلّمته من العلم درجة في الجنة فلم تبلغ لي الدرجات الا درجة أهل العلم ، فقال الله تعالى : زيدوا ورثة أنبيائي ، فقال : حتّمْت على نفسي أنه من مات وهو عالم سُنّتي أو سنّة أنبيائي أوطالبٌ لذلك أن أجمعهم في درجة واحدة ، فأعطاني ربّي حتى بلغت الى درجة أهلِ /17ب/

فليس بيني وبين رسول الله ﷺ الا درجتان ، درجة هو فيها جالس وحوله النبيّون كلّهم ، ودرجة فيها جميع أصحابه وجميع أصحاب النبيّين الذين آتبعوهم ، ودرجة من بعدهم فيها جميع أهل العلم وطلبته ، فسيّرني حتى استوسطتهم ، فقالوا : مرحبًا مرحبًا ! سوى مالي عند الله من المزيد .

فقال له الرجل : ومالك عند الله من المزيد ؟ قال : وعدني ربي أن يحشر النبيئين كلهم كما رأيتهم في زمرة واحدة ، فيقول : يا معشر العلماء هذه جنّتي قد أبحتها لكم ، وهذا رضواني قد رضيت عنكم ، فلا تدخلوا الجنّة حتى تتمنّوا وتشتفعوا ، فأعطيكم ما شئتم وأُشفعكم فيمن استشفعتم له ، ليرى عبادي كرامتكم عليّ ومنزلتكم عندي .

فلمّا أصبح الرجل حدّث أهل العلم وانتشر خبره بالمدينة . قال مالك : كان بالمدينة أقوام بدَوْا معنا في طلب هذا الامر وكفّوا عنه حتى سمعوا هذا الحديث ، فلقد رجعوا اليه وأخذوا بالجدّ ، هم اليوم من علماء بلدنا ، الله الله ، يا يحيى جِدّ في هذا الامر ! انتهى .

وفي مالك ، أنّ عبد الله بن سلاّم قال لكعب الأحبار، رضي الله عنهم : من أرباب العلم الذين هم أهله ؟ قال : الذين يعملون بعلمهم ! قال : صدقت ، فما ينفي العلم من صدور العلماء بعد إذ علموه ؟ قال : الطمع . انتهى .

وقال الواقدي (الدر 7ب) : مات مالك بن أنس وله من العمر تسعون /18/ سنة ، ودفن بالبقيع من المدينة وكان يكره حلق الشارب ويراه من المُثْلة ، ولا يغيّر شيبه رضي الله عنه . اه .

وفي الحلية : قال الشافعي رضي الله تعالي عنه : قالت لي عمّتي ونحن بمكة : رأينا في هذه الليلة عجبًا ! فقلت لها : وما هو ؟ قالت : قائلا يقول لي مات مالك ، أعلم أهل الارض . فحسبنا ذلك . فإذا هي ليلة مات فيها الامام مالك رحمه الله . وقد ضبط الشيخ الامام أبو مهدي عيسى الثعالبي الجزيري المالكي مولدَ الامام مالك ، وولادته بقوله :

فخرُ الائمة مالكْ نِعْم الامام السالكْ　　مولده نجم هدى وفاته فاز مالكْ

تفريج مصاب وزوال اكتئاب

ذكر في كتاب الفرج بعد الشدّة عن جبريل بن بختشوع الحكيم ، قال : كنت مع الرشيد بالرقّة ومعه المأمون ومحمد الامين . وكان رجلا كثير الاكل والشرب ، فأكل في بعض الايام أشياء خلط فيها ، ودخل المستراح ، فغُشي عليه فيه ، وأُخرج وقوي عليه الغشي حتى لم يشك غلمانه في موته ، وحضر ابناه وشاع عند العامة والخاصة خبره وأرسل اليّ فحضرت ، ومسست عِرقه ، فوجدت نبضًا خفيفًا ، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاءًا في حركة الدم . فقلت لهم : لم يمت والصواب أن يُحجم الساعة ! فقال كوثر الخادم : يقدّر من أُمر الخلافة وإفضائها الى صاحبه محمد ، يا ابن الفاعلة تقول احجموا رجلا ميتًا لا يقبل /18ب/ قولك و لا كرامتك ! فقال المأمون : الامر قد وقع ، وليس يضير أن يحجمه أكثر من الموت .

فأحضر الحجام ، وتقدّمت الى جماعة من الغلمان بإمساكه ففعلوا وأقْعدَهُ مُسّاكه ، فقلت للحجام : ضع محاجمك ! ففعل . فلمّا مصّها رأيت الموضع قد احمرّ ، فطابت نفسي بذلك وعلمت أنه حيّ . ثم قلت : إشرِط ! فشرط . فأُخرج الدم ، فسجدت شكرا لله تعالى ، وجعل كلّما خرج ألم يحرّك رأسه ويسفر لونه الى أن تكلّم وقال : أين أنا ؟ فطيّبنا نفسه وغذيناه بصدر درّاج وسقيناه نبيذًا ، وما زلنا بالطيب في أنفه وحوله حتى تراجعت اليه قوّته وأُدخِل الخاصة والقواد اليه ، فسلّموا عليه من بعد ما كان قد شاع خبره . ثم تكاملت قوّته ، ووهب الله عافيته .

فلما خرج من علته دعا بصاحب حرسه وصاحب شرطته وحاجبه فسأل صاحبَ الحرس عن غلّته في كلّ سنة . فعرّفه أنّها خمسمائة ألف ألف درهم ، وسأل صاحب شرطته عن غلته . فعرّفه أنها خمسمائة ألف درهم ، فقال : يا

جبريل ، كم غلّتك ؟ قلت : خمسون ألف درهم . فقال : ما أنصفناك ، حيث كان غلات هؤلاء وهم يحرسون ويحجبوني عن الناس على ما هي عليه وتكون غلّتك ما ذكرت . وأمر بإقطاعي غلة ألف ألف درهم . فقلت : يا سيّدي ، ما لي حاجة الى الاقطاع ، ولكن تهب لي ما أشتري به ضياعًا . ففعل وساعدني حتى صرت صاحب ضياع وعقار ورباع ، حتى صار مدخولي في السنة مقدار خمسين ألف دينار . انتهى .

ومما يندرج في سلك هذا النظام ويوشّح به هذا المقام ما /19/ ذكره البسطامي في كتابه مناهج التوسّل الى مباهج الترسّل ، ما نصّه : بينما الموائد قد مدّت بين يدي الرشيد وإذا بجبريل بن بختشوع قد دخل عليه ، فسأله الرشيد عن حال ابراهيم بن صالح المقدّم ذكره في عزله عبد الصمد وتوليته الشام في أيام الفتنة ؛ وذلك أنه عزله عن الشام أيضًا ، وأتى الى العراق فمرض مرضًا شديدًا ، وكان طبيبه بختشوع ، فسأله الرشيد عن حاله ، فأخبره أنه في آخر رمق وأنه يقضي عليه وقت صلاة العشاء . فحزن الرشيد وأقبل على البكاء ، وأمر برفع الموائد فرُفعت ، فقال جعفر البرمكي : يا أمير المؤمنين لو أحضرت صالح بن بُهلة الهندي ثمّ وجّهته لابراهيم بن صالح لنفهم عنه ما يقول . فأمر بإحضاره وتوجيهه وردّه بعد منصرفه من عنده ، ففعل ذلك جعفر ومضى صالح الى ابراهيم حتى عاينه وجسّ عِرقه ، وصار الى جعفر فسأله عمّا عنده من العلم فقال : لست أخبر بالخبر غير أمير المؤمنين ، فدخل جعفر على الرشيد وخبّره ، فأمر بإحضار صالح . فدخل ، ثمّ قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أشهدك وأشهد من حضرك على نفسي أنّ ابراهيم بن صالح إن توفي في هذه الليلة أو في هذه العلة أنّ امرأته طالق ثلاثًا ! فسُرِيَ عن الرشيد ما كان يجد ، وطعِم وأُحضرله الشراب فشرب .

فلمّا كان وقت صلاة العشاء ورد الخبر بموت ابراهيم بن صالح على الرشيد . فاسترجع وأقبل باللّوم على جعفر في إرشاده الى صالح بن بهلة . وبكّر الى دار ابراهيم وجلس على البساط ووقف صالح بين يدي الرشيد /19ب/ فلم

يُناطقه أحد الى أن سطعت روائح المجامر ، فصاح عند ذلك صالح : الله ، الله ، يا أمير المؤمنين ، أن تحكُم عليّ بطلاق زوجتي ولم يلزمني حنَثٌ ؛ الله ، الله ، أن تدفن ابن عمّك حيًّا ، فوالله يا أمير المؤمنين ما مات ، فأطلِقْ لي الدخولَ عليه والنظر اليه . فأذن له بالدخول على ابراهيم وحده .

قال الراوي : فسمعت صوت ضرب بالكف ثم انقطع عنّا ذلك الصوت . فخرج الينا صالح ثم قال : قم يا أمير المؤمنين حتى أُريك عجبًا . فدخل اليه الرشيد فأخرج صالح إبرةً كانت معه فأدخلها بين ظفر إبهام يده اليسرى ولحمه ، فجذب ابراهيم بن صالح يده وردّها الى بدنه . فقال (من هنا الى آخر الحكاية زيادة عما في المطبوع من المناهج) صالح : يا أمير المؤمنين ، هل يحس الميت بالوجع ؟ فقال الرشيد : لا ، فقال له صالح : لو شئت أن يكلّم أمير المؤمنين الساعة لكلّمه ! فقال له الرشيد : فأنا أسألك أن تفعل . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عالجته وأفاق وهو في كفن في رائحة الحنوط أخاف أن ينصدع قلبه فيموت موتًا حقيقيًا ، فلا يكون لي في إحيائه حيلة ؛ ولكن يا أمير المؤمنين مرْ بتجريده من الكفن وردّه الى المغتسل وإعادة الغسل عليه حتى يزول رائحة الحنوط عنه ، ثم يلبس مثل ثيابه التي كان يلبسها في حال صحته ويحوّل الى فراشه الذي كان يجلس عليه وينام فيه حتى أعالجه بحضرة أمير المؤمنين ، فإنه يكلّمه من ساعته . ففُعل به ذلك .

وصار الرشيد اليه ، ودعا صالح بكُنْدُس ومنفخة من الخزانة ، ونفخ الكندس في أنفه ، فمكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب /20/ بدنه وعطس وجلس أمام الرشيد وقبّل يده وسأله عن قصته . فذكر أنه كان نائمًا نومًا لا يذكر أنه نام مثله قط طيبًا ، الا أنه رأى في منامه كلبًا قد أهوى اليه فتلقاه بيده فعضّ إبهام يده اليسرى عضّة انتبه وهو يحسّ وجعها ، وأراه إبهامه التي كان صالح أدخل فيها الإبرة . فسرّ الرشيد بذلك وعاش ابراهيم بعد هذا الى أن تزوّج العباسة بنت المهدي وولي فلسطين ومصر وتوفي بمصر . انتهى .

تمام مرام وسياق كلام

قد تقدّم ذكر عبد الصّمد بن عليّ ، وهو عمّ ابراهيم بن صالح بن علي المذكور وقريب الرشيد .

ولعبد الصّمد هذا عجائب تذكر ، منها أنه ولد في سنة أربع ومائة ، وولد أخوه محمد بن علي ، والد السفّاح والمنصور، سنة ستين للهجرة ، فكان بينهما في المولد أربع وأربعون سنة . وتوفي محمد بن علي سنة ست وعشرين ومائة ، وتوفي عبد الصّمد بن علي سنة خمس وثمانين ومائة . فكان بينهما في الوفاة تسع وخمسون سنة . فانظر كم كانت بينهما في المولد والوفاة ، مع أنّ الاخوة لا تقتضي بعد هذه المسافة بين الاخوين .

قيل كان عبد الصّمد يوما بمجلس الرشيد فنظر فإذا في المجلس سليمان بن جعفر والعباس ، فقال عبد الصّمد : هذا المجلس فيه أمير المؤمنين وعمّ أمير المؤمنين وعم عم أمير المؤمنين . وذلك أن سليمان بن جعفر عم الرشيد ، والعباس عم سليمان وعبد الصّمد عم العباس . ومنها /20ب/ أنّ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان حج بالناس سنة خمسين وحج بالناس عبد الصّمد سنة خمسين أيضًا بعد المائة ، وهما في تعدد النسب الى عبد مناف سواء ؛ لأن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وعبد الصّمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم . فبين كل منهما الى عبد مناف خمسة أجداد . ومنها أنه مات بأسنانه التي ولد بها ، وكانت قطعة واحدة . ومنها أنه دخل سربًا فطارت ريشتان ، فلصقتا بعينيه فذهب بصره ، ومات كذلك رحمه الله .

غضب واسترجاع ووعظ وإقناع

ذكر في كتاب الفرج بعد الشدة ، قال أمر الرشيد بعض خدمه فقال له : إذا كانت الليلة فسرّ الى الحجرة الفلانية ، فآفتحها ، وخذ من رأيت فيها ، وآت به موضع كذا من الصحراء فإنّ ثمّة قليبًا محفورًا ، فآرم به فيه ، وطمّه بالتراب ،

وليكن معك فلان الحاجب . قال : فجاء الى باب الحجرة ففتحها فإذا فيها غلام كأنه الشمس الطالعة . قال فجذبه اليه جذبًا عنيفًا فقال له : اتّق الله ، فإني ابن رسول الله ﷺ ، فالله ، الله ، أن تلقى جدّي بدمي !

قال ، فلم يلتفت الى ما قاله ، وأخرج الى الموضع . قال ، فلمّا أشرف الفتى على التلف قال : يا هذا إنك على ردّ ما لم تفعل أقدر منك على ردّ ما فعلت ، فدعني أصلي ركعتين وأمض ما أُمِرتَ به ! فقال له : شأنك وما تريد ، فأفعل ! فقام الفتى فصلّى ركعتين . ثم سمعناه يقول : يا خَفيٌّ /21/ اللطف ، أعنّي في وقتي هذا وألطف بي بلطفك الخفي ! فوالله ما استتم دعاءه حتى هبّت ريح وغبرة ، فلم ير بعضنا بعضًا ووقعنا لوجوهنا ، وأُشْغِلْنا بأنفسنا عن الفتى ، ثم سكنت الريح والغبرة ، فرأينا الكواكب وطلبنا الفتى فما رأيناه ورأينا قيوده مرمية بحضرتنا .

قال ، فقال الحاجب لمن كان معه : هلكنا ، سيقع لأمير المؤمنين أنّا طلقناه فماذا تقول ، لئن نحن كذبنا لم نأمن أن يبلغه خبر الفتى ، ولئن صدقناه ليجعلنّ المكروه لنا . فقال بعضهم لبعض : لئن كان الكذب يُنجي فالصدق أنجى !

فلما دخلوا على الرشيد قال لهم : ما فعلتم ؟ فقال الحاجب : يا أمير المؤمنين الصدق أولى ، ومثلي لا يتجرأ أن يكذب على أمير المؤمنين وأنه كان من الخبر كذا وكذا . فقصّه عليه . فقال الرشيد : والله لقد تداركه اللطف الخفي ، والله لأجعلنّها من مقدّمات دعائي . امض لشأنك واكتم ما جرى ! انتهى .

اشتياق وبغية وفصيل وقضية

ذكر النهرواني ، أنّ أبا يوسف القاضي ، رحمه الله ، قال : دعاني الرشيد ليلا فدخلت عليه وأنا مرعوبٌ . فقال : يا يعقوب دعوتك لأشهدك على عيسى بن جعفر أنّ عنده جارية سألته أن يهبها لي أو يبيعها مني فامتنع ، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنّه . قال أبو يوسف ، فالتفت الى عيسى وقلت له : وما بلغ الله بجارية

تمنعها أميرَ المؤمنين ، وتنْزِل نفسك هذه المنزلة ! فقال لي : لا تعجل واسمع عذري ، وهو أنّ عليّ يمين /21ب/ بالطلاق وصدقة ما أملك أن أبيع هذه الجارية ولا أهبها .

فالتفت اليّ الرشيد وقال : هل له في ذلك مخرج ؟ قلت : نعم ، يهب لك نصفها ويبيع نصفها الآخر ، فيكون لم يهب ولم يبع . فقال عيسى : أويجوز ذلك ؟ قلت : نعم ! قال : فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وأبعته نصفها بمائة ألف دينار . وأتى بالجارية وقبض المال . فقال الرشيد : يا يعقوب ، وبقيت واحدة ، وهي أنها مملوكة ولا بدّ أن تستبرأ ، ووالله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني أظنّ نفسي ستخرج . فقلت : يا أمير المؤمنين ، تعتقها وتتزوجها ، فإنّ الحرّة لا تُستبرأ . فأعتقها وزوّجها إياه على عشرين ألف دينار . ودفع اليها المال ، وأنعم عليّ بمائتي ألف درهم وعشرين تختًا ثيابًا ، وبعثتُ اليّ الجارية بنصف ما وصلها به الرشيد . انتهى .

فكر ثاقب ورأي صائب

قيل إنّ الرشيد رأى رؤيا في منامه ، كأنّ ملكًا يخاطبه ، فقال له الرشيد : كم بقي من عمري ؟ فأشار له بخمسة أصابع يده . فتهوّل الرشيد بذلك ، وجمع العلماء لتعبيرها ، وكان فيهم أبو يوسف ، كان جالسًا في آخريات الناس فسكتوا كلهم متحيّرين فيما يقولون له في تعبيرها ، وأيّ خمسة ترضيه : أيام أو جُمع أو أشهر أو أعوام ، وكل ذلك لا يرضى به الرشيد إذا خلى ونفسه ، فبعد أن أيس من أجوبتهم قال أبو يوسف : أيد لله أمير المؤمنين ، إنك سألته عمّا بقي من عمرك وهو لا /22/ يعرفه فأشار اليك بخمسة أصابع يده قائلا بلسان حاله خمسة لا يعلمها الا الله عز وجلّ ومنها الاجل ؛ قال تعالى : «انّ الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا ، وما تدري بأي أرض تموت إنّ الله عليم خبير» ، فقال له

الرشيد: جزاك الله عني خيرًا ، لقد أزلت عنّي شبهة . وكانت هذه سبب تقرّبه وحظوته عنده .

وذكر عليّ بن الحسن التنوخي عن والده عن جدّه قال ، كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد أنه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رحمه الله فحنث بعض القواد في يمين فطلب فقيها يستفتيه ، فجيء بأبي يوسف ، فأفتاه فوهب له دنانير كثيرة وأنزله بالقرب من داره . ثم دخل القائد يومًا على الرشيد فوجده مغمومًا ، فسأله عن سبب غمّه ، فقال : شيء من أمر الدين قد أحزنني فاطلب لي فقيها استفتيه . فجاءه بأبي يوسف . قال : أبو يوسف : فلما دخلت الى ممرّ بين الدور رأيت فتى حسنًا عليه أثر الملك ، وهو في حجرة محبوس ، فأومأ اليّ بيديه مستغيثًا فلم أفهم إرادته ، وأُدخلت على الرشيد ، فلما مثلت بين يديه قال: ما اسمك ؟ قلت : يعقوب ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال : ما تقول في إمام شاهد رجلا يزني ، هل تحدّه ؟ قلت : لا ! فحين قلتها سجد الرشيد ، فوقع لي أنه رأى بعض أهله على ذلك ، وأنّ الذي استغاث اليّ هو . ثم قال لي : من أين لك هذا ؟ قلت : لانّ النبي ﷺ قال : ادرؤوا الحدود بالشُّبهات وهذه /22ب/ شبهة يسقط الحدّ معها ، فقال : وأيّ شبهة مع المعاينة ! قلت : ليس يوجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ، والحدود لا تكون بالعلم وليس لأحد أخذ حقه بعلمه . فسجد مرة أخرى ، وأمر لي بمال جزيل ، وأن ألزم الدار . ولما خرجت جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته ، وصار ذلك أصلا للنعمة ، ولم تزل حالي تقوى حتى ولّيت القضاء . انتهى .

كان أبو يوسف تأتيه الجوائز والصلات من الرشيد وأهله وحاشيته الى أن بلغ ذلك مبلغًا عظيمًا .

قيل في ذلك ، حكى يحيى بن معين قال ، كنت عند أبي يوسف رضي الله تعالى عنه وعنده جماعة من أصحاب الحديث فوافته هدية زبيدة أم جعفر ، احتوت على تخوت ديبقي (الديبقي ، نسبة الى دبيق قرية بمصر مشهورة

بصناعة الثياب) وشُرب مطيّب وتماثيل ندّ وغيره ، وفي جام دراهم ، وفي آخر دنانير . فذكّرني رجل بحديث رسول الله ﷺ وهو : «من أتته هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها» . فسمعه ابو يوسف فقال : إنما قال ذلك النبي ﷺ والهدايا يومئذ الأقِط (الأقط ، لبن محمّض يجمّد حتّى يستحجر ويطبخ ، أو يطبخ به) والتّمر والزبيب ؛ ولم يكن الهدايا ما ترون . يا غلام أشِلْ الى الخزائن ! انتهى .

قلت : ولعله إنما قال ذلك ليداعب جلاسه أو ليكنّي لهم أن الشركة لا تكون الا في جنس المأكول لا في غيره مما لا يستهلك ، فإنّ النفس ترغب في ادخاره ولا سيما في النقود . اه .

لطيفة :

ذكر في تاريخ بغداد ، كان يجلس الى أبي يوسف رجل فيطيل الصمت ولا يتكلم . فقال له أبو يوسف يومًا : ما لك لا تتكلم ؟ فقال : بل متى يفطر /23/ الصائم ؟ قال : إذا غابت الشمس . قال : فإن لم تغب الى نصف الليل كيف يصنع ؟ فضحك أبو يوسف وقال له : أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعائي نطقك . وأنشد :

عجبت لإزراء الغبيّ بنفسه وصمت الذي قد كان بالقول أعلمَا
وفي الصمت ستر للغبيّ وإنما صحيفة لبّ المرء أن يتكلّمَا

انتهى .

كان أبو يوسف من أصحاب أبي حنيفة ، رضي الله تعالى عنهما ، سمع أبا اسحاق الشيباني وسلمان التميمي ، ويحيى بن سعد الانصاري ، والأعمش وهشام بن عروة ، وعطاء بن السائب ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وبشر بن الوليد ، وعليّ بن الجعد ، وأحمد بن حنبل . وسكن بغداد وتولّى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء ، المهدي والهادي والرشيد ، وهو أوّل من غيّر لبس

العلماء الى هذه الهيئة التي هم عليها اليوم . وكان الناس قبل ذلك لا يتميّز أحد عن أحد بلباسه .

قال محمد بن جرير الطبري : إنّ قومًا من أهل الحديث تجافوا حديث أبي يوسف من أجل غلَبة الرأي وتفريعه الفروع والاحكام مع صحبة السلطان وتقليده القضاء . وقال هلال بن يحيى : كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب ، وكان أقلّ علومه الفقه .

وذكر النّهرواني في كتابه الجليس والأنيس عن الشافعي قال : مضى أبو يوسف ليسمع المغازي من محمد بن اسحاق ، ولم يحضر /23ب/ مجلس أبي حنيفة أيامًا . فلما أتاه قال له أبو حنيفة : يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت ؟ فقال له : إنك إمام ، ولم تمسك عن هذا ؛ سألتك الله على رؤوس الملإ أيما كان أوّل وقعتْ ، بدرٌ أم أحد ؟ فإنك لا تدري أيّهما كان قبل . فأمسك عنه .

وذكر التنوخي ، قال حدّثني أبي قال : بلغني من غير واحد أنّ أبا يوسف صحب أبا حنيفة لتعلّم العلم على فقر شديد ، وكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش ، فيعود الى منزله بفقر وشدّة ، وكانت أمّه تحتال له ما يقتاته يومًا فيومًا . فلما طال ذلك عليها خرج الى المجلس يومًا فأقام فيه يومه وعاد ليلا فطلب ما يأكل فجاءته بغَضارة (الغَضارة ، آنية من الغَضار وهو أو الغضارة وهو الطين اللزج الأخضر الحر ، أو هو تراب طيني كثير الذرات كثير الاندماج والصلابة تتخذ منه الاواني) مغطاة ، فكشفها فإذا فيها دفاتر ، فقال لها : ما هذا ؟ قالت : ما أنت مشغول به نهارَك أجمع ، فكُل منه ليلا !

قال ، فبكى وبات جائعًا ، وتأخر من غد عن المجلس حتى احتال ما أكلوه. فلما جاء الى أبي حنيفة سأله عن سبب تأخره ، فصَدَقه . فقال : هلاّ عرّفتني ، فكنت أمُدّك ، ولا يجب أن تغتم ، فإنّه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفسدق (والمعاجم تكتبه «فستق» بالتاء ، والتبادل بين الحروف في

مثل هذه الكمات معروف . واللوزينج ، حلوى يشبه القطائف يؤدم بدهن اللوز) المقشر .

قال أبو يوسف ، فلما خدمت الرشيد وآختصصت به قُدمّتْ بحضرته يومًا جامات الوزينج بفسدق مقشر ، فدعاني إليها فحين أكلت منها تذكّرت أبا حنيفة ، فبكيت وحمدت الله، فسألني الرشيد عن السبب في ذلك فأخبرته . انتهى.

وروي عنه أنه قال : كنت يتيمًا صغيرًا ، فدفعتني أمي الى قصّار (الذي يعتني بحرفة القصارة وهي تبييض الثياب ومعالجته بالتمديد) يعلّمني القصارة ، فكنت أهرب وآتي مجلس /24/ أبي حنيفة ، فكان يُعنى بي ، وكانت أمي تنهاني . فلمّا كثر هربي جاءت أمي الى أبي حنيفة وقالت : ما على ابني فسادٌ غيرك ؛ إنه يتيم فقير ، وإني أعيّشه بمغزلي ، ودفعْته الى قصّار يعلّمه قِصارة الثياب ، حيلةً على القوت ؛ فإذا به كلّ يوم يأتيك ويترك معيشته ، إنّك سحرته ! فقال لها : إني أعلّمه شيئا سيأكل به الفالوذج بدهن الفستق ! فقالت له : إنك شيخ كبير قد خرفْت ، إنّا لا نخبز الشعير فكيف بالفالوذج بدهن الفستق ؟

قال أبو يوسف رحمه الله تعالى ، فلما خالطت الرشيد فكنت يومًا آكل معه فأشار لي الى صحن وقال لي : كل من هذا ، فإنّه لا يُعمل لنا منه كلّ مرة فقلت : وما هذا ؟ قال : فالوذج بدهن الفستق ؛ فضحكت ، فظنّني أهزأ ، فقال : أتهزأ بي ؟ فقلت : لا والله ما هزأت ! وأخبرته خبر أمي مع أبي حنيفة . قال ، فبكى الرشيد وقال رحمه الله : أبا حنيفة كان يرى بعين بصيرته ما لا يرى بعين بصره ، اهـ .

أخلاق رضية وخلق مرضية

ذكر الزمخشري في ربيع الابرار أنّ الرشيد قال يومًا لأبي يوسف : صف لي أخلاق أبي حنيفة . فقال : انّ الله تعالى يقول : «ما يلفظ من قول الاّ لديه رقيب عتيد» ، فهو عند لسان كلّ قائل ، كان علمي بأبي حنيفة أنّه كان شديد

الذبّ عن محارم الخَلْق أن تُؤتى ، شديد الورع أن ينطق في دين الله بما لا يعلم ، يحبّ أن يطاع فلا يعصى ، مجانبًا لأهل الدنيا في دنياهم ، لا ينافس في غيرها ، طويل الصمت دائم الفكر /24ب/ على علم واسع ، لم يكن مِهذارًا ولا ثرثارًا إنْ سئل ، بذولا للعلم والمال مستغنْيًا بنفسه عن جميع الناس ، لا يميل الى طمع ، بعيد الغيبة ، لا يذكر أحدًا الاّ بخير . فقال الرشيد للكتّاب : آكتب هذه الصفة ، وآدفعها الى آبني ينظر فيها .

وعن محمد بن الحسن ، كان أبو حنيفة واحد زمانه ، لو آنشقت عنه الارض لآنشقت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والمواساة . وعن مسعد ، كان أبو حنيفة ، رضي الله تعالى عنه ، يقعد بعد صلاة الفجر لمذاكرة العلم الى العشاء الآخرة لا يُحْدث وضوءًا ولا طعامًا ولا نومًا ، الا هجعة خفيفة قليلة قبل الظهر. فقلت متى يفرغ للعبادة ؟ فتعاهدته بعد العشاء الآخرة ، فلمّا هدأ الناس آنتصب في المسجد الليلةَ كلّها ، فلمّا كان السَّحَر دخل منزله فتهيأ وخرج للصلاة . انتهى .

قال الملك المؤيد : وفي سنة خمسين ومائة توفي أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زُوطى مولى تيم الله بن ثعلبة ، وكان زُوطى من أهل كابُل . وقيل من بابل ، وقيل من أهل الانبار . وهو الذي مسّه الرقّ ، فأُعتق ، ووُلد له ثابتٌ على الاسلام .

وقال اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة المذكور : ما وقع علينا رقّ قط .

وروي أنّ ثابتًا ، أبا أبي حنيفة ذهب وهو صغير الى عليّ بن بي طالب رضي الله تعالى عنه فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته . قيل في نسب أبي حنيفة غير ذلك ، فقيل هو النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان ، وأنّ جدّه النعمان بن المرزبان أهدى الى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم /25/ المهرجان فالوذجًا ، فقال له عليّ كرّم الله وجهه : مهرجان في كلّ يوم !

وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة ، وهم أنس بن مالك ، وعبد الله بن

أبي أوفَى بالكوفة ، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة ، وأبو الطُفيل عامر بن واثلة بمكة ولم يلق أحدًا منهم ولا أخذ عنهم . وأصحابه يقولون : لقي جماعة من الصحابة وأخذ عنهم ولم يثبت ذلك عند أهل النقل . وكان أبو حنيفة عالمًا عاملا زاهدًا ورعًا ، راوده أبو جعفر المنصور أن يلي القضاء فامتنع . وكان حسن الوجه ربْعة . وقيل طويلا أحسن الناس منطقًا . قال الشافعي رضي الله عنه : قيل لمالك : هل رأيت أبا حنيفة ؟ فقال : نعم ، رأيت رجلا لو كلّمته في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته ؛ وكان يصلي غالب الليل حتى قيل إنه كان صلى الصبح بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة .

وحُفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الي توفي فيه سبعة آلاف مرة . وكان يعاب بقِلّة العربية . وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة ، وقيل ولد سنة إحدى وستين . وكانت وفاته ببغداد في السجن ليلة القضاء ، فلم يفعل . وقيل إنه توفي في اليوم الذي ولد فيه الشافعي ، وذلك في رجب من هذه السنة ، وقيل في جمادى الأولى . وقبره ببغداد مشهور . وزُوطَى ، بضمّ الزاي المعجمة وسكون الواو وفتح الطاء المهملة . اهـ .

وروى أنّ أبا حنيفة رحمه الله تعالى لما حبسه المنصور على تولية القضاء ، جاءه أبو يوسف الى السجن فقال له : يا إمام ، إنّ الخليفة لم يرد بتوليتك /25ب/ القضاء الا أنه يعرفك لا تأخذك في الله لومة لائم فيكتفي بك أمر العامة ويطمئن بك في باب الدين ، فلأيّ شيء امتنعت حتى بلغت بنفسك الى ما ترى ؟ فقال : يا يعقوب لو أُتي بك الى ساحل بحر وأنت تحسن السباحة وقيل لك ادخل من هذا الجانب واخرج من الجانب الآخر ، أكنتَ تفعل ؟ فقال : لا ! فقال له : وكذلك أنا لم أفعل وستبتلى . فقال فلمّا تولّى أبو يوسف القضاء بعد ذلك فكان كلما اشتدّ عليه أمر يقول : دعوة شيخي . اهـ .

قال المؤيد : وفي سنة إحدى وثمانين توفي أبو يوسف القاضي واسمه يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن خيثمة . وسعد المذكور صحابي

من الأنصار ، وهو سعد بن بَحير واشتهر بأمه خيثمة ، وكان لأبي يوسف ابن اسمه يوسف ، تولّى القضاء في الجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه ، وفيهما يقول أبو يعقوب الخريمي الشاعر ، وقد سمع رجلا يقول : اليوم مات الفقه ! وذلك يوم مات فيه القاضي أبو يوسف :

يا ناعيَ الفقه الى أهله أنْ مات يعقوب ولا يدري
لم يمت الفقه ولكنه حُوِّل مِن صدر الى صدرِ
ألقاه يعقوب الى يوسف فزال من طيب الى طُهرِ
فهو مقيم فإذ ما ثوى حلّ وحلّ الفقه في قبرِ

قال محمد بن الحسن : مرض أبو يوسف ، فعاده أبوحنيفة ونحن معه ، فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال : إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من فيها ؛ وأومأ الى الارض . /26/ وفي أبي يوسف رضي الله عنه يقول بعضهم (الدر 21 ب) :

به صار فخر العلم عند آندراسه وبالعلم كان الفخرُ للعلماء
ضياء أضاها الشمس أبدت ضياءها أفاض بضوء فوق كلّ ضياء

ومن كلامه رضي الله عنه : صحبة من لا يخشى العار عارٌ يوم القيامة . انتهى .

قدة داهمت وعامة خالفت

قيل إنّ أبا يوسف كان في أيام القضاء فرفع اليه أن مسلمًا قتل ذميًا ، فحكم بالقوَد ، كما هو رأي أبي حنيفة . فخرج رجل من محبّي ذلك القاتل فى أسواق بغداد ينادي بهذه الابيات :

يا من ببغداد وأرباضها مِن علماء الناس أو شاعرِ

قوموا آندبوا وابكوا على دينكم | ضاع من الاوّل والآخرِ
جارَ أبو يوسف في حُكمه | في قتله المسلم بالكافرِ

فقامت أهل بغداد على أبي يوسف ، فهرب الى الرشيد يستغيث ويقول : هذا مذهبي ، فآنظرْ من يقضي لهم على مذهب مالك !

غضب أمير وغيظ وزير

حكى أنّ أبا يوسف رحمه الله تعالى كان جالسًا يومًا في مجلس القضاء فدخل عليه رجل في يده وثيقة فيها شهادة جعفر بن يحيى البرمكى ، وكان من عادة القضاة /26ب/ أن يجعلوا دواتين ، واحدة بالمداد الاحمر والاخرى بالاسود ، فإذا صحّحوا شيئا كتبوا عليه بالاحمر ، وإذا أبطلوا شيئا كتبوا عليه بالاسود . فلما رأى وثيقة الرجل أخذ المداد الاسود من غير فكر ولا مبالاة (في الاصل «لامبالات») والرجل يعرف قاعدتهم في تصحيحهم وإبطالهم ، فلما رآه أخذ القلم الاسود قال له : أتدري شهادة من فيها ؟ قال : شهادة من ؟ قال: شهادة الوزير ! فقال : ولأجل ذلك حكمتُ ببطلانها . وكتب به عليها ، فتركها الرجل في يده وانطلق مليًا الى جعفر ، وأخبره بمقاله وفعاله . فآغتاظ لذلك وركب الى الخليفة ، فلما دخل عليه قال : أيد الله أمير المؤمنين ، آنظر الى وزارتك رجلا غيري ! قال : ولِم ؟ قال : فحيث كنت لا أصلح شاهدًا ، فالوزارة عليّ حرام وأخبره الخبر . فأمر بإحضار أبي يوسف من ساعته ، فدخل عليه الرسول وقال : أجب أمير المؤمنين ؛ فآستشعر خوفًا ، فكان يقول في طريقه دعوة شيخي ، دعوة شيخي ! يعني بذلك قول أبي حنيفة له «وستُبتلى» . فلما دخل على الرشيد قال له : ولِم لم تقبل شهادة وزيري ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، سمعته يقول لك يوما «أنا عبدك يا أمير المؤمنين» فإن كان عبدًا حقيقة ، فالعبد غير مقبول الشهادة ، وإن كان غير ذلك فقد أخبر بما ليس بواقع فلا تقبل شهادته . قال : فأعجب الرشيد بجوابه الظريف وتخلّصه به ، فقال له : مثلك

من لا تأخذه في الله لومة لائم ، وعظّمه غاية التعظيم . انتهى

شارق علم وبارق حلم

حكي أنّ أبا يوسف كان مع الرشيد في حَجّة ، فكان في بعض الطريق راكبًا معه في مِحفّة ، وكان يومًا شديد الريح ، فبصق أبو يوسف فأطارته الريح على لحية الرشيد ، فأخذه عليه ما يأخذ الخلفاء من العزّة ولامه ؛ فقال أبو يوسف: أتفخر عني يا أمير المؤمنين مع أنك لو متّ الآن لوُجد من يقوم مقامك من بني العباس ثلاثون ألف رجلا ، ولو متّ أنا الآن لما وُجد رجل واحد يقوم مقامي ! فقال له الرشيد : لك الفخر يا سيدي ، لك الفخر ! انتهى .

وحكي أنّ عبد الرحمن بن مسهر كان قاضيًا على بلدة بين بغداد وواسط ، يقال لها المبارك ، فبلغه خروج الرشيد الى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحراقة ، فقال عبد الرحمن المذكور لأهل المبارك : أثنوا عليّ عندهما ! فأبوا عليه ، فلبس ثيابه وتلقاهما ، وقال : نعم القاضي قاضينا ! ثم مضى الى موضع آخر وأعاد عليهما هذا القول ، فالتفت الرشيد الى أبي يوسف وقال : يا يعقوب ، قاضيّ في موضع لا يثني عليه الا رجل واحد ، بئس القاضي ! فقال أبو يوسف: والعجب يا أمير المؤمنين أنه القاضي يثني على نفسه ! فضحك الرشيد وقال : هذا أظرف الناس ، هذا لا يُعزل أبدًا !

ضحكة سادة وخارق عادة

ذكر في بعض الادبيات أنّ صاحب شرطة الرشيد قال : /27ب/ بينما أنا أجول في شوارع بغداد لمزني بعض الاعوان مشيرًا الى خراب ، فالتفت متأملا ، فإذا في الخراب شيء ظننته لصًا ، فقدّمت الاعوان وتقفّيتهم ، وإذا بأمرأة تنكح رجلا ، فشددت وثاق الرجل ومسكت المرأة ، فإذا معها آلة من كِيمُخْت (في ملحق دوزي للمعاجم العربية 506/2 ، نوع من الجلد) ؛ فقلت : قضية ! وأُعلمُ القاضي . وكان القاضي أبو يوسف ، فذهبت اليه وقرعت الباب وقلت :

صاحب الشرطة يطلب القاضي ! فخرج في ثياب البذلة ، كأنّ عليه قلقًا وهو يقول : الساعة قضينا مجلسَ الحكم ، أيد الله أمير المؤمنين ، فيم كلّفني ؟ فقلت : أصلح الله القاضي ، إنّها لغريبة ، وأعلمك بها ، قد دخلت خرابا ، وأنا أجول فيما كُلّفت به فوجدنا هذه المرأة تنكح هذا الرجل ! قال أبو يوسف ، فقدّرت أنه غلط ، فقلت : الرجل ينكح المرأة ! فقال : بلى ، المرأة تنكح الرجل وهذه آلة كيمُخْت وجدناه معها ، وسلْها عن ذلك ؛ وقدّمنا المرأة . فقال لها : قبّحك الله ، ما كان أمركما ؟ فقالت : يا سيّدي ، إنّي أرملة ولي صبية نعولهم ألـمّت بنا السّنة ، فخرجت بغزلي هذا نطلب السوق لأبيعه وأنفقه على صبيتي ، فبلغت السوق وطال وقوفي به فلم يفتح الله بشيء ، ورجعت بغزلي خائبة مفكرة وإذا بهذا الرجل خلفي ، وقد أدركني ولـمزني وهو يقول كيت وكيت ، ففكرت في أمري وقلت ضرورة ولا حول ولا قوة الا بالله وسعفته ، فأدخلَني ذلك الخراب وناولني /28/ دراهم ، ها هي معي وصار يداعبني وأنا كالكارهة الى أن ظهر له منّي شيء وقد تخبّل عقله ، فناولني دراهم أُخَر وقال : زدْ هذه وضمّها الى ما عندك ، وخذ هذا الكيمخت وآجعله في وسطك على أن تنكحني ، ولجْه فيّ ! وركع أمامي ؛ فضحكت وفعلت ما قاله ، ولا زلنا على ذلك وهو يتلجلج الى أن دخل صاحب الشرطة ومُسِكت بتلك الآلة ومسكوه وأساءوا حاله ، وها نحن بين يديك والأمر إليك . فتبسّم أبو يوسف وقال : والله لأتحفنّ أمير المؤمنين الساعةَ بما جرى ولا أتأخر . وذهب من فوره الى الرشيد فآستأذن ودخل عليه فقال الرشيد : أخيْرٌ دهم القاضي ؟ قلت : خيرٌ يا أمير المؤمنين ، أتيتك بخبر غريب ؛ وأحضرتهما وقصصت القصة ، فضحك الرشيد وقال : افعل فيهما برأيك يا إمام . انتهى

خلق حسان ومجالسة أعيان

ذكر في السّراج أنّ الرشيد كان ذات يوم جالسًا مع أبي يوسف فقال : يا

يعقوب ، ما أحسن حسن الخلق ؟ قال له أبو يوسف : قال رسول الله ﷺ : أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا . وقال معاذ بن جبل : آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في العرزال (يظهر أن المقصود هنا في الركاب) ، قال : حسّن خُلُقك للناس . وقال ﷺ : حُسن الخلق يمن وسوء الخلق شؤم . ثم قال : يا أمير المؤمنين من ساء خُلُقه قلّ صديقه . ثم قال : يروى عن النبيء ﷺ أنه قال : يا بني عبد المطلب إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم فليسع /28ب/ منكم حُسْن الخلق وآلقوْهم بطلاقة الوجه وحُسن الخُلق . قال الشيخ أبو عمر بن عبد البرّ في قوله تعالى : «وثيابك فطهّر» خلقك فحسّن ؛ ثم قال : أحسن البِشر يُكسب حسن الذّكر ، ثم قال : يا أمير المؤمنين لما وفد عَقيل بن أبي طالب على معاوية بن أبي سفيان أمر له بمائة ألف درهم ، فلمّا أراد الانصراف رأى في الطريق جارية بأربعين ألف درهم ، فرجع الى معاوية فأخبره ، فقال له : وما تصنع بها ؟ قال : تلد غلامًا . فإن أغضبتني يُضرب مفرقك بالسيف ؛ فأمر له بها فآبتاعها ، فولدت له مسلم بن عقيل ، ثم قدم مسلم الشام فآبتاع منه معاوية ضيعة ، فبلغ الحسين بن عليّ الخبر فكتب الى معاوية : إنّا لا نجيز بيع مسلم . فأرسل معاوية الى مسلم وقال : هذا كتاب الحسين يأمر بردّ المال ، فقال مسلم : أمّا دون أن أضرب مفرقك بالسيف فلا ! فضحك معاوية وقال : والله لقد تهدّدني بذلك أبوك قبل أن يشتري أمك وسوّغه المال ، فقال الحسين حين بلغه ذلك : غلَبنا معاوية حلمًا وجودًا . انتهى

تكميل مرام وسياق كلام

قال الملك المؤيد في المختصر : ومما يحكى عن حلم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من تاريخ القاضي جمال الدين بن واصل أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن هاشم دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة فقال معاوية : مرحبًا بك يا خالة ، كيف أنت ؟ فقالت : بخير يا ابن أختي ، لقد كفرت

/29/ النعمة ، وأسأت لابن عمّك ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، وكنّا أهل البيت أعظم الناس فى هذا الدين بلاء حتى قبض الله نبيه مشكورًا سعيه ، مرفوعًا منزلته ، فوثب علينا بعده تيم وعدي وأمية فآبتزونا حقنا ، ووليتم علينا فكنّا فيكم بمنزلة بني اسرائيل في آل فرعون ، وكان عليّ بن أبي طالب بعد نبيّنا بمنزلة هارون من موسى فقال لها عمرو بن العاصي : كفّي أيتها العجوز الضّالة ، وآقصري عن قولك مع ذهاب عقلك ! فقالت : وأنت يا ابن الباغية تتكلم وأمّك كانت أشهر بغيّ بمكة وأرخصهنّ أجرة، وآدّعاك خمسة من قريش ، فسئلت أمّك عنهم فقالت : كلّهم أتاني ، فآنظروا أشبهَهم به ! فغلب عليك شبَه العاصي بن وائل فألحقوك به . فقال معاوية : عفى الله عمّا سلف ، هاتي حاجتك ؟ فقالت : أريد ألفي دينار لأشتري بها عينًا فوّارة في أرض خرّارة تكون لفقراء بني الحارث بن عبد المطلب ، وألفي دينار أخرى أزوّج بها فقراء بني الحارث ، وألفي دينار أخرى أستعين بها على شدّة الزمان ، فأمر لها معاوية بستة آلاف دينار ، فقبضتها وآنصرفت .

وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يرى سماع الأوتار والغناء ، وهو رأي أهل المدينة . وكان معاوية ينكر ذلك عليه ، فدخل ابن جعفر يومًا على معاوية ومعه بُرَيْح المغني ، فقال ابن جعفر لبريح : غنّ ! فغنّى بشعر كان يحبّه معاوية ، وهو :

يا لُبَيْنى أوقدي النّار   إنّ من تهوين قد حارًا /29ب/
ربّ نار بِتّ أرمُقُها   تقضم الهندي والغارًا
ولها ظبيٌ يؤجّجها   عاقدٌ في الخِصْرِ زنّارًا

فطرب معاوية وتحرّك وضرب برجله الارض ، فقال ابن جعفر: مهْ يا أمير المؤمنين ! فقال معاوية : إنّ الكريم طروب .

وقال معاوية : أُعِنت على عليّ [بثلاث]، كان رجلا ظهَرَة عُلَنة ، وكنت

كتومًا لسرّي ؛ وكان في أخبث جند وأشده خلافًا ، وكنت فى أطوع جند وأقلّه خلافًا ، وأخلى بأصحاب الجمل ، فقلت إن ظفر بهم اعتددت ذلك عليه وهنًا ، وإن ظفروا به كانوا أهون شوكة عليّ منه . وتوفي معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه سنة ستين في رجب ، وكانت مدّة خلافته تسعة عشر سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا ، منذ اجتمع له الامر وبايعه الحسن بن علي ، وكان عمره خمسًا وسبعين سنة ، وقيل سبعين وقيل غير ذلك . وهو أوّل خليفة بايع لولده ، وأول من وضع البريد ، وأوّل من عمل المقصورة في المسجد ، وأوّل من خطب جالسًا ، في قول بعضهم . انتهى ، ولنرجع الى الرشيد .

فطنة ذكية ونباهة زكية

ذكر الدميري في حياة الحيوان أنّ هارون الرشيد كان يعجبه الحمَام واللعب به ، فأُهدي اليه حمام وعنده أبو البَختري بن وهب القاضي ، فروى له بسنده عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ النبي ﷺ قال : لا سَبْق الا في خفّ أو حافر أوجناح . فزاد «أو جناح» وهي لفظة وضعها /30/ للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية . فلمّا خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذب . وأمر بالحمام أن يذبح فذبحت ؛ فقيل له : وما ذنب الحمام ؟ قال : من أجله كُذِب على رسول الله ﷺ ؛ فترك العلماء حديث أبي البختري لذلك ولغيره من موضوعاته فلم يكتبوا حديثه .

وكان أبو البختري المذكور قاضي مدينة النبي صلّى ﷺ بعد بكار بن عبد الله الزبيري ، ثم ولي قضاء بغداد بعد أبي يوسف صاحب أبي حنيفة . وتوفي أبو البختري بن وهب المذكور سنة مائتين في خلافة المأمون .

والبَختري مأخوذ من البَخترة التي هي الخُيَلاء ، وهو يتصحّف على كثير من الناس بالبُحتري الشاعر المشهور ، فالاول بالخاء المعجمة والثاني بالحاء المهملة . وقال ابن أبي خيثمة والشيخ القشيري في الاقتراح : واضع حديث

الحمام غياث بن ابراهيم وضعه للمهدي لا للرشيد . قال ابن قتيبة : وأبو البختري هو وهب بن وهب بن وهب ثلاثة أسماء على نسق ، ومثله في ملوك الفرس بهرام بن بهرام بن بهرام ، وفي غسان الحارث الاصغر والحارث الاعرج بن الحارث الاكبر . اه . ومثله في مشاهير المتأخرين محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، أحد أصحاب الدرجة في المذهب .

بهجة وخصال ووهجة وإبطال

قيل : إنّ الوليد بن طريف الشيباني خرج في أيام الرشيد ببلاد الجزيرة ، وهي ما بين الفرات وشط الموصل ، وكثُر جمعه ، فنهض اليهم عامل ديار ربيعة فقتلوه وصاروا /30ب/ الى الديار المصرية وحصروا عبد الملك بن صالح بن علي العباسي . فاستشار الرشيد يحيى بن خالد بن برمك فيمن يوجهه الى الوليد فقال له : وجّه موسى بن حازم التميمي ، فإنّ فرعون كان اسمه الوليد فغرقه موسى عليه السلام . فأعجب الرشيد ، ووجّهه في جيش كثيف ، فهزمه الوليد وقتل موسى ، ثم وجه الرشيد اليه معمر بن موسى المعبدي ، فجرى له مع الوليد وقائع بناحية دار ، من بلاد ربيعة ، وكثرت جموع الوليد ، فقال هارون : ليس لهذا الا يزيد بن مزيد ، فوجهه اليه .

وهو يزيد بن مزيد بن زائدة ، وهو ابن أخي معن بن زائدة صاحب الكرم المشهور . وكان يزيد المذكور من الامراء المشهورين والشجعان المعروفين ، وكان واليًا بأرمينية فعزله الرشيد سنة اثنتين وسبعين ومائة ، ثم ولاه إياها وضم اليه أذربيجان والموصل لما أن وقع منه الظفر بالوليد المذكور بعد أن قصده في عسكر ضخم وصار الوليد يراوغه ويزيد يتبعه . وكان الوليد ذا مكر ودهاء ، ثم التقوا وشنّت الحرب بينهم ونادى يزيد : يا وليد ما حاجتك بالتستّر بالرجال ، ابرز لي ! قال : نعم والله ! ووقف العسكران وتطاردا ساعة ، ولم يقدر أحد منهم على قُربه ، ثم أمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط ،

وصاح يزيد بخيله فاتوه واحتزوا راسه ، وكانت الواقعة بالحديثة ، بالقرب من عانة ، وتعرف بحديثة النورة وبعث برأسه الى الرشيد مع ابنه /31/ أسد بن يزيد .

وحكى الاصفهاني أنه لما أن اشتدت شوكة الوليد بن طَريف الشيباني وطالت أيامه ، فوجه الرشيد اليه يزيد المذكور فجعل يحاوله ويماكره ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد بن مزيد ، فأغروا به الرشيد وقالوا إنه يتجافى عنه للرَّحِم ، وإلاّ فشوكة الوليد يسيرة ، فوجه اليه الرشيد كتابَ مُغضِب ضجر ، يقول : لو وجهت بعض الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنّك مداهن متعصب ، ولئن أخرت مناجزة الوليد لأبعثنّ اليك من يحمل رأسك اليّ . فقرأ الكتابَ ، ولقي الوليد عشية خمس في شهر رمضان ، وكان الوليد قد جهد عطشًا حتى رمى خاتمه في فيه ، وجعل يلوكه ويقول : اللهمّ إنّها شدة شديدة فآسترها ! ثم قال يزيد لاصحابه : فداكم أبي وأمي ، إنّما هي الخوارج ولهم حملة فآثبتوا بها تحتَ التّراس ، فإذا آنقضت حملتهم فاحملوا ، فإنهم إذا آنهزموا لم يرجعوا . فحملوا حملة واحدة فكان كما قال يزيد ، ثمّ حمل عليهم وانكشفوا فظفر به وأخذ رأسه يزيد ووقع السيف في أصحابه وكان الوليد يقول لـمّا حمل :

أنا الوليد بن يزيد الشّاري   قَسْورة لا يُصطلَى بناري
ظلمكُمُ أخرجني من داري

ثم صبّحتهم ليلى أُخت الوليد مستعدّة ، عليها درع وجوشن ، فجعلت تحمل على الناس ، فخرج يزيد اليها وضرب بالرمح قطاءة فرسها وقال : أُغربي ، أَغرب الله عليك ؛ فلقد فضحت العشيق ! فآستحيَتْ وانصرفت راجعة وهي /31ب/ تقول أبياتًا منها :

فإن يك أرْداه يزيدُ بن مزْيد   فيا رُبّ خيْلٍ فَضّها وصُفوفِ

فلَلبدرُ من بين الكوكب إذْ هوى ولَلشّمسُ همّت بعده بكسوفِ
فيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريفِ
فتًى لا يحبّ الزّاد الا من التقى ولا المال الا من قَنًى وسيوفِ
فلا تجزعا يا ابنا طريف فإنني أرى الموت نزّالاً بكلّ شريفِ

ورجع يزيد بالظفر ، فلما بلغ الرشيد حجب عن الوصول اليه برأي البرامكة، وأظهر الرشيد السخط عليه . فقال يزيد : وحق أمير المؤمنين لأصيّفنّ ولأشتّوَنّ على فرسي أو أدخل . فآرتفع الخبر بذلك الى الرشيد ، فأذن له ، فلما مثل بين يديه ضحك وسرّ وقال : مرحبًا بالاعرابي ! جعل يكررها حتى توصل اليه ، فأجلسه وأكرمه وعرف ما قُصد به ؛ ثم مدحه الشعراء فكان أحسنهم مدحًا مسلم بن الوليد الشاعر الانصاري ، كان مختصًا بيزيد بن مزيد فقال فيه :

يفتَرُّ عند افترار الحرب مبتسمًا إذا تغيّر وجه الفارس البطلِ
مُوفٍ على مُهج في يوم ذي رهَج كأنه أجَلٌ يسعى الى أجَلِ
ينال بالرِّفق ما يعْيَى الرّجال له كالموت مستعجلا يأتي على مهلِ
لا يرحل الناس الا نحو حُجرته كالبيت يُفضي اليه مُلتقى السُّبُلِ
تفْرِي المنية أرواحَ العِداة كما تفْري السيوف شحوم الكُوم والبُزُلِ
إذا انْتضى سيفَه كانت مسالكُه مسالك الموت في الابدان والقُلَلِ
يكسو السيوف نفوسَ النّاكثين له ويجعل الهام تيجان القَنا الذُّبُلِ
لا تُكذبَنّ فإنّ المجد معدنُه وِراثة في بني شيْبان لم يزَلِ
إذا الشريكيُّ لم يفخر على أحد تكلّم الفخر عنه غيرَ منتحِلِ
كبيرهمُ لا تقوم الرئاسات له حِلمًا وطفلهم في هَدْيِ مُكتهِلِ
إسلمْ يزيدُ بما في الملك من أوَد إذا سلمت ولا في الدين من خللِ
والمارقُ بن طريف قد دلَفْتَ له بعارض للمنايا مُسبِل هطِلِ

ما كان جمعيهمُ لما لقيتهمُ إلاّ كرَجْل جرادٍ ريعَ مُنجفلِ
كم آمن لك نائي الدار ممتنع أخرجتَه من حصون الملك والخَوَلِ
تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الموت أن يُدعى على عجلِ
لا يعبَقُ الطيب خديه ومفرِقه ولا يمسح عينيه من الكُحُلِ
يأبَى لك الذم في يوميْك إن ذُكِرا عضْبُ حُسام وعِرْض غيرِ مبتذَلِ
فآفخر فمالك في شيبان من مثَل فآفخر كذاك ما لبني شيبان من مَثَلِ

قوله : تراه في الامن ، البيت ، يريد به ما حُكي أن امرأة معن بن زائدة عاتبت «معن» زوجها في يزيد هذا ، الممدوح ؛ وقالت : إنك تقدمّه وتؤخر بنيك وتشيد ذكره وتُخمد ذكرهم ، ولو نبهتهم لأنتبهوا ولو رفعتهم لأرتفعوا. فقال معن : إنّ يزيد قريب لم يبعُد رحِمُه ، وله عليّ حُكم الولَد ، إذْ كنت عمّه ، وأمّا بنيّ فإنهم ألْوَطُ بقلبي وأدبي من نفسي ، ولكن لا أجد عندهم ما أجد عنده ، وسأريك في ليلتي هذه ما يتبين به عذري . والتفت فقال : يا غلام اذهب فآدعِ لي فلانًا وفلانًا ؛ حتى أتى على أسماء أولاده ، فجاءوا في الغلائل المطيّبة والنّعال السِّندية ، وذلك بعد هدوّ من الليل ، فسلّموا وجلسوا ، ثم قال : ياغلام ، ادع لي «يزيد» ؛ ثم أسبل سترًا بينه وبين المرأة فإذا به قد دخل عجِلاً وعليه السلاح /32ب/ كلّه ، فوضع رمحه بباب المجلس ثم أتى اليه فلمّا رآه قال : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ؟ وكانت كنيته ؛ فقال : جاءني رسول الامير فسبق الى نفسي أنه يريدني لأمر ، فقلت إن كان مضيت لم أُعرّ ، وإن كان غير ذلك فنزْع هذه الآلة عليّ أيسرُ الخطب ، فقال لهم : انصرفوا في حفظ الله ، فقالت المرأة : قد تبيّن عذرك ! فأنشد معن متمثلاً :

نفس عصام سوّدت عصامًا وعوّدته الكرّ والإقدامًا
وصيّرته ملكا هُمامًا

وروي أن الرشيد أعطى ليزيد لما وجهه الى قتال الوليد ذا الفقار (في الاصل

«القفار» بتقديم القاف . وظننا أنها زلة قلم ؛ لكن وقد تكررت فيما بعد أصبحنا نشكك في ذلك ، لان المشهور «ذو الفقار» لا العكس) ، سيف النبي ﷺ وقال : خذه يا يزيد ، فإنك ستُنْصَر به !

قال في جمهرة النسب : قيل إن منبّه ونبيه ، أولاد الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم القرشي ، كانا سيديْ بني سهم في الجاهلية قُتلا يوم بدر كافريْن وكان العاصي بن نبيهٍ مع أبيه قُتل أيضًا ، وكان له ذو الفقار فأُخذه النبي ﷺ ، قيل ثم أُعطاه لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ووصل الى بني العباس ، وهو مجعول من حديدة وجدت عند الكعبة ، مِن دفن جرهم أو غيرهم ، وكانت صمصامة عمرو بن معدي كرب من تلك الحديدة أيضًا .

قال الاصمعي : رأيت هارون الرشيد بطوس متقلدًا سيفًا فقال : يا أصمعي ألا أريك ذا الفقار ؟ فقلت : بلى ، جعلني الله فداك ؛ قال : استلَّ سيفي ! فاستللته فرأيت فيه ثمانية فقَارة .

وقال المعرّي : دخل يزيد بن مزيد على الرشيد يومًا فقال : يا يزيد من الذي /33/ يقول :

لا يعبق الطِّيب خديْه ومفْرقه ... ولا يمسح الذَّيل عينيه من الكُحلِ
قد عوّد الطيرَ عادات تُغَرّ بها ... فهنّ يتْبعنه في كلّ مُرتحلِ

فقال : لا أُعرف قائله يا أمير المؤمنين ! فقال : أيقال مثل هذا الشعر فيك ولا تعرف قائله ؟! فخرج من عنده خِجلا ، فلما صار الى منزله دعا بحاجبه وقال له : من بالباب من الشعراء ؟ فقال له : مسلم بن الوليد ؛ فقال : كيف حجبته ولم تعلمني مكانه . قال : إنك مُضيّق ، وقد سألته الامساك والمقام أيامًا الى أن تتّسع ، فأنكر ذلك عليه وقال : أدخله ! فأدخله فاستنشده القصيدة المقدم ذكرها ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، وقال : اقبضها وأعذر . فخرج الحاجب فقال لمسلم بن الوليد قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف ،

خمسون منها لك وخمسون لنفقته ؛ وقبّضه الخمسين فكتب بذلك الى الرشيد ، وعلم الامر فأمر ليزيد بمائتي ألف درهم وقال : إقض الخمسين ألفًا الذي أخذ الشاعر وزده مثلها وخذ مائة الف لنفقتك ، فاستفكّ يزيد ضيعته وأعطى مسلمًا خمسين ألفًا أخرى .

وقيل : يزيد ، لـمّا أن دخل عليه مسلم وأنشده الابيات كان على رأس يزيد وصيفة بيدها غرّاف مرآة ومشط تريد [أن] تسرح لحيته وذؤابته وتطيّبه ، وهو يسمع إنشاد مسلم وقد وصل الى قوله : «لا يعبق الطيب خديه ومفرقه» قال للجارية وقد وضع /33ب/ المرآة من يده قد حرّم مسلم علينا الطيب .

وعن أبي فرعون ، مولى يزيد بن مزيد ، قال : ركب يزيد يومًا الى الرشيد وقد تغلّف بغالية ثم لم يلبث أن رجع ودعا بطشت فغسل الغالية وقال : كرهتُ أن أكذّب قول مسلم .

لطيفة

ذكر [ابن أبي] عون في كتاب الاجوبة المسكتة أنّ الرشيد قال ليزيد بن مزيد في لعب الصوالجة : كن مع عيسى بن جعفر ! فأبى يزيد ؛ فغضب الرشيد وقال : تأنف أن تكون معه ؟ فقال : قد حلفت لأمير المؤمنين أن لا أكون عليه في جدّ ولا هزل ؛ فأعجب الرشيدَ جوابه .

قال المؤيد في المختصر : وتوفي يزيد بن مزيد الشيباني سنة خمس وثمانين ومائة ، وهو ابن أخي معن بن زائدة . اه .

كان ليزيد المذكور ولدان نبيلان نجيبان ، أحدهما محمد بن يزيد بن مزيد وكان موصوفًا بالكرم ، والآخر خالد بن يزيد بن مزيد ، وهو الذي ولاه المأمون الموصل ، فوصل اليها ومعه في صحبته أبو الشمَقْمق الشاعر ، فلمّا دخلها نشَب لواءُ خالد في باب المدينة فاندقّ ، فتطيّر خالد من ذلك ، فأنشد أبو الشمقمق ارتجالا :

ما كان مندقُّ اللّواء لرِيبة ... تُخشى ولا سوءٍ يكون مُعجّلا
لكنّ هذا الرمح أضعفَ متنه ... صِغَر الولاية فاستقلّ الموصلا

فسريَ عنه . وبلغ المأمون ما جرى ، فكتب الى خالد : قد زدناك في ولايتك ديار ربيعة كلّها لكون رمحك /34/ استقلّ الموصل ! ففرح بذلك وأجزل جائزة أبي الشمقمق . وخالد المذكور ممدوح أبي تمام الطائي . فذكر صاحب الاغاني عن محمد بن أبي سعيد قال : أهديت الى يزيد بن مزيد جارية وهو يأكل ، فلما رفع الطعام وطئها فلم يُنزَل عنها الا ميّتًا . وكان بمدينة بَردعة من بلد دران :

قبرٌ ببردعة استسرّ ضريحُه ... خطرٌ تَقاصر دونه الأخطارُ
أبقى الزمان على ربيعة بعده ... حزنا لعُمْر الدهر ليس يُعارُ
سلكتْ بك العُرب السبيلَ الى العُلا ... حتى إذا بلغوا المدى بك حارُوا
فاَذهب كما ذهبت غوادي مُزْنة ... أثنى عليها السَّهل والأوعارُ

قلت : إنّ هذا البيت أبلغ شيء قيل في المراثي ! ورثاه أيضا بأبيات منها :

أحقٌّ أنه أوْدَى يزيدُ ... فبيِّنْ أيّها الناعي المُشيدُ
أتدري من نعيْتَ وكيف فاهت ... به شفتاك كان بها العصيدُ
أحامي المجد والاسلام أودى ... فما للارض ويحك لا تميدُ
تأمّل هل يُرى الاسلام مالت ... دعائمُه وهل يخضرّ عودُ
أما هُدّت لمصرعه نِزار ... بلَى وتقوّض المجد المشيدُ
وحلّ ضريحه إذ حلّ فيه ... طريفُ المجد والحسَبُ التليدُ
أما والله ما تنفكّ عيني ... عليك بدمعها أبدًا تجودُ /34ب
أبعد يزيد تختزن الموالى ... دموعًا أو يصان لها خدودُ

لتبكك قُبة الاسلام لما وهت أطنابها ووهى العمودُ
ويبْكِ شاعر لم يبق دهرٌ له نسباً وقد كُسِر القصيدُ
فإنْ يهلِك يزيدٌ فكلّ حي فريسٌ للمنية أو طريدُ

كان مسلم المذكور من أشعر الشعراء ، فقيل له : أيّ شعرك أحبّ اليك ؟ قال : إنّ في شعري بيتًا أخذت معناه من التوراة وهو قولي :

دلّت على قولها الدنيا وصدّقها ما استرجع الدهر ممّا كان أعطاني

وذكر أحمد بن سعيد المرْوزي : أنّ أبا تمام حلَف لا يصلّي حتى يحفظ شعر مسلم وأبي نواس ! فمكث شهرين كذلك . قال : ودخلت عليه فرأيت شعرهما بين يديه فقلت ما هذا ؟ فقال : اللات والعزى وأنا أعبدهما من دون الله تعالى !

ودخل مسلم بن الوليد على الفضل بن [جعفر بن] يحيى وكان قد أتاه خبرٌ سرّه ، فأنشد :

أتتك المطايا تهتدي بمطيّة عليها فتًى كالنّصل مؤنسُه النَّصْلُ
فتًى ترتَعي الآمال مُزنة جوده إذا كان مرعاها الأماني والمَطْلِ
تُساقط يمناه النّدى وشماله الرّدى وعُيون القول منطقه الفصْلُ
ألحّ على الايام يَفْري خُطوبها على منهج ألفَى أباه به قَبلُ
أناف به العلياء يحيى وخالد فليس له مِثْل ولا لهما مِثْلُ 35/
فروع أصابت مغرسًا متمكنًا وأصلا أصابت حيث وجهها الاصلُ
بكفّ الى العلياء يُستمطر الغِنى ويستنزل النُّعمى ويُسترعف الفضلُ

فأمر له بكلّ بيت منها بألف درهم . وكانت ثمانين بيتًا .

ومسلم هذا مولى أبي أمامة سعد بن زرارة الخزرجي ، وكان يلقب بصريع الغواني ، شاعر مقدم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومولده الكوفة ، وهو أول من قال الشعر المعروف بالبديع . وروي أنه اجتمع أصحاب المأمون عنده

يومًا ، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين عن مسلم بن الوليد حيث يقول في رجل قد رثاه :

أرادوا ليُخفُوا قبره عن عدوّه ... فطِيبُ تراب القبر دلّ على القبْرِ

وحيث مدح رجلا بالشجاعة :

يجود بالنفس إذ ضنّ الجبان بها ... والجود بالنفسِ أقصى غاية الجودِ

وهجا رجلا بقبح الوجه والاخلاق :

قَبُحتْ مناظره فحين خَبَرته ... حسُنتْ مناظره لقُبح المخبرِ

وتغازل في شعره بقوله :

هوى تجرّد وجبين يلعب ... أنت لقىً بينهما معذّب

فقال المأمون : هذا أشعر من خُضتم اليوم فى ذكره !

غبطة سلطانية ونزعة شيطانية

/35ب/ قيل لما حج الخليفة الرشيد وأتى قبر النبي ﷺ زائرًا وحوله قريش ورؤساء القبائل ومعه موسى الكاظم فقال الرشيد : السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّي ! افتخارًا على من حوله . فقال موسى الكاظم : السلام عليك يا أبتي ! فتغيّر وجه هارون وقال : هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقًا . وأُخذها في نفسه الى أن حبسه الرشيد بعد ذلك عند السِّندي بن شاهك ، وتولّت خدمته فى الحبس أخت السندي .

وكان قبل ذلك حبسه المهدي والد الرشيد خشية الخروج عليه ، فرأى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مقامه وهويقرأ عليه «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تُفسدوا فى الارض وتُقطّعوا أرحامَكم» (سورة محمد ، الآية 22) . قال الربيع : فأرسل المهدي اليّ ليلا فراعني ، فجئته فإذا هو واقف يقرأ هذه الآية ،

وكان أحسن الناس صوتًا ، فقال : عليّ بموسى بن جعفر فجئته به ، فعانقه وأجلسه الى جانبه وقال : يا أبا الحسن ، إنّي رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، في النوم يقرأ عليّ كذا وكذا ، فتؤمنني على أن لا تخرج عليّ ولا على أحد من ولدي ؟ فقال له : والله لا فعلت ذلك أبدًا ولا هو من شأني ! قال : صدقت ، إعطه يا ربيع ثلاثة آلاف دينار وردّه الى أهله بالمدينة. قال الربيع : فأحكمت أمره ليلا وجهزته.

وذكر ابن خلكان أنّ الرشيد حبسه في بغداد ثم دعا صاحب شرطته ذات يوم فقال به : رأيت في منامي حبشيًا أتاني /36/ ومعه حربة فقال : إن لم يُخلّ عن ابن جعفر وإلا نحَرْتك بهذه الحربة ، فاَذهب وخلّ عنه وأعطه ثلاثين ألف درهم ، وقل له إن أحببت المقام عندنا فلك عندنا ما تحبّ وإن أحببت المضي الى المدينة فاَمض ! قال صاحب الشرطة : ففعلت ذلك وقلت له : لقد رأيت من دهرك عجبًا ! قال : أنا أخبرك ، بينما أنا نائم أتاني رسول الله ﷺ فقال : يا موسى حُبست مظلومًا ، فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة في السّجن ، قل يا سامع كلّ صوت ، يا سابق كل فوت ، ويا كاسي العظام لحمًا ومُنْشِرها بعد الموت أسألك بأسمائك العظام وباسمك العظيم الأكبر المخزون المكنون ، الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، يا حليمًا ذا أناءة لا يقدر على أناءته ، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع معروفه أبدًا ولا يحصى عددًا أفرِج عني ! فكان ما ترى .

وتوفي موسى الكاظم في شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة ببغداد مسمومًا ، رحمه الله تعالى . وقيل إنه توفي في الحبس ، وقيل توفي سنة سبع وثمانين ومائة . انتهى . والاصح أنه سنة ثلاث وثمانين في حبس الرشيد .

وهو موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، أحد الائمة الاثنى عشر ، على رأي الامامية . وهو سابعهم ، ولقب بالكاظم لانه كان يحسن

لمن يسيء اليه . وكان عمره أربع وخمسين سنة ، ودفن ببغداد وقبره مشهور يزار . /36ب/ وعليه مشهد عظيم بالجانب الغربي ، وفيه من قناديل الذهب والفضة والفرش وأنواع الالات ما لا يحدّ . وكان الشافعي رضي الله عنه يقول : قبر موسى الكاظم التِّرياقُ للجرب . وكان موسى رحمه الله سخيًا كريمًا ، يبلغه عن الرجل ما يوؤذيه فيبعث إليه صرّة فيها ذهب كثير . وكان مقامه بالمدينة .

حكت عنه أخت السُّندي التي تولّت خدمته في حبسه ، أنه كان إذا صلى العتَمة حمِد الله ومجّده ودعاه الى أن يزول الليل ، ثم يقوم فيصلي الى أن يطلع الفجر ثم يصلي الصّبح ويذكر الله تعالى حتّى تطلع الشمس ثم يقعد الى ارتفاع الضحى ثم يرقد ، ويقعد من نومه قبل الزوال فيتوضأ ويصلي حتى يصلي العصر ثم يذكر الله تعالى حتّى يصلي المغرب والعتمة . وكان هذا دأبه الى أن مات رحمة الله تعالى عليه .

فائدة ، قيل إنّ جعفر الصادق أُوصى ابنه موسى هذا فقال : يا بني ، إحفظ وصيتي تعش سعيدًا وتمت شهيدًا ، يا بني أنْ من قنع بما قُسم له استغنى ، ومن مدّ عينه الى ما في يد غيره مات فقيرًا ، ومن لم يرض بما قسم الله له آتهم الله في قضائه ، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره ، ومن استعظم زلّة نفسه استصغر زلة غيره ، يا بني من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن سلّ سيف البغي قُتل به ، ومن احتفر لأخيه بئرًا سقط فيها ، ومن داخل السفهاء حُقِّر، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم ، يا بني قل الحق لك وعليك ، وإياك /37/ والنّميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال ، يا بني إذا طلبت الجود فعليك بمعادته .

وجعفر الصادق بن محمد الباقر ، لقّب بذلك لصدقه في مقاله . وله مقال في صنعة الكيمياء والزّجر والفأل والجفْر . قال ابن قتيبة : إنه قال في كتاب أدب الكتاب : الجفر جلد جفرة ، كتب عليه أو فيه الإمام جعفرُ الصادق لأهل البيت ما يحتاجون الى علمه ، وكل ما يكون الى يوم القيامة ، وكذا حكاه ابن

خلكان عنه أيضًا وكثير من الناس ينسبون كتاب الجَفْر الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو وهم ، والصواب أنّ الذي وضعه جعفر الصادق .

وتوفي جعفر الصادق سنة ثمان وأربعين ومائة بالمدينة ، ودفن بالبقيع وولد سنة ثمانين ، وأمه بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه حكاه المؤيد .

ذكر ابن خلكان أنّ جعفر الصادق سأل أبا حنيفة فقال : ما تقول في مُحْرِم كسَر رُباعية ظبي ؟ فقال : يا ابن بنت رسول الله ﷺ ، لا أعلم ما فيه . فقال : إنّ الظبي لا يكون 'ثَنِيّ' أبدًا . كذا حكاه كشاجم في كتاب المصائد والمطارد ، في مادة سنن في قول الشاعر في وصف الابل :

فجاءت كسنّ الظبي لم أر مثلها سنًّا قبل أن تحكي حَلوبة جائعِ

أي هي ثنيات ، لانّ الثّني هو الذي يُلقي ثنيته ، والظبي لا تنبت له ثنية أبدًا ، انتهى .

وروي أنه /37ب/ قيل له : ما بال الناس يزداد جوعهم في الغلاء بخلاف العادة في الرخاء ؟ فقال جعفر الصادق : لانهم خُلقوا من الارض وهم بنُوها فإذا قَحطتْ أقْحطوا ، وإذا أخصبت أخصبوا . انتهى . ولنرجع الى ذكر الرشيد .

قينة جليلة وقنّة خليلة

ذكر الأصفهاني في مختار الأغاني : أنّ يحيى بن خالد البرمكي له جارية من أحسن الناس وجهًا ، وكانت اسمها دنانير ، وكانت مولّدة صفراء ظريفة أديبة ، جيّدة الغناء . قال ابن شبّة : إنّها أخذت الغناء عن ابراهيم الموصلي ، فكان ابراهيم يقول ليحيى : متى فقّرتني ودنانير باقية ، فما فقرتني ! قال وسمعها الرشيد فشغف بها في حياة أبيه المهدي وأخيه الهادي . وكان لشدة شغفه بها

يُكثر مصيره الى مولاها يحيى ويقيم عنده ويُبرّها ويُفرط بها حتّى شكته زبيدة الى أهله وعمومته ، فعاتبوه على ذلك ؛ فقال لهم : ما لي فيها من أرَب ، وإنما أربي في غنائها ، فاَسمعوه فإن أعجبكم وإلا فقولوا ما شئتم ! فسمعوها فعذروه وأشاروا على زبيدة ألاّ تلحّ في أمرها ، فقبلت وأهدت الى الرشيد عشر جوار، منهنّ مازردة أمّ المعتصم ، وفاردة أمّ صالح ، ومراجل أمّ المأمون ، كان أهداها له علي بن عيسى بن ماهان أيام تعريسه بزبيدة ، فوهبها الرشيد الى زبيدة ثم ردّتها عليه مع جملة العشرة جوار ، وبقي شغف الرشيد بدنانير ، ولا زال يتردّد عليها . قيل إنه وهب /38/ لدنانير في ليلة عيد عقدًا قيمته ثلاثون ألف دينار. ولـمّا صادر البرامكة ردّته عليه . وكان لها حظوة عند مولاها يحيى حتى قيل إنها أصابتها العلّة الكلبية ، فكانت لا تصبر عن الطعام ساعة واحدة فكان يحيى يتصدق عنها في كلّ يوم من شهر رمضان بألف دينار ، لأنها كانت لا تصومه. وحكى عبّاد النسوي قال : مررت بمنزل من منازل طريق مكة ، فرأيت على حائطٍ مكتوبًا : «النّيك أربعة ، فالأوّل شهوة ، والثاني لذّة ، والثالث شفاء ، والرابع داء . وحَرٌ الى أيرين أحوج من أيْر الى حرَيْن 123 . كتبتْ دنانير مولاة البرامكة بخطها» . انتهى

وحُكي أنّ الرشيد دعا دنانير بعد مصرع البرامكة وأمرها أن تغنّي ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنّي آليت الاّ أغنّي بعد سيّدي أبدًا ، فغضب الرشيد وأمر بصفعها ، فصفعت وأُقيمت وأُعطيت العود ، فأخذته باكية وغنّت :

لما رأيت الدّيار قد دَرَستْ   أيقنتُ أنّ النّعيم لم يعُدِ

فرقّ لها الرشيد وأمر بإطلاقها ، فاَنصرفت .

قيل إنّ عقيدًا ، مولى صالح بن الرشيد ، خطب دنانير وأُشغف بها ، فردّته ، واستشفع بمولاه صالح فلم تجبه فكتب إليها :

يا دنانير قد تحيّر عقلي وتحيّرتُ بين وعْدٍ ومطْلِ
شغفي شافعي إليك والاّ فاْقتليني إن كنتِ تهْوِيْن قتلي

/38ب/ فلم يعطفها ذلك ، وما زالت على حالها الى أن ماتت الى رحمة الله تعالى . ومما قيل فيها أبيات :

هذي دنانير تنساني وأذكرها وكيف تنسى محبّا ليس ينساها
أعوذ بالله من هِجران جارية أصبحت من حبّها أهذي بذكراها
قد أُكمِل الحسن في تركيب صورتها فارتج أسفلها واهتزّ أعلاها
قامت تمشي فليت الله صيّرني ذاك التراب الذي مسّته رجلاها
واللهِ والله لو كانت إذا برزت نفسُ المتيّم في كفيْه ألقاها

أنفة وإعزاز وألفة واستعزاز

كان للرشيد جارية تُعرف بذات الخال ، وهي من أكمل النساء جمالا وكمالا ، ولها خال فوق شفتها العليا . وكان الرشيد قد اشتراها بستين ألف دينار ، وكان يحبّها وقد وعدها يومًا أن يصير إليها ، فلمّا خرج يريدها اعترضته جارية وسألته أن يدخل إليها ، فدخل وأقام عندها فقالت ذات الخال : والله لأعملنّ شيئا أغيظه به ، فأخذت مقراضًا وقصّت الخال الذي كان في شفتها ، ولم يكن شيء أحسن منه في موضعه ، فلمّا بلغ الرشيد ذلك شقّ عليه وخرج من موضعه وقال للفضل بن الربيع : انظر من بالباب من الشعراء ، فأتاه بالعباس بن الاحنف ، فعرّفه الخبر ، وأمره أن ينظم /39/ في المعنى شيئا فقال :

تخلّصتُ ممن لم يكن ذا حفيظة ومِلت الى من لا يُغيِّره خالُ
فإن كان قطعُ الخال لـمّا تقطّعتْ على غيرها نفسي فقد ظُلِم الخالُ

فنهض الرشيد مسرعًا الى ذات الخال واسترضاها ، وأمر للعباس بألفي درهم .

وكانت ذات الخال لابراهيم الموصلي فسألها الرشيد يومًا : هل كان بينك وبين ابراهيم شيء قط ؟ قالت : مرّة واحدة ؛ فأبغضها ووهبها لحمُويَه الوصيف ، ثمّ بعد مدة اشتاقها الرشيد فقال لحمُويه : ويلك ، وهبنا لك جارية على أن تسمع غناءها وحدك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، مُرْ فيها بأمرك ! فقال : نحن عندك غدًا ، فاستعدّ لذلك ! فاستأجر لها من الجوهريين بدلة وعقودًا قيمتها اثنى عشر ألف دينار ، فلمّا رأى الرشيد ذلك أنكره وقال : ويلك من أين لك هذا وما ولّيتك عملا تكسب فيه مثله ؟ فصدقه عن أمره ، فأمر بابتياعه ووهبه لها وحلف ألا تسأله حاجة إلاّ قضاها ، فسألته أن يولّي حموية الحرب والخراج بفارس سبع سنين . انتهى

تكميل مرام وسياق كلام

قد تقدّم ذكر العباس الشاعر ، وهو العباس بن الأحنف بن الاسود بن طلحة بن عدي بن حفصة اليماني ، كان رقيق الحاشية جميع شعره في الغزل ، فمن رقيق شعره قوله : /39ب/

يا أيها الرّجُل المعذّب نفسه   اقصر فإنّ شِفاءك الإقصارُ
نزَف البكاءُ دموعَ عينك فاستعرْ   عينا يُعيرك دمعها المدرارُ
من ذا يُعيرك عينَه تبكي بها   أرأيت عينا للبكاء تُعارُ

وله من جملة أبيات قالها :

أبكي الذين أذاقوني مودّتهم   حتى إذا أيقظوني للهوى رقَدُوا
واستنهضوني فلمّا قمت منتصبًا   بثِقل ما حمّلوني منهمُ قعدُوا

وله مما أنشده الحرمازي :

لا جزى اللهُ دمعَ عينيَّ خيرًا   وجزى الله كلّ خير لساني

نمَّ دمعي فليس يكتُم سرّي ورأيت اللسان ذا كِتمان
كنتُ مثل الكتاب أخفاه طيٌّ فاستدلّوا عليه بالعُنوان

وأُنشد الاصمعي للعباس قوله :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصرِ
لا يفعل السوءَ إن طال الجلوس به عَفٌّ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

فقال الاصمعي : ما زال هذا الفتى يدخل يده الى جرابه فلا يُخرج شيئا حتّى أُدخلها وأخرج هذا ؛ ومن أدمن طلب /40/ شيء ظفر ببعضه . فبلغ هذا الكلام ابراهيم بن العباس فقال : أنا لا أدري ما قال الاصمعي ولكن أنشد للعباس بيتًا لا يدفع أحدٌ فضله ، وهو قوله :

والله لو أنّ القلوب كقلبها ما رقّ للولد الضعيف الوالد

[وقوله] :

حتى إذا اقتَحم الفتى لجج الهوى جاءت أُمورٌ لا تُطاق كبارُ

هذا والله لا يقدر أحدٌ على أن يقول مثله .

قال ميمون بن هارون : كنّا عند الحسن بن وهب ، فقال لجاريته لُبْنى : غنّيني «أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم ، الابيات» فضحكت ثم قالت : فأيّ خير فيه إذا كان كذلك وأيّ معنًى ؟ فخجل الحسن من نادرتها عليه وعجبنا من حدّ جوابها وفطنتها . ومن كلام العباس بن الاحنف :

أُريدك بالسلام فأتّقيهم فأعنّي بالسلام الى سواكِ
وأُظهر بينهم ضحكي لتخفي سنّي ضاحك والقلبُ باكِ

وعن اسحاق بن ابراهيم قال : غضب الفضل بن الربيع على جارية له كان يهواها وتأخّرت عن استرضائه فغمه ذلك ووجّه اليّ يشكو ما به ، فكتبت اليه :

«أتى لك العزّ والشرف ولأعدائك الذلّ والغمّ ، استعمِلْ قول العباس بن الاحنف :

تحمَّل عظيمَ الذنب ممّن تحبه وإن كنت مظلومًا فقُل أنا ظالمُ /40ب/
فإنك إن لم تغفْر الذنب في الهوى يفارقْك من تهوى وقلبك راغمُ»

فقال الفضل : صدق والله ، وبعث إليها فترضّاها .

وتوفي العباس بن الاحنف سنة تسع وثمانين ومائة .

مكارم أخلاق ومادمة أرفاق

قال ابن الأغرّ : كنّا مع محمد بن الجنيد نشرب ليلة وكان صوته :

علّلاني بعاتِقات الكرومِ واسقياني بكأسِ أمِّ حكيمِ
إنها تشرب المدامة صِرْفًا في إناء من الزُجاج عظيمِ

فلم يزل يقترحه ويشرب عليه الى السَّحر ، فجاءه رسول الرشيد فركب اليه فقال له : يا محمد ما هذا الحال ؟ قال : لم أُعلم برأي أمير المؤمنين في الركوب فشربت ليلتي أجمع . قال : فما كان صوتك ؟ فأخبره فقال له : عُد الى منزلك فلا فضل فيك . فرجع الينا وأخبرنا بما جرى له ، وأخذنا في شأننا فجاءه خادم وقال له : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول قد بعثنا اليك بكأس أم حكيم ، فاشرب به ، وفيه ألف دينار تنفقها في صبوحك ! فقام محمد وأخذ الكأس وقبّلها وصبّ فيها ثلاثة أرطال وشربها قائمًا ، وسقانا مثل ذلك ووهب للخادم مائتي دينار ، وغسل الكأس وردّها اليه ، وفرّق علينا تلك الدنانير .

قال ابن مجمع : كنّا نُخرج ما في خزائن الملوك من الذهب والفضة فنزكّي عنه . وكان من الجملة كأس أمّ حكيم ، وكان فيه ثمانون مثقالاً . انتهى .

وأمّ حكيم هذه ، كانت هي وأمها من أجمل نساء قريش ، وكانت /41/ قريش تقول لأمّ حكيم الواصلة بنت الواصلة ، لأنهما وصلتا الجمال بالكمال ،

وكانت أمّ حكيم تحت عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، ولـمّا تزوّجها أمر بإدخال الشعراء ليهنئوه بالعقد ويقولون فى ذلك أشعارًا ، وأمر لهم بالجوائز . وقضى لأهله ومواليه يومئذ مائة حاجة ، وأمر لجميع من حضر من الحرس وغيرهم لكلّ واحد بعشرة دنانير ، ولم تزل أمّ حكيم عنده مكرّمة مدّة ، ثمّ تزوّج ميمونة بنت عبد الرحمان ، فملكته وأحبّها ، فذهبت بعقله ولم ترض منه الاّ بطلاق أمّ حكيم ، فطلّقها . فتزوجها هشام بن عبد الملك ومات عبد العزيز فتزوّج هشام ميمونة ، ثم طلّقها اقتصاصًا لها منها ، وقال لامّ حكيم : هل أرضيتُك بما فعلت بها ؟ فقالت : نعم ! وولدت له مَسْلمة ، المكنّى أبا شاكر . فكان هشامًا يدعوه باسمه ، وأراد أن يولّيه العهد بعده ، وكتب بذلك الى خالد القَسْري . فقال خالد : أنا بريء من خليفة يكنى أبا شاكر ! وكانت أمّ حكيم لا تفارق الشّراب ، ولها كأس مشهور توارثه الخلفاء وصار في خزائنهم . انتهى .

أدب وشجون ودعب ومجون

ذكر في كتاب لبّ اللبيب في كلام الشعراء مع الأمراء والكبراء : أنّ الرشيد جلس يومًا على الشراب ، فقال لأصحابه : أريد شاعرًا ظريفًا حسَن الصوت جميل الوجه . فقالوا بأجمعهم : لا نعرف ببغداد رجلا على هذه الصفة غير أبي نواس فإنه أجملهم وجهًا ، وأفصحهم لسانًا ، وأقربهم جوابًا ، وأعذبهم /41ب/ خطابًا ، وأرقّهم شعرًا ، وأحسنهم صوتًا . فأمر بإحضاره ، فلمّا مثل بين يديه قال له : يا أبا نواس انشدني من أشعارك ! فقال : أنشدك مما قلته أو مما أقوله في الساعة ؟ قال : بل مما قلته قديمًا ؛ قال : أبو نواس : مررت يا أمير المؤمنين يومًا في شارع من شوارع البردان فملت الى باب دار لأستسقي ماء إذا أنا بجارية ممشوقة القدّ ، صبيحة الخدّ ، كثيرة المجانة ، عليها أثر الرّعانة ، تصلح أميرًا لأهل الحانة . وكأنّي بها سكرانة ، فكلّمتني وكلّمتها ، وقلت فيما

بيني وبينها من المحاورة شعرًا ؛ وقلته والجارية تسمع . فقال الرشيد : وما هو يا أبا الحسن ؟ فأنشأ يقول :

يا نظرةً قدحتْ في القلب نيرانا — ويا هوًى زادني شوقًا وأحزانا
هيفاءُ مهفهفةٌ أهدت غضارتها — اليّ مع صرف الريحان ألوانا
قد كنت أغنى جميع الناس كلهم — عن شُرب مائكم إذ كان ما كانا
قالت فلِمْ قلت أخشى طول هجركمُ — قالت فلا تخشى الدهر هجرانا
أشاعرٌ أنت يا هذا فقلت لها — من أحسن الناس كلّ الناس الحانا
قالت فغنّ لنا صوتًا فقلت لها — حلفتُ ألاّ أغني الدهر مَجّانا
قالت فسل ثم لا تُشْطِطْ فقلت لها — لا شيء أكثر من بُغياك أحيانا
قالت فغن على اسم الله قلت لها — تفهمي سَكَنًا صوتًا لدهمانا
إنّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ — قتلننا ثم لا يُحْيِينا قتلانا /42/
يصْرعن ذا اللبّ حتى لا حَراك به — وهنّ أضعف خَلْق الله أركانا
فمُدمن الخمر يصحو بعد سَكرته — وصاحب العِشق حتّى الموت سَكرانا
قالت فغنّ سوى هذا لقائله — واجعله صوتًا إذا غنّيتَ أشْجانا
قلت اسمعي ثانيا ثم انتقيتُ لها — شعرًا يوافق في التعريض مغْنانا
ثم اندفعت أغنيها على طرَبٍ — بان الخليط ولو طاوعتِ ما بانا
فاستضحكتْ ثم قالت هات خيرًا — ما كان بين عليّ وابن عفّانا
فقلت هذا حديثٌ لا يوافقني — لكنْ حديث جميل وابن عَجلانا
قالت فعبّر لنا رُؤْيا فقلت لها — ماذا رأيت أراكِ الله إحسانا
قالت رأيت فتى في النوم ناولني — من نرجس غُطْنًا غَضًّا وريْحانا
قلت الفتى هو أنا والغصن ودّكمُ — وذاك يا سكني تأويلُ رؤيانا

فقال الرشيد : أشهد أنّك إمام الظرفاء ، وسيّد الأدباء ، ورأس المجان ! ثم

أمر له بثلاث بدَرات . فوُضعت بين يدي أبي نواس ، فقَسّم بدْرتين على من حضر في ذلك الوقت من المغنين . فبلغ الرشيد ذلك ، فعوّض له مائة ألف درهم وجارية جميلة . فغاب مدّة عن الرشيد ، ثم دخل عليه يومًا فسأله الرشيد عن الجارية وكيف هما ، فقال أبو نواس مجيبًا للرشيد : /42ب/

وناهدةِ الثّدْيين من خدم القصر مروّقة الأصداغ مضمومة الشَّعْرِ
مكرّمة في تُربها برمكيّة معا طِفها قد غبن في نكت الخِصْرِ
كلِفْتُ بها إذ راعني حُسْن وجهها زمانًا وما حبُّ الكواعب من أمري
فما زِلْتُ بالأشعار في كل موطن أُلَيّنها والشِّعْرُ مِنْ عُقَد السِّحْرِ
الى أن أجابت بالوِصال فأقبلت على غير ميعاد اليّ مع العَصْرِ
وطالبْتُها شيئا فقالت بغيْرة أموتُ إذًا منه وعبرتها تجري
فقلت لنفسي حين فكرّت خاليًا جُوَيْرِيَّة بِكْرٌ كذا فَزَعُ البِكْرِ
فلما تَخَالَيْنا توسّطت لجّة غرقتُ بها يا قومُ في لجج البَحْرِ
وَصِحْت أغني يا غلام فجاءتني وقد زَلَقَتْ رِجْلي وصِرْتُ الى غَمْرِ
فلو لا صياحي بالغلام وأنه تداركني بالحبل صرتُ الى قعْرِ
فآليْتُ ألاّ أركب البحر غازيًا حياتي ولا سافرتُ الا على ظهرِ

انتهى .

وأبو نواس ، هو الحسن بن هانيء بن الجرّاح الحِكمي الصرّي ، وكني نسبه لأبي نواس ، لأنه ينتسب الى قحطان ، وكانت تعجبه كُنَى ملوكهم ، مثل ذي رُعينَ وذي نُواس ، فأكتنى بأبي نواس . وكان مولده بالأهوار سنة خمس وثلاثين ومائة ، ثم نشأ بالبصرة وتأدب بها على أبي زيد وخلف الأحمر . ونظر في كتاب سيبويه ، وقال الشعر الجيّد البالغ البارع ، ومدح الخلفاء والأمراء . وكان يقال : هو في المحدّثين مثل امرىء القيس في المتقدمين . وكان العتّابيّ يقول : لو أدرك الخبيث الجاهلية /43/ لم يفضّل عليه أحد ! وسئل

المرزباني : أيّما أشعر أبو نواس أم الرقاشي ؟ قال : ضُراط أبي نواس في جهنّم أشعر من تسبيح الرقاشي !

قال أبو نواس :

وليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحدِ

انتهى .

قال : هذا البيت من جملة أبيات قالها في الفضل بن يحيى يخاطب الرشيد وهي :

قولا لهارون إمامِ الهدى عند احتفال المجلس الحاشدِ
لست على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواحدِ
أوجده الله فما مثله لطالب ذاك ولا ناشدِ
وليس على الله بمستنكَر أن يجمع العالم في واحدِ

لمح في هذا المثل السائر ، من قولهم «كلّ الصيد في جوف الفرا» .

قال في شرح رسالة ابن زيدون : وإنّك المقول فيه كلّ الصيد في جوف الفرا ، هذا مثل قديم يضرب في وصف الشيء المُرْبي على غيره . وأصله أنّ قومًا خرجوا للصيد ، فصاد أحدهم ظبيًا والآخر أرنبًا والآخر فَرَأً ، وهو الحمار الوحشي ؛ فقال لأصحابه : كلّ الصيد في جوف الفَرَا ! يعني أنّ جميع ما صِدتموه ليسيرٌ في جنْب ما صِدته . وزعم بعضهم أنّ الفرا اسم وادي كثير الصيد ، وهو قول مردود وأمّا قول الشاعر : «ووادٍ كجَوف العِير قفرٍ قطعته» فليس من هذا ، وإنما أراد الوادي المعروف بجوف حمار ، والحمار هنا اسم رجل قديم كان في واد خصيب ، فظلَم غيره فأرسل الله تعالى عليه نارًا أحرقته وأحرقت الوادي فخلِي وسكنته الجنّ فقيل في /43ب/ المثل : أخلى من جوف حمار ! وحُجب يومًا أبو سفيان بن حرب، عن النبي ﷺ ثم أذن له . فقال : يا

رسول الله ما كدت تأذن لي حتى تأذن بحجارة الجهلتين ! فقال النبي ﷺ : يا أبا سفيان ، كل الصيد في جوف الفرا . ولمّح أبو نواس لهذا فقال أبياته المتقدمة .

وكان أستاذ أبي نواس والبة بن الحباب .

قال في كتاب الاغاني الكبير : إنّ والبة بن الحباب أسَديّ كوفيّ ، من شعراء الدولة العباسية ، يُكنى أبو أسامة ، وهو أستاذ أبيَ نواس ، وكان ظريفًا غزّالا وصّافًا للشراب والغلمان المُرْد . وروي عنه أنه قال : كنت نائمًا وأبو نواس غلامي نائم عندي فأتاني آت في المنام . وقال : أتدري من هذا النائم الى جانبك ؟ فقلت : لا ؛ فقال هذا أشعر منك ومن الجنّ والإنس ، والله لأفتننّ بشعره الثَّقَلين ولأغوينّ أهل المشرقين ! فعرفت أنه إبليس ؛ فقلت له : فما له عندك ؟ فقال : عصيت ربّي في سجدة فأهلكني ولو أمرني أن أسجد له ألف سجدة لسجدت . اهـ .

قال عذبان السّلمي الشاعر ، قال لي المهدي : من أرقُّ الناس شعرًا ؟ قلت : والبة بن الحباب ، الذي يقول :

ولها ولا ذنبَ لها حُبّ كأطراف الرِّماحْ
في القلب يقدح في الحشا فالقلبُ مجروح القِراحْ

فقال : ما الذي يمنعك من منادمته ؟ قال : قوله :

قلتُ لساقينا على خَلْوة أَدْنِ كذا رأسك من رأسي
ونمْ على وجهك لي ساعة إني امرؤ أنكح جُلاّسي /44/

أفعلى هذا الشرط أنادمه يا أمير المؤمنين ؟! فضحك المهدي . وجرى بين أبي العتاهية وبين والبة كلام فهجاه والبة فقال أبو العتاهية فيه أبياتًا طويلة يقول فيها :

أوالبُ أنت في العَرَب كمِثْل الشِّيص في الرُّطبِ
فقل ما شئت أقبلُه وإن أُطنبت في الكذبِ
أراك ولدتَ بالمريخ يا ابن سبائك الذهبِ
فجئت أُقيشيرَ الخدين أزرق عارِم الذَّنبِ
فقد أخطأتَ في شصِب فخبّرني ألم أُصِبِ

ولما مات والبة رثاه علي بن أبي ثابت فقال :

بكتِ البرية قاطبةْ جزعًا لمصرع والبةْ
قامت بموت أبي أُسامةْ في الرفاق النادبه

وحُكي أنّ والبة كشف يومًا ثوب أبي نواس فرأى حُمرة أليتيه وبياضهما فقبّلهما ، فضرط عليه أبو نواس . فقال له والبة : لم فعلت هذا ؟ فقال : لئلا يضيع قول القائل ما جزاء من قبّل الاست فقيل له ضرطة ! فقال أبو نواس في ذلك :

قبّلتُها فأنالت فاك إذ شكرا وأكرم الناس من أعطاك ما قَدَرَا
فإن قنعت بما وليتك فَارض به وإن طلبت مزيدًا ناولناك خرَا

وقال الدلعجي غلام أبي نواس : أنشدت يومًا بين يدي أبي نواس :

يا شقيق النفس من حكَم نمتَ عن عيني ولم أنمِ

وكان قد سكر . فقال أُخبرك بشيء على أن تكتُمه . قلت : نعم . قال : /44ب/ أتدري مَن المعنِيّ بهذا ؟ قلت : لا والله ! قال : أنا والله ، والشعر لوالبة قاله فيّ ، وما علِم بهذا غيرك ! فما تحدّثت بذلك حتى مات ، انتهى .

ومما ينسب لأبي نواس يجاذب شُريحَ الحكيم ، وكان فيلسوفًا عارفًا ، فقال يداعبه :

إفْتِنا يا ابن شُريح لك في العلم خَوَلْ
غير أن الطب أولى بك من كل عملْ
فلم الأيْر خفيف فإذا قام ثَقُلْ
فإذا أبرز ما آرتخى ثم ذَبُلْ
أحديثٌ ذا فيه أم قديم لم يزلْ

انتهى .

ومن أمعن فليجِبْ ، فالمسألة قوية الاشكال متمكنة السؤال !

قال بعضهم : وأخبار أبي نواس مجموعة ، وفيها الزائد والناقص .

وقال في كتاب لب اللبيب : فمن مستظرف أخباره أنه تخاصم اثنان ، رافضيٌّ وسنّيٌّ ، فيمن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ . فأتيا أبا نواس فسألاه فقال : أفضلهم بعدهم يزيد بن الفضل ، فقالا : ومن يزيد بن الفضل ؟ قال : رجل يعطيني في كلّ سنة ثلاثة آلاف درهم . وسئل عن الخمر فقال : خمر الدنيا أجود من خمر الآخرة ، وقد جعلها الله تعالى لذة للشاربين ! فقيل له : وكيف هي أجود ؟ قال : لأنها أنموذج ، والأنموذج خيار الشيء .

وكان يومًا جالسًا وفي يده كأس خمر وعن يمينه عنقود عنب وعن يساره زبيب ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : الاب والابن والروح القدُس ! /45/ وقيل له : أتشرب الخمر ؟ قال : نعم ، إذا اشتُرِيَ بثمن خنزير سُرق ، حتى يكون حرامًا ثلاث مرات ! انتهى

وحكى أبو نواس عن نفسه قال : دخلت الى دمشق فخلوت بأمرد ، فدفعت اليه دينارًا فلمّا رأى متاعي استعظمه ، فقلت له : إمّا أن تردّ الدينار ، وإما أن تحتمله ، وإمّا أن تشتُم معاوية ! فأذعن ؛ فلمّا دفعته فيه سمعته يقول : هذا في رضاك قليل يا أبا يزيد ! كذا ذكر في شرح رسالة ابن زيدون .

قال الامام أبو الفرج ابن الجوزي ، في الأذكياء ، وغيره روى الحسن بن هانيء الشهير بأبي نواس قال : استقبلتني امرأة في هودج على بعير ، ولم تكن

تعرفني فاسفرت عن وجهها ، فإذا هو غاية الحسن والجمال فقالت : ما اسم ؟ فقلت : وجهك ؛ فقالت : الحسَن إذن ! فقلت لها : إذن ما اسمك ؟ قالت : فاطمة الاسدية . فسكتّ عنها . فقالت : ما أسكتك ؟ قلت : جمالك البارع أسكَتني ! فأنشدتها :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدّمُ
أجد الملامة في هواك لذيذة حبّا لذكرك فليلُمْني اللُّوَمُ

ثم قلت لها : إن المحبة على الإجمال موافقة المحبوب فيما شاء ، وها أنا قد وافقتك فوافقيني أنت ! فقالت : يا حسن ، كيف شئت أصنع وأنا على الإجمال موافقة لك ؛ قال : فقضيتُ وطري منها .

وحكي عنه أنّ أبا عبيدة كان يجلس الى /45ب/ اسطوانة في جامع البصرة فكتب أبو نواس في أعلاها :

صلّى الاله على لوط وشيعتِه أبا عبيدة قُل بالله آمينا

فلما حضر أبو عبيدة رأى البيت ولم يعرف من كتبه ، فأمر بعض تلاميذه بحكّه من السارية ، فلم يصل اليه ، فتطامن له أبو عبيدة ، وصعد التلميذ على ظهره الى أن حكّه ، فلمّا طال عليه الأمر قال له : أفَرغتَ ؟ قال : نعم حككت الكلّ إلا حرفًا ، قال : وما هو ؟ قال : لوط ! قال : لقد بقي الكلّ ! انتهى .

قال المسعودي في مروج الذهب : عن عبد الله بن المعتز أنه قال : أربعة من الشعراء سارت أشعارهم بخلاف أفعالهم ؛ أبو العتاهية سار شعره بالزهد وكان على الإلحاد ، وأبو حليمة الكاتب سار شعره بالعفة ، وكان ألعب من تيس ! ومحمد بن حازم سار شعره بالقناعة ، وكان أحرص من كلب . وأبو نواس سار شعره باللواطة ، وكان أزنى من قرد ! انتهى والشاهد فيه .

وأبو نواس أخباره كثيرة وسيأتي إن شاء الله تعالى بعض منها .

فكاهة وأدب ومراقصة وطرب

قال في كتاب لبّ اللبيب ما نصّه الشيخ الامام شهاب الدين الاشعري من حديث أبي جعفر : بينما الرشيد يطوف في قصره فلقيته جارية من جواريه ، وكان يجد بها وجدًا شديدًا ، وكانت تأبى عليه أن ينال مراده منها تعزّزًا عليه لحسنها ، فراودها فأبت ، وكانت سكرانة وكان يخمشها /46/ ، فانحلّ الإزار وسقط خمارها فقالت : امهلْني الليلة وغدًا أصير اليك ! فتركها ومضت . فلمّا كان من الغد أرسل اليها رسولاً يطلب منها تمام الوعد ، فقالت للرسول : ارجع اليه وقل له : «كلام الليل يمحوه النهار» . فقال الرشيد : من بالباب من الشعراء ؟ فقيل له : الرقاشي ومصعب وأبو نواس قال : يحضرون ، فلمّا حضروا قال لهم : من قال شعرًا يضمن آخره «كلام الليل يمحوه النهار» فله ألف دينار ويُضمّنه الذي في خاطري ؟! فقال الرقاشي :

متى تصحو وقلبك مُستطار   وقد منع القرارَ فلا قرارُ
وقد تركتك صبّا مستهاماً   فتاةٌ لا تزورُ ولا تزارُ
إذا وعدتك صدّت ثم قالت   كلام الليل يمحوه النهارُ

فوهب له ألف دينار ، وقال له : لم تُصب ما في خاطري . ثم قال مصعب :

أما وأبيك لو تجدين وجْدي   لأذهب بالكرى عنك السّهارُ
فكيف وقد تركت العين عَبْرى   وفي الاحشاء من ذكراك نارُ
تهلّل وجهها عجبا وقالت   كلامُ الليل يمحوه النهارُ

فوهب له ألف دينار وقال له : لم تصب ما أردته . ثم قال أبو نواس :

وليلة أقبلت في القصر سكرى   ولكن زيّن السُّكْرَ الوقارُ
وهزّ الريح أردافا ثقالا   وصدرًا فيه رمان صغارُ
وقد سقط الرّدا عن منكبيها   من التخميش وانحلّ الإزارُ

فقل لها عدني منك وعدا فقالت في غد منك المزار /46ب
فقلت الوعد سيدتي فقالت كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد : سيف ونِطْعٌ ! فقال : يا أمير المؤمنين ، المال لأصحابي والسيف والنِّطع لي ، هل أخطأت فيما قلت ؟ فقال : أظنك البارحة كنت معنا أو اطّلعت علينا ! فقال : يا أمير المؤمنين ، ما بتّ الاّ في داري وإنما استدللت بالذي على خاطرك كما قال الله تعالى : «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون» . فقبِل منه ، وأمر له ببدرة فيها ثلاثون ألف درهم . انتهى .

وذكر الخطيب البغدادي في بعض مصنفاته ، أن الرشيد دخل يومًا وقت الظهيرة الى مقصورة سريّة له ، تسمّى الخيزران ، على غفلة منها فوجدها تغتسل ، فلما رأته تجلّلت بشعرها حتى لم يُر من جسدها شيء ، فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه ، ثم عاد الى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟ فقالوا له : مصعب و أبو نواس ، فقال : يحضران جميعًا . فلمّا حضرا وأُجلِسا قال لهما : ليقل كلّ منكما أبياتًا توافق ما في نفسي . فأنشأ مصعب يقول :

جنبتكم والقلب صاب اليكمُ بنفسي ذاك المنزل المتجنّبُ
إذا ذُكِروا عرضت لا عن ملالة وذكراهمُ شيء إليّ محبّبُ
وقالوا تجنّبنا ولا تقربننا وكيف وأنتم حاجتي أتجنبُ
على أنهم أحلى من المنّ عندنا وأطيب من ماء الحياة وأعذبُ

فقال أحسنت ، ولكن ما أصبت ما في نفسي ؛ فقل يا أبا نواس ، فأنشأ يقول : /47/

نَضَتْ عنها القميص لصبّ ماء فورّد وجهها فَرْطُ الحياء
وقابلتِ الهواء وقد تعرّتْ بمعتدل أرقّ من الهواء

يقول: /47/

نَضَتْ عنها القميص لصبّ ماء	فورّد وجهها فَرْطُ الحياءِ
وقابلتِ الهواء وقد تعرّتْ	بمعتدل أرقّ من الهواءِ
ومدّت راحة كالماء منها	الى ماء عتيد في إناءِ
فلما أن قضت وترًا وهمّت	على عجل لتأخذ بالرِّداءِ
رأت شخص الرقيب على التداني	فأسبلتْ الظلامَ على الضياءِ
وغاب الصبح منها تحت ليل	فظل الماء يجري فوق ماءِ
فسبحان الاله وقد براها	كأحسن ما تكون من النساءِ

فقال الرشيد: سيف ونطع! فقال: ولِم يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويلك أمَعنا كنت؟! قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن هو شيء خطر ببالي. فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه.

شدة واقتحام وفسق وانتقام

قال في الفرج بعد الشدة: حدّثني عبد الله بن عمر الواسطي السرّاج المكفوف عن أبي دريد عن عبد الرحمان ابن أخي الأصمعي عن عمه، قال: بعث اليّ الرشيد في وقت لم تكن عادته أن يستدعيني في وقت مثله، وجاءني الرسول بوجه منكَر معجّلا، فوجِلت وَجَلاً عظيمًا وخِفتِ وجزعت، ودخلت فإذا الرشيد على بساط عظيم والى جانبه كرسي خيْزران عليه جويرية خماسية، فسلّمت، فلم يردّ عليّ ولا رفع رأسه إليّ، وجعل ينكُتُ في الارض، فاشتدّ بي الخوف، فقلت سُعِيت عنده بباطل يُهلكني قبل كشْفه، فأيست من الحياة ثم رفع رأسه فقال: يا أصمعي، ألا ترى الدعيّ ابن الدعي، اليهودي ابن اليهودي، عبدَ بني حنيفة، مروان بن أبي حفصة /47ب/ يقول لمعن بن زائدة ـ وإنما هو عبدٌ من عبيدنا ـ:

أقمنا بالمدينة إذْ يئسنا مقامًا لا نُريد به الزّوالا
وقلنا أين نذهب بعد معن وقد ذهب النوال فلا نَوالا
وكان الناس كلُّهُمُ لمعن الى أن زار حفرته عِيالا

فقال : إنّ النَّوالَ ذهب مع بقائنا ؛ فكيف يُصْنَع بنا ، ولم يرْض حتى جعلني وخاصتي عِيالا لمعْن ، والله لأفعلنّ ولأصنعنّ ! فقلت : يا أمير المؤمنين عبد من عبيدك ، أنت أوْلَى بأدبه والعفو عنه . فقال : عَليّ بمروان بن أبي حفصة ! فأدخِل عليه ، فقال : السِّياط ! فأخذ الخدم يضربونه وهو يصيح وهو يقول : يا أمير المؤمنين ما جرى ، اِسْتَبْقِني ! حتى ضُرب أكثر من مائة سوط ، فقال : يا أمير المؤمنين : أُعف عني ، واذكرْ قولي فيك وفي آبائك ! قال : ياغلام ، كُفّ عنه ! ثم قال : وما قلت يا كلب ؟! فأنشده التي يقول فيها :

هل تطْمِسون من السماء نجومها بأكبادكم أو تسترون هلالها . .

القصيدة . فأمر بإطلاقه وأن يدفع اليه ثلاثون ألف درهم ، فلمّا خرج قال لي : يا أصمعي من هذه الصبية ؟ قلت : لا أدري . قال : هذه مؤنسة بنت أمير المؤمنين . فدعوت الى الرشيد ولها وتأمّلته وإذا هو شاربٌ قد ثمَل ، فقال : قم يا أصمعي فقبّل رأسها ؛ فقلت : أفلتُّ من واحدة وأوقَع في أخرى أشدّ منها ، إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني ، وإن عصيته قتلني بمعصيته . فلما أحبّ الله من تأخير أجلي أُخطر ببالي أن وضعت كمّي على رأسها وقبّلت كمّي . فقال : والله يا أصمعي لو أخطأتها لقتلتك ! اعطوه عشرة آلاف درهم ، والحقْ بدارك ! فخرجت وما أُصدّق /48/ بالسلامة فكيف بالحِباء والكرامة . انتهى .

قال الفضل بن الربيع : رأيت مروان بن أبي حفصة وقد دخل المهدي بعد وفاة معن بن زائدة وأنشده مديحًا فيه . فقال له : من أنت ؟ قال : عبدك وشاعرك مروان يا أمير المؤمنين ! فقال له المهدي : ألست القائل :

أقمنا بالمدينة بعد معن مقامًا لا نريد به الزوالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نَوالا

وقال مجيبًا له على شعره ارتجالا :

قد ذهب النوال كما زعمت فلا تطلب لنا أبدا نَوالا

فأجروا برجله ! فجرّوا برجله وأخرجوه ، فلما كان في العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء . وكانت عادة الشعراء أن يدخلوا على الخلفاء في كلّ عام مرة ، فمثُل بين يديه وأنشد بعد رابع أو خامس من الشعراء قصيدته التي يقول فيها :

هل تطمِسون من السماء نجومَها بأكفكم أو تسترون هلالـهَا
أو تجحَدون مقالة من ربّكم جبريل بلغها النبيء فقالَها
شهِدتْ من الأفعال آخر آية بتُراثهم فأردتمُ أبطالـَها

قال : فرأيت المهدي وقد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع ، ثم قال : كم هي ؟ فقال : مائة بيت . فأمرله /48ب/ بمائة ألف درهم . فكانت أول مائة ألف أُعطيَها شاعرٌ في أيام بني العباس . قال : ومضت الايام ، وولي هارون الرشيد الخلافة ، فدخل اليه مروان وأنشده ، فقال له مثل ما قال المهدي ، وفعل به مثل فعل المهدي ، ثم تلطف مروان بعد مدة ودخل عليه وأنشده قصيدته التي يقول فيها :

لعمرُك ما أنسى غَداة المحَصَّب إشارة سليمان بالبَنان المخضَّبِ

فأعجبته وقال : كم قصيدتك ؟ فقال : ستون أو سبعون . فأمر له بعددها ألوفًا . انتهى .

حكي عن مروان بن أبي حفصة أنه قال : طلب المنصور معن بن زائدة طلبًا شديدًا ، وجعل لمن يأتي به مالا موفورًا . فحدثني معن بن زائدة قال : لما اشتدوا

في طلبي حِرت في أمري ، فوقفت في الشمس حتى لوّحتْ في وجهي ثم خفّفت لحيتي ولبست جبّة صوف غليظة ، وركبت جملا وخرجت عليه لأقيم في البادية . فلمّا خرجت من باب حرب تبعني أسودٌ متقلدًا سيفًا ، فلما غبت عن الحرس قبض على خِطام الجمل وأناخه وقبض عليّ ، فقلت : ما تريد ؟ فقال : أنت طِلبة أمير المؤمنين ! فقلت له : ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت معن بن زائدة . فقلت : يا هذا اتّق الله ، أين أنا من معن ؟ فقال : دع عنك هذا ، أنا والله أعرف بك ، فقلت له : فإن كانت القصة كما تقول فهذا جوهر قيمته أضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي ، فخذه ولا تسفك دمي ! فقال : هاته . فأخرجته اليه فنظره وقال : صدقتَ في قيمته ولست قابله حتى أسألك عن شيء فإن صدّقتني /49/ أطلقك . فقلت : نعم . قال إنّ الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبرني هل وهبت قط مالك كله ؟ قلت : لا . قال : فنصفه ؟ قلت : لا . قال : فثلثه ؟ قلت : لا . حتى بلغ الى العشر فقلت : أظنّ ذلك . فقال : ما أراك فاعلا ، وأنا والله رجلٌ رزقي من أجرهم عشرون درهمًا ، وهذا الجوهر قيمته ألوف من الدنانير ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك وجودك المأثور بين الناس لتعلم أنّ في الدنيا أجود منك ، فلا تُعجبك نفسك ، واحتقرْ بعد هذا كلّ شيء تفعله ، ولا تقعُد عن مكرُمة . ثم رمى العقد عليّ وانصرف ، فقلت : يا هذا ، والله لسفك دمي أهون عليّ مما فعلت . فخذْ ما دفعته اليك ، فإني عنه غنيّ ! فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقامي هذا ، والله لا آخذه ولا آخذ لمعروف ثمنًا أبدًا ! ومضى . فوالله لقد طلبته بعد ما أمِنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء فما عرفت له خبرًا . قال : ولم يزل معن مستترًا حتى كان يوم الهاشمية ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه وثب معن ، وهو متلثم وانْتضى سيفه وردّ عن المنصور ، ثم جاء اليه وهو على بغلة ولجامها بيد الربيع فقال له : تنحّ ، فإنّي أحقّ بهذا المقام منك في هذا الوقت ! فقال له المنصور : صدق ! فأخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفتْ تلك

الحال ؛ فقال له المنصور : من أنت ، لله درّك ؟ فقال : أنا طِلبتك يا أمير المؤمنين ، أنا معن بن زائدة . فقال له : أمّنك الله على نفسك ومالك ، ومثلك يُصطنع . ثم خلع عليه وأكرمه وقال له : قد ولّيتك اليمن ، فابسط السيف /49ب/ فيهم حتى ينقضي خَلَف ربيعة واليمن ؛ فقال : أبلغُ من ذلك ما يحبّ أمير المؤمنين. ثم توجه اليها ، وفعل ما أمره . وقام بعد ذلك ، فدخل على المنصور فقال له بعد كلام طويل : قد بلغني عنك شيء لو لا مكانتك عندي لعصيت عليك ؛ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بن زائدة الذي زيدت به   شرفًا الى شرف بنو شيبانِ
إن عُدّ أيام الفعال فإنما   يوماه يوم ندًى ويوم طِعانِ

قال : والله ما أعطيته لهذا يا أمير المؤمنين ولكن أعطيته لقوله :

ضاربت يوم الهاشمية مُعْلِمًا   بالسيف دون خليفة الرّحمانِ
فمنعت حَوْزته وكنت وِقاءه   من وَقْع كلّ مُهنّد وسِنانِ

فاستحيى المنصور فقال معن : والله لو لا مخافة الشُّنْعة عندك لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال وأعطيته إياها ؛ فقال له المنصور : لله درّك من أعرابي ما أهون عليك ما يعزّ على الرجال وأهل الحزم ! انتهى .

ويوم الهاشمية ، هو يوم خرجت فيه الراوندية على الخليفة المنصور . والهاشمية ، مدينة بناها بنواحي الكوفة وسكنها ، وبها كانت الوقعة .

قال الملك المؤيد في المختصر : في سنة إحدى وأربعين ومائة كان خروج الراوندية على المنصور . وهم قوم من أهل خراسان على مذهب أبي مسلم الخراساني ، يقولون بالتناسخ ، فيزعمون أنّ روح آدم في عثمان بن نهيك ، وأنّ ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور . فلما ظهروا وأتوا

/50/ الى قصر المنصور قالوا : هذا قصر ربّنا ! فحبس المنصور رؤساءهم ، وهم مائتان . فغضب أصحابهم وأخذوا نعشًا وحملوه ومشوْا به على أنهم ماشون في جنازة حتى بلغوا باب السجن ، فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا رؤساءهم ، ثم قصدوا المنصور ، وهم نحو ستمائة رجل ، فنادى الناس وأُغلقت أبواب المدينة وخرج المنصور ماشيًا ، واجتمع عليه الناس وكان معن بن زادة مستخفيًا من المنصور ، فحضر وقاتل الراوندية بين يدي المنصور . فعُفي عن معن لذلك . وقُتل في ذلك اليوم الراوندية عن آخرهم .

قال وفي سنة إحدى وخمسين ومائة قُتل معن بن زائدة الشيباني بسجستان في بُست ، وكان المنصور قد آستعمله على سجستان . قتله جماعة من الخوارج هجموا عليه في بيته بغتة وهو يحتجم فقتلوه ، وقام بالأمر بعده يزيد ، ابن أخي معن ، وهو يزيد بن مزيد الشيباني . انتهى .

ومما قيل في معن بن زائدة المذكور:

هو البحر من أيّ النواحي أتيته ... فلُجّته المعروف والجود ساحلُهْ
تراه إذ ما جئته متهلّلاً ... ككأنك تُعطيه الذي أنت سائلُهْ
تعوّد بسطَ الكفّ حتى لو أنه ... ثناها لقَبْض لم تُجِبْه أناملُهْ
فلو لم يكن في كفه غيرّ روحه ... لجاد بها فليتّق الله سائلُهْ

تمام مرام سياق كلام

قد تقدم ذكر مروان بن أبي حفصة ، وهو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة . واسم أبي حفصة يزيد . وذُكر أنه كان يهوديًا وأسلم على يد مروان بن الحكم ، وقيل إنه كان من سَبْي /50ب/ اصطخر . وتوفي مروان المذكور سنة إحدى وثمانين ومائة ، وكان مولده سنة خمس ومائة . كذا ذكره المؤيد .

وكان مروان من أبخل الناس ، على يَساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء ، ولا سيما من وُلْد العباس ، فكان رَسْمُه أن يُعطى بكلّ بيت يمدحهم به ألف درهم . وكان يلبس فرْوًا نتنَ الرائحة وكساء غليظا . قيل عنه إنه كان لا يأكل اللحم ، بُخلا منه الا إذا قُدّ م اليه ، وإذا اشتهاه أرسل غلامه فاشترى له رأسًا ، فقيل له : نراك لا تأكل الا الرؤوس صيفًا وشتاء ! قال : نعم ، إنّ الرّأس أعرف سعره ، فلا يستطيع الغلام أن يغبنني فيه ، وليس بلحم فيقدر أن يأكل منه إذا طبخه ، وإن أخذ عينه أو أذنه أو شيئا منه أعلم به ، ثم إني آكل منه ألوانًا ، عينه وأذنه وخدّه ولسانه ودماغه ، وأكْفى مؤونة طبخه ؛ وقد اجتمعت لي فيه مرافق. وأرسل غلامه ليبتاع له زيتًا بفلس ، فلما جاءه به قال له : خُنتني ؟ قال له : وكيف أخونك في فلس ؟ قال : أخذت الفلس واستوهبتَ الزيت !

وقال مرة لرجل فقير : إنْ وهب لي الامير مائة ألف درهم أهب لك درهمًا . فأعطاه الامير ستين ألف درهم ، فوهب الفقيرَ ثلثي درهم .

واشترى يومًا لحمًا بنصف درهم ووضعه في القِدر ، وكاد أن ينضج فدعاه صديق له فرفع اللحم من القِدْر وأعاده الى القصّاب بنقيصة دانق ، فأخذه القصاب ونادى عليه هذا لحم مروان ظنًا منه أنه يأنف من ذلك ، فما أنِف . وبلغ الخبر الى الرشيد فقال له : ويلك ، ما هذا ؟ فقال له : لأني /51/ يا أمير المؤمنين أكره الإسراف !

وحكي أن المهدي فرّق على الشعراء جوائزهم ، فأعطى مروان ثلاثين ألف درهم فجاءه أبو الشمقمق الشاعر وقال له : اعطني شيئا . فقال مروان : أنا وأنت نأخذ ولا نعطي . فقال أبو الشمقمق : اسمع منّي ما قاله الصبيان ! قال له : هات ، فقال :

لحيةُ مروان تفي عنبرًا   خالط مِسكًا خالصًا أذفَرَا
فما يُقيمان بها ساعة   حتّى يصيران جميعًا خرًا

فأعطاه درهمين وقال له : خذهما ، ولا تكن راوية الصبيان !

وقال مروان يومًا ما فرحت بشيء قطّ مثل فرحي بمائة ألف درهم وهبها لي أمير المؤمنين المهدي ، وزنْتها فزادت درهمًا فاشتريت به لحمًا . اهـ .

وحكى الخطيب البغدادي في تاريخه قال : قال مروان بن أبي حفصة : وفَدْت في ركب الى الرشيد ، فسِرْنا في أرض موحشة ليلا ، فلم نشعر الا بامرأة تسوق إبلنا وتحدو ، فإذا هي غُول . فلمّا لاح الفجر عدلتْ عنّا ، وغنّت تقول :

يا كوكب الصبح اليك عنّي فلست من صُبح وليس منّي

فما أذكُر أني رُعِبت من شيء الاّ تلك الليلة . انتهى .

وحكي أن مروان بن أبي حفصة فرّ برجل من تيم اللات . قال أبو عبيدة إنّ تيمًا كلّها كانت فى الجاهلية يقال لها عبد تيم . وتيم صنم كان لهم يعبدونه . اهـ . وسُمّوا تيم اللات بن ثعلبة .

ومرّ مروان برجل منهم يعرف بالجنبي فقال له مروان : زعموا أنك تقول الشعر ، وما أرى ذلك من طريقك ولا مذهبك ! فقال له الجنبي /51ب/ : اجلس واسمع ، ثم أنشده :

ثوى اللؤمُ في العجلان يومًا وليلة وفي دار مروان ثوى آخرَ الدهرِ
غدا اللؤم يبغي مَطْرَحًا لرجاله فقلّب في بَرّ البلاد وفي البحرِ
فليس لمروانٍ على العِرْس غَيْرة ولكن مروان يغار على القِدْرِ

فقال له مروان : ناشدتك الله إلا كففت ! فإنك أشعر الناس . فحلف الجنبي بالطلاق ثلاثًا إنه لا يكفّ حتى يصير الى قومه ، رؤساء أهل اليمامة ويقول بحضرتهم «قاق قاق ، في أُستي بيضة !» . ففعل ذلك بحضرتهم فانصرفوا يضحكون من فعله .

ومن شعر مروان بن أبي حفصة :

سألناه الجزيل فما تلكّى وأعطى فوق مُنْيتنا وزادا
وأحسَنَ ثم أحسن ثم عُدنا فأحسن ثم عُدْتُ له فعادا
مِرارا ما رجعتُ اليه الا تبسّم ضاحكًا وثنّى الوِسادا

خطاب أديب وخطب مصيب

قال القاضي في كتابه المعروف بالفرج بعد الشدة : إنّ الاصمعي قال : لزِمت باب الرشيد ، فكنت أقيم عليه طول نهاري ، وأبيت بالليل مع الحرس أسامرهم وأتوقّع بحالٍ سعد حتى كدت أموت ضُرّا وهُزالا ، وأنْ أصيَر الى ملالة ، ثم أتذكّر ما في عاقبة أمره من الفرج من صلاح حال باتفاق محمود ، فأصبر . فبينما أنا ذات ليلة قد قاسيت فيها السُّهاد والأرق إذ خرج بعض الحجاب /52/ فقال : هل بالباب أحد يُحسِن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ، ربّ مضيق وله التيسير ؛ أنا ذاك الرجل ! فأخذ بيدي وقال : ادخلْ ، فإن خُتم لك بالسعادة والتصويب لرأيي ، فلعها أن تكون ليلة تعرُّفي فيها بالغنَى . فقلت : بشّرك الله بخير ! فدخلت فوجدت الرشيد في البهو ، وهو البيت المقدّم لامّ البيوت جالسًا والخدم على رأسه والفضل بن يحيى البرمكي جالس الى جنبه . فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي ، فسلّمت ثم قال : تنحَّ قليلا تسكُنْ إنْ كنت وجدتَ الرَّوعة حسًّا ! فقلت في نفسي فرصة تفوتني آخر الدهر بعارض فلا أُعْتاض منها الا كمدًا حتّى يصفّق عليّ الضريح . وقلت : إضاءة كرم أمير المؤمنين ، أيّده الله فأجيب أو أبتدىء فأصيب ؟ فتبسّم الفضل وقال : ما أحسن ما استدعى الاحسانَ وأحرى به أن يكون محسنًا . ثم قال : أشاعر أنت أم راوية ؟ قلت : راوية . قال : لمن ؟ قلت : لكلّ ذي جد وهزل بعد أن يكون محسنًا ؟ قال : أنصف الغارة من راماها . ثم قال : ما معنى هذه الكلمة ؟ قلت : لها وجهان ، زعمت السابقة أنه كان لها أي للغارة ، وهي اسم القبيلة على هذا الوجه ، لها رماة لا يقع سهامها في غير الحدَق ، فكانت تكون في

الموكب الذي فيه الملك فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوّته فنادى : أين رماة الحدق ؟ فقالت العرب «أنصف الغارة من راماها» ؛ والوجه الآخر الموضع المرتفع من الارض والجبل الشاهق ، فمن ضاهاه بفعل له قد رماه . وما أحسب هذا هو المعنى /52ب/ لان المراماة كالمعاطاة للنديم ، هو أن يأخذ كأسًا ويعطي كأسًا ، كذلك المراماة أن يرميها وترميه . فقال : أصبت . أرويت للعجاج ورؤبة شيئا ؟ قلت : الاكثر ! قال : أنشدني قوله «أرّقني طارقُ هَمٍّ طَرَقَا» . فمضيت فيها مُضي الجواد تهدر أشداقي ، فلمّا توجّه بني أمية ثنيتُ عنان اللسان الى امتداح المنصور فقال : أعن عمد أو غير عمد ؟ قلت : عن عمد ، تركتُ كذبه الى صدقه بما وصف المنصور من مجده . فقال الفضل : بارك الله عليك مثلك يؤهل لمثل هذا الموقف . ثم التفت اليّ الرشيد وقال : أرويتَ لعديّ بن الرقاع شيئا ؟ قلت : الاكثر ! قال : أنشدني قوله : «بانت سعادُ وأخلفتْ ميعادها» فابتدأتْ تهدر أشداقي ؛ فقال لي الفضل : يا هذا أنشد على مهل ، فلن تنصرف الا غانمًا . فقال الرشيد : أما إذا قطعت عليّ فأقسم لتشركني في الجائزة ! قال : فطابت نفسي فقلت : أفلا ألبس أردية التّيه على العرب ، أنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران المواهب . فتبسّم ومضيتُ فيها ، ثم قال : أرويت لذي الرمة ؟ قلت : الاكثر ! قال : أنشدني «أمِنْ حذَر الهجران قلبُك يطمَحُ» قلت : عروس شعره ! قال : فآية الحسن ؟ قلت قوله : «ما بال عينك منها الماءُ ينسكبُ» فقال : امض فيها . ومضيت فيها حتى انتهيت وصْفَه جُمْلة . فقال الفضل بن يحيى : بقي علينا من مسامرة السهر بجمل أجرب . فقال الرشيد : اسكت فهي التي سلبتك تاج تملكك وأزعجتك عن قرارك ، ثم جُعلت /53/ جلودها سياطًا تُضرب بها أنت وقومك عند الغضب . فقال الفضل : الحمد لله عوقبت من غير ذنب ، قال الرشيد : أخطأت في كلامك لو قلت أستعين الله ! قلت : هذا أصوب إنما يحمد الله على النعم ويُستعان على الشدائد . ثم قال : إني لأجد مللا ، وهذا الفضل ضيفٌ عندنا فسامرْه باقي

ليلتك فإذا أصبحتَ ، فإنْ رضي ، الخادم يلقاك بثلاثين ألف درهم . ثم قام وقرّبت اليه النعل ، فجعل الخادم يُصْلِح عقب النّعل في رجله ، فقال : ارفق ويحك ، أحاسبُك قد عقَرْتني ! فقال الفضل : قاتل الله العجم ، لو كانت سِنديّة ما احتاج أمير المؤمنين الى هذه الكُلفة ! قال : نعلي ونعل آبائي ، ما تدع نفسك التعريض لما تكره . فقال الفضل : لو لا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يجوز أن آمر لك بمثل أمره ، لأمرتُ لك بثلاثين ألف درهم ، ولكن قد أمرت لك بتسعة وعشرين ألف درهم ، فإذا أصبحتَ فاْقبضها واْلزم . فما صلّيت من غدٍ الاّ وفي منزلي ما أمَرَا لي . فأيْسرت ولزمتهما وزال ما كنت فيه من الضُّرّ ، وأتى الإقبال والنِّعم ، وكسبْتُ ولله الحمد ، اهـ .

سياق كلام وتصحيح مرام

قد تقدّم ذكر رؤبة بن العجاج وعديّ بن الرقاع وذي الرمة ، ولْنذكر شيئًا من أخبارهم تكميلا للفائدة وتتميمًا للعائدة ، فنقول : قال في كتاب الاغاني : رؤبة بن العجاج بدوي من بني تميم ، كان من رُجّز الاسلام وفصحائهم ، أدرك الدولتين ونزل بالبصرة ومات في أيام المنصور . وكان يكنى أبا الحجاف /53ب/ وأبا العجاج . وكان يأكل الفأر، فعوتب على ذلك ، فقال : هي أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللواتي يأكلن القذر، وهل يأكل الفأر الا نقي البُرّ ولباب الطعام ؟ !

ودخل يومًا السوق ، وعليه بَرْنَكان (في الصحاح : البرنكان نوع من الاكسية) أخضر ، فعبث الصبيان به ، وغرزوا الشوك في بَرنكانه ، وجعلوا يضحكون عليه ويصيحون : يا مردوم يا مردوم ! فجاء الى الوالي وقال له : أسألك أن ترسل معي الوَزَعة ، فإن الصبيان قد حالوا بيني وبين السوق ، فأرسل معه أعوانًا فشدّ على الصبيان وهو يقول :

أنْحَى على أمك بالمردوم   أعور جَعْد من بني تميم

فانهزم الصبيان ودخلوا دارًا عند الصيارفة . فقال له الشرطة : أين هم ؟ فقال : دخلوا دار الظالمين ! فسميت بذلك .

قال يونس بن حبيب : كنت جالسًا مع أبي عمرو بن العلاء : إذ مرّ بنا شبيل بن عَزْرة الضُّبَعي ، وكان علاّمة . فقال يا أبا عمرو ، أشعرتَ أنّي سألت رؤبة عن اسمه ، فلم يدر ما هو وما معناه . قال يونس : قلت له والله لرؤبة أفصح من معد بن عدنان ، وأنا غلام رؤبة ، أفتعرف أنت رؤبة ورؤبة ورؤبة ورؤبة ورؤبة ؟ قال : فضرب بغلته وما تكلم بشيء . قال : والرؤبة ، اللبن الخاثر ، والرؤبة ماء الفُحْل ، والرؤبة الساعة تمضي من الليل ، والرؤبة الحاجة ، والرؤبة سعة القدح .

قال المدائني : قدم البصرة راجزٌ من أهل المدينة ، فجلس الى حلقة من الشعراء وقال : أنا أرجز العرب ، أنا الذي أقول :

مروان يُعْطي وسعيد يمنعُ   مروان نَبْعٌ وسعيد خَرْوَعُ

والله أنا أرجز من العجّاج ، فليت البصرة جمعت بيني وبينه ! قال : والعجاج ماض وابنه رؤبة معه ، فأقبل رؤبة على أبيه وقال : قد أنصفك الرجل ! فأقبل العجاج عليه وقال له : ها أنا ذا العجاج فهلمّ ! فقال : وأيّ العجاجين أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن الطويل ، وكان يُعرف بذلك . فقال له : ما عنيتك ولا أردتك . فقال : كيف وقد هتفت باسمي وتمنّيت أن تلقاني ؟ قال له : أوَ ما في الدنيا عجّاج غيرك ؟ قال : ماعلمتُ ! قال : لكنّي أعلم ، وإياه عنيت . فقال له : وهذا ابني رؤبة . فقال : اللهم غُفرًا ، ما بيني وبينكما عمل البتّة ، وإنما مرادي غيركما ! فضحك أهل الحلقة وكفّ عنه .

لطيفة

حكي أنّ رؤبة كان عند شاهين بن عبد الله الثقفي ، وهو يلعب بالنّرد . فأُتِـيَ بالخِوان ، وهو مشغول باللعب فقال رؤبة :

يا إخوتي جاء الخوان فأرفعُوا جُمانة كِعابها تَقَعْقَعُ

لم أدر ما ثلاثها والأربعُ

فضحك وأمر برفعها . وقدّم الطعام .

قال يعقوب بن داود : لقيت الخليل بن أحمد يومًا بالبصرة فقال لي : يا أبا عبد الله ، دفنّا الشعر واللغة والفصاحة اليوم ! فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : هذا حين انصرافي من جنازة رؤبة بن العجاج . اهـ .

وقد تقدّم أنه مات في أيام أبي جعفر المنصور ، رحم الله الجميع .

وأما عديّ بن الرقاع العاملي فقد ذكر في كتاب الأغاني أيضًا : أنه عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع ، من بني عاملة ، وهو من شعراء بني أمية كان مقدمًا عندهم /54ب/ مدّاحا خاصًا بالوليد بن عبد الملك . وكانت له ابنة شاعرة يقال لها سلمى . وكان منزله بدمشق . قال أبو العرّاف : دخل جرير على الوليد بن عبد الملك بن مروان وعنده عدي بن الرقاع . فقال له الوليد : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا عديّ بن الرقاع ، فقال جرير : شرّ الثياب الرِّقاع ، فممّن هو ؟ قال : من عاملة ! قال جرير : الذين يقول عزّ وجلّ فيهم : «عاملةٌ ناصبةٌ تَصْلَى نارًا حاميةً» ثم قال :

يُقَصِّرُ باع العامليِّ عن العُلى ولكن أَيْرَ العامليِّ طويل

فقال له عدي بن الرقاع :

أأُمُّك كانت خبّرتْك بطوله أم أنت امْرؤٌ لم تَدْر كيف تقولُ

قال : بل أدري كيف أقول ، فوثب عديّ الى رِجْل الوليد فقبّلها وقال :

أجرني منه ! فقال الوليد : والله لئن تعرّضت له لأسْرِجنّك ولألجمنّك حتى يركبك ويعيّرك الناس بذلك ، فكنّى جرير عن اسمه فقال :

إنّي إذا الشّاعرُ المغرورُ جرّبني جار بعيري على مِرّانَ مَرْفوس
اقْصِرْ فإنّ نِزارًا لن تُفاخرهم فرعٌ لئيمٌ وأصلٌ غيرُ مغروس
وابن اللّبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البُزْل القناعيس

قال محمّد بن موسى المنجِّم : ما أحدٌ ذُكر لي فأحببت أن أراه فإذا رأيته أمرتُ بصفعه إلاّ عدي بن زيد ، لانه قال من قصيدة :

وعلمتُ حتى ما أُسائل عالـمًا عن علم واحدة لكي ازدادَهَا

فكنت أعرِض عليه أصناف العلوم فكلما مرّ به شيء لا يحسنه /55/ أمرت بصفعه . قال سليمان بن عباس السّعدي : ذُكر كثّيرٌ وعديّ بن الرقاع في بعض مجالس بني أمية ، فافترقوا فيهما أيهما أشعر ، وفي المجلس جرير . فقال جرير : ما أعجبكم ! فلقد قال جرير بيتًا هو أشهر وأعرف من عديّ نفسه ، ثم أنشدهم :

أإن زُمّ أحمالٌ وفارقَ جِيرة وناح غُراب البَيْن أنت حزينُ

قال : فحلف الخليفة لئن كان عدي بن الرقاع أعرف في الناس من كُثير ليسرجنّ جريرًا وليُلجمنّه وليحملنّ عديًّا على ظهره .

وكتب الى واليه بالمدينة : إذا فرغت من خطبتك فسل الناس من الذي يقول : «أإن زمّ أحمال وفارق جيرة ، البيت» قال : ففعل ذلك ؛ فابتدروا من كل ناحية : كُثيِّر ! كُثيِّر ! فقال الوالي : أمرني أن نسأل عن نسب بن الرقاع فقالوا له لا ندري ؛ حتى قام أعرابي من مؤخّر المسجد فقال : هو من عاملة .

قال محمد بن سلام : عزل الوليد عبيدة بن عبد الرحمن عن الأردنّ وضربه وحلقه وأقامه للناس ، وقال للموكلين به : من أتاه متوجّعًا وأثنى عليه خيرًا

فأتوني به . فأتاه عدي بن الرقاع ، وكان عبيد الله محسنًا اليه فوقف عليه وقال :

فما عزلوك مسبوقًا ولكنْ الى الغايات سبّاقًا جوادًا
وكنتَ أخي وما ولدتْك أمّي وَصولا باذلا لا مُسْترادا
فقد هِيضت بنكبتك القُدامى كذاك اللهُ يفعل ما أرادا

فوثب الموكّلون به وألزموه وأدخلوه الى الوليد وأخبروه بما جرى ، فتغيّظ عليه وقال : أتمدح رجلا قد فعلتُ به ما فعلت ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، كان اليّ محسنًا ولي مؤثرًا ، فأيّ وقت /55ب/ كنت أكافيه بعد هذا اليوم ؟ قال : صدقت وكرُمت ، وقد عفوت عنك وعنه ، فخذه وانصرف . وكان عدي يقول إذا سمع شعر كُثيِّر : هذا شعرُ حجازيّ مغرور إذا أصابه قرّ الشام جمد وهلك . انتهى .

و أمّا ذو الرمّة ، قال المسعودي في كتابه مروج الذهب : ذو الرُّمّة هو غيْلان بن عقبة بن مسعود بن عدي بن عبد مناة بن أدّ . ويكنّى أبا الحارث ، وذو الرمة لقب غلب عليه لقّبته به ميّ . وكان قد اجتاز بخبائها وهي جالسة الى جنب أمها فوقف واستسقاها ماء ؛ فقالت أمها : قومي فأسقيه ! وقيل بل خرّق أدواته لـمّا رآها وقال لها : إخْرِزي لي هذه ! فقالت : والله ما أُحسِن ذلك وإني لخرقاء . والخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على قومها . فقال لأمها : مريها أن تسقيني ماء ، فقالت أُمها : قومي يا خرقاء فأسقيه ! فأتته بماء وكان على كتفه رُمّة وقطعةٌ من حبل فقالت : اشرب يا ذا الرمة فلقّب بذلك ، وقيل إنه كان يصيبه في صباه فزع ، فكتب تميمة ، فكانت تعلّق عليه ، وقالت : يا أبا الخليل ألا تسمع شعر غيلان وقوله ؟ فقال : بلى . فتقدّم وأنشد ، فقال له الحصين : أحسن ذو الرمة ! فغلب عليه . وكان له ثلاثة إخوة كلّهم شعراء . وكان هو كثيرًا ما يأتي الحضَر ويقيم بالكوفة . وكان طفيليًا ووضع منه أنه كان لا يحسن أن يمدح ولا يهجو . ولما مدح بلال بن أبي بردة بقوله :

رأيتُ الناس ينتجِعون غيْثًا　　فقلت لصَيْدحَ انتجعي بِلالا

/56/ فقال بلال : ولم ينتجعني غير صيدح !؟ يا غلام ، اعطه حَبْل قَتٍّ لصيدح ! فخجل من ذلك وقيل : إنّ جريرًا والفرزدق اتفقا عند بعض خلفاء بني أمية فسألهما عن ذي الرمة فقالا : أخذ من ظريف الشعر ووحشيّه ما لم يسبقه اليه أحد غيره . فقال الخليفة : أشهد لاتفاقكما على هذا فيه ، إنه أشعر منكما .

وكان أبو عمرو يقول : شعر ذي الرمة نُقَط عروس يضمحلّ عن قليل ، أو أبعار ظباء لها شمّ في أوّل شمّها ثم تعود الى أرواح البَعَر . وكان جرير والفرزدق يحسُدانه على شعره .

قال ذو الرمة : أوّل ما قاد المودّة بيني وبين مَيّ أنني خرجت مع إخوتي وبني عمي ، فوردنا على ماء وقد جَهِدنا العطش ، فعدِلْنا الى خباء عظيم فقال لي أخي : استسقي لنا ماء . فأتيت الخباء وفيه عجوز ، فاستسقيتها فالتفتت الى ورائها وقالت : يا مَيًّ اسقي الغلام . فقامت تصبّ في شِكْوتي فلم أر أحسن منها ، فلهوت بالنظر اليها والماء يذهب يمينًا وشمالا ، فقالت العجوز : يا بني ألهتك ميّ عمّا بعثك أهلك ، أما ترى الماء يذهب ! فقلت : والله ليطولنّ هيامي بها ! ثم ملأتُ شكوتي وأتيت إخوتي ، وهِمت بها عشرين سنة .

قيل ولما سمعت ميّ ما قال فيها ذو الرمة من الأشعار جعلت لله عليها أن تنحَر بدَنةً يوم تراه ، فلمّا رأته رجلا ذميمًا أسودَ قالت : واسوءتاه ، واضيْعةَ بدَنتاه ! فقال ذو الرمة :

على وجه مَيّ مُسْحة من مَلاحة　　وتحت الثياب الخِزْيِ لو كان باديًا

فكشفت ثوبها عن /56ب/ جسدها وقالت : أشيْنًا ترى ، لا أمّ لك ! فقال :

ألم تر أنّ الماء يخبثُ طعمه ولو كان لون الماء أزرق صافيًا

فقالت : أمّا ما تحت الثياب فقد رأيتَه وعلمتَ أنْ لا شين فيه ، ولم يبق إلا أنّ أقول لك : هلمّ حتّى تذُوق ما وراءه ، فوالله لا ذُقت ذلك أبدًا ! فقال :

فيا ضيعة الشِّعر الذي لجّ وانقضى بمَيّ ولم أملك ضَلال فُؤاديَا

ثم صلح الأمر بينهما بعد ذلك . وقيل إنّ النَّوار بُنيّة ميّ سمعت قول ذي الرمّة في أمّها حيث يقول :

هي البُرْءُ والأسْقام والهمُّ والمُنى وموتُ الهوى في القلب منّي المبَّرحُ
إذا غيَّر النّأي المحبّين لم أجد رسيس الهوى في حبّ ميّة يَبْرَحُ

فقالت : قبّحه الله ، وهو الذي يقول : «على وجه ميّ مسحة من ملاحة ، البيت» .

قيل : نزل ركبٌ بأبي الخرقاء العامرية فسقاهم لبَنًا ، وقصَّر (أي منع) عن شاب منهم ، فأعطته خرقاء صَبوحها فشربه ومضوْا فقال لها أبوها : أتعرفين الرجل الذي سقيْته صبوحك ؟ فقالت : لا والله ! فقال : هو ذو الرمة القائل فيك الاقاويل . فوضعت يدها على رأسها وقالت : واسوءتاه ! ودخلت بيتها فما رآها أبوها ثلاثًا .

وقال ابن عتبة : شبّب ذو الرمة بخرقاء العامرية لغير هوًى ، وإنما كانت كحّالة ، فداوت عيْنيه من رَمد ، فقال لها : ما تحبين أن أعطيك ؟ فقالت : لي عشر بنات أيامَى فشبّبْ بي ليرغب /57/ الناس فيهنّ إذا سمعوا أنّ فيّ بقية . ففعل وكان لها ثمانون سنة .

وقال عمرو بن تيم : مررت على ميّ وقد أسنّتْ ، فوقفتُ عليها وأنا يومئذ شاب فقلت : يا ميُّ ما أرى ذا الرمّة الا قد ضيّع فيك قوله ! فضحكت وقالت : رأيتَني وقد ولّيْتُ وذهبتْ محاسني فرحم الله غيلان ، فلقد قال فيّ الأشعار وأنا

أحسن من النار الموقَدة في الليلة القرّة في عين المقرور ! ثم صاحت : يا أسماء فاخرُجي ! فخرجت جارية كالمهاة ، ما رأيت أحسن منها . فقالت : والله لقد كنت أحسن منها ، ولو رأيتني يومئذ لأزدريْت هذه ازدراءك إياي ، فانصرفْ راشدًا ! فانصرفت .

وكانت خرقاء تقعُد ، ويمرّ الحاجّ بها ، فتحادثهم وتهاديهم ، و كانت تُجلس فاطمة بنتها ولم تكن مثلها ، فاجتاز بها محمّد بن الحجاج الاسدي فقالت له : من أين أقبلت ؟ قال : من الحج ؛ قالت : فما لك لم تمرّ بي وأنا أحدُ مناسكك ؟ فقال : وكيف ذلك ؟ قالت : أما سمعت قول عمّك غيلان :

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاءَ واضعةِ اللِّثامِ

فقال : يا عمّة ذهب ذلك منك ! قالت : لا تفعل يا بنيّ ، أمَا سمعت قول العُجيْف العُقيْلي فيّ :

وخرقاء لا تزدادُ الا ملاحة ولو عمَّرتْ تعمير نوح وظبَّةَ

ثم قالت : رحم الله ذا الرمّة لقد كان رقيق الشعر ، عذب المنطق حسن الوصف ، وكانت قاعدة بفناء البيت كأنّها قائمة من طولها ، بيضاء شهلاء ، فسألها عن سنّها ؛ فقالت : لا أدري ، إلاّ أني أذكر شمّر بن ذي الجوشن ، لعنه الله تعالى حين /57ب/ قتل الحسين رضي الله تعالى عنه ، مرّ بنا وأنا جارية .

قال اسحاق الهاشمي : رأيت ذا الرمّة وأنا بسوق المربد وقد عارضه رجل يهزأ به فقال : أشهد أنّ أباك ناك أمك !

غريبة

حكي أن ذا الرمة قال : أُدخلت على بلال بن أبي بردة ، وكان بلال أديبًا فأنشده بلال أبيات حاتم الطائي التي يقول فيها :

لَحَى الله صعلوكًا مُناه وهمّه من العيش أن يلقى لبوسًا ومَطْعمَا
يرى الخَمْص تعذيبًا وإن نال شِبْعه يَبِت قلبُه من شدة الهمّ مُنْهِمَا

فأنشده بلال «يرى الخمس» بالسين المهملة ، فقال ذو الرمة : «يرى الخمص» ، وإنما الخمس للإبل ، وإنما أراد خُمْص البطون . فضحك بلال ضحكًا باردًا ، وكان ضحوكًا ، ثم قال لي : وقتُ حضور المائدة ! وأقعدني معه ، فأكلت حتى شبعت ثم أمسكت ، فنظر اليّ وتأمّلني ورفع رأسه الى غلام واقف بين يديه فأشار اليه إشارة فهمها ولم أفهمها ؛ فمضى الغلام ثم أتى ومعه قضيب في غلاف كأنه من طين أحوَر ، فتناوله ثم مسح به على بطني ثلاث مرات ، فكأنْ لم يكن في بطني من ذلك الطعام شيء . ثم أكلت حتى شبعت ، ففعل بي مثل ذلك وكرّرها فقلت في الرابعة : أيها الملك ، لهذا الطعام بدّ أن يخرج . فقال : لا بدّ . فقلت : حسبي إذًا ! فقال : حسبك إذا أحببت . فقلت : ما هذا أيها الملك فما ظننت أنّ الله تعالى خلق مثل هذا . فقال : هذا مما /58/ تختصّ به الملوك .

قال ذو الرمّة فأخذت جائزته وانصرفت عنه . وأتيت ملك الصين فوجدته على ضفّة البحر ، فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام وقبِل هديّتي ، وأمرني بالجلوس . فرأيت في كفه جوهرةً في خاتم له قد أضاء ما حولها ، فلمّا رآني أُحِدّ النظر اليها آنتزع الخاتم وقذف به في البحر، فآغتممت لذلك ، وخفت أن يكون قد حقَرَها عليّ ، ثم التفت ورفع رأسه الى غلام كان بين يديه وقال : جئني بذلك السَّفْط مختومًا فأتاه به ، ففكّ الختم ثمّ أخرج من السفط دَرَجًا ، وأخرج من الدرج حُقًّا ، وأخرج من الحقة سمكة عيناها من زُمرّد وفي ذنبها شرابة . فأمسك الشرابة بيده وألقى السمكة في البحر ، فما كان الا لحظة حتى رأيت السمكة قد ظهرت على الماء وإذا الخاتم في فيها . فقلت : أيها الملك ما هذا ، فما ظننت أنّ الله تعالى خلق مثل هذا ! ؟ فقال : هذا مما يُختصّ به الملوك. فأخذت جائزته وانصرفت .

قال ذو الرمة ثم أتيت بعد ذلك هشام بن عبد الملك بن مروان فلما رآني قال : تأخرت عنّا يا برمك ! فحدّثته بزيارة ملك الهند ملكَ الصين وأمْرهما . فقال : سِرْ الى خزانة الطبّ حتّى تأخذ لك من المعجونات مما افدته من السمّ في بلد الهند والصين ! قال : فمضيت الى خزانته وٱبتدأت العمل ، فإذا خادم له قد أقبل وقال : أجبْ أمير المأمنين ، فقمت ودخلت عليه ، فلمّا وصلت الى الصّحن نظر اليّ وناداني بأعلى صوته : ردّوه ! فردّوني فتوهّمت أنّ ذلك لأمر حدث ، فلمّا أصبحت دعاني فقال : يا /58ب/ بَرْمك ، دعوناك بالامس ! فقلت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ؛ فقال : ما كان لسوء أردناه ولكن في عضُدي كبْشان من عقيق ، فإذا دخل داري من السم شيءٌ تناطحا ، فٱختبرنا ذلك . فقلت : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يريني إياهما فليفعل ، فحَسَر عن ذراعيه الى عضده ، وإذا هما على صفة الكبشيْن من عقيق ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أنّ الله خلق مثل هذا ! فقال : هذا مما تختصّ به الملوك . ثمّ أخذت جائزته وانصرفت .

ثم إنه بعد ذلك استوزره هشام وكان عنده من ذوي الرأي ورفعه وأدناه وبقي وزيره حتى مات ، انتهى .

مزاح شعراء ومصارع أمراء

قيل دخل أبو العتاهية على الرشيد بمكة فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا ابن مناذر شاعر البصرة يقول قصيدة في سَنة وأنا أقول في سنة ستّمائة قصيدة ! فقال الرشيد : أدْخِلوه ! فأُدخل وسلّم فقال له : ما هذا الذي يقول أبو العتاهية ؟! فقال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ فعرّفه ما قال ، فقال : يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول الاّ عَتْبه الساعةَ أموتُ ، الساعةَ الساعةَ ، لقلتُ كثيرًا ولكنني أقول :

إنّ عبد المجيد يومَ تولّى   هدّ رُكنًا ما كان بالمهْدود

ما دَرَى نعشُه ولا حاملوه ما على النّعش من عفاف وجُودِ

فقال الرشيد : انشدني هذه القصيدة ! فأنشده فقال : ما كان ينبغي أن تكون هذه الاّ في خليفة وما عيبها إلاّ أنّك قلتها في سوقة . وأمر له بعشرة آلاف درهم . فكاد أبو العتاهية /59/ يموت أسفًا وغمًا .

لطيفة

حكي أنّ ابن منادر نظر الى غلام أمرد حسن الوجه في مسجد البصرة فكتب اليه :

وجدتُ في الاخبار عن بعضِ ما حدّثنا الأشياخ في المُسْنَدِ
فيما روى الاعمش عن جابرٍ وعامرَ الشعبيّ والأسودِ
وصيةً جاءت الى كلّ ذي خدّ خلا من شعر أمردِ
أن يَقْبلوا الرّاغب في وصلهم فأقبلْ فإني فيك لم أزْهدِ

فلما قرأها ضحك وكتب على ظهرها «لست شاعرًا فأجيبك ولا فاتكًا فأسعدك ، وأنا أعوذ بالله منك ومن شرّك !» . انتهى .

وكان ابن مناذر من شعراء البرامكة ومادحيهم .

حكاية

قيل لـمّا أن سار الرشيد من الرقة حاجًا الى بيت الحرام ، والفضل بن الربيع معه ، وذلك بعد إيقاعه بالبرامكة ، فلما استقرّ بمكة دخل عليه جماعة ، وفيهم محمد بن مُناذر المذكور ، فأنشدوا بين يديه . ثم أراد ابن مناذر أن ينشد كأصحابه فقال الفضل بن الربيع : يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكة ومادحهم ، فتكنى الرشيد وعبس في وجهه فقال الفضل : مره يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم «إنّا بنو الاملاك من آل برمك» فقال له : انشدها ! فآمتنع فتوعّده فأنشدها :

إنّا بنو الاملاك من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
إذا وردوا بطحاء مكة أشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر /59ب/
فتُظلم بغدادٌ ويجلو لنا الدُّجى بمكة إذ كانوا ثلاثة أبدرِ
فما صلحت الا لجود أكفهم وأقدامهم الاّ لأعواد مِنبرِ
إذا راض يحيى الأمر ذلّت صعابه وحسبك من راع له ومُدبّرِ

وهي كثيرة ثم قال له : كانوا أولئك أيام مدحتهم يا أمير المؤمنين في طاعتك لم يلحقهم سخطك ، ولم تحلُل بهم نقمتك ولم أكن في ذلك مبتدعًا ولا خلا أحدٌ من نظرائي من مدحهم . فقال الرشيد : يا غلام ، ألطم وجهه ! قال ابن مناذر فلُطمت حتى سدرْتُ وأُظلم ما بيني وبين المجلس ؛ ثم قال : اسحبوه على وجهه فسُحبت وأُخرجت وأنا على أسوء حال ، وما معي يومئذ قوت عيالي ولا ما أُخرجه في عيدهم ، فإذا أنا بشاب قد وقف عليّ وقال : يَعِزّ والله عليّ ما جرى عليك ! ودفع اليّ صرّة فيها مائة دينار ؛ فقلت : من أنت ، جعلني الله فِداك ؟ فقال : أنا أخوك أبو نواس ، استعنْ بهذه الدنانير واعذرني ! فقلت : وصلك الله يا أخي وأحسن اليك . انتهى .

وكان الرشيد قد أُوقع بالبرامكة سنة سبع وثمانين ومائة ، فقتل جعفر بالأنبار ، مستهلّ صفر من هذه السنة عند عوْدِه من الحج ، وحمل رأسه وجيفته الى بغداد ، وأمر بنصب رأسه وقطعةٌ من جيفته على الجسر ، ونصف القطعة الاخرى على الجسر الآخر ، ثم أمر من أُحاط بيحيى وولده وجميع /60/ أسبابه وآخر ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك ، وأرسل الى سائر البلاد بقبضِ أموالهم ووكلائهم وسائر أسبابهم ، وأمر بحبس يحيى بن خالد والفضل بن يحيى ، فحبسا بالرّقة ولم يزالا على ذلك الى أن مات يحيى المذكور محبوسًا بالرّقة ، في المحرم سنة تسعين ومائة ، وعمره سبعون سنة ومات الفضل بن يحيى بالمكان أيضًا في المحرم سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وعمره خمس وأربعون سنة . وكان من

محاسن الدنيا ، لم ير في العالم مثله ، ولم يتعرض الرشيد لمحمّد بن خالد بن برمك ووُلْده . وكان عمُر جعفر لما قتل سبعًا وثلاثين سنة . وكانت الوزارة اليهم سبع عشرة سنة . وفي مصرعهم يقول الرقاشي ، وقيل أبو نواس :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وأمسـ ـك من كان يجدي ومن كان يجتدِي
فقل للمطايا قد أمنت من السُّرى وقطعِ الفيافي فَدْفدًا بعد فدفدِ
وقل للمطايا قد ظفرت بجَعفر ولم تظفري من بعده بمسوّدِ
وقل للمطايا بعد فضل تعطلي وقل للرّزايا كلّ يـوم تجدّدي
ودونكِ سيفا برمكيا مُهنّدًا أصيبَ بسيف هاشميٌّ مُهنّد

/60ب/ قيل ولـمّا أن حلّت النكبة بيحيى بن خالد قال : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا فيمن قبلنا إسوة وفيمن لمن بعدنا عبرة .

وقد اختُلف في السبب الحامل للرشيد على ذلك اختلافًا كثيرًا ، والأكثر على أنّ ذلك لإتيان جعفر عبّاسة أُخت الرشيد ، فإنه زوّجه لها ليحلّ النظر اليها وشرَط على جعفر زوجها أن لا يقربّها ، فوطئها وحبلت منه وجاءت بغلام . وقيل بل الرشيد حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند جعفر فأطلقه جعفر . وقيل بل إنه لما عظم أمر البرامكة واشتهر كرمهم وأحبّهم الناس ؛ والملوك لا تصبر على مثل ذلك ، فنكَبهم لذلك . وقيل غير ذلك ، ولأمر عظيم . فإنه لم يزل غيظه عنهم حتى قيل إنّ جثّة جعفر بقيت على الجسر مصلوبة الى أن سار الرشيد الى الرَّيّ سنة تسع وثمانين ومائة ، وأقام بها أربعة أشهر ثمّ رجع الى العراق ودخل بغداد في آخر ذي الحجة ، وأقام بها ثلاثة أيّام ولم يَصْف باطنه على جعفر ، وأمر بإحراق جثّته ، ومضى من فوره الى الرقّة فأصاب الناس من ارتحاله قلق . وقال في ذلك بعض شعرائه :

ما أنخنا حتّى ارتحلْنا فما نَفْـ ـرِقُ بين المناخ والإرتحالِ

ساءلونا عن حالنا إذْ قَدِمْنا فقَرَنّا وداعَهمْ بالسؤالِ

فقال الرشيد : والله إني أعلم أنه ما فى الشرق ولا في الغرب مدينة أيمن ولا أيسر من بغداد ، وأنها دار مملكة بني العباس ، ولكنّي أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق /61/ والبُغض لائمة الهدى والحبّ لشجرة اللعنة بني أميّة ، ولو لا ذلك ما فارقت بغداد . انتهى . كذا نقله المؤيد في المختصر بغير هذا الترتيب .

نادرة ، ذكر ابن خلكان : أنّ جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي كان عنده أبو عبيد الثقفي فقصده خُنْفساء ، فأمر جعفر بإزالتها فقال أبو عبيد : دعها عسى أن يأتيني بقصدها الـيّ خيرٌ ، فإنهم يزعمون ذلك . فأمر له جعفر بألف دينار وقال : تحقّق زعمهم ! وأمر بتنحيتها ، فتنحّت ثم قصدته ثانيًا فأمر له بألف دينار أخرى . انتهى . وهذا مما يدلّ على بذله الاحسان ومكارم أخلاقه رحمه الله تعالى .

ومما يندرج في سلك هذا الأسلوب ويوشّح به هذا المكتوب ما حكي عن عبد الله بن جعفر وكان على غاية الكرم والجود . قيل في لطائف أخباره إنه جاءه شاعر فقال له : يا أبا جعفر ، أقصّ عليك رؤيا رأيتها ؟ فقال له : قل ! قال : رأيت أبا جعفر في المنام كساني من الخزّ درّاعة ؛ فقال عبد الله : يا غلام ادفع اليه درّاعتي الخزّ ، ثمّ قال له : عجبت كيف لم تر في المنام جبّتي المنسوجة بالذهب ! فقال الشاعر : بأبي أنت وأمّي دعني أغفِى ساعة لعلّي أراها ! فضحك منه وقال : يا غلام ادفعها اليه .

وروي أنه وقف أعرابيّ على مروان بن الحكم أيام الموسم بالمدينة يسأله فقال له : ما عندنا ما نصِلك ولكن عليك بابن جعفر ، فأتى باب عبد الله بن جعفر فإذا ثِقَله قد سار نحو مكة وراحلته بالباب عليها متاعُه وسيفه ، فخرج عبد الله /61ب/ من داره فقال له الأعرابي :

أبا جعفر إنّ الحجيج ترحّلوا وليس لرحْلي فاْعلمنّ بعيرُ
أبا جعفر ضنّ الأمير بماله وأنت على ما في يديْك أميرُ
وأنت امرؤٌ من هاشم في صميـ ـمها اليك يصيرالمجد حيث يصيرُ
أبا جعفر ما مثلك اليوم أرتجي فلا تترُكنّي في البلاد أدورُ

فقال : يا أعرابي سار الثقل فعليك بالراحلة وما عليها وإياك أن تخدع عن السيف فإني أخذته بألف دينار ! فقال الاعرابي أبياتًا منها :

وكلّ آمْرىء يرجو نـوال ابن جعفر سيجزى له باليُمن واليُسْر طائرُه
سأُثْني بما أوليتني يا ابن جعفر وما شاكرًا عَرْفًا كمن هو كافرُه

وقيل إن رجلا جلب الى المدينة سكّرًا ، فكسَد عليه . فقيل له لو أتيت ابن جعفر فأهديته اليه لقبِله وأعطاك ثمنه . فأتى به اليه ، فأمر بابتياعه وقال للناس : انتهبوه ! فقال : جُعلت فداك آآخذ معهم ؟ قال : نعم . ثم قال له : كم ثمنه ؟ فقال أربعة آلاف درهم ، فأمر له بها ؛ فقال الرجل بعد أيام : والله ما يدري هذا ولا يعقل ، أخذ أم أعطى ، لأطالبه بالثمن ثانيًا ، وجاء اليه فقال : أصلحك الله ، ثمن سكري ! فأطرق مليًّا ثم قال : يا غلام اعطه فأعطاه ؛ ثمّ أتاه الرجل بعد أيام وقال مثل ذلك فأطرق مليّا ثم قال : يا غلام اعطه أربعة آلاف درهم ثم التفت وقال : يا أعرابي هذه تمام اثنى عشر /62/ ألف درهم !

وكان عبد الله المذكور ما اشترى شيئا قطّ الاّ ربح فيه . وسببه أنّ النبي ﷺ مرّ به في صباه وهو يصنع شيئا من طين يلعب به الصبيان ، فقال له : ما تصنع بهذا ؟ قال : ابْتَعْه ! قال : ما تصنع بثمنه ؟ قال : اشتري به رطبًا آكله ، قال : اللّهم بارك له في صفقة يمينه ! فكان كلما اشترى شيئا ربح فيه لذلك .

وهو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمّ عبد الله أسماء بنت عميس وأمّها هند بنت عوف بن جريش يقال لها الجُرَيشية أكرم الناس أحماء ، حموها رسول الله ﷺ وعليّ وجعفر وحمزة

والعباس وأبو بكر ؛ وإنما صار رسول الله ﷺ من أحمائها ، لأنه كان لها أربع بنات ، ميمونة زوجة النبي ﷺ ، وأمّ الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وأمّ بنيه ، وسلمى بنت عميس زوجة حمزة بن عبد المطلب ، وأسماء بنت عميس أحبهنّ لأمهنّ ، كانت عند جعفر بن أبي طالب ثم خلف عليها أبو بكر رضي الله عنه ثم خلف عليها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهنّ اللواتي قال فيهنّ رسول الله ﷺ : إنهن مؤمنات . قال ابن عباس رضي الله عنهما : دخل النبي ﷺ على فاطمة وعليّ رضي الله عنهما ليلة بنى بها ، فرأى خيالا من وراء السّتر فقال : من هذا ؟ فقالوا : أسماء . قال : بنت عميس ؟ قالت : أنا التي أحْرُس بنتك ، فإنّ الفتاة ليلة بنائها لا بدّ لها من امرأة تكون قريبًا منها إنْ عرضت لها /62ب/ حاجة أفْضت بذلك اليها . فقال رسول الله ﷺ : فإني أسأل الهي أن يحرُسك من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان . وتوفي عبد الله بن جعفر في خلافة عبد الملك .

قال الاصمعي : لما ولي عبد الملك الخلافة خفِيَ عبد الله بن جعفر ، فراح يومًا الى الجمعة وهو يقول : اللّهمّ إنك عوّدتني عادة جريْت عليها ، فإن ذلك قد انقضى فاقبضني ! فتوفي في الجمعة الأخرى ، وعمره ثمانون سنة . وكان الوالي يومئذ على المدينة أبان بن عثمان بن عفّان ، فصلّى عليه وشهِده أهل المدينة كلهم ، وأظهر الناس عليه الجزع ، وكان مأوى المساكين وملجأ الضعفاء والمحتاجين ، ولما فرغوا من دفنه قام عمرو بن عثمان ووقف على شفِير القبر وقال : رحمك الله يا ابا جعفر، والله إنّك كنت لرحِمك مُواصلا ، ولأهل الشرّ مُبغضًا ، ولأهل الريبة قاليًا ، ولقد كنت فيما بيني وبينك كما قال أعشى طرود :

رعيتُ الذي كان بيني وبينكم　　من الودّ حتى غيّبتْك المقابرُ

يرحمك الله يوم ولدت ويوم كنت رجلا ويوم متّ ويوم تبعث حيًّا ، لئن كانت هاشم أصيبت بك لقد عمّ قريشًا كلّها هُلكك ، فما نظنّ أن نرى بعدك

مثلك ! فقام عمرو بن سعيد بن العاصي الاشدق فقال : لا اله الا الله الذي يرث الارض ومن عليها واليه يرجعون ، ما كان أحلى العيش بك يا ابن جعفر وما أقبح ما أصبح بعدك ، والله لو كانت /63/ عيني دامعة لدمعت عليك ؛ كان والله حديثك غير مشوب بكذب وودّك غير ممزوج بكدَر . فوثب ابن المغيرة بن نوفل وقال : يا عمرو ، بمن تعرّض بمزج الودّ وشوْب الحديث ، أفَبِأبي فاطمة فهُمَا والله خيرٌ منك ومنه ؟! فقال : عَلى رِسْلك يا لَكَع ، أردتُ أدْخلك معهم هيهات ، لست هناك ؛ والله لو متّ أنت ومات أبوك ما مُدحت ولا ذممت ، فتكلّمْ بما شئت فلن تجد مجيبًا . فحجز الناس بينهما وانصرفوا .

وكان عبد الله بن جعفر لا يؤدب ولده ويقول : إن يُرد الله بهم خيرًا يتأدبون . فلم يُنجب فيهم غير معاوية والد عبد الله الذي أخرجه أهل الكوفة على بني أمية ، ودعا الناس الى بيعة الرضا من آل محمد ﷺ ، ولبس الصوف وأظهر سيماء الخير ، وكان من أمره ما كان مع مروان الحمار وعامله ابن ضبارة ، الى أن ظهر أبو مسلم بخراسان ، فأخذ عبد الله بن معاوية وحبسه عنده وجعل عليه عينًا يرفع أخباره .

وقد كتب عبد الله بن معاوية الى أبي مسلم رسالة يستعطفه بها يقول فيها : «من الاسير في يديه بلا ذنب اليه ، ولا خوف عليه ، أمّا بعد : فإنك مستودع ودائع ، ومولى صنائع ؛ وإنّ الودائع رعيّة وإنّ الصنائع عارية ، فاذكر القَصاص ، واذكر الخلاص ، وانبه للفكر قلبك ، واتق الله ربك وآثر فيه ما يلقاك غدًا على ما لا يلقاك أبدًا ، فإنك لاق ما أسلفت وغيرُ لاق ما خلّفت ، وفّقك الله لما ينجيك ، وآتاك شكر ما يبتليك» . فلما قرأ كتابه رمى به ثمّ قال : لقد أفسد هذا الرجل علينا أصحابنا وأهل صناعتنا وهو محبوس /63ب/ في أيدينا ، فلو خرج وملك أمرَه لأهلكنا ، ثم أمضى تدبيره في قتله ، ومع هذا قد رفع اليه العين الذي جعله عليه أنّه يقول ليس على الارض أحمق منكم يا أهل خراسان في طاعتكم هذا الرجل وتسليمكم اليه مقاليد أموركم من غير أن

تراجعوه في شيء أو تسائلوه عنه ، والله ما رضيتْ الملائكة من الله تعالى حتى راجعته في أمر آدم ، فقالت : «أتجعل فيها من يُفْسد فيها ويَسْفك الدّماء قال لهم إني أعلم ما تعلمون» . فحصل في نفس أبي مسلم من ذلك ، وقد ورد كتابه فأمر بقتله . وقيل إنه دسّ اليه سمّاً ووجه برأسه الى ابن ضبارة فحمله الى مروان .

وكان عبد الله بن معاوية المذكور من فتيان بني هاشم وأجوادهم وشعرائهم الا أنه لم يكن محمود المذهب ، وكان يُرمى بالزندقة ، واشتهر أمره فيها هو وأصحاب دولته وكان عبد الله إذا غضب على رجل أمر بضربه ثمّ يتحدّث ويتغافل عنه حتى يموت ، وفعل مرّة برجل مثل هذا فناداه : يا زنديق ، أنت الذي تزعم أنه يوحى اليك ! فما التفت ، وما زال يُضرب حتّى مات ، وكان مع هذا يقول شعرًا جيّدًا فمن شعره :

وعين الرِّضى عن كلّ عيب كليلةٌ ولكنّ عين السُّخط تُبدي المساويا
وأنت أخي ما لم يكن لي حاجة فإن عرضتْ أيقنتُ أن لا أخاليا

ومن شعره أيضًا :

فلا تركننّ لصنيع الذي تلوم أخاك على مثله /64/
و لا يعجبنْك قولُ امرىء يخالف ما قال في فعله
ولا تتْبع الطرفَ ما لا ينا ل لكنْ سلِ الله من فضله
فكم مُقِلّ ينال الغنى ويُحمد في رزقه كلّه

وتزوج بأمّ زيد بنت علي بن الحسين ، ثم خطب ربحة بنت محمد بن عبد الله ، وخطبها بكار بن عبد الملك بن مروان فتزوّجت بكارًا ، فشمتت بعبد الله امرأته أم زيد ، فقال :

سلا ربّه الخدر ما سانها ومن أيّما شأننا تعجبُ

فلست بأوّل من فاته على أربِه بعض ما يطلبُ

فقالت له : والله ما شمتّ ولكن نفَسْت عليك ! فقال لها : لا جرَم والله لا سوّتك أبدًا ما حييت . انتهى من الاغاني ، ولنرجع الى ذكر الرشيد .

ثبات جأش وتلقي إيحاش

قال التنوخي ، في كتاب الفرج بعد الشدة ، قال منارة صاحب الخلفاء : رُفع الى هارون الرشيد أنّ رجلا بدمشق ، من بقايا بني أمية ، عظيم الجاه واسع الدنيا ، كثير المال والاملاك ، مطاعًا في البلد ، له جماعة أولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم ، وإنه سَمْحٌ جواد كثير البذل والصنائع ، وأنه لا يؤمن عليه ، فثِقْه قبل أن يتعذّر وَثْقُه ، فعظُم ذلك على الرشيد . قال ضبارة : وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة لـمّا عاد من الموسم . قال منارة : فدعاني وهو خالٍ ، فقال لي : إني دعوتك لأمر يهمّني ، وقد منعني النوم ، فأنظر كيف يكون . وقصّ عليّ خبر /64ب/ الأموي وقال : أخرج الساعة فقد أُعِدّت لك الجمّازات (الجمّازة ، مركب سريع يتخذه الناس في المدن ، شبه العجلة تجرها الخيل) وأُزيحت عليك في الزاد والنفقة والآلات ، وضُمّ اليك مائة غلام وأسلك البرية ، وهذا كتابي الى أمير دمشق وهذه قيود فأرحل ، فأبدأ فأدخل بالرجل ، فإن سمع وأطاع فقيّده بهذا وجئني به ، وإلاّ فتوكّل أنت ومن معك به حتى لا يهرب ، وأنفذ الكتاب الى أمير دمشق ليركب في جيشه ، فأقبضوا عليه وجئني به ، وقد أجّلت لذهابك ستّا ولعوْدك ستّا ويومًا لمقامك ، وهذا محمل يحمل في شِقّه إذا قيّدته ، وتقف أنت في الشقّ الآخر ، ولا تكِلُ ضبطًا الى غيرك حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك ، فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها وولده وحاشيته وغلمانه وما يقولون ، وقيدّ النعمة والحالّ والمحلّ وآحفظ ما يقوله الرجل حرفًا بحرف من جميع الفاظه من وقوع طرْفك عليه الى أن تأتيني به ، وإياك أن يشذّ عليك

من أمره ، وانطلق .

قال منارة : فودّعته وخرجت فركبتُ الإبل وسرت أطوي المنازل وأسير الليل والنهار ولا أنزل الا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفّس الناس قليلا ، الى أن وصلت الى دمشق في أوّل الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة ، فكرهت طرُوقها ليلاً ، فنمت بظاهر البلد الى فتح بابه من غد ، فدخلت على هيئتي حتى أتيت باب دار الرجل ، وعليه ضيف عظيم وحاشية كثيرة ؛ فلم أستأذن ودخلت بغير إذن ، فلمّا رأى القوم ذلك /65/ سألوا بعض من معي عنّي ، فقال : هذا منارة رسول أمير المؤمنين الرشيد الى صاحبكم ! فأمسكوا . فلمّا صرت في صحن الدار ، نزلت ودخلت مجلسًا ، فرأيت فيه قومًا جلوسًا وظننت الرجل فيهم ، فقاموا اليّ ورحّبوني وأكرموني فقلت لهم : أفيكم فلان؟ قالوا : نحن أولاده ، وهو في الحمام . قلت :فأستعجلوه !

فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقّد الدار والأحوال والحاشية ، فوجدتها تموج بأهلها موجًا شديدًا ، فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن أطال ، واسترَبْتُ واشتدّ قلقي وخوفي من أن يتوارى ، إلى أن رأيت شيخًا قد أقبل بزيّ الحمام يمشي في الصحن ، وحوله جماعة كهول وأحداث وصبيان هم أولاده وغلمان كثيرة فعلمت أنه الرجل ، فجاء جلس ، وسلّم عليّ سلامًا خفيفًا ، وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته ، فأخبرته . وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال لي : تقدّم يا منارة فكل معنا ! فقلت : ما بي الى ذلك حاجة . فلم يعاودني ، فأقبل يأكل والحاضرون عنده ثم غسل يده ودعا بالطعام ، فجاءوا بمائدة حسنة عظيمة لم أر مثلها الا للخليفة ؛ فقال : تقدّم يا منارة فساعدنا على الأكل ! ولا يسألني عمّا جئت له ويأكل وأنا أفكّر في ذلك إذ فرغ من طعامه وغسل يديه ، واستدعى البخور فتبخّر ، وقام الى الصلاة فصلّى الظهر وأكثرَ من الدعاء والابتهال ، ورأيت صلاته حسنة ، فلمّا /65ب/ انفتل من المحراب أقبل عليّ فقال : ما أقدمك يا منارة ؟ قلت : أمرٌ لك من أمير

المؤمنين ، وأخرجت الكتاب ودفعته اليه ففضّه وقرأه فلمّا آستتمّ قراءته دعا أولاده وحاشيته وآجتمع منهم خلقٌ كثير، فلم أشكّ أنه يريد أن يُوقع بي ، فلمّا تكاملوا ابتدأ فحلف أيمانًا غليظة فيها الطلاق والعِتاق والحج والصدقة والوقف والحبس إنْ اجتمع منهم اثنان في موضع ، وأن ينصرفوا ويُدْخلوا غلمانَه وحاشيته منازلهم ، فلا يظهر أحدٌ منهم الى أن ينكشف أمرٌ يعمل عليه . وقاا : هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالمصير اليه ، ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة ، فاستوصوا بمن ورائي من الحُرَم خيرًا ، وما بي حاجة أن يصحبني غلام . هات يا منارة قيودك !

فدعوت بها ، وكانت في سَفط وأحضرتُ حدّادًا ومدّها فيه فقيّدته ، وأمرت غلماني بحمله حتى حصل في المحمل وركبت في الشقّ الآخر ، وسرت من وقتي لم ألق أمير البلد ولا غيره ، وسرت بالرجل ليس معه أحد الى أن انتهينا الى بستان في الغوطة فقال لي : ترى هذا ؟ قلت : نعم ! قال : لي فيه غرائب من الأشجار وكيت وكيت ، ثمّ انتهينا الى آخر ، فقال فيه مثل ذلك ، ثمّ انتهينا الى مزارع حِسان وقرًى سرِيّة فأقبل يقول هذا لي ، ويصف كلّ شيء منه . فاشتدّ غيظي منه فقلت له : علمت أنّي شديد التعجب منك ؟ قال : ولم تعجبتَ؟ قلت : ألست تعلم أنّ أمير المؤمنين قد أهمّه أمرك حتّى أرسل اليك من أزعجك بل انتزعك من بين أهلك وولدك ومالك وأخرجك /66/ عن جميع حالك وحيدًا فريدًا مقيّدًا لا تدري الى ما تصير اليه ، ولا كيف يكون ، فأنت فارغ القلب من هذا ، تصف بساتينك وضياعك؛ هذا بعد أن رأيتك وقد جئت وأنت لا تعلم فيما جئت وأنت ساكن القلب قليل الفكر ولقد كنت نسيًا ، شيخًا فاضلا . قال لي مجيبًا : إنّا لله وإنّا اليه راجعون ، أخطأتُ فراستي فيك ، قدّرتك رجلا كامل العقل وأنّك ما حللت من الخلفاء هذا المحلّ الاّ بعد أن عرفوك بذلك ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقولهم ؛ والله المستعان ، أمّا قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه إياي الى بابه على صورتي هذه ،

وإني على ثقة بالله عزّ وجلّ ، الذي بيده ناصية أمير المؤمنين ولا يملك لنفسه ولا لغيره ضُرّا ولا نفعًا الاّ بإذن الله ومشيئته ، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعدُ فإذا عرف أمري وعلِم سلامتي وصلاح ناحيتي وأنّ الحَسَدة والاعداء رموْني عنده بما لست في طريقه وتقوّلوا عليّ الاقاويل الكاذبة لم يستحِلّ دمي ، وتحرّج من إذايتي وإزعاجي فردّني مكرّمًا أو أقامني ببابه معظمًا ، وإن كان سبق في علم الله جلّ وعلا أنه يبدر اليّ منه بادرة سوء وقد حضَرَ أجلي وحان سفْك دمي ، فلو اجتهدتِ الملائكة وأهل الارض والسماء على صرْف ذلك عنّي ما استطاعوه ؛ فلِمَ أتعجّل الغم وأتْلِف الفكرَ فيما قد فرغ منه ، وإنّي أحسِن الظنّ بالله الذي خلق ورزق وأحيا وأمات وفطر وجبل وأحسن وأجمل ، وأوثر الصبرَ والرِّضى والتسليم والتفويض الى من يملك الدنيا /66/ والآخرة ، وقد كنت أخَلْتُ أنك تعرف هذا ، فإذا قد عرفتُ مبلغ فهمك فإني لا أكلّمك بكلمة حتى تُفرِّق حضرةُ أمير المؤمنين بيننا إن شاء الله تعالى .

ثم أعْرض عنّي ، فما سمعت منه لفظة بغير القرآن والتسبيح إلاّ مطلبَ ماء أو حاجة تجري مجراه ، حتى شارفْنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر ، وإذا النُّجُب استقبلتْني على فراسخ من الكوفة يتحسّسون خبري ، فحين رأوني رجعوا عنّي متقدّمين لي بالخبر الى الرشيد . فانتهيت الى البلد في آخر النهار ، فحططت رحلي ودخلت على الرشيد ، وقبّلت الأرض بين يديه ووقفت فقال : هات ما عندك ، وإياك أن تُغفل منه لفظةً واحدة . فسُقْت الحديث من أوّله الى أن انتهيت الى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور والصلاة وما حدَث به من امتناعه ؛ والغضبُ يظهر في وجه الرشيد ويتزايد حتّى انتهيت الى فراغ الأموي من الصلاة وانفتاله اليّ ومساءلته عن سبب قدومي ودفعي الكتاب اليه ، ومبادرته الى إحصار وُلْده وأسبابه وأهله وأصحابه وحِلْفته لهم أن لا يتْبعه أحد منهم وصَرْفه إياهم ومدّ رجليه حتى قيّدتُه ، فما زال وجه الرشيد يُسْفِر فلمّا آنتهيت الى ما خاطبني عند توبيخي إيّاه لـمّا ركبنا في المحمل قال : صدق

والله ! ما هذا الا رجل محسود على النِّعمة ، مكذوب عليه ليُزال ، ولعمري لقد أزعجناه وروّعناه وروّعنا أهله ! فبادرْ بنزع قيوده عنه وآتني به .

فخرجتُ فنزعتُ قيوده منه وأدخلته الى الرشيد فما هو الا أن رآه حتى رأيت ماء الحياة يجول في وجه /67/ الرشيد ، فدنا الأمويّ فسلّم بالخلافة ووقف فردّ عليه السلام ردّا جميلاً وأمره بالجلوس فجلس ، فأقبل عليه الرشيد يسأله عن حاله ثم قال : إنه بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونُحسن اليك ، فاْذكر حاجتك فأجاب الأموي جوابًا جميلاً ، وشكر ودعا وقال : يا أمير المؤمنين ، ترُدّني الى أهلي وولدي وبلدي ! قال : نحن نفعل ، ولكن سلْ ما تحتاج اليه من مصالح جاهك ومعاشك ! فقال : عمّال أمير المؤمنين مُنصفون ، وقد استغنيت بعدله عن مسألته عن ماله وأموري منتظمة وأحوالي مستقيمة ، وكذلك أمور أهلي وسائر أهل بلدي بالعدل الشامل في ظلّ دولة أمير المؤمنين ، وما استغنم ماله . فقال الرشيد : انصرف راشدًا محفوظًا ، وآكتب إلينا بأمرٍ إن عرض لك . فودّعه الأموي خارجًا . قال الرشيد : يا منارة ، احمله من وقتك وسر به راجعًا كما سيّرته حتى إذا أوصلته الى المجلس الذي أخذته منه ، فدعْه وانصرف ! ففعلت ذلك . انتهى منه .

سخط ورضا واعتراف بالقضا

قال الدُّميْري في حياة الحيوان : كان الرشيد مع عظيم ملكه يعتريه خوف الله تعالى . فمن ذلك ما نقله الامام العلامة محمد بن ظفر وغيره ، أنّ خارجًا خرج عليه ، فقتل أبطاله وآنتهب أمواله مِرارًا ، ثم جهّز اليه مرة جيشًا كثيفًا فقابلوه فغلبوه بعد فأمسكوه ثم أتوا به الى الرشيد فجلس مجلسًا /67ب/ عامًا وأمر بإدخاله عليه ، فلمّا مثل بين يديه قال له : يا هذا ما تريد أن أصنع بك ؟ قال : ما تريد أن يصنع بك إذا وقفت بين يديه ! فعفا عنه وأمر بأطلاقه فلما خرج قال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، رجلٌ قتل أبطالك وانتهب أموالك

تُطلقه بكلمة واحدة ؛ تأمّل هذا الأمر ، فإنه مما يُجْرِىء عليك أهل الشر! فقال الرشيد : ردّوه ! فعلم الرجل أنه قد تُكلّم في أمره ؛ فقال : يا أمير المؤمنين لا تُطِعْهم ، فلو أطاع الله فيك الناس ما ولاّك طَرْفة عين . قال : صدقت ! ثم أمر له بصلة وصرفه آمِنًا . انتهى .

عبرة لمعتبر وتذكرة لمزدجر

حكى ابن الجوزي : أنّ الرشيد جلس يومًا لازالة المظالم ، فدخلت اليه امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين أتم الله أمرك ، وفرّحك بما أعطاك ، وزادك رفعة ، لقد عدلت فقصدت ! فالتفت الرشيد الى أهل دولته وقال لهم : أتعلمون ما قالت هذه المرأة ؟ قالوا : ما قالت الاّ خيرًا يا أمير المؤمنين ؟! قال : لا ، إنما أرادت تدعو عليّ ، أمّا قولها «أتمّ الله أمرك» أخذته من قول الشاعر :

إذا كنتَ في نعمة فارعها إنّ المعاصيَ تُزيل النِّعمْ
إذا تمّ أمرٌ بدا نقصُه فحاذرْ زوالا إذا قيل تمْ

وقولها «وفرحك بما أعطاك» أخذته من قول الله تعالى : «حتّى إذا فرِحُوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُفلسون» وقولها «وزادك رفعة» أخذته أيضًا من قول الشاعر /68/ :

ما طار طيرٌ وارتفعْ الاّ كما طار وقَعْ

وأمّا قولها «لقد عدلتَ فقصدت» أخذته من قول الله عز وجلّ : «والقاسطون كانوا لجهنّم حطَبًا» ثم قال لها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : قتْلك آبائي وأخذُك أموالَهم . قال لها : من تكون ؟ قالت : من آل برمك ! فبكى الرشيد وقال لها : أمّا الرجال فقدّر الله عليهم ، وأمّا من المال فسيعود ذلك . فتعجّب الحاضرون من فصاحتها وفهْمِ أمير المؤمنين الرشيد . انتهى .

ومما يندرج تحت هذا الاعتبار ، وينتظم في سلك هذا الاستبصار ، ما حكاه

الملك المؤيد في المختصر عن الخليفة المنصور ، قال : بينما الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلا إذْ سمع قائلا يقول : اللّهم إني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحقّ وأهله من الطمع . فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وقال له عن قوله فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنْ أمّنتني أنبأتك بالأمور على أصولها ؛ فأمّنه فقال له : إنّ الذي دخله الطمع حتّى حال بين الحقّ والباطل هو أنت يا أمير المؤمنين ! فقال له المنصور : ويحك ، وكيف يَدخُلني الطمع ، والصفراء والبيضاء في قبضتي والحُلو والحامض عندي ؟! فقال الرجل : لأنّ الله تعالى استرعاك بالمسلمين وأموالهم فجعلتَ بينك وبينهم حِجابًا من الجصّ والآجر ، وأبوابًا من حديد ، وحُجّابًا معهم الأسلحة ، وأمرتهم أن لا يدخل عليك الاّ فلان وفلان ، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير ، وما أحد الاّ وله من هذا المال حقّ ؛ فلمّا رآك /68ب/ هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك ، تَجْبِي الأموال فلا تعطيها ، وتجمعها فلا تقسمها قالوا هذا قد خان الله تعالى فما لنا لا نخونه وقد سخّر لنا نفْسه ؛ فاتفقوا على أن لا يصل اليك من أخبار الناس الاّ ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيُخالف أمره الا أقضوه ونفوه حتى تسقُط منزلته ويَصْغُر قدره ، فلما آنتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلمًا من دونهم ، فآمتلات بلاد الله بالطمع ظلمًا وفسادًا وصار هؤلاء القوم شركاؤك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حِيل بينه وبين الدخول اليك ؛ فإن أراد رفْع قِصّته اليك وجدك قد مُنعت من ذلك ، وجعلتَ رجلاً ينظر في المظالم ؛ فلا يزال المظلوم يختلف اليه وهو يُدافعه خوفًا من بطانتك ، فإذا صرخ بين يديك ضُرب ضربًا شديدًا ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر ولا تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا ، فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله من الطفل يسقط من بطن أمه ، وما له في الأرض مال ،

وما من مال الاّ ودونه يدٌ شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى يُعظِّم رغبة الناس اليه ، ولستَ الذي تعطي وإنّما الله عزّ وجلّ يعطي من يشاء بغير حساب ؛ وإنْ قلت إنما أجمع المال لتسديد الملك وتقويته ، فقد أراك الله تعالى بني أمية ، ما أغنى عنهم ما /69/ جمعوه من الذهب والفضة وما أعدّوا من الرجال والسلاح والكراع حتى أراد الله تعالى لهم ما أراد ؛ وإن قلت إنّما أجمعه لطلب غاية هي أحسن من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة الا منزلة لا تُنال الا بخلاف ما أنت عليه . الى هنا كلام المؤيد . ذكر ذلك في حجّته التي مات فيها ، سنة ثمان وخمسين ومائة ، فإنّه مات لستّ خلون من ذي الحجة من هذه السنة ، وقد هجس في نفسه أنه يموت في ذلك الشهر وخَبّر به .

حكي عنه أنه نادى ابنه المهدي وقال له : إني وُلدت في ذي الحجة ، ووليت في ذي الحجة ، وهجس في نفسي أني أموت في ذي الحجة من هذه السنة ، وهو الذي حرّضني على الحج ، فاتق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدي ، ووصّاه وصيّة طويلة ثم ودّعه وسار الى الحج ، ومات ببئر ميمونة مُحْرِمًا في التاريخ ، وعمره ثلاث وستّون سنة ، ومدّة خلافته اثنان وعشرون سنة وثلاثة أشهر وكَسْر . وكان أسمر نحيفًا ، خفيف العارضين ، ولد بالحُميمة من أرض الشراة ، ودفن بمقابر باب المعلّى ، وكان أحسن الناس خُلُقًا في الخلوة حتى يخرج الى الناس . ذكر ذلك كلّه المؤيد في مختصره . وهنا ساق الحكاية المتقدّمة ولم يذكر جواب المنصور . انتهى ، ولنرجع الى ذكر الرشيد .

ذكر أخيار ولطائف أخبار

حكى ابن الجوزي قال : قال الرشيد لمحمد بن الحسن الشيباني : عِظْني ! فقال : نعم ، لئن تَصْحبْ إصحبْ من يخوّفك حتى يدركك الأمن خيرٌ لك من أن تصحبَ من يؤمِّنك حتى يدركك الخوف ! /69ب/ فقال الرشيد :

فسّر لي هذا ! قال : من يقول لك أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيكم ﷺ . فبكى الرشيد حتى رحِمه من كان حوله . انتهى .

محمد بن الحسن هو من أصحاب أبي حنيفة . وأصل والده من أهل قرية جرستا ، من غوطة دمشق ، مولى بني شيبان فهو شيباني بالولاء ، وسار الى العراق وأقام بواسط ، فولد له ولده محمد بن الحسين المذكور بواسط ، ونشأ بالكوفة وصحب أبي حنيفة وحضر مجلسه سنين ، وتفقّه على أبي يوسف وصنّف عدة كتب في فقه أبي حنيفة ، مثل الجامع الكبير والجامع الصغير وغير ذلك ، ونشر علم أبي حنيفة .

قال الشافعي : حَمْلَةٌ من علم محمد بن الحسن وِقْرُ بعير ! وقال عنه : ما رأيت سمينًا ذكيًا الاّ محمد بن الحسن ، ويسمّى محمد بن أبي حنيفة . قال الملك المؤيد : وفي سنة تسع وثمانين ومائة وقيل سنة احدى وثمانين توفي محمد بن الحسن الشيباني . انتهى .

وقال في ربيع الابرار : وتوفي الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني في يوم واحد ، في مكان واحد ، سنة سبع وثمانين ومائة بالريّ ، فقال الرشيد : دَفَنّا ههنا العلم والادب ! اهـ .

قال : واجتمع الكسائي ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما يومًا في مجلس الرشيد فقال الكسائي : من تبحّر في علم العربية اهتدى الى جميع العلوم . فقال له محمد : ما تقول فيمن سها عن سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال : لا . فقال محمد : لِم ذا ؟ قال : لأنّ /70/ النُّحاة لا تصغّر المصغّر ! قال محمد رحمه الله تعالى : فما تقول في تعليق التعتيق بالمِلْك ؟ قال : لا يصحّ . فقال محمد: لِم ذا ؟ قال : لأنّ السيل لا يسبق المطر . اهـ .

والكسائي هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز ، أحد القرّاء السبعة . وكان إمامًا في النحو واللغة . وقيل له الكسائي لانه دخل الكوفة وأتى الى حمزة بن حبيب الزيات ملتفًّا بكسائين . وقيل بل حج وأحْرم بكسائين ،

كذا ذكر المؤيد في مختصره .

قال ابن خلكان في ترجمته عن أبي جعفر البلخي : أنّ الرشيد جمع بين أبي الحسن الكسائي وأبي محمد اليزيدي ليتناظرا بين يديه فسأل اليزيدي الكسائي عن إعراب قول الشاعر (الخرب ، الذكر من الحبارى ، والعير الذكر من حمار الوحش) :

ما رأينا خَرَبًا نقـ ـر عنه البيض صَقْرُ
لا يكون العيْر مُهْرًا لا يكون الـمُهْر مُهْرُ

فقال الكسائي يجب أن يكون «مهر» منصوبًا ، على أنه خبر كان ، وفي البيت على هذا إقواء ؛ فقال اليزيدي : الشّعر صواب ، لأن الكلام قد تمّ عند قوله «لا يكون» ثم استأنف ، فقال «المهرُ مَهر» ، فلم يرض الكسائي . فضرب اليزيدي الأرض بقلنسوته ، وقال : أنا أبو محمد ! فقال له يحيى بن أكتم : أتَكَنّني بحضرة أمير المؤمنين وتَسْفَهُ على الشيخ ؛ فقال الرشيد : والله إنْ خَطأَ الكسائي مع حُسْن أدبه لأحبّ من صوابك مع قلة أدبك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، حلاوة الظفر أذهبت عنّي التحفّظ ، فأمر الرشيد بإخراجه .

قال في ربيع الابرار : وتعلّم الكسائي النحو على كِبَر سنه . وسببه أنه مشى يومًا حتى أعيى فجلس وقال : /70ب/ عييت ! فقيل له : قد لحنتَ ! قال : كيف ؟ قيل له : إن كنت أردت التّعب قل أُعييت ، وإن أردت انقطاع الحيلة قل عَييت . فأنف من قوله لحنتَ واشتغل بالنحو حتى مهَر فيه ، وصار إمام وقته . وكان يؤدب الأمين والمأمون فصارت له بذلك اليد الطولى والوجاهة عند الرشيد ، اهـ .

جمع الرشيد بينه وبين سيبويه حين قدم من البصرة الى بغداد فتناظرا في البحث المشهور عنهما ، وهو أنّ الكسائي زعم أنّ العرب تقول : كنت أظنّ أنّ الزّنبور أشدّ لسْعًا من النّحلة فإذا هو إياها ! وفي رواية : كنت أظنّ لسعة

العقرب أشدّ من لسعة الزنبور، فإذا هو إياها ! فقال سيبويه : ليس المثل كذلك ، بل فإذا هو هي ! وتشاجرا طويلا وآتفقا على مراجعة عربيّ خالص . فاستدعى الأمين عربيًا وسأله عمّا قال سيبويه وتعصّب للكسائي ، لانه معلّمه وآنتصر الخليفة للكسائي أيضًا ، فتحمّل سيبويه من ذلك همّا ، وترك العراق وسافر الى جهة شيراز وتوفي بقرية من قراها ، يقال لها البيضاء ، وعمره نيف وأربعون سنة . وكانت وفاته سنة ثمانين ومائة ، وقيل سنة سبع وسبعين ومائة . كذا حكاه المؤيد .

وسيبويه لقبه ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر ، وكنيته أبو بِشْر . كان أعلم الناس بالنحو ، ولم يوضع فيه مثل كتابه وجميع كتب الناس عليه عيال . وأخذ اللغة عن الاخفش الاكبر ؛ قال ابن الجزّي : سمّي سيبويه لأنّ وجنتيه كانتا كأنهما تفّاحتان . /71/ وكان في غاية الجمال ، رحمه الله تعالى ، وقيل إنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، وقيل سنة ثمان وثمانين ومائة . قال أبو الفرج ابن الجوزي : توفي سيبويه في سنة أربع وتسعين ومائة وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وأنه توفي بمدينة ساوه . وذكر خطيب بغداد عن ابن دريد أنه مات بشيراز وقبره بها ، وكان كثيرًا ما ينشد :

إذا فُكّ من داء به ظنّ أنه   نجا وبه الدّاءُ الذي هو قاتله

وسيبويه لقبه ، وهو لقب فارسي معناه بالعربية رائحة التفّاح . وقيل إنما لقب بذلك لأنه كان جميل الصورة ، وجنتاه كأنهما تفّاحتان . اه . نقل ذلك المؤيد رحمه الله تعالى في المختصر . ولنرجع الى ذكر الرشيد .

نجاة صدق ومجال حقّ

قال الحافظ الذّهَبي : رأيت في شفاء الصدور وتاريخ ابن البخاري ما رواه أبو اليمن الكندي بسنده الى عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد ، فجرت مسألة الضُّراط ، فتنازع فيها الخصوم وعلَت أصواتهم ،

فاحتج بعضهم بحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رواه عن النبي ﷺ، فردّ بعضهم الحديث وقال : أبو هريرة متّهم فيما يرويه . ونحا نحوهم الرشيد ونصَرَ قولَهم ، فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ فيما يرويه ؛ فنظر إليّ الرشيد نظر مُغضب ، فقمت من المجلس الى منزلي ، فلم يستقرّ بي الجلوس ولم ألبث حتى قيل لي صاحب الشرطة بالباب ، /71 ب/ فدخل اليّ وقال : أجِب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنّط وتكفّن ! فقلت : اللهم إنك تعلم أنّي قد دفعت عن صاحب نبيّك ﷺ ، وأجللت نبيك أن يُطعن على أصحابه ، فسلّمْني منه ! ثم خرجت فأُدخلت على الرشيد ، فإذا هو جالس على ذراعيه بيده السيف وبين يديه النّطع ، فلمّا رآني قال : يا عمر بن حبيب ، ما تلقّاني أحد بالردّ ودفع قولي بمثل ما تلقيتني به ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ الذي جادلت عليه فيه إزْري على رسول الله ﷺ ما جاء به . فقال : وكيف ويحك ؟ قلت : لانه إذا كان أصحابه كذّابين ، فالشريعة باطلة والاحكام من الصلاة والصيام والحج والنكاح والطلاق والحدود كلها مردودة غير مقبولة ، لانهم رُوّاتها ولم تعرف إلاّ بواسطتهم . فرجع الى نفسه ثم قال : أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله ! ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم . انتهى .

حكي أن الرشيد كان بالكوفة ، ثم ضُرِب بالرحيل فخرج الناس أمام الرشيد من وجوه قوّاده ووزرائه وبنو هاشم وخرج الرشيد وهو راكب في مَحْمل والفضل بن الربيع يقود به ، قال في كتاب روض الرياحين : لـمّا أن خرج الرشيد كان البهلول المجنون ، رحمه الله تعالى ، فيمن خرج وجلس بالكُناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به إذْ أقبلتْ هوادج هارون فكفّ الصبيان عن الولوع به . فلمّا /72/ جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين ، يا أمير المؤمنين ! فكشف هارون السُّجاف بيده وقال : لبيك يا بهلول ! فقال : يا أمير المؤمنين ، حدّثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري رضي الله تعالى عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ بمِنًى على جمل وتحته رَحْل رَثٌّ ، فلم

يكن ضَرْبٌ ولا طَرْدٌ ولا إليك إليك ؛ وتواضُعُك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خيرٌ لك من تكبُّرك وتجبّرك ! فبكى هارون حتى سقطت الدموع على الارض ثمّ قال : يا بهلول زدنا رحمك الله ! فقال : هب أنك ملكتَ الارض طُرّا ، ودان لك العباد ، فكان ماذا ، أليس غدًا مصيرك قبرٌ ويحثو التراب هذا ثم هذا ؟ فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول ، هل غيره ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، رجل أتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق من ماله وعفّ في جماله ، كُتِب في خالص ديوان الله تعالى من الأبرار فقال : أحسنت يا بهلول مع الجائزة ؛ قال : اردد الجائزة على من أخذتها منه ، فلا حاجة لي فيها . قال : يا بهلول : إن يكن عليك دين فضيناه . فقال : يا أمير المؤمنين لا تقض ديْنا بديْن ، اردد الحقّ الى أهله واقض ديْن نفسك من نفسك ، قال : يا بهلول نُجْري عليك ما يكفيك . فرفع بهلول رأسه الى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فمحال أن يَذْكرك وينساني ! فأسبل هارون السُّجاف ومضى . انتهى .

وسئل البهلول عن مسألة في الفرائض ، وهي : رجل مات وخلّف ابنًا وبنتًا وزوجة ، ولم يخلف من المال شيئا . /72ب/ فقال : للابن اليُتم ، وللبنت الثُّكْل ، وللزوجة خرابُ البيت ، وما بقي من الهمّ فللعَصَبة . وحمل عليه الصبيان يومًا فألجؤوه الى دار مفتوحة ، فولجها فوجد فيها قومًا وبين أيديهم مائدة من الطعام ما تشتهيه الانفس وتلذّ الاعين ، فرجع وأغلق الباب ودخل وهو يقرأ : «فضَرَب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب» .

وتبعه الصبيان يومًا آخر فألجؤوه الى دار بعض الهاشميين ، فرأى رجلاً ضخمًا بظفيرتين ، فقال : «يا ذا القرنْين ، إنّ ياجوج وماجوج مُفسدون في الارض ، فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًا» (الكهف 94) ، فخرج الرجل وأغلق الباب وحماه من الصبيان . ودخل عليه الصبيان

يومًا فألجؤوه الى مضيق فشدّ عليهم بقَصَبة وهو يقول :

إذا تضايق أمرٌ فانتظرْ فرَجًا فأضيقُ الأمر أدناه الى الفرَجِ

وقال له الرشيد يومًا : من أحبّ الناس اليك ؟ قال : من أشبعَ بطني ! قال : أشْبِعك ، فهل تُحبّني ؟ فقال : الحبّ لا يكون بالنّسيئة . وأحضره الرشيد يومًا فأجلسه في صحن الدار وجلستْ أمّ جعفر حيث لا يراها وعيسى بن جعفر جالس مع الرشيد ، فقال له الرشيد : عُدّ لنا المجانين ! فقال له : أوّلهم أنا وثانيهم هذه ، وأشار الى أمّ جعفر ؛ فقال له عيسى : أيا ابن الخَنَا ، تقول هذا لأختي ! فقال بهلول : وأنت الثالث ، يا صاحب العربدة ! فقال الرشيد : أخْرجوه ! فقال /73/ بهلول : وأنت الرابع !

وقيل له : أيّما أفضل أبو بكر أو عليّ رضي الله عنهما ؟ فقال : أما وأنا في كندة فعليّ أفضل ، وإذا كنت في بني ضبّة فأبو بكر أفضل . وكندة في الكوفة من غلاة الرافضة ، وبنو ضبّة أهل نَصَب ، أصحابُ الجَمَل . انتهى .

لطيفة

حكى ثمامة بن أشرس قال : بعثني الرشيد الى دار المجانين لأصلِح ما فسد من حالهم . فرأيت فيهم شابًا ، حسَن الزيّ ، كأنه صحيح العقل ، فقال لي : يا ثمامة إنّك تقول إنّ العبد لا ينفكّ من نعمة يجب الشكر عليها وبليّة يجب الصبر لديها ، أرأيتَ لو سكِرْتَ ونمت وقام اليك غلامك وأولج فيك مثل ذراع البَكْر ، فقل لي هذه نعمة يجب الشكر عليها أو بليّة يجب الصبر لديها ؟! قال ثمامة : فلم أدر بماذا أجيبه ؛ فقال : مسألة ؟ فقلت : وما هي ؟ فقال : متى يجد النائم لذّة النّوم ، إن قلتَ في حال نومه فمحالٌ وإن قلت إن استيقظ فبعيدٌ أن يجد لذّة شيء انقضى ومضى . فبُهتُّ ولم أجد جوابًا . فقال : مسألة أخرى ؟ قلت : وما هي قال : تزعم أنّ لكلّ أمة نذيرًا ، فمن نذير الكلاب ؟ قلت : لا أدري الجواب . قال : أمّا الجواب عن السؤال الاوّل فنقول إنّ

الاقسام ثلاثة نعمة يجب الشكر عليها ، وبلية يجب الصبر لديها ، وبلية يجب الصبر عنها ، وهذه من القسم الثالث وهي البلية التي يجب الصبر عنها ؛ أمّا المسألة الثانية فالجواب عنها محال لأنّ النوم داء ولا لذة مع وجود الداء ، وأمّا المسألة الثالثة وأخرج من كمّه حَجَرًا وقال : إذا عدا /73ب/ عليك كلبٌ فهذا نذيره . ورماني بالحجر ، فأخطأني وأصاب الاسطوانة فلمّا رآه قد أخطأني قال : فاتك النذير ، أيها الكلب الحقير ! فعلمت أنه مجنون وأنّ عقله مصاب ، فتركته وانصرفت وقنعت من الغنيمة بالإياب ، انتهى .

وحكى في كتاب بستان الآداب أنّ هارون الرشيد مرّ بدَيْر في ظاهر الرقّة فلمّا أقبلت مواكبُه أشرف أهل الدَّيْر ينظرون اليه وفيهم مجنونٌ مسلسل ، فلمّا رأى هارونَ رمى بنفسه بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين قد قلت فيك أربعة أبيات فأنشِدُك إياها ؟ قال : نعم ، فأنشد :

لَحَظاتُ طرْفِك في العِدَا ... تُغْنيك عن سلّ السُّيوفِ
وعزيمُ رأيك في النهى ... يكفيك عاقبةَ الصُّروفِ
وسُيول كفّك بالنّدى ... بحرٌ يفيض على الضّعيفِ
وضياء وجهك في الدُّجى ... أبهَى من البدر المُنيفِ

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هات أربعة آلاف درهم أشتري بها كسيبًا وتمرًا ! فقال الرشيد : يُدفع له . فحُملت الى أهله . اه .

قال في روض الرياحين : لـمّا خرج الرشيد الى مكة حاجًا ، فُرش له من جوف العراق الى الحرم لبودٌ مَدْغريّة ، وكان حلَف أن لا يحج إلاّ راجلا ، فأستند يومًا الى مِيلٍ وقد تعِب وإذا بسعدون المجنون قد عارضه وهو يقول (شعر) :

هب الدنيا تواتيكا ... أليس الموتُ يأتيكا

فما تصنع بالدّنيـا وظلّ الميل يكفيكا
ألاَ يا طالب الدنيا دعِ الدنيا لشانِيكا /74/

كما أضحككَ الدهرُ كذاك الدهرُ يُبكيكا

قال : فشهق هارون شهقة خرّ مغشيًا عليه ؛ فاتتْه ثلاثُ صلوات ، فلمّا أفاق طلبه فلم يقع له على أثَر ، وبقي متلهّفًا عليه . انتهى .

اجتناب رِيَب واجتلاب رتَب

قال في روض الرياحين ، من الحكاية الثانية عشرة أنه كان لهارون الرشيد ولدٌ ، قد بلغ من العمر ستة عشر سنة ، وكان قد رافق الزهاد والعباد وكان يخرج الى المقابر ويقول : قد كنتم قبلنا وقد كنتم تملكون الدنيا فما أراها تنجيكم ، وقد صرتم الى قبوركم فيا ليت شعري ما قلتم وما قيل لكم ! ويبكي بكاء شديدًا وكان ينشد :

تروِّعني الجنائزُ كلَّ يوم ويُحْزنني بُكاء النّائحاتِ

فلما كان في بعض الأيام مرّ على أبيه وحوله وزراؤه وكبراء دولته وأهل مملكته ، وعليه جبّة صوف ، وعلى رأسه مئزر صوف ؛ فقال بعضهم لبعض : لقد فضح هذا الولد أمير المؤمنين بين الملوك ، فلو عاتبه لعلّه يرجع عمّا هو فيه . قال فكلّمه في ذلك وقال له : يا بنيّ ، لقد فضحتني بما أنت عليه ! فنظر اليه ولم يجبه ثم نظر الى طائر على شرافة من شراريف القصر فقال : أيها الطائر بحق الذي خلقك الاّ جئت على يدي ! فانقضّ الطائر على كفّ الغلام ثم قال له : ارجع الى موضعك ! فرجع ثم قال : بحقّ الذي خلقك الاّ ما سقطت في كف أمير المؤمنين ! فما نزل فقال له الغلام : أنت الذي فضحتني بحبّك /74ب/ الدنيا . وقد عزمتُ على مفارقتك . ففارقه ولم يتزوّد منه بشيء الاّ مصحف وانحدر الى البصرة وكان يعمل مع الفَعَلة في الطين ، وكان لا يعمل الا يوم

السبت بدرهم ودانق . يتقوّتُ كلّ يوم دانقًا ، قال أبو عامر البصري : وكان قد وقع من جداري حائط فخرجت لطلب من يعمل لي في الحائط إذ رأيت غلاما لم أر أحسن منه وجهًا وبين يديه زنبيل وهو يقرأ في مصحف فقلت له : يا غلام أتعمل ؟ قال : ولم لا أعمل وللعمل خلِقتُ ، ولكن أُخبرني في أي الأعمال تستعملني ؟ قلت في الطين . قال : بدرهم ودانق وأصلّي صلاتي . فقلت : لك ذلك . ثمّ مضيت به الى العمل وتركته يعمل فلمّا كان المغرب جئته فوجدته قد عمل عمل عشرة رجال ، فوزنت له درهمين فقال : يا أبا عامر ، ما أصنع بهذا ؟ وأبى أن يقبل ، فوزنت درهما ودانقًا . فلما كان الغد خرجت في طلبه فلم أجده ، فسألت عنه فقيل لي إنه لا يعمل الاّ يوم السبت ولا تراه الا يوم السبت الثاني ، فأخّرت العمل الى السبت الثاني ، ثم أتيت الى السوق ، فإذا هو على تلك الحالة ، فسلّمت عليه ثم عرضت العمل فقال : كمقالته الاولى. فمضيت به الى العمل ووقفت أنظر اليه من بعيد ، وهو لا يراني ، فأخذ كفًا من الطين وتركه على الحجارة وإذا الحجارة يتركّب بعضها على بعض ، فقلتُ : هكذا أولياء الله معاونون . فلمّا أراد أن ينصرف ، وزنت له ثلاثة دراهم ، فأبى أن يقبل الاّ درهمًا ودانقًا ، فوزنت له ذلك . فلمّا كان السبت الثالث جئت السوق فلم أره ، فسألت عنه فقيل لي : له ثلاثة أيام وَجعٌ في خراب ، بلا /75/ باب ! فذهبت اليه ، وإذا هو مغشيٌّ عليه فسلّمت عليه ، وإذا تحت رأسه نصف لبِنَة ، وهو في حال الموت ، فسلمت عليه ثانيًا فعَرَفني ، فأخذت رأسه وجعلته في حِجري ، فمنعني من ذلك وأنشد يقول :

يا صاحبي لا تَغْترِرْ بتنعُّم ... فالعمْرُ ينفُدُ والنعيم يزولُ
وإذا علمتَ بحال قوم مرّة ... فاعلم بأنك عنهم مسؤولُ
وإذا حملت الى القبور جنازة ... فاعلمْ بأنك بعدها محمُولُ

ثم قال : يا أبا عامر ، إذا فارقتْ روحي جسدي فغسّلني وكفنّي في جبّتي

هذه ! فقلت : ياحبيبي ، ولِم لم أكفنك في ثياب جديدة ؟ فقال : الحيّ أحوج الى الجديد من الميت ، الثياب تَبْلى والعمل يبقى ، وخذ ميزري وزنبيلي فأدفعهما للحفّار ، وخذ هذا المصحف والخاتم وآمض بهما الى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، ولا تدفعهما اليه إلاّ من يدك الى يده ، وقل له يا أمير المؤمنين معي وديعة من غلام غريب وهو يقول لا تموتنّ على غفلتك !

وعملت جميع ما أوصاني به ، وأخذتُ المصحف والخاتم ودخلت بغداد ، وقصدت قصر هارون الرشيد ، ووقفت على موضع مُشرف ، فخرج في موكب فيه تقديرُ ألف فارس ثم تبعه عشرة مواكب ، كلّ موكب ألف فارس . وخرج أمير المؤمنين في الموكب العاشر فناديت : بقرابتك من رسول الله ﷺ يا أمير المؤمنين الاّ وقفت لي قليلا . فلمّا رآني ، قلت : يا أمير المؤمنين ، معي وديعة من غلام غريب ! ثم دفعت اليه المصحف والخاتم وقلت له : ما أوصاني به . فنكس /75ب/ رأسه وأسبل دمعته وأوصى عليّ بعض الحجاب وقال : ليكن هذا عندك الى أن أسألك عنه . فلمّا رجع هو وأصحابه أمر بالسُّتور فرُفعت ثم قال لي الحاجب : يا أبا عامر ، إن أمير المؤمنين مهموم ، فإذا أردتَ تُكلّمَه عشر كلمات فأجعلها خمسًا . فقلت : نعم ! ودخلت عليه فإذا مجلسه خال ، فلمّا رآني قال : ادنُ منى يا أبا عامر ! فدنوت منه فقال : أتعرف ولدي؟ فقلت : نعم ! قال : في أي شيء كان يعمل ؟ قلت : في الطين والحجارة. فقال لي : استعملتَه أنت ؟ قلت : نعم ! فقال : استعملته وله اتصال برسول الله ﷺ . فقلت : المعذرة الى الله ثم اليك يا أمير المؤمنين ، فإني ما علمت من هو الا عند وفاته . قال : أنت غسّلته بيدك ؟ قلت : نعم ! قال : هات يدك ؛ فأخذها وتركها على صدره ، وهو يقول : بأبي كيف كنتَ النزيز الغريب ، ثم أنشأ يقول :

يا غريبًا عليه قلبي يذوب ولعيْني عليه دمعٌ سَكوبُ

يا بعيدَ المكان حُزْني قريبٌ كدَّر الموتُ كلَّ عُشّ يطيبُ
كلّ بدْر أعْلَى قضيب لُجَيْن فهو البدر في الثرى والقضيبُ

قال : ثم تجهّز وخرج الى البصرة ، وإنّي معه حتى انتهى الى القبر ، فلمّا رآه غُشِيَ عليه ، فلمّا أفاق أنشد يقول :

يا غائبًا لا يؤوب من سفرِهْ عاجله موته على صغرهْ
يا قرّة العين كنتَ لي أُنسًا في طول ليلي نعَمْ في قِصَرهْ /76/
شربتَ كأسا أبوك شاربُـها لا بدّ من شُربها على كبرِهْ
اشرب بها والآنام كلهم من كان من بدوه ومن حضرِهْ
والحمد لله لا شريك له قد كان هذا القضاء من قدرِهْ

قال أبو عامر : فلما كان تلك الليلة قضيت وِرْدي ثم اضطجعت وإذا بقبّة من نور عليها سِجاف من نور ، وإذا قد كُشِف السجاف فإذا الغلام ينادي يا أبا عامر ، جزاك الله خيرًا ، فقلت : يا ولدي ، الى ما ذا صرت ؟ قال : الى ربّ راض غيرِ غضبان ، أعطاني ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وآلى على نفسه أنه لا يخرج عبدٌ من الدنيا مثل خروجي الاّ أكرمه مثل كرامتي ، فاستيقظتُ فرحًا به وبما قال لي ، رحمه الله تعالى .

قال بعضهم : وقد حُكيت هذه الحكاية على غير هذه الصفة من طريق آخر وهو أنّ الرشيد قال لأبي عامر : إنّ هذا الولدَ ولدي قبل أن أُبتلى بالخلافة ، فنشأ نشوءًا حسَنًا وتعلم القرآن والعلم ، فلمّا وُلّيت الخلافة تركني ولم ينل من دنياي شيئًا ، فدفعتُ الى أمّه هذا الخاتم ، وهو ياقوت ، يسْوَى مالا كثيرًا وقلت لها تدفعين هذا اليه ، وكان بارًّا بأمه رحمه الله تعالى .

قال الامام حجة الاسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين عن أبي عمرو الخولاني أنه قال : لـمّا ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء وهنّؤوه بما صار اليه ، وفتح بيوت الاموال وأجازهم الجوائز السنية .

وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ويُظهِر الزهد والتعفف /76ب/ وكان مواخيًا لسفيان بن سعيد الثوري قديمًا ، فلمّا صار اليه الامر هجَره سفيانُ ولم يزره . فاشتاق اليه هارون والى مؤانسته وحديثه ، فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار اليه . فاشتدّ ذلك على هارون فكتب اليه كتابًا يقول فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هارون الرشيد ، أمير المؤمنين ، الى أخيه سفيان بن سعيد الثوري . أمّا بعد ، يا أخي فقد علمت أنّ الله تعالى واخى بين المسلمين ، وجعل ذلك فيه وله ، وإني واخيتك مواخاة لم أَصْرِم فيها حبلك ولم أقطع منها ودّك ، وإني مُنطو لك على أفضل المودّة والإرادة ولو لا هذه القلادة التي قلّدني الله تعالى بها لأتيتك حَبْوًا لما أجد في قلبي من المحبة والشوق ؛ وآعلم يا أبا عبد الله أنه لم يبق من إخوانك الاّ من قد زارني وهنّأني بما صرتُ اليه ، وقد فتحتُ بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنيّة ما فرِحتْ به نفسي وقرّت به عيني ، وأني قد استبطأتك فلم تأتني ، وقد كتبت اليك كتابًا شوقًا منّي اليك شديدًا ؛ وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في زيارة المؤمن ؛ فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعَجَل العجل !» . ثم ختم الكتاب والتفت الى من عنده فإذا هم يعرفون سفيان وخشونته فقال : عليّ برجل من الباب . فأُدخل عليه رجلٌ يقال له عبّاد الطالقاني فقال : يا عبّاد ، خذ كتابي وانطلق به الى الكوفة ، فإذا صرت فيها فآسأل عن قبيلة بني ثوْر ، فإذا أُرشِدْت فآسأل عن سفيان الثوري ، فإذا لقيته فألْق اليه كتابي /77/ وألق سمعك وقلبك جميعَ ما يقول وربما أنه لا يجيب ، فآحذر عليه دقيق أمرك وجليله ، لتحدّثني به .

فأخذ عبّاد الكتاب وانطلق حتى ورد الكوفة وسأل عن القبيلة ، فأُرشد اليها ، ثم سأل عن سفيان الثوري فقيل : هو في المسجد . قال عباد : فأقبلت الى المسجد فلما رآني قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللّهم من طارق يطرقنا الاّ بخير ! فلمّا دنوت قام وأحْرَم للصلاة ، ولم يكن وقتُ صلاة ، فربطتُ فرسي بباب المسجد ودخلت ، فإذا جلساؤه حوله وقد نكّسوا

رؤوسهم ، كأنهم لصوصٌ وَرَدَ عليهم أمرُ سلطان وهم خائفون من العقوبة . فسلمت فما رفع أحدٌ رأسه الا إشارة برؤوس الأصابع إشارة خفيفة . فبقيت واقفًا ما أحدٌ عرض عليّ الجلوسَ وقد غلبتْني الرِّعدة من هيبتهم ، وقد علمت أن المصلّي هو سفيان فرميتُ الكتاب أمامه ، فلمّا رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه ، كأنه حيّة عرضتْ له في محرابه ، فركع وسجد وسلّم ثم أدخل يده في كمّه ولفّها بعباءته ولفظ الكتاب ورماه الى من كان خلفه وقال : يأخذه بعضكم ويقرؤه ، فإني استغفر الله أن أمسّ شيئًا مسّه كفٌّ ظالم ! قال عبّاد : فمدّ بعضهم يده الى الكتاب وحلّه وهو يرتعد كأنه خائف من حيّة تنهشه ، ثم فضّه وقرأه ، فأقبل سفيان يتبسّم تبسّم المعجب فلمّا فرغ من قراءته قال : اقلِبوا الكتاب واكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه ، فإن كان اكتسبه من حرام فسوف يُصْلى به ، وإن كان من غيره فلا يبقى له عندنا شيء مسّه /77ب/ كفّ ظالم ، فيفسد علينا ديننا . فقيل له : ما نكتب ؟ فقال : اكتبوا : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد الميّت سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الى المغرور بالآمال ، هارون الرشيد ، الذي سُلب حلاوة الايمان . أمّا بعد ، فقد كتبت اليك أعرّفك أنّي قد صرَمْتُ حبلك ، وقطعت ودّك ، وقليْت موضعك ، وأنّك قد جعلتني شاهدًا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بأنك هجمت على بيت مال المسلمين وأنفقته في غير حقّه ، وأنفدته في غير حكمة ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عنّي حتى كتبت اليّ تُشهدني علي نفسك ، أمّا أنا فقد شهدت أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدّي الشهادة عليك بين يدي الله عز وجلّ . يا هارون ، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، فهل رضي بفعلك المؤلّفة قلوبهم ، والعاملون عليها المجاهدون في سبيل الله ، أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ فشُدّ يا هارون ميزرك وأعدّ للمسألة جوابًا وللبلاء جلبابًا ، واعلم بأنك ستقف بين يدي الحَكَم العدل ، فإن أحسن الله لك فقد فزت والاّ العزاء بنفسك إذْ قد سُلبت حلاوة العلم والزهد ،

ولذيذ القرآن ، ومجالسة الاخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالـمًا وللظالمين إمامًا ؛ يا هارون جلست على السرير ولبست الحرير وأسبلت سترًا دون بابك وتشبّهت بالحجبة لربّ العلمين ثم أقعدت أجناسَ الظلمة دون ستر ، يظلمون الناس ولا ينصفون /78/ ويشربون الخمر ويحدُّون شاربها ، ويزنُون ويحدّون الزاني ، ويسرِقون ويقطعون السارق ، أفلا كانت هذه الاحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ! فكيف بك يا هارون إذا نادى المنادي من قبل الله سبحانه وتعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ، أي الظلمة وأعوان الظلمة ؛ فقدّمت بين يدي الله عزّ وجلّ ويداك مغلولتان الى عنقك ، فلا يفكّهما الاّ عدلك وإنصافك والظالمون حولك وأنت لهم إمامًا وسائقٌ الى النار ! كأني بك يا هارون وقد أُخذت بضيق الخناق وأنت ترى حسَناتك في ميزان غيرك ، وسيّئات غيرك على سيئاتك بلاء على بلاء ، وظلمة على ظلمة ؛ فآحفظ بموعظتي ووصيّتي التي أعظك ؛ واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصح شيئا ، فآتق يا هارون في رعيتك وآحفظ محمدًا ﷺ في أمته ؛ يا هارون أحسِنْ الخلافة عليهم ، وآعلم أنّ هذا الأمر لو بقيَ لغيرك لم يصل اليك وهو صائر الى غيرك ، وهكذا تنتقل الدنيا بأهلها واحدًا بعد واحد ، فمنهم من تزوّد زادًا لنفسه ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، فإيّاك وإيّاك أن تكتب اليّ بعد هذا فلا أجيبك عليه ، والسلام» . وألقى الكتاب منشورًا غير مطويّ الى عباد ، فسار به الى الرشيد ووقعت الموعظة في عبّاد . اه .

قال الطرطوشي في سراج الملوك وابن بلبان والقدسي في شرح أسماء الله الحسنى وغيرهم ما نصّه عن /78ب/ الفضل بن الربيع قال : حج الرشيد ، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعتُ قرع الباب ، فقلت من هذا ؟ قيل : أجب أمير المؤمنين ! فخرجت مسرعًا فوجدت الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت اليّ أتيتك ! قال : ويحك قد حاكَ في نفسي أمرٌ ، انظرْ لي رجلا نسأله ، قلت : يا أمير المؤمنين ، ههنا سفيان بن عيينة قال : فامض بنا اليه . فأتيناه فقرَعْنا

عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ! فخرج مسرعًا وقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ اليّ أتيتك ! قال : فخذْ لما جئناه ، فحادثه ساعة ثمّ قال : أعليك دَيْن ؟ قال : نعم ! قال : يا فضل ، اقض دينه .

ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عنّي صاحبك هذا شيئًا ، فانظر لي رجلاً نسأله فقلت : ههنا عبد الرزّاق بن همام واعظ العراق . فقال : امض بنا اليه نسأله . فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعًا وقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ اليّ أتيتك ! قال : خذ لما جئنا له . فحادثه ساعة ثم قال : أعليك دَيْن ؟ قال : نعم ! قال : يا عباس ، اِقْضِ دينه .

ثم قال : ما أغنى عنّي صاحبك هذا شيئًا ، انظر لي رجلا نسأله . قلت : ههنا الفضيل بن عياض فقال : امض بنا اليه . فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من كتاب الله تعالى يردّدها ، فقرعت الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : أمير المؤمنين . فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعة ، أوَ ليس قد روي عن النبيء ﷺ أنه قال ليس لمؤمن أن يُذِلّ نفسه . ففتح الباب ثم رقِيَ الى الغرفة مسرعًا /79/ فأطفأ السراج ، والتجأ الى زاوية من زوايا البيت ، فجعلنا نجوز عليه بأيدينا ، فسَبَقت كفّ الرشيد اليه فقال : آوه ، ما ألينها من يد إنْ نجتْ غدًا من عذاب الله تعالى ! فقلت في نفسي ليكلمنّه الليلة بكلام تقيّ من قلبٍ تقيّ ! فقال : خذ لما جئنا له . قال : وفيم جئت ؟ حطّيْتَ على نفسك وعلى جميع من عندك ، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شِقْصًا من ذنْب ما فعلوا ، ولكن أشدّهم حبّا لك أشدّهم هربًا منك ! ثم قال : إنّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله بن عمر ومحمد بن كعب القرضي ورجاء بن حَيْوة فقال لهم : إني ابتليت بهذا البلاء فاشيروا عليّ ؛ فأعدّ الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ! فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى فصُمْ عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت . وقال محمد بن

كعب : إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين لك أبًا وأوسطهم أخًا ، وأصغرهم ولدًا . فبِرَّ أباك وارحم أخاك ، واحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله ، فأحبّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم إذا شئت متّ وإني لا أقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشدّ الخوف يوم تزول الأقدام ، فهل معك ـ رحمك الله ـ مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديدًا حتى غشي عليه فقلت : ارفقْ بأمير المؤمنين ! فقال : يا ابن الربيع ، قتلتَه أنت وأصحابك /79ب/ وأرْفُقُ أنا به ! ثم أفاق فقال : زدني ! فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغني أنّ عاملان لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ شكى اليه السّهَر فكتب اليه عمر : «افتكر يا أخي سهر أهل النار في النار ، وخلود الابدان فيها ، فإن ذلك يطرُدك الى ربّك نائمًا ويقظانًا ، وإياك إن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك وينقطع الرجاء منك والسلام» . فلمّا قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك لا ولِّيتُ لك ولاية أبدًا حتى ألقى الله عزّ وجلّ ! فبكى هارون بكاء شديدًا ثم قال : زدني فقال : يا أمير المؤمنين إن جدّك العباس رضي الله تعالى عنه عم المصطفى ﷺ جاء فقال : يا رسول الله ، أمِّرْني على إمارة ! فقال النبي ﷺ : يا عباس ، يا عمّ النبيء ، نفسٌ تنجيها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت الاّ تكون أميرًا فافعل ! فبكى هارون بكاء شديدًا ، ثم قال : زدني رحمك الله ! قال : يا حسَنَ الوجه ، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشّ لرعيتك ؛ فقد قال النبي ﷺ من أصبح لهم غاشا لم يَرِحْ رائحةَ الجنة يوم القيامة ! فبكى هارون بكاء شديدًا ثم قال : أعليك ديْن ؟ قال : نعم ، دين لربّي ، فالويل لي إن سألني والويل لي إن لم يلهمني حُجّتي . فقال هارون : إنما أعني دين العباد . فقال :

إنما ربّي لم يأمرني /80/ بهذا ، أمرني أن أصدِّق وعده وأطيع أمره ، فقال تعالى: «وما خلقت الجنّ والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين» فقال له الرشيد : هذه ألف دينار ، خذها فانفقها على عيالك وتقوّى بها على عبادة ربّك ! فقال فضيل : سبحان الله ، أنا أدلّك على النجاة وتكافيني بمثل هذا سلّمك الله ! ثم صمَتَ فلم يكلّمنا ، فخرجنا من عنده فقال لي الرشيد : إذا دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا . هذا سيّد المسلمين اليوم ! انتهى .

وروي أن امرأة من نسائه دخلت عليه فقالت : يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلتَ المال لأفرحتنا به ! فقال : إنّ مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعيرٌ يأكلون من كسْبه ، فلمّا كبُر نحروه وأكلوا لحمه . موتوا أهلي جوعًا ولا تنحروا فُضيلا ! فلما سمع الرشيد ذلك قال : ادخلْ بنا فعسى أن يقبل المال . فدخلنا فلمّا عَلِمَ بنا الفضيل خرج الى السطح فجلس على التراب ، فجاء هارون فجلس الى جنبه ، فكلمه فلم يردّ عليه . فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت : يا هذا ، قد آذيت الشيخ منذ الليلة . فانصرف رحمك الله راشدًا ! فانصرفنا .

وقال القاضي ابن خلكان ، في ترجمة الفضيل رضي الله تعالى عنه ، فبلغ ذلك سفيان الثوري فجاء اليه وقال له : يا أبا علي أخطأت في ردّك البَدْرة (البدرة ، كيس من المال) ، هلاّ أخذتها وصرفْتها في وجوه البرّ ؛ فأخذ بلحيته وقال : يا أبا محمد ، أنت فقيه البلد ، وأنت المنظور اليه وتغلط في هذا الغلط ، لو طابت لأولئك لطابت لي . انتهى /80ب/ ويقال : إن المذكور سفيان بن عيينة لا سفيان الثوري ، والله أعلم .

ويقال إنّ الرشيد قال لفضيل : رحمك الله ما أزهدك في الآخرة ، والدنيا فانية والآخرة باقية ! انتهى .

قال في كتاب لبّ اللبيب : كان الفضيل بن عياض رأس اللصوص ، وكانت

بدء توبته ، أنه كان في موضع كامنًا وهو لابس الصوف ، ومعه مصحف يقرأ فيه ، فوجّه أصحابه الى الطريق ، وقعد مكانه . فمرّ به رجل فرآه على تلك الحالة فقال له : إني أسمع أنّ في هذا الطريق لصوصًا ، وقد توسّمت فيك سِمة الخير والوفاء ، فهل عندك أمانة للوديعة ؟ قال : نعم ، إن شاء الله . فأودع عنده كيسًا فيه عشرة آلاف درهم ، التي كانت معه خوفًا من اللصوص . فلم يمكث عنده الا قليلا حتى اجتمع عند الفضيل أصحابه ، فعلِم صاحب الدراهم أنه رئيسهم ، فندم على ما صنع وتفكّر في نفسه وقال : لو سُلِبتْ مني قهرًا كان أهون على قلبي مما عمِلتْ يدي ! فدنا من الفضيل وهو فزعٌ مرعوب ، فعلم الفضيل ذلك منه فقال له الفضيل : يا هذا لا تغتمّ ، وداعتك عندي كما هي ، والامانة مؤدّاة اليك ؛ ظننتَ بي ظنّا وظننتُ بالله ظنّا فأوفيت ظنّك ، وأرجو الله تعالى أن يوفيني ظنّي . فرجع الفضيل وتاب عمّا كان فيه .

ثم جعل يجول بين السّكك متفكّرًا ، فمرّ برجل يقرأ القرآن ويتلو قوله تعالى : «ألم يأْنِ للذين آمنوا أن تخشَعَ قلوبهم لذكر الله» /81/ فعملت الآية في قلبه ، فقرع الباب على القارىء ، وكان ذلك الوقت ليلا ، فظنّ القارىء أنه سارق . فقال : من أنت ؟ فقال له : أعد عليّ الآية ! فأعادها ، فبكى بكاء شديدًا حتى صلى الصبح ، ثم قال له الفضيل : لي اليك حاجة . قال : وما هي ؟ قال : أريد أن تشدّ يديّ الى عنقي وتذهب بى الى السلطان وتقول هذا لصّ أصبناه البارحة ، ليُجْرِيَ فيَّ حكم الله تعالى ، لاني مستوْجب للحَدّ . ففعل به ذلك . فلمّا رآه السلطان وعلم أمرَه هاله ذلك ، وأطلقه فذهب الى امرأته وقال لها : إن كنت تريدين أن أسرّحك سرّحتك ، وإن كنت توافِيني على الخروج الى مكة فشأنك ، فمشيَا جميعًا الى مكة ومعهما ابنتان ، فبقيا في مكة سنين . وكان يجلس كلّ يوم واعظًا للعامة . فلمّا اقترب أجله أوصى امرأته وابنتيه وقال : إذا أنا متّ فانهضي بي [الى] الجبل مع ابنتيك وقولي : يا ربّ إن عبدك فضيلا أوْدَى وقال يا ربّ إنّي ما أحييتني كنتُ راعيك فيما تكلفت ، فالآن إذ

توّفيتّني في سجنك فهذه الوديعة قد رددتُها اليك ! .

فلمّا مات فعَلَتْ . فبينما هي على رأس الجبل إذ مرّ بها أمير من أمراء اليمن ، فرأى الجنازة وضجيجَ الناس وعجيجهم والمرأة وابنتيها ، فقال : من هذا ؟ فقصّوا عليه القصة . وكان لهذا الأمير ابنان له لم يتزوّجا ، فقال لهما : تزوّجاهما ! وجعل صَداق كلّ واحدة منهما عشرة آلاف درهم ؛ وحمَلهما في هَوادج من ديباج ، وخرج بهما الى اليمن ، وجعل لهما الأمير وليمة عظيمة ، وجعل يغسل قدميْ /81ب/ كلّ واحدة بماء الورد . وكان اسم أحداهما عزيزة ، فقالت : والذي سمّاني عزيزة ما أظنّه الاّ كان عالمًا أني أصير الى هذه العزّة . والله أعلم . انتهى .

وتوفي الفضيل ، رحمه الله ، في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة . وكان قد غادر بمكة وأقام بها ، كذا قاله النووي . وقال المؤيد : سنة سبع وثمانين ومائة ، فيها توفي الفضيل بن عياض الزاهد ، وكان مولده بسمرقند وانتقل الى مكة ومات بها . انتهى .

حكى أنّ الفضيل كانت له بُنية صغيرة ، فوُجع كفُّها ، فسألها أبوها وقال : يا بنيتي ما حال كفّك ؟ فقالت : يا أبتِ بخير ، والله لئن كان الله ابتلى مني قليلا فلقد عافى منّي كثيرًا ، ابتلى كفي وعافى سائر بدني ، فله الحمد على ذلك . فقال : يا بنيّتي ، أرني كفّك ؟ فأرته ، فقبّله فقالت : يا أبت أنشدك الله ، هل تحبّني ؟ قال : اللّهم نعم ! فقالت : سوءة من أب ، والله ما ظننت أنّك تحبّ مع الله سواه ! فصاح الفضيل رضي الله عنه وقال : سيّدي صبية صغيرة تعاتبني في حبّي لغيرك ، وعزّتك وجلالك لا أُحببت معك سواك !

وشكى رجل الى الفضيل حاله فقال : يا أخي هل من مدبّر غير الله عزّ وجلّ ؟ قال : لا ! قال : فَأرْضَ به مدبّرًا .

وقال : إنّي لا أعصي الله تعالى ، فأعرفُ ذلك في خُلُق حماري وخادمي !

وقال : إذا أحبّ الله تعالى عبدًا كثُر غمّه ، وإذا أبغضه وسّع عليه دنياه .

قال النّوَوي في أذكاره ، قال السيد الجليل الفضيل بن عياض رضي الله عنه : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس /82/ شيرك ، والاخلاص أن يعافيك الله منهما !

وسئل الفضيل رضي الله عنه عن المحبة قال : أن تؤثر الله عزّ وجلّ على ما سواه .

وقال رضي الله تعالى عنه : لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها الا للإمام ؛ لأن الله تعالى إذا أصلحَ الامامَ أمِنَ العباد .

وقال رضي الله تعالى عنه : لأنْ يُلاطف الرجل أهل مجلسه ويُحَسّن خُلقه معهم خيرٌ له من قيام ليله وصيام نهاره ! .

وقال : رضي الله عنه : ربما قال الرجل لا إله الا الله ، فأخشى عليه النار . فقيل له : كيف ذلك ؟ قال : يُغتاب بين يديه أحدٌ فيعجبه ذلك ، فيقول لا إله الا الله أو سبحان الله ، وليس هذا موضعهما ، إنما هو أن ينصح له في نفسه ويقول : اتّق !

وبلغه رضي الله عنه أنّ ابنه عليا قال : وددت أن أكون بمكان أرى فيه الناس ولا يروني فقال : ويْحَ عليّ ، لو أتمّها فقال بمكان لا أرى فيه الناس ولا يروني !

وروي أنّ الرشيد لما خرج الى مكة وصار بها قال لسفيان بن عيينة إني أحبّ أن ألقى الفضيل بن عياض بالنهار وأرى زيّه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين إنه إنْ علم بمكانك لم يظهر لك ، ولكنْ سرْ معي فأستأذن عليه ، فإن أُذن لي فأدخل أنت معي حتى تراه . قال : فأتينا باب الفضيل . فلمّا استأذن سفيان أذن له فقال سفيان : ومن معي ! فسكت ساعة ثمّ قال : ومن معك ؟ فقال : رجل من بني هاشم . فأحسّ الفضيل وسكت . فقال له سفيان : هذا أمير

المؤمنين . فقال له الفضيل : يا جميل الوجه ، قد ملكت الدنيا بأسرها فآستر نفسك ببعضها ! فقال /82ب/ له الرشيد : عِظني ! فقال الفضيل : حدّثني عبد الحميد عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : «وقُطِّعتْ بهم الأسباب» قال الرسائل والمودّات التي كانت بينهم في الدنيا . فبكى هارون الرشيد وقال : أنت زاهد حقّا ! فقال الفضيل : أنت أزهد ! فقال الرشيد : ما أدري ما زهدي وأنا فيما تراني ! قال : أنا زاهد فيما يَفْنى وأنت زهدك فيما يبقى ، فأنت أزهد منّي ! كذا حكاه السيّد الجليل ابراهيم الاشعري في كتابه لبّ اللبيب . انتهى .

سياق كلام وتمام مرام بذكر همام

قد تقدّم ذكر سفيان الثوري رحمه الله وما هو عليه من المرتبة العليا . ومع هذا قد ذكر ابن خلكان في تاريخه : أنّ بعض الهاشمين حكى للرشيد عن سفيان الثوري أنه كان بمكة فبلغه (في الاصل : أن مقدم) مقدم الاوزاعي ، فخرج الى ملتقاه ، فلقيه بذي طوى . فحلّ سفيان خُطام بعيره من القطار (في الاصل القطان . والقطار من الابل ، عدد منها بعضه خلف بعض على نسق) ووضعه على رقبته ، وكان إذا مرّ بجماعة قال : الطريق ، الشيخ الاوزاعي !

والشيخ الاوزاعي كان من الفضلاء ، واسمه عبد الرحمان بن عمرو بن محمد بن عمر الاوزاعي ، إمام أهل الشام . قيل إنه أجاب في سبعين ألف مسألة . وكان يسكن بيروت وبُحْمد ، بضمّ الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة . وقال النووي في تهذيب الاسماء واللغات : بضمّ الياء المثناة تحت ، وكسر الميم والاوزاعي من تابع التابعين .

قال الاوزاعي رحمه الله تعالى : رأيت ربّ العزة في المنام ، فقال لي يا عبد الرحمن /83/ أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . [فقلت] : بفضلك يا ربّ أمِتْني على الاسلام . فقال : وعلى السنّة أيضًا .

وتوفي رحمه الله في شهر ربيع الاول سنة سبع وخمسين ومائة وكان سبب

موته أنه دخل حمام بيروت ، وكان لصاحب الحمام شُغل ، فأغلق الباب عليه وذهب . ثم جاء وفتح الباب فوجده ميّتًا قد وضع يده اليمنى تحت خدّه وهو مستقبل . وقيل إنّ امرأته فعلتْ به ذلك ولم تكن عامدة لذلك .

والاوزاع ، قرية بدمشق . ولم يكن أبو عمرو منهم وإنما نزل فيهم وهو سبي اليمن . كذا قال بعضهم . وقال المؤيد : والاوزاعي منسوب الى أوزاع ، وهي بطن من ذى كلاع ، وقيل بطن من همدان سكن بيروت ، وتوفي بها . وكانت ولادته ببعلبك سنة ثمان وثمانين للهجرة ، مات وعمره سبعون سنة . وكان يخضّب بالحنّاء وهو إمام أهل الشام . قال النووي وهو مدفون في قبلة مسجد قرية جبنوس وهي على باب بيروت . وأهل القرية لا يعرفونه بل يقولون ههنا قبر رجل صالح ينزل عليه النور ولا يعرفه منا الاّ الخواص . انتهي . وكذا ذكر المؤيد رحمه الله تعالى .

ذكر ابن خلكان : أنّ الرشيد قدم الى الرقّة في حَفْله ، وقد انجفلت الناس وطقْطقَت البغال وارتفعت الغبرة وانحفلت الناس خلف عبد الله بن المبارك ، فأشرفت أمّ ولدٍ للرشيد من قصر الخشب ، فلما رأت الناس قالت : من هذا؟ /83ب/ قالوا : عالم من أهل خراسان ، يقال له عبد الله بن المبارك ! فقالت : هذا والله المُلك ، لا مُلك هارون الذي لا يجمع الناس الا بشُرطٍ وأعوان !

وكان عبد الله المذكور من الفضلاء الاعلام ، رضي الله عنه . حكي عنه أنه كان يتّجِر سنة ويغزو سنة ويقرأ سنة . وذكر ابن خلكان أنه كان يتّجر ويقول : لو لا خمسة ما اتّجرت ، السفيانان وفضيل وابن السمّاك وابن علية . أي لِيَصِلهم . فقدم سنةً قد ولي ابن علية القضاء ، فلم يأته ولم يصله بشيء ، فأتى اليه ابن علية فلم يرفع رأسه اليه ، ثم كتب له ابن المبارك :

يا جاعل العلم له بازيا　　يصطادُ أموال المساكينِ
احتلت للدنيا ولذّتها　　بحيلة تذهبُ بالدينِ

فصرت مجنونًا بها بعدما		كنت دواءً للمجانينِ
أين رواياتك في سرْدِها		لترْك أبواب السلاطينِ
أين رواياتك فيما مضى		عن ابن عون وابن سيرينِ
إن قلت أكرهت فذا باطلٌ		زلّ حمارُ العلم في الطينِ

فلما وقف اسماعيل بن علية على الأبيات ذهبَ الى الرشيد ، ولم يزل به الى أن استعفاه من القضاء فأعفاه .

وكان ابن المبارك إمامًا جليلا زاهدًا ، جمع بين العلم والعمل .

قيل إنه استعار قلمًا من الشام ، وأنه عرض له سفر ، فسافر الى انطاكية ، وكان قد نسي القلم ، فتذكّره هناك ، فرجع من أنطاكية الى الشام ماشيًا حتى ردّ القلم الى صاحبه وعاد .

وحكي أنّ رجلا عطس عند عبد الله بن المبارك /84/ ، فلم يُحمّد الله عزّ وجلّ فقال ابن المبارك له : أيّ شيء يقول العاطس إذا عطس ؟ قال : يقول الحمد لله . فقال ابن المبارك : يرحمك الله ! فعجب الحاضرون من حسن أدبه . قلت (راجع ما تقدم في المقدمة ، حول شخصية المؤلف) : وهذا منّي على قاعدة فقهية ، وهي أنّ العاطس لا يجب تشميته ، الاّ إذا حمد الله ؛ فلقّنه ـ رضي الله عنه – للتحميد وشمّته .

قال الملك المؤيد : وفي سنة إحدى وثمانين ومائة توفي عبد الله بن المبارك ، في رمضان ، وعمره ثلاث وستّون سنة ، اهـ .

قال بعضهم : وروي أنّ عند ذِكره تنزل الرحمة ، رضي الله تعالى عنه .

قال فقير الديّان حسين بن محمّد بن وادران : قد كنت ليلة الخميس ، ثالث عشر شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف اشتغلت بالنظر في هذه المسوّدة قبل تبييضها ، وقد أرّقني السَّهَر ، ومللت النظر ، فأخذت مضجعي ونمت . وقد استغرقتُ النوم وإذا أنا بهيئة ، لم أشعرها بعد الانتباه ، وكأنّ

شخصًا يخاطبني وهو يقول لي : ثلاثة تنزل الرحمة عند ذكرهم ، الحسن والحسين وعبد الله بن المبارك . فانتبهت وأنا أقول ذلك ، واستيقظت عند قولي والحسين ، ولم أذكر الثالث الا يقظة ، ولم أشعر بغير ذلك ولم أتذكّر الرجل على أيّ هيئة هو ، وقد سررت برؤياي والحمد لله ، انتهى (راجع ما تقدم في المقدمة حول ابن وادران) .

حكى ابن الجوزي في الاذكياء : أنّ الرشيد نام ليلة في فراشه وقد أُسبلت الستور فسمع قائلا يقول /84ب/ :

يا راقدَ الليل انتبهْ إن الخطوب لها سُرَى
ثقةُ الفتى من نفسه ثقة مُحلّلةُ العُرى

فاستيقظ الرشيد فوجد المصابيح طُفيت ، فأمر بالشموع فأُوقدت ، وتنظّر فإذا هو بحيّة تسعى بقرب فراشه فقتلها وحمد الله . انتهى .

ومما حكي في هذا المعنى من أشعار المنامات ما ذكره في كتاب النصائح لابن ظفر عن عبد الحقّ الاشبيلي في العاقبة أنّ مما ابتلى الله به الهادي من المحبة أنه كان مغرمًا بغادر . وكانت جارية من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم غناء ، اشتراها بعشرة آلاف دينار . فبينما هو بين ندمائه إذ فكّر ساعة وتغيّر لونه وقطع الشراب . فقيل له : ما بال أمير المؤمنين ؟ فقال : قد وقع في فكري أني أموت ، وأنّ أخي هارون يرث الخلافة بعدي ويتزوّج غادرًا ، فامْضوا وآتوني برأسه . ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره ، فجعل هارون يترفّق له ، فلم يقنع بذلك وقال : لا أرضى حتى تحلف لي بكلّ ما أحلّفك به ، أنني إذا متّ لا تتزوّج بها ! فرضي بذلك ، وحلف أيمانًا عظيمة ، منها المشي راجلاً الى بيت الله الحرام . ثم بعدما استحلف أخاه هارون قام الى الجارية وحلّفها أيضًا على مثل ذلك ، وطابت نفسه . فلم يلبث بعد ذلك الا أشهرًا حتى مات وولي الخلافة هارون ، فطلب الجارية فذكرته الايمان وقالت : كيف تصنع يا أمير المؤمنين

في الايمان التي حلفناها ؟ فقال : قد كفّرتُ عنّي وعنك ! ومشى راجلاً الى /85/ بيت الله الحرام ، ثم تزوّج بها ووقعت من قلبه موقعًا عظيمًا ، وآفتتن بها أعظم من أخيه الهادي حتى كانت تسكر وتنام في حجره ، فلا يتحرّك حتى تنتبه ؛ فبينما هي في بعض الليالي في حجره إذ انتبهت فزِعة مُرعَبة فقال لها : ما بالك ، فديتك ! قالت : رأيت أخاك الهادي في منامي وأنشدني :

أخلفتِ وعْدي بعدما جاورتُ سكّان المقابرْ
ونسيتني وحنثت في أيمانك الكذبِ الفواجرْ
ونكحتِ غادرة أخي صدق الذي سمّاك غادرْ
لا يهْنَكِ الإلف الجديـ ـد ولا تَدُرْ عنك الدّوائرْ
فلحقتني قبل الصّبا ح وصرتِ حيث غدوْت صائر

قالت : ثم ولّى عنّي وكأن الابيات مكتوبة في قلبي ما نسيت منها كلمة فقال لها الرشيد : هذه أضغاث أحلام من قِبل الشيطان . فقالت : كلا ، والله يا أمير المؤمنين . ثم اضطربت بين يديه ، وماتت في تلك الساعة . فلا تسأل ما لقي هارون بعدها . انتهى .

ومن هذا ما ذكره صاحب كتاب الإخبار على ما في المنامات من الأشعار ، قال : رأيت في مجموع أنه لـمّا ظهر أمر بني العباس واختفى بنو أمية أمّنوهم ليظهروا عليهم . فظهر منهم جمع كبير بالحِيرة . فحكي عن واحد منهم سمّاه أنه كان له ولد صغير وبنت جميلة ، فحين أُمِر بقتلهم أُسلم بنته لرجل من أهل الحيرة ، وكان للرجل أربعة بنين ، كالأُسود يرابطون في /85ب/ الثغور . فدُلَّ بنو العباس على البنت المذكورة فراودوا المودَّع في تسليمها اليهم ، فأبى فهدّدوه بإلقاء أكبر أولاده في غيطة مُسْبَعة لا يُنجَى منها من يُلقى فيها . فاستمرّ على منعه ، فأُلقِيَ الاكبر منهم ؛ ثم أُغفِل مدة ووُشي به أن البنت عنده ، فأنكر ذلك فهددوه بإلقاء ولده الآخر . فقال : ما شئتم آفعلوا ! فألقي الولد الثاني ولم يزالوا

الى أن ألقوا الأربعةَ ، أولادَه ، ولم يسلِّم البنت وحفظ أمانته . فدخل بعض الايام فوجد البنت تبكي فقال : ما يبكيها ؟ فقالت أم الأولاد : إنني سرّحتُها فأوجعتْها أسنانُ المشط ، فبكتْ ! فقال : لا إله الا الله أنت من هذا تبكين ، وأنا لا أبكي من فقد الأولاد ! ثم بكى وتألم . ثم نام فرأى في النوم والد البنت ، فأنشده والدُ البنين منامًا :

صبرت على فقد البنين وذقتُها مرارةُ صبر فيه تحلو منيتي
فيا مقلتي جودي عليهم بأدمعي ويا كبدي الحرَّى عليهم تفتّتي
ويا صاحبي قاسيتُ في طلب الوفا مواقف أهوال بها النّعل زلّتِ
ليُعلم أني قد وفيت وقلّما وَفَى مِن جميع الناس حيّ لميّتِ

فأنشده والد البنت :

صبرتَ جزاك الله خيرًا ونلتها مراقِبُ أجر أشرقتْ وتعلّتِ /86/
فدونك غيطان الجزيرة عندها بَنوك تجدهم عند سبع ولبوةِ
ودونك أصلُ السَّرْوِ كنزًا دفنته تجدْه وقسّم في البنين مع ابنتي

فانتبه فزعًا ودخل الغيطة فوجد أولاده الأربعة وأسدًا ولبوة يحرسانهم . فتفرّقا عنهم ، واجتمع بهم وحفر في أصل السَّرْو فأخرج كنزًا وقسّمه بين أولاده الاربعة ، وزوج البنت من الأكبر منهم وصلح الحال . انتهى . ولنرجع الى ذكر الرشيد .

ذكروا أنّ الرشيد كان بالرّيّ ثم أتى حُلْوان ، فنزل فيه أيامًا واستطاب المكان وقد هاج عليه الدم ، فأشار عليه الطبيب بأكل جُمار النخيل . فطلب ذلك ، فلم يجده فقالوا : لا يوجد نخل هنا إلاّ الذي على العقَبة . وكان هناك نخلتان لهما منظرٌ حسن ، فأمر الرشيد بقطع نخلة منهما ولم يكن يراهما قبل . فقطعت وأوتي بجُمارها فأكل منه . وراح ، فلمّا انتهى العقبةَ نظر إحدى

النخلتين مقطوعةً والاخرى قائمة ، وإذا على القائمة مكتوب هذه الابيات :

أَسْعِداني نخلتيْ حلوان وارْثيا لي من ريْب هذا الزمانِ
واعلما أنّ ريبه لم يزل يفـ ـرِّق بين الاحباب والجيرانِ
ولعمري لو ذقتما ألم الفُر قةِ أبكاكما الذي أبكاني
أسعداني وأيْقِنا أن نحسًا سوف يلقاكما فتفترقانِ / 86ب/
كم رمتني صروف هذي الليالي بفراق الأحباب والخلانِ
غير أنْ لم تلق نفسي كما لا قيْتُ فُرقة ابنة الدُّهقان

فلمّا قرأ الرشيد هذه الابيات وتأمّل في قوله «إن نحسًا سوف يأتيكما فتفترقان» اغتمّ لذلك ، وقال : يعزّ عليّ أن أكون نحسكما ، والله لو سمعت هذا الشعر ما قطعت هذه النخلة ولو قتلني الروم !

وروي أن المهدي اجتاز بعقبة حُلوان ، فاستطاب الموضع ، ونزل فتغدّى ودعا بحَسَنة وقال لها : أما ترين طيب هذا الموضع ، بحياتي غنيني حتّى أشرب ، فغنتّ :

أيا نخلتيْ وادي جوانة حبّذا إذا نام حُرّاس النخيل جَناكُما

قال : أحسنت ، لقد هممت بقطع هاتين النخلتين فمنعني هذا الصوت ! قالت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون النحسَ المفرّق بينهما ! فقال : وما ذاك ؟ فأنشدته بشعر مطيع بن إياس ، وللشعر حكاية .

قال في كتاب الاغاني : إنّ مطيع بن إياس كان بالريّ ، فتعشّق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلًا الى جنبها ، فلمّا ترحّل عن الريّ بقي في نفسه علاقة منها ، فلمّا نزل عَقَبة حلوان جلس مستندًا الى أحدى النخلتين التي على العقبة وكتب الأبيات على احداهما ، وحكت حسناء له ذلك فقال لها المهدي : والله يا حسناء لأوكلنّ بهما من يحفظهما أبدًا ويسقيهما ما حييت . ثم أمر بذلك

مدة حياته . انتهى /87/

حكي في كتاب الفرج بعد الشدة عن محمد بن عبدوس قال : لـمّا صار الرشيد بطوس ، واشتدّ عليه المرض اتصل خبره بابنه الأمين فوجّه اليه بكر بن المعتمر ودفع اليه كتابًا الى الفضل بن الربيع واسماعيل بن صالح وغيرهما يأمرهم بالقفول الى بغداد إنْ حدثت الحادثة بالرشيد والاحاطة على ما في الخزائن وحمله اليه . وقد كان الرشيد جدّد الشهادة للمأمون بجميع ما في عسكره من مال وأثاث وخدم وكراع وغير ذلك ، فلمّا ورد بكر بن المعتمر على الرشيد أوصل اليه كتبًا ظاهرة كانت معه بعِيادة الرشيد وكتم الكتب الباطنة فجحدها مخافة . وهي مُخفاة عنده . فاتصل خبرها الى الرشيد ، فأحضره وطالبه بالكتب الباطنة فجحدها . قال ، فذكر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : حدّثني أبي قال : كنت مع الرشيد بطوس لما ثقُل في علّته وقد ورد بكر بن المعتمر والمأمون حينئذ بمرو ، وقد ظفر الرشيد بأخ رافع بن الليث فأحضر في ذلك اليوم ومعه قرابة له ، فخلع الرشيد على بكر وصوّبه الى منزله ، ثم أمر بإحضاره ومطالبته بالكتب فجحدها فأمر بحبسه ، ثم جلس الرشيد جلوسًا عامًّا في مضرب خزّ أسود استدارته أربعمائة ذراع ، أركانه أربع قباب مغشاة بخزّ أسود ، وهو جالس في ماوة خزّ أسود في وسط المضرب ، والعُمَد كلها سود ، وقد جعل مكان الحديد فضة والاوتاد والحبال /87ب/ كلها سود ، وعليه جبة خزّ سوداء وعليه فروات سمور ، لما هو فيه من البرد وفوقهما دراعة خزّ أسود مبطنة بالسمور أيضًا ، وقلنسوّة طويلة وعمامة خزّ سوداء ، وهو عليل لما به وخلْف الرشيد خادم يمسكه لئلا يميل بيديه ، والفضل بن الربيع جالس بين يديه ؛ فقال للفضل بن الربيع : مر بكرًا بإحضار ما معه من الكتب السرية ! فأنكرها وقال : ما معي الا الكتب الي أوصلتها . فقال للفضل : توعّدْه واعلمه إن لم يفعل قتلته ؛ فأقام بكر على الإنكار فقال الرشيد بصوت خفي : قنّبوه ! فجيء به وجيء بالقُنّب فقُنّب من قرنه الى قدمه . قال بكر : فأيقنت بالقتل ، وأيست من

نفسي، وعملت على الإقرار ، فأنا على ذلك حتى أحضر الرشيد أخ رافع وقرابته الذي كان معه فقال الرشيد : يتوهّم رافع أنه يقتلني ، والله لو كان معه عدد نجوم السماء لنلقطنّهم واحدًا بعد واحد حتى أقتلهم عن آخرهم ! فقال الرجل : الله الله يا أمير المؤمنين ، فإنّ الله يعلم وأهل خراسان أنّي بريء منذ عشرين سنة ملازم مسجدي فاتق الله فيّ وفي هذا ! فقال له : قطع الله لسانك ، أنا والله منذ كذا وكذا أدعو الله بالشهادة فلمّا رزقتها على يدَيْ شرّ خلقه أخذت لي الاعتذار . فاَغتاض الرشيد وقال : عليّ بجزّارين ! فقال له قرابة هارون : افعل ما شئت ، فإنّا نرجو أن نزور نحن وأنت بين يدي الله تعالى في أقرب مدة ، فتعلم كيف يكون حالك عند الله . فلم يسمع لهما وأمر بهما فقطعا عضوًا عضوًا ، فوالله ما فرغ منهما /88/ حتى توفي الرشيد . فقال بكر بن المعتمر : وأنا أتوقّع القتل بعدهما حتى أتاني غلام لأبي العتاهية ، قد بعث به مولاه وكتب في راحته شيئًا أرانيه فإذا هو :

هي الايام والغِيَر وأمر الله ينتظرُ
أتيأس أن ترى فرجًا فأين الله والقدَرُ

فوثقت بالله وقويت نفسي ثم سمعت واعية لا أفهم معناها ، فإذا الفضل بن الربيع أقبل اليّ وقال : حلّوا أبا حامد فقلت : ليس هذا بكنيتي . فحللت ودعا لي بخلع فخلعتْ عليّ ثم قال : عظّم الله أجرك في أمير المؤمنين هارون الرشيد ! ثم أخذني وأدخلني بيتًا ، فإذا الرشيد مسجًّى فيه ؛ وكشفتُ عن وجهه فلما رأيته ميّتًا سكنتْ روعتي ثم قال : هات الكتب الباطنة التي معك ! فطلبت صندوقًا للمطبخ قد نفَقَتْ قوائمَه وجعلت الكتب فيها وجُعل الجلد فوقها فشُقّ الجلد وكُسرت القوائم ، وسلّمتُ الكتب الى أصحابها وأخذت الاجوبة وانصرفت الى بغداد ، انتهى .

وقد ذكر أبوالحسن القاضي هذين البيتين لابي العتاهية وزاد بينهما بيتًا

ثالثًا وهو :

ولا تجزع وإن عظُم الْـ ـبلاءُ ومسَّك الضررُ

قال في كتاب النصائح لابن ظفر : إنه لما اشتدّ مرض الرشيد بطوس أحضر طبيبًا طوسيًّا ، وأمر أن يُعرض عليه ماؤه مع مياه كثيرة لمرضى . وأضحى فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد فقال : قولوا لصاحب هذا الماء يوصي ، فإنه قد انحلّت قواه وتداعت بنيته ! فأقيم وأمر بالذهاب /88ب/ فذهب ويئس الرشيد من نفسه فتمثّل قائلا :

إنّ الطبيب بطبّه ودوائه لا يستطيع دفاع نَحْبٍ قد أتى

يا للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء مثلَه فيما مضى

وبلغه أنّ الناس أرجفوا لموته ، فاستدعى حمارًا ، وأمر أن يُحمل عليه فاسترخت فخذاه ، فقال : انزلوني ، صدق المرجفون ! ثم دعا بأكفان فتخيّر منها ما أعجبه وأمر فشُقّ له قبرٌ أمام فراشه ثم إنه اطلع فيه ثم قال : «ما أغنى عنّي ماليه هلك عنّي سلطانيه» (الحاقة 29) ! فتوفي رحمه الله تعالى من يومه . انتهى .

قال اليافعي في تاريخه : لما مرض الرشيد واشتدّ عليه البرد حتى أنه يفرش له الرماد السَّخِن فينام عليه ويغطّوه بأربعة عشر لحاف سمور وهو يطير من البرد ويقول : يا من لا يزول ملكه ، ألطُف بعبد زال ملكه ! وهو يكررها حتى قضي عليه الى رحمة الله . انتهى .

قال ابن عبدوس في كتاب الوزارة : غلط جبريل بن بختشوع في علته في علاج عالجه به كان سببَ منيّته ؛ فهمّ أن يفصِل أعضاءه فقال : انظِروني غدًا ، فإنك تُصبح في عافية ، فمات ذلك اليوم ، انتهى . وقيل إنه رأى منامًا أنه يوُمّ بطوس فبكى وقال : احفروا لي قبرًا ، فحُفر له . وكان سبب ذهابه الى طوس

أنه كان غازيًا الى بلاد الترك .

قال الملك المؤيد في المختصر : في سنة اثنتين وتسعين ومائة سار الرشيد من الرقّة الى خراسان فنزل بغداد ورحل عنها الى النهروان ، لخمس خلون من شعبان ، واستخلف على بغداد ابنه الأمين . ثم دخلت سنة /89/ ثلاث وتسعين ومائة ، فيها مات الرشيد لثلاث خلون من جمادى الآخرة . وكان به مرض من حين ابتدأ بسفره ، اشتد عليه بجرجان في صفر ، فسار الى طوس فمات بها في التاريخ المذكور . وكان قد سيّر ابنه المأمون الى مرْو . وحفر الرشيد قبره في موضع الدار التي كان فيها ، وأنزل فيها قومًا ختموا فيه القرآن وهو في مِحفّة على شفِير القبر . وكان يقول في تلك الحالة : واسوءتاه من رسول الله ﷺ ! ولما دنت منه الوفاة غُشي عليه ، ثم أفاق فرأى الفضل بن الربيع على رأسه فقال: يا فضل !

أحين دنا ما كنتُ أخشى دنوّه ... رمَتْني عيونُ الناس من كلّ جانبِ
فأصبحتُ مرحومًا وكنت محسّدًا ... فصبرًا على مكروه مرّ العواقبِ
سأبكي على الوصل الذي كان بيننا ... وأندبُ أيام السُّرور الذواهبِ

ثم مات رحمه الله وصلّى عليه ابنه صالح ، وحضر وفاته الفضل بن الربيع واسماعيل بن صُبيح ومسرور وحسين . وكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يومًا . وعمره سبع وأربعون سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام ، وكان جميلا أبيض قد خطّه الشيب . انتهى

قال الصولي : خلّف الرشيد مائة ألف ألف وخمسمائة وعشرون ألف دينار. كذا /89ب/ حكاه الحافظ السيوطي في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء .

قال الملك المؤيد : وكان الرشيد يتصدّق من صُلب ماله في كلّ يوم بألف درهم . انتهى . ركان محبًّا للغزو ، له صوْلة وفتكات في الكفرة ، وفتح هرقلة

والصفصاف في بلاد الروم ، وأخذ الخراج عن قيصر ملك الروم . وسبب ذلك ما حكاه المؤيد أن في سنة سبع وثمانين ومائة خلع الروم ملكتهم ، وكانت امرأة ، تدعى رُمِني ، وملّكوا عليهم نقفور . فكتب الى الرشيد : «من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب . أمّا بعد ، فإنّ الملكة التى كانت قبلي أقامتْك مقام الرُّخ وأقامت نفسها مقام البيْدق ، فحملتْ اليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أضعافَه اليها ، لكن ذلك من ضُعف النساء وحمقهنّ . فإذا قرأت كتابي هذا اردُدْ ما حصل لك من أموالها والاّ السيف بيننا وبينك !» .

فلمّا قرأ الرشيد الكتاب استفزّه الغضب ، وكتب على ظهر الكتاب : «بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين الى تقفور كلب الروم . وقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه !» . ثم سار الرشيد من يومه حتّى نزل على هرقلة ففتح وغنِم وخرّب ، فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه . ثم بعد هذا سار الرشيد سنة تسعين ومائة في مائة ألف وخمس وثلاثين ألف من المرتزقة سوى من لا ديوان له من الأتباع والمتطوّعة حتى نزل على هرقلة وحصرها ثلاثين يومًا ، ثم متّجهًا في شوال من سنة /90/ تسعين المذكورة وسبى أهلها ، وبث عساكره في بلاد الروم ففتحوا الصفصاف وملقونية وخرّبوا ونهبوا . وبعث نقفور بالجزية عن رعيته وعن رأسه أيضًا ورأس ولده وبطارقته وغزا قبرس في هذه السنة بعد نقضهم الصلح . وكان الغزو على يد معتوق بن يحيى عامله على سواحل مصر والشام . ثم قصد غزو الترك في سنة اثنتين وتسعين كما قدمنا ، وسار الى أن بلغ طوس ومات بها ، رحمه الله . كذا حكاه المؤيد .

قال أبو الشيص يرثي الرشيد رحمه الله تعالى :

غرُبتْ في الشرق شمس فلها عينان تدمعْ
ما رأينا قط شمسًا غرُبت من حيث تطلعْ

وكانت له ، رحمه الله ، رواية في الحديث . قال الصولي : حدّثنا عبد الله بن خلف قال : حدّثني جدّي الحصين بن سليمان الضبي قال : سمعت الرشيد يخطب فقال في خطبته : « حدّثني مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : اتقوا النار ولو بشقّ تمرة . حدّثني محمد بن علي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب قال قال النبي ﷺ : نظفوا أفواهكم فإنها طرق القرآن» . انتهى .

قال المؤيد وكان له من البنين الأمين من زبيدة ، والمأمون من أم ولد اسمها مراجل ، والقاسم والمؤتمن ، والمعتصم محمد ، وصالح ، وأبو عيسى محمد ، وأبو يعقوب ، وأبو العباس محمد ، وأبو سليمان محمد ، وأبو علي محمد ، وأبو محمد وهو اسمه ، وأبو أحمد محمد ، كلهم لأمهات أولاد وخمس عشرة /90ب/ بنتًا . وعهد بالخلافة الى الامين ثم من بعده الى المأمون . وكتب بينهما عهدًا بذلك ، وجعله في الكعبة وجعل ولده القاسم ولقبه المؤتمن ولي العهد بعد المأمون ، وجعل أمر استقراره وعزله الى المأمون ، إن شاء استمره وإن شاء عزله . ولما مات الرشيد كان ولده الأمين ببغداد وولده المأمون بمرو ، فقام بجنازته ولده صالح . وبويع للامين في العسكر وهو ببغداد ، واستناب الامر أخوه صالح ، وكتب لاخيه الأمين بوفاة الرشيد مع رجاء الخادم ، وأرسل معه خاتم الخليفة والبردة والقضيب ، وسار حتى قدم بغداد في اثني عشر يومًا ودخلها في نصف جمادى الأخير وسلّم ذلك للامين ، وأُخذت له البيعة ببغداد .

قال أبو نواس :

جرَتْ جوار بالسّعد والنّحس فنحن في مأتم وفي عُرس
أقبلت تبكي والعين ضاحكة فنحن في وحشة وفي أنس
يُضحكنا القائم الأمين ويُبـ كينا وفاة الإمام بالامس

بدران بذرٌ أضحى ببغداد في الـ خلد وبدرٌ بطوس في الرّمس

وبقي صالح والفضل بن الربيع في العسكر .

قال ابن عبدوس في كتاب الوزرارة : لـمّا مات الرشيد جمع الفضل بن الربيع وجوه دولة الرشيد من القواد والجند ، وأغواهم على كلّ ما أوصى به الرشيد للمأمون من المال والسلاح ، كما قدمنا وساقه كله الى الامين . وكان المأمون بخراسان والفضل بن الربيع لم يلتفت اليه ، فبلغ المأمون /91/ ذلك فعزم على إرسال طائفة من عسكره ليتعرضوا له في طريقه لـمّا انفصل عن موضع وفاة الرشيد من طوس وهو يريد نحو العراق ، فأشار الفضل بن سهل على المأمون بأن لا يتعرض له ، وخاف عاقبة الامر وأن يكون سببًا للخلاف بين الامين والمأمون ، فاستصوب المأمون رأيه وترك ما قد كان عزم عليه من التعريض للفضل بن الربيع . وقدم الفضل بغداد ، ففرح به الامين وأسرّه بما فعل من مخالفة كلام الرشيد بما أوصى به للمأمون . وتمكّن الامر للامين وخلع على الفضل بن الربيع وقرّره على وزارته الى أن تمكّن من الامين ، فصار يغريه على خلع المأمون من ولاية العهد خوفًا على نفسه مما فعله ، وكان هو سبب الفتنة بينهما على ما سيأتي إن شاء الله تعالى .

الباب الثاني
في
دولة أمير المؤمنين
أبي عبد الله محمد الأمين

وهو الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي الهاشمي . ولي الخلافة بعهد من أبيه ، وبويع له بالخلافة في عسكر الرشيد في صبيحة الليلة التي توفي فيها الرشيد وهو إذ ذاك ببغداد وكان المأمون بمرو . فكتب له أخوه صالح بالوفاة والبيعة وأرسل له الخاتم والبردة والقضيب فجُدّدت له البيعة العامة ببغداد حين بلّغه رجاء الخادم بذلك وصلى بالناس الجمعة ، فخطب خطبة بليغة . وتحول الى قصر الامارة ثم قدمت عليه /91ب/ أمه زبيدة من الرقة ، ومعها خزائن الرشيد ، فتلقاها ابنها الأمين بالأنبار ومعه جميع وجوه بغداد . كذا قال المؤيد .

وكان الامين من أحسن الشباب صورة ، أبيضاً طويلاً جميلاً ، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة ، وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة ، لكن كان سيء التدبير ، كثير التبذير ، ضعيف الرأي أرْعَن ، لا يصلح للامارة . فأول ما بويع للخلافة أمر ثاني يوم ببناء ميدان جوار قصر المنصور للعب الكرة .

وذكر ابن المظفر تقي الدين بن عمر بن شاهنشاه في تاريخه المسمى بالمضمار أن الامين كان صغير العينين ، شديدًا في بدنه ، قبيح السيرة ، سفّاكاً للدماء ، ضعيف الرأي ، سخياً بالمال ، بخيلاً على الطعام . انتهى .

وذكر الملك المؤيد في المختصر أنه كان سبطا أنزع ، صغير العينين أقنى

جميلا طويلاً ، وكان منهمكًا في اللذات وشرب الخمر ، حتى أرسل الى جميع البلاد في طلب الملهين وضمّهم اليه ، وأجرى عليهم الارزاق واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقسّم الأموال والجواهر في خواصه وفي الخصيان والنساء . وعمل خمس حرّاقات في دجلة على صورة الأسد وعلى صورة الفيل وعلى صورة العقاب وعلى صورة الحية وعلى صورة الفرس ؛ وأنفق عليها مالاً عظيمًا وفي ذلك يقول أبو نواس شعرًا :

سخّر الله للامين المطايا　　لم تسخّر لصاحب المِحْرابِ
فإذا ما ركابه سار برًّا　　سار في الماء راكبًا ليث غابِ
عجِب الناس إذ رأوك عليه　　كيف لو أبصروك فوق العُقابِ /92/
ذات سور ومنسر وجناحيْـ　　ـن تشقّ العبابَ بعد العبابِ

انتهى . وكذا ذكر الخطيب في تاريخ بغداد .

ذكر ابن رشيق القيرواني (وصحته : الرقيق . انظر في المقدمة في المصادر حول هذا اللبس) في كتاب قطب السرور عن اسحاق الموصلي قال : اجتمعتْ في محمد الامين خصال لم تكن في غيره من الملوك ، كان أحسن الناس وجهًا ، وأسخاهم على دينار ودرهم وأشرف الخلفاء أبًا وأمًّا ، وكان حسن الأدب عالما بالشعر ، وكان يقول لي : يا اسحاق انشدني محاسن الشعر ! فأنشده ؛ فيطرب ويشرب ويقول : أنا والله أطرب على جيّد الشعر كما أطرب على جيّد الغناء !

قال الفضل بن الربيع : قعد محمد الامين يومًا ينظر في المظالم على فرش لبود ، وعليه مبطنة وقلنسوة وشْي وطيْلسان أزرق . فأمر ونهى ووقّع في نحو ثمانية وأربعين نوقيعًا بأجزل الكلام . وقيل إنه وقّع في ثمانمائة توقيعًا . قال : فوالله لقد أصاب فما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ . ولقد عُرضت على أولي الدواوين والفقهاء فما وجدوه خالف حكمًا في قضية واحدة منها . فلمّا انقضى المجلس قال للفضل بن الربيع : أتراني لا أحسن الأمر والنهي ؟! قال ، فقلت : يا أمير

المؤمنين ، والله رأيت من بلاغتك ومعرفتك بالاحكام ما لا رأيته في أمير المؤمنين الرشيد فقال : صدقت ، ولكنى رأيت شرب الكاس ، وشم الآس ، والاستلقاء من غير نعاس ، أعْوَد وأحبّ إليّ !

وكان قد هان عليه القبيح فاتبع هواه ولم ينظر في شيء من غفلته ، وكان مع سخائه بالمال أبخل الناس على الطعام /92ب/ . وكان لا يبالي أين قعد ولا مع من شرب .

قال عبد الله بن أيوب التميمي أنشدت الى محمد الامين أوّل ما ولي الخلافة :

لا بدّ من سكرة على طرَبِ   لعلّ رَوْحًا بذاك من كربِ
فعاطينها صهباء صافية   تضحك في لؤلؤ على ذهبِ
خليفةَ الله أنت منتخبٌ   بخير أمّ من هاشم وأبِ

قال فأمر لي بمائة ألف درهم . انتهى .

قال المسعودي في مروج الذهب : ما ولي الخلافة الى وقتنا هذا هاشمي ابن هاشمية سوى علي بن أبي طالب وابنه الحسين رضي الله تعالى عنهما والامين بن الرشيد ، فإنّ أمه زبيدة بنت جعفر ابن أبي جعفر المنصور واسمها أمة العزيز وزبيدة لقب غلب عليها . انتهى .

قال الثعالبي في لطائف المعارف كان أبو العيناء يقول : لو نشرت زبيدة ظفائرها ما تعلّقت الا الخليفةَ أو ولي عهد ، فإنّ المنصور جدّها ، السفاح أخو جدّها ، المهدي عمها ، الرشيد زوجها ، الامين ابنها ، المأمون والمعتصم أبناء زوجها ، الواثق والمتوكل كلّ أبناء ابن زوجها . ونظيرتها من بني أمية عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية ، فإن يزيد أبوها ، معاوية جدّها ، معاوية بن يزيد أخوها ، مروان بن الحكم حموها ، عبد الملك زوجها ، يزيد ابنها الوليد ابن ابنها ، الوليد وهشام ابني زوجها ، يزيد وابراهيم أبناء الوليد ابني ابن زوجها . انتهى .

ذكر ابن رشيق القيرواني (وصحته : الرقيق ، كما تقدم بيانه) عن اسحاق الموصلي قال : شرب /93/ الامين على بساط نرجس ، وخادمه كوثر يسقيه ، ونظر الى البدر قد طلع فقال هذا الشعر :

وصَفَ البدرَ حُسْن وجهك حتّى خِلت أنّي وما أراك أراكَ
وإذا ما تنفس النَّرجس الغضُّ توهّمته يتنسّم شذاكَ
خُدَعٌ للمُنى تُعلِّلني فيك فإشراقُ ذا وتهتُّك ذاكَ
لأقيمنّ ما حييتُ على السُّكْـ ـر أهذا وذاك إذ حَكَيَاكَ

انتهى .

وكان له حبّ وشعف بكوثر هذا ، وفيه يقول أيضًا :

ما يُريد النّاس من طبٌّ بمن يهْوَى كئيبُ كوْثرَ ديني
ودنياي وسُقمي وطبيب
أعجزُ الناس الذي يلحي بحبك في جبيني

قال الصولي : حدّثنا أبو العيناء قال حدّثنا محمد بن عمر الرومي قال خرج كوثر خادم الأمين ليَرَى ، فأصابته رَجْمة في وجهه فجعل يمسح الدم عن وجهه ثم قال :

ضربوا قرّة عيني ومن أجلي ضربوه
أخذ الله لقلبي من أناس حرّقوه

ولم يقدر على زيادة . فأحضر عبد الله بن أيوب التميمي الشاعر ، فقال له : قل عليها ! فقال :

ما لمن أهوى شبيهٌ فيه الدنيا تتيه
وصله حلو ولكن ....

مذ رأى الناس له الفضل عليهم حسدوه
مثلمـا قـد حسـدَ القائم بالملك أخوه

فأَوْقَر له ثلاثة نعال دراهم . فلما قتل الأمين جاء التميمي الى المأمون وامتدحه فلم يأذن له ؛ فالتجأ الى الفضل بن سهل /93ب/ فأوصله الى المأمون فلما سلّم عليه قال : هيه يا سمِيِّي «مثلما حسد القائم أخوه» فقال التميمي :

فضُرُّ عبد الله لما أنّهم قد ظلموه
نقض العهد الذي قد كان قِدْما أكّدوه
لم يعامله أخوه بالذي أوصى أبوه

فعفا عنه وأمر له بعشرة آلاف درهم . انتهى .

ذكر ابن رشيق عن الفضل قال : قال الفضل بن الربيع لـمّا خلع الامين أخاه المأمون ، وبعث عليّ بن عيسى بن ماهان لمحاربته فلقيه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين فقتله وهزم عسكره ووجوه قوّاده واحتوى على الاموال الجليلة التي جمعها ؛ فدخلتُ على محمد الامين فوجدته جالسًا على البركة ومعه كوثر الخادم وبيد كلّ واحد منهما قصبة وهم يصطادون السمك . انتهى .

قال بعضهم إنّ الامين قال للمخبر الذي أخبره بخبر عليّ بن عيسى بن ماهان وما كان منه : أني لم أصد إلاّ سمكتين بخلاف كوثر فإنه صاد أكثر مني ! وهذا غاية اللهو وعدم الاعتناء بالامور ، ولذا قال فيه بعضهم :

إذا غدا مِلِكٌ باللهو مُشتغلاً فاحكم على ملكه بالويْل والخرَبِ
أما ترى الشمس في الميزان هابطة ما غدا وهو برج اللهو والطربِ

قال الدميرى : وكان محمد الامين لعّابًا لا يصلح للخلافة ، مشتغلاً باللهو واللذات ، مبذرًا للأموال .

قيل إنه أعطى /94/ لاسحاق بن ابراهيم الموصلي ألف ألف درهم في لحنه

الذي صنعه فيه ، وهو :

يا أيها القائم الأمين فدت نفسك نفسي بالمال والولد
بسطت للناس إذ وليتهم يدا من الجود فوق كل يد

قالت شهوات الصنّاجة التي أهداها اسحاق الى الواثق : إن اسحاق لـمّا غنى هذا اللحن لمحمد الامين أمر له بهذا المال رأيته قد دخل دارنا يحمله مائة فراش . كذا حكاه صاحب الاغاني .

قينة لطيفة وقنة ظريفة

ذكر في كتاب الاغاني أنّ الامين كانت محبوبته بَذْل ، وله شغف بها ، وهي جارية من مولَّدات المدينة ، رُبّيت بالبصرة . كانت حلوة الوجه موصوفة بكثرة الرواية . قيل إنها كانت تغني ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب في الاغاني يشتمل على اثني عشر ألف صوت ، عملته لعليّ بن هشام . وكانت لجعفر بن موسى الهادي ، فوُصفت لمحمد الامين ، فبعث الى جعفر يسأله أن يريه إياها ، فأبى فقال له : بعني إياها ! فقال : مثلي لا يبيع جارية . قال : فهبها لي قال : إنها مدبّرة . فاحتال عليه يومًا حتى أسكره ، وأمر ببذل فحُملت الى حراقته وانصرف بها . فلما انتبه جعفر سأل عنها فأُخبر بخبرها . فسكت فبعث اليه الامين من الغد فجاءه وبذل جالسة فلم يقل شيئا ، فلمّا أراد الانصراف قال الامين : أوْقِروا حراقة ابن عمي دراهم ! فأُوقِرت ، فقيل إن المال كان عشرين ألف ألف درهم .

وبقيت بذل عند الامين حتى قُتل ، فخرجت /94ب/ ومعها من الجواهر ما لم يملكه أُحد مثلها . فرغب اليها وجوه القواد والكتاب في التزويج ، فأَبت وأقامت على حالها تبيع من ذلك وتنفقه حتى ماتت .

وكان ابراهيم بن المهدي يعظمها ثم تغيّر ذلك ، فصارت اليه ودعت بعود

فغنّت في طريقة واحدة وإيقاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت ، لم يعرف منها ابراهيم صوتًا . ثم انصرفت فلم يدخل ابراهيم داره حتى طال طلبه لها وتضرّعه اليها في الرجوع اليه .

وغنّت يومًا بين يدي المأمون :

إن ترني ناحِلَ البدنِ فلطول الهمّ والحزَنِ
كان ما قد كان واحَزَني ليته والله لم يكُنِ

فطرب وقال : أحسنت ! ووصلها بمال طائل ، ثم شرب أقداحًا وقال لها : غني ! فغنت : «ألا لا أرى شيئا ألذّ من الوعد» فجعلته «ألا لا أرى شيئا ألذّ من السَّحْق» فوضع المأمون القدح من يده وقال : بلى والله يا بذل النّيك ألذّ من السحق ! فخافتْ غضبَه وتشَوّرت ؛ فأخذ القدح وقال : أتمّي صوتك وغنّى ! فغنّت وقالت :

ألا لا أرى شيئا ألذّ من الوَعْد ومن أملي فيه وإن كان لا يُجدي

فقال : زيدي فيه :

ومن غفلة الواشي إذا ما انتباهنا ومن زورتي إتيانُها خاليًا وحْدِي
ومن ضحكة في الملتقى ثم سكتة وكلتاهما عندي الذّ من الخُلْدِ

سِمة سنية وشِيمة رضية

/95/ حكى الحافظ جلال الدين السيوطي في فاكهة الخلفاء عن اسحاق الموصلي قال : في الأمين خصائل لم تكن في غيره ، كان أحسن الناس وجهًا ، وأسخاهم ، وأشرف الخلفاء أبًا وأمًّا ، حسَن الأدب عالـمًا بالشعر . وقال أبو الحسن الاحمر : ما رأيت في أولاد الملوك أزكى منه ومن المأمون . انتهى .

قال الصولي : حدّثنا المغيرة بن محمد المهلبي قال : رأيت عند الحسين بن

الضحاك جماعةً من بني هاشم فيهم بعض أولاد المتوكل فسأله عن الامين وأدبه ، فوصف الحسين أدبًا كثيرًا قيل : فالفقه ؟ قال : كان المأمون أفقه منه . قيل : فالحديث ؟ قال : ما سمعت منه حديثًا الاّ مرة ، فإنه نُعي اليه غلام له مات بمكة فقال : حدّثني أبي عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبيه قال : سمعت النبي ﷺ يقول من مات مُحْرِمًا حُشر ملبّيًا . انتهى .

قال الدميري في حياة الحيوان عن الاصمعي أنه قال : دخلت على الرشيد ، وكنت قد غِبت عنه بالبصرة حوْلين ، فسلمت عليه بالخلافة فأومأ اليّ أن اجلس . فجلست حتى خفّ الناس ثم قال لي : يا أصمعي ، ألا تحبّ أن ترى محمدًا وعبد الله ابنيّ ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ، لأحِبّ ذلك ، وما أردت القصد الا اليهما لأسلّم عليهما . فقال : لك ذلك . ثم قال : عليّ بمحمد وعبد الله ! فانطلق الرسول وقال : أجيبا أمير المؤمنين . فأقبلا كأنهما قمرًا أفقٍ قد قاربا خطاهما ورَميا ببصرهما الارض حتى وقفا على /95ب/ أبيهما فسلما عليه بالخلافة ، فأومأ اليهما بالجلوس ، فجلس محمد عن يمينه وجلس عبد الله عن يساره . ثم أمرني بمطارحتهما الأدب ، فكنت لا ألقي عليهما شيئاً من فنون الادب الا أجابا فيه وأصابا . فقال : كيف ترى أدبهما ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت مثلهما في ذكائهما وجودة فهمهما وذهنهما ، فأطال الله بقاءهما ورزق الامة رأفتهما ومِعْطفتهما ! فضمّهما الى صدره وسبَقت عَبْرته ، فبكى حتى تحدّرت دموعه على لحيته . ثم أذن لهما في القيام ، فنهضا حتى إذ خرجا قال لي : يا أصمعي ، بِهِمَا إذا ظهَر تعاديهما وبدَا تباغضُهما ووقع بأسُهما بينهما حتى تسفك الدماء ويودّ كثيرٌ أنهم لو كانوا موتى ! قلت : يا أمير المؤمنين هذا شيء قضَى به المنجّمون عند مولدهما أو شيء أخبر به العلماء في أمرهما ؟! قال : لا ، شيء أخبر به العلماء عن الأولياء عن الأنبياء في أمرهما . انتهى .

وكان المأمون يقول في خلافته : كان الرشيد سمع جميع ما يجري بيننا من

موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، فلذلك قال ما قال . انتهى

وكان الامين له نظم جيّد ، دقيق المعنى ، سَلِس العبارة ، من ذلك ما خاطب به أخاه المأمون وعيّره بأمّه لما بلغه عنه أنه يعدّد مثالبه ويفضل نفسه عليه :

لا تفخرنّ عليك بعد بقية ... والفخر يكمُل للفتى المتكاملِ
وإذا تطاولت الرجال بفضلها ... فارجع فإنك لست بالمتطاولِ
أعطاك جدُّك ما هويْت وانما ... تلقى خلاف هواك منه مراجِلِ /96/
تعلو المنابر كل يوم آملا ... ما لست من بعدي اليه بِواصلِ
مُتعيّب من يعلو عليك بفضله ... وتعيد في حقي مقالَ الباطلِ

يشير بذلك الى أنه ابن أمة ، وأنه لا يلقى الاّ مرتبتها التي هي مرتبة الموالي . وكان اسمها مراجل ؛ قيل أهداها للرشيد عليّ بن عيسى بن ماهان فوهبها الى زبيدة ثم ردتها عليه في عشرة جواريَ ، منهنّ فاردة أمّ المعتصم ومراجل هذه أمّ المأمون . وقد تقدّم ذلك عند ذكر دنانير في الباب الأول في خلافة الرشيد .

وذكر صاحب عيون التواريخ وغيره أنّ المأمون مرّ يومًا على زبيدة أمّ الامين بعد قتل الامين ابنها فرآها تحرّك شفتيها بشيء لا يفهمه ، فقال لها : يا أمّاه ، أتدْعين عليّ ، كوْني قتلتُ ابنك وسلبته ملكه ؟! قالت : لا والله يا أمير المؤمنين ! قال : فما الذي قلته ؟ قالت : تَعْفيني يا أمير المؤمنين ! فألحّ عليها وقال : لا بدّ أن تقوليه . قالت : قبّح الله الملاحَحَة ! قال : وكيف ذلك ؟ قالت : لأني لعبت يومًا مع أمير المؤمنين الرشيد الشطرنج على الحُكْم والرِّضى. فغلبني . فأمرني أن أتجرّد من أثوابي وأطوف القصر عُرْيانة ؛ فاستعفيته فلم يعفني ، فتجرّدت من أثوابي وطُفت القصر عريانة ، وأنا حَنِقَة عليه . ثم عاودنا اللعبَ فغلبته فأمرته أن يذهب الى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها فيه ! فاستعفاني من ذلك ، فلم أعفه . فبذل لي خراج مصر والعراق فأبيْت وقلت : /96ب/ والله لتفعلنّ ذلك ! فأبى فلحَحْت عليه وأخذت بيده

وجئت به المطبخ فلم أر جارية أقبح ولا أقذر ولا أشوه خلقة من أمّك مراجل ، فأمرته أن يطأها فعلِقتْ منه بك ، فكان سببًا لقتل ولدي وسلْبِه ملكَه . فولّى المأمون وهو يقول : لعن الله الملاححة ، [أنا] الذي لححْتُ عليها حتى أخبرتني بهذا الخبر. ولقد بلغني على خلاف هذه الرواية . انتهى .

مؤانسة إخوان ومسامرة خلاّن

قال في كتاب لب اللبيب لابراهيم الأشعري إن محمّدًا الامين قال يومًا للحسن بن هانىء : حدثني بأغرب ما رأيته أو سمعته ؛ فقال : يا أمير المؤمنين حججتُ سنة ، أنا والفضل بن الربيع ، في أيام الرشيد حتى صرنا ببلاد بني فزارة في أوائل أيام الربيع ، فنزلنا منزلا ذا روض أنيق ، ونبت رشيق ، وتراب كالكافور ، وقد حل بنواحيها النور ، وذلك حين اكتست الارض عميم نبتها الزاهر ، وألقحتْ بأنواع حسنها الباهر ، وقصّر عن حسنها ووصفها النمارق المصفوفة والزرابي المبثوثة ، فزانت بزهرتها الابصار ، وترادفت ببهجتها الانوار، وارتاحت القلوب والافكار ، وابتهجت بنسيمها بهجة الاطيار وطابت بنسماتها مجامع النفوس والاوطار ، فلم تلبث أن أقبلت السماء فانهلت ، وانشقّت ثُرياها وتدلّت ، وتدانى من الارض ركام سحابها وٱخضلّت ، كما قال عُبيد بن الأبرص :

دار منيف فُويق الارض مُشْرفة /97/ يكاد يرفعها من قام بالرَّاحِ

ثم همَلت السماء برَدًا هاطلا ورشًا وابلا ، حتى تركت بقاع الارض كالوهاد ثم أقلعت والغدران مُتْرعة تتدفق ، والقيعان مُخْضلة تتأنّق ، والرياح عبِقة والرياض مغدقة ، والحدائق مُونقة والاشجار مورقة ، فسرّحت طرفي منها في أحسن منظر ، واستنشقت من رياضها أطيبَ من المسك الأذْفر ، ثم قلت لزميلي : امض بنا الى هذه الخيام ، لعلنا نجد من عندها خبرًا نرجع به الى بغداد . فسرنا جميعًا حتى انتهينا الى أوّلها وإذا بخِباء على بابه جارية متبرْقعة ، وهي

ترنو بطرف مريض وسْنان ، قد حُشي فتورًا وامتلا سحرًا ، فقلت لزميلي : والله إنّ هذه لترنو بمقلة لا رُقْيةَ لسليمها ، ولا برء لسقيمها ، فهل لك أن تستنطقها ولو استسقيناها ماء حتى يكون سببًا لكلامها ؟! ثم بلغنا ، فاستسقيناها ماء فقالت : نعم حبًّا وكرامة ، وإن نزلتما فعلى الرّحب والسلام! ثم قامت تتهادى كأنّها غصنُ بانٍ ، أو قضيب خيزران ، يتمايل من خلفها كِفْلٌ رجراج يترك قلب ناظره مهتاجْ . فراعني ما رأيته منها ثم أتت بالماء فشربتُ ثم صببت فضلته على رجليّ ، ثم قلت لصاحبي : هل لك أن تتعرّض الى كشف وجهها ! فقال : ومن لي بذلك ؟ فلما عادت بالماء الى صاحبي وشرب قلت له: أفهمت يا أخي وسمعت معنى الذي يقول :

إذا بارك الله في مَلْبس ... فلا بارك الله في البُرْقعِ /97ب/
تريك بها أعينا للمها ... وتكشف عن منظر أشنعِ
فخلّيه عنك ولا تلبسيه ... فبئس المصاحب في المضجعِ

قال : فمضت مسرعة ، وأقبلت راجعة وقد أماطت البرقع ، ولبست خمارًا أسود وهي تقول :

ألا حيٌّ ركبيْ معشر قد أراهُما ... أطالا ولـمّا يعرِفَا مُنْتهاهما
هما استسقيا ماء على غير ظمية ... ليستمتعا باللّحظ ممن سقاهما
يذمّان إلْباسَ البراقع دائماً ... كما ذمّ شخصٌ سلعتين اشتراهما

قال الحسن بن هانيء : فشبّهت كلامها بعقود لها نظيمة ، وهي كالدرة اليتيمة ، ولها نغمة عذبة رخيمة ، لو خوطب بها الصمّ الصّلاد الصّلاد لأنبجس ماء الجلامد الصعاد ، لعذوبة منطقها وحسن وجهها ورونقها ، وجهها مضيء ، فيه حسن تنصرف اليه القلوب ، وتتألف اليه مُهج النفوس من ذات الشمال والجنوب ، ويعْزُب عن إدراكه فهم الألباب ، ويحار في نهاية صفته

أفكار الشيوخ والشباب ، فلم أتمالك أن خرَرْت لله ساجدًا ، وأطلت السجود من غير تسبيح ولا تقديس للمعبود . فقالت لي : أيها الانسان ارفع رأسك غير مأجور ، وآمض بحجِّك غير مبرور ، ولا تذم بعدها بُرقعًا ، فلربما آنكشف البرقع عمّا يصرف الكرى ، ويحلّ القوى ، ويطيل العناء من غير بلوغ إرادة ولا إدراك طلبة ولا قضاء وطر ، فإنما يكون الخطب المجلوب والقدَر المكتوب والأمل المكذوب . قال : فبقيت معتقَل اللسان عن الجواب ولم اهتد طريق الصواب . فآلتفتَ اليّ صاحبي لـمّا رأى كثرة /98/ هلَعي ، وطول جزعي ، وقال لي كالمسلّي لي عمّا رآه : ما هذه الخفّة من أجل بارقة وجْهٍ منه برقعه حسَن لا تدرى ما تحته ، أما سمعت قول ذي الرمّة :

على الوجه منها مسحة من ملاحة ... وتحت الثياب الخزي لو كان باديا

فقالت : قاتلك الله ، ما أنا ممّن ذهبتُ اليها هذا المعنى ، ولكنني كما قال الشاعر :

منعّمةٌ حوْراء يجري وِشاحُها ... على كَشْحٍ مُرتجٌ الروادف أهضمِ
لها بشَرٌ صاف وناهيك حُسْنه ... ويا حسن أُوصاف بأحسَن مِعْصمِ
كنانية الاطراف سعدية الحشا ... حجازية العينين طلبية الفَمِ
وكوفية في الحسن قد تمّ حسنها ... ورومية في اللون ظاهرة الدَّمِ
لها حُكْم لقمان وصورة يوسفٍ ... ونغمة داوود وعِفّة مريمِ

ثم رفعت ثيابها حتى بلغت منكبيها وجاوزت نحرها ، فإذا بقضيب فضة قد رُشّ بماء الذهب ، يهتزّ على مثل نَقَاء الرّمل ، وصدر كالوَدِيلة عليه كعبان كالرمّانتين ، وخِصْر لو رُمْت عقده لانعقد على كفل رجراج يقصر فهمي عن نعته وبلوغ صفته ، من تحته هَنٌ كأنّه أرنب جاثم أو جبهة ليث نائم ، وفخذين لفّاويْن وساقين خدلجين عرسان الحجْلين ، وقدمين مخصّرين كأنهما لسانين ؛

ثم قالت : ثكلتك أمّك ، أعارٌ على ما تَرى ! قلت : لا ، ولكنه سبب للقضاء المناح والموت الذباح ! فما أتممت كلامي حتى خرجتْ الينا عجوز من الخباء وقالت امضيا لشأنكما ، فإنّ قتيل هذه مطلول /98ب/ لا يؤدَّى ، وأسيرُها مكبولٌ لا يفدَّى ! فقالت الجارية : دعيهما ، فمثلهما كمثل غيْلان حيث يقول :

فإن لم يكن الاّ تعلُّلٍ ساعة   قليلا فَإني نافعٌ لي قليلها

فانصرفت العجوز وهي تقول :

فما لك منها غير أنك نايك   بعينيك عينيها وهل ذاك ينفعُ

فبينما نحن كذلك إذ ضُرِب الطبل بالرحيل ، فأنصرفنا وفيّ من الكمَد القاتل ، والكرَب الداخل ، والحزن الدائم ، والبلاء الملازم ، ما لا أجد له صفة ولا أقِفُ له على باب معرفة ، فأنشدت يقول :

يا حسرتي فما يحنّ فؤادي   أزِفَ الرّحيل لفرقتي وسهادي
من قبل أن أقضي الذي أمّلته   يا شقوتي وبليتي ورشادي
من ذا تَحمّل بعض ما حُمِّلته   قد ذاب منّي مُهجتي وفؤادي

قال أبو نواس : فارتحلنا ، فلمّا قضينا حجّنا وانصرفنا وما تهنّأتُ بعيش في حجّتي ، ولا خلا قلبي عن ذكرها ، فلمّا بلغنا الموضع بعينه حططنا رواحلنا ، وقد تضاعف حسنه ، وزهرت بهجته ، فالتفتّ الى زميلي وقلت له : يا صاح هل لك في أن تمضي الى صاحبتنا بالأمس وتجدّد عهدا بها ؟! فساعدني الى ذلك وأجابني الى ما هنالك . فمشينا ، فما كان بأسرع من أن أشرفنا على الخيام فصعدنا ربوة يمّمنا الخباء فلم نرها ، فصعدنا ربوة أخرى خضيرة نظرة فإذا الجارية بين خمس جوار لا تميّزها من بينهنّ في الحسن والجمال ، وهنّ يجتنين من نوار الزّهر . فسلّمنا عليهنّ فرددن /99/ علينا السلام ، فلمّا رأتني الجارية

قالت : ألست صاحبنا بالامس ؟ قلت : أنا هو . فقلن لها : أهذا الذي وصفتِه لنا ؟ قالت : نعم ! فقلن لها : هل زوّدتيه شيئا ؟ فقالت : نعم ، لحدًا ضامرًا وموتًا حاضرًا ! فآنتهرَتْها أنظرُهنّ وجهًا ، وأشرقهنّ قدًا ، وأسحرهنّ طرْفًا وقالت : ما أحسنتِ اليه ندبًا ولا أوليته سبًّا ، ولقد أسأت في الردّ ، ولم تكافيه بالودّ ، فماذا عليك لو أسعفته بطِلْبته ، وأسرعتِ الى قضاء حاجته ، والآن المكان خال ، وليس معكما من ينمّ عليكما ! فقالت : والله لا أفعل ذلك أبدًا أوْتُشْركَنّي في حُلوه ومره ! فقالت لها : تلك إذًا قسمةٌ ضيزى ، تتعشّقين أنت ويفعل بي أنا ! فقالت لهنّ أخرى : لقد أطلتنّ الخطاب في غير رشَدٍ ولا صواب ، بل اسألوا الرجل أولا عن بغيته ، فلعلّ ما أنتنّ فيه ليس بقصده ولا طلبته . فقلت لها : بل إياه قصدتُ وعليه اعتمدت . فقالت : والله ما قصْدُك سواه ولا طلبتك غيره ؟ قلت : أي والله ، وقد علم الله منّي ذلك . فقالت : حيّاك الله وقرّبك ، وزادك في حبك ، فمن يكون الرّجل وما اسمك ؟ قلت : أما الاسم فالحسن بن هانيء ، وأما البلد فالعراق ، وأمّا ممن فمن سعد العشيرة ، وأحد شعراء السلطان الاعظم هارون الرشيد ، ومِمّن يقرب مجلسه ويشتغل به لسانه وجَنانه ، وقد أحرقت صاحبتكنّ هذه كبدي ، وأذابت جسدي ، وسلبت عقلي وأذهلت لبّي ، ومنعتني القرار حتى وصلتُ الليل بالنهار . فقالت : أصبت يا أبا الحسن النطقَ وحسن اللهجة والصدق ، /99ب/ وأرجو أن تبلغ أُمنيتك ، وتعطى طلبتك إن شاء الله تعالى . ثم أقبلتْ اليهنّ وقالت لهنّ : عن هذا يرغب ، فتعالين نشترك أونقترع عليه ! ثم قالت لي : أريد أن أسألك . فقلت لها : قولي ما بدا لك ، وأوجزي في سؤالك . قالت : في صَبْوتك بي وحبّك لي أقُلْت فيّ شيئًا من الشعر ؟ فقلت : نعم ! قالت : فبالله إلا ما أنشدتنا . فأنشدت أقول :

حججت رجاء العفو والأجر قاصدًا   لحطّ ذنوبي من ركوب الكبائرِ

فأُبتُ كما آب الشقيّ بخُفّه حنينٌ ولم أعقل بتلك المشاعرِ
فلما رجعنا قلت سُؤْلي لقاؤها وإن لم تزرني زُرت أهل المقابرِ

فقالت : وأيم الله لقد أحسنت ! ثم قالت واحدة منهنّ : بالله لا خالفت ما قال . وقالت أخرى : قد سمعتنّ مقالة صاحبنا ، وقد نزل به من الأمر ما ترين . ثم قالت أخرى : والله لقد حملتموها على خطة دهياء ، وأشرفتنّ بها على خبطة عشواء ، بل أجيبوها الى ما دعتكنّ اليه من الشركة معها فيه ، فيكون أمركنّ في الحال سواء . قال الحسن بن هانيء : فلما سمعت منهنّ ذلك طابت نفسي وزاد فيهنّ أُنسي ، فقلت لهنّ : يكون حديثكنّ هذا ليس شبيهًا بالمحال ، وقد أنصف الغارة من قطعها في الحال ، وقد أطلتنّ الخطاب فقصِّرْن في الجواب وإذا اتفقتنّ على شيء فاتحجوه (كذا في الاصل) قبل أن ينشر في الناس ، فأجمع رأيهنّ على ذلك وظننت أنّ الأمر كذلك /100/ فقالت إحداهنّ : تقوم منكنّ واحدة . وضربت ثوبًا كان معها على باب غار كان قريبًا منّا . ثم قلن : بمن يبدأ ؟ فقالت واحدة : بهذه ! فقالت : لا ، الاّ بك أوّلا ، ولا تحاوِرْنَ في الكلام؛ فقلن لها : لا تُكْثِرن الخصومة ، ولكن يُقارِعْن ، فمن وقعت عليها القرعة بدأ بها ، وذلك أَرَبِي أن تَقْرَعْنَ ولاتحزنَّ . فتقارعن فوقعت القرعة عن أنظرهنّ وجهًا ، وأنعمهنّ خدًّا وأرحمهنّ ذلا ، وأحسنهن شكلا . فقلن لي : أُدخل الغار حتى نصلح من شأنها وندخلها عليك ! فدخلت انتظر دخول الجارية عليّ ، وقد حمِيَ جسدي وصار ذَكَري في يدي وانتفخ حتى صار كالْوَدْي ، وأصابني القلق الشديد والشوق العتيد . فبينما أنا كذلك إذ دخل عليّ عبدٌ أسود ، عظيم جسيم ، فلم يكد يسعُه الغار وهو يتشهّق كشهيق الحمار ، وكأنه سارية سُدّت بالغار وبيده شيء كأنه هراوة بغل بحَرّة ساوَه ! وقد أنْعَض ، وجعل يمتدّ ، فقلت له : ما تريد يا شرّ العبيد ؟! فقال : أُريد منك ما تريد من هؤلاء الجواري ، ولا بدّ من ذلك ! فحملني وطرحني على الارض ، وجعل يعالجني ولو على إدخال البعض ، فلمّا رأيت الدَّين دين سوء صِحت

الى صاحبي بأعلى صوتي ، وأنا والعبد في أعظم جهد ، وهو جالس على صدري. فوصل اليّ زميلي فخلّصني منه بالوفاء . وخرجت من الغار وإذا بهنّ يتهازلن ويتضاحكن ، فمضيت والله ولم أنل منهن منالا بعد أن كاد العبد يذيقني وبالا . فقلت لصاحبي : من أين أقبل العبد ؟ قال : كان تحت الرّبوة يرعى /100ب/ غنَمًا ، فنزلن اليه وجئن به حتى دخل عليك ، ولا علم لي بأمره حتى سمعتُ صياحك ، فأقسمت على صاحبي أن لا يبديه على أحد من الناس الاّ أن يكون الخليفة من بني العباس . فكنت لا أذكر هذه في جد ولا في هزل إلا استصعبته ولا أحضر شرابًا ولا لعبًا الاّ خطر ببالي فأضحك منه بيني وبين نفسي ، وهذا أعجب ما جرى لي يا أمير المؤمنين ، والله يكفي بكل إنسان سوءًا ! فضحك الأمين من كلامه وقال له : أنت فصيح الادباء ، وسيد الظرفاء ، وجامع محاسن الشعراء والخطباء ! ثم أمر له بعشرة آلاف دينار . انتهى .

روض أنيق ورياض رشيق

كان الحسن بن هانيء من ندماء الأمين وجلسائه ومادحيه ، وله فيه مدائح وأشعار ، منها قوله :

تضحك الدنيا الى ملك　　قام بالآثار والسنُنِ
سنّ للناس النّدى فندوْا　　فكأنّ البخل لم يكنِ

وقوله :

علِقْتُ بحبل من حبال محّمد　　أمِنتُ به من طارق الحَدَثانِ
تغطيت من دهرى فظَلّ صباحُه　　فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الايام ما اسمي ما درت　　وأين مكاني ما عرفْن مكاني

وقوله :

أنت الذي تاه الايدي بحجرته إذا الزمان على أبنائه كلحا

قال الخطيب : مدح أبو نواس محمد الامين واختصّ به وصار من ندمائه ، وبذلك كان أخوه المأمون يشنّع عليه /101/ ويقول : كيف هذا للخلافة وجليسه أبو نواس القائل في مجلسه كذا وكذا من الاشعار المطوية على الفسق والكفر !

وكان أبو نواس قد انفرد في زمانه بإتقان الشعر وإفراط المجون والتهتك . وقال أبو العتاهية : عِبته على المجون ، فقال :

أتراني يا عتاهي تاركا تلك الملاهي
أتراني مُفْسِدًا بالنُّسك عند القوم جاهي

فلمّا ألحُحت عليه قال :

لا ترجع الأنفس عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجرُ

فوددت أنّ هذا البيت لي بجميع ما قلته ، وعلمت أنه لا يُصْغي الى عذل ، ولم يزل على حاله في مجونه الى أن توفي رحمه الله تعالى . انتهى .

قال الخطيب وذكر ابن رشيق القيرواني (وصحته : الرقيق ، كما تقدم بيانه) في كتاب قطب السرور قال : رُفع الى محمد الامين أنّ أبا نواس زنديق ، وأنشدوه من قوله أشعارًا يدلّ على ما قُذف به فأحضره وبرّ بقتله فقال : ما ذنبي يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولك :

ألاَ فاسقني خمرًا وقل لي هيَ الخمْرُ
ولا تسقني سِرّا إذا أمكن الجهْرُ

قال : يا أمير المؤمنين ، أسَقاني ؟ قال : كذا أظنّ ! قال : أفتقتلني على ظنّ ،

وقد قال الله عزّ وجلّ : «إنّ بعض الظنّ إثم» ! ثم قال له : أفأنت الذي تقول :

ما جاءنا أحدٌ يُخبر أنه في جنّة قد مات أو في نارِ

قال : أفَجاءه أحد يخبر بذلك ؟ قال : لا ! قال : أفتقتلني على الصدق ! فسكت ثم قال له : أفأنت الذي تقول : /101ب/

يا أحمد المرتجى في كلّ نائبة قمْ سيدي نَعْصِ جبّار السماواتِ

قال : أفَقام يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أدري ! قال : أفتقتلني على أن لا تدري ! فقال الامين : أطلِقوه ، فلو أُوجب عليه القتل ما كان في حقّ المروءة أن يُقتل مثله . ثم نادمه بعد ذلك وحظي عنده وكان لا يصبر عليه . انتهى .

كان أبو نواس يقول :

يقولون في الشيب الوقارُ لأهله وشيبي بحمد الله غير وقار
إذا كنت لا أنفكّ من أريحيّة الى رشاء يسعى بكأس عقار

وكان يقول أيضًا :

ظلت حُميّا الحبّ مُستنبطُنا حتى تهتكتْ بيننا السُّترُ
في مجلس ضحك السرور به عن ماجديّة وحلّت الخمرُ
ولقد تجوّب في الفلاة إذا صام النهار وقالت العفرُ
سنديّة رعَتْ الحِمى فأُتتْ ملا الحبال كأنّها قصرُ
تسعى اليك بها بنو أمل عتبوا فأعتبهم بك الــدهرُ
أنتَ الخصيب وهذه مصر فتدفّقا فكِــلاكما بحــرُ

ذكر بعض العلماء أنّ في قوله «وحلّت الخمر» أربعة أوجه ، **الاول** أن طيب المكان وتكامل السرور صار مقتضيًا شرب الخمر ومُلْجأً الى تناولها ودافعًا لا يُخرج فقيها على مذهب الشعراء في المبالغة ، وفائدة وصفها بأنها

حلّت المبالغة في وصف الحال الحسن ؛ والثاني أن يكون آلى على نفسه أن لا يتناول الخمر الاّ بعد الاجتماع بمحبوبه ، وكأن /102/ الاجتماع باء ، فخرج على عادة العرب ، وعلى ذلك قول امرىء القيس :

حلّت لي الخمر وكنت امرءا عن شربها في شغل شاغل

والثالث يريد بحلّت ، نزلت من الحلول لا من الحلال ، كأنه وصف بلوغ آرائه وأنها تكاملت بحضور الخمر ؛ والرابع أننا استحللنا الخمر بسكرنا وذهولنا .

وكان يقول أيضًا :

دع عنك لومي فإنّ اللومَ إغـراء وداوني بالتي كانت هي الـدّاءُ
صفراءُ لا تنزل الاحزان ساحتها لو مسّها حجَرٌ مسّته سـرّاءُ
دارتْ على فِتْية ذلّ الزمان لهم فلا يصيبهم الا بما شـاءوا
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلـة كانت تحلّ بها هند وأسمـاءُ
فقل لمن يدعي في الحب معرفة عرفت شيئا وغابت عنك أشياءُ

وكان يقول أيضًا :

فللرّاح ما زَرّتْ عليه جُيوبهم وللماء ما دارت عليه القلانسُ

وكان يقول أيضًا :

كيف النّزوع عن الصّبا والكأس قسّم ذا لنا يا عـاذلي بقياس
قالوا كبرت فقلت ما كبرت بذي عن أن تجيء الى فمي بالكاس

فكان الجاحظ يقول : وجدنا الشعراء يجاذبون المعاني الاّ قول عنترة في وصف الدباة :

هزِجًا يحُكّ ذراعه بذراعه   قدْحَ المكبّ على الزِّناد الأجذم

وقول أبي نواس يصف الكأس يعني هذه الابيات السينية ؛ فإنّ أحدًا من الشعراء لا يجسر على التعريض لهما . انتهى . /102ب/

وذكر ابن خلكان في ترجمة أبي نواس قال قال المأمون : لو وصفت الدنيا نفسًا لما وصفت بمثل قول أبي نواس :

ألاَ كلّ حيّ هالكٍ وابن هـالك   وذو نسب في الهالكين عريقِ
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفتْ   له عن عدوّ في ثياب صـديقِ

قال : ومن أحسن ما أتى به من المعاني وأغربها ويدلّ على حسن ظنه بالله عزّ وجلّ قوله :

فكثّر ما استطعت من الخطايا   فإنك بالغ ربّا غفـورا
ستُبصر إن وردت عليه عفـوًا   وتلقى سيّدا مِلِكا كـبيرا
تعُضّ ندامـة كفّـيْك مما   تركت مخافة النار الشّرورا

انتهى .

وكان أبو نواس يقول أيضًا :

لقد اتّقيتَ الله حقّ تُقـاته   وجاهدت نفسك فوق جهد المتّقي
وأخفت أهل الشِّرك حتى أنه   لتخافك النُّطَف التي لم تخلقِ

فاحتج له بعض العلماء في هذين البيتين بأنّ الانسان إذا خاف شيئاً خافه لحمه ودمه وكأنّ الاعداء خافته ونطفها في ذلك الوقت دم ، فخافته . وقال آخر خافته ذرية آدم عليه السلام ، منذ أخذ الله تعالى عليهما الميثاق وهي في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وحكى بعضهم أن سليمان بن المنصور دخل على الأمين فرفع له أنّ أبا نواس هجاه ، وأنه زنديق ، وأشار عليه بقتله فقال له : يا عمّ كيف أقتله

وهو القائل :

صدق الثناء على الأمين محمّدٍ ... ومن الثناء تكذُّبٌ وتخرُّصُ
فإذا بنو المنصور عُدّ حِصاؤهم ... فمحمّد ياقوتها المتخلّصُ

فغضب سليمان وانقطع عن الأمين ، فأمر الأمين بحبس أبي نواس فكتب اليه أبو نواس من السجن :

تذكّر أمين الله والعهد يُذكر ... مقامي وإنشاديك والناس حُضّرُ
ونثري عليك الدرّ يا دُرّ هاشم ... فيا من رآك أعلى الدرّ ينثرُ
ومن ذا الذي يرمي بسهمك في العلى ... وعبد مناف والداك وحميرُ
فإن أكُ لم أذنب ففيم عقوبتي ... وإن كان لي ذنب فعفوك أكبرُ

فلما قرأ الأمين الابيات قال : أُخرجوه ولو غضب وُلْد المنصور كلهم ! انتهى .

ولأبي نواس أشعار في الغزل والمدح والهجاء منها قوله في الغزل :

مرّ بنا والعيون ترمقه ... يخرج منه مواقع القبلِ
أفرغ في قالب الجمال فما ... يصلح الا لذاك العملِ

وقوله في الهجاء :

ما أنت بالحرّ فتُلْحَى ولا ... بالعبد يُرْجى نفعه بالعَصَا
فرحمة الله على آدم ... رحمة من عمّ ومن خصّصَا
لوكان يدري أنه خارج ... مثلك من إحْليله لأختصَى

ومن شعره :

أيها العاتب في الخمـ ... ـر متى كنت ساقيها /103ب/

ومن شعره ، يعني ابراهيم النظام :

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة حسبْت شيئا وغابت عنك أشياءُ
لا تحظر العفو إن كنت امرءا فطِنًا فإنّ حظركه بالديـن إزراءُ

ومن شعره في الزّهد :

ألا ربّ وجه في التراب عتيق ويا ربّ حسن في التراب دقيقِ
إذا اختبر الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوّ في ثياب صديقِ

قلت وقد تقدمت هذه البيت الاخيرة على غير هذه الرواية ، ولعلهما روايتان فيراجع ويحرر .

ومن شعره أيضًا :

ذريني أكبرحاسد بك بـرجله الى بلد فيه الخصيب أميرُ
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا والا فإني عـــاذر وشكورُ

ومن شعره :

قالوا ظفرت بمن تهوى فقلت لهم الآن أطول ما كانت صبابـاتي
لا عذر للصبّ إن تهوى جوارحه وقد تطعم قـوة بالمـوآتـات

ومن شعره أيضًا :

ألم تربي أفنيْتُ عمـــري بمطلبها ومطلبهـا عسـيرُ
فلما لم أجد شيئا اليهـــا يغرِّمنـي وأعيتْني الأمـورُ
حجبت وقلت ورحجت جنان سيجمعني وأيـاها المسـيرُ

ومنه :

يا كبير الروح في الدِّمن لا عليها بل على السَّكن /104/

سنة العاشق واحـدة فإذا أحببت فاستتـر
ظنّ لي مرقد كلفتُ بـــه وهو يجفوني على الظّنَنِ

قال الملك المؤيد في المختصر : ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة وفيها مات أبو نواس الحسن بن هانىء الشاعر . وكان عمره تسعًا وخمسين سنة . انتهى .

ونقل الخطيب البغدادي أنه توفي ببغداد سنة مائتين . والظاهر أنّ الثاني هو الصواب ، لأن أبا نواس يحكي أنه أدرك مقتل الأمين ، ورثاه بقوله :

طوى الدّهر ما بيني وبين محمّد وليس لما طوى المنيةَ نــاشرُ
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذرُ

ومقتل الأمين كان سنة ثمان وتسعين ، كما حكاه المؤيد ؛ فلا يتصوّر وفاة أبي نواس قبل ذلك ، والحال أنه رثى الأمين ، والله أعلم .

ونقل الخطيب أن أبا نواس مات هو ومعروف الكرخي في يوم واحد . فخرج مع جنازة معروف نحو ثلاثمائة ألف ، ولم يخرج مع جنازة أبي نواس غير رجل واحد ! فلما دفن معروف قال قائل : أليس جمَعنا وأبا نواس الاسلام ؟! فرجع الناس فصلّوا على أبي نواس ، انتهى .

قال المؤيد ثم دخلت سنة مائتين وفيها أمر المأمون أن يحصى ولد العباس فبلغوا ثلاثًا وثلاثين ألفًا ، ما بين ذكر وأنثى . وفيها توفي معروف الكرخي الزاهد ، صاحب الكرامات ، وكان أبو معروف نصرانيًا ، انتهى .

وحكى بعضهم أنّ أبا نواس رئي في المنام فقيل له : /104ب/ ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بصلاة الذين صلوا على معروف وعليّ !

ووصّى أبو نواس أن يكتب على قبره :

وغطتك أجداث صمت ونعتك أزمنة حتف

يا ذا المنى يا ذا المنى عش ما بدا لك ثم مت

وحكى ابن رشيق القيرواني أنّ محمّدًا بن رافع قال : رأيت أبا نواس في المنام بعد موته ، فقلت له : يا أبا نواس ؟ قال : لاتَ حينَ كنّيته ! قلت : الحسن بن هانىء ! قال : نعم ! قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بأبيات قلتهنّ في علّتي قبل موتي ، هي تحت الوسادة . فأتيت أهله فقلت : هل قال أخي شعرًا قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم ، الاّ أنه دعا بدواية وقرطاس وكتب شيئا لا ندري ما هو . فدخلت ورفعت وسادته فإذا برقعة مكتوب فيها :

يا ربّ إن عظمتْ ذنوبي كثرة فلقد علمت بأنّ عفْوك أعـظمُ
إن كان لا يرجوك الاّ محـسن فمن الذي يدعو ويرجو المجرمُ
أدعوك ربّ كما أمرت تضرُّعًا فإذا رددت يدي فمن ذا يـرْحمُ
ما لي إليك وسيلة الاّ الرّجا وجميل عفْوك ثم إني مسلمُ

قال : وسئل أبو نواس عن نسبه فقال : أغناني أدبي عن نسبي . وتوفي رحمه الله سنة أربع وتسعين ومائة ، انتهى وهذا مخالف لما تقدّم عن المؤيد والخطيب .

ذكر في تاريخ العسقلاني عن ابراهيم بن المهدي أنّه قال : غضب عليّ محمّد الأمين وسلّمني الى كوثر الخادم ، فحبَسني /105/ في سِرداب . فقمت فيه ليلتي فخرج اليّ شيخ من زاوية السرداب وقدم بين يديّ وسَطًا وقال : كلْ ! فأكلت . ثم أخرج قنّينة شراب ، وقال : اشرب ! فشربت ثم قال : غنّ !

لي مدة لا بدّ أبلغها معلومةٌ فإذا انقضتْ مُتُّ
لو ساورتْني الأسْد ضارية لغلبتها مالم يجِي الْوَقْتُ

فغنّيته ، فسمعني كوثر . فمضى الى الأمين وقال له : قد جُنّ عمّك ، وقد غنّى بكيت وكيت ! فأمر بإحضاري فأخبرته بالقصة ، فعجب من ذلك وأمر

لي بسبعمائة ألف درهم ورضي عني . انتهى .

وقالت أسماء بنت المهدي : حلَف لي أخي ابراهيم وأغلظ في اليمين ، وقال : ظهر لي إبليس وعلّمني النغم والنّقر وصافحني وقال : اذهب فأنت منّي وأنا منك ! انتهى .

وقال محمّد بن موسى المنجم : كنت أرى ابراهيم بن المهدي إذا غنّى في مجالس الخلفاء لم يبق من الغلمان الصغار والكبار أحدٌ الاّ ترك ما في يده وقرّب اليه يسمعه ، ولا يزال مصغيًا اليه لاهيًا عمّا كان فيه الى أن يسكت ، فيرجع كلّ واحد الى شغله ولا يلتفت الى غناء غيره . وكان (ويذكره فيما بعد ص 274أ) الناس يقولون لم نر في جاهلية ولا في اسلام أخًا وأختًا أحسن غناء من ابراهيم بن المهدي وأخته علية ! انتهى .

وكان إذا ابتدأ يغني صغَت الوحوش اليه ، ومدّت أعناقها ، ولم تزل تدنو اليه حتى تكاد أن تضع رؤوسها على الصفة التي يكون عليها ، فإذا سكت نفرتْ وبعُدت حتى تنتهي الى أبعد غاية يمكنها التباعد عن الناس .

وكان حاذقًا /105ب/ في الغناء ، واشتهر بذلك ، وبذَل نفسَه وما تحاشى ولا تستّر . وكان في أوّل أمره لا يفعل ذلك الا على حال تُصان عنه ؛ وعند الرشيد في خُلْوة والامين بعده . فلمّا أمّنه المأمون تهتّك بالغناء وشرب في حضرته .

وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات مع حُسْن الصوت . وكان إذا عيب عليه ذلك قال : أنا ملك بن ملك ، إنما أغنّي كما أشتهي !

ودخل يومًا مع جماعة المغنين الى الأمين وهو مخمور فغناه :

وكأس شَرِبْت على لذة وأخرى تداويتُ منها بها

فاستوى الأمين جالسًا وطرب طربًا شديدًا ، ودعا برطل فشربه ، وامتدّ في شربه ولم يسمع مثل غناء ابراهيم يومئذ قط ؛ ولقد رأى الناس منه عجبًا لو

حُدّثوا به لما صدّقوا (وأورد الدر هنا قصة الوحش الذي يصغي اليه ، وقد تقدمت) ، وبقي الأمين يتعجب من ذلك وأمر للناس بالجوائز ، وكان يومًا مشهودًا لم يُر مثله قط . كذا حكاه الأصفهاني .

وذكر العلامة الزمخشرى في ربيع الابرار روضة الاخيار أن ابراهيم الصولي قال : رأيت ابراهيم بن المهدي في هذه الدار يعني دارالخلافة في خمس طبقات ، رأيته في أيام الهادي والرشيد والامين والمأمون في طبقة الخلفاء ، ثم رأيته خليفة ثم رأيته في مرتبة العامة ، ثم رأيته في مرتبة الندماء ، ثم رأيته في أيام المعتصم في مشايخ بني هاشم . انتهى .

وذكر صاحب الأغاني في ترجمته : أنه ابراهيم بن المهدي بن أبي جعفر المنصور ، يكنّى /106/ أبا اسحاق وأمّه شَكلة ، كان أبوها من أصحاب المازيار ، قتل وسبيت بنته ، وحملت الى المنصور ، فوهبها لامّ ولد له . فلمّا كبرت رآها المهدي فأعجبته فطلبها منها فأعطته إياها فاستولدها ، وجاءت بابراهيم هذا . وشكلة بفتح الشين المعجمة وكسرها وسكون الكاف وفتح اللام وكانت جارية سوداء ، فجاء ابراهيم ابنها أسود اللون ، ويسَمّونه غراب بني العباس ! وكان مع سواده عظيم الجثة ولهذا قيل له التنين . انتهى .

وفي تاريخ العسقلاني : كان ابراهيم غليظ الشفتين طويلا ، ولذلك قيل له ذو جسمان . وسَمّى نفسه المبارك والمرْضيّ ، وسمّاه المأمون المخذول والناكث ، وتلقّب بالحسّان ، وكان من أحسن الناس حديثًا . انتهى .

وفي الأغاني أيضًا قال البدري : وكان ابراهيم وافرَ العقل ، غزير الادب واسع النفس ، سخي الكفّ . ولم ير في الخلفاء قبله أفصح منه لسانًا ولا أحسن شعرًا . انتهى .

وكان ابراهيم بن المهدي شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . قال ابراهيم بن المهدي : رأيت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم فقلت له : إنّ الناس قد أكثروا فيك وفي أبي بكر وعمر رضي الله تعالى

عنهما ، فما عندك في ذلك ؟ فقال لي : إِخْسَهْ ! ولم يزدني على ذلك .

وقال ابراهيم يومًا للمأمون : إني رأيت في النوم عليًّا رضي الله تعالى عنه ، فقلت له من أنت فأخبرني أنه عليّ ، /106ب/ قال فمشينا حتى أتينا قنطرة ، فذهب يتقدّمني لعبورها فأمسكته وقلت له : إنما أنت رجل تدّعي هذا الامر بآمْرأة ونحن أحقّ به منك ! فما رأيت في الجواب بلاغة كما يوصف عنه . فقال له المأمون : فأيّ شيء قال لك ؟ قال : مازادني على أن قال «سلامًا سلامًا» ؛ فقال له : قد والله أجابك أبلغ جواب ! قال : وكيف ؟ فقال له : عرّفك أنك جاهل ، لا يجاب مثلك ؛ قال الله عزّ وجلّ : «إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا» . فقام ابراهيم وقعد وقال : ليتني لم أحدّثك بهذا ! فضحك المأمون منه ومن انزعاجه . انتهى .

وكان الأمين له حبّ مفرط بأصحابه وجلاّسه ، ولا سيما ابراهيم بن المهدي . قال ابراهيم : إني كنت عند الأمين فقلت له : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ! فقال : بل جعلني الله فداك ! فأعظمت ذلك منه فقال : لا تعظمه ، فإن لي عمرًا لا يزيد ولا ينقص ، فحياتي مع الاحبّة أطيب من تجرّعي فقدهم ، وليس يضرّني عيشُ من عاش بعدي منهم .

وجرى بين محمّد الأمين وبين ابراهيم بن المهدي كلام على النبيذ فوَجَدَ عليه محمّد ، فلمّا كان بعد أيام بعث اليه ابراهيم بألطاف ، فلم يقبلها ، فوجه اليه وصيفةً مغنية ، معها عود من عود والقى عليها صوتًا وقال لها : غنّيه به ! فوقفت بين يديه وقالت : عمك وعبدك يا أمير المؤمنين يقول لك ، واندفعت تغنيه :

هتكتَ الضمير بردّ اللطف — وكشفتَ هجرك لي فأنكشفْ /107
فإن كنت تُنْكر شيئا جرى — فهبْ للخلافة ما قد سلَفْ
وجدْ لي بفضلك عن زلـتي — فبالفضل يأخذ أهلُ الشرَفْ

فقال لها : أحسنت يا صبية ، فما اسمك ؟ قالت : هدية ! قال فأنت كاسْمِك أمْ عاريةٌ ؟ فقالت : بَل أنا كاسمي ، وبه سمّاني آنفًا . فسُرّ بذلك الأمين وبعث الى ابراهيم ، فحضر وأمر له بخمسة آلاف دينار وتمّم يومه معه . انتهى كذا في تاريخ العسقلاني .

وذكر الأصفهاني أنّ ابراهيم بن المهدي لـمّا استتر من المأمون ، عند بعض أهله من النساء وُكّلت بخدمته جاريةٌ جميلة ، وقالت لها : إن أرادكِ لشيء فلا تمنعيه ! فكانت تُوفيه حقّه من الخدمة والتعظيم ، ولم تُعلِمه بما قالت لها مولاتها ؛ فجلّ مقدارها في نفسه الى أن قبّل يدها يومًا فقبّلت الجارية الارض بين يديه فقال :

يا غزالا لي إليـه شافعٌ من مُقْلتيــه
والذي أجْلَلْت خدّ يْه فقبّلت يديــه
بأبي وجهُــك ما أكثر حُسادي عليه
إنّني ضيف وحَقّ الضيف إكرام اليه

انتهى .

وذكر في ربيع الأبرار وتحفة الأخيار أنّ اسحاق الموصلي أنشد ابراهيم بن المهدي حين حُبس :

هي المقادير تجري في أعنّتها فاصبر فليس لها صبْرٌ على حالِ
يومًا ترى خسيس الحال ترفعه الى السماء ويومًا تخفِض العالي

قال : فما أمسى حتى وردت عليه الخلع من المأمون ورضي عنه . انتهى .

وقال علي بن الحسين الشيباني : دخل محمّد /107ب/ بن حازم على ابراهيم بن المهدي ، وقد نسَك وترك الشراب ، فأمره أن يشرب معه فأبى وأنشد :

أبعد خمسين أصبو والشيب للمرء حرْبُ

سنّ وشيب وجـــهل أمرٌ لعمرك صعبُ
يا ابن الامام فـــهلاّ أيامَ عودي رطـــبُ
وشيبُ رأسي قليـــل ومنْهلُ الحبّ عــذبُ
وإذا شفاء الغوانـــي منّي حديث وقـــربُ
فالآن لـمّا رآنـــي عواذلي ما أحـــبُّوا
واقصر الحمل مني وساعد الشيب لـــبُّ
آليت ما أشرب كأسًا ما حج لله ركـــــبُ

انتهى .

لطيفة

قال ابراهيم بن المهدي : كنت مع الرشيد في سفينة والشطرنج بيننا وهو يريد الموصل ، فقال لي : ما أحسن الأسماء عندك ؟! فقلت : محمّد ، اسم النبي ﷺ . قال : ثم أيّ شيء ؟ قلت : هارون ، اسم أمير المؤمنين . قال : فما أسمج الأسماء ؟ قلت : ابراهيم ! فزجرني وقال : ويحك ، كيف تقول هذا وابراهيم خليل الرحمان ! فقلت له : لشؤم هذا الاسم لقيَ من نمرود ما لقي وطرح في النار ! قال : وابراهيم ، ابن النبي ﷺ . قلت : لا جرَمَ ، إنه لم يعمّر ! قال : فابراهيم الامام . قلت : تحرفه اسمه ، قتَله مروان في جراب النورة ! وأزيدك يا أمير المؤمنين : ابراهيم بن الوليد خلع ، وابراهيم بن عبد الله بن حسن قتل ، وابراهيم ابن عمه سقط عليه السجن فمات ، /108/ وما رأيت والله أحدًا اسمه ابراهيم إلاّ قُتل أو نُكب أو رأيته مضروبًا أو مقذوفًا أو مظلومًا ! فصاح ملاحٌ ونحن في الحديث : ويلك يا ابراهيم مدّ ! ثم كرّر عليه القول . فقلت له : بقي شيء بعد هذا ، والله ما في الدنيا اسم أشأم من ابراهيم ! فضحك الرشيد حتى استلقى . انتهى ، كذا في تاريخ العسقلاني .

مسامرة إخوان ومساهرة خلان

قال ابن جرير : لـمّا ملك الأمين ابتاع الخصيان وغالى بهم ، وصيّرهم لجلوسه ، ورفض النساء والجواري ، ومحق ما في بيوت الاموال وضيّع الجواهر والنفائس ، وبنى عدة قصور للهو في أماكن . انتهى .

قال ابراهيم بن المهدي وجّه اليّ الأمين عند محاصرة طاهر بن الحسين بغداد ، فصرت اليه ، وهو في قصره ، مشرفٌ منه على دجلة ، وكانت ليلة أربعة عشرة . فقال لي : يا عم ، أما ترى طيب هذه الليلة وصفاء الجوّ وحسن القمر في دجلة ! فقلت : يا أمير المؤمنين طيّب الله عيشك ، وأعزّ دولتك وأكبّ عدوّك ! ثم اندفعت أغنيه لِما أعرف من سوء خُلقه فقال : هل لك يا عم من يضرب عليك ؟ فقلت : ما أكره ذلك ! فأحضر جارية تسمى ضُعف ، فتطيّر من اسمها ، فقال لها : غنّي ! فكان أول ما غنّت :

بني هاشم ردوا صلاح أخيكمُ ... ولا تنهبوه لا يحلّ مناهبه
بني هاشم ألا تردّوا فإننا ... سواء علينا قاتلاه وسالبه /108ب/
بني هاشم كيف الهوادة بيننا ... وعند عليّ سيفه ونجائبه

فقال لها : ويحك ، إنما دعوتك لأسَرّ بك مع عمّي ، فقد زدتني غمًّا ! فاندفعت تغني هذه الابيات :

أما وربّ السكون والحركة ... إن المنايا سريعة الدركِ
ما أخلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء في فلكِ
ألا بنقل النعيم عن ملك ... قد انقضى ملكه الى ملكِ
ومُلك ذي العرش دائمًا أبدًا ... ليس بفان ولا بمشتركِ

فقال لها : يا مشؤومة ، أما تحسنين غير هذا ! فقالت يا سيدي والله ما طلبت الاّ سرورك ، ولكن ما جرى على لساني غير هذا ! فقال : ويحك غنّي !

فقالت :

أبْكَى فراقهمُ عيني وأرّقـها ... إنّ التفـرّق للعُشاق بكاءُ
مازال يعدو عليهم ريْب دهرهمُ ... حتى تفانَوْا وريبُ الدّهر عَدّاءُ

فقال لها : ويحك ، غنّي في غير هذا المعنى ! فاندفعت تغنّي :

هذا مقامُ مُطْرد ... هُدمت منازل دوره

فقطع عليها ورماها بعمود ، كان بين يديه ، فوقع على قدح بلّور كان معجَبًا به ، وكان يسميه الأمين باسمه ، لاستحسانه إياه فاندقّ القدح وقامت الجارية فانصرفت ؛ فقال : يا عمّ ، والله فنِيَت الايام وانقضت المدة . فهو يكلّمني وإذا بقائل يقول من وراء دجلة : «قُضي الامرُ الذي فيه تستفتيان» فقال : سمعت يا عمّ ! فقلت : يا سيدي ما سمعت شيئًا ! وأُعاد الهاتف القول /109/ مرارًا فما خرجت الجمعة حتى قتل الأمين ، رحمه الله تعالى .

عايقة زهو وعاقبة لهو

قيل إن الأمين كان يلقب بالقائم بالملك ، ويلقب بالمخلوع أيضًا ، ولذلك يقول فيه طاهر بن الحسين أبياتًا فيه حين قتله :

حصَرْتُ المترَف المخلوع حتى ... تسحَّب بالدّماء منه إزارًا

وأصل هذا اللقب ما حكاه التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة قال : حدّثني عليّ بن الفتح الكاتب المعروف بالمطرّق قال : أخبرني أحمد بن يوسف التنوخي عنه في كتاب مناقب الوزراء ومحاسن أخبارهم وعما شاهد أحمد بن يوسف ؛ من ذلك جماعةٌ حدّثني ممّن شاهد الحال منهم : أن الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان لما توجه الى بغداد ومكث بها أيامًا لم يشعر به محمّد الأمين ، لما هو عليه من الانهماك واللهو . وكان الحسن بن علي المذكور يأتي كلّ يوم

الى باب الأمين فلا يتصل اليه ، فداخلته الحميّة فوثب على الأمين وخلعه من الخلافة وحبسه هو وأمه في دار محمّد بن صالح ، وعزم على أن يُنْفذ الى المأمون بما هو راغب فيه ، ثم إن الجيش طالبوه بأرزاقهم ، فلم يكن معه ما يعجّله لهم ، فوعدهم ، فشغبوا ولم يرتضوا بالوعد ، وأخرجوا الأمين من حبسه ، فبايعوه ثانيًا ، وردوه للخلافة وهرب الحسين بن علي المذكور ، وزالت الشدة على الأمين . وهذا سبب اللقب والقصة مشهورة ، رواها أصحاب التواريخ بما يطول /109ب/ اقتصاصها هنا الا أنه لم يجلس على سريره آخر غيره . انتهى .

ومما يناسب هذا المقام ، ويندرج في سياق هذا الكلام ما وقع لأبي الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد بالله ، الثامن عشر من خلفاء بني العباس ، فإنه قد أصابه شدّتان وفُرجتا عنه . وكان في ذلك شبيهًا بالامين في خلعه . وذلك أنّ المقتدر لمّا ولي الخلافة أهمل أحوالها وحكّم الوزراء . وكان يتصرّف على مقتضى إشارة النساء والخدَم ، فغاظ القواد والحاشية ذلك ، واجتمعوا على أن قتلوا العباس بن الحسن الوزير وخلعوا المقتدر من الخلافة ، الخلع الاول ، وبايعوا ابن المعتزّ ، وأحضروه من داره الى دار سليمان بن وهب الموسومة إذ ذاك بالزوراء ، وجلس يأخذ البيعة على القضاة والاشراف والكافة ويدبّر الأمور ، ووزيره محمّد بن داوود بن الجراح يكاتب أهل الاطراف والعمال بخبر تقليدها. وقد تلقّب بالمستنصر . وقال المؤيد : تلقّب بالراضي بالله وخوطب بالخلافة ، وأمره في غاية القوة ، وعزم على أن يسير الى دار الخلافة فيجلس بها ويقبض على المقتدر ، إلا أنه أخّر ذلك لتتكامل له البيعة ويُنْفذ الكتبَ ويسير من غد . وكان سوسن حاجب المقتدر والمتولي لأمور الغلمان الموسومين بحمايتها ممن وافق ابن المعتز ودخل مع القواد فيما دخلوا فيه وشرط أن يقرّر ما في يديه ويزاد شرطةَ بغداد . فلما جلس ابن المعتزّ في اليوم الاول جلس له من تولى ايصال الناس /110/ والخادمُ لحضرته فيما يخدم فيه

الحجاب أحد الخدم غيره . فبلغ سوسن وشقّ عليه وتوهم أن ذلك غدرٌ به ورجوع عمّا وافق عليه، فدعى الخدَمَ وغلمان الدار الى نصرة المقتدر فأجابوه الى ذلك وأغلق الأبواب، وأخذ أُهْبة الحرب، وأصبح ابن المعتزّ في اليوم الثاني من بيعته، وهو يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الاول سنة ستّ وتسعين ومائتين عاملا على المسير الى الدار. فحضر محمّد بن داود وعرفه رجوع سوسن عمّا كان وافق عليه. وصغّر القوادُ ذلك في نفسه فلم يتشاغل بتلافيه، وأشاروا عليه بالركوب الى دار الخلافة، وهم لا يشكّون في تمام الامر. فركب وهم معه، وانقلبت العامة مع المقتدر، ورموا ابن المعتزّ بالشتم وحاربوه مع شرذمة أنفذهم سوسن لحربه ممن أطاعه على نصرة المقتدر. قال المؤيد : وجرت بين غلمان الدار المؤيدين للمقتدر والمؤيدين لابن المعتز حروب، آخرها أنّ عبد الله بن المعتز انهزم واختفى وتفرّق أصحابه. وكانت مدة ابن المعتز من ظهر يوم السبت الى قريب من ظهر يوم الاحد . وعاد الامر مستقيمًا للمقتدر، وانفرجت له تلك الشدة، ثم طُلب ابن المعتز، فأُمسك وحُبس ليلتين، وقُتل خنقًا، وأظهر أنه مات حتف أنفه، وأخرجه الى أهله .

وكان عبد الله بن المعتز فاضلا شاعرًا، وتشبيهاته وأشعاره مشهورة أُخذ العلم عن المبرد وثعلب وتولّى الخلافة يومًا واحدًا. وقال حين تولّى : قد آن للحقّ أن يتضح وللباطل أن يفتضح. وله /110ب/ الكلام البديع، فمن ذلك قوله : أنفاسُ الحيّ خُطاه الى أجَله. ربّما أُورد الطمع ولم يُصدر. يَشفيك من الحاسد أنه يغتمّ وقت سرورك.

وكان ابن المعتز آمنًا في سِرْبه، معتكفًا على طلب العلم والشعر. وقد اشتهر عند الخلافة عنه أنه لم يؤهل نفسه، وكان مستريحًا الى أن حمَله على تولّي الخلافة القومُ الذين خذلوه بعد بيعته.

وُلد لسبع بقين من شعبان سنة تسعين كما تقدم. ورُوي عنه أنه يقول : إنْ ولاّني الله الخلافة لأفنينّ جميع بني أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ! فبلغ ذلك

وُلْد عليّ ، كرم الله وجهه ، فكانوا يدعُون عليه . وقد رثاه أبو بكر العلاف الضّرير النّهرواني الاّ أنه لم يقدر يذكره في شعره خوفًا من المقتدر ، فورّى بقِطّ حيث يقول :

يا هِرّ فارقتْنا ولم تعُـــد ... وكنت منا بمنزلة الوَلَـــدِ
وكان قلبي عليك مُرتــعدا ... وأنت تنساب غير مرتــعدِ
تدخُل برج الحمام مقــيّدا ... وتبلغ الفرخَ غير متــئدِ
صادوك غيظا عليك وانتقموا ... منك وزادوا ومن يَصِدْ يُصَدِ
ولم تزل للحمام مُرْتصدًا ... حتى سُقيت الحِمام بالرّصدِ
يا من لذيذ الفراخ أوقــعه ... ويحك هلاّ قنعت بالقَــددِ
لا بارك الله في الطعــام إذا ... كان هلاك النّفوس في المِعَـدِ
كم دخلتْ لقمةٌ حشا شَــرِهٍ ... فأخرجت روحه من الجسدِ
ما كان أغناك عن تسلُّقِك ... البرجَ ولو كان جنة الخلدِ

وهي قصيدة طويلة مشهورة . وقيل إنها لم تكن في ابن /111/ المعتز بل فعلها في قط حقيقةً ، قتله الجيرانُ فرثاه بها . وقيل بل هويتْ جاريةٌ لعليّ بن عيسى غلامًا لأبي بكر بن العلاف المذكور ففطن بهما عليّ بن عيسى فقتلهما جميعًا ، فقال أبو بكر مولاه هذه القصيدة يرثيه ، وكنّى عنه بالهرّ . كذا ذكر المؤيد .

ثم إن المقتدر لا زالت متغلبة عليه الوزراء ، وقد انهمك في الإهمال ، واستوزر أبا عليّ بن مقلة وعليّ بن عيسى وأبا الحسن بن الغراب وأبا عليّ بن يحيى الخاقاني ، وكلهم تحكموا عليه ، وكان الخاقاني ضجورًا ، فتحكمت عليه أولاده أيضًا ، وصار كل منهم يسعي لمن يرتشي منه ، فكان أبوهم بسبب ذلك يولّي العمل الواحد عدة من العُمّال في الايام القليلة ، حتى إنه ولّى إمارة الكوفة في عشرين يومًا سبعة من العمّال ، فقيل فيه :

وزيرٌ قد تكامل في الرَّقاعة ... يُولّى ثم يُعزل بعد ساعة
إذا أهل الرُّشا اجتمعوا عليه ... فخير القومِ أوفرهم بضاعة

ومع هذا لا زال الخليفة المقتدر يتصرّف على رأي النساء ومقتضى إشارة الخدم ، ويرجع الى رأيهم ؛ فخُوِّفتْ المسالك وطمَع العمال في الأطراف ، فأنكر الجند والقواد عليه ذلك ، من استيلاء النساء والخدم على الأمور وكثرة ما أخذوه من الأموال والضياع ، وانضم الى ذلك وحشةٌ مؤنسُ الخادم من المقتدر ، فاجتمعت العساكر الى مؤنس وقصدوا دار الخلافة مؤيدين عزله ، فأخرجوا المقتدر ووالدته وخالته وخواص جواريه وأولاده من دار الخلافة ، وحملوه الى /111ب/ دار مؤنس واعتقلوه بها ، وأحضروا أخاه محمّد بن المعتضد وبايعوه ، ولقبوه القاهر بالله بعد أن الزموا المقتدر بأن يشهد عليه بالخلع ، فأشهد عليه القاضي أبو عمرو بأنه خلع نفسه . ونُهِبت دار الخلافة ، واستخرجوا من قبر في تُرْبة بَنَتْها أمّ المقتدر ستّمائة ألف دينار . ثم لما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم ، ثالث يوم خلع المقتدر ، باكرَ الناس الى دار الخلافة حتى امتلأت الرِّحاب ، لأنه يوم موكب . ولم يحُضِر مؤنسُ المظفّرَ لذلك اليوم ، وحضرت الرجّالة المُصافية بالسلاح يطالبون بحقّ البيعة وارتفع رعناتهم ؛ فخرج من عند القاهر فاروكُ ليطيِّب خاطرهم . فرأى في أيديهم السيوف المسلولة فخافهم ورجع ، فتبعوه وقتلوه في دار الخلافة وصرخوا «مقتدر يا منصور !» . وهجموا على القاهر ، فهرب واختفى وتفرّق عنه الناس ، ولم يبق بدار الخلافة أحد . ثم قصد الرجّالة دار مؤنس الخادم وطلبوا المقتدر منه ، فأخرجه وسلمه اليهم ، فحمله الرجالة على رقابهم حتي أدخلوه الى دار الخلافة ، وبايعوه وهي البيعة الثالثة له . ثم أرسل المقتدر خلف القاهر بالأمان وأحضره وقال له : علمت أنه لا ذنب لك ! وقبّله بين عينيه وأمّنه وشكر إحسانه ، ثم حبسه عند والدة المقتدر . فأحسنت اليه ووسعت عليه واستقر

المقتدر في الخلافة . وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة . وبقي المقتدر خليفة الى سنة عشرين وثلاثمائة ، فخرج عليه مؤنس /112/ الخادم ، واجتمعت عليه العساكر . وقُتل المقتدر في حرب مؤنس ، وحُزّ رأسه في تلك السنة . واستُخلف أخوه القاهر . وكانت خلافته أربعًا وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا وستة عشر يومًا ، وعمره ثمان وثلاثون سنة . انتهى ما حكاه الملك المؤيد على غير هذا المنوال . ولنرجع الى ذكر الأمين .

نزغ شيطانية وزيغ سلطانية

قيل لما أن استقرّ ملك الأمين ، وتعاظم سلطانه ، وتاه به زمانه ، داخلته الشحناء ، وعزم على إخراج العهد من أخيه المأمون . وكان الفضل بن الربيع يغريه على ذلك ، لخوفه من المأمون إذا انتهى الامر اليه ، فزيّن للأمين أن يخلع أخاه من ولاية العهد .

قال في شرح منظومة ابن عبدون : لما أن أراد الأمين أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد ، ويجعلها لابنه موسى جعل يعتلّ عليه بأنواع العِلل ، ويُظهر للناس أنه يخالف فيما لا ينبغي خلافه ، وتشاجر الأمر بينهما ، فتكلم الأمين مع قواده في أن يرسل الجيشَ الى أخيه المأمون . فكلُّهم أبوْا أن يقود اليه عسكرًا وقالوا له : نتعاهد وقد أخذ أبوك علينا البيعة له بعدك ، فكيف تنكث بيعته ؟! الى أن جاء عليّ بن عيسى بن ماهان من خراسان . انتهى .

وذكر العلامة ابن ظفر في سلوان المطاع : أن الأمين لما عزم على إخراج عهد الخلافة من أخيه المأمون وهو إذ ذاك مقيم بخراسان كتب اليه الأمين كتابًا يذكر فيه حاجته الى لقائه ومفاوضته في مهمّ حدَث ، وسأله أن يستنيب /112ب/ بخراسان من يضبطها ويعجِّل الشُّخوصَ اليه الى بغداد . وكتب الى المأمون عيونُه الذين ببغداد أنّ الأمين يريد خلعه ونقْلَ العهد الى ابنه موسى .

فلمّا وقف المأمون على ما كتب به أخوه وعيونه اليه شاور وزراءه ، فأشاروا

عليه بالتثبّت والتعلل والاعتذار بتشعّب خراسان وتطلّع من يليها من الكفار الى الفرصة فيها ، وأنه لا يجد من يثق بكفايته لأمرها ، فكتب المأمون الى الأمين بذلك . فعاود الأمين مكاتبةً الى أخيه المأمون ، يستحثّه وأنه لو قدِم عليه لَقلّ لُبثه ببغداد حتى يرجع ، وإنما يريده ليفاوضه في خَطْب عظيم جسيم لا تُودع لمثله الكتب . فحين انتهى كتابه الى المأمون أطلعَ وزراءه عليه واستشارهم ، فأشاروا عليه بمثل رأيه الأول ، فكتب اليه الأمين ما كتب اليه أولا .

وكتب الى الأمين عيونه الذين بخراسان أنّ المأمون فطِن لما يُراد منه ، وأنه ممتنع شافق ، وأنّ وزراءه قد أجمعوا على أمره بالامتناع . فيئس الأمين من تمام مكيدته لأخيه ، وأمر بالقبض على من ببغداد من حشَم المأمون وحرمه وبطانته وما ظهر عليه من أمواله . وبلغ ذلك المأمون فخامره الجزع وشاور وزراءه ، فثبّتوا على رأيهم وحظّوه على التثبيت والتعلل وانتظار الفرج ، ففعل .

ولما رأى الأمين إصرار أخيه المأمون على الامتناع دعا الناس لابنه موسى بالبيعة ، وهو طفل ، فأجابوه الى ذلك وبايعه الناس . وسمّاه الناطق بالحقّ واستكفل له عليّ /113/ بن عيسى بن ماهان ، فجعله في حِجره .

وذكر الملك المؤيد أنّ في سنة خمس وتسعين ومائة أبطل الأمين اسم المأمون من الخطبة ، وخطب لابنه موسى ، ولقبه الناطق بالحق ، وكان طفلا صغيرًا .

وقال غيره : في سنة أربع وتسعين ومائة عزل أخاه القاسم ، وقطع البريدة عن المأمون ، وأسقط اسمه من الطُّرُز والضَّرْب ، ثم أرسل اليه يطلب منه أن يقدِّم موسى على نفسه ، ويذكُر أنه قد سماه الناطقَ بالحق . فردّ المأمون ذلك وأباه . وخامر الرسل . . . (لم يتبيّن لنا المعنى مع طمس في كلمة بعد الرسل) وبايعه بالخلافة سرّا ، ثم صار يكتب اليه بالأخبار ويناصحه من العزل . فلما رجع وأخبر الأمين بامتناع المأمون أسقط اسمه من ولاية العهد وطلب الكتاب الذي كتبه الرشيد وجعله بالكعبة ، فأُحضر ومزّقه . وقويت الوحشة .

ونصح الأمينَ أولو الرأي ، وقال له حازم بن خزيمة : يا أمير المؤمنين ، لن

ينصحك من كذبك ، ولن يغشّك من صدقك ، لا تجرّىء القواد على الخلع فيخلعونك ، ولا تحمّلهم على نكث العهد ، فينكثوا عليك في بيعتك وعهدك ، فإن الغادر مغلول ، والناكث مخذول ! فلم ينتصح ، وأخذ يستميل القواد بالعطاء وبايع بالولاية لأبنه موسى ، ولقبه الناطق بالحق ، وهو إذّاك طفل رضيع . وكلّ ذلك برأي الفضل بن الربيع وما زيّنه له هو وبَكْر . وقد قيل في ذلك :

أضاع الخلافة غشّ الوزير ... وفُسْق الأمين وجهْل المشيرِ
ففضل وزير وبكر مشيرٌ ... يريدان ما فيه حتفَ الاميرِ /113ب/
لواط الخليفة أعجوبة ... وأعجب منه خَلاق الوزيرِ
فهذا يدوس وهذا يُداس ... كذاك لعمري خلاف الامير
فلو يستعِفّان هذا بذاك ... لكان بعِرْضه أمر ستيرِ
وأعجب من ذا وذا أنّنا ... نبايع ملكا لطفل صغيرِ
ومن ليس يُحسِنُ غسل استِه ... ولم يخل من بوله حجَر ظفيرِ
وما ذاك الا بفضل وبَكْر ... يريدان طمْس الكتاب المنير

انتهى .

وقال في شرح منظومة ابن عبدون : وكان المأمون قد ولاه أبوه على الرّيّ ، وقال للأمين : لا سبيل لك الى أخيك ، ولا الى هذا الموضع الذي هو فيه ، بل يكون واليًا عليه طول حياته ولا تُزِلْه عنه . فخالف الأمين ذلك وبعث الى المأمون : تنحّ عن الرّيّ حتى أُولّي عليها من شئت ! فأبى عليه المأمون ، فبعث اليه عليّ بن عيسى وكتب اليه كتابًا يقول فيه : «لا يُحصي عدد جنودي الاّ هذا الجراب !» . وبعث اليه بجراب قد ملأه سِمسمًا . فيقال إنّ طاهر بن الحسين قال للمأمون : اكتب له «إنّ عندي ديكًا أعورَ يلتقطه حبّة حبّة !» . وكان طاهر أعور . ويقال إنه كان بعث اليه قفيزًا من جاورس وكتب

اليه : «من يحصي عدد هذا يحصي عدد جنودي !» فلما قرأه المأمون على أصحابه قال له الحسن : أما إحصاؤه فلا ، وإنما عندك ديك أعور يلتقطه في يوم واحد ! اه .

وكان الأمين لما أن عزم على هذا الامر أقْدَم علي بن عيسى من خراسان فوسّع له في صدر المجلس وأمر أن يبسط له ببساط مجلسه على عوائد الملوك مع من كانوا يريدون /114/ أن يُظهروا ترفّعه وإظهار النعمة عليه حتى يمتاز بها عن غيره ممن لا ينتهي الى تلك الدرجة ، وقال له : أنت كبير القواد وشيخهم ، وقد أردتك لأمر لم أجد أحدًا يشتغل به سواك ولا ينهض به أحد غيرك ! فقال: أنا عند ظنّ أمير المؤمنين ومُسْتنفدٌ من مرضاته جهد غايتي وطاقتي . فقال : إنّ أخي قد خالفني في أمور ضاق بها صدري ، وقد أقسمت لا بدّ أن يساق إلـيّ في قيود ، وقد صنعت قيدًا من فضة أجعلُه فيه ، لأبِرّ قسمي ، فتسيِرَ اليه بالجيوش حتى تأتيَني به . قال : نعم يا أمير المؤمنين !

وتوجّه علي بن عيسى في مائة ألف فارس الى الموضع الذي كان أخوه ، وبعث معه قيدًا من فضة وقال : قيّده به . كذا حكاه في شرح منظومة ابن عبدون .

وقال ابن ظفر في السُّلوان : وكان عليّ بن عيسى قد ولي خراسان مدة طويلة ، واصطنع بها الرجال وطوّق المنن في الاعناق . وكان شأنه بخراسان عظيما ، فاستشاره الأمين في أمر خراسان فضمِن له أمرها وأخبره أنه لو وصل خراسان لم يتخلّف عليه اثنان ممن بها . فجوّزه الأمين إليها وولاّه على كل من تغلب عليها، وأعطاه أموالا جزيلة وجهّز معه جمهور جنوده وعسكره وأصحبه من السّلاح والكراع ما شاء .

قال في شرح المنظومة : ولما توجّه علي بن عيسى بالجيوش نحو المأمون ، وأخرج اليه المأمون هرثمةَ بن أعين وطاهر بن الحسين في نحو ثلاثة عشر ألفا . وسار علي بن عيسى وقد قال له ولَدُه يا أبي تحرّس من طاهر إذا وقعت عينه

عليك /114ب/ على أن يأتي مستأمنا ! فذهب وقد تجمع مع أصحاب المأمون في أرض واحدة ، خرج طاهر في جُملة خيل ، ووقف في موضع يشرف منه على عسكر علي ابن ماهان ، فرأى ما ملأ الارض وهاله كثرةً . فالتفت الى هرثمة وقال له : ما ترى ، هذا جمع لا قبل لنا به ؟! قال هرثمة : الرأي ما تراه. قال : أمّا أنا ، فوالله لا رجعتُ الى صاحبي حتى أموتَ ، ولا أرجع منهزمًا ، ولكن أجعلُها خارجيّة ، أضرب في عسكرهم بمن معي من أصحابي حتى أموت أويفتح الله لنا ! فقال هرثمة : وأنا أفعل مثل ذلك . فرجعا الى عسكرهما وانتخبا من أصحابهما نحوًا من تسعمائة فارس ، أكثرهم من الخوارزمية ، ثم اقتحما بهم في عسكر ابن ماهان ، وجعل يشُقّ الناس حتى وصل الى عسكر عليّ ومَضْرِبه . فخرج اليه عبد أسود ، وكان عبدًا لعليّ ، من أنجاد الرجال ، كالـمُدافع عن عليّ ؛ فجمع طاهرٌ يده على قائم سيفه وضرَب الأسود ، فقَسَمه قسمين بذي اليمين ، ثم اقتحم على عليّ بن عيسى فقتله . ومن ذلك اليوم سمي طاهر بن الحسين بذي اليمين (المشهور أنه لقّب بذي اليمنين . انظر الدولة الطاهرية في العراق وخراسان) . ولما قتله وآنفضّ عسكر عليّ منهزمًا اتّبعه هو وأصحابه نحو ستة أيام يقتّلهم في كل موضع . ومشى طاهر وهرثمة من حينهما حتى نزلا على الأمين فحاصراه ببغداد . انتهى .

وذكر الحافظ السيوطي في فاكهة الخلفاء : ولما ولّى الامين علي بن عيسى على بلاد الجبال ونهاوند وقُم وأصفهان ، في سنة خمس وتسعين ، فخرج عليّ بن عيسى لقتال المأمون في نصف جمادى الاخير ومعه من /115/ الجيش في هيئة لم يُر مثلها ، وأخذ معه قيدًا من فضة ليقيّد به المأمون بزعمه ، فأرسل المأمون لقتاله طاهر بن الحسين في آلٍ من أربعة آلاف وهرثمة بن أعين في تسعة آلاف . فكانت الغلبة له ، وذبح عليّ بن عيسى ، وهزم جيشه وحُملت رأسه الى المأمون ، فطيف به في خراسان ، وسُلِّم على المأمون بالخلافة .

لطيفة

قيل لما أن خرج طاهر بن الحسين في هذه الوقعة جعل ذات يوم دراهم في كمّه ، ليفرّقها على الفقراء ، ثم أسبل كمّه ناسيًا فانتفضت الدراهم ، فتطيّر من ذلك واغتم ، فانتصَبَ له شاعرٌ يقول :

هذا تفرّق جمعهم لغيره وذهابه منه ذهاب الهمّ
شيء يكون الهمّ بعض حروفه لا خير في إمساكه في الكمّ

فسلِيَ به وأمر له بثلاثين ألف درهم .انتهى .

وذكر في فاكهة الخلفاء عن عبد الله بن صالح الجرمي قال : لما قُتل علي بن عيسى أرجف الناس ببغداد إرجافًا وندم الأمين على خلعه أخاه ، وطمع الأمراء فيه وشعبوا جندَهم فطلب الأرزاق من الأمين ، واستمرّ القتال بينه وبين أخيه . وبقي أمر الأمين كلّ يومٍ في إدبار لانهماكه في اللعب والجهل ، وأمرُ المأمون في ازدياد الى أن بايعه أهل الحرمين وأكثر بلاد العراق . وفسد الحال على الأمين جدًا ، وتلف أمر العسكر ، ونفدت خزائنه ، وساءت حال الناس بسبب ذلك ، وعظُم الشر وكثر الخراب والهدم من القتال ، وعمِلتْ فيه المواشي ورمْي المنجنيق والنفط حتى درست محاسن بغداد /115ب/ وفي ذلك يقول بعضهم :

بكيتُ دَمًا على بغداد لـمّا فقدتْ غضارة العيش الأنيقِ
أصابتْها من الحُسّاد عينٌ فأفنت أهلها بالمنجنيقِ

انتهى .

قال بعضهم : ودام حصار بغداد خمسة عشر شهرًا ، ولحق غالب العباسيين وأركان الدولة بجند المأمون ، ولم يبق مع الأمين من يقاتل الا غوغاء بغداد ؛ الى أن استهلّت سنة ثمان وتسعين فدخل طاهر بن الحسين بغداد بالسيف قهرًا ، فخرج الأمين بأمه وأهله من القصر الى مدينة المنصور ، وتحصّن بها وقد ضيّق عليه طاهر . ولما تحقّق خلعَه ويئس من الملك تسمّى بإمام المؤمنين

وكتب بذلك الى الآفاق ، وحين علا عليه طاهر وضايق أمره جعل يقول :

يا نفس قد حُقّ الحذَر أين المفرّ من القـدَرْ
كل امرء مما يَخاف ويرتجيه على خطرْ
من يرتشِف صفو الزمان يغصّ يومًا بالكـــدرْ

ثم إنه كتب اليه : «الحمد لله الذي يرفع من يشاء بقدرته ، ويضع من يشاء بحكمته ، الذي يمنع ويعطي ويقبض ويبسُط ؛ أحمده على نوائب الزمان وتشتيت الاحوال ، وصلى الله على نبيه محمّدا وآله الطيبين الطاهرين . أمّا بعـــد ، فإني رأيت من الصلاح الخروج من هذا السلطان ، فإنّي أرى له حظا دوني وهوالمحكّم في أمري . فاعْطني الأمان على نفسي وأمي وولدي وحاشيتي حتى أخرج اليك على حُكم أخي ، راضيًا بجوْره دون عدله وانتقامه دون عفوه» .

فكتب اليه طاهر /116/ وقال له : «هيهات ! هلاّ كان هذا قبل ضيق الخناق ، وتفرّق السّاق . ولا أفعل ذلك حتى تَنْزل على حكمي» .

فلما أيس الأمين من طاهر كتب اليه : «اعلم يا طاهر ، أنه ما قام لنا قائم قط بحق قيمته لأحدنا الاّ كان السيف جزاءه . فانظرْ لنفسك ودَعْ . وقد علمتَ ما فعل أبو سَلَمة الخلال في أول هذا الأمر ، والى ما كان من أبي العباس ومن أبي مسلم صاحب الدعوة ، وعلى أيّ شيء انقضَى أمرُه !» . انتهى

وقال محمّد بن علي الخراساني : كان طاهر يُضعّفونه عند الأمين ، ويقولون إنه مضعَّف . فقال طاهر : والله لقد قدّح في قلبي نارًا من الحذر لايطفئها أمر أبدًا . وكان يقرأ كتابه على أهل خراسان ويقول : ليس بمضعوف بل هو بطل قاصف لكل جبار عسوف ! انتهى .

وذكر الملك المنصور محمّد بن الملك المظفر تقي الدين شاهنشاه ، صاحب حماه ، في تاريخه المسمى بالمضمار : إنه أشاروا على محمّد الأمين ، جماعةٌ من

خواصه ، أنه يخرج الى طاهر بن الحسين وقالوا له : إن طاهرًا قد بذل لك الامان ، وإنما غايتك اليوم السلامة واللهو ، وليس يمنعك أخوك المأمون من ذلك . فأجابهم الى الخروج الى هرثمة بن أعين دون طاهر ، وقال لهم : إني أكره طاهرًا ، فإني رأيت في منامي كأني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء ، عريض الاساس ، لم أر حائطا يشبهه ، وعليّ سَوادي ومنطقتي وسيفي وقلنسوتي ، وكأنّ طاهرًا في أصل الحائط ، فما زال يَضْرب أصله حتى سقط وسقطت . فأنا أتطيّر منه . وهرثمةُ مولانا وهو /116ب/ بمنزلة الوالد وأنا به أشدّ ثقة . وخرج الى هرثمة ، فعظُم ذلك على طاهر وفعل ما فعل . انتهى

وقال الحافظ بن عساكر بسنده عن الصولي : إن الأمين قال لكاتبه ، اكتب : «من عبد الله محمّد الأمين ، أمير المؤمنين الى طاهر بن الحسين ، سلام عليك . أمّا بعـد ، فإن الأمر قد خرج بيني وبين أخي الى هتك الستور وكشف الحُرُم ، ولست آمن أن يطمع في هذا الامر السحيق البعيد بشتات أُلْفتنا واختلاف كلمتنا . وقد رضيت أن يكتب الي أمانًا لأخرج الى أخي . فإن تفضل عليّ فهو أهل لذلك ، وإن قتلني فمروءة كسرت مروءة ، وصمصامة قطعت صمصامة (في الاصل : صمصامة قطعت زمان صمصامة . وأثبتنا ما في الدرّ) . ولئن يفترسني السَّبُع أحبّ اليّ من أن ينبحني الكلب !» . فأبى طاهر عليه .

ولـمّا يئس من طاهر خاطب هرثمة يطلب منه الأمان ، فأعطاه الأمان . ودخل هرثمة بغداد وخرج الأمين لخمس بقين من المحرم ، فأرْصَد له طاهر الرصائد . وكان خروج الأمين من بغداد في حراقة ، فلما حَصَل فيها بمن معه دخل اليه أصحاب طاهر في الزوارق ، فغرّقوا الحراقة وقبضوا على الأمين ، وسيق الى طاهر فحبسه في دار . انتهى .

وذكر في نزهة النفوس وسلوة المنفوس أن في سنة ثمان وتسعين ومائة استولى طاهر على بغداد وهجم عليها بعد قتال شديد ، ونادى مناديه من لزم

بيته فهو آمن . وأخذ الأمين أمّه وولده وتحصّن بمدينة المنصور ، فحصره طاهر هناك وأخذ عليه الابواب . وقد تسلم طاهر الجانب الشرقي من بغداد ، وضايق على الأمين بقصر المنصور ورماه بالمنجنيق /117/ . وتفرّق عامة جند الأمين عنه وأشرف طاهر على أخذه . فطلب الأمين الأمان من هرثمة وأن يَطلع اليه ، فروجع في الطلوع الى طاهر ، فأبى ذلك .

ولـمّا كانت ليلة الاحد ، لخمس بقين من محرم السنة المذكورة ، خرج الأمين بعد العشاء الأخير وعليه ثيابٌ بيض وطيلسان أسود ، وأراد أن يسير الى هرثمة فأرسل اليه يقول : إني غير مستعد لحفظك وأخشى أن أُغلب عنك ، فأقم الى الليلة القابلة ! فأبى الأمين ، ودعا بأبنيه وضمّهما اليه وقبّلهما وبكى ، ثم جاء راكبًا الى الشطّ فوجد حراقة هرمة فصعد اليها ، فاحتضنه هرثمة وضمه اليه وقبّل يديه ورجليه . فجاء أصحاب طاهر وشدّوا على حراقة هرثمة حتى غرّقوها ؛ فأخرج الملاح هرثمة من الماء ، وسقط الأمين في الماء فشقّ ثيابه وأراد النجاة ، فأخذه أصحاب طاهر وهو عُريان ، عليه سراويلُ وعمامة . فأمر به طاهر فحُبس .

قال أحمد بن سالم ، صاحب المظالم ببغداد : قد كنت مع من كان مع الأمين في الحراقة فأُخذت وأُدخِلْت بيتًا ، فلمّا مضى عليّ ساعة من الليل أُدخل الأمين عليّ عُريانًا . فعرفني ولم أعرفه فكلّمني فقلت : من أنت ؟ فحسر العمامة عن وجهه ، فإذا هو الأمين فبكيت وقلت : سيّدي ، مولاك أحمد بن سالم ! قال : انضمّ اليّ يا أحمد ، وادن مني وضمّني اليك ، فإني أجد وحشة شديدة . فضممته اليّ ، فإذا قلبه يخفق حتى يكاد يطير من صدره ، ثم قال : يا أحمد ، ما فعل أخي ؟ قلت : هو حيّ ؟! قال : قبّح الله أصحاب بُرْدِك الذين كتبوا أنه مات ! قلت : بل قبّح الله وزراءك ! فقال : لا تقل ذلك ، فإن الذنب لي في ذلك /117ب/ أكثر . ثم قال : يا أحمد ، ما تراهم يصنعون بي ــ وكان قد حُبس في دار ابراهيم بن جعفر البلخي بباب الشام ــ أتراهم يقتلونني أو يَفون

إليّ بآمانهم ؟ وجعل يضمّ على جسده بخِرْقة كانت على كتفه . وكان البرد شديدًا وهو عُريان . فبينما نحن كذلك إذ دخل الدار قوم من العجم بأيديهم السيوف ، فلمّا رآهم الأمين قام قائمًا وقال : إنّا لله وإنّا اليه راجعون ، ذهبتْ والله نفسي ، أمَا من حيلة ، أمَا من مُغيث ! فقمت أنا وصرت خلف حُصُر مدروجة ، وقام الأمين وأخذ بيده وسادة وجعل يقول : ويحكم ، إنّي ابن عمّ النبي ﷺ وابن هارون وأخو المأمون ، الله الله في دمي ! فبدره مولىً لطاهر ، فضربه بالسيف على مُقدَّم رأسه ، وضربه الأمين بالوسادة ، فنخسه واحد منهم في خاصرته ، وركِبوه فذبحوه من قفاه ، واحتزّوا رأسه ومضوا به الى طاهر ، فنصبه على برج من أبرجة بغداد ليراه الناس ، وجعل طاهر يقول : هذا رأس المخلوع ! وأنشد :

ملكتُ الناس قهرًا واقتدارًا　　وقتّلت الجبابرة الكِبارَا
ووجّهت الخلافةَ نحو مرْو　　الى المأمون تَبْتدر ابتدارًا
حصَرْت المترَف المخلوع حتّى　　تسَحّب بالدِّما منه إزارًا
فتكتُ به برغم أنوف قومٍ　　ولو نطقوا لَساروا حيث سارًا

وقد غاض الناس مقتل الأمين ، وقيل فيه المراثي .

وقد قال ابراهيم بن المهدي في قتله :

[عوجا بمغنى طلَلٍ داثر　　بالخُلْد ذات الصّخر والآجُر]
والمرمرِ المسْنونِ يطلى به　　والبابِ ، بابِ الذّهب النّاضرِ
وأبلغا عني مقالاً الى المـ　　ـولى عن المأمور والآمـرِ
قولا له يا ابن وليّ الهُدى　　طهِّرْ بلادَ الله من طـاهرِ
لم يكْفه أن حزّ أوداجـه　　ذبح الهدى يا هدى الحـاذر
حتى أتى يسْحَب أوصاله　　في شَطَن يُفْني مَدى الشّابر　18/

قد برد الموت على جفنه فطرْفه مُنكسر الناظـــرِ

ولخزيْمة بن الحسين على لسان زبيدة قصيدة يقول فيها :

أتى طاهر لا طهّر الله طاهرًا فما طاهرٌ فيما أتى بمطهَّــرِ
فأخرجني مكشوفةَ الوجه حاسرًا وأنهب أموالي وأحرق أدورِي
يعزّ على هارون ما قد لقيته وما مرّ بي من ناقص الخلق أعور
تذكر أمير المؤمنين قرابتي فديتك من ذي حرمة متذكر

ثم إن طاهر بعث برأس الأمين الى أخيه المأمون بخراسان مع مصعب ابن عم طاهر ، وبعث معه الخاتم والقضيب والبُردة والمصلّى ، وهي من سعف النخل مبطنة وكتب الى المأمون : «إني وجّهت اليك بالدنيا والآخرة مع مصعب» . فأمرله بألف ألف درهم ، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة وصلّى بالناس ، وخطب للمأمون . انتهى ما حكاه في نزهة النفوس ، وكذا حكاه المؤيد وغيره بزيادات يسيرة بين العبارتين ، فنقلنا الاعم منها .

قال بعضهم : وكان طاهر قد أرسل الى المأمون فى أمر أخيه يستأذنه إن هو ظفر به ما يصنع . فبعث اليه المأمون بقميص غير مُقوَّر . فعلِم بذلك /118ب/ أنه يريد قتله وتجهيز رأسه . فعلى هذا يكون قتلُه كان بإذن المأمون .

وعلى ما ذكره السيوطي أنّ قتله كان دون علم المأمون ، قال : ولأجل ذلك حقَد المأمون على طاهر وأطرده ، وبقي نسيًا منسيًا الى أن مات ؛ وقتَل هرثمة بن أعين . وقد اشتد على المأمون قتل أخيه الأمين ، وكان يحبّ أن يُرسَل اليه حيًا ليرى فيه رأيه ، قال : وصدق الأمين في قوله «ما قام لنا قائم الاّ كان السيف جزاءه !» انتهى ، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

وذكر الملك المؤيد في مختصره والخطيب في تاريخ بغداد (337/3 . وفيه : قتل الامين «ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم») وغيرهما أنّ قتل الأمين كان لستّ بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة (أورد الدرّ ، 96أ ، الخبر

عن الخطيب في تاريخ بغداد ولم يعلق عليه ، ولذلك يظهر أن عبارة قلت التالية هي لابن وادران) . قلت : وهنا كلام لمن تأمّل في عباراتهم ، فإنهم يقولون إنّ الأمين خرج لخمس بقين من المحرم ثم يقولون وكان قتله لستّ بقين من المحرم ، وهذا شيء سبقت اليه أفهام النساخ وزعموا بذلك الاصلاح حيث وجدوا أنّ خروجه كان لخمس بقين . ومعلوم أنّ ما بعد الخمسة من الاعداد يكون ستّ إذا سرّدت الاعداد ، فجعلوا قتله كان لستّ بقين ، ولم ينظروا الى لفظة «بقين» وما فيها من معنى الإسقاط ، لأنه إذا بقي عدد من الشهر ثم جاء يوم وأسقطه أيضًا يكون الباقي أقلّ من العدد الاول كما في هذا ، إنّ خروجه كان لخمس بقين من المحرم ؛ فليتدبر وليراجع النقل في ذلك ولا يعوّل على البحث ، فإنه مقام نقل لا بحث .

/119/ قال المؤيد وغيره : وكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وكسرًا ، وكان عمره ثمانيًا وعشرين سنة ، وكان سبطًا ، أنزع ، صغير العينين ، أقنى جميلا طويلا . وزاد البكري سمينًا . وقال الملك المظفر : شديدًا في بدنه قبيح السيرة ، سفّاكًا للدماء ، ضعيف الرأي سخيًّا بالمال ، بخيلا بالطعام . وقال المؤيد : وكان منهمكا في اللذات وشُرب الخمر ، حتى أرسل في جميع البلادُ في طلب الملهين وضمّهم اليه وأجرى عليهم الارزاق .

وذكر ابن رشيق القيرواني (وصحته الرقيق القيرواني ، صاحب كتاب قطب السرور في الانبذة والخمور الذي ذكر فيه أخبار السكر) : أن ملوك الاوائل من بني أمية وبني العباس كانوا يحتجبون عن النّدماء ، حتى جاء محمّد الأمين فإنه قد تهتّك مع الندماء ، وكان أحسن الناس خُلقًا قبل أن يسكر ، وأوسع الناس عطاء وأسمحهم بالمال ، وأبخلهم على الطعام ، فإذا شرب تناول منادميه بلسانه وحمل عليهم من الشراب ما لا يطيقون . انتهى .

وكان لطيفًا ظريفًا حسن الادب ، عالـمًا بالشعر وكان يقول : أنا والله أطربُ على جيّد الشعر . وكان إذا لم يشرب يأمُر وينهى ويوقّع بأجزل الكلام

فيصيب فما يخطىء ، ويسرع فما يبطىء ، حتى قيل إنه وقّع في ثمانمائة توقيع (في الاصل : توقيعا) في مجلس ، فأسرع وما أخطأ في واحد منها .

قال الجلال السيوطي في الاكتفاء ، قال الامام أحمد بن حنبل : إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على اسماعيل بن علية . فإنه دخل عليه فقال له : يا ابن الفاعلة ، أنت الذي تقول كلام الله مخلوق ! وزجره عن ذلك وتوعّده إن قاله مرة أخرى وسمعه أخرج لسانَه /119ب/ من قفاه . انتهى .

وكان الأمين أشرف الخلفاء أبًا وأمًا ، وهو أوّل من دُعي له بلقبه على المنابر ، كذا حكاه العسكري في الاوائل .

وقال النّوفلي وغيره : لم يُدْع للسفاح ولا للمنصور ولا للمهدي ولا للهادي ولا للرشيد على المنابر بأوصافهم ، ولا كُتب في كتبهم ، حتى ولي الأمين فدُعي له على المنابر ، وكتب عنه من عبد الله محمّد الأمين أمير المؤمنين ، الى أن مات رحمه الله .

ولـمّا مات رثاه جماعة ، منهم الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع فقال :

سألونا أنْ كيف نحن فقلنا ... من هوى نجمه فكيف يكـونُ
نحن قوم أصابنا حادثُ الدهـ ... ـر فظَلْنا لرَيْبـه نستكـينُ
نتمنّى من الأمين إيـــابًا ... لهف نفسي وأين منّي الأمينُ

وقال أيضًا :

أعينيّ جودا وابكيا لي محمّدا ... ولا تدْخَرا دمعًا عليه وأسعِدَا
فلا تمّت الاشياء بعد محمّد ... ولا زال في الدنيا طريدًا مُشرّدَا

وكانت له قضية مع المأمون في قوله هذا ، ولقوله :

ومما شَجَى قلْبي وكفكف عَبْرتي ... محارمُ من آل النبّي استُحلّتِ

وهي طويلة ، وستأتي في محلها إن شاء الله تعالى عند ذكر القصة مع المأمون .

وقال بعضهم يرثي الأمين أيضًا :

طوى الدهر ما بيني وبين محمّد   وليس لما طوى المنيّة ناشـــرُ
وكنت عليه أحاذر الموت وحده   فلم يبق لي شيء عليه أحاذرُ 20/

وقيل إن قائل ذلك أبو نواس ، على القول بأن وفاته تأخرت عن وفاة الأمين. وقد قدّمنا ذلك عند ذكره ، والله أعلم .

الباب الثالث
في
دولة أمير المؤمنين
أبي جعفر عبد الله المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور الهاشمي العباسي ، وأمه أم ولد ، اسمها مراجل ، توفيت في ولادتها . ومولده في ربيع الاول سنة سبعين ومائة ، ليلة وفاة عمّه الهادي واستخلاف أبيه الرشيد. وكان أبيض تعلوه صفرة ، أعيْن أقنى الأنف طويل اللحية دقيقَها ، ضيّق الجبين ، بخدّه خالٌ أسود ، كاملَ الفضل جوادًا ، عظيم العفو . كذا حكاه البكري .

وكان من رجال بني العباس حزمًا وعزمًا وحِلمًا وعلمًا ورأيًا وهِداء وهيبة وشجاعة وسؤددًا وسماحة . وله محاسن وسيرة ، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه . وكان فصيحًا مُفوّهًا ، قرأ العلم في صغره وسمع الحديث من أبيه وهشيم وعبّاد بن العوام ويوسف بن عطيّة وأبي معاوية الضّرير واسماعيل بن عليه وحجّاج الاعور . وأدّبه اليزيدي وجمّع له الفقهاء من الآفاق ، وبرع في الفقه والعربية وأيام الناس . ولما كبُر عباً بالفلسفة وعلوم الاوائل . وروى عنه ولده الفضل ويحيى بن أكتم وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي والامير عبد الله بن طاهر وأحمد بن الحارث ودعبل الخزاعي /120ب/ وآخرون . وكان يقول: معاوية بعمروه ، وعبد الملك بحجّاجه ، وأنا بنفسي ! وكان يقال : لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة ، فالفاتحة السفاح ، والواسطة المأمون ، والخاتمة

المعتضد .

وكان المأمون معروفا بالتشيّع ، وقد حمله على ذلك خلْع أخيه المؤتمن والعهد بالخلافة الى عليّ الرّضا ؛ ومع هذا قيل إنه ختم في بعض الرمضانات ثلاثًا وثلاثين ختمة ! وله رأي وشجاعة وفطنة ودهاء . بويع له قبل موت أخيه وأطاعه جميع العمال في حال محاصرة أخيه ، ولم يتخلّف عنه الا بغداد ، و(في نزهة النفوس وسلوة المنفوس : ولما استقر له الامر . والمعنى في استوسق الامر له جُمع له) استوْسق الأمر له في الشرق والغرب بعد قتل أخيه ، وسلّم عليه بالخلافة من سنة خمس وتسعين ومائة ، حين انهزم جيش الأمين وقُتل عليّ بن عيسى بن ماهان وحُمل رأسه الى المأمون بخراسان فسلّم عليه بالخلافة إذ ذاك ، وكان بدء استخلافه .

نزهة نفوس وسلوة منفوس

ذكر التّنوخي في الفرج بعد الشدة قال : قال محمّد بن عبدوس في كتاب الوزارة عن جبريل بن بختشوع الطبيبِ أنه سمع المأمون يقول : كان بخراسان يوم عجيب ، فأوْلى الله بإحسانه فيه جميلاً ، لـمّا توجه طاهر بن الحسين الى عليّ بن عيسى بن ماهان ، كما قد عرفتموه من ضُعف طاهر وقوة عليّ وقعَ في نفوس عسكري جميعًا أن طاهرًا ذاهبٌ . ولحِق أصحابي إضاقة شديدةٌ ، وظهرت فيهم خلّة عجيبة ، ونفَد ما كان عندي ولم يبق منه قليل ولا كثير ، وأفضيْت الى حال كان أصلَحَ . فلم أدر /121/ إلى أين أهرب ولا كيف آخُذ ، فبقيت متحيّرًا مفكرًا . وأنا والله كذلك نازلا في دار أبوابها حديدٌ ، ولي مستشرفات أجلس فيها إذا شئت ، وعِدةُ غلماني ستّة عشر غلامًا لا أملك غيرهم ، إذْ أنا بالقوّاد والجيش جميعًا قد شَغَبوا عليّ ، وطلبوا أرزاقهم وولعوا جميعًا يشتُمون ، وتكلّموا بكلّ قبيح . وكان الفضل بن سهل بين يديّ ، فأمر بإغلاق الابواب وقال لي : قم ، فأصعد الى المجلس الذي تستشرف فيه ! إشفاقًا

عليّ من دخولهم . وسرعة أخذهم إياي وتعليلا بالصعود . فقلت له : ويحك ، ما يغني الصعود والقوم يدخلون الساعة ليأخذوني ، فلأن أكون بموضع أصلح ! فقال : يا سيدي ، اصعد فوالله لا تنزل الا خليفة ! فجعلت أهزأ به وأعجب منه وأحسب أنه قال ما قال ليشجِّعني ، وأردت الهرب من بعض أبواب الدار، فلم يكن الى ذلك سبيل ، لإحاطة القوم بالدار والابواب كلها ، فألح عليّ الى أن صعدت وأنا وجِلٌ ، فجلست في المستشرفات وأنا أرى العسكر. فلمّا علم الجندُ بصعودي اشتدّ كلَبهم وشتمهم وضجيجهم ، ونادوني بالوعيد والشتم؛ فغلِظتُ على الفضل بن سهل وقلت له : إنك جاهل غِرّ وأبله ، غررتني ولم تدَعْني أُعمل برأيي ، وليس العجب الا ممن قبِل منك ! وهو في هذا يحلِف أنّي لا أنزل الا خليفة . وغيظي عليه وتعجّبي من حمقه ومواصلة الايمان مع ما نشاهده من الحال يزيد . وكان ما أقاسيه منه أشدّ مما أنا فيه من مقاساة الجند. ثم وضع /121ب/ القوم النار في شوْك جمعوه وأدنوه من الدار ، ونقبوا في سورها عدة نقوب ، وثلَموا فيه قطعة . فذهبت نفسي جزعًا وعلمت أنّي بين أن أُحرق وبين أن يصِلوا اليّ ويقتلوني ، فهمَمْت بأن ألقي نفسي اليهم وقدّرت أنهم إذا رأوني استحْيوا وقصّروا . وجعل الفضل بن سهل يقبّل يديّ ورجليّ ويناشدني أن لا أفعل ، وحلف أني لا أنزل الاّ خليفة. وفي يده الأصطرلاب ينظر فيه ، في الوقت بعد الوقت . فلما اشتدّ عليّ الامر واستحكم الناس ، قال: يا سيدي ، قد والله أتاك البشرى والفرَج ، أرى شيئا في الصحراء قد أقبل ومعه فرجُنا ! فازددت من قوله غيظًا ، وأمرت غلماني بتأمّل الصحراء فلم يروا شيئًا ، وجدّ القوم في الهدم والحريق حتى هَممتُ لـمّا دخلني أن أُلقي الفضل بن سهل اليهم . فقال الغلمان : يا سيدي ، إنّا نرى في الصحراء شيئًا قد أقبل يلوح ! فنظرت فإذا بشيء جعل يزيد تِبيانًا الى أن تبيّنوا رجلا على بغل ، ثم قرُب ، فإذا هو يلوِّح . وقرُب من العسكر وقويت له قلوبنا ، ورأى الجند ذلك فتوقّفوا وخالطهم ، فإذا هو يقول : البُشرى ، هذا

رأس علي بن عيسى بن ماهان معي في المخلاة ! فلمّا رأوا ذلك أمسكوا عنّا وانقلبوا بالدعاء الـيّ والسرور بالظفر والفتح . فلمّا عُلم ذلك قال لي الفضل : إئذن في إدخال بعضهم ! فأذنت بشرْط عليهم ، لا يدخُل الاّ من نريد ! فأجابوا الى ذلك ، وسمّى قومًا من القواد ، يعدّه واحدًا بعد واحد . ففعلوا مثل ذلك ، فأطفأ الله تعالى /122/ الثائرة ، ووهب السلامة ، وقلّدني الخلافة ، وظفرت من أموال علي بن عيسى وما في عسكره ما أصلحْنا به أمور جندنا واستقام الامر. انتهى . وكان الفضل بن سهل عالمًا بالنجوم وسياسة الملك ، ذا رأي وحزم .

تدبير قسيس وشورى رئيس

قال في نزهة النفوس : لما خرج طاهر بن الحسين لقتال الأمين اختار له الفضل بن سهل وقتًا ، فعقد فيه لواءه ، وسلمه اليه ثم قال له : قد عقدت لك لواء لا يُحلّ خمسًا وستين سنة ! فكان بين خروج طاهر الى وجه علي بن عيسى وقبْض يعقوب بن الليث الصفّار على محمّد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بمدينة نيسابور خمسًا وستين سنة . قال : وكان المأمون لما عزم على إرسال طاهر فأخبر المأمون بأنه يظفر بالامين ، فتعجب المأمون من إصابته وأولع بالنّظر في علم النجوم . انتهى .

وكان الفضل بن سهل مع علمه وإصابته ، له رأي وتدبير ومعرفة بالأمور . قال في محاسن البلاغة للترمذي : لـمّا خشي المأمون انتقاض بيعته مع أهل خراسان في فتنته مع أخيه الأمين استشار وزيره الفضل بن سهل ، فقال له الفضل : قد قرأتَ القرآن وحديث الرسول ﷺ ، والرأي عندي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحقّ والعمل به ، وإحياء السنن وبسط العدل ، وتُواصلَ النظر في المظالم ، وتُكرم القواد والملوك ، وتعِدهم بالمواعد الكريمة والمراتب السنية والولايات المشاكِلة . ففعل ذلك وحطّ عن أهل خراسان ربع الخراج ،

فمالت وجوه الخلائق إليه وصاروا يقولون : ابن أخينا وابن عمّ رسول الله ﷺ ! وانقاد اليه رافع بن المهلب وكان من عظماء الملوك بخراسان . انتهى .

قال بعضهم : ويدخل تحت هذه الترجمة أمرٌ اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند ، وهو أن يَصطنع وجوه كل قبيلة والمقدمين من كل عشيرة ، فيُحسن الى حَمَلة العلم وحفّاظ الشريعة ، ويزيِّن مجالسهم ، ويقرّب الصالحين والمتزهّدين وكل متمسّك بعروة الدين ، وكذلك فليفعل بالاشراف من كل قبيلة والرؤساء المتبوعين من كل نمط ، فهؤلاء أزمّة الخَلق وبهم يملك من سواهم . فمن كمال السياسة والرئاسة أن يُبقي على كلّ ذي رئاسة رياستَه وعلى كل ذي عزّ عزّه ، وعلى كل ذي منزلة منزلته ؛ فحينئذ تكون الرؤساء أعوانا له ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة فأَخْلِق به أن يدوم سلطانه ؛ فإن العامة والأتباع دون مقدّميهم وساداتهم أجساد بلا رؤوس ، وأشباح بلا أرواح ! انتهى كلامه .

وكان المأمون قد فعل بمقتضى الرأي وما استشار فيه وزيره الفضل فنجح أمره ، وقوي سلطانه ، ودانت له البلاد ، وانقادت له العباد . وكان المأمون في ابتداء هذا الامر قد عظم عليه ما دهمه من /123/ قِبل أخيه الأمين ، فركن الى الاستشارة والتدبّر في هذا الأمر والتقاط كلام الحكماء والتصفّح لأراء العلماء ومن له خبرة بالأمور ، فنجح مقصده وتم طلبه .

حكم رابحة وأمثال ناجحة

ذكر العلامة ابن ظفر في سلوانه : أنّ المأمون لـمّا بلغه خروج علي بن عيسى بن ماهان لقتاله اضطرب أمره ، وعلم عجزه عن مقاومته ، فركب المنتزه له ليناظر وزراءه في تدبير أمره . فعارضه شيخ هرِمٌ من الفرس مستغيثًا به من مظلمة نالته . فلمّا نظر المأمون الى هرمه رقّ له ، وأمر أن يُحمل على دابة ويلحقه الى الموضع الذي قصده ويدخل عليه من غير استئذان . وسار الى أن استقرّ

المأمون ووزراءه في ذلك الموضع الذي قصده ، فدخل عليه الشيخ الفارسي فأمره بالجلوس في حاشية المجلس ، ثم أقبل على حجَبته فأخبرهم بما صنعه أخوه الأمين من القبض على حاشيته وماله وتجهيز ابن ماهان ، وهو يظنّ الشيخ لا يحسن لسان العربية ، وأنّ ما به من الهرم شاغلٌ له عن الإصغاء الى ما هم فيه مما حمله من القلق والاضطراب . فلما رأى القوم المأمون لم يتحفّظ من الشيخ تفاوضوا فيما جلسوا له ، وطالت مناظرتهم الى أن قال أحدهم : الرأي أن تَنتظر الفرَج . فقال غيره : الرأي أن تدخل بعض المعاقل تتحصّن به . وقال آخر : الصواب أن تُعسكر عسكرًا من القوم الذين لا يعرفون علي بن عيسى فنلقاهم بهم . وقال آخر : الرأي أن نبادر بالارسال الى الأمين بطلب الصُّفْح /122ب/ وبذل الانقياد الى أمره . وقال آخر : الرأي أن نجمع أهل النخوة ونزيح عِللهم ونقصد بهم بعض هذه الممالك المجاورة لنا من ممالك الكفار ونجدّ فيهم القتالَ ، فلعلّ الله سبحانه وتعالى أن يُظفرنا بهم فيصيروا الى مملكتنا فتأمَنُنا ، ويسير الينا من هو على رأينا فنتمنّع ونجاهد في سبيل الله عز وجلّ حتى يقضي الله أمره . وقال آخر : الرأي عندي أن نستجير بملك الترك ونستعين به على أخيك الغادر الظالم ، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قِبل لها به . فلما سمع المأمون هذه المقالة ركن اليها وعوّل عليها ثم فكّر وقال : أنجعل للترك على حرب المسلمين سبيلا ؟! وقال لأصحابه : قوموا عنّي ! فنهضوا كلهم .

ونظر الى حاشية المجلس فرأى الشيخ الفارسيّ ، فقرّبه ورفق به وسأله عن أمره وما قصَد له ، على لسان ترجمان أقامه . فقال الشيخ بلسان عربي : أيّها الامير إني جئت لحاجة فعرَض لي دونها ما هو آكدُ منها وأولى بالعناية اليها .

فقال المأمون : قل ما أحببت . فقال الشيخ : أيها الأمير ، إني دخلت عليك وأنا غير متّصف بالمحبة لك ، ثم قد ألقى الله تعالى في قلبي من المحبة للأمير ما كفّى وملأ . وقد قالت الاوّلون الرِّق ثلاثة أنواع ، فأوّلها وأشدّها الاستعناء (من قوله تعالى : وعَنَت الوجوه للحي القيوم . أي خضعت وذلت) بالباطن

والظاهر، وهو رقّ الاختراع ، وهو الرّقّ لله ، صانع الاشياء ومخترعها ؛ وثانيها رقّ الأتباع ، وهو صنفان : أحدهما رقّ الحبّ ، وهو أقرب الى رقّ الاختراع ، لأن له سلطانًا مبسوطًا على الظاهر /124/ والباطن ، والثاني رقّ الرعيّة لراعيها والعبيد لساداتها ؛ والثالث رقّ الاصطناع . فإن رأى الامير ــ أعزّه الله تعالى ــ أن أخبره بأنه قد تظافرت له عليّ ثلاث قوى من الرقّ ، رقّ المحبّة ، ورقّ الاصطناع ، ورقّ الاتّباع . فإن رأى الامير يُوصِل وسيلتي ، ويُصْدِق أملي ، ويسعف طلِبيتي فيُلْحِقني برداء اختصاصه ، ويُكرمني بمكاثرة أوليائه ونصحائه فعَل ذلك متطوّلا به غير محتاج اليه ، فإن عبدَه ليرجو أن يصادف الصنيعة منه شاكرًا واختصاصه منه ناصحًا . فقال له المأمون : ما دينك أيها الشيخ ؟ فقال : مجوسيّ ، ولا يصدّق الأمير عني حقارة قدري ؛ وقد قيل لا تحقِرَنّ من الأتباع أحدًا ، فإنك تنتفع به كائنًا ما كان ؛ وهو أحد رجلين ، إما شريف فتتجمّل به ، أو وضيع فتحمي عرضك وتصون به مرتبتك ؛ وعلى أني لست أعني حقارة قدري عند الأمير حقارةَ أخلاق ولا حقارة أعراق . فأمّا أخلاقي فامتحانها بيد الأمير ، وأما أعراقي فإني بُرْهميّ من ولد البُرْهمان ، سيّد ملوك الفرس المتوسطة بينها وبين أول الاوائل ، وإنما أعني حقارة ديني عند الأمير وكوني في عِقْر ذِمّته وصَغار جزيته . فقال له المأمون : ما بنا عنك رغبة أيها الشيخ وإن انقلبتَ من ذمّتنا الى مِلّتنا ألحقناك شِعارًا (الشعار ما ولي الجسد من الثياب ، أي ألحقناك بمكان الشعار من الثياب بالجسد) . فقال الشيخ : إن الباعث من نفسي الى ما دعاني الأمير اليه لشديد ؛ ولكنّي لم تفعله نفسي في مقامي هذا ، ولَعليّ أن أفعلَه فيما بعده . ثم قال : أيأذن لي الأمير أن أتكلم فيما فاوَض الآن وزراءه فيه . فقال له المأمون : /124ب/ قل ! فقال الشيخ : سمعت ما أشار به وزراء الأمير ، وكل منهم مجتهد في الإصابة ، ولست أرضى شيئا مما ذهبوا اليه . فقال المأمون : أطلِعْنا على رأيك ايها الشيخ ! فقال : إني أجد في الحِكم التي ورثها آبائي عن آبائهم أنه ينبغي للعاقل إذا دهَمَه ما لا قِبل له به أن

يلزم الصّبر والتسليم لحكم قاسم الحظوظ ، ولا يضيّع مع ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته ، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العَذَر . فقال له المأمون : أيها الشيخ ، إنه كان يقال لا رأي للكَذوب ، وقد سمحتْ أنفسنا لك بالثقة من غير امتحان ، وما ذلك لاختبارنا لإضاعة الحزم ، ولكنّا أحببنا أن نذيقه ثمرَة حبّنا بالمكاشفة الدالة على القبول ، وها نحن نخبرك أن هذا المتوجِّه إلينا ـ يعني علي بن عيسى بن ماهان ـ هو أملك للبلد منّا ، ثم لا يمكننا مقاومته، ولو أردنا ذلك لتعذر الأمر دوننا . فقال الشيخ : أيها الأمير ، ينبغي أن تمحو هذا الأمر من قلبك بالجملة ، ولا تصغي الى من ينطق به ؛ وقد قيل : ما كبُر من كبَّره البغي ، ولا قوي من قوّاه الظلم ، ولا ملك من ملكه الغضب . وها أنا أحدثك عمّن إن حذوت مثاله نلت مناله . فقال له المأمون : هات !

فقال الشيخ : إن الخنشوار ملك الهياطلة لـمّا أسَر فيروز بن يزدجرد ملك الفرس وأراد إطلاقه أخذ عليه عهدًا ألاّ يغزوه ولا يقصُدَه بمكروه ؛ ووضع في أقصى تخوم أرض الهياطلة صخرة وأخذ عليه من العهد والمواثيق ما شدد عليه ألا يتجاوز تلك الصخرة . ولما استوثق /125/ الخنشوار من فيروز بما أخذه عليه من العهد أطلقه . فحين خرج فيروز الى بلاده ودار سكناه داخلته الحميّة والإفاقة ، فعزم على غزو الخنشوار ؛ واطلع وزراءه على ذلك فحذروه وخوّفوه عاقبة البغي . فما ذرَعه ذلك عمّا همّ به ، فأذكروه العهود والمواثيق التي أخذ عليه الخنشوار . فقال لهم : إنّي ما حلَفت إلاّ أن أتجاوز تلك الصخرة ؛ وأنا آمر بحَمْلها أمامي على فيل ، فتكون بين يدي جنودي لا يتجاوزها أحدٌ منهم . فلما رأوا أن الهوى قد وقف على حدّ الرضى بهذا القول علموا يقينا انقياد عقله الى شهوته . فسكتوا عنه واعتقدوا أن لا يراجعوه في ذلك .

وقد قالت الحكماء : الهوى صدًى يعلو العقل ، فلا تنطبع فيه صورة الحقائق . ومتى لم يبلغ الهوى حدّ اللَّجاج فهو نشأة السُّكر ، فإذا بلَغ اللّجاجَ فذلك ريّ السُّكر وقوةُ سلطانه . ولا يُرْشد تابعُ الهوى في حال استيلاء الشهوة

أو الغضب عليه . فلا يزال العقل ناظرًا الى الهوى ، قاهرًا له ما لم يحجُبه غضب أو شهوة ، فحينئذ ينشَط سلطان الهوى وينفُذ حكمه ، لأنها حال احتجاب عقله . وذلك أن الهوى أملك بالنّفس لتقدّم سلطانه عليها ، فأمّا سلطان العقل فطارىء مستفادٌ . وللعقل حاجبان وهما الشهوة والغضب .

قال : فجمع فيروزُ مرازبته ، وهم أربعة يتبْع كل واحد منهم خمسون ألفًا من المقاتلة ، وكل واحد منهم ضابط لربّع من أرباع المملكة ، وأمرهم أن يتجهّزوا لقتال الهياطلة . /125ب/ ففعلوا . وسار فيروز نحو الخنشوار بجيوش يظن أنه لا غالب له . وكان الخنشوار يضعُف عن مقاومة فيروز ، بل عن مقاومة أميرين من أمرائه ، وإنما كان ظفره به أوّلا بمكيدة ليس هذا موضع ذكرها .

وقد كان موبذان قال لفيروز لما رأى عزمه على هزم الخنشوار : لا تفعل أيها الملك ، فإن ربّ العالم يمهِل الملوك على الجوْر ما لم يهدِموا أركان الشريعة ولا يتعرّضوا لها بسوء ، فإذا أُخذوا في ذلك لم يمهلهم ، وإن العهود والمواثيق ركن من أركان الشريعة ؛ فلا تتعرّض له بسوء ! فلم يلتفت فيروز الى هذه المقالة ، وركب رأيه في معصية نصحائه .

وقد قالت الحكماء : يُستدلّ على إدبار الملك بخمسة فصول ، **أحدها** أن يستكفِي بالأحداث من لا خبرة له بالعواقب في الامور ؛ **الثاني** أن يقصد أهل محبّته ومودته بالأذى ؛ **الثالث** أن يكون مستغَلّ بلاده وخراجه أقل من كفاية جهاز أجناده ؛ فيفسُد مُلكه ، ويطمع فيه عدوّه ، بل يعِد في رعيّته بعمارة بلاده فيكثر مالها وتستقيم دولته ؛ **الرابع** أن يكون تقريبه لأهل الهوى وإبعاده لأهل الرأي ؛ الخامس استهانته بنُصّاحه العُلا وذوي الرأي الصائب وذي الحكمة والعفة . ومن عصى نُصّاحه فقد استفاد أعداء . وإنما يكون قبول الصواب وردّه بحسب التخيّل الفكري وضعفه ، فمن قوِيَ تخيّل فكره فهو في سلطان الهوى مغلوب . وعلى هذا القانون فقس ؛ فمن عُدِم الفكرة بالأمور التحق بالبهائم .

ثم /126/ قال الشيخ الفارسي : وإنّ فيروزًا سار قاصدًا نحو الخنشوار حتى انتهى الى تلك الصخرة التى نصبها الخنشوار واستحلف فيروزًا ألاّ يتعدّاها . فأمر فيروز بنقلها وحملها على فيل ، وأمر أن يكون الفيل الذي يحملها بين يدي عسكره ، ونهوا أن لا أحد من عسكره يتجاوز ذلك الفيل . فلما أبعَدَ عن ذلك الموضع الذي كانت الصخرة فيه جاءه رجل من ثِقات أصحابه وأخبره أن أسْوارًا من أساورته قتل رجلا مسكينًا ظلمًا وعدوانًا ؛ وجاء أخو ذلك المسكين المقتول فاستغاث بفيروز ، وتظلم من الأسوار قاتل أخيه . فأمر فيروز بمال عظيم يرضيه به من دم أخيه ، فأبى قبول المال وقال : لا يرضيني الا دم قاتل أخي ! فأمر فيروز بطرده . فانطلق من فوره الى ذلك الاسوار الذي قتل أخاه فشدّ عليه بخنجر في يده ، فلما رآه الاسوار تحرّك هاربًا بفرسه بين يديه . وانتهى الخبر الى فيروز ، فتعجب من ذلك . فنزل وزير من وزراء فيروز عن دابته وتقدم بين يديه ، فسأله عن أمره فسجد له وذكر أنه يريد الخلوة معه في أمر مهمّ عرض له . فأمر فيروز فضُرب له فُسطاط ونزل فيه ، وأذن له بالدخول فدخل عليه ، وأمر له بذكر ما عنده . فقال : أيها السعيد ، ملكت الاقاليم السبعة ، وعمّرت عُمْر بني راسف في عزتهم وقوتهم ، ولقد ظهرت عناية أوّل الاوائل بك بما ضُرب لك من المثل في أمر هذا الأسْوار إذ كان نجْدًا هرَب بين يدي رجل مسكين في يده خنجر وما ذلك الا لبَغْيه وتعدّيه . فقال فيروز : إنه لن يفرّ منه لعجزه ولكن لخوفه مني ، /126ب/ وإلا فلم يكن يفعل تلك الفعلة القبيحة ثم يضُمّ اليها مثلها ! فقال الوزير : أيها الملك ، أرأيت إن دعوته الى مبارزة ذلك المسكين الثائر بأخيه ، فأمّنته من سطوتك ، فظَهَر ذلك المسكين عليه ، أما تعلم أنّ هذا مثَل ضربه الله سبحانه وتعالى لك ! فقال الملك : لأفعلنّ ذلك . ثم إنه أحضر الأسوار وأمّنه وأمره بمبارزة ذلك المسكين . فأجاب الى ذلك وجمع عليه سلاحه وركب فرسه . وأتى بذلك المسكين ، فعُرضت عليه مبارزة الاسوار ، فأظهر الرغبة فيها والحرص عليها . فخُوّف من الهلاك ، فلم

يخف . فقيل له : أما ترى درعه وسلاحه وفرسه ، أما سمعت بفروسيته وعُدّته ونخوته وإقدامه ، إنك مُهلك نفسك ومستميت ، ولا إثم علينا فيك ! قال لهم المسكين : دعوني وإياه ، فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة ، وهو لابس درع الشك ، وأنا لابس درع اليقين والثقة ، وهو مقاتل بسيف البغي ، وأنا مقاتل بسيف الحق ! فقال الوزير : أيها الملك إن كلام المسكين أبلغ من الموعظة من ظفره بهذا الأسوار ، فصن أسوارك واستبق نفسه ولا تعرّضه للمهلكة بلقاء هذا المسكين ، واعمل في رضى هذا المسكين بالاحسان اليه ، فإن لم يرضه الا القصاص فاقتصّ له بالعدل المألوف منك ، واستدم عناية قيم العالِم الاوّل والآخر بعد أُتيك بالحق الذي يرضيه العمل به ، ولا تسخطه لاحتقارك ! فقال فيروز : لا بد أن أخلّي بينهما ، وأنظر ما يكون منهما إن كان المسكين يختار ذلك ويرغب /127/ فيه . فأعادوا عرض مبارزته على المسكين ، فأصرّ على الرغبة فيها والحرص عليها ، وخوّفوه الهلاك فلم يخف ، ولم يزده تخويفهم الا جرأة وإقدامًا . فقيل للأسوار : ألْقه ولا تخف ولا تحِدْ عنه . فحمل كلّ منهما على صاحبه فالتقيا وقبض المسكين شكيمة فرس الأسوار ، فضربه الأسوار ضربة فطأطأ المسكين لها ، فأصاب ذباب السيف أليته فأثّر فيها أثرًا ليس بالكثير ، ثم ثار المسكين فضربه بالخنجر في عنقه وجذبه فصرعه ، وضربه بالخنجر ضربة أخرى ، فأدخل حلقات من الدرع في جوفه وقضى عليه . فبات فيروز تلك الليلة في موضعه ذلك مفكرًا فيما يأتيه . ثم استعاد لهواه وسار لطريقه بوجهه .

وقد قالت الحكماء : الهوى هوْن ، وأخذه هوان . وللهوى طاغية ، فمن ملكه أهلكه . والهوى كالنار إذا استحكم إيقادها عسُر إخمادها ، وكالسيول إذا اتصل مدها تعذّر صدّها ، وليس الأسير من آسره وأوثقه أعداؤه أسرا ، إنما الأسير من أوثقه هواه قهرًا وأرهقه حسرًا .

قال الشيخ : ولما علم الخنشوار قصد فيروز لحربه حمَل نفسه على التثبّت

ووكل الأمر على الاوّل الآخر ، وسأله أن يقضي لعهوده ومواثيقه التي لم يرع فيروز حقّها ، ولا خاف تبعة نكثها ؛ وأخذ بعد ذلك لحظة (في الاصل : لحضة) من الحزم ومن العزم والجيش والسلاح ، فسدّ ثغوره وجمع اليه جنوده وأعدّ للقاء فيروز عُدة ، وأمهله حتى وطىء /127ب/ كثيرًا من بلاده وتوسّط مملكته وعاث فيها وساء على الرعية أثره ، فنهض اليه فأجابه وصدقه الجلاد . فانكشف فيروز منهزمًا وأسلم ما كان في يده . فقَتل الخنشوار رجاله ونهب أمواله وأجدّ في طلب فيروز حتى ظفر به فقتله وآسر أهل بيته ؛ وحمى أصحابه وكانت العاقبة له .

فلما سمع المأمون ذلك وما أظهره الشيخ من ضرب الأمثال أقبل عليه مستبشرًا ، وقال له : قد سمعنا مقالتك ، فصادف منّا قبولا لها وشكرًا عليها وسرورًا بها ، فماذا ترى فيما دعوتك اليه من توحيد الله تعالى الذي أخذك من العقل حظك ، وفتَق بالمعرفة فكرك ، وأنطق بالحكمة لسانك ، وقطع بمحمّد ﷺ عُذْرك ؟ فقال : أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ! فسرّ المأمون بذلك ، وأجزل صلته ، وقرّب منزلته ، وألحقه بحجبته وأمره بملازمته . فما لبث الا أيامًا قلائل حتى لحق بربّه رحمة الله تعالى عليه . وعمل المأمون برأيه ، فأنجح الله سبحانه وتعالى عمَله ، وبلّغه من الخلافة أمله . انتهى ما ذكر صاحب السلوان .

وكان المأمون قد قد تثبّت في أمره مع أخيه ، ولم يبادر الى شيء مما كان بينه وبين أخيه الاّ بعد النظر والتفكّر والشورى والتدّبر ؛ فكان أوّل ما ابتدأ به أن جهز طاهر بن الحسين الى قتال ابن ماهان ، القادم من قبل أخيه ، فسار طاهر لقتاله وهزمه وبعث برأسه للمأمون ، على حسب ما قدّمناه غير مرة (113 وما بعدها) .

قال طاهر بن الحسين : وكان /128/ قتال علي بن عيسى عند رأي ذوبان .

وكان ذوبان هذا من رجال ملك تلمسان ، كان قد وجهه مِلكه هدية الى المأمون ، وكتب له : «إني وجهت لك بهدية ليس في الارض أسنى منها ، ولا

أرفع ، ولا أنبل ، ولا أفخر منها» . فعجب المأمون وقال للفضل بن سهل : سل الشيخ . يعني ذوبان ، وكان هذا الذي ساق الكتاب الى المأمون من ملك تلمسان. فسأله الفضل بن سهل فيما أتى به من الهدية . فقال : ما معي شيء أكثر من علمي! فقال الفضل : أيّ شيء هو علمك ؟ فقال : رأي ينفع ، وتدبير يقطع ، ودلالة تجمع! فردّ ذلك على المأمون وعلِمَه . الى أن أجمع على أن يوجه طاهرًا الى لقاء علي بن عيسى ، فدعا ذوبان وقال له : ما ترى في التوجّه الى ابن ماهان والى العراق؟ فقال ذوبان : رأي وثيق ، وأمر وفيق ، وحزم مصيب ، ومُلْك قريب ، واليُسْر ماض ، فاقض ما أُنت قاض ! قال : فمن توجّه؟ قال : الفتى الأعور . الطاهريّ الأطهر . يسير ولا يفتُر . قويّ مرهوب . مقاتل غير مغلوب ! قال : وكم نوجّه معه من الجند ؟ قال : أُربعة آلاف من الأسياف ، لا تنقص من العدد ، ولا يحتاج الى مدد ! فوجّه بطاهر بن الحسين . ثم قال : وفي أي وقت يخرج ؟ قال : مع طلوع الفجر، يجتمع له الأمر ، ويصير له النّصر ؛ نصرٌ سريع ، وقتل ذريع ، والنصر له لا عليه ، ثم يُرفع الامر لك واليه .

فعمل المأمون برأيه ، فظفر طاهر وقتل ابن ماهان قائد الامين ووزيره ، واستولى على عسكره وأمواله . فأمر المأمون لذوبان بمائة أُلف . فلم يقبلها وقال: أيها الملك ، إنّ مِلِكي لم يوجّهني لأنقصك من مالك ، فلا تجعل ردّي لنعمتك سخطًا ؛ وسأقبل ما /128ب/ يفِيء لهذا المال ويزيد . قال : ما هو ؟ فقال : كتابٌ يوجد بالعراق ، فيه مكارم الاخلاق ، وعلوم الآفاق ، وهو من كتب عظيم الفرس ، فيه شفاء للنفس ؛ به من صنوف الآداب ، ما ليس يوجد في كتاب عند عاقل لبيب ، ولا فطن أريب ، يوجد في خزائن الإيوان ، لا زائد عليه ولا نقصان ؛ فاْحفر المدَر ، واْقلع الحجر ، فإذا وصلت الى الساحة فاقلعها تجد الحاجة ، ولا تقصد غيرها ، فيلزمك ضيْرها .

فأرسل المأمون الى ايوان كسرى ، فحفر في وسطه ، فوجد صندوقًا صغيرًا

من زجاج أسود عليه قفل منه . فحُمل الى المأمون فقال لذوبان : هذه بغيتك ؟! قال : نعم ، أيها الملك . قال : خذه . فأخذه ذوبان وتكلم بلسانه ، ونفخ على القفل ، فانفتح فأخرج منه سَرَقَة (في الدرّ ، قطعة . والسّرقة من السّرق وهو شقق الحرير . وهو تعريب «سَرَه» بمعنى جيّد في الفارسية) ديباج ، فنشرها فسقط منها أوراق عددها مائة ورقة ، ولم يكن في الصندوق شيء غيرها . فأخذ الاوراق وانصرف الى منزله .

قال الفضل بن سهل فجئته فسألته عنها فقال : هذا كتاب جاوند بن جرد تأليف مهجور وزير أنو شروان . فطلبت منه شيئا فأعطاني ورقات منه ، فترجمها عليّ الحضرميّ فحملتها الى المأمون فقرأها فقال : هذا كلام والله ما نحن عليه من منزلة ألسنتنا ، وبحَوْله تشادُقنا ، ولو لا أنّ العهد حَبْل طرفه بيده وطرفه بأيدينا لأخذته منه . انتهى كذا حكاه بعضهم وأظنّ أنّ ذلك منقول من شرح منظومة ابن عبدون ، والله تعالى أعلم .

ثم إنّ المأمون لا زال في قتال أخيه الامين ومحاصرة بغداد الى أن قتل الامين واستوسق الأمر للمأمون والتفتْ نحوه الساق ، /129/ وتمت بيعته في سائر الآفاق .

قال في نزهة النفوس : لـمّا استقرّ الأمر للمأمون بعد قتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة اكتنى بأبي جعفر . قال الصولي : وكانوا يحبّون هذه الكنية لأنها كنية المنصور ، وكان لهم في نفوسهم جلالة وتفاؤلا بطول عمر من اكتنى بها كالمنصور والرشيد . ولـمّا طابت له الخلافة ، وانقاد له الناس وأشراف بني هاشم أولى طاهرَ بن الحسين العراق ، وسـمّاه بذي اليمين واستوزر الفضل بن سهل ، وفوّض الأمر اليه حتى غلب عليه ؛ فكان إذا جاء الى باب الخليفة ينزِل في محفّة معدَّة اليه ، فيجلس فيها ، وتحمله القوّاد على أعناق الرجال حتى يجلسوه مع الخليفة المأمون على السرير ، وسـمّاه بذي الرئاستين ، وكانت له مرتبة عنده لا يُشارَك فيها ولا يعارَض فيما يتَصَرّفه بوجه . انتهى .

فحص جراب وفصح خطاب

ذكر في الشهب اللامعة في السياسة الجامعة قال : لـمّا استقرّ الامر لعبد الله المأمون جلس يومًا في مجلس مُذاكرته إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب . فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل واقف بالباب ، عليه ثياب غلاظ مشمّرة ، يطلب الدخول ؛ فعلمتُ أنه بعض الصوفية فأردت أن أشير بأن لا يؤذن له . فبدأ المأمون فقال : إئذن له ! فدخل رجل عليه ثياب قد شمّرها ، ونعْله في يده . فوقف على طرف البساط ثم قال له : أتأذَن في الدنوّ منك ؟ فقال المأمون : تكلّم بما تعلم أنّ للّه فيه رضًى . قال : أخبرُك عن هذا المجلس الذي أنت فيه ، /129ب/ جلستَه بإجماع من المسلمين عليك ورضًى بك أم بالغلبة لهم والقوة عليهم بسلطانك ؟ قال : لم أجلسه بإجماع منهم ولا مغالبة لهم ، بل كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي ، احتمله المسلمون إمّا على رضًى وإمّا على كُره ، فعقَد لي ولآخَر معي ولايةَ هذا الامر في أعناق من حضَر من المسلمين ، وأخذ على من حضَر ببيت الله الحرام من الحاج البيعةَ لي ولآخر معي ، فأعطوْه ذلك إمّا طائعين وإمّا كارهين ؛ فمضى الذى عُقد له معي على السبيل التى مضى عليها . فلمّا صار الأمر لي علمت أني احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها على الرضى بي ، ثم نظرت فرأيت أنّي متى خَلّيتُ على المسلمين أمورَهم اضطرب حبل الاسلام ، وخرج عهدهم ، وانتقضت أطرافهم ، وغلب على الناس الهرج والفتنة ، ووقع التنازع ، فبطَلت أحكام الله ، ولم يحجّ أحد بيت الله الحرام ، ولم يجاهد الناس في سبيله ، ولم يكن لهم سلطان يسوسهم ويجمعهم ، وانتقضت السُّبل ، ولم يؤخذ لعدوّهم . وضابطًا لسبيلهم وآخذًا على أيديهم قصدًا أن يجتمع المسلمون على رجل تتّفق كلمتهم على الرضى به (الجملة من قوله : وضابطا لسبيلهم . . الخ غير واضحة المعنى ، ربّما بسبب نقص فيها) . فأسلّم الأمر اليه وأكون كرجل من المسلمين فمتى

اجتمعوا على رجل من المسلمين ورضوا به خرجت اليه عن هذا الأمر . فقال : السلام عليكم ورحمة الله . وقام ، فأمر المأمون علي بن صالح الحاجب أن يوجّه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد .

ففعل ذلك ثم رجع اليه فقال : يا أمير المؤمنين ، وجّهت من اتبع /130/ الرجل فمضى الى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً في مثل هيئته وزيّه فقالوا : لقيتَ الرجل ؟ قال : نعم ! قالوا له : فما قاله ؟ قال : ما قال الاّ خيرًا ، ذكر أنه ضبط أمر المسلمين حتى تأمن سبلهم ، ويقوم الحجّ ، ويجاهد في سبيل الله ، ويؤخذ للمظلوم من الظالم ، ولا تتعطل الاحكام ، فإذا رضي المسلمون بإمام وأجمعوا عليه سلّم الأمر اليه ، وخرج اليه منه . فقالوا : لسنا نرى بهذا الأمر بأسًا ؛ وافترقوا . قال يحيى بن أكثم : فأقبل عليّ المأمون وقال : يا أبا محمد ، كُفينا مؤنة هؤلاء بأيسر خطب ! فقلت : الحمد لله على ما ألهمك من السَّداد والصواب في القول والفعل . انتهى كلام صاحب الشهب .

قيل لـمّا أن غلب الفضل بن سهل على المأمون ، وصار الرأي له دبّر في استيلاء أخيه الحسن بن سهل على العراق وعزْل طاهر عنها . وكان طاهر نائب العراق وخراسان بكمالهما . فكتب اليه المأمون سنة تسع وتسعين أن يتنحّى عن العراق ويسلّم ما افتتحه من البلاد الى الحسن بن سهل ، وأن يتوجه طاهر الى الرقّة ؛ وقد وَلِيَه الموصلُ والشام والجزيرة والمغرب .

فانعزل طاهر عن العراق وسار الى الموصل ، فكان ذلك سبب ظهور المارقين على المأمون مع ما تحدّث الناس بينهم ، من أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وحجبه عن الناس وتُبْرَم الأمور على هواه . فهاجت بسبب ذلك الفتن بالعراق ، وكثرت القيام ، وعمّ البلاء بالعَيّارين والشُّطّار والفسّاق ببغداد /130ب/ وما حولها من القرى . فكانوا يأتون الرجل فيسألونه مالا يُقرضهم ، فيمتنع عليهم فيأخذون جميع ما في يده ؛ وربما يعترضون للنّسوان والصبيان علانية . وقطعوا الطريق ، ونهبوا القرى مكابرة . ويأتون أهل القرية فيأكلون

ما فيها من الانعام ويأخذون ما شاءوا مع ذلك من الغلمان والنّسوان ، وانتهبوا أهلَ قصرٌ ، فلم يدَعوا لهم شيئا أصلا . وبقي الناس معهم في بلاء عظيم ، فتجمع أهل بعض المحال من بغداد مع رجل انتدبوه ، يقال له خالد بن درويش وآخر يقال له أبو حاتم سهل بن سلامة الانصاري ، من أهل خراسان ، فكان سهل المذكور قد عُلّق مُصحف في عنقه ، وأمَر بالمعروف ونهى عن المنكر ؛ فقبل الناس منه والتفّت عليهما جماعة من العامة فردّوا شرَّ الفساق ، وشدوا على من يليهم من المفسدين ، وقاتلوهم وانتصروا عليهم ، ومنعوهم من العبث في الارض ، واستقرت الأمور كما كانت .

وكان قيام سهل المذكور لأربع خلون من رمضان وقيام ابن درويش قبله بثلاثة أيام . كذا حكى ذلك الملك المؤيد .

وكان قبل ذلك قد قام ابن طَبَاطَبَا العلوي سنة مائتين ، وهو محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . قام بالكوفة يدعو الناس الى الرضا من آل محمد ، وكان القائم بأمره السرّيّ، وكنيته أبو السرايا بن منصور . فبايعه أهل الكوفة واستوسق أمره ، فأرسل اليه الحسن بن سهل زهيرَ بن /131/ المسيّب الضبّي في عشرة آلاف مقاتل ، فهزمهم ابن طباطبا واستولى على ما معهم . وكانت الوقعة في جمادى الأخيرة من السنة المذكورة . ثم إن أبا السرايا سَمّ ابن طباطبا ومات فجأة في مستهلّ رجب ، وأقام غلاما مكانه من وُلْد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، يقال له زيد ، جعله أبو السرايا صورة ليستبد بالأمر ، وقد عَلم أنه لا حكم له مع ابن طباطبا .

وقد قوي أمر أبي السرايا واستولى على البصرة وواسط فأرسل اليه المأمون عسكرًا ، وجرى بين الفريقين عدة وقائع يطول شرحها . فوجه المأمون في آخر هذه السنة الى أبي السرايا هرثمة بن أعين ؛ فحاصره في الكوفة في عسكر قليل ، وسار الى حلوان وتفرّق عنه أصحابه . فظفِر به الكندغوس وبعث به ومن معه

الى الحسن بن سهل ، وهو بالنّهروان ، فقتله وبعث برأسه الى المأمون .

واستقرّت الفتن بالعراق ، فرجع هرثمة بن أعين من الكوفة الى جهة المأمون بعد فراغه من أبي السرايا ، فوردت عليه مكاتبات المأمون بأن يسير الى الشام والحجاز ، وقد ظهر هناك ابراهيمُ الجزّار . سُمّي بذلك لكثرة من قتل . وهو ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . قام وسار الى اليمن وأزعج منها اسحاق بن موسى العباسي ، عامل المأمون ، واستولى ابراهيم المذكور على اليمن . فبعث المأمون الى هرثمة وهو قادم اليه أن يرجع ويسير الى الحجاز .

فحملت هرثمةَ /131ب/ الدالةُ ، وكثُرتْ مناصحتُه على القدوم على المأمون ومخالفة مرسومه . وكان بين هرثمة وبين الحسن بن سهل عداوة ، فدسّ الحسن الى أصحاب المأمون بالحطّ على هرثمة . وكان هرثمة يظنّ أن قوله هو المقبول في حقّ الحسن بن سهل . فلما قدِم هرثمة على المأمون بمرو ضربَه وحبسه ودسّ اليه من قتله ، وهو بالحبس ، وقالوا مات . انتهى كذا ذكر هذا المؤيد وغيره . فكانت وفاته سنة مائتين ، وانتقم الله منه للأمين بمحاصرته إياه وإعانة طاهر على هُلْكه ، وكذا ينتقم الله من طاهر .

ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان أنّ طاهر بن الحسين دخل يومًا على المأمون في حاجة ، فلما رآه المأمون بكى حتى أغرقت عيناه بالدموع . فقال له طاهر : يا أمير المؤمنين ، لمَ تبكي ، لا أبكى الله عيناك (أسقط الاعراب إما على لغة أو على سبيل المخاطبات) ، وقد دانت لك الدنيا ، وبلَغْت الأماني ؟! فقال : أبكي لا عن ذلّ ولا عن حزن ، ولكن لا يخلو نفس عن شجَن . فاغتم طاهر لذلك غمّا شديدًا ، وفكّر في اطلاعه على بكاء المأمون ، فأتى الى حسين الخادم ، وكان يحجب المأمون في خلواته فقال له طاهر : أريد أن تسأل المأمون عن موجب بكائه عندما رآني ، ولك مني مائة ألف دينار ! فلما كان المأمون في بعض خلواته ، وهو طيّب الخاطر قال له حسين الخادم : يا أمير المأمنين ، لم

بكيت لـمّا دخل عليك طاهر ؟ فقال له : ما لك ولهذا ويلك ؟ قال : غمّني بكاؤك ! قال : هو أمر إن خرج من سِرّك أخذته ! فقال : يا سيدي ، ومتى أبحت لك سرّا ؟! فقال : /132/ إني ذكرت محمدًا أخي ، وما أناله من الذِلّة ، فخنقتني العَبرة ، وأين يفوتُ طاهر مني ، والله لآخذنّه بدم أخي ، وأين تروح الشمس من القصّارات ! (في الاصل : القصّرات ، وهو من تقصير الثياب) .

فأخبر حسينٌ المذكور طاهرًا بذلك ، فركب طاهر الى أحمد بن أبي خالد فقال له : إن الثناء منّي ليس برخيص ، وإنّ المعروف عندي ليس بضائع ! قال : وما ذاك ؟ قال له : تُغيّبني عن المأمون ! قال : سأفعل . فبكِّر اليّ غد . وركب أحمد بن خالد الى المأمون فقال له : أمير المؤمنين ، لم أنم البارحة ! فقال : ولم ؟ قال : لأنك وليت خراسان غسان ، وهو ومن معه أَكَلَةُ رأس ، وأخاف أن يصطلمه مُصطلم . فقال : فمن ترى نولّي ؟ قال : طاهر . فقال : هو خالع ! قال أحمد : أنا ضامن . فدعا به وعقد له على خراسان من ساعته ، وأهدى له خادمًا كان ربّاه ، وأمره إن رأى ما يريبه أن يسُمّه .

فلما تمكّن طاهر من الولاية صعد يوم جمعةٍ المنبرَ وخطب ، فلما بلغ ذكرُ الخليفة ، أمسك . فكتب صاحب البريد الى المأمون بذلك . فأصبح طاهر يوم السبت ميّتًا . فكتب صاحب البريد أيضًا يخبره بموت طاهر يوم السبت . فوصلت الخريطة الأولى بخلعه الخليفة . فدعا المأمون أحمد بن أبي خالد وقال له : إشخص الآن وآت به كما ضمِنت . وأكرَهَه على المسير في يومه ، ثم بعد شدائد أُذِن له في المبيت ليلته . فوافت الخريطة الثانية في يومه بموته . انتهى .

قال النويري في تاريخه : توفي يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين بمدينة مرو ، وكان مولده سنة تسع وخمسين ومائة . /132ب/ قال : وهو طاهر بن الحسين بن مصعب بن رُزيْق بن ماهان ، وكنيته أبو الطيّب . وقيل إن جدّه رزيق بن أسعد بن راوية . وقيل أسعد بن زادان ، وقيل مصعب بن طلحة بن رزيق الخزاعي بالولاء . كان جدّه رزيق بن ماهان

مولى طلحة الطَّلَحات الخزاعي المشهور بالجود والكرم المفرط . وكان طلحة أحد نُقباء الدولة العباسية من أصحاب أبي مسلم الخراساني ، وكان يلقب أمير آل محمد . وكان طاهر من أكابر أعوان المأمون ، وكان نائب العراق بكمالها وخراسان بكمالها . ويقال إنه خلع طاعة المأمون ، فبلغ المأمون ذلك ، فقلق منه قلقًا شديدًا . ثم جاءته كتب البريد في ثاني يوم أنه أصابَتْه عقِب خلعه له حُمّى فوُجد في فراشه ميتًا . وقيل إنه أصابته في جفن عينه حادثة فسقط ميتًا . انتهى .

وقال ابن كثير : وُجد في فراشه ميتًا ، بعدما صلّى العشاء الآخرة والتفّ في الفراش ، فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر . فدخل عليه أخوه وعمّه فوجداه ميتًا . فلما بلغ المأمون موته قال : لليدين والفم ! وذلك أنه بلغه أنه خطب يومًا فلم يدعو له فوق المنبر . انتهى .

وقال بعضهم : وقيل إن المأمون دسّ له من سمّه . وقال الجلال السيوطي : إنّ المأمون طرده فبقي نسيًا منسيًا . انتهى .

قال ابن خلكان : وكان طاهر يلقب بذي اليمينين . واختلفوا في تلقيبه بذلك لأي معنى كان ، فقيل لأنه ضرب شخصًا في وقعته مع ابن ماهان فقدّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره ، فقال فيه بعض الشعراء : /133/ «كلتا يديك يمين حميني (؟) بضربة» ، فلقّبه المأمون لذلك بذي اليمينين .

قال ابن كثير : ويحتمل أنه لقب بذلك لأنه ولي العراق وخراسان .

وقال بعضهم : يحتمل أنه لقب بذلك ، لأنه صاحب يمين أحداهما الجارحة والأخرى العهد الثابت الذي هو عليه .

وكان طاهر أعور ، له عين واحدة ؛ فقال فيه عمرو بن ثابت :

يا ذا اليمينين وعين واحده نقصان عين ويمين زائده

وكان شجاعًا كريما أديبًا ممدَّحًا . يحبّ الشعر ويجزل عليه الجزيل . حكي عنه أنه ركب يومًا ببغداد في حُرّاقته فاعترضه مقدّس الخلوقي الشاعر ، وقد

أذنت الحراقة من الشط ليخرج ، فقال : أيها الامير ، إن رأيتَ أن تسمع منّي أبياتًا ؟ فقال له : قل ! فأنشأ يقول (والبيت الاخير في رواية «تورق») :

عجِبتُ لحُرّاقة ابن الحسين   لا غَرِقتْ كيف لا تغرَقُ
وبحْران من فوقها واحدٌ   وآخرُ من تحتها مُطْبِقُ
وأعجب من ذاك أعوادها   وقد مسّها كيف لا تعْرَقُ

فقال طاهر : أُعطوه ثلاثة آلاف دينار ! فقال له : زدنا حتى نزيدك . فقال : حسبي ! وفي رواية قال طاهر : إنّ زدتنا زدناك . انتهى .

والخُلوقي بضمّ الخاء المعجمة واللام وسكون الواو وبعدها قاف ، نسبة الى خلوق وأخلوقة ، وهي قبيلة من العرب مشهورة . ومقدّس ، بضمّ الميم وفتح القاف وتشديد الدال المكسورة وبعدها سين مهملة . انتهى منه . /133ب/

قد تقدّم ذكر أحمد ابن أبي خالد . وله قضية في سبب وصوله الى المأمون واستخدامه إياه ، فلنذكرها . قال في كتاب الفرج بعد الشدة ، قال أحمد بن أبي خالد الأحول : كان يحيى بن خالد البرمكي قد أشركني هو وولده الفضل وجعفر في نعمتهم . وكان أوّل ما توليّت لهم جند الأردنّ . وانصرفت الى مدينة السلام وقد سخط الرشيد على يحيى ، ومعي من المال ستة آلاف دينار ، فتوصّلت الى أن دخلت اليه في الحبس ، فتوجّعت عليه وعرضت عليه المال . فقال : لست أُجحف بك ، إحمل الينا منه ثلاثة آلاف دينار . وكتب رقعة بخطّ لا أعرفه ، ثم أتْرَبها وقطَعها نصفين . فجعل أُحدهما معه ودفع اليّ الآخر وقال : أمْرُنا قد ولّى ، ودولتنا قد انقضتْ ، وهذا الخليفة سيموت وستقع فتنة يطول فيها الأمر بين خليفتين ، يكون الظاهر منهما صاحب المشرق ، وسيكون لغلام يقال له الفضل بن سهل معه حال ؛ فإذا بلَغك ذلك ، فادفع اليه هذا النصف من الرقعة ، فإنك ستبلغ ما تحبّ عنده .

قال أحمد : فخرجت من عنده ، وأنا أندم الناس على إخراجي ثلاثة آلاف دينار من يدي الى رجل قد نعَى نفسه إليّ . واحتفظت بالنصف من الرقعة ، ومضيت الايام ، وولي محمد المخلوع ، ووقعت الفتن . ولزمتني عطلة ودامت حتى رَزَحت حالي واشتدّ اختلالي ، ودخل طاهر مدينة السلام ، فإني ذات ليلة مفكّر في أمري متحيّرًا فيما أعمله ، إذ سمعت قرع الباب عليّ فقلت لزوجتي : اخرجي الى /134/ الدهليز وأعرفي الخبر ولا تتكلمي ولا تفتحي ! فمضت وجاءت مذعورة وقالت : ما أدري ، جماعة من الشُّرَط على الباب ، والمسوّدةُ ونفاضات (النفاضات ، والنفضة جماعة يبعثون متجسسين) ! فخرجتُ ووقفت خلف الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا منزل أحمد بن أبي خالد الأحول ؟ قلت : نعم ! قالوا : نحن رسُل الأمير طاهر بن الحسين اليه . فقلت : لعلّكم غلطتم ، ما يريد الامير من مثله ؟ فقال بعضهم : يا هذا إنما جئنا في أمر يسُرّه ، فأعلِمْه ، إنه لا بأس عليه . قال ، وظنّني غلامًا له . وسكنتُ الى هذا القول ورجعت الى منزلي من الدار ، وأنفذتُ سوداء كانت لي حتى فتحتْ الباب . فدخل قائد جليل وبرك بين يدي ، وقال : أنت ــ أعزّك الله ــ أحمد بن أبي خالد ؟ قلت : نعم ! قال : الامير يسألك أن تسير اليه الساعة . قال ، فأردتُ أبيِّن الأمرُ الذي دعيت له أخيَرًا أم شر ، قلت : أدخُلُ وألبَس ثيابي . قال : افعل ! قال فدخلت وأوصيت زوجتي بما أحتاج اليه وعلِمتُ أنه لا بأس عليّ ، ولبست مِبطنتي وطيلساني وشاشيتي وخُفيّ ثم خرجت . فقلت : ليس مركوب ؟ قال : اركبْ من نجائبي .

فركبتُ دابة قدِّمت اليّ وسرْت الى طاهر . فسلمت عليه ، فساعة رآني قال : أنت أحمد بن أبي خالد الأحول ؟ قلت : نعم ! فألقى اليّ كتابًا في نصف قرطاس بخط الفضل بن سهل ، وكان أوّل كتاب رأيته لأبي فلان بن فلان ، فإذا عنوانه «لأبي الطيب ــ أعزه الله . من ذي الرئاستين الفضل بن سهل وصدْرِه ــ أعزه الله . أطال بقاؤك ، أمَرَ أمير المؤمنين بأن تتقدّم ساعة تقرأ كتابي

لطلَب أحمد بن أبي خالد /134ب/ الأحول ، الكاتب ، حيثُ كان من أقطار الارض . فتُحضّرَه مجلسك ، وتصلَه بخمسين ألف درهم ، وتحمله على عشرين دابة من دواب البريد الى باب أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ مصونًا ، ولا ترخّص له في التأخير» .

قال : فلما قرأت الكتاب اشتدّ سروري وقلت : آخذ فيما أحتاج اليه وأنهض ! فقال : مالي الى ذلك وتأخّرِكَ سبيلٌ . هذا المال وهذه الدواب وتخرج الساعة ! فقلت اكتب الى منزلي بما احتاج اليه وأخذت المال وحمّلتُ أكثرَه اليهم وكاتبتهم بما أريده ؛ وذكرت في الرقعة حمل النصف من الرقعة التي من يحيى بن خالد بن برمك وحملها اليّ مع قماشات قليلة مما لا بدّ منه . وعاد الجواب بوصول المال وانفذوا النصفَ من الرقعة وما طلبتُ من القماش وشخصت من دار طاهر سَحَر تلك الليلة . فما مررت بمدينة الاّ خُدمت فيها أتمّ خدمة ، الى أن وافيت الريّ ، فلقيني رجل ذكر أن ذا الرئاستين أنفذه للتلّقي والقيام بمصالحي ، الى أن وافيتُ حضرته . فلم يزل قائمًا بما احتاج اليه ، يحضّ كلّ من اجتاز به على تفقّدي وخدمتي ، الى أن وافيت باب الفضل بمرو ومعي صاحبه وصاحب طاهر .

فوقفت بباب الفضل طويلاً الى أن تفرّغ ودعاني . ودخلتُ وهو في قبّة أدم وعليه سوادٌ ، وحوله السلاح كله ، وبين يديه حُجُفٌ فيها كُتُب . فلما مُثلت بين يديه قال لي : أنت أحمد بن أبي خالد الكاتب ؟ قلت : نعم ! قال : الى منزلك ؛ وارجع بعد ثلاثة في سواد لأُدخِلك على أمير المؤمنين . فولّيت من بين /135/ يديه وأنا لا أدري أين أمضي . فإذا خادم قد لحقني وأخذ بيدي وخرج معي حتى سار بي الى دار قد أُعِدّت لي ، وفيها كلّ ما احتاج اليه من فرُش وآلة وكسوة وغلمان ودواب وقماش وغير ذلك من الاطعمة والاشربة . فجعل يعرفني ما تحت يد كل غلام ثم قال : هذا كله لك ! وانصرف .

فأقمت في كلّ نعمة وسرور ثلاثة أيام ، ثم غدوت في اليوم الرابع في سواد ،

فألفيت ذا الرئاستين خارجًا من داره ، فترجّلت ودنوت منه ، وأعطاني طرف كمّه فقبلته . ثم أمرني بالركوب فركبت وسرت في موكبه حتى وافى دار المأمون . فثنى رجله فنزل في محفّة معدّة له ، فجلس فيها فحمله القواد على أعناقهم حتى أجلسوه مع المأمون على السرير . فمكثتُ غير بعيد ؛ فجاء خادم ودعاني ، فدخلت والفضل والمأمون على السرير ، كلّ واحد منهما مقبِل على صاحبه . فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، هذا أحمد بن أبي خالد الذى كانت كتُبه ترد علينا من مدينة السلام بأخبار المخلوع في وقت كذا ، وقد رأى أمير المؤمنين ، وهو من اليَسار وحُسن الحال على أمر يقصُر عنه الوصف ، وهو يعرض نفسه وماله على أمير المؤمنين ، يريد بذلك لديّ متى خلا . فسألني عن كلّ شيء كنت عرفته . قال أحمد ، فشيّعت كلامه بما حضرني . فقال المأمون : بل قد وفّر الله تعالى عليه ماله ويضيف اليه أمثاله ! قال : يا أمير المؤمنين ، يُشْرَك بينه وبين خدَم أمير المؤمنين ومن تقلّد الاعمال ؟ قال : نعم ، نولّيه ديوان التوقيع وديوان الفصّ والخاتم . قال : اِفعل ! قال : تخلع عليه خلعة /135ب/ بهذه الاعمال . قال : نعم !

قال أحمد : فما برِحت حتى أُنجز لي ذلك ، وانصرفتُ .

فلما كان بعد عشرين يومًا بعث إليّ في الليل ، فعلمت أنه لم يُحْضرني في هذا الوقت الا ليسألني عن الرقعة . فجعلتها في خفّي ، وسرت اليه وهو جالس والحسن أخوه الى جانبه . فقال لي : يا أبا العباس ، كان بينك وبين شيخنا أبي عليّ حُرْمة ؟ قلت : نعم ، وأيّ حرمة ! قال : ما هي ؟ فقصصت اليه قصة لي كانت معه ، ثم وصلت ذلك بخبري ، الى أن انتهيت الى حديث الدنانير ونصف الرقعة . فقال : أين هي ؟ فأخرجتها من خفّي ودفعتها اليه فرفع مصلاه ، فإذا النصف الذي بخط يحيى بن خالد جعله تحت مصلاه ، فقرَن بينهما والتفت الى أخيه وقد دمعتْ عيناه . فقال : هذا خط أبي عليّ ! وقال لي : أقرأتَ ما فيها ؟ قلت : لا . قال : فيها «امتعني الله بك ، أعطاني أحمد بن

أبي خالد الكاتب في الحال التي أنا فيها ما قد أثقلني وأعجزني عن مكافاته ، الى غير ذلك مما اعتدّ به لسَلَفه . ونجْمُنا قد أفَل ، وأمْرنا قد انقضى ، ودولتك قد حضرتْ ، وجِدّك قد علا ، فأحبّ أن تقْضي عنّي حقّ هذا الفتى إن شاء الله تعالى» .

قال أحمد بن أبي خالد : ولم أزل مع الفضل يترقى حالي فأُخَصّ بخدمة المأمون الى أن دارت الايام ، فاسْتكتبني المأمونُ ثم َصلح حالي معه الى الآن . انتهى منه .

وكذا ذكر ابن عبدوس هذه الحكاية في كتاب الوزارة الا أنه ذكرها على خلاف هذه العبارة ، غير أنه قال في الدنانير أربعة آلاف دينار ، وقال إن أحمد قال ليحيى بن خالد : يا سيّدي ووليّي ، تقبّلْ مني هذه /136/ الدنانير ، وتنفقها . وقد صدقته عن حالي . فقال لي : يا أحمد بارك الله فيك ورحم الله أباك ، فإنه كان أحياني لـمّا أملقْت ، وأنت أحييتني لـمّا نُكبت ! ثم قال : هات ! فوضعتها بين يديه ، فأخذ ألفين وترك لي ألفين دينار ، وقال : أنْفقْهم أنت على عيالك ! فقلت : خذهم يا سيّدي ، واستعن بهم على دهرك ! فأبى إلا ألفين ، وكتب لي كتابًا ، وقال لي : إذا ظهر رجل بخراسان يقال له الفضل بن سهل فأدِّي اليه هذا الكتاب ، الى آخره . وتمّمَ الحكاية على ما نقلناه سابقاً باختلاف يسير في العبارة .

وهذا السبب في ظهور أحمد بن أبي خالد وتقربّه الى المأمون واستخدامه إياه ، وكان ذلك بواسطة الفضل بن سهل . وكان الفضل بن سهل خدَم الفضل بن يحيى البرمكي ، فأنْتَجه وعرّفه الأمور ، فرعى له حقّ النّعمة .

ذكر الجهشياري في أخبار الوزراء ، عند ذكر البرامكة ، أن الفضل بن سهل بن زاذا بن فروخ ، من قرية من التبت الأعلى . وكان له عم يدعى يبقا ، فوكّل بجارية لعاصم بن صبيح ، فاتهمه عاصم بها فضربه بالسيف وهو سكران ضربة مات منها . فصار سهل ، والد الفضل المذكور ، الى يحيى بن

خالد البرمكي طالبَ دم أخيه ، وهو مجوسي ؛ فاتصل بسلاّم بن الفرج ، مولى يحيى ، مستغيثًا به . فحماه وأعانه .

ثم أسلم الفضل والحسن أخيه . فاتصل الفضل بن سهل بالفضل بن يحيى البرمكي ، واتصل أخوه الحسن بالعباس بن الفضل . فخدماهما . وعرَفهما /136ب/ يحيى فرعاهما يحيى . وترقيا بإشرافه الى أن تقلّد الفضل بن سهل الوزارة والسيف ، ولقّب بذي الرئاستين . وكانت فيه فضائل .

وقال البدري في تاريخه : إن الفضل بن سهل وأخوه الحسن أصلهما من سَرَخْس ، وكانا مجوسيين أسلما على يد المأمون ، سنة تسعين ومائة ؛ وأنّ أباهما سهلا أسلم على يد المهدي . انتهى .

وقال ابن خلكان : ولما ثقل الفضل بن سهل على المأمون دسّ عليه غالب ، خال المأمون . فدخل غالب السعودي على الفضل ، وهو بالحمام في سرخس ومعه جماعة ، فقتلوه مُغافصة . وذلك يوم الخميس ثاني شعبان سنة اثنتين ومائتين . وقيل ثلاث ومائتين ، وعمره ثمان وأربعون سنة .

وذكر الطبري في تاريخه أنّ عمره كان ستين سنة . ومات والده سهل سنة اثنتين أيضًا ، بعد مقتل ابنه بقليل . وعاشت أمه وأمّ أخيه الحسن بن سهل حتى أدركت عُرْس بُوران على المأمون . انتهى .

وكان الفضل بن سهل عالـمًا بسياسة الملك . وكان أديبًا كريمًا . وله حزم وعزم ورأي وعقل وشجاعة ، الا أنه مغرورٌ ، لم يقدّر أحدًا من أكابر المأمون وأمرائه وأعيان الدولة ، ولا يعتبر أحدًا . وغلَب على المأمون حتى حجَبه على الناس . وتبرّمتْ الأمور على هواه . وكان من أحْبار الناس في علم النجوم وأكثرهم إصابة في أحكامه . فمن ذلك ما حكم به على نفسه ، وهو ما قيل إنّ المأمون طالب أم الفضل بعد موته بما خلّفه ابنها ، فحملت اليه سلّة مختومة مقفلة ، ففتح قُفلها ، فإذا فيها صندوق صغير مختوم ، وإذا فيه دَرْج ، /137/ وفي الدَّرج رقعة في حرير مكتوب فيها «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما قضى

به الفضل بن سهل على نفسه ، قضى أنه يعيش «ثمان وأربعون» سنة ثم يقتل ما بين ماء ونار» . فعاش هذه المدة ، وقتله غالب السعودي الأسوَد ، خال المأمون في حمّام سرَخْس .

وقيلت فيه القصائد ، فمن ذلك ما قاله ابراهيم الصولي :

لفضل بنِ سهل يدٌ ... تقاصَرَ فيها المَثَلْ
فنائلها للغِنى ... وسطْوتها للأجَلْ
وباطنها للنّدى ... وظاهرها للقُبَلْ

وما قاله ابن أيوب التميمي :

لعمْرك ما الأشْراف في كل بلدة ... وإن عظموا للفضل الا صنائعُ
ترى عظماء النّاس للفضل خُضّعًا ... إذا ما بدا والفضل لله خاشعُ
تواضع لما زاده الله رِفْعة ... وكلّ جليل عنده مُتواضعُ

وما قاله مسلم بن الوليد من قصيدة :

أقمتَ خلافة وأزلت أخرى ... جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتَ

وكان سبب قتله أنّ عليّ بن موسى ، الملقب بالرِّضا ، لمّا عهِد اليه المأمون وتقرّب اليه صار يُناصحه ويخبره بما عمِي عليه . فأتى الى المأمون وأخبره بما الناس فيه من الفتن والاختلاف بأرض العراق ، وأن الهاشميين سمّوْا المأمون مسحورًا ومجنونًا لبيعته لعليّ الرّضا من بعده ، وأنهم ينتقمون منه لفعله ذلك ، وأن الحرب قائمةٌ بين الحسن بن سهل وبين ابراهيم بن المهدي . وكان الحسن نائب العراق .

فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وقراباته /137ب/ فسألهم عمّا أخبره عليّ الرّضا . فصدقوه من بعد أخْذهم الأمان ، وقالوا له : إن الفضل بن سهل

حسّن لك قتلَ هرثمة ، وقد كان ناصحًا لك ، فعالجه وقتَله ؛ وإنّ طاهر بن الحسين مهّد لك الأمور حتى قاد لك الخلافة فطردته الى الرقّة ، وقعد لا عمَل له ؛ وإنّ الارض قد تصدّعت من أقطارها وكثُرت الفتن ، وانتشرت الشرور بين الناس !

فلمّا تحقق ذلك المأمون أمَر بالرحيل الى بغداد ، ليُقاتل من نكَث بيعته وبايع لابراهيم بن المهدي .

وقد فطِنَ الفضل بن سهل بما تمالَى عليه أولئك النّاصحون للمأمون . فضرب قومًا ونتَف لحاء آخرين ، واغتاض لذلك .

وسار المأمون الى بغداد ، فلما كان بسرخس عَدَى قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون ، وهو بالحمام ، فدخلوا عليه بالسيوف وقتلوه ، يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان من السنة المذكورة . فبعث المأمون خلفهم وجيء بهم ، وهم أربعة من المماليك ، فقتلهم . وكتب الى أخيه الحسن بن سهل يعزّيه فيه ، وولّاه مكانه وظائفه الواردة .

وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق ، وابراهيم بن المهدي بالمدائن ، وفي مقاتَلَته جيش يقاتلون من جهة المأمون . انتهى ، كذا ذكر ابن عساكر .

وذُكر في كتاب الفرج بعد الشدّة (غير موجود في المطبوع) عن أبي بكر محمد بن يحيى الصولي عن محمد بن سعيد قال : حدّثني محمّد بن صالح النطّاح ، قال : لـمّا عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل ، ندّب له عبد العزيز بن عمران الطائي ومؤنسًا البصري وخلفًا المصري وعليّ بن أبي سعيد ، ذا القلمين ، وسراجًا /138/ الخادم . ثم نمى الخبر الى الفضل ، فأظهَرَ للمأمون وعاتبَه عليه . فلما قُتل الفضل ، وقَتَل المأمونُ قَتَلته ، سأل من أين سقَط الخبر الى الفضل . فعرف أنّه من جهة ابراهيم بن العباس الصّولي ، فطلبه واستتر . وكان ابراهيم عرَف هذا الخبر من جهة عبد العزيز بن عمران . فإن الفضل كان

استكتب ابراهيم لعبد العزيز فعلِم ذلك منه ، وأخبر به الفضل ، ودار الى أن بلغ المأمون وافتضح ابراهيم فَاَستَتر . ثم ظهر فيما بعد وعفا عنه المأمون .

وقال ابن خلكان : لـمّا توجّه المأمون الى العراق ، استخلف على خراسان غسّان بن عبّاد ، وأقبل الى سرخْس ، فدسّ المأمونُ على الفضل بن سهل خالَه غالبًا السعودي الأسود ، فدخل الفضل الى الحمام ، فدخل عليه غالب المذكور في جماعة فقتلوه ، وهو يغتسل . انتهى .

فكان قتْله برأي المأمون . وعلى رواية ابن الجوزي والبذْري ، أنّ المأمون لم يأمر بقتله ، وإنما قتلوه من تلقاء أنفسهم . فبعث في طلَبهم ، واقتُصّ له منهم . وكان ذلك بسَرَخْس ، وهي مدينة بين مرو ونيسابور .

وقال الذَّهَبي : لما قُتل الفضل ، قامت قيامة المأمون وبعَث في طلب غرمائه . فأمسكهم العباس بن الهيثم وأحضرهم اليه . فقالوا للمأمون : أنت أمرتنا بقتله ! فضرَب أعناقهم . ومضى المأمون الى والدة الفضل ليعزّيها وقال : لا تأسَيْ عليه ، ولا تحزني بفقده . فإن الله تعالى قد أخلَف عليك منّي ولدًا ، يقوم مقامه ، فمهما كنت تنبسطين فلا تنْقبضي عنّي منه ! فبكت وقالت : يا أمير المؤمنين ، كيف لا أحزَن على ولَد أكسبني ولدًا مثلَك ! انتهى . /138ب/

ذكر الأشعريّ في كتابه لبّ اللبيب ، أنّ المأمون قال : ما عَيِيت بجواب أحد قطّ مثل ما عييت بجواب ثلاثة ! فقال بعض أصحابه : ومن أولئك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أمّا أحدهم ، فإن أهل بلدة رفعوا قصّة يشكون فيها عاملاً عليهم ، فقعَدْتُ لهم يومًا ، وقلت لهم : إن نطَقْتموني كُلّكم ملَلْت ، ولكن آختاورا رجلا منكم أتولّى مناظرته ، ويقوم مقامكم ! فقالوا : قد اخترنا رجلا غير أنه أصمّ ، فإن احْتملته يا أمير المؤمنين فهو لسانُنا ! فقلت : أحتملُه . فأحضروه ، فلمّا مثُل بين يديّ قلت له : ما تقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ولّيْتَ علينا رجلا ثلاث سنين ، فاستأصل أموالنا ، ويُريد أرواحَنا ؛ ففي السنة الأولى نفدَت أموالُنا ، وفي الثانية بِعْنا ضياعنا ، وفي الثالثة خرجنا من أوطاننا

للشرّ الذي نالنا ، والمسكنة التي حلت بنا ! فقال المأمون : كذَبْتَ وأفِكْت ، وأنت أهل لذاك ، بل ولّيت عليكم ثقةً عندي على أنفسكم وأموالكم ، مؤتمَنًا فاضلا ! فقال : يا أمير المؤمنين ، صدقْتَ وبرَرْت ، وأنا كذَبت وأفِكت . وأنت خليفة الله في بلاده وأمينُه على عباده ، فكيف خصَصْتَنا بهذا العادل المؤتمَن الفاضل ثلاث سنين ، ولم تولّه غير بلادنا فينشُرَ عدله في البلاد وتُحْيى به العباد كما انتشر علينا ، ويُفيض على رعيتك من عدْله ما مثل ما أفاض علينا ! قال ، فضحكت وقلت : قم ـ أعاذك الله ـ قد عزلته عنكم !

وأما الثانية ، فإني أُتيت برجل يدَّعي /139/ النبوة ، فأمرت بحبسه ، ثم تفرّغت من شغلي فأمرت بإحضاره ، وقلت له : زعمتَ أنك نبيّ ؟! قال : نعم! قلت : الى من بُعثت ؟ قال : أوَ تركتموني أُبعث الى أحد ، بُعثت الغداةَ وحُبست نصفَ النهار ! قلت له : من أنت من الأنبياء ؟ قال : موسى بن عمران! قلت : إنّ موسى كانت له دلائل وبراهين . قال : وما كانت براهينه؟ قلت : كان إذا ضمّ يده الى جيْبه أخرجها بيضاء ، وإذا ألقى عصاه صارت حيّة! قال : نعم ، إنما ذلك لأجل فرعون لـمّا قال أنا ربّكم الأعلى ؛ فإن شئتَ أن ترى ذلك فقل كما قال حتّى أُظهِر لك الآياتَ ! فضحكتُ من كلامه ووهبت له ألفَ دينار واسْتتبْته .

وأما الثالثة ، فإني دخلت على أمّ الفضل بن سهل حين كثُر بكاؤها وحزنها على الفضل ، فقلت : يا أمُّ ، لا تُكثِري البكاء والجزع على ذي الرئاستين ، فأنا لكِ ولدٌ مكانَه ! فاشتدّ بكاؤها . فأعَدت لها القول ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، كيف لا أحزن على ولد أكسبني ولدًا مثلك ! فلم أجد لها كلامًا بعده . انتهى .

ومن ظرائف ما وقع للمأمون من حُسن الخطاب ولطائف الجواب ، قال بعضهم : وصَف بعضُ البلغاء عاملاً للمأمون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ترك فِضّة إلاّ فضّها ، ولا ذهبًا إلاّ ذهب به ، ولا علفًا إلاّ علفه ، ولا ضيعة إلاّ ضيّعها ، ولا غلّة إلاّ غلّها ، ولا عرَضًا إلاّ عرَض له ، ولا ماشية إلاّ امتشها ،

ولا جليلا إلاّ أجلاه ، ولا دقيقًا إلاّ دقّه ، ولا رقيقًا إلاّ رقّه ! فضحك منه المأمون ، وصرف العامل عن أهل ناحيته . انتهى .

قال هُدْبة بن خالد : حضرتُ مائدة المأمون ، ثم /139ب/ رُفعت المائدة فجعلتُ ألتقط ما في الأرض . فنظر اليّ المأمون وقال : ما شبِعت يا شيخ ؟ فقلت : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن حدّثني حمّاد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «من أكل ما تحت مائدة أمن من الفقر» . فنظر المأمون الى خادم واقف بين يديه وأشار اليه ، فما شعُرْت أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار . فناولني إياه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهذا من ذلك. انتهى ، كذا ذكر في بستان الآداب .

وقال غرس النعمة : لـمّا كان المأمون بمرو دخل يومًا الى الديوان ، فمرّ بغلام جميل فأعجبه حسنه . فقال : من الشاب ؟ فقال : الناشيء في دولتك ، والمؤمّل لخدمتك ، والمتقلّب في نعمتك ، الحسَن بن رجاء . فاستحسن المأمون كلامه ، وأمر له بألف درهم . انتهى .

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون فسلم عليه فقال : من أنت ؟ فقال : سليل نعمتك ، وابن دولتك ، وغصن من أغصان دوْحتك . فأعجبه وسأل عن حاجته فقضاها له . انتهى .

وقال المأمون يومًا لعلي بن موسى الكاظم : ما يقول بنو أبيك ـ يعني العلَويين ـ في جدّنا العباس بن عبد المطلب ؟ فقال : ما يقول في رجل فَرَض الله طاعةَ نبيّه على خلقه ، وفرَض طاعته على نبيّه ! فأعجب المأمون ، وأمر له بألف ألف درهم . انتهى .

قيل إن المأمون قد اشتهر عنه التشيّع والحبّ لآل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، ورأى عليَّ بن موسى هذا خيرَ /140/ أهل البيت ، وليس في بني العباس مثله ، مِن علْمه ودينه . فجعله وليَّ عهده من بعده . ولـمّا أنّ همّ المأمون على ذلك وشاع الخبر به صعُب الأمر على بني العباس ، فراود أهل بغداد

منصورَ بن المهدي على الخلافة ، فامتنع من ذلك . فراودوه على أن يكون نائبًا للمأمون ، يدعو له في الخطبة فأجابهم الى ذلك . وذلك بعد إخراج أهل بغداد عليّ ابن هشام ، نائب الحسن بن سهل ، من بين أظهرهم . وجرَتْ حروب كثيرة بسبب ذلك ، واضطرب الأمر .

ولـمّا أن بايع المأمون لعليّ بن موسى الكاظم ، وجعله ولي العهد من بعده ، ولقّبه الرِّضا من آل محمد ﷺ ، وأمر جندَه بطرح السواد ولُبْس الخضرة ، وألزمهم ذلك ، وكتب به الى الآفاق والاقاليم ، وبلغ الخبر الى بغداد ، بايعوا لابراهيم بن المهدي وخلعوا طاعة المأمون .

ذكر في تاريخ النويري : أن بيعة المأمون لعلي الرّضا كانت لليلتين خَلَتا من رمضان ، يوم الثلاثاء سنة إحدى ومائتين ؛ وذلك أنّ المأمون رأى عليّ الرّضا خير أهل البيت ، فجعله ولي عهده من بعده . انتهى ، كذا حكاه البدري في تاريخه .

قال ابن الجوري : لـمّا جاء الخبر الى بغداد بأنّ المأمون بايع لعلي الرّضا بولاية العهد من بعده اختلفوا فيما بينهم ، فمن مجيب ومن مانع ، وجمهور العباسيين على الامتناع . وكان الباعث لهم في ذلك وأشدّهم تحرّقًا ابراهيم ومنصور أبناء المهدي .

فلمّا كان يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة ، أُظهر العباسيون البيعة لابراهيم بن /140ب/ المهدي ولقبوه المبارك ، وكان أسود اللون ، ومن بعده لابن أخيه اسحاق بن موسى الهادي وخلعوا المأمون . فلمّا كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة ، أرادوا أن يدْعوا للمأمون ثم من بعده لابراهيم ، فقالت العامة لا نرضى الا بابراهيم فقط . واختلف الناس واضطربوا فيما بينهم وتمت الجمعة وصلى الناس فُرادى أربع ركعات . انتهى .

ولـمّا كان أوّل يوم من المحرّم من سنة اثنتين ومائتين بويع لابراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخُلع المأمون . فلمّا كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد ابراهيم المنبر ، فبايعه الناس ، وكان المتولي لبيعته المطلب بن عبد الله بن

مالك . وغلب ابراهيم على الكوفة وأرض السواد ، وعسكرَ بالمدائن واستعمل على الجانب الشرقي من بغداد اسحاق بن موسى الهادي ، وعلى الجانب الغربي العباس بن موسى الهادي ، وطلب الجندُ أرزاقهم ، فماطلهم ثم أعطاهم مائتي درهم لكلّ واحد ، وكتب لهم بتعويض من أرض السواد ، فخرجوا لا يمرون بشيء الا انتهبوه ، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان .

وخرج على ابراهيم في تلك الأيام خارجيّ يقال له مهدي بن عَلْوان ، فبعث اليه جيشًا عليهم أبو اسحاق المعتصم بن الرشيد في جماعة من القواد ، فكسَره وردّ كيده .

وخرج عليه أيضًا بالكوفة أخو أبي السّرايا ، المقدّم ذكره . فبعث اليه من قاتله وظفر به وبعث برأسه الى ابراهيم بن المهدي . وظفر أيضًا بسهل بن سلامة المقدم /141/ ذكره . وكان سهل قد ٱلتفت عليه جماعة من الناس يقومون في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن قد جاوز الحدّ ، وأنكر على السلطان ، ودعا الى القيام بالكتاب والسنة الى أن صار باب داره كأنه باب سلطان ، عليه السلاح والرجال وغير ذلك من أبّهة الملك . فقاتله الجند وكسَروا أصحابه ، فألقى السلاح وصار بين النساء واختفى في بعض الدروب ، فأُخِذ وجيء به الى ابراهيم بن المهدي فسجنه .

وظهرت على ابراهيم شيم الخلافة ، وجرت بين أصحابه وأصحاب المأمون بالكوفة حروب واقتتلوا قتالا شديدًا . وكان على المأمونية الخضرة وعلى الابراهيمية السواد . واستمرّ القتال بينهم الى أواخر رجب من السنة المذكورة ، وكان المأمون بخرسان فتجهّز وقصد العراق فبلغ ابراهيمَ بن المهدي والمطّلب الذي أخذ له البيعة وغيرَهما قدومُ المأمون ، فتحيّروا . فتمارض المطلب وراح الى بغداد وسعى في الباطن في أخذ البيعة للمأمون وخلع ابراهيم . فبلغ ابراهيم ذلك ، وهو بالمدائن ، فقصد بغداد وأرسل يطلُب المطّلب ، فٱمتنع عليه فأمر بنهبه . فنُهبت دور أهله ولم يُظفر به ، وذلك في صفر من هذه السنة . انتهى

كذا ذكر المؤيد وغيره .

وقال ابن الأثير في تاريخه : وصل المأمون في السنة الثالثة بعد المائتين الى العراق ، الى مدينة طوس ، فأقام عند قبر أبيه أيامًا من شهر صفر . فلمّا كان أواخر الشهر مات عليّ الرّضا بن موسى الكاظم الذي /141ب/ أولاه المأمون عهد الخلافة . فصلّى عليه المأمون ودفنه الى جانب قبر أبيه الرشيد ، وكتب الى الحسن بن سهل يعزّيه في عليّ الرّضا .

وكان الحسن قد غلبت عليه السّوداء حتى قُيّد في حديد وأودِع في بيت . فكتب أمراؤه بذلك الى المأمون ، فردّ لهم «إني واصل اليكم إثر كتابي هذا» . وكتب أيضًا الى بني العباس بموت عليّ الرُّضا وأن يردّهم لطاعته . فلم يذعنوا وأغلظوا له الجواب . انتهى .

قال الملك المؤيد في المختصر : مات عليّ الرُّضا سنة ثلاث ومائتين ، بأن أكل عنبًا فأكثر منه ، فمات فجأة بطوس . وصلّى عليه المأمون ودفنه عند قبر أبيه الرشيد . وكان مولده بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وهو ثامن الائمة الإثنى عشرعلى رأي الامامية ، ووالد محمد الجواد ، تاسع الائمة . انتهى .

وقال بعضهم كانت ولادة عليّ الرُّضا يوم الجمعة ، في بعض شهور سنة ثلاث وخمسين ومائة . وتوفي آخر يوم من صفرسنة ثلاث ومائتين . وقيل خامس ذي الحجة ، وقيل عاشر ذي الحجة بمدينة طوس . وكان سبب موته أنه أكل عنبًا فأكثر منه ، وقيل مسمومًا ، فآعتلّ منه ومات رضي الله تعالى عنه .

قال ابن خلكان : قيل لأبي نواس ما رأيت أوقح منك ، ما تركت خمرًا ولا رطبًا ولا مغني الاّ قلت فيه شيئا ! فقال : والله ما /142/ تركت ذلك إلا إعظامًا له ، وليس قَدْر مثلي أن يقول في مثله . ثم أنشد بعد ساعة هذه الابيات :

قيل لي أنت أحسنُ الناس طرًّا　　في فنون من المقال النّبيهِ
لك من عند القريض مديح　　يُثمر الدرّ في يدي مجتنيهِ

فعلى ما تركتَ مدْح ابن موسى والخصال التي تجمّعن فيهِ
قلت لا أستطيع مدح إمام كان جبريلُ خادمًا لأبيهِ

انتهى . وكان فاضلا ، رحمه الله .

قال ابن كثير : وروى عليٌّ بن موسى الحديث عن أبيه وغيره . وعنه جماعة المأمون وأبو الصلت وأبو عثمان المازني النحوي ، قال سمعته يقول : الله أعدل أن يكلّف العباد ما لا يطيقون ، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون . انتهى .

ومن شعره رحمه الله :

كلّنا يأمل الأجل والمنايا هي آفات الامل
لا يغرّنك أباطيلُ المُنَى وآلزم القصد ودع عنك العِللْ
إنما الدنيا كظلّ زائل حلّ فيه راكبٌ ثم ارتحلْ

كذا في كتاب ابن الأثير .

وعليّ الرِّضا هذا هو أبو الحسن عليّ الرِّضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، كذا نسبَه المؤيّد وغيره .

قال الاصمعي : لم يكن للحسين رضي الله تعالى عنه عقب إلاّ من ابنه زين العابدين ، ولم يكن لزين العابدين نسلٌ الاّ من ابنة عمّه الحسن رضي الله تعالى عنه ، فجميع الحَسنيين من نسله . انتهى

وزين العابدين هذا هو الذي مدحه الفرزدق بقصيدته المشهورة . /142ب/ وقصّته : لما أنّ حجّ هشام بن عبد الملك في خلافة أبيه طاف بالبيت ، وجهّد أن يصل الى الحجر الاسود ليسْتلمه ، فلم يقدر على ذلك لكثرة الزّحام ؛ فجعله رجال الشام على كرسي وحملوه فيه على أعناقهم ؛ فبينما هم يطوفون به وهو ينظر الناس إذ دخل شاب ، وعليه مئزر وإزار ، وفي جبهته كأنها رُكْبة عَنز ، كأنها الشّمس تطلع من بين حاجبيه ، فبدأ بالطواف ، فلمّا أتى الحجر

فَرَج الناس عنه هيبةً وإجلالا . فأغاظ ذلك هشام ، وقال له رجل من أهل الشام : من هذا يا ابن أمير المؤمنين ؟ فقال : لا أعرفه ! مخافةَ أن يرغب فيه أهل الشام ويفْتتِنون به ؛ وكان الفرزدق حاضرًا فقال : أنا أعرفه يا ابن أمير المؤمنين ! فقال هشام : قل ، يا أبا فراس ! فقال :

هذا الذي تعرف البَطْحاء وطأته — والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَـرَم
هذا ابن خير عباد الله كلِّهـم — هذا التقيّ النقيّ الطاهر العـلَمُ
إذا رأتْه قريش قال قائلـها — الى مكارم هذا ينتهي الكـرَمُ
ينمَى الى ذِروة المجد التى قصَرَتْ — عن نيلها عرَبُ الاسلام والعَجَمُ
يكاد يمسكه عِرْفان راحتـه — رُكْن الحَطيم إذا ما جاء يَسْتلمُ
في كفّه خيْزران ريحه عبِـق — من كفّ أروع في عرنينه شَمَمُ
يُغْضي حياء ويغضي من مهَابته — فما يّكلّم الا حين يَبْتسـمُ
ينجاب ثوبُ الدّجى عن نور غُرّته — كالشمس ينجاب عن أقطارها العَتَمُ
مشتقّة من رسول الله نَبْعته — طابت عناصره والخيم والشيَمُ
هذا ابنُ فاطمة إن كنتَ جاهلَه — بجدّه أنبياء الله قد خُتموا
هذا سليل حسين وابن فاطـمة — بنت الرسول الذي انجابت به الظلَلُ /143/
وليس قولك لا أدري بضائـره — العُرْب تعرف من أنكرتَ والعجَمُ
الله فضّلـه قِدْمـاً وشرّفـه — جرى بذاك لـه في لوحه القلَمُ
من جدّه دان فضل الانبياء له — وفضل أمّته دانت لـه الامـمُ
عَمّ البرية بالإحسان فانقشعت — عنها الغَيابة والإملاق والظلَمُ
كلتا يديه جميعًا عمّ نفعهما — يستوْكفان فلا يعروهما العدَمُ
لا يُخلف الوعْد ميمون نقيبتـه — رحْب الفناء أريبٌ حين يعتزمُ
سَهْل الخليقة لا تُخشى بوادره — يزينه خَلّتان الخُلْق والكـرَمُ

حمّال أثقال أقوام إذا فُدِحوا | حُلو الشمائل تحلو عنده النِّعمُ
مقدّم عند ذكر الله ذكرهمُ | في كلّ أمر ومختوم به الكلِمُ
إن عدّ أهل التُّقى كانوا أئمتهم | وقيل مَن خير أهل الأرض قيل همُ
لا يستطيع جواد بُعْد غايتهم | ولا يدانيهم قوم وإن كرُموا
هم الغيوث إذا ما أزْمة أزِمَت | والأسد أُسْد الشّرى والبأس محتدِمُ
لا يُنقص العُسْر بيضًا من أكفهم | سيّان ذاك إن أثْرَوْا أو عُدموا
يأبى لهم أن يحلّ الضّيْم ساحتهم | خيم كريم وأيد بالنَّدا خُضُمُ
أيّ الخلائق ليست في رقابهمُ | لأولية هذا منهم نعمُ
من يعرف الله يعرف أوليـة ذا | والدين من بيت هذا ناله الأممُ

ولما تمّ القصيدة اغتاض هشام لما قاله الفرزدق ، وأمر بحبسه . فحُبس بعَسَفان . فبلغ ذلك عليّ بن الحسين ، فبعث اليه بأربعة آلاف درهم ، فردّها عليه الفرزدق وكتب اليه : «إنما مدحتك بما أنت أهله» . فردّها ابن الحسين وكتب اليه : «خذْها وتعاون /143ب/ بها على دهرك ، واعذر ؛ وإنّا أهلُ البيت إذا وهبنا شيئا لا نستعيده . والله عزّ وجل يَعلم نيّتك ويُثيبك عليها ، وشكَرَ الله سعيك !» . فقبلها الفرزدق وجعل يهجو هشامًا وهو في السجن ، فبلغه ذلك فأخرجه . انتهى .

قال ابن خلكان : وأم زين العابدين سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس . قال جار الله صاحب الكشاف ، في ربيع الابرار : إن يزدجرد كان له ثلاث بنات في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فحصَلَت واحدة منهنّ لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما ، فأولدها سالمًا ، والأخرى لمحمد بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما فأولدها قاسمًا ، والأخرى للحسين بن عليّ رضي الله تعالى عنهما فأولدها عليا زين العابدين . فكلهم بنو خاله .

وكان زين العابدين مع أبيه بكربلاء فآستُبْقيَ لصغر سنّه ، لأنهم قتلوا كل

من أنبت ، كما يفعل بالكفار . قاتل الله فاعل ذلك وأخزاه ! وكان عبيد الله بن زياد قد همّ بقتله ، ثم صرفه الله عنه وأشار بعض الفَجَرة بقتله على يزيد بن معاوية فحماه الله تعالى منه . ثم إن يزيد بن معاوية صار يُكرّمه ويعظّمه ويجلسه معه ، ولا يأكل الاّ وهو عنده . ثم بعثه الى المدينة ، فكان بها معظمًا مكرمًا محترمًا .

قال ابن عساكر : ومسجده بدمشق معروف ، وهو الذي يقال له مشهد عليّ بجامع دمشق . قال الزُّهري : ما رأيت قرشيًا أفضل منه . وقال محمد بن سعيد : كان زين العابدين ثقة مأمونًا ، كثير الحديث عن رسول الله ﷺ ، عالـمًا ولم يكن في أهل البيت /144/ مثله . وقال الأصمعي : وكان زين العابدين إذا توضّأ يصفرّ لونه ، فإذا قام الى الصلاة أرعد من الفَرَق ، أي الخوف. فقيل له في ذلك فقال : أتدرون بين يديْ من أقوم ، ولمن أناجي ؟ !

وروي أنّه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلّي ، فلما انصرف قيل له : ما بالك لم تنصرف حين وقعت النار ؟! قال : إني اشتغلتُ من هذه النار بالنار الاخرى !

ويروى أنه لما حجّ أراد أن يُلبّي إرْعَدّ واصفرّ وخَرّ مغشيًا عليه حتى سقط عن الراحلة . وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة . وكان كثير الصدقات بالليل ، وكان يقول صدقة الليل تطفيء غضب الربّ جلّ جلاله . وكان كثير البكاء ، فقيل له في ذلك فقال : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى آبيضّتْ عيناه ولم يتحقّق بموته ، فكيف لا أبكي وقد رأيتِ بضعة عشر رجلاً من أهلي يُذْبحون في غداة واحدة ! انتهى .

وكان إذا خرج من منزله قال : اللهم إني أتصدّق أو أهب عرْضي اليومَ لمن يغتابني !

قال الحافظ ابن عساكر : بلغني أنّ رجلا من أهل الشام دخل المدينة فرأى رجلا راكبًا على بغلة ، لم أر أحسن وجهًا ولا سِمَة ولا ثوبًا ولا دابة منه . قال

فمال قلبي اليه ، فسألت عنه فقيل لي : هذا عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! فقال لي : بل أنا ابن ابنته ﷺ ! فقلت : بك وأبيك أسبّ عليّا /144ب/ . فلما انقضى كلامي قال : أحسبُك غريبا ! قلت : أجل . قال : فمِلْ بنا الى الدار ، فإن احتجتَ الى منزل أنزلناك ، أو الى مال واسيْناك ، أو الى حاجة عاونّاك على قضائها . قال : فما انصرفت من عنده الاّ وما على وجه الأرض أحبّ اليّ منه . انتهى .

قيل إن رجلا مات له ولد مُسْرف على نفسه ، فجزع عليه أبوه فقال له زين العابدين : لا تجزع فإن وراء ولدك ثلاثة ، شهادة أن لا إله الا الله ، و شفاعة رسول الله ﷺ ، ورحمة الله . انتهى .

وأخباره كثيرة رضي الله تعالى عنه . واختَلف أهل التاريخ في السنة التي توفي فيها زين العابدين رضي الله تعالى عنه . والمشهور عن الجمهور أنه توفي سنة أربع وتسعين في أولها . قال المؤيد ، في سنة أربع وقيل خمس وتسعين . وسمّي زين العابدين ، لانه كان كثير الصلاة . انتهى .

وقال ابن الفلاس : و فيها ـ أعني سنة أربع ـ مات سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمان . رضي الله تعالى عنهم . انتهى .

وقال بعضهم : توفي زين العابدين سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين . وقيل سنة مائة وقيل سنة تسع وتسعين وعمره ثمانية وخمسون سنة . مات بالمدينة ودفن بالبَقيع . في قبره عمّه الحسن ، رضي الله تعالى عنهما . وخلّف ولده محمد الباقر .

قال المؤيد : سمّي الباقر لتبقُّره في العلم ، أي توسّعه فيه . ولد سنة سبع وخمسين . وكان عمره لـمّا قُتل جدّه الحسين ثلاث سنين . وكانت وفاته سنة ستة عشرة ومائة . /145/ وقيل في غيرها وعمره ثلاث وسبعون سنة . ومات بالـحُمَيْمة ودفن بالبقيع . وهو جدّ موسى الكاظم بن جعفر الصادق وقد تقدّم

وفاةُ جعفر الصادق ووفاة ابنه موسى الكاظم ، والد علي الرضا المحدَّث عنه .

وكان المأمون قد عهد له بالخلافة من بعده ، وأصهره بأن زوّجه ابنته أمّ حبيب ، في سنة اثنتين ومائتين . ولمّا عزم على إخراج الخلافة من بني العباس الى عليّ الرّضا استعظَم الأمر فأمَر أن تُحْصَى بنو العباس ؛ فكان مبلغهم في تلك السنة ثلاث وثلاثين ألفًا ، ما بين ذكر وأنثى . فلم يلتفت المأمون الى كثرتهم وأخرج الخلافة منهم ، وعهِد بها الى عليّ الرّضا وبايع له وضرّب اسمه على الدراهم والدنانير .

قال بعضهم : وكان همّ المأمون أن ينزِل له عن الخلافة ، فأبى عليه ذلك . فجعله وليّ العهد من بعده الا أنه لم يتِمّ له الغرض وعاجله حِمامه . فمات عليّ الرّضا ، وليّ العهد ، في أوائل سنة ثلاث ، على ما تقدّم .

قال ابن الأثير : ولما مات عليّ الرّضا كتب المأمون الى بني العباس ببغداد يقول لهم : «إنما نقِمتم عليّ بسبب توليتي العهدَ من بعدي لعليّ الرّضا . وها هو قد مات ، فارجعوا الى السمع والطاعة !» . فأجابوه بأغلظ جواب ــ قال : ما كُتِب به الى أحد من قبْله ــ وأبوْا طاعته . فاستغاظ المأمون غيظًا شديدًا ووجّه الى بغداد حُميد بن عبد الحميد ، أحد قواده في جيش عظيم .

وقد خافت المأمون أهلُ بغداد ، فتنكّروا على ابراهيم /145ب/ وأبغضوه . وجرت لذلك حروب كثيرة بين ابراهيم وأهل بغداد . وظهرت الفتن والشُّطّار والفسّاق ببغداد وتفاقم الحال . وصلّوا يوم الجمعة ظهرًا . أمّهم المؤذّن ، من غير خطبة ، بأربع ركعات . واشتدّ الأمر واختلف الناس فيما بينهم في ابراهيم والمأمون .

ثم غلب المأمونية . ولـمّا كان يوم الجمعة المقبلة ، دعا الناسُ للمأمون وخلعوا ابراهيم . وبلغ حميدٌ المذكور بغدادَ ، فحاصرها وأطمع جندها . فطاوعوه على السمع والطاعة للمأمون . وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبي خالد في جماعة من جهة ابراهيم بن المهدي ، ثم انخذل عيسى حتى صار في أيدي

المأمونية أسيرًا . وآلَ الحالُ الى أن اختفى ابراهيم ، فكانت أيامه سنة وإحدى عشر شهرًا وأثنتى عشرة يومًا .

وقد وصل المأمون من خراسان الى همدان آخر ذي الحجة من هذه السنة ، أعني سنة ثلاث . وجيوشه قد استعادوا بغداد الى طاعته . انتهى ، وكذا ذكر المؤيد .

وفي تاريخ النويري : لـمّا خلع أهل بغداد ابراهيم بن المهدي ودعوْا للمأمون وتخلى عن ابراهيم أصحابه فارق مكانه ، واختفى ليلة الاربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة ، وأحدق حميد بدار ابراهيم . فلم يجده فيها واختفى ولم يزل مختفيًا الى أنْ قدم المأمون بغداد . وكانت في هذه السنة بخراسان وما وراء النهر زلازل عظيمة ، دامت مقدار سبعين يومًا ، فخربت البلاد وهلك فيها خلق كثير . وكان معظمها ببلخ والجورجان والفارياب والطالقان . انتهى ما ذكر النويري /146/ ، وكذا ذكره الملك المؤيد .

قال بعضهم : وقدم المأمون بغداد في السنة الرابعة بعد المائتين بعد أن مرّ بجُرجان ، فأقام بها شهرًا ثم سار منها ، ينزل في المنزل يومًا ويومين ، الى أن بلغ النهروان ، فأقام بها ثمانية أيام . ثم سار الى بغداد ووصلها بعد ارتفاع النهار لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر ، في أبّهة عظيمة وجيش عظيم وقد انقطعت الفتن بقدومه . وكان لباسه ولباس أصحابه الخضرة . فلبس بنو هاشم وأهل بغداد الخضرة . فكان الناس يدخلون عليه في الثياب الخضر ويحرقون كل ملبوس يرونه من السّواد . ودام ذلك ثمانية أيام .

ونزل المأمون بالرصافة ثم تحوّل الى قصره على دجلة . وجعل الأمراء ووجوه الدولة يتردّدون الى داره على العادة . وتحول لبس بغداد الى الخضرة . فتكلّم بنو العباس وقواد خراسان في ذلك . فبلغ المأمونَ . فلما كان يوم السبت ، الثالث والعشرين من صفر ، جلس للناس وعليه الخضرة واستعرض حوائج طاهر بن الحسين . فكان أوّل حاجة سألها منه أن يرجع الى لباس السواد ، لأنه

لباس آبائه من قبله وزنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فأمر بخِلعة سوداء فألبسها طاهرَ بن الحسين ، ثم ألبسه جماعةً من الأمراء . فلبس الناس السواد وأعادهم الى ذلك بعدما علم منهم الطاعة والموافقة .

وقد قيل إنّ المأمون مكث بلُبْس الخضرة بعد قدومه بغداد تسعا وعشرين يومًا ، ثم عاد الى السواد . وقد سكَنت الفتنة وأزاحت الشرور وتمهّد الأمر .

وشرع المأمون في بناء قصور /146ب/ على دجلة الى جانب قصره وأمر بمقاسمة أهل سواد العراق على الخُمُسين . وكانو يقاسمون على النصف . واتخذ القفيز الملحم ، وهو عشرة مَكاكي ، بالمكّوك الأهوازي ، ووضع شيئا كثيرًا من خراج بلاد شتّى ، ورفَق بالناس في مواضع كثيرة ، وولّى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة ، وولّى أخاه صالحًا البصرة ، وولّى عبيد الله بن الحسين بن عبد الله بن أبي طالب رضي الله عنه نيابة الحَرَمين . وهو الذي حجّ بالناس في هذه السنة ، كذا حكاه البدري . انتهى .

قال اليافعي في تاريخه : حدّثنا محمد بن مَخْلد عن أبيه مخلد بن زردي المدائني الكاتب قال : كان مخلد يلقب لُبَد ، لطول عمره . فحدّثني أنّ المأمون أوّل ما قدم العراق خطر له أن يقلّد الأعمال الشيعةَ الذين قدموا معه من خراسان ، فطال عُطلةَ كتاب السواد دون عمّاله . وكانوا يحضرون داره في كل يوم حتى ساءت أحوال أكثرهم . فخرج يومًا بعض مشايخ الشيعة ، وكان مغفّلًا ، فتأمّل وجوهَهم فلم ير فيهم أسنّ من مخلد بن زردي ، فجلس اليه وقال له : إنّ أمير المؤمنين قد أمرني أن أتخيّر ناحية من نواحي الخَراج ، صالحة المرفق ليوقّع بتقليدي إياها ، فآختر لي ناحية ! فقال : لا أعرف لك عملا أوْلى بك من بريرات (جمع برية وهي الصحراء) وصدقات الوحش . فقال له : اكتبها لي ! فكتب له فعرض الشيعيّ الورقة على المأمون ، وسأله تقليده ذلك العمل . فقال له المأمون : من كتب هذه الرقعة ؟ قال : شيخ من /147/ أهل الكتاب ، يحضر الدار في كل يوم . قال : هَلُمّهُ ! فلمّا حضر قال له المأمون :

ما هذا يا جاهل ، تفرّغتَ لأصحابي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أصحابنا هؤلاء ثقاة يصلحون لحفظ ما يحصل بأيديهم من الخزائن والأموال ، وأمّا شروطه وحكمه ، وما يجب تعجيل استخراجه ، وما يجب تأخيره ، وما يجب إطلاقه ، وما يجب منعه ، وما يجب الاحتساب به فلا يعرفونه ؛ وتقليدهم يعود بذهاب الانتفاع ، فإن كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنا فمُرْ بأن يُضمّ الى كل رجل منهم رجل منّا ، فيكون الشيعي يحفظ المال ، ونحن نجمعه . فاستصوب المأمون كلامه ، وأمر بتقليد عمّال السواد وكتّابه ، وأن يُضَمّ الى كلّ واحد من الشيعة رجل منهم . وضمّ مخلد الى ذلك الشيخ ، فقلّده ناحية جليلة . انتهى .

لطيفة

قيل إن المأمون قال لبعض عماله : إياك أن تُصْغِيَني لاستماع قول السّاعية فيك ، فإنه ما سعَى لي رجل برجل الاّ انحط من قدْره عندي ما لا يتلافاه أبدًلا . انتهى .

و مما يناسب هذا المقام ويندرج في سلك هذا النظام ما حكاه في مناهج الترسّل ومباهج التوسّل ، من أن الصاحب بن عباد رَفع اليه إنسانٌ رقعة يحثّه فيها عن أخذ مال يتيم . وكان مالاً كثيرًا فكتب الصاحب على ظهر الرقعة : «النميمة قبيحة ، وإن كانت صحيحة . والميت رحمه الله ، والمال ثمرّه الله ، والساعي لعنه الله» . انتهى .

ذكر في كتاب الفرج بعد الشدّة أن المأمون أمر محمّد بن يزداد /147ب/ والوزير أحمد بن أبي خالد أن يناظرا عمْرو بن مسعدة في مال الأهواز . فناظراه فتحصّل عليه ستة عشر ألف ألف درهم . فأعلما المأمون بذلك فقال لهما المأمون : أقبلاَ كلّ حجة له وكلّ ادعاء وكلّ تعلق . فقال ابن يزداد : قد فعلت ! فقال له المأمون : عُدْ لذلك . فعاد ، فتعلّق عمرو بأشياء لا أصل لها ، فسقط

من المال عشرة آلاف ألف درهم لا حجّة له فيها ، وقد وجبت عليه . فأخذ المأمون الرقعة ثم أخبر عمروا بعد خروج محمد بن يزداد ، فقال : هذه رقعتك ؟ قال : نعم ! فقال : خذ رقعتك ، قد وهبناه لك . قال : إذا تفضّلت يا أمير المؤمنين ، فإنه واجبٌ لو أُخذتَ به على أحمد بن عروة عاملِ الاهواز وهو مقرّ به ؛ وأُشهدُكَ أني قد وهبته له . فاغتاظ المأمون وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون وخطأه فيما عمله . فلجأ الى أحمد بن أبي خالد . فأخبره وكان أحمد يخصّه فقال : لا عليك ! ودخل الى المأمون ، فلما رآه قال : ألا تعجب يا أحمد من عمرو ، وهبنا له ستة آلاف الف درهم بعد أن تجافينا له عن أضعافها ، فوهبها بين يديّ لأحمد بن عروة ، كأنه أراد أن يباريني ويصغّر معروفي عنده ! قال أحمد : أوَ فعَل يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ! قال أحمد : لو لم يفعل هذا ، يا أمير المؤمنين ، لوجب أن يسقط حاله عندك . قال : وكيف ؟! قال : لانه لو آستأثر به على أحمد بن عروة بأداء المال اليه كان قد أخرجه معروفك صفرًا ، ولمّا كانت نعمتك على عمرو ونعمته على أحمد ، وهما خدماك ، وكان الأجمل أن يتضاعف /148/ معروفك عندهما ؛ فقصد عمرو لذلك فصار المال تفضلا منك على عمرو وعلى أحمد بن عروة . ومع ذلك فأنت سيد عمرو ولا يعرف سيّدا غيرك ، وعمرو سيد أحمد ، فاقتدَى في أمر أحمد بما فعلته في أمره ؛ وأراد أيضًا أن ينتشر في ملوك الأمم أن خادمًا من خدَمك اتسع قلبه لهبة هذا المال من فضل إحسانك اليه ، فيزيد فذلك في جلالة المملكة وجلالة قيمتها ، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك ! قال فسُرّ المأمون بذلك ، وزال ما بقلبه على عمرو بن مسعدة . انتهى .

ذكر التنوخي أنّ المأمون ذكَر عمرو بن مسعدة واستبطأه في شيء . وكان ذلك بحضرة أحمد بن أبي خالد . فأخبر أحمدُ عمروا . فدخل عمرو الى المأمون ، ورمى بنفسه وقال : أنا عايذ بالله من سُخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقلّ مَن يشكو أميرَ المؤمنين الى أحد ، أو ينشُر عليّ ضِغْنا يظهر منه لمكانه ما أظهرَ .

فقال له : ما ذاك ؟ فأخبره بما بلغه . فقال : لم يكن الامر كذلك ، وإنما جرى معنًى أوجب ذكر ما ذكرته فقدّمته قبل أن أخبرك به ، وكان ذلك عزمي ، وما لك عندي الا ما تحبّ فليُفْرج روعك ، وليَحسُن ظنّك ! وسكّن منه سكونًا حتى سكَن ، وجعَل ماءُ الحياة يدور في وجهه .

فلما دخل أحمد بن أبي خالد قال له : أشكو اليك من يحضرني من أهلي وخدَمي ، أفَمَا لمجلسي حُرْمة حتّى يُؤدَّى ما يجرى فيه الى عمرو بن مسعدة ؛ قد أُبلِغ شيئا قلتُه فيه واتّهمت فيه بعض بني هاشم ممن كان حاضرًا ، وذلك أنّ عمروا دخل عليّ فأعاد ما كان /148ب/ واعتذر ، فجعلتُ اعتذاري اليه بعذر لم يَنْدُ الحقُّ نسْجُه ولم يتّسِقْ القول منه ؛ وإن لسان الباطل يُعْمي للظاهر والباطن ! فقال له أحمد : لا يتّهمنّ أمير المؤمنين أحدًا ، أنا أخبرتُ عمروا . فقال : وما دعاك الى ذلك ؟ فقال الشكر ـ والله ـ لأصطناعك ، والنّصح لك ، والمحبة لتمام نعمك على أوليائك وخدَمك ، وقد علمت أن أمير المؤمنين يحبّ استبطاح الأعداء والبُعداء ، فكيف بالأولياء والقربى ، ولاسيما مثل عمرو في موضعه من الدولة ، وموقعه من الخدمة ، ومكانه من أمير المؤمنين ، فخبّرْته بما أنكرته عليه ليقوم من أوَد نفسه ويتلافى ما فرط منه ؛ وإنما العيب لو أشعت سرّا فيه قدْح على ملك أو نقْص تدبير ؟ فقال المأمون : أحسنت والله يا أحمد ، إذ أجَرْتني مخاضة الظنّ وصدَقْتني عن نفسك . انتهى .

فكانت نجاته في الصدق .

قال بعضهم : لا يخفى على كلّ ذي لبّ أنّ الصّدق زيْن ، والكذِب شين ، وأن أفضل الناس أصدقهم حديثًا ، وأنجزهم موعدًا ، وأوْفاهم عهدًا ، وأتمّهم أمانة وأنداهم راحة ، وأنّ المؤمن من كانت هذه خصاله .

قال سعد : كلّ الخصال قد تكون في المؤمن والمنافق الاّ الخيانة والكذب ، فإنهما لا يصحبان الإيمان وهما عمّات المنافق ، كما أن الدين والحياء لا يفارقان العقل .

قال عليّ رضي الله تعالى عنه : من كانت فيه ثلاثة وجبت له على الناس ثلاثة ، إذا حدّثهم صدَقهم ، وإذا أئتمنوه لم يخُنهم ، وإذا وعدهم وفّى لهم ؛ وَجَبَ له عليهم أن تحبّه قلوبهم ، وأن يُجِلّوا مكانه ، وأن تنطِقَ بالثناء عليه ألسنتهم . /149/

وقال الشاعر في ذلك :

أُصدِقْ حديثَك إن في الصـ ـدق الخلاص من الدّنسْ
ودَعِ الكـذوب لشأنـه خيرٌ من الكَذب الخرَسْ

وقال غيره :

ما أقبح الكذِب المذمومَ صاحبه وأحسَن الصدق عند الله والنّاس

قيل : إن لقمان قال لولده : يا بُنيّ إحذر الكذب ، فإنّه شهيٌ كلحم اليَعْفور (في الاصل : العفور . وقد قربنا المقصود ، ولم نعتمد القراءة في التنوخي التي تقول «العصفور» . واليعفور هو ولد البقرة الوحشية . وقال بعضهم اليعافير هي تيوس الظباء) ، من أكل منه شيئا لم يصبر عليه .

وذكر القاضي التنوخي عن أبي عبّاد قال : دعاني المأمون يومًا ودفع اليّ كتابا مختومًا بخاتمه ، وأمرني أن آتي عمرو بن مسعدة فأُناظره على باب ممّا تضمّن ، وآخُذَ خطّه في كل باب بحجّته وأختمه بخاتمي وخاتم عمرو ، وأحتفظَ به الى أن يسألني عنه ولا أذكُرَه ابتداء به ، وأكّد عليّ في ترك ابتدائي بذكره . فعلمتُ أنها رُقعة ، وقد كنتُ شاركت عمروا في أشياء صارت الينا أموال ، فخِفْتُ أن يكون ذكَرَها في الكتاب .

فقصدت عمْروًا فوجدته في بستان لأحمد بن يوسف ، يلعب بالشّطرنج مع بعض أصحابه . فعرّفته أني محتاج الى الخُلْوة معه ، فقال : دعني فقد استوى لي هذا الدَّسْت ! فضاق صدري ، فقَلَبْتُ الشطرنج ، فضجَر وقال : أسأتَ والله

بي ! فقلت : قد سال بنا السّيل ، وأنت لا تعلم وهلَكْنا ! ثم قرأت الكتاب وطالبته بأن يكتب تحت كلّ فصل بحجّة . فضحك وقال : ويحك ، أما تستحي من رجل طولَ هذه المدة تخدُمه ، ولا تعرف خلُقه ولا مذهبه ! فقلت : يا هذا /149ب/ أخبِرْني إن قدمت على جحد ما في هذا الكتاب أتقبَل أن تجحد ما شاركتُك فيه ؛ أما أنا فوالله ما أجحد ، ولكن أصبر لأمر الله . فقال لي : أتريد أن أطلِعَك على ما هو أشدّ عليك من هذا ؟ قلت : وما هو ؟ فقال لي : كتاب دفَعه أمير المؤمنين إليّ منذ سنة ، وأمرني فيه بمثل ما أمرك به في هذا الكتاب ؛ فعرفتُ ضيق صدرك ، فلم أذكُرْه لك ! فكدت أموت الى أن فرغ من كلامه ، فقلت له : فأين هو ؟ فقال : في منزلي . فسألته إحضاره . فوجّه فجاءني به فقرأته وأنا انتفض وعمرو يضحك . فلما فرغت منه قلت : عند الله أحتسب نفسي ونقمتى ! فقال : والله أنت مجنون ! فقلت : دعنا من هذا ، ووقّع تحت كلّ فصل بحجّته ! فنظر في جملة ما نسب اليه في هذا الكتاب فوجده أربعين ألف ألف درهم ، فوقّع في آخره : «لو اقتصرتْ بنا هِمّتنا على هذا المقدار وأضعافه لوَسِعتنا منازلنا ، وما يفي هذا بدخله في برد أو تهجير في حرّ (الزيادة من الدر /221ب/ . وفي الاصل بياض بمقدار ذلك) ، وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، ويبلّغنا ما نؤمّله به وعلى يديه» .

وكان جملة ما رفَع عَليّ سبعة وعشرين ألف ألف درهم . فقلت له : قد والله قتلتَ نفسك وقتلتني ، أترى أمير المؤمنين يصْفح عن سبعة وعشرين ألف ألف درهم ! فقال : ياهذا إنّ صاحبك ـ أطال الله بقاءه ـ ليس ببخيل لكنّه يكره أن يُغبَن معروفُه ، وإنما أراد أن يعلّمنا أنّه قد علم ما صار إلينا فأمسكَ عنه على علم . ثم ختم الكتاب بخاتمه وخاتمي . وانصرفت وأنا في الموت ، فلم أبِتْ حتّى كتبت وصيّتي وأحكمت أمري فمكثتُ /150/ بذلك سنة قلقًا مغمومًا قد هجرت مطعمي ومشربي وملاذّي كلها الاّ ما يقيم الرمَق . فقُليت ونحِلت وضَنِيَ بدني فقال لي المأمون عشية وقد دخلت اليه وهو وحده : يا أبا

ثابت ، أنا منكر لحالك ، أفتشكو علة ؟ قلت : لا ، ولكني منذ مدة حيٌّ كميّت ، للكتاب الذي دفعه اليّ أمير المؤمنين أن أناظر به عمرو بن مسعدة . فقال : اَمسكْ حتى أعيد ما جرى بينكما !

ثم اندفع فحدّثني بأمرنا كلّه ، وما دار بيننا حتى كأنه كان ثالثنا . فقلت له : قد آستقصى لك يا أمير المؤمنين الذي وكّلته بخبرنا ، والله ما خرج منه حرفًا ! قال : والله ما وكّلت بكما أحدًا ، ولكني ظننت ظنّا وعلمت أنه لا يدور بينكما غيرُه ، ولقد عجبت من عجب ، لأن عقول الرجال يدرك بعضُها بعضًا . ولا ينفعك يقين لا ينفعك ظنّه . وعمرو أعرَفُ بنا منك وأوسع صدرًا ، وأبعد همّة ، وما أردت بما فعلت الاّ لتعلَما أني قد عرفتُ ما صار اليكما ، فيزولَ الغُبن . وعلمتُ أنكما تتوقّيان إظهار ما صار اليكما وتستكثرانه ، فأحببتُ أن أزيل عنكما غمّ السّاتِرة وثِقَل الـمَرّاقِبّة ، وإني لمتذمّم منكما خجلا من ضعف أثَري عندكما ! . فسررت وصرت كأني أطلقت من عقال ، وشكرت له ودعوت ، ثم قلت له : ما أصنع بذلك ؟ فقال : خرّقه في لعنة الله تعالى ، وامض مصونًا في ستر الله آمنًا .

قلت : وهذا مما يُعرف به فضل المأمون وحسن سياسته . انتهى .

لطيفة

ذكرها التنوخي عن عمرو بن مسعدة ، قال : بلغني عن عمرو بن مسعدة أنه قال كنت مع المأمون عند قدومه /150ب/ من بلاد الروم حتى إذ نزل الرقّة قال لي : يا عمرو أمّا ترى الرخجي قد احتوى على الأهواز ، وهي سلّة الخبز ، وجميعُه قِبَله . وطمِع فيها ؛ وكتبي متصلة به في حَمْلها ، وهو يتعلّل ويتربّص الدوائر ! فقلت : أنا أكفي أمير المؤمنين هذا ، وأُنْفِذ من يضطرّه الى حمل ما عليه . فقال : ما يَقنعني هذا ؟ قلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره ! قال : تخرج اليه بنفسك حتى تُصفّده بالحديد وتحمِله اليّ ، بعد أن تقبِض جميع ما في يده

من أمولنا ، وتنظر في ذلك وترتّب فيه عاملا . فقلت : السمع والطاعة !

فلما كان من غد دخلت اليه . قال : ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قلت : أنا على ذلك . قال : أريد أن تجيئني في غد مودّعًا . قلت : السمع والطاعة !

وجئته من غد مودعًا . فقال : أريد أن تحلِف لي أنّك لا تقيم ببغداد الاّ يومًا واحدًا . فاضطربت من ذلك الى أن حَضّ عليّ واستحلفني ألاّ أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام . فخرجت وأنا مضطرب مغموم ، وقلتُ في نفسي : أنا في موضع الوزارة ، وقد جعلني مستحِثًا الى عامل ومستخرِجًا ؛ ولكن أمر الخليفة لابدّ من سماعه وامتثال مرسومه .

فخرجتُ حتى قدِمت بغدادِ ، ولم أقِم بها الاّ ثلاثة أيام . وانحدرت منها في زلاّل أريد البصرة ، وجعل لي فيه خَيْش لشدة الحرّ . فلما صرت بين جرجريا وجيل سمعت صائحًا من الشطّ يصيح : يا ملاّح ! فرفعت سُجف الزلاّل ، فإذا شيخ كبير السنّ حاسر الرأس حافي القدمين خلِق القميص ، فقلت للغلام : أجبه ! فأجابه فقال : يا غلام إني شيخ كبير السنّ على هذه الصورة التي ترى /151/ وقد أحرقتني الشمس وكادت تُتْلِفني وأريد جيل ، فاحملوني معكم ، فإن الله جلّت عظمته يُحسن أجر صاحبكم . قال ، فشتمه الملاّح وآنتهره . فأدركتني رِقّة عليه وقلت للغلام : خذه معنا ! فقدم الى الشط وصاح به فحملناه .

فلما صار معنا في الزلال وانحدرنا تقدّمْت اليه فدفعتُ له قميصًا ومنديلا ، فغسل وجهه واستراح ، وكأنه كان ميّتًا عاد الى الدنيا . ثم حضر وقتُ الغداء فتذممت وقلت للغلام : هاته يأكل معنا ! فجاء وقعد معي على الطعام ، فأكل أكْل أديب نظيف ، غير أنّ الجوع آثَر فيه . فلما رُفعت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما يفعل العامة في مجلس الخاصة . فلم يفعل . فغسلت يديّ وتذممت أن آمُرَ بقيامه ، فقلت : قدّموا له الطشت ! فغسل يديه . وأردت بعدها أن يقوم لأنام . فلم يفعل ، فقلت : يا شيخ ، أيّ شيء صناعتك ؟ قال :

حائك ، أصلحك الله ! فقلت في نفسي الحياكة أَغْلَمته سوء الأدب . فتناومت عليه ومددت رجليّ . فقال : قد سألتني عن صناعتي ، فأنت ـ أعزّك الله ـ ما صناعتك ؟

فأكبْرت ذلك وقلت : أنا الجاني على نفسي هذه الجناية ، ولا بدّ من احتمالها ، أتراه الأحمق لا يرى زلاّلي وغلماني ونعمتى ، وأنّ مثلي لا يقال له مثل هذا ! فقلت ليس غيرَ الـهتْك بهذا ، والتفتّ اليه فقلت : صناعتي كاتب ! فقال: كاتب كامل أم ناقص ، فإنّ الكتّاب خمسة ، فأيهم أنت ؟ فورد عليّ قول الحايك موردًا عظيمًا ، وسمعت كلامًا أكبرته ، وكنت متكئا فجلست ثم قلت : فصّل لنا الخمسة /151ب/ قال : نعم ، كاتب خراج ، يحتاج أن يكون عالـمًا بالشروط والطُّسوق والحساب والمساحة والثبوت والفتوق والرتوق ؛ وكاتب أحكام ، يحتاج أن يكون عالـمًا بالحلال والحرام والاختلاف والاحتجاج والاجماع والاصول والفروع ؛ وكاتب معونة ، يحتاج أن يكون عالـمًا بالقصاص والحدود والجراحات والمؤاسات والسياسات ؛ وكاتب جيش ، يحتاج أن يكون عالـمًا بحلي الرجال وشيات الدواب ومداراة الاولياء وبشيء من العلم والحساب؛ وكاتب رسائل ، يحتاج أن يكون عالـمًا بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحسن البلاغة والخط . فقلت : أني كاتب رسائل.

قال : فسؤالك عن بعضها ؟ قلت : سل . قال لي : أصلحك الله ، لو أنّ رجلا من إخوانك تزوّجت أمّه ، فأردتَ أن تكاتبه ، فكيف كنت تكاتبه ؟ ففكرت في الحال ، فلم يخطر ببالي شيء ، وما أرى للتهنئة وجهًا . فقلت : إعفني ! قال : قد فعلت ، ولكنك لست بكاتب رسائل !

فقلت : أنا كاتب خراج . قال : لا بأس ، لو أنّ أمير المؤمنين ولاّك ناحية ، وأمرك فيها بالعدل والانصاف ، وتقضي حقّ السلطان ، فيتظلم اليك بعضهم من مُسّاحك ، وأحضرتَهم للنظر بينك وبين رعيتك ، فحلف الـمُسّاح بالله

العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا ، وحلفت الرعية بالله لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعية : قف معنا على ما مَسَحوه ، وانظر الصادق من الكاذب ! فخرجت لتقف عليه . فوقفوا بك على قَراح (القراح ، الزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شيء) شكلُه قاتل قشا ، كيف كنت تمسحه ؟ قلت : /152/ آخذ طوله على انعراجه وآخذ عرضه ثم أضربه في مثله . قال : إن شكل قاتل قشا يكون رأساه محدودان وفي تحديده تقويس . قلت : آخذ الوسط ، فأضربه في العرض . قال : إذًا يَنْثني عليك العمود . فأسْكتني ، وقلت : لست بكاتب خراج !

قال : فإذًا ؟ قلت : أنا كاتب قاض . قال : لا نبالي ، أفرأيت لو أنّ رجلاً توفي وخلف امرأتين حاملتين ، إحداهما حرّة والاخرى سَرِيّة . وولدت السرية غلامًا والحرة جارية فعمدت الحرة الى ولد السرية فأخذته وتركت بدَلَه الجارية ، واختصما في ذلك ، كيف الحكم بينهما ؟ قلت : لا أدري ! قال : فلست بكاتب قاض .

قلت : فأنا كاتب جيش ! قال : لا بأس ، أرأيت لو أنّ رجلين جاءا اليك لتُحَلّيهما ، وكلّ واحد منهما اسمه واسم أبيه كاسم الآخر واسم أبيه ، إلاّ أن أحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق الشفة السفلى ، كيف كنت تُحلّيهما وكلّ واحد منهما يجيء إذا دعوتَ الآخر ؟ قلت : لا أدري ! قال : فلست بكاتب جيش .

قلت : أنا كاتب معونة . قال : لا نبالي . لو أن رجلين رفعا اليك أنه قد شجّ أحدهما شجة موضِّحة ، وشجّ الآخر شجة موميّة ، كيف كنت تفصل بينهما ؟ قلت : لا أدري . قال : إذًا ، لست بكاتب معونة ؛ اطلب لنفسك أيها الرجل شغلاً غير هذا !

فعند ذلك صغُرت اليّ نفسي وغاضني الأمر ، فقلت : قد سألتَ عن هذه الامور ويجوز أن لا يكون عندك جوابها ، كما لم يكن عندي . فإن كنت عالـمًا

بالجواب فقل . قال : نعم ، أمّا الذي تزوجت أمّه فتكتب اليه «أمّا بعد ، فإن الأمور تجري من عند الله بغير /152ب/ محبّة عباده ، ولا اختيارهم ، بل تعالى مختارٌ لهم ما أحبّ . وقد بلغني تزويج الوالدة ، خار الله في قبْضها ، فإن القبور أكرمُ الأزواج وأستر العيوب . والسلام» .

وأمّا قَراح قاتل قشا ، فيمسح العمود حتى إذا صار عددًا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه ، فما خرج فهو مساحته .

وأمّا الجارية والغلام ، فيوزن اللّبنان ، فأيُّهما خفّ فالجارية له .

وأمّا المرتزقان المتوافقان الإسمين ، فإذا كان الشَقّ في الشفة العليا كتبت «فلان الأعلم» وإذا كان في الشفة السفلى كتبت «فلان الأفلح» .

وأمّا صاحب الشجّتين ، فلصاحب الموضّحة ثلث الدّيّة ولصاحب المومية نصف الدية .

فلما أجاب بهذه المسائل تعجبت منه ، وامتحنته بأشياء غيرها كثيرة ، فوجدته ماهرًا في جميعها حاذقًا بليغًا . فقلت : إستدعيْتَ أنّك حائك ، وليس الحائك كما رأينا ؟ فقال : أصلحك الله ، حائكُ كلام ولست حائكُ نِساجة ! ثم أنشأ يقول :

ما مرّ بؤس ولا نعيم   الاّ ولي فيهما نصيبُ
نوائب الدّهر أدّبتني   إذّ ما يوعظ الأديبُ
قد ذقت حُلوا وذقت مُرّا   كذاك عيش الفتى ضُروبُ

قلت : فما الذي بك من سوء الحال ؟ قال : أنا رجل كاتب ، دامت عطلتي وكثُرت علّتي ، وتواصلت محنتي ، وقلّت حيلتي . فخرجت أطلب تصرّفًا ، فقُطِع عليّ ، فتُركت كما ترى ؛ فجئتُ على وجهي فلمّا لاح لي الزلال استعنتُ بك . فقلت له : ها أنا خرجتُ الى تصرّف جليل ، احتاج فيه الى جماعة مثلك. وقد أمرت لك /153/ بخلعة حسنة تصلح لمثلك ، وخمسة آلاف

درهم تُصلح بها أمرك وتنفّذ منها الى عيالك ، وتقوّي نفسك بباقيها ، وتسير معي الى عملي فأوليك أجلّه . فقال : أحسن الله اليك ، وجازاك خيرًا ، إذًا تجِدُني بحيث يسرّك ، ولا أقوم مقام معتذر اليك إن شاء الله تعالى .

وأمرتُ بتقبيض ما رسمت له من المال ، فقبضه وانحدر معي الى الأهواز ، فجعلته المناظرَ للرّخجي والمحاسبَ له بحضرتي والمستخرج لِمَا عليه : فقام بذلك أحسن قيام وأوفاه وعظُمت حاله معي ، وعادت نعمته الى أحسن ما كانت عليه. ورجعت الى المأمون . انتهى .

وكان فرج الرّخجيّ هذا عاملا على فارس والأهواز ، عقد له المأمون بذلك.

نادرة غريبة : قيل إنّ المأمون غضب على فرج الرّخجيّ المذكور وسجنه . فكلّم عبد الله بن طاهر المأمونَ في إطلاقه ، وأعانه مسرور الخادم على ذلك .

قال فرج : فبتّ ليلتي مفكرًا في أمري وآغتممت إذ أتاني آت فقال لي :

ما أتى فرَجًا من ربّه فرَجٌ   جئنا الى فرَج نبغي به الفرَجا

فلما أصبحت لم أشعر الآ واللّواء عقد لي على ولاية فارس والاهواز ، وأطلق لي معونة خمسمائة ألف درهم ، وإذا أبو البقاء الشاعر قائمًا على باب داري وكتب هذا البيت في رقعة . فقلت له : متى قلت هذا البيت ؟ قال : في الوقت الذي رضي عنك فيه ! فأمرت له بعشرة آلاف درهم . انتهى .

/153ب/ ذكر اليافعي في تاريخه عن يحيى ابن خاقان قال : كنت كاتبًا للحسن بن سهل ، فقدم المأمون مدينة السلام فقال لي : يا يحيى ، خلوْتَ بالسوداء ولعبتَ في أموالي ، واحتَجَبْتَها ، فأقْطَعْتها . فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنما أنا كاتب الرجل ؛ والمناظرة في الأموال والأعمال مع صاحبي لا معي . قال: ما أطلُبُ غيرك ، ولا أعرف سواك ، فصالحني على مائة ألف ألف ! قال يحيى : فضحكت لِمَا أعلمُ من ضعفي . فقال : أجِدُّ وتهْزَلُ يا يحيى ! فقلت :

يا أمير المؤمنين ، إنما ضحكت تعجبًا ، وبالله ، ما أملك الا سبعمائة ألف درهم . فكيف أصالح على مائة ألف ألف درهم ؟! قال : دع ذا عنك ، واعطني خمسين ألف ألف .

فما زلت أجاذبه ويجاذبني الى أن بلغ اثني عشر ألف ألف درهم . فلما بلغ اليها قال : نُفيتُ من الرّشيد إنْ نُنْقِصكَ شيئا منها ! قلت : السمع والطاعة ! فقال : أقِمْ لي كفيلا إن لم تف به طالبْتُه . قلت : صاحبي يا أمير المؤمنين يُضمِّنني . قال : أتراني أنّي دافعت الأذاء عنه ، أأطالب الحسنَ بن سهل عنك ؛ هذا ما لا يكون . فقلت : عبد الله بن طاهر . فقال : عبد الله سبيله سبيل صاحبك . قلت : حُميد . قال : هذه سبيله . فقلت : فرجٌ ، مولاك يا أمير المؤمنين . قال : بلى والله ، ثقةٌ . ثم التفت الى فرج وقال : تضمَنه يا فرج ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قد ضمِنته . فقال : والله إنّي محرجه باللحّ عليه في المطالبة حتى يهرَب أو يَسْتُر فتؤديه عنه ، فإنك مِلّي . فقال فرج : صاحبي ثقة ، ولا يجفوني إن شاء الله !

قال يحيى : فبكيْت الى الحسن بن /154/ سهل وعبد الله بن طاهر وحُميد ودينار بن عبد الله وغسّان ورجالِ المأمون أسألهم إعانتي في المال . فحملوه اليّ كلّه عن آخره ؛ حمَل كل إنسان منهم على قدره . فكتبت رقعة الى المأمون أعرِّفه أن المال قد حضر ، وأسأله أن يأمر من يقبضه .

فأحضرني اليه ، فلما وقعتْ عينه عليّ قال : يا خائن ، الحمد لله الذى بيّن لي خيانتك ، وأظهر لي كذبك ؛ ألم تذكر أنك قلت لا أملك الا سبعمائة ألف درهم ، فكيف تهيّأ لك أن حملت في عشرَة أيام أثني عشر ألف ألف درهم ؟ فتلطّفت وقلت له : حملتُه يا أمير المؤنين من هذه الجريدة ! ودفعت اليه جريدة بأسماء من حمل الي المال ، ومبلغ ما حمل كلّ واحد منهم .

قال يحيى : فقرأ الجريدة ، ثم أطرق مليًا ورفع رأسه فقال : لا يكون أصحابنا أجود منّا بهذا المال . قد وهبناه لك ، وأبرأنا ضمينتك . قال يحيى

فسررت وخرجت من عنده فرحًا . ورددت المال الى أصحابه ، فأبوا أن يقبلوه وقالوا : قد وهبناه لك ، فاصنع به ما أحببت ! فقلت لهم : أخذته في وقت حاجتي ورددته عند استغنائي عنه . وحلفت ألاّ أقبل منه درهمًا ، ورددته عليهم. انتهى .

ذكر الخطيب أنّ عليّ بن عيسى القمّي كان ضامنًا لأعمال الخراج والضِّياع ببلده ، فقُبِضت عليه أربعون ألف دينار . وألحّ المأمون في مطالبته بها ، حتى قال لعليّ بن صالح حاجبه : طالبْه بالمال ، وأنْظِرْه ثلاثة أيام ، فإنْ أحضر المال قبل انقضائها وإلا فاضربْه بالسِّياط حتى يؤدّيَها أو يَتْلَف !

وكانت /154ب/ بين عليّ بن عيسى وغسّان بن عباد عداوة . فانصرف من دار المأمون آيسًا من نفسه ، لا يقدِر على شيء من المال . فقال له كاتبه : لو عرّجت على غسّان وأخبرته بخبرك ، أن يعينك على أمرك ! فحَمَلَتْه حاله على قبول ذلك من كاتبه .

ودخل الى غسان فتلقاه بجميل ووفاه حقّه وقصّ كاتبُه قصّته . فقال غسان: أرجو أن يكفيه الله تعالى . ونهض عليّ بن عيسى آئسا من نفسه ، كاشف البال نادمًا على قصده ، والتفت الى كاتبه بعد الانصراف فقال له : ما أفدتنا بقصد غسان إلاّ تعجيلَ المهانة والذل . وتشاغل في طريقه بلقاء بعض إخوانه وعاد الى داره فوجد على بابه بغالا عليها أربعون ألف دينار مع رسول غسان بن عباد . فبلّغه سلامه ، وعرّفه غمّه بما دفع اليه ، وسلّم اليه المال .

وتقدّم غسان بحضور دار المأمون من غد ذلك اليوم ، وبكّر عليّ بن عيسى أيضًا . فلمّا وصل الناس الى المأمون تمثّل غسان بين الصفين وقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ لعلي بن عيسى حرمة وخدمة وسالف أصل ، ولأمير المؤمنين عليه سالف إحسان هو أوْلى به ؛ وقد لحِقَه من الخسران في ضمانه ما قد تعارفه الناس ، وجرى عليه من حدة المطالبة وشدّتها ، والوعيدِ بضرب السياط الى أن يَتْلف ما حَيَّره وقطَعَه عن احتيال ما عليه ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يُسعفني

ببعض ما عليه ، ويَضَعَه عنه !

ولم يزل به غسّان الى أن حط المأمون عنه النّصف ، واقتصر منه على عشرين ألف دينار . فقال غسان : على أن يجدِّد عليه الضمان ويُشرِّفُ أميرُ المؤمنين /155/ بخِلْعة . فأجابه المأمون الى ذلك ووقّع ذلك له ، وخلع عليه وانصرف الناس .

فلمّا وصل عليّ بن عيسى الى داره ردّ العشرين الالف دينار الى غسّان وشكره ، فردّها غسان وقال له : إني لم أستحطِطْها لنفسي ، وإنما أحببت توفيرها عليك واستحططتها لك ؛ والله ليس يعود شيء من المال الى ملكي ! انتهى .

قيل إنّ المأمون كان كثير العطاء والتعظيم لحاشيته ، وأنه كان وهب مالا لم يُر أكثر منه إطلاقًا . وذلك أنه ثار عليه رجلان بمصر ، وهما عبد السلام وابن جليس ، فخلعا طاعته واستحوذا على الدّيار المصرية ، وبايعهما طائفة من القيسية واليمانية . فندب أخاه اسحاق وولاّه نيابة الشام ومصر ، وولّى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم ، وأطلق لكل منهما خمسمائة ألف دينار . وذلك سنة ثلاثة عشرة ومائتين ، وأطلق في ذلك اليوم لعبد الله بن طاهر خمسمائة ألف دينار . فكان جملة ما أطلقه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . قال بعضهم وهذا شيء لم ير أكثر منه إطلاقًا . وكان قد سوّغ خراج مصر لعبد الله بن طاهر ، سنة عشرة ومائتين حين أركبه اليها واستنقذها من يدي عُبيد بن السَّرّي بن الحكم ، المغلَّب عليها . فاستعادها منه بعد حروب طويلة .

قال أبو الفرج الاصفهاني في مختاره : كان عبد الله بن طاهر في علوّ المنزلة ، وعظيم القدر عند الخلفاء في أعلى مرتبة . وأمره مشهور عند الخاصة والعامة ، /155ب/ وله في السماحة والجود والشجاعة ما لا يقارن في ذلك أحد . ولما افتتح مصر سوّغه المأمون خَراجها . فصعد المنبر ولم ينزل منه حتى أجاز بثلاثة

آلاف ألف دينار أو نحوها . فأتاه مُعلّى الطائي ، وكان واجدًا عليه ، فوقف بين يديه تحت المنبر وقال : أصلح الله الأمير ، أنا مُعلّى الطائي قد بلغ منّي ما كان إليّ من جفاء وغلط ، فلا يُغْلَظَنّ على قلبك ، ولا يَسْتَخْفيكَ الحفيظة ، فأنا الذي أقول :

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرة   وأظلمُ الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجري ماؤه ذهبا   لما أشرتَ الى خزْن بمثقال
إن كنتُ منك على بال مَننْتَ به   فإن شكرك من قلْبي على بال

فضحك عبد الله وسُرّ بما كان منه ، وقال : يا أبا السّمراء ، اقْرِضْني عشرة آلاف دينار ، فما أمسيْتُ أملكها ! فأقرضه إياها ، فدفعها إليه . انتهى .

خبر غريب وحلم عجيب

روى محمد الخراساني ، أنّ عبد الله بن طاهر المذكور لـمّا قال قصيدة أبيه ، يفتخر بها عن مآثر أبيه وقتْله المخلوع ، عارضه محمّد بن يزيد الأموي الحِصْني ، وكان من وُلْد مَسْلمة بن عبد الملك ؛ فأفرط في السبّ ، وتجاوز الحدّ في قُبْح الردّ . وكان فيما قال من قصيدته التي أوّلها :

قاتلُ المخلوع مقتول   ودَم المقتول مطلولُ /156/

الى أن قال :

يا ابن بيت النار مُوقِدها   ما لحاذيه سراويلُ
مَنْ حسينٌ ومن أبوه ومن   مصعب غالَتْهمُ غولُ
نسبٌ في الناس مؤتشب   وأبوّات أراذيلُ

فلمّا وليَ عبد الله مصرَ والشام علِم الحصني أنه لا يفلُت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حلّ . فثبَتَ في موضعه ، وأحْرَز حُرُمَه ، وفتح باب حصنه ،

وجلس عليه ؛ وترك دوابه وأمواله وكل ما يملكه في موضعه . وتوقّع من عبد الله أنه يُوقع به .

قال محمد الخراساني : فلما شارفْنا بلَده ، وكنّا على أن نصبِّحه دعاني عبد الله في الليل ، وقال لي : بِتْ عندي ، وليكن فرسك مُعدًا عندك . ففعلت ، فلما كان السَّحر أمر أصحابه ألاّ يرحلوا حتى تطلع الشمس . وركِب وركبتُ معه أنا وخمسة من خواص غلمانه ، فسار حتى صبّح الحصني ، فرأى بابه مفتوحًا وهو جالس مسترسل . فقصده وسلّم عليه ونزل عنده ، وقال له : ما أجلسك ههنا ، وحمَلك على أن فتحت بابك ولم تتحصن من هذا الجيش الثقيل المقبِل ، ولم تتَنحّ عن عبد الله بن طاهر مع ما في نفسه عليك وما بلَغَه عنك ؟! فقال : إنّ ما قُلْتَه لم يذهب عنّي ، ولكني تأمّلتُ أمري ، وعلمت أني أخطأت خطية حملني عليها ترَف الشّباب وغِرّة الحداثة ، وإني إن هربْت منه لم أفُتْه ؛ فباعدتُ الحُرَم ، واستسلمتُ نفسي وكل ما أملك . ولي ممن مضى أُسوة ، وإني أثق أنّ الرجل إذا قتلني وأخذ مالي شفَى غيضه ، ولم يتجاوز ذلك الى الحُرَم ، ولا له فيهنّ أرب ، ولا يوجِب جُرْمي أكثر مما بذلته ! فوالله ما تلقّى عبد الله الكلام إلا بدموعه تجرى على لحيته /156ب/ . وقال له : أتعرفُني ؟ قال : لا ، والله ! قال : أنا عبد الله بن طاهر . وقد أمَّن الله تعالى رَوْعك ، وحقَن دمَك ، وصان حُرُمك ، وحرَس نعمتك ، وعفا عن ذنبك ؛ وماتعجّلتُ اليك وحدي إلاّ لتأمَن قبل هجوم الجيش ، ولئلاّ يخالِط عَفْوي عنك روعةٌ تلحقك !

فبكى الحصني وقام . فضمّه اليه عبد الله ، وقبّل رأسه وقال له : أمّا الآن فلا بدّ من عتاب ، يا أخي ــ جعلني الله فداك ــ قلتُ شعرًا في قومي ، أفْخَر بهم ، ولم أطعن على حسَبَك فيه ، ولا آدّعيت فضلا عليك ، وفَخَرْتُ بقتل رجل هو وإن كان من قومك فهو من القوم الذين ثأرُك عندهم ، وكان قد يَسَعُك السكوت وإنْ لم تسكت لا تُغْرِق وتُسرف ! فقال : أيها الأمير ، قد عفوتَ ؛ فآجعله العفوَ الذي لا يخالطه تثريب ولا يكدّر صفوَه تأنيب ! قال :

قد فعلتُ ، قم بنا ندخل منزلك حتى تُوجِب علينا حقًّا بالضيافة .

فقام مسرورًا ، فأدخلَنا منزلَه وأتى بطعام ، فأكلْنا وجلسنا نشرُب في مُسْتَشْرَف له . وأقبل الجيش ، فأمرني عبد الله أن أقول لهم لا ينزل أحد منهم الا في المنزل ، وهو على ثلاثة فراسخ . فقلت لهم ذلك ، وأقام عنده الى العصر ، وكتب له بتسويغ خَراج ثلاث سنين ، وقال له : إن نشِطْتَ فألحقْ بنا وإلاّ فأقمْ بمكانك ! فقال : أتجهّزُ وألحق بالأمير ، أعزه الله !

ففعل وجاء الى مصر ، ولم يزل مع عبد الله حتى دخل العراق ، فودعه وانصرف . انتهى .

ذكر ابن الأثير : أنّ المأمون لـمّا قدم العراق ، كان الفضل بن الربيع مستترًا /157/ لخوفه من المأمون . وقد طال عليه الأمر ، فضاق صدره لذلك ، وشقّ عليه [تنقّله] من منزل الى منزل ، وتغيُّر لباسه ، حتى كان يلبس في تستُّره لباس النّساء وتزيّى بزيهنّ . ولذلك قال فيه الكُميت :

لبِستَ لباسَ الغانيات وتحتها عزيمةُ رأيٍ أشبهتْ سلّة النّصْلِ

قال ابن الأثير : وكان الفضل مستترًا بناحية الخربة ، من الجانب الغربي . فخرج في بعض الايام من المنزل الذي كان فيه ليلاً ، وهو يمشي الى الجِسر ، ولا يعلم الى أين يقصد ، لخوفه وحيرته وبُعد عهده بالطريق . فأدّاه المشي الى الجسر وقد أسفرَ الصبح ، فأيقن بالعَطَب ، فتذكّر منزلا لرجل كانت بينهما مودّة ، فقصده .

وكان المنزل بسُويقة مصر . فلما صار في بعض الشوارع رأى جمعًا وسمِع نداء عليه ببذْل ألف دينار لمن دلّ عليه . فآستخفى حتى جاوز النّداءُ . ومشى فرآه رجل فعرَفه ، وقال له : فضْل ! وكان الرجل في أحد جانبي الطريق الذي فيه الفضل بن الربيع . فقصَده ليقبِض عليه ، فآعترضه حميرٌ وجِمالٌ عليها جِصٌ ، ، فنظر الفضل يمينًا وشمالا فلم يجد مذهبًا ، وقد حالت الجمال بينه

وبين الرجل ، فعمَد الى دربْ هناك وكان غيرَ نافذ ، وفي صدره بابُ منزل مفتوح ، فدخل المنزل . فوجد فيه امرأة فاستجار بها ، وناشدَها الله وسألها أن تستُره الى الليل . فأمرته بالصّعود الى غرفة لها . فصعد الغرفة ولم يستقرّ به الجلوس حتى دقّ الباب . وفُتح ودخل ذلك الرّجل ، الذي رآه وعرَفه . وإذا المنزل له ، فقال لزوجته : فاتني اليوم ألف دينار ! قالت : وكيف ذلك ؟ /157ب/ قال لها : مرّ بي الفضل بن الربيع ، فمددتُ يدي لأقبضه فأبتلعته الأرض ! فقالت امرأته : احمِد الله تعالى الذي كفاك أمره ، وبقّى عليك دينَك ، ولم تكن سببًا لسفْك دمه ، أو لمكروه يلحقُه حتى يحصل لك شيء من حطام الدنيا ! فخرج عنها .

وصعَدت المرأة وقالت لي : قد سمعت ما قد قال ، وما هذا لك بمنزل ! قال الفضل ، فضاق صدري ، وتذكّرْت منزلا لبعض مُعامِليّ ، فخرجتُ اليه . فلما صرت فيه ، دلّ عليّ وأسْلمني إلى طالبِيَّ . فحُملت الى المأمون ، وأُدخلت عليه ، وأنا عُريان ، لا طيْلسان ولا قلنْسوّة .

فلمّا وقعتْ عينه عليّ رقّ لي ، ووثب الى مُصلاه وصلّى ركعتين ، ثم عفا عني ، وقال لي : إنما صليتها شكرًا لله تعالى ، إذ وهبني العفو عنك ! قال ، ثم سأله عن خبره وما كان من أمره . فشرح له ما كان منه فعجب المأمون من المرأة ، وأمر لها بثلاثين ألف درهم . وقال للرسول : قل لها هذا جزاؤك على ما فعلته بالفضل بن الربيع من الجميل ! فردّت المال وقالت للرسول : لست آخذ على شيء فعلته لله تعالى جزاء إلاّ منه . انتهى .

وقال اليافعي : وكان خلاصه على يد طاهر بن الحسين ، وذلك أنه سأل المأمون الرِّضى عليه ، ومثّله بين يديه ، فقال له المأمون : يا فضل ، هذا جزاء الرشيد عليك ، وما حقّ لك من النعم ، وما فعل عمّي الهادي ، وجدّي المهدي والمنصور مع أبيك ، وما تعلم . مع أن الرشيد قد أوصاك بأمور كلها تُذْهب الشّحناء بيني وبين أخي ، فأغريْته حتى أدّيْته لما أدّيته . وكنتَ تحب تراني كيف

رأيته . أتحبّ أن ترى كيف كنت تحبّ تراني ؟! لكني قد عفوت /158/ عليك ، لأجل خدمتكم في آبائي وأجدادي . وعفى عنه وقيل إنه لم يزل بطالا الى أن مات ولم يكن له في دولة المأمون حظ . انتهى .

قال نِفْطويْه : كان الربيع بن يونس استوزره المنصور والمهدي والهادي . فلما آل الأمر الى الرشيد استوزر البرامكة ، وولّى الفضل بن الربيع الحِجابة . فكان يحجُب عليه ، وكان يروم التشبّه بالبرامكة ويُعارضهم ، ولم يكن له من القدرة ما يدرك اللّحاق بهم . فكان في نفسه منهم إحَنٌ وشحناء . ويحكى أنه دخل يومًا على يحيى بن خالد البرمكي وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، وبين يديه ولدُه الفضلُ يوقّع . فعرّض عليه الفضلُ بن الربيع عشْر رقاعٍ للناس فتعلّل يحيى في كل رقعة ، وانتهرَ الفضلُ بن يحيى الفضلَ بن الربيع ولم يوقّع له في شيء منها . فجمع الفضل بن الربيع الرّقاع وقال : إرجعْن خائبات خاسئات ! ثم خرج وهو يقول هذين البيتين :

عسى وعسى يُثني الزّمانُ عَنانه ... بتصريف حال والزّمان غيورُ
فتُقْضي لُبانات وتُشفى حَسائفُ ... ويحدثُ من بعد الأمور أمــورُ

فسمعه يحيى وهو ينشد ذلك ، فقال له : عزمت عليك يا أبا العباس إلاّ رجعت . فرجع ، فوقّع له في جميع الرقاع . ثم ما كان الاّ قليل حتى نُكبوا على يديه ، وتولّى بعدهم وزارة الرشيد . والفضل مستمر على وزارته وكان في صحبة الرشيد عند موته ، فقرّر الأمور للأمين وعرّج عن المأمون وزيّن للأمين خلعه من /158ب/ ولاية العهد . فكان سببَ الفتنة بينهما الى أن جرى من الأمر ما جرى ، وظهر المأمون على الامين . فخاف الفضل بن الربيع شوكة المأمون ، واستتر في رجب سنة ستّ وتسعين ومائة . ثم ظهر لابراهيم بن المهدي ، حين ادّعى الخلافة وثار على المأمون ، واتصل به . وكان معه الى أن اختل أمرُه ، وتفرّق جمعُه ، فاستتر الفضل بن الربيع ثانيًا ، وبقي مختفيًا الى

أن عفا عنه المأمون وأهمله ، الى أن مات في ذي القعدة سنة ثمان ومائتين ، وقيل في ربيع الأول . وسنّه ثمان وستون سنة .

وفي ترجمته ، هو الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة ، واسمه كيسان ، مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه . والفضل هذا هو أبو العباس الحاجب .

وقيل إنّ الربيع بن يونس كان لقيطًا .

يُحكى في ذلك أنّ شابًا دخل على أبي جعفر المنصور ، فسأله عن وفاة أبيه فقال الشاب : مات رحمه الله يوم كذا وكذا ، وكان مرضه رحمه الله كذا ، وخلّف رحمه الله من المال كذا . وكان الربيع حاضرًا ، فأنتهرَ الشاب وقال له : ما تستحي ، كم تُكثر من الرّحمة على أبيك . بين يدي أمير المؤمنين تقول هذا ! فقال الشاب : لا ألومك على انتهاري ، فإنك لا تعرف حلاوة الآباء ! فضحك المنصور ، وما عُلم منه ضحِكٌ كضحِكه يومئذ . انتهى ، كذا ذكر الامام ابن الجوزي في الاجوبة المسكتة .

لطيفة

حُكي عن الفضل بن الربيع أنه قال : كنت يومًا أقرأ كتابًا ورَدَ عليّ وإلى جانبي رجلٌ مدنيٌّ ينظر فيه ، فقلت له : ويحك ما تصنع ؟ قال : بلغني أنّ رسول الله ﷺ قال من /159/ نظر في كتاب أخيه المؤمن بغير إذنه فكأنما تطلّع في النار . ولنا أشياخ تقدّموا ، فأردت أن أعرِف مكانهم منها ! قال الفضل : فشغلني الضّحك منه على الإنكار عليه . انتهى ، كذا ذكر في بستان الآداب حكاية نقلت عن الفضل بن الربيع .

قال الفضل : سمعت من أبي ، قال سمعت من زينب بنت سليمان بن علي بن عباس ، قالت : كنت عند الخيْزران ، زوجة المهدي ، وكان من عادتها إذا كنت عندها أن تجلِس في عتبة باب الرُّواق مقابل الإيوان ، وأجلس أنا بإزائها

في الصدر ، في مجلس كان المهدي يجلس فيه ، وهو يدخل علينا كلّ وقت ، يقعد ساعة وينهض . فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواري الخيزران فقالت : أعزّ الله السيّدة ، إنّ بالباب امرأة ذات جمال وخلقة ، وهي على غاية من سوء الحال ، تستأذن عليك ؛ فسألتُها عن اسمها فامتنعت من ذلك ! فأشارت الخيزران اليّ وقالت : ما ترين ؟ قلت : ما يضُرّك من ذلك ، ففي دخولها لا بدّ من فائدة أو ثواب .

فأذنت لها بالدخول . فدخلت امرأة أجمل ما تكون النساء . فوقفت الى جانب الباب وسلّمت وقالت : مَرِيّة بنت مروان بن محمّد الأموي . قالت زينب ، وكنتُ متّكئة فجلستُ وقلت : مرية ، قاتلكِ الله ، ولا حيّاك ولا رعاك ، ولا سلّم عليك ، أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك نساء بني العباس يسألنك في أن تكلّمي أباك في الإذن في دفن ابراهيم ، فوثبْت عليهنّ وأسمعتهنّ أخشن الكلام وأغلظ القول ، وخرجْن على الحالة التى علمتيها ! قالت زينب ، فلمّا سمعت /159ب/ كلامي ضحِكتْ ؛ فوالله ما أنسَى حسن ثغرها ، وعلوّ صوتها بالقهقهة ، ثم قالت : أي بُنيّة عمي ، أيّ شيء أعجبك من حسن صنيع الله تعالى بي حتى أردت أن تتساويْ بي ، ووَيْم الله لقد فعلتُ بنساء أهلكِ ما قد ذكرتِ ، ولكن كان حقًا على الله تعالى أن يسلّمني اليك ذليلة جائعة عُريانة شَعْثة خاضعة ، فكان هذا شُكْرك لله على ما أولاك فيّ . ثم قالت : سلام عليكم ! وولّت خارجة .

قالت ، فالتفتُّ الى الخيزْران فإذا هي تبكي ، ونادت : يا مَرِيّة ، دخلتِ بإذْن ولا تخرجي إلاّ بإذن ! وصاحت بجَواريها : ردّوها !

فرجعت تقول : والله ما ساقني اليك الاّ الضرّ والجَهْد وسوء الحال . فنهضت الخيزران وعانقتها وقالت لجواريها : اذهبوا بها الى الحمام . ولم تبرح حتى وافتها الخِلَع المذهّبة والطّيب . وخرجت فأقبلت على الخيزران فقامت لها وعانقتها ، وأجلستها في المجلس الذي يجلس فيه المهدي ، وقدّمت اليها

الموائد ، وجعلت تأكل وتُلْقمها الى أن اكتفتْ وغسَلت يديها ؛ فقالت لها الخيزران : هل وراءك أحد ؟ فقالت : ما لي أحد ! فقالت لها : قومي فأختاري لك مقصورة من مقاصيري ، فأسكُني عندي ، ولا يفرّق بيننا الاّ الموت . فقامت وطافت واختارت لها مقصورة ، وهي أنزه المقاصير وأحسنهم وأوسعهم. ثم حوّلت اليها جميع ما تحتاج من المفرش والكساوي والرقيق ثم تركناها وخرجنا من عندها ، فقالت الخيزران : هذه امرأة مسّها الضرّ ما لا مزيد عليه ، ولا يغسل ما في قلبها الا المال ؛ إحملوا اليها /160/ خمسمائة ألف درهم .

فحُملت اليها . ودخل المهدي في آخر الأمر فقال : ما لكم ؟ فنهضتُ اليه وأعلمته بجميع ما جرى وما قلتُ لها حين دخلتُ وما ردّته عليّ . فغضب غضبًا شديدًا وقال : والله لولا لك خِدمةٌ ، لأحلفنّ ألاّ أكلّمك أبدًا ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد طاب قلبُها واعتذرنا اليها وفعلت معها السيّدة الخيزران كذا وكذا. فسرّه ذلك ، وقال : احملوا اليها من عندي مائة ألف درهم . وقال لخادم كان على رأسه : ابلغينها منّي السلام ، وقولي لها إنّي ما سررت بشيء منذ دهري كسروري اليوم بمقامك عندنا ، فلا تَدَعي في نفسك حاجة الاّ ذَكَرْتيها لنا ، ولولا أكره أن أحشُمك لصيرت إليك مسلّما عليك وقاضيًا بحقّك.

فمضى الخادم بالرسالة اليها ؛ فجاءت مَريّة الى المهدي ، فسلمت عليه وقالت : ما عليّ من أمير المؤمنين حشيمة ، فإني عُدْت من بعض جِواره ! فقال : لا والله ، بل أعزّ من ولدي ! ولم تزل عند الخيزران حتى ماتت الى رحمة الله تعالى . انتهى كذا ذكر في بستان الآداب .

ولنرجع الى أخبار المأمون .

فضل حِلْم وفضول جُرْم

قال حمّاد بن اسحاق كنت بين يدي المأمون يومًا فدخل اليه ابن البواب الحاجب ، وبيده رقعة فيها أبيات وقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن في إنشادها ! فظنها له وقال : هات ! فأنشده :

أجِرْني فإنّي قد ضمِئت الى الوعد	متى تنجز الوعدَ المؤكد بالعهدِ
أعيذك من خلف الملوك وقد ترى	تقطع أنفاسي عليك من الوجدِ
أرى الله عبد الله خير عبـــاده	فملكه والله أعرف بالعبـــدِ
ألا إنما المأمون للناس عصمـة	مميّزة بين الضلالة والرشـــدِ

فقال المأمون : أحسنتَ والله يا عبد الله ! فقال : يا أمير المؤمنين بل أحسن قائلها . قال : من هو ؟ قال : عبدُك ، الحسين بن الضحاك . فغضب ثم قال : لا حيّى الله من ذكرتَ ، ولا أبقاه ولا قرّبه ، ولا أنعم به عينًا ، أليس القائل «أعينيّ جودا وابكيا لي محمّدًا» وسرد القصيدة . وقد تقدّمت في وفاة الأمين ، ثم قال : هذا بذاك ، ولا شيء له عندنا . فقال له ابن البواب : فأين فضل إحسان أمير المؤمنين ، وسعة حلمه وعادته في العفو ؟! فأمر بإحضاره .

فلمّا مثُل بين يديه وسلّم ، ردّ عليه سلامًا خفيًا ثم أقبل عليه وقال له : اخبرني عنك ، هل عرَفْت يوم قُتِل أخي محمّد ـ رحمه الله ـ هاشمية قُتِلت أم هُتِكت ؟ قال : لا ! فقال : له فما معنى قولك :

ومـمّا شجى قلبي وكفكفَ عَبْرتي	محارمُ من آل النبي استُـحلَّتِ
ومهتوكةٌ بالخُلْد عنها سُجوفُـها	كَعَابٌ كقَرْن الشّمس حين تبَـدّتِ
إذا خَفَرتْها روعةٌ من منــازع	لها المِرْط عادت بالخضـوع ورنّتِ
وسرْبُ ظِباء من ذؤابة هاشم	هتَفن بدعوى خير حيٍّ وميتِ
أردّد يدًا منّي إذا ما ذكرتُـه	على كبد حرّى وقلْب مُفَــتّتِ

فلا يأت ليل الشامتين بغِبْطة ولا بلَغتْ آمالها ما تمـنّتِ

فقال : يا /161/ أمير المؤمنين ، لوعةٌ غلبتني ، وروعة فاجأتني ، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني ، وإحسان شكرته فأنطقني . فدمعتْ عين المأمون ، وقال : قد عفوت عنك ، وأمرت بردّ رزقك عليك ، وإعطائك ما فات منها ، وجعلت عقوبةَ ذنبك امتناعي من استخدامك . انتهى . كذا في تاريخ العظمي .

وقال اسحاق الموصلي : لـمّا ظاهَرَ المأمونُ بشرب النبيذ طلب قومًا من أهل البلد البيّتات ليجالسونه ، فآجتمع بجماعة من أعيان بغداد ثم بالحسين بن الضحّاك الخليع ، فقال : لا أنعم الله بالحسين عينًا ، أليس القائل في محمّد :

هلاّ بقِيتَ لسدِّ فاقتِـــنا أبدا وكان لغيرك التّلفُ
فلقد خَلَفْت خلائفًا سَلَفوا ولسوف يغدِرُ غيرَك الخَلَفُ

لا يراني أبدًا ! فتلطّف عبد الله بن طاهر في شأنه ، ولم يزل به حتى رضي عنه المأمون ، وصار من ندمائه . انتهى .

ومن ذلك ما نُقل عن ابن النطّاح ، أنه قال : لـمّا عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل ، ندب لذلك جماعة منهم عبد العزيز بن عمران الطائي . فنمى الخبر الى الفضل . فأظهرَه للمأمون وعاتبه عليه ، فلمّا قُتِل الفضل ، وقَتل المأمون قتَلته سأل من أين سَقط الخبر . فعُرِّف أنه من جهة ابراهيم بن العباس . وكان الفضل استكتب ابراهيم لعبد العزيز المذكور . وكان ابراهيم قد عرَف الخبر من جهة عبد العزيز ، فأخبر به الفضل .

فطلب المأمون ابراهيمَ بن العباس فآستتر خوفًا من المأمون . فتحمّل عليه بجماعة وجرّد في أمره هشام الخطيب المعروف /161ب/ بالعباسي ، وكان جريئا على المأمون ، لأنه ربّاه . فلم يجب المأمونُ الى ما سأله . فلقيه ابراهيم مستترًا وسأله عمّا عمل في حاجته ، فقال له : قد وعدني في أمرك بما تحبّ . فقال له : أظنّ الأمر على غير هذا . قال : وما تظنّ ؟ قال : محلّك من أمير

المؤمنين أجلّ من أن يَعدك شيئا وترضى بتأخيره ، وهو أكرم من أن يعدك شيئا فيؤخّره ، ولكنك سمعتَ ما لا تحبّ فيّ فكرِهت أن تُعلِمني به ؛ فأحسن الله ـ على كل الاحوال ـ جزاءك ! فمضى هشام الى المأمون وعرّفه ذلك . فعجب من فطنته وعفا عنه . فقال ابراهيم :

من كانت الاموال ذُخْرًا لـه   فإنّ ذخري أَمَلي في هشامْ
فتى نَفَى اللاّمةَ عن عِرْضه   وأنهب المال قضاءَ الذّمامْ

انتهى من الاغاني .

شيء من أخبار ابراهيم بن العباس المذكور وشعره :

قيل إنّ محمد بن عبد الملك وجّه بأبي الجهم أحمد بن سيف الى الأهواز ، ليكشف ابراهيم بن العباس فتحامل عليه تحاملاً قبيحًا . فكتب ابراهيم الى محمد بن عبد الملك يعرّفه ذلك ويشكو اليه ويقول : «إن أبا الجهم كافر ، لا يبالي بما عمِل ، وهو القائل لـمّا مات غلامه يخاطب ملَك الموت في غلامه :

تركـتَ عَبيـد بني طـاهر   وقد ملأوا الأرض عرضًا وطولا
وأقبلت تسعى الى واحدي   ضِرارًا كأني قتلتُ الرّسولا
فسوف أدين بترْك الصلاة   وأصطبحُ الخمر صِرْفًا شمُولا»

فكان محمد لتعصبّه على ابراهيم وقصده له يقول ليس هذا /162/ الشعر لأبي الجهم وإنما ابراهيم قاله ونسبه اليه .

وكتب ابراهيم بن العباس الى محمد بن عبد الملك يستعطفه ويقول له : «قد بلغت الـمُدْية المحزّ ، وكف الصديق عن نصرتي خوفًا منك ، وبادر اليّ العدو تقربا اليك ، ولو أمِنْت ودّك لقُلْتُ ، ولكني أخاف منك عَتبًا لا تُنْصفني فيه ، وأخشى من نفسي لائمة لا تحتملها معي . وما قُدِّر فهو كائن . وعن كلّ حادثة أحدوثة :

وكنتَ أخي ما أخافُ الزمان فلما نبا صِرْتَ حربًا عَوانَا
وكنتُ أعدُّك للنائبـات فها أنا أطلب منك الأمـانَا»

فكتب اليه أيضًا :

أرى في الأيام مثلَ أخ لي كان عوْني على الزّمان وخِلِّي
رفعتُ حاله فحاول حطّي وأبى أن يُعَزّ الاّ بــذُلّي»

وسبب ذلك ، أن محمّد بن عبد الملك الزيات كان صديقَ ابراهيم ، فلمّا ولي الوزارة صادرَ ابراهيمَ بألف ألف درهم ، ونال منه . وبقي على ذلك معه الى أن قَبَض المتوكل على ابن الزيات وقتَله . فقال فيه ابراهيم وقد استراح منه : «لما أتاني خبر الزيّات ، بأنه قد صار في الأموات ، أيقنت أن موتَه حياتي» .

وكان ابراهيم رقيق الحاشية . قال أبو العيناء : كنت عند ابراهيم بن العباس ، وهو يكتب ، فنقطتْ من القلم نقطة مُفسِدة ، فمسحها بثوبه . فتعجّبتُ منه ، فقال : لا تعجب ، فإن المال فرع ، والقلم أصل ، ومن هذا السواد جاءت هذه الثياب ، والأصل أحوج الى المراعاة من الفرع !

وجاء يومًا الى الحسن بن وهب /162ب/ فوجده سَكرانَ نائمًا ، فكتب رقعة وجعلها عند رأسه ، فلمّا استيقظ رآها ، فإذا فيها :

رُحْنا اليك وقد راحتْ بك الرّاح وأسرعتْ فيك أوتارٌ وأقْداحُ

فدعاه وتمّم يومه معه وكان من شعره :

لو قيل لي خذْ أمانًا من طارق الحِدْثان لما أخذتُ أمانًا الا من الخِـلاّنِ

ومن شعره :

إن امرءًا ظنّ بمعروفــه عندي لمبذولٌ له عُـــذْري
ما أنا بالرّاغب في عُرْفه إن كان لا يرغَبُ في شُكري

وقيل : كان لابراهيم ولد قد كبُر وترعرع ، وكان به معجَبًا ، فاعتل علة لم تطل ومات ، فقال فيه مراث كثيرة منها قوله :

من شاء بعدك فليمتْ فعليك كنتُ أُحاذرُ
كنت السواد لناظري واليوم بان الناظر

وكان أخوه عبد الله لـمّا عرف برقّة حال أخيه ابراهيم وما صار اليه وهب له ثلث ماله ووهب لأخيه الآخرالثلثَ وصار مساويًا لهما في الحال . فقال ابراهيم في ذلك :

ولكنّ عبد الله لـمّا حوَى الغِنى وصار له من بين أخوته مالُ
رأى خلة منهم تسدّ بمـاله فساهمهم حتى استوت بهم الحالُ

انتهى ، كذا ذكر الأغاني .

وكان ابراهيم لطيفًا أديبًا ، فعفا عنه المأمون وانضم اليه . وكان المأمون يميل الى من رقّت حاشيتُه .

ذكر في نزهة الأبصار في أخبار ملوك الأمصار (الدر 126ب : «وهو كتاب عظيم المقدار ولا أعلم مصنفه) ، أن المأمون /163/ مرّ بغلام يسوق حمارًا غير مُسْعَف ، وقد عَنَّف عليه في السُّوق . فقال له المأمون : يا غلام ، إرفق به ! فقال : يا أمير المؤمنين في الرِّفق به مضرّة عليه ! قال : كيف ذلك ؟ قال : يخِفّ حِمْله ، ويطول أكله ! فعجب المأمون من كلامه وقال : قد أمرت لك بألف درهم . فقال له : رزقٌ مقدور ، وواهبٌ مشكور ! قال المأمون : قد أمرتُ بإثبات اسمك في حَشَمي . فقال : كُفيتُ مؤونة ورُزقتُ معونة ! فقال له المأمون : عِظْني ، فإنّي أراك حكيمًا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إذا استولتْ بك السلامة فجرّدْ ذِكْر العطَب ، وإذا أهنَتْك العافية فحدِّث نفسك بالبلاء ، وإذا اطمأنّ بك الأمن فاستشعرْ الخوف ، وإذا بلغتَ نهاية العمل فاذكر الموت ، وإذا أحببت نفسك فلا تجعلنّ لها في الاساءة اليها نصيبًا .

فأعجب المأمون بكلامه وقال : لولا أنك حديثُ السنّ لاستوزرْتك ! فقال: لم يَعْدم الفضل من رُزِق العقل . فقال : هل تصلُح لذلك ؟ قال : إنما يكون الحمد والذم بعد التجربة ، ولا يعرِف الانسانُ نفسه حتى يبلوَها . فآستوزره فوجده ذا رأي صائب ، وفهم ثاقب ، ومشورة تقع مواقع التوفيق . وكان يجعلُه المأمون أمام عسكره عند غزواته بلادَ الروم ، فكان يدبِّر حروب المأمون أمامه . انتهى .

فائدة

روى البيهقي في كتاب دلائل النبوءة ، بسنده الى أبي سبرة النّخعي . قال ، أقبل رجل من اليمن ، فلمّا كان في أثناء الطريق نهق حماره فمات . فقام وتوضأ وصلّى ركعتين ثم قال : اللهم إني جئت في سبيلك مجاهدًا ابتغاء مرضاتك وأنا أشهد أنّك تحيي الموتى وتبعث من في القبور ألاّ تجعل لأحد اليوم عليّ مِنّة ، أطلب اليك اليوم أن /163ب/ تبعث لي حماري . فقام الحمار ينفُض ذنبه .

قال البيهقي : هذا سند صحيح ؛ ومثل هذا يكون معجزة لصاحب الشريعة ﷺ ، حيث يكون في أمّته من يحيى الله تعالى له الموتى . والرجل المذكور اسمه نبالة بن يزيد النّخعي . قال الشعبي : أنا رأيت ذلك الحمار يباع بعد ذلك في السوق ! فقيل للرجل : أتبيع حمارًا أحياه الله لك ! قال : كيف أصنع ؟ وقال رجل من رهطه فيه ثلاث أبيات ، منها :

ومن الذي أحيا الاله له حمارَهُ ... وقد مات منه كلّ عضو ومفصَلِ

انتهى .

فائدة : قال ابن ظفر في كتاب خير البشر : اسم الحمارة في اللغة أم محمود ، وأم مولب ، وأم جحش ، وأم نافع ، وأم وهب ، وكنية الحمار أبو جابر ، وأبو زياد . وليس في الحيوان ما يَنْزو على غير جنسه ويلْقح إلاّ الحمار والفرس . وهو ينزو إذا تم له ثلاثون شهرًا ، ومنه نوع يصلح لحمل الاثقال ، ونوع ليّن

الأعصاب سريع العدو يسبق براذين الخيل . ومن عادته إذا شمّ رائحة الأسد رمَى نفسه عليه من شدة الخوف . يريد بذلك الفرار منه !

قال حبيب بن أرطاس الطائي يخاطب عبد الصمد بن المعذّل وقد هجاه :

قدِمْتَ ويحك من هَجْوي على خطر   والعير تَقْدِم من خوف على الأسدِ

ويوصف الحمار بالهداية الى سَلْك الطرقات التي يمشي فيها ولو مرّة واحدة ، وبحدّة السمع .

وللناس في مدحه وذمّه أقوال متباينة بحسب الأغراض . وكان ابن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشي يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين /164/ .

فلقي بعض الأشراف خالد بن صفوان بالبصرة على حمار فقال : ما هذا يا صفوان ؟ فقال : عَيْر من نسل كرّاذ ، تحمل الوحلة ، وتبلّغني العَقَبة ، ويقل داؤه ، ويخف دواؤه ، ويمْتنِعُني من أن أكون جبارًا في الأرض ، وأن أكون من المفسدين .

وسئل الفضل بن عيسى عن ركوب الحمار فقال : إنه أقل الدواب مؤونة ، وأكثرها معونة ، وأحفظها مهوًى ، وأقربها مُرتقًى . فتسمّع أعرابيّ كلامه فعارضه بقوله : الحمارشَنار ، والعيْر عار ، منكَر الصوت ، لا ترقى به الدِّماء ، ولا تمهَر به النساء ، وصوته أنكر الأصوات . انتهى

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ النبي ﷺ قال : «إذا سمعتم نُهاق الحمير ، فتعوّذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطانًا ؛ وإذا سمعتم صياح الديك ، فاسألوا الله تعالى من فضله ، فإنها رأت مَلكًا» . انتهى .

وروى النَّسائي والحاكم عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنّ النبي ﷺ قال : «إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمار من الليل فتعوّذوا بالله من الشيطان الرجيم ، فإنها ترى ما لا تروْن ، وأقِلّوا الخروج إذا جرت ، فإنّ الله

تعالى ينبت في الليل من خلقه ما شاء» . صحيح على شرط مسلم . انتهى .

وفي تاريخ نيسابور ، من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنّ النبي ﷺ قال : « شرّ الحمير الأسود القصير ا» انتهى .

وقد يُعشّر الحمار بنهيقه . قال الجوهري : تعشير الحمار ، نهيقه عشرةَ أصوات في طَلَق واحد ، قال الشاعر :

لَعمْري لئن عَشّرْتُ من خِيفة الرّدَى [نُهاق] حمارٍ إنّني لجَزوعُ /164ب/

وذاك أنهم إذا خافوا من وباء ببلد عشّروا كتعشير الحمار قبل أن يدخلوها . وكانوا يزعمون أنّ ذلك ينفعهم . انتهى .

وقال الزمخشري رحمه الله تعالى : الحمار مثَلٌ في الذمّ الشنيع والشّتْمة . ومن استحشامهم ذكرَ اسمه أنهم يكنّون عنه ، ويرْغَبون عن التصريح به ، فيقولون الطويل الاذنين ، كما يكنّى عن الشيء المستقذر .

وقد عُدّ من مساوىء الأدب أن يجري ذكرُ الحمار في مجلس قوم أهلِ مروءة . والمروءةُ باللّغز وتركه .

قال الجوهري : المروءة هي الإنسانية .

وقال ابن فارس : الرجولية .

وقيل : إن ذا المروءة من يصون نفسه عن الإدناس ولا يشينها عند الناس .

وقيل : من يسير بسيرة أمثاله في زمانه ومكانه .

قال الدارمي : قيل المروءة في الحِرفة ، وقيل : في أدب الدين كالأكل ، والصياح في الجمّ الغفير ، وانتهار السائل ، وقلّة فعل الخير مع المقدرة عليه ، وكثرة الاستهزاء والضّحك ونحو ذلك . اهـ .

قيل : ومن المروءة أن لا يركب الحمار استنكافًا ، وإن بلغت به الراجلة الجهد . انتهى .

قال العلامة ابن ظفر في كتاب خير البشر : أهدى ملك الصين الى أمير المؤمنين عبد الله المأمون حمارًا . وكان من عجَب العُجاب ، لم ير مثله . كان لوبَره شعاع كشعاع ماء الأحجار الياقوتية ؛ فتعجّب الحاضرون منه وقالوا : يا أمير المؤمنين ، هذا الحمار تركَبُه في القصر أو في البساتين ؟ قال : لا أركبه في قصر ولا بستان ! وأنشد :

زيادٌ لست أدري [ما الحمارُ]　　ولكن الحمار أبو زيـــــادِ

وكنية الحمار أبو زياد ، ثم قال : لقد ذمّه صاحب ليلى الأخْيَلِيّة /165/ وهذه من مروءته ، رحمه الله تعالى . انتهى .

ذكر الخطيب البغدادي أنّ المأمون أشرف يومًا من قصره ، فرأى رجلا قائمًا وبيده فَحْمة ، وهويكتب على حائط القصر . فقال المأمون لأحد غلمانه : اِنزل الى ذلك الرجل ، وآمسكْ يده ، وآقرأ ما كتب ، وأتني به !

فنزل الغلام وأدرك الرجلَ فقبض على يده ونظر الحائط فوجده قد كتب :

يا قصر جُمِعَ فيك الشّؤم واللّؤم　　متى يُعشّش في أركانك البومُ
يوم يعشّش فيك البوم من فرَحي　　أكونُ أوّل من ينْعاك مغـــرومُ

فقال له الغلام : أجب أمير المؤمنين ! فقال : سألتك بالله لا تذهب بي اليه ! قال : أنه يراك ، ولا بدّ من حضورك بين يديه .

ثم قبض عليه وأتى به ، وقال : وجدته كتب كذا وكذا . فقال له المأمون : ويحك ، ما حملك على هذا ؟! قال : يا أمير المؤمنين ، إنّه لم يخْفَ عليك ما حواه هذا القصر من خزائن الأموال والحُلي والطعام والشراب والفرُش والجواري والخدم وغير ذلك ، وإنني مررت عليه ، وأنا في غاية من سوء الحال من الجوع والعطش ، ولي يومان ما استطعمت بطعام ، فوقفت ساعة مفكرًا ، وقلت : هذا القصر عامر وأنا جائع ، فلا فائدة لي فيه ؛ ولوكان خرابًا ومررت عليه لم

أعدم منه رُخامة أو خشَبة أو مسمارًا أبيعه وأتقوّت به ؛ أوَ ما علِم أميرُ المؤمنين قول الشاعر حيث يقول :

إذا لم يكن للمرء في دولة امْرِىء   نصيبٌ ولا حظٌ دعا بـزوالها
وما ذاك عن بُغْض وما ذاك عن قِلًى   ولكن يُرَجّى نفعَه في انتقالها /165ب/

فقال المأمون : يا غلام ، اعطه ألف دينار ! ثم قال : يا هذا ، هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامرًا بنا . رحم الله المأمون ومحاسنه . انتهى .

قال غرس النعمة ، محمّد بن المحسّن بن أبي سحاق الصابي ، في كتاب الهفوات : كان المأمون إذا تبخّر لا يستقصي البخورَ ، ويُخرج المجمَرة بما بقي فيها ، فتوضَع تحت الرَّجُل والرجلين من الجُلساء ، إكرامًا لهم واعتناء بهم . فجاءت النوبة يومًا لأحمد بن يوسف . وكان كثير السقطات ، فقال : هاتوا المردودة ! فسمعه المأمون ، فقال : ألنا تقول هذا ، ونحن نجُيز رجلا واحدًا من خدّمنا بعشَرة آلاف ومائة ألف وأكثر ؛ وإنما قصدناك لإكرامك ، وأن أكون أنا وأنت اقتسمنا بخورًا واحدًا ؛ ولا يأبى الكرامة إلاّ اللئيم !

ثم إن المأمون أمر أن يُطرح في المجمرة مِثقالُ عَنبر ، ليُبخَّر بها أحمدُ ، ويُدخَل رأسه في طوْقه حتّى ينفَد ريحُها . ففُعل ذلك ، وهو يستغيث ولا يغاث ، حتّى احترق دماغه ، وقام من المجلس الى منزله ، فمات من ليلته .

وفي أثناء ذلك كان المأمون يقول : والله لئن أموت طالبًا لأدب ، خيرٌ من أعيش قانعًا بالجهل ! وقال : ذَكٍّ قلبك بالأدب كما تُذكّى النار بالحطب . وقال أيضًا : من لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالا . انتهى .

وكان المأمون كثيرَ الأدب ، محبًا لمن تحلّى به . وكان النَّضير بن شُميْل صحِب المأمون وحظي عنده . فكان يومًا عنده ، فقال المأمون : حدثنا هشام عن مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه /166/ قال ، قال رسول الله ﷺ : «إذا تزوّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سَداد من عوز» وفتح السين .

فأعاد النّضر بن شميل الحديث ، وكسر السين . فاستوى المأمون جالسًا وقال تلحنّني يا نضر ؟! فقال : إنما لحن هشام ، وكان لحّانة ، فتَبع أميرُ المؤمنين لفظَه ! قال : فما الفرق بينهما ؟ قال السَّداد ، بالفتح ، القصد في الدين والسبيل ؛ والسداد بالكسر البُلْغة ؛ وكلّ ما سددت به ، فهو سِداد بالكسر. وأنشد من أبيات عمرو بن عمرو بن عثمان المعروف بالعَرْجِيّ الشاعر :

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ليومِ كَرِيهة وسِداد ثَغْــــرِ

انتهى .

ذكر الأصفهاني في مختار الاغاني قال : روى الزبير بن بكار أن النضر بن شميل قال : دخلت على المأمون بمرو ، فتجارينا في الأحاديث ، فقال المأمون : سمعت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (كذا في الاصل) أنه قال ، قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل امرأة لدينها وجمالها كان فيه سَداد من عِوز». وقال سَدادًا بالفتح ، فقلت : صدَق يا أمير المؤمنين ، حدّثني عوفٌ الأعرابي أن النبي ﷺ قال ، وأوردت الخبر بكسر السيِّن من سِداد . وكان متّكئا فاستوى جالسًا وقال : السَّداد ، لحْنٌ عندك يا نضر ! قلت : يا أمير المؤمنين إنما لحَن هُشَيْم ، وكان لحّانة ؛ فقال : ما الفرق بينهما ؟ قلت السَّداد بالفتح القصد في الدين والطريقة والسبيل ، والسِّداد بالكسر البلغة ، وكل ما سددت به شيئا فهو سَداد ، وقد قال العرجيّ «أضاعوني . . . » البيت . قال ، فأطرق المأمون مليًا ثم قال : قبّح الله من لا أدب له ! /166ب/

ثم قال : أنشدْني أخلب بيت للعرب ، فأنشدته قول حمزة بن بيض :

تقول لي والعيون هاجـعةٌ أَقِمْ علينا يومًا فلم أُقِــم
أيَّ الوجوه انتجعتَ قلتُ لها لأيِّ وجـه الاّ الى الحكَم
متى تقُل حاجباه سُرادِقه هذا ابن بيض بالباب يبتسم

فقال : لله درك ، كأنما شُقّ لك على قلبي ؛ فأنشدْني أنْصَف بيت للعرب . فأنشدته قول ابن عَروبة المدنيّ :

إني وإن كان ابن عمي غائبًا   لمزاحمٌ من خَلْفه وورائه
ومفيدُه بصري وإن كنت امرءا   مترَحْرِحًا في أرضه وسمائه
وأكون والى سره وأصونُه   حتى يحين عليّ وقت أدائه
وإذا أتى من وجهه بطريقه   لم أطلع فيما وراء خبائه
وإذا ارتدى ثوبًا جميلاً لم أقل   يا ليت كان عليّ حُسْن ردائه

فقال : أحسنت يا نضر ، أنشدني أقنع بيت قالته العرب . فأنشدته قول ابن عبدة الأسدي :

إني امروٌ لم أزل وذلك   من الله قديمًا أعلمُ الأدَبا
لا أحتوي خلّة الصديق ولا   أتبع نفسي شيئا إذا ذهَبا
أطلب ما يطلب الكريمُ من   الرزق لنفسي وأجمل الطلبا
إني رأيت الفتى الكريم إذا   رغّبته في صنيعةٍ رغِبا
والعبد لا يطلبُ العُلاء ولا   يعطيك شيئا الاّ إذا رَهِبا
ولم أجد عرْوةَ الخلائق الا   الدينَ لما اعتبرتُ والحسَبا
وقد يرزق الخابصُ المقيمُ وما   شدّ لعيش رَحْلا ولا قَتَبا
ويُحرم الرزق ذا المطايا ومن   لا يزال لاكتساب العيش مُغترِبا

فقال : أحسنت يا نضر ! وكتب لي رقعة الى الحسن بن سهل /167/ بخمسين ألف درهم . فمضيت اليه ، فلما قرأ الرُّقعة ضحك وقال : يا نضر أنت الملَحِّن لأمير المؤمنين ! قلت : بل هشيم ! فأطلق لي خمسين ألفًا ، وأعطاني من ماله ثلاثين ألفًا . انتهى .

والنضر بن شميل أحد أئمة اللغة .

قال المؤيد : النَّضِر بن شُميل بن خُرَشة البصري النحوي . سار الى خراسان من البصرة ؛ ولما خرج من البصرة مسافرًا طلَع لوداعه نحو ثلاثة آلاف رجل ، من أعيان أهل البصرة . فقال النضر : والله لو وجدتُ كل يوم كَيْلَجَة باقليّ ما فارقتكم !

فلم يكن فيهم أحدٌ يتكلف ذلك له .

وأقام بمرو ، من خراسان ، وصار ذا مال جليل . وصحِب الخليفة المأمون وحظي عنده . وكان من أصحاب الخليل بن أحمد . ومات سنة أربع ومائتين وقيل سنة ثلاث .

وقال ابن الأثير : كان إمامًا في الفقه والنحو وسائر فنون الأدب ، روى عن هشام بن عروة وابن جريج واسماعيل بن أبي خالد وعبد الله بن عون وعوف الاعرابي وسليمان بن المغيرة والخليل بن أحمد ، وصحبه بضع عشرة سنة ، وسكن مرو ، ومات بها سنة ثلاث ومائتين .

وفي الكشاف : النضر بن شميل النحوي ، شيخ مرو . أخذ عن حميد وهشام . وعنه ابن معين واسحاق والدّارَمي . ثقةٌ ، إمام ، صاحب سُنّة . مات في سلخ ربيع الثاني سنة أربع ومائتين . انتهى .

فائدة : مات في هذه السنة ، أعني سنة أربع ومائتين الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي ، الفقيه الحنفي أكبر أصحاب أبي حنيفة . حدّث عن أبي حنيفة وروى عنه محمد بن سماعة القاضي ومحمد بن شجاع . كذا ذكر المؤيد وغيره .

وقال ابن الأثير : وهو كوفي نزل بغداد . وقال : كتبتُ عن ابن جريج أثني عشر /167ب/ ألف حديث كلّها يَحتاج اليها الفقهاء . انتهى .

وفيها مات أيضًا اسحاق بن الفرات التّجيبي ، قاضي مصر . ومات أيضًا فيها ابن داود سليمان بن داود ابن الجارود الطيالسي ، صاحب المسند ، أحد الحفاظ .

قال ابن الأثير : أبو داود مولى قريش ، أصله فارسي ، سكن البصرة . وهو أحد الحفاظ للحديث المكثرين منه سماعًا وجمعًا ورواية . ويقال : إنه مولى لآل الزبير بن العوام . ويقال : كتبَ سبع آلاف حديث وتسعمائة حديث .

قال ابن سبّة ـ بفتح السين ـ : كتبتُ عن أبي داود بأصبهان أربعين ألف حديث وليس معه كتاب !

وقال ابن مهدي أبو داود : أصدق الناس .

وفي الكشاف ، قال : أسرُد ثلاثين ألف حديث ولا فخر ! ومع ثقته فقد قال ابراهيم بن سعد الجوهري : أخطأ في ألف حديث . انتهى .

وقال المؤيد : ولد أبو داود سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ومات سنة أربع ومائتين . وفيها أيضًا مات أشهب صاحب مالك .

قال ابن خلكان : أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود بن ابراهيم العبسي الجعفري الفقيه المالكي المصري ، تفقّه على الامام مالك ، ثم على المدينيين والمصريين . وكانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم ، وانتهت الرئاسة اليه بمصر بعد ابن القاسم . مات بعد الشافعي بثمانية عشر يومًا وقيل بشهر ، ودفن بالقرافة الصغرى ، فجاور قبر ابن القاسم . ويقال إنّ اسمه مسكين ، وأشهب لقب غلب عليه ، والاول أصح . وكان رضي الله عنه ثقة فيما يروي عن مالك ، وكان له رئاسة في البلد ومال جزيل . وقال الشافعي : /168/ ما ناظرت أحدًا من المصريين مثله لولا ضيق فيه . ولم يدرك الشافعي بمصر من أصحاب مالك سوى أشهب وابن عبد الحكم . قال ابن عبد الحكم : سمعت أشهب يدعو على الشافعي بالموت . وقد ذُكر ذلك الى الشافعي فقال متمثّلا :

تمنّى رجال أن أموت وإن أمُت فتلك سبيل لستُ فيها بواحدِ
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تزوّدْ لأخرى غيرها فكأنْ قَـدِ

قال : فمات الشافعي فاشترى أشهب من تركته عبدًا ، ثم مات أشهب

فاشتريتُ أنا ذلك العبد من تركة أشهب !

قال أبو عمرو : ولد أشهب سنة أربعين ومائة . ومات في مصر ، سنة أربع ومائتين ، بعد الشافعي بشهر . وقد اتفق هو والشافعي في سنة المولد والوفاة . انتهى .

وفيها مات الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه . وترجمته ، هو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف . والسائب أسلم يوم بدر ، وكان صاحب راية بني هاشم ، فأُسِر وفدَى نفسه ثم أسلم ، فقيل له : أتسلم قبل أن تفدي نفسك ؟ فقال : ما كنت أَحْرِم المؤمنين طعمًا لهم فيّ !

وآبنُه الشّافعُ من صغار الصحابة ، لقي النبي ﷺ وهو مترعرع . واليه /168ب/ ينسب الامام محمد بن إدريس الشافعي . فالشافعي شقيق النبي ﷺ في نسبه يجتمع معه في عبد مناف . فإن لعبد مناف أربعة أولاد ، هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس . فهاشم جدّ رسول الله ﷺ ، والمطلب جدّ الشافعي رضي الله تعالى عنه .

وكانت زوجة هاشم بن المطلب بن عبد مناف ابنة عمّته الشّفاء ابنة هاشم بن عبد مناف ، فوُلد له منها عبد يزيد ، جدّ الشافعي ، سنة خمسين ومائة بغزة . وقيل بعسقلان وقيل باليمن . والاول أصحّ . وقيل إنه ولد في يوم توفي فيه أبو حنيفة رحمه الله تعالى . ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه الى مكة ، وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه . فنشأ بها .

وذكر السّاجي ، قال : أخبرني أبو عبد الله محمد ابن بنت الشافعي قال : كان الشافعيّ مُطّلبيًا وأمّه أزدية من الأزد . وكان يسكن مكة وينزل بها بالثَّنِيّة بأسفل مكة . وكانت امرأته أمّ ولده حمدةُ ابنة نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه . انتهى .

قال ابن الأثير : وأمه أزدية ، وقد رأت حين حملت به كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقضّ بمصر ، ووقع في كل بلدة منه شظية . فتأول أصحاب الروًيا ذلك بأنه يخرج عالمٌ يخص علمه أهل مصر ثم يتفرّق في سائر البلدان انتهى .

وقال المؤيد : قال : /169/ حفظت القرآن وأنا ابن تسع سنين ، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر ، وقدمت على مالك وأنا ابن خمس عشرة . وقال : رأيت على بن أبي طالب في منامي ، فسلم عليّ وصافحني وجعل خاتمه في إصبعي . ففسّر لي أن مصافحته لي أمانٌ من العذاب وجعْله الخاتم في إصبعي أنه سيبلغ اسمي ما بلغ اسم عليّ في المشرق والمغرب . انتهى .

قال ابن كثير : وأفتى وهو ابن خمسَ عشرة سنة . وقيل ابن ثمان عشرة سنة ، أذِن له شيخه مسلم بن خالد الزّنجي . وعُني باللغة والشعر ، وأقام في هذيل نحوًا من عشرة وقيل عشرين سنة ، فتعلّم منها لغات العرب وفصاحتها. وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشائخ والائمة ، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه وأعجبته قراءته ، وأخذ عنه علم الحجازيْن بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي . وقرأ القرآن على اسماعيل بن علية . وأخذ الفقه عن مسلم بن خالد الزنجي .

وقال ابن الأثير : وسمع مالكَ بن أنس وسفيان بن عيينه . وعَدّ جماعةً من الأفاضل غيرَهما .

وفي تاريخ النويري : أخذ عن مالك بن أنس ومسلم بن خالد وسفيان بن عيينة . وسمع الحديث من اسماعيل بن علية وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ومحمد بن الحسن الشيباني ، صاحب أبي حنيفة وغيرهم . انتهى .

وقال ابن الأثير : حدّث عنه سليمان بن داود الهاشمي وأحمد بن حنبل وأبرزهم خالد والحسن بن علي الكرابيسي والحسن بن محمد الزعفراني وأبو ابراهيم المزني والربيع بن سليمان المرادي ، وخلق كثير غيرهم . انتهى /169ب/

وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولامي بسنده الى الشافعي ، أنه وليَ الحكمَ بنَجْران ، من أرض اليمن . ووُشِيَ به الى هارون الرشيد أنه يروم الخلافة ، فحُمل على بغل في قيد الى بغداد . فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة ، فاجتمع بالرشيد . فناظره محمد بن الحسن بين يديه وأحسن القول فيه محمد بن الحسن . وتبيّن للرشيد براءته مما نسب اليه ، فأنزله محمد بن الحسن عنده . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة ، وقيل بسنتين وأكرمه محمد بن الحسن ، وكتب عنه الشافعي وَقْر بعير . ثم أطلق له الرشيد خمسة آلاف دينار . وعاد الشافعي الى مكة ففرّق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحِمه من بني عمّه .

ثم عاد الشافعي الى بغداد سنة خمس وتسعين ومائة ، فاجتمع به في هذه المدة جماعة من العلماء ، منهم أحمد بن حنبل وأبو بدر والحسن بن علي الكرابيسي والحارث بن شريج البقال وأبو عبد الرحمان الشافعي والزعفراني وغيرهم . ثم رجع الى مكة ورجع الى بغداد أيضًا سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم انتقل منها الى مصر فأقام بها الى أن مات .

قال الزعفراني : لـمّا أراد الشافعي الخروج من العراق الى مصر أنشدني لنفسه :

أخي أرى نفسي تتُوق الى ملـمّ ... ومن دونها قطع المفاوز والقَفْرِ
فوالله ما أدري ألخفض أم للغنَى ... أساقُ اليها أم أُســاق الى قبْرِ

انتهى .

وذكر المؤيد أنّ الشافعي قدم بغداد مرتين ، وهما الأخيرتين . ولم يذكر المرة الاولى .

وللشافعي فضائل كثيرة . فعن محمد بن عبد الله بن عبد الحكَم : لو لا الشافعي ما عرفت كيف أردّ على أحد ، /170/ وبه عرفت ما عرفت ، وهو

الذي علمني القياس ، فقد كان صاحب سُنّة وأثر وفضل وخير ، مع لسان فصيح طويل ، وعقل صحيح رزين .

وكان أحمد بن حنبل يقول : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي .

وعن أبي اسحاق قال : كنّا نأتي الشافعي ، فنجد أحمد بن حنبل عنده قد سبَقنا اليه وما زال يسمع معنا كتب الشافعي كلّها .

وقال أبو الحسن بن عبد الله الحزمي ، قال صالح بن أحمد بن حنبل : لقيني يحيى بن معين فقال لي : أما يستحي أبوك ممّا يفعل ؟ قلت : وما يفعل ؟ قال : رأيته مع الشافعي والشافعي راكبًا وهو راجل ، ورأيته أخذ بركابه ! فقلت لأبي ، فقال لي : قل له ، إذا لقيته ، إنْ أردت أن تتفقّه ، فتعالَ فخُذْ بركابه الآخر !

وعن محمد بن فزارة المرادي قال ، قلت لأحمد بن حنبل : إني كتبت الحديث وأكثرتُ منه ، لا بدّ لي من النظر في الرأي . فقال : لا تفعل ! قلت : لا بُدّ أكتبُ رأي الأوزاعي ورأي النوري ورأي مالك ، فقال : إن كنت لا بدّ كاتبًا للرأي فأكتب رأي الشافعي وعليك بالبُويطيّ فأسمعه منه ، فإن فاتك فأبو الوليد بن أبي الحارث بمكة .

وقال ابن راهوية : الشافعي عندنا إمام .

وسئل محمد بن اسحاق بن خزيمة : هل سُنّة لم تبلغ الشافعي ؟! قال : لا .

وعن أبي زرعة : ما عند الشافعي حديثٌ غلط فيه .

وقال الزّعفراني : مارأيت أحدًا قَطّ أفصح ولا أعلم من الشافعي . كان أعلم الناس وأفصح الناس .

وكان يتعمّم بعمامة كبيرة كأنه أعرابيّ ، وكان إذا سمع اللغَط في مجلسه نهَى عنه وقال : إنّا لسنا أصحابَ كلام !

وكان بمصر ابن هشام ، صاحب المغازي ، وكان عالمُ مصر /170ب/

بالغريب والشعر ، فقيل له : لو أتيتَ الشافعي ! فأبى . ثم أتاه بعد ذلك ، فذاكره أنساب العرب ، فقال له الشافعي بعد أن تذاكرا طويلا : دع عنك أنساب الرجال ، فإنها لا تَذهب لا عنّا ولا عنك وحدِّثنا في أنساب النساء . فلمّا أخذ فيها بقي ابن هشام باهتًا ، فكان يقول ابن هشام : ما ظننت أنّ الله عز وجل خلق مثل هذا ! وكان يقول : قول الشافعي حُجّة في اللغة .

وكان رضي الله تعالى عنه صاحب مروءة وكرم عظيم وبلاغة بارعة .

قال المُزني : كنت عند الشافعي يومًا ودخل عليه جارٌ له خيّاط فأمره بإصلاح إزاره . فأصلحه ، فأعطاه الشافعي دنانير ، فنظر اليه الخياط وضحك . فقال له الشافعي : خذه ، فلو حضَرنا أكثر منه ما رضينا لك به ! فقال الخياط : إنما دخلت اليك لأسلّم عليك . فقال الشافعي : فأنت إذن زائر وضيف ، وليس في المروءة أن يُستخدَم بالزائر ولا بالضيف !

وعن الربيع بن سليمان أن الشافعي مرّ يومًا ببعض الأسواق فسقط سوْطه من يده . فقام رجل منهم فأخذ السوط ومسحه بيده ودفعه اليه . فقال له : مَهْ ، أيّ شيء عمِلتَ ، آثرْتني على نفسك ؛ كنتُ أُؤدِّي شكرك ! ثم تنحّى ، فضرب بيده الى كمّه أو جيبه فأخرج منها دنانير ، لا أدري خمسة أو عشَرة ، وأكثر ظني عشرة ، وقال لي : ادفعها اليه واعتذر عنّي ، فإني لم يحضرني غيرها في هذا الوقت !

وعن الحميد ، خرج الشافعي الى اليمن مع بعض الولاة ، ثم انصرف الى مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب خِباء خارج مكة . فكان الناس يأتونه فما برَح من موضعه ذلك حتى فرّقها . /171/

وحدث الربيع بن سليمان ، قال سمعت الشافعي يقول : لو علمت أنّ الماء البارد إذا شربته أذهب مروءتي ما شربت الماء الاّ حارًا .

وكان رضي الله حافظًا للشعر . قال الأصمعي : قرأت ديوان الشَّنفرى على

الشافعي بمكة . ومن شعره الفائق :

وأحق خلق الله بالهمّ امرؤ ذو همّة يُبلَى بعيْش ضيّقِ

ومن شعره أيضًا :

رعت النُّسور بقوّة جيَف الفَلا ورعى الذّباب الشَّهْد وهو ضعيفُ

كذا نقل المؤيد .

قال ابن خلكان : وللشافعي أشعار كثيرة ، فمن ذلك قوله :

إن الذي رُزق اليسار ولم يُصِب حمدًا ولا أجرًا لَغيرُ موفَّقِ
الجِدّ يدني كل أمر شاسع والجدّ يفتح كل باب مغلقِ
وإذا سمعت بأنّ مجدودًا حوى عودًا فأثمَرَ في يديه فصدِّقِ
وإذا سمعت بأنّ محرومًا أتى ماءً يشربه فغاص فحقِّقِ
لو كان بالحيَلِ الغِنَى لوجدَتي بنجوم أقطار السماء تعلُّقى
لكنّ من رزق الحِجَى حُرم الغنى ضدّان مفترقان أيَّ تفرُّقِ
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤسُ اللبيب وطيبُ عيش الأحمقِ

وهو القائل رحمه الله تعالى :

ولو لا الشعر بالعلماء يُزْري لكنتُ اليوم أشعرَ من لبيدِ

وقال رضي الله تعالى عنه : تزوّجتُ امرأةً من قريش بمكة وكنت أمازحها فأقول :

ومِن البليّة أنْ تُحِبْ فلا يُحبُّك من تحبُّهْ/171ب/

فتقول هي :

وتصُدّ عنك بوجهها وتلحّ أنت فلا تعبُّه

وقال بعضهم : ومن شعره الذي لا يُختلف فيه ، وهو أصح شيء عنه :

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ
خلقتَ العباد على ما علمتَ ... وفي العلم يجري العَيا والمُسَنْ
على ذا مننت وهذا خذلتَ ... وهذا أعنت وذا لم تُعِنْ
فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسنْ

انتهى .

ومن شعره أيضًا :

كلّ العلوم سوى القرآن مَشْغلةٌ ... الا الحديثُ والاّ الفقه في الدّين
العلم ما كان فيه قال حدّثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وعن الربيع بن سليمان قال : حججت مع الشافعي الى مكة ، فما كان يصعد شرَفًا ولا يهبط واديًا إلاّ أنشأ يقول :

يا راكبًا قفْ بالمحصَّب من مِنًى ... واهتفْ بساكن صفّها والنّاهضِ
سحَرًا إذا فاض الحجيج الى مِنًى ... قنَصًا كملتقِط الفُرات القابِضِ
إنْ كان رفْضًا حبّ آل محمّدٍ ... فليشهد الثَّقلان إنّي رافِضِي

وذلك أنه قيل له : إنّ فيك بعض التشييع ! قال : وكيف ذلك ؟ قالوا : لأنك تُظهر حبّ آل محمد . فقال : يا قوم ألم يقل رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ اليه من والده وولده والناس أجمعين» .

وعن إسماعيل بن يحيى المـُزَني ، قال : سمعت الشافعي يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق . وناظر بِشْر المَريسي المعتزلي ببغداد ، وناظر حَفْص القَرْد بمصر . فقال حفص : القرآن مخلوق . واستدل عليه . فتحاربا في الكلام ، حتى /172/ كفّره الشافعي .

ومما استدلّ به الشافعي ، وقد رواه أبو يعقوب البويطي ، قال : سمعت

الشافعي يقول : إنما خلق الله الخلق بكُنْ ، فإذا كانت كن مخلوقة فكأنّ مخلوقًا خُلِق بمخلوق !

قال ابن بنت الشافعي ، حدّثنا أبي ، قال : كان الشافعي ينظر في النجوم وهو حدَثٌ ، وما نظر في شيء إلاّ فاق فيه . فجلس يومًا وامرأته تُطْلِق ، فحسِب وقال : تلِد جارية عوْراء ، على فرجها خالٌ أسود ، تموت كذا وكذا ! فكان كما قال . فجعل على نفسه ألاّ ينظر فيه بعدها . ودفن الكتب التى كانت عنده في النجوم .

وكان الشافعي ينكر علم الكلام وعلى من يشتغل فيه . قال ابن عبد الأعلى سمعت الشافعي يومًا ناظر حفص القرد ، وكان من متكلمي المعتزلة يقول : لأن يلقَى العبدُ الله تعالى بكلّ ذنب ما خلا الشِّرك خير له من أن يلقاه بشيء من الكلام .

وقال أيضًا : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننتُه قط . ولأن يُبْتلى العبد بكل ما نهى الله تعالى عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام .

وقال أيضًا : حُكمي في أهل الكلام ، أن يُضْرَبوا بالجريد ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال هذا جزاء من ترَك السُّنة وأخَذ في الكلام .

وحكى الكرابيسي أن الشافعي سئل عن شيء من الكلام ، فغضب وقال : سئل عن هذا حفص القرد وأصحابه ، أخزاهم الله تعالى !

لما مرض الشافعي دخل عليه حَفْص القِرْد ، فقال له : من أنا ؟ قال : أنت حفص القرد ، لا حفظك الله ولا رعاك حتّى /172ب/ تتوب مما أنت فيه !

وقال أيضًا : إذا سمعتَ الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى ، فأشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له .

وقال أيضًا : لو علِم الناس ما في علْم الكلام لفرُّوا منه فرارهم من الأسد . انتهى .

وتوفي رضي الله تعالى عنه ليلة الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين. وصلّى عليه ابن الحكم أمير مصر . ودفن بعد العصر من يومه بالقَرافة الصغرى . وقبره يزار بها بالقرب من المُقَطَّم . وعمره لما مات خمس وخمسون سنة ، وقيل ثمان وخمسون . كذا ذكر غير واحد .

وقال ابن كثير : وكان الشافعي أبيض جميلا طويلا مَهيبًا ، يخضُب بالحنّاء. مخالفٌ للشيعة . وقال أبو عمرو : كان خفَيف العارضين . وقال الربيع بن سليمان المؤذن : كان يخضب رأسه ولحيته بالحناء أحمَرَ قانيًا . انتهى .

وقال الربيع : رأيت الشافعي في المنام بعد وفاته ، فقلت : يا عبد الله ما صنع الله بك ؟ فقال : أجلسني على كرسي من ذَهَب ، ونثر علي اللؤلؤ الرُّطَب !

وعن أبي جعفر الكرماني ، يقول : رأيت كأن القيامة قد قامت ، فأُمِرَ بي الى الجنة ، وفي يدي مختصر الشافعي . فقال لي رضوان : دعه وادخُل ! فقلت: لا أدخل إلاّ بما معي ، فإذا النِّداء من قبل الله عز وجلّ : دعه يدخل بما معه ! وهذه مزية له رضي الله تعالى عنه ، وقد رثاه خلق كثير . ورثاه أيضا أبو بكر بن محمد بن دريد ، وإن لم يدركه بقصيدة طويلة منها قوله :

ألم تر أبا وابن إدريسَ بعده ... دلائلُهما في المشكلاتِ لوامعُ 173/
مناهجُ فيها للهُدى متصرَّف ... مواردُ فيها للرشاد شرائعُ
ظواهرها حِكَم ومستنبطا ... تها لما عُلم التفريق فيه جوامعُ
لَرأي ابن ادريس بن عمّ محمد ... ضياءٌ إذا ما أظلم الخطْب ساطعُ
أبى الله الاّ رفعه وعلّوه ... وليس لما يُعْليه ذو العرش واضعُ
فمن يك علم الشافعيّ إمامه ... فمرتعُه في ساحة العلم واسعُ
سلامٌ على قبر تَضمَّن جسمَه ... وجادت عليه المُوعبات الهوامعُ
فأحكامه فينا بدورٌ زواهر ... وآثاره فينا نجومٌ طوالعُ

قال بعضهم : وقد رأيت تمامَه ، وهو عشرون بيتًا . انتهى ذِكر الامام

الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وذكرُ من مات في سنةِ مات فيها ، ولنرجع الى ذكر المأمون ، عفا الله عنه .

شيم سنية وخلق رضية

ذكر في كتاب المستطرف عن يحيى بن أكتم القاضي أنه قال : ما رأيت أحسن من أخلاق المأمون وظُرفه وأدبه ، قال : كنت نائمًا ذات ليلة عنده فعطِش ، فأمتنع أن يصيح بغلام ليسقيَه وأنا نائم ، فينغّص عليّ نومي ؛ فرأيته قد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء ، وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو ثلاثمائة خطوة . فأخذ منها كوزًا ، فشرِب ، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه ، حتى قرَب الفرشَ الذي أنا عليه ، فخطا خُطُوات خائفًا لئلا ينبّهني ، حتى صار الى فراشه . ثم رأيته آخر الليل قام يبول . وكان يقوم في أوّل الليل وآخره . فقعد طويلا ، يحاول أن أتحرّك ليصيح بالغلام . فلمّا تحرّكتُ وثَب قائمًا وصاح /173ب/ بالغلام وتأهب للصلاة ، فقال : كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف كان مبيتك ؟ قلت : خيرُ مبيت ، جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين . فقال : استيقظتُ للصلاة ، فكرهتُ أن أصيح بالغلام فأُزعجَك . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد خصّك الله تعالى بأخلاق الأنبياء ، وأوْجَب لكَ سيرتهم فهنّاك الله بهذه النّعمة وأتمّها عليك . فأمر لي بعشرة آلاف درهم وانصرفت . انتهى .

وقال في سراج الملوك ، عن سِبْط ابن الجَوْزي قال ، قال يحيى بن أكتم : وبتّ عنده ذات ليلة فأنتبَه وقد عرض له سُعال حتى غلبه ، فسَعل وأكبّ على الارض لئلاّ يعلوَ صوته فأنتبهَ . انتهى .

وقال فيه أيضًا ، قال يحيى : وكنت معه يومًا في بستان ندور فيه ، فجعلْنا نأخذ من غرائب الرياحين ، ونقول للقَيِّم : أصلحْ هذا الحوض ، وآغرس هذا المنثور فيه ولا تغرس في هذا الحوض من الباقول ! قال يحيى : ومشينا في البستان

من أوله الى آخره . وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل ، وكان تارة يجذبني أتحول الى الظلّ ويكون هو في الشمس وتارة يكون في الشمس وأكون في الظل وأنا مع ذلك امتنع ، فقال : والله يا يحيى لتكوننّ مكاني وأكون مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس ، كما أخذت أنت ! فقلت : والله ، يا أمير المؤمنين ، لو أُقْدِرْتُ أن أقْبِل من هَوْل المَطْلع بنفسي لفعلتُ ! ولم يزل بي حتى حوّلني الى الظلّ وتحوّل هو الى الشمس ووضع يده على عاتقي وقال : وحياتى عليك إلاّ ما وضعتَ يدك على عاتقي ، فإنه لا خير في صُحْبة من لا يُنصِف . انتهى .

وقال /174/ في كتاب مرءاة الزّمان ، إنّ المأمون وقف بين يدي يحيى بن أكتم مع رجل ادّعى عليه بثلاثين ألف دينار . فطُرح للمأمون مُصلىً يجلس عليه ، فقال له يحيى : لا تأخذ على خصمك شرَف المجلس !

ولم يكن للرجل بيّنة ، فأراد أن يحلّف المأمونَ . فدفع المأمون اليه ثلاثين ألف دينار ، وقال : والله ما دفعتُ اليه هذا المال إلاّ خشية أن تقول العامة إني قدَرتُ عليك وظلمتك ، وإلاّ قد حلفتُ لك لأني على الحق !

ثم أمر ليحيى بثلاثين ألف دينار ، وتصدّق بمثلهم . انتهى .

وكان يحيى قاضيًا قلّده المأمون القضاء . وسبب ذلك أن المأمون أراد أن يلي القضاءَ رجلاً ، فُوصف له يحيى بن أكتم . فاستحضره ودخل عليه ؛ وكان يحيى ذميم الخلقة ، فاحتقره المأمون. فعلِم ذلك يحيى فقال : يا أمير المؤمنين سَلْني إن كان القصد عِلمي لا خلْقي ! فسأله عن مسألة في الفرائض ، وهي أبوان وبنتان ، وكانت واقعةَ حال ، فلم تُقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين . وهي مسألة مشهورة ، تعرف بالمأمونية لذلك . وكان المأمون قد سأل عنها يحيى فقال : يا أمير المؤمنين الميت الأول رجل أم امرأة ؟ فعلم المأمون أنه علم المسألة ، فقلّده القضاء .

وهذه المسألة ، إن كان الميت الأول رجل تصحّ المسألتان من أربعة

وخمسين ، وإن كان امرأة لم يرث الجدّ في المسألة الثانية لأنه أب أم ، فتصح المسألتان من ثمانية عشر سهمًا . كذا ذكر عبد العزيز ، في كتاب الفرائض .

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه ، أنّ يحيى بن أكثم ولي القضاء /174ب/ بالبصرة ، وسنّه عشرون سنة أو نحوها ، فاستصغره أهل البصرة ، فقالوا : كم سنّ القاضي ؟ فعلم أنهم قد استصغروه ، فقال : أنا أكبر من عتّاب بن أسيد الذي وجه به النبي ﷺ قاضيًا على مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي ﷺ قاضيًا على اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سوار الذي وجه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاضيًا على أهل البصرة !

فجعل جوابه احتجاجًا . فأمسك عنه أهل البصرة وعلموا أنه من فحول العلماء . انتهى .

قال الدميري في حياة الحيوان ، كان ليحيى بن أكثم يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثله . وهو أن المأمون كان في طريق الشام ، فأمر فنوديَ بتحليل الـمُتعة . ولم يستطع أحدٌ أن يحتج عليه في تحريمها غير يحيى بن أكثم ، فقرّر عنده تحريم المتعة ! فقال المأمون : استغفر الله ! ونادى بتحريم نكاح المتعة . انتهى .

قال الملك المؤيد : وابن أكثم هو الذي ردّ المأمون على القول بتحليل المتعة . فقال ابن اكثم لبعض الفضلاء الذين يعاشرون المأمون ، ومنهم أبو العيناء : بكّروا غدًا اليه ، فإن وجدتم للقول وجهًا فقولوا ، وإلاّ فأسكتوا حتى أدخل .

قال أبو العيناء : فدخلنا على المأمون وهو يسأل ويقول وهو مغتاظ : متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه وأنا أنهىعنهما ؛ ومن أنت يا جُعَل حتى تنهى عمّا فعله رسول الله ﷺ ! فأوْجم أولئك ، حتى دخل ابن أكثم /175/ فقال له المأمون : أراك متغيّرًا ! فقال يحيى: هو غمّ لما حدث من النّداء بتحليل الزّنا يا أمير المؤمنين ! فقال المأمون : الزنا ؟! قال: نعم ، المتعة زنا ! قال : ومن أين قلت هذا ؟ قال : من كتاب الله تعالى وحديث رسوله ﷺ ، قال الله تعالى : «قد أفلح المؤمنون» الى قوله تعالى :

«فأولئك هم العادون» يا أمير المؤمنين ، زوْجةُ المتعة مِلْك يمين . قال : لا ! قال : فهي الزوجة التي ترث وتورث . قال لا ! قال : وهذا الزُهْري روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، قال : 'أمرني رسول الله ﷺ أنادي بالنّهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها' . فقال المأمون : محفوظٌ هذا عن الزهري ؟ قال : نعم ، رواه عنه جماعة ، منهم مالك رضي الله تعالى عنه . فقال المأمون : استغفر الله . فبادروا بتحريم المتعة والنهي عنها . اهـ .

وذكر ابن حُجّة ، في كتابه ثمرات الاوراق أن ابن أكتم قال لشيخ من أهل البصرة : بمن اقتديت في تحليل المتعة ؟ قال : بعمَرَ ، رضي الله تعالى عنه . قال يحيى : وكيف هذا ، وعُمَر أشدّ الناس تحريمًا لها ؟! قال : لأن الخبر الصحيح أتى عنه أنه صعِد المنبر ، فقال : 'إنّ الله ورسوله أحلاّ مُتعتين وإني محرمهما عليكم وأعاقب من فعلهما' ؛ فنحن نقبل شهادته ولا نقبل تحريمه . فقال له يحيى : إن سمعتُ أنك تذكُر هذا والله لأمرت بقطع لسانك . اهـ .

ويحيى بن أكتم ، هو يحيى بن محمد بن قطَن بن سمعان بن مُصنّح التميمي الأُسيدي المرْوزي ، من ولد أكتم بن صيفي التميمي /175ب/ حَكَم العرب . كان عالمًا بالفقه ، بصيرًا بالاحكام ، إمامًا في عدّة فنون . ذكره الدّارَقُطْني في أصحاب الشافعي . كذا ذكر المؤيد .

وذكر الخطيب أن ابن أكتم كان سليمًا من البِدعة ، فانتحل مذهب أهل السنة . سمع عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، وروى عنه أبو عيسى التّرمذي وغيره .

قال ابن خلّكان : كان على مذهب أهل العراق ، يعني مذهب أبي حنيفة . وكانت كتب يحيى في الفقه أجلّ كتب ، فتركها الناس لطولها . وله كتب في الأصول . وله كتاب أورده على العراقيّين سماه التنبيه . وبينه وبين داوود بن عليّ مناظرات كثيرة .

وفي الكشاف : كان من بحور العلم لو لا دُعابة فيه وتكلّم فيه .

وقال محمد بن طلحة في حقّه : يحيى بن أكتم أحد أعلام الدنيا ، ومن قد اشتهر أمره وعُرف خيره ، ولم يستتر عن الصغير والكبير من الناس فضله وعلمه ورئاسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك . واسع العلم بالفقه ، كثير الأدب ، حسَن المعرفة ، قائم لكل معضلة (في الاصل : كل) .

وغَلَب على المأمون حتّى لم يتقدّمه أحد عنده من الناس جميعًا ، حتى قلّده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته ؛ فكانت الوزراء لا تعمل في التدبير للملك (في الاصل : الملك) شيئا الا بعد مطالعة يحيى بن أكتم ، ولا نعلم أحدًا غلب على سلطانه في زمانه الا يحيى بن أكتم وأحمد بن أبي دؤاد . انتهى .

قال ابن خلكان : لما توجه المأمون الى مصر حكّم بها القاضي يحيى بن أكتم ثلاثة أيام ، ثم عزله في محنة الناس بالقول بخلق القرآن . ولم تزل الأحوال تختلف عليه /176/ وتتقلّب به الأيام الى أيام المتوكل على الله . فلما عزل محمّد بن القاضي أحمدَ بن أبي دؤاد عن القضاء فوّض الولاية الى يحيى بن أكتم وخلع عليه خمس خلعات . ثم عُزل في سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وولى رتبته جعفر بن عبد الواحد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي . فجاء كاتبه الى القاضي يحيى فقال له : سلِّم الديوان ! فقال : شاهدان عدلان على أمير المؤمنين أنه أمر بذلك ! فأُخِذ منه الديوان قهرًا ، وغضب عليه المتوكل ، فأمر بقبض أملاكه وأُلزِم منزله .

ثم حجّ وحمل أخته معه وعزم على أن يجاور ، فاتّصل له رجوع المتوكل له بدأتَه في المجاورة ؛ ورجع يريد العراق . فلما وصل الى الرَّبذة توفي بها يوم الجمعة منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وقيل غرة سنة ثلاث . ودفن هناك وعمره ثلاث وثمانون سنة . انتهى .

وأكثم بالثاء المثلثة ، ويقال بالتاء المثنّاة فوق ، ومعناهما واحد وهو الرجل العظيم البطن . وقَطن بفتح القاف . ومُهنًّج بضم الميم وفتح النون المشددة وفي

آخره جيم ، والرَّبذة بفتح الراء والباء الموحدة والذال المعجمة وبعدها هاء ساكنة ، قرية من قرى المدينة على طريق الحاج . ينزلون بها عند عبورهم عليها ، وهي التى نَفَى اليها عثمانُ بن عفّان رضي الله عنه أبا ذرّ رضي الله عنه ، وأقام بها حتى مات . وقبره هناك ظاهرٌ يزار . انتهى منه .

وذكر في تاريخ العظمي : ولم يكن في يحيى بن أكتم ما يُعاب به سوى ما كان متّهمًا به من محبّة الصبيان .

وقال الخطيب في تاريخ /176ب/ بغداد : كان الناس يحسدونه على العلم حسدًا شديدًا . وكان متفننًا ، فكان إذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث ، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو ، وإذا رآه يعلَم النحو سأله عن الكلام ليقطعَه ويُخجله . فدخل اليه رجل من أهل خراسان ذكيّ حافظ ؛ فناظره فرآه متفننًا ، فقال : نظرتَ في الحديث ؟ قال : نعم . قال : ما تحفظ من الأصول ؟ قال : احفظ عن شريك عن أبي اسحاق عن الحارث أنّ عليّا رضي الله تعالى رجَم لُوطِيًا . فأمسك ولم يتكلّم .

وكان يُرْمى بذلك ، وقد قيل فيه أشعار بسبب ذلك . نقل ابن خلكان لأبي حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب قوله فيه :

وكنّا نرجّي أنْ نرى العدل ظاهرًا فأعقبنا بعد الرّجـــاء قنوطُ
متى تصلُح الدنيا ويصلح أهلـها وقاضي قضاة المسلمين يلوطُ

وذكر الخطيب لأحمد بن نُعيم في ذلك :

أنطقني الدّهر بعد إخـــراسٍ لنائباتٍ أطَلْنَ وسواســـي
لا أفلحتْ أمة وحـــقّ لها بطول نَكْس وطول إتعـاسِ
ترضى بيحيى يكون سائسها وليس يحيى لها بسَـــوّاسِ
قاض يرى الحـدّ في الزّنا ولا يرى على من يلُوط من باسِ

يحكّم الأمرد الغـريّر عـلى مثل جرير ومثل عـــباسِ
فالحمد لله كيف قد ذهب الـ ـعدل وقلّ الوفاء في النـاسِ
أميرنا يرْتشي وحاكِمُنا يلوط والرأس شرٌّ يُـراسي /77.
لا أحسب الجور ينقضي وعلى الامة والٍ من آل عباسِ

واشتهر ذلك ، فقال المأمون ليحيى : من الذي يقول «قاض يرى الحدّ في الزّنا ، البيت» ؟ فقال : أوَ ما تعرف يا أمير المؤمنين من القائل ؟ قال : لا ! قال يقوله أحمد بن نعيم الذي يقول «لا أُحسب الجَوْر ينقضي ، البيت» . فأُفحِم المأمون خجلا .

وذكر أيضًا ، أنّ ابنا مَسعدة دخلا على ابن أكتم وكانا على نهاية الجمال . فلما رآهما يمشيان في الصّحن أنشأ يقول :

يا زائرِيْنا من الخيامِ حيّـاكما الله بالسّلامِ
لم يأتياني وبي نهوضٌ الى حـلال أو حـرامِ
يُمرِضُني إن وقفتما بي وليس عندي سوى الكلامِ

ثم أجلسهما بين يديه ، وجعل يمازحهما حتى انصرفا . ويقال إنه عزل عن الـحُكْم بسبب هذه الأبيات . انتهى .

وقال ابن خلكان : رأيت في بعض المجامع أن يحيى بن أكتم مازح الحسن بن وهب ، وهو يومئذ صبي فلاعبه ثم خمّشه ، فغضب الحسن بن وهب . فأنشد يحيى :

أيا قمرًا خَمّشْته فتغضّـبا وأصبح لي في تيهـه متجنّبًا
إذا كنت للتخميش والعضّ كا رهًا فكـن أبدًا يا سيدي متنقّبا
ولا تظهر الأصداغ للنّاس فتنة وتجعلَ منها فوق خدّيْك عقربا
فتقتل مسكينا وتفتن ناسكا وتترك قاض المسلمين معذّبا

قال أحمد بن يونس الضبّي : كان زيدان الكاتب يكتب بين يدي يحيى بن أكتم ، وكان غلامًا جميلاً متباهيَ الجمال ، فقرَض القاضي خدّه . فخجِل الغلام واستَحَى وطرح القلم من يده . فقال له يحيى : /177ب/ خذ العلم واكتب ما أملي عليك . ثم أملى عليه الأبيات المذكورة .

وفي أمالي أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، أنّ القاضي ابن أكتم قال لرجل يأنَس به ويمازحه : ما تسمع الناس يقولون فـيّ ؟ قال : ما أسمع الا خيراً ! قال : لم أسألك لتُزكّيني ! قال : أسمعهم يرمون القاضي بالأبنة ! فضحك ، وقال : اللّهم إغفر ، المشهورُ عنّا غيرُ هذا .

وحكى الإصفهاني في الأغاني ، أنّ المأمون لما تواتر النقل عن يحيى بهذا أراد امتحانه ، فأخلى له مجلسًا واستدعاه ، وأوصى مملوكًا خزريًا يقف عندهما وحده ، وإذا خرج المأمون يقف المملوك ولا ينصرف .

وكان المملوك في غاية الحسن والجمال ، فلمّا اجتمعا في المجلس وتحادثا قام المأمون كأنه يقضي حاجة . فوقف المملوك . وتجسّس المأمون عليهما . فجعل ابن أكتم ينظر تارة الى المملوك وتارة الى الأرض ، ولم يتجاسر خوفًا من المأمون . فعبث به المملوك بوصاية من المأمون . فلما كثر عبث المملوك به سمعه المأمون وهو يقول : «لو لا أنتم لكنّا مؤمنين» فدخل المأمون وهو ينشد : «وكنّا نرجي أن نرى العدل ظاهرا ، البيتين المقدمين» فخجل يحيى . انتهى .

قال في بستان الآداب : كان يحيى بن أكتم من أحسن الناس خلقًا وأكملهم ظرفًا وأحلاهم معنى ، وكان يتناول المشروب في أوقات الخلوة ، ويكتم أمره. فعلم ذلك المأمون منه ، وأراد الشرب معه وأن ينادمه لحلاوته . فراوده على ذلك فمنعته الحِشمة من أن يفعل . فقال المأمون لعبد الله بن طاهر : تحيّل حتى تأتيني /178/ بالقاضي سكران ! قال : نعم يا أمير المؤمنين . ولم يزل يترقّب ذلك ويرصده حتى أتاه مَن أخبره أنه على شرابه ، وكان القاضي لا يحتجب منه . فدخل عليه بغير مشورة ، فوجده على الحال فشرب معه وسقاه حتى أسكره ،

ولفّه في الرّياحين التى كان يشرب عليها ، وأمر بحمله الى المأمون .

فلمّا حضر بين يديه فتح عنه الرياحين ، فوجده لا يعلم أين هو من السُّكر ، فصنع المأمون فيه شعرًا ، وأمر جارية قيْنة حسَنة جلست عند رأسه وحرّكت العود وغنّت بهذه الأبيات :

وصاحبٍ ماجد محض خلائقُه صبٌّ الفؤاد بحبّ الراح مفتونِ
ناديته ورِواق الليل منسدِلٌ تحت الظلام دفينًا في الرياحينِ

فلمّا انتبه لرنّة العود وصوت الجارية وعلِم أين هو ، أنشد :

يا سيّدي وأميرَ النــاس كلّهـــمُ قد جار في حُكمه من كان يسقيني
إنّي غفلت عن الساقي فصيّرنـــي كما تراني قليلَ العقل والديـــن
لا أستطيع نهوضًا من ضنَى جسدي ولا أجيب الداعي حين يدعــوني
فانظرْ لنفسك قاض إنّني رجــل الرّاح يقتلني والرّاح يُحييــني

ثم جلس وسأل مِن المأمون العفو فعفا عنه على شرط المنادمة . فلم يزل يشرُب معه في أوقاب الشُّرب حتى فرّق الموت بينهما . انتهى .

لطيفة

قال ابو الفرج معافى بن زكريا النّهوراني ، في كتاب الجليس والأنيس ، عن محمد بن مسلم الشعري ، قال : وجه اليّ يحيى بن أكثم ، فإذا عن يمينه قِمطرة مُجلّدة . فجلست ، فقال : افتح هذه القمطرة . ففتحتها /178ب/ فإذا فيها شيء قد خرج اليّ منها ، رأسه رأسُ إنسان وهو من أسفله الى سرّته زاغٌ (الزاغ ، من أنواع الغربان) في صدره سَلعتان (السلعة ، بالفتح والكسر ، زيادة تحدث في الجسد تتحرك) . فكبّرت وهلّلت وفزِعت ، ويحيى يضحك ؛ فقال بلسان طَلْق ، ذَلْق :

انا الزاغ أبو عَجْوة　　أنا ابن اللّيث واللّبوةْ
أحب الرّاح والرَّيْحا　　ن والنَّشوات والقوّة
فلا ممّن يدي تُخشى　　ولا تحْذَرْ ليَ السّطوة
ولي أشياء تُستظرفْ　　بيوم العرس واللدوة
فمنها سَلعة الظهر　　ما تُسْتر لها الفَروة
وأما السَّلعة الأخرى　　فلو كانت لها عروة
فما شكّت جميع النّا　　س فيها إنها رَكْوة

ثم قال : يا كهْل ، أنشدني شعرًا غَزِلا ! فقال يحيى : قد أنشدَك هو ، فأنشِدْه أنت . فأنشدته :

أغرّ إذا أذنبتُ ثم تتابعت　　ذنوبٌ على آثارهنّ ذنوبُ
وأكثرْتُ حتى قلت ليس بصارمي　　وقد يُصرم الانسان وهو حبيبُ

فصاح : زاغ زاغ زاغ ! ثم طار وسقط في القمطرة . فقلت ليحيى : أعزّ الله القاضي ، وعاشقٌ أيضًا ! فضحك ، فقلت أيها القاضي : ما هذا ؟ فقال : ما ترى ؛ وَجّه به صاحب اليمن الى أمير المؤمنين ، وما رآه ، وكتب كتابًا لم أفْضُضْه ، وأظنّ أنّه ذكر شيئًا من شأنه وحاله وهذا من العجائب . انتهى .

روض أنيق وأدب رشيق

ذكر الخطيب البغدادي ، أنّ المأمون كان بين جلسائه ، وفيهم يحيى بن أكثم ، فقال له : يا أبا محمد ، ما العشق ؟ فقال : /179/ سوانح تسنح (من الدر 113ب ، وفي الاصل : سوائخ تسنخ) للمرء فيَهيم بها قلبه ويُؤثر بها نفسه . فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق أو مُحْرِم صاد صيدًا ؛ وأمّا هذا ، فمن مسائلنا نحن ! فقال المأمون : قل يا ثمامة ! فقال : العشق جليس ممتع (في الاصل : ممتنع . الدر 111أ) ، وأليف

مؤنس ، وصاحب ملك ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جارية ، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعقول وآراءها ؛ قد أعطى عنان طاعتها وقوة تصرّفها ، وتوارى عن الامصار مدخله وعمي [عن] الأبصار مسكله . وأمر له بألف دينار .

فقال عبد الله بن طاهر : يا أمير المؤمنين ، قد سألت أعرابيًا عن العشق فقال: إن لم يكن طرَفًا من الجنون ، فهو عصارة من السِّحر ! وقالت أعرابية : هو تحريك الساكن وتسكين المتحرك ! فقال القاضي يحيى : أحسنت يا عبد الله في هذا الكلام !

قال الخطيب : فبينما هم كذلك إذ دَخل الأصمعي فقال : بينما أنا أسير في البادية ، إذ مررت بحجَر مكتوب عليه هذا البيت (في الدر 111أ : إذا حلّ عشق بالفتى) :

أيَا معشرَ العُشّاقِ باللهِ خبِّروا إذا اشتدّ عَشْق الفتى كيف يصنَعُ

ثم قال : العشق ، يا أمير المؤمنين ، قوة غريزيّة ، متولّدة من وسواس الطّمَع وأشباح التخيّل ، قام بفِصال الهيكل الطبيعي يُحدث للشّجاع جُبنًا وللجبان شجاعة ، يكسو كل إنسان عكس طباعه ، حتى يبلغ به المرض النفساني والجنون الشوقيّ فيؤديانه الى الداء العضال .

فقال المأمون : قال أرسطاطاليس ، الآخذُ /179ب/ للحكمة عن أفلاطون: العشق عِيٌ العاشق عن عيوب المعشوق ! قال الشاعر :

ولست براءٍ عيبَ ذي الودِّ كلّه ولا بعضُ ما فيه إذا كان راضيًا

ثم التفت الى القاضي وقال : إني أراك ساكتْ يا أبا محمد ! فقال : يا أمير المؤمنين ، العشق مرض وسواسيّ ، شبيه بالمالخوليّا ، يجلُبه المرء الى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل ؛ وقد يكون معه شهوة

جماع ، وقد لا يكون . وأخبرني بعض العارفين ، يا أمير المؤمنين ، أنّ العشق أُلفة رحمانية ، وإلهام شوقيّ ، أوجبهما كرَمُ الله تعالى عن كل ذي روح ليحصُل باللذة العظمى التى لا يُقْدَر عليها الا بتلك الألفة . وهي موجودة في الانفس ، مقدَّرة مراتبها عند أربابها ، فما أحدٌ الا عاشق لأمر يُستدلّ به على قدْر طبقته من الخَلْق . ولأجل ذلك كان أشرف المراتب في الدنيا مراتبُ الذين أُزهِدوا فيها مع كونها معايَنَة ، ومالوا الى الأخرى مَع كونها مُخْبرًا لهم عنها بصورة لفظ .

فقال الأصمعي : سألت ، يا أمير المؤمنين ، اعرابية عن العشق ، فقالت جلّ ـ والله ـ عن أن يُرى وخفيَ عن أنظار الورَى ، فهو في الصدور كامنٌ كمون النار في الحجر ؛ إن قدحته أوْرَى ، وإن تركته توارى .

وقال بعضهم : الجنون فنون . والعشق فنّ من فنونه . واحتج بقول امرىء القيس :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلت لهم   العِشْقُ أعظم ممّا بالمجـــانينِ   /80
العشق لا يستفيق الدَّهرَ صاحبُه   وإنما يُصْرَع المجنونُ في حينِ

فقال المأمون للقاضي يحيى : يا أبا محمد ، قد علمنا كيفية العشق ؛ وكيفيةُ الشوق وسفَر القلب الى المحبوب ، ما هي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، قال في الصِّحاح ' الشوق والاشتياق نزاع النفس الى الشيء '. وقد جاء في الخبر عن النبي : «وأسألُك النَّظرَ الى وجهك والشوق الى لقائك» . واختلفوا في الشوق هل يزول بالوصال أو يزيد فقالت طائفة يزيد ، لأنه سفر القلب الى المحبوب ، فإذا وصل اليه انتهت السفرة . قال الشاعر :

وألقت عصاها واستقرّ بها النّوى   كما قرّ عينا بالإياب المسافرُ

فقال المأمون : بل يزيد ! . واستدلّ بهذا البيت :

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يومًا إذا دنَتْ الخيام من الخيامِ

فقال ثمامة : الشوق ، يا أمير المؤمنين ، هو حُرْقة المحبّة وَٱلتهابُها في قلب المحبّ ، وذلك ممّا يزيده المواصلة . والصّواب أنّ الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة عند الفزَع الذي كان عند الغيبة عن المحب . انتهى .

وما أحسن ما قاله ابن الرومي في المعنى ، في هذه الأبيات :

أعانقُها والنّفسُ بعدُ مشُوقة اليها وهل بعد العِناق تَدانِ
وألثُم فاها كي تزول صَبابتي فيزداد ما ألقى من الهَيَمانِ
كأنّ فؤادي ليس يُشْفي غليله سوى أن يَرى الجسمين ممتزِجانِ

قال بعضهم ، سأل المأمون ابن أكثم عن أمر ، فقال : لا ، وأيّد الله /180ب/ أمير المؤمنين ! قال الناقل : فقال الصاحب بن عباد ، حين سمع هذه الحكاية وبلَغتْه : والله لَهذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في خدود المرد الملاح ! انتهى .

وقال بعضهم : كان القاضي ابن أكثم مع المأمون يُحاوران الكلام . فبلغ بهم أن ذُكِر النحو ، فقال المأمون : يا يحيى ، أعلمت أن علم النحو قد بلغ بأهله من عزّة النفس وعلو الهمّة منزلة بني هاشم في شرفهم ؛ يا يحيى من قعد به نسبه نهض به أدبه ، قال الشاعر :

كن ابنَ من شئت واكتسبْ أدَبا يُغْنيك مأثورُهُ عن الحَسَبِ
إنّ الفتَى من يقــول ها أنا ذا وليس الفتى من يقول كان أبي

قال يحيى بن أكثم : صدقت يا أمير المؤمنين ، أيّد الله بك العالم . انتهى .

وكان المأمون أجلّ من أن يُذْكر عرفانه ويُزْبَر أدبه وفضله وإحسانه ، على ما فيه من التّشْييع . انتهى .

غرر أخبار وأنباء حُبار

قيل ، كان بين يدَي المأمون جماعةٌ من جلسائه وفيهم ثمامة بن أشرس وأبو العتاهية . قال الجاحظ ، فقال أبو العتاهية لثمامة بين يدي المأمون : أسألك عن مسألة . وكان كثيرًا ما يعارضه بقوله من الإجبار . فقال له المأمون : عليك بشعرك يا أبا العتاهية ! فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته ويأمره في إجابتي ! فقال : أجِبْه إذا سأل يا ثمامة . قال : أنا أقول إنّ ما يفعله العباد من خير وشر فهو من الله ، وأنت تأبى ذلك ؛ فمن حرّك يدي /181/ هذه ؟ فقال له ثمامة : حرّكها إبن أَمَة زانية ! فقال : شتَمني يا أمير المؤمنين ! فقال ثمامة : ناقضَ الماضي بُظْر أُمِّه ! فضحك المأمون ، وقال : ألم أقل لك اشتغل بشعرك ودعْ ما ليس من علمك !

قال ثمامة ، ثم لقيَني فقال لي : أبا معن ، أما أغناك الجوابَ عن السَّعَة ؟ فقلت : إن أتم الكلام ما قطَعَ الـحُجّة ، وعاقب على الإساءة ، وشفَى الغيظ ، وانتصر من الجاهل .

قال أحمد بن الحارث : كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد ، وأنّ الله تعالى خلق جوهرَيْن متضادين لا من شيء ، ثم إن الله تعالى بنى العالم هذه البِنْية منهما ، وأن العالم حديث العَين والصِّفة لا مُحدِثَ له إلاّ الله تعالى . وكان يزعم أنّ الله تعالى سيعيد كلّ شيء الى الجوهرين المتّصلين قبل أن تفنى الأعيان جميعًا . وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب ، ويتشيّع على مذهب الزندقيّة . ولا ينتقِص أحدًا ، ولا يرى الخروج على السّلطان ، وكان مُجْبِرًا . وحدّث أبو شعيب صاحب أبي داود قال ، قلت لأبي العتاهية : القرآن عندك مخلوق أو غير مخلوق ؟ قال : سألتني عن الله تعالى أو عن غير الله ؟ قلت : عن غير الله . فأمسك . فأعدتُ عليه ، فأجابني هذا الجواب حتى فعل ذلك مرارًا فقلت : ما لك لا تجيبني ؟ قال : قد فعلتُ ، ولكنّك حمار !

وكان أن أبو العتاهية شاعرًا مفلِقًا ، من الشّعراء المشهورين ، ومن مقدّمي المولّدين .

وهو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم بن سُويد ين كَيْسان العنزي ، نسبة الى عنزة بن أسد بن ربيعة ، وذلك بالولاء . ويقال له العيني ، لأنه ولد بعين التّمر ، وهي بليدة بالحجاز قرب /181ب/ المدينة . وقيل إنها من سَقْي الفرات، وقيل إنها قرب الأنبار . ونشأ بالكوفة وسكن بغداد ، وكان يبيع الجِرار . وكان اشتهر بالبخل . قال ثمامة : كان أبو العتاهية شديد البخل . وقد أنشدني ذات يوم أبياتًا في ذم البخل ، يقول فيها :

أَلاَ إنما مالي الذي أنا مُنْفِقٌ — وليس لي المالُ الذي أنا تاركُهْ

فقلت له : من أين أخذت هذا القول ؟ قال : من قول رسول الله ﷺ : «ليس لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت» . فقلت له : أتؤمن بهذا القول أنه الحق ؟ قال : نعم ! قلت : فلِمَ تحبسْ عندك أكثر من عشرين بدْرة (البدرة ، كيس من المال) ، لا تأكل منها ولا تنفقها على فاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إنّ ما تقوله هو الحق ، ولكني أخاف الفقر والحاجة الى الناس . قلت : وبم يزيد حال من افتقر على حالك ، وأنت دائم الحرص والجمع والشحّ على نفسك ، لا تشتري اللحم إلاّ من العيد الى العيد ؟ فترك جواب كلامي كلّه وقال : والله ، لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحمًا وتوابله وما يتبعه بأربعة دراهم ! وأذهلني كلامه وأضحكني ، وعلِمت أنه ليس ممن شَرَح صدره للاسلام .

ومن محاسن شعره :

جزْيُ البخيل عليّ صالحة — عنّي لخفّته على فكري
ما فاتني خيرُ امرىء حمَلتْ — عنّي يداه مؤونة الشُّكْرِ

ومن شعره ما قاله بين يدي المأمون ، وهو قوله :

عذيري من الإنسان لا إنْ جفوْته صفا لي ولا إن كنتُ طوعَ يديه
وإنّي لمحتاجٌ الى ظلّ صاحبٍ يروق ويقفو إن كدَّرْت عليه

فكان المأمون يقول : خذوا مني الخلافة واعطوني هذا الصاحب .

وكان أبو العتاهية قد اشتهر بمحبة عُتبة ، جارية المهدي . وأكثرَ تشبيبه فيها ، فمن ذلك قوله :

أعلمتِ عُتبــــةَ أنّني منها على سبْب مُطلْ
وشكوتُ ما أُلْقي اليـ ـها والمدامـــع تستهلْ
حتى إذا بـــرمت بما أشكو كما يشكي الأقلْ
قالت فأيُّ الناس يعـ ـلَم ما تقول فقلت كُلْ

وقال فيها أيضًا :

يا إخوتي إن الهوى قاتلي فانشروا الأكفان من عاجِلِ
ولا تلومُوا في اتّباع الهوى فإنّني في شُغــلٍ شاغِــلِ
عينيّ على عُتبة مُنهَلّة بدمعها المُنسَكِب الســائلِ
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوَجْـد على القاتلِ
بسطتُ كفّي نحوكم سائلا متّى تردّون مُنَى الســائلِ
إن لم تُنيلوه فقـــولوا له قولا جميلا بدَل النّــائلِ
أو كنتمُ العام منه على غِرّة فهنّوه الى القــابلِ

وقال أيضًا :

ولقد صبوْتُ اليك حتّى صيرت من فرط التّصابي
يجد الجلـــيس إذا دنا ريحَ التّصابي في ثيــابي

قال أبو العباس المبرد ، في كتابه الكامل : إن أبا العتاهية كان قد استأذن في

أن يُطلق له الى أمير المؤمنين في النّيروز والمهرجان فأهدى اليه في أحدهما بَرْنِيّة (البرنية ، إناء من خزف) ضخمة ، فيها ثوب ناعم مطيّب ، وقد كتب في حواشيه هذين البيتين /182ب/

نفسي لشيء من الدّنيا معلّقة والله والقائم المهديّ يكفيها
إنّي لأيْأس منها ثم يُطْمعني فيها احتقارُك للدّنيا وما فيها

فهمّ أن يدفع عتبة اليه . فجزِعت ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، حُرْمتي وخدمتي ، أتدفعُني الى قبيح المنظر ، بائع جرار ، ومكتسِب بالعشق !

فأعفاها ، ثم قال : املؤوا له البرنيّة مالاً ! فقال للكاتب : أمَرَ لي بدنانير ! فقالوا : ما ندفع اليك ذلك ؛ ولكن إن شئت أعطيناك دراهم الى أن يُفْصِح بما أراد ! فاختلف لذلك حوْلاً . فقالت عتبة : لو كان عاشقًا كما يزعم لم يكن يختلف بعد حوْل في التمييز بين الدراهم والدنانير ، ولقد أعرض عن ذكري صفحًا .

ويحكى أنه لقي يومًا أبا نواس فقال له : كم تعمل في يومك من الشعر ؟ فقال : البيت والبيتين . فقال أبو العتاهية : لكنني أعمل المائة والمائتين في اليوم ! فقال أبو نواس : لأنك تعمل مثل قولك :

يا عُتْبَ ما لي ولك يا ليتني لم أرَكِ

ولو أردتُ مثل هذا الألفَ والألفين لقدَرْتُ عليه ؛ وأنا أعمل مثل قولي :

من كفِّ ذات حَرٍ في زيّ ذي ذكَر لها محبّان لوطيٌّ وزنّاءُ

ولو أردتَ مثل هذا ، يا أبا العتاهية ، لأعجزك الدّهرَ !

ولأبي العتاهية أشعار كثيرة ، واشتهر شعره بالزّهد ولم يكن فيه ذلك .

وله مديح من ذلك ما مدح به عمرو بن العلاء ، بقوله :

إني آمنت من الزّمان وصَرفه لما علِقْت من الأمين حَبالا
لو يستطيع النّاس من إجلاله اتّخذوا حُمْر الخدود نِعالا
إنّ المطايا تشتكيك مهابــة قطعتَ اليك فدفدًا ورِمالا
فإذا وردن بنا وردنا خفافا وإذا صدَرْن صدرن وليس ثِقالا

فأعطاه عمرو سبعين ألفًا وخلع عليه حتى لا يقدر أن يقوم . فغار منه الشعراء .

وقد اتفق له في بعض الأيام أن المهدي استدعى الشعراء الى مجلسه فاجتمعوا . وكان فيهم بشار بن برد الأعمى ، فسمع صوت أبي العتاهية فقال لجليسه : أثَمَّ هنا أبو العتاهية ؟ قال : نعم ! فوجم له بشار . ثم استنشد المهدي أبا العتاهية ، فانطلق ينشِدُه قصيدتَه التي يقول في أولها :

ألا ما لسيّدتي ما لها أدلت فأحمل إدلالها

فقال بشار : لجليسه ما رأيت أجسر من هذا ! حتى انتهى أبو العتاهية الى قوله :

أتته الخلافةُ منقـادة اليه تجـــرّ أذيالـــها
فلم تكن تصلح الاّ لــه ولم يكن يصلح الاّ لــها
ولو أنّ أمّها أحدٌ غيـره لزُلْزلت الأرض زلزالَها
ولو لم تُطعه بنات القلوب لما قَبِل اللهُ أعمالـها

فقال بشار لجليسه : انظر ، ويحك ، أطارَ الخليفة عن فَرْشه ؟! لِمَا وقع له من الغيْرة . ولم يخرج يومئذ أحد من الشعراء بجائزة غير أبي العتاهية .

وكان أبو العتاهية من شعراء الخلفاء الى المأمون . ومات في أيامه .

قال بعضهم مات أبو العتاهية وابراهيم الموصلي وأبو عمرو الشيباني النحوي في يوم واحد . وليس بصحيح ، لأن ابراهيم مات بعده بسنتين ، وأبو عمرو

مات سنة ستّ ومائتين .

وهو أبو عمرو اسحاق بن مِرّار ، بكسر الميم ، الشيباني /183ب/ النحوي اللغوي ، وهو من الموالي . جاور شيبان ليتأدّب فيها فنُسب اليها ، ونزل بغداد وكان من الأئمة الأعلام في فنونه ، وهي اللغة والشعر . وكان كثير الحديث كثير السماع ، ثقة . وهو عند العامة والخاصة من أهل العلم والرواية مشهورًا معروفًا ، والذي قصّر به عند العامة من أهل العلم أنه كان مشتهرًا بشرب النبيذ . وأخذ عنه جماعة كبار ، منهم أحمد بن حنبل وأبو عبيد القاسم بن سلام وابن السكيت . وقال في حقّه عاش مائة وثماني عشرة سنة وكان يكتب بيده الى أن مات ، وكان ربما استعار الكتب منّي وأنا إذ ذاك صبي آخذ عنه وأكتب من كتبه . وله من الكتب كتاب الخيل ، وكتاب اللغات وهو المعروف بالجيم ، ويعرف أيضًا بكتاب الحروف ، وكتاب النوادر الكبير ثلاث نسخ ، وكتاب غريب الحديث ، وكتاب النخلة ، وكتاب الإبل ، وكتاب خَلْق الإنسان . والأصح أنه مات سنة ستّ ومائتين ببغداد ، وعمره مائة وعشر سنين . ولم يمت في سنة مات فيها أبو العتاهية .

قال المؤيد ، في المختصر : في سنة أحد عشَر ومائتين ، أمَر المأمون أن يُنادى بُرئت الذمة ممّن ذكر معاوية بخير ، أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ .

وفيها توفي أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش النحوي البصري . والأخفش ، الصغير العينين مع سوء بصرهما . وكان من أئمة العربية البصريين ، وأخذ النحو عن سيبويه . وكان أكبر من سيبويه . وكان يقول : ما وضع سيبويه في كتابه /184/ شيئا الاّ بعد أن عرَضه عليّ .

وللأخفش المذكور عدة مصنفات ، وهو الذي زاد في العروض بحر الخبَب. والذين يُسمّون بالأخفش ثلاثة ، أوّلهم الأخفش الأكبر ، وهو أبو الخطاب عبد الحميد ، من أهل هَجَر ، وكان نحويا أيضًا ؛ ثم الأخفش

الأوسط ، سعيد بن مسعدة الامام المذكور ؛ ثم الأخفش الأصغر المتأخّر ، وهو علي بن سليمان بن الفضل ، وكان نحويًا أيضًا ، توفي سنة خمس عشرة ، وقيل سنة ست عشرة وثلاثمائة . وفيها توفي أبو العتاهية الشاعر . انتهى .

قال ابن خلكان : كانت ولادة أبي العتاهية سنة ثلاثين ومائة وتوفي يوم الاثنين لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة ومائتين ، وقيل سنة ثلاث عشرة بغداد ، وقبره على نهر عيسى قبالة قنَطرة الزياتين رحمه الله تعالى . ولما حضرته الوفاة قال : اشتهي أن يجيء مخلوفٌ المغني ، ويغنّيَ عند رأسي هذين البيتين :

إذا ما انقضتْ عنّي من الدّهر مدّتي ... فإنّ عـزاء الباكيـات قلـيلُ
ستَعْرِض عن ذكري وتَنسَى مودّتي ... ويَحدُث بعدي للخليل خليلُ

وأوصى أن يُكتب على قبره :

إنّ عيشًا يكون آخـرُه المو ... تُ لعيشٌ مُعجَّل التنغيـصِ

قال : وكان من مقدَّمي المولَّدين . وشعره كثير . وهو في طبقة أبي نواس وبشار بن برد وحمّاد عجرد وتلك الطائفة . انتهى .

تمام كلام وتكميل مرام

قد تقدم ذكر أبي نواس ، وسنذكر شيئا من أخبار بشّار وحمّاد . /184ب/

قال صاحب الأغاني : وحمّاد عجرد هو حماد بن يحيى مولى بني عامر بن صعصعة أصله . ومنشؤه بالكوفة ، وهو من مُخضرَمي الدولتين ، خليعٌ ماجن ، وكان يُتّهم في دينه بالزندقة . وكان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون ، حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ويتعاشرون معاشرة جميلة كأنهم نفس واحدة . وكانوا جميعًا يُرمَوْن بالزندقة ، وأشهرهم بها حماد عجرد . وسبب تلقيته بعجرد أن أعرابيًا مرّ به يومًا ، شديدَ البرد ،

وهو يلعب مع الصبيان فقال له : تعجردت يا غلام ! فسمّي عجرد . وهو مأخوذ من التعجرد ، وهو التعرّي في اللغة ، يقال تعجرد الرجل ، إذا تعرّى وعجردت الرجلَ إذا عرّيته وكان بينه وبين بشار مهاجاة عظيمة والشرّ بينهما مُنْتَشِب ، ولكل منهما في صاحبه أقوال . قال بشّار في حمّاد عجرد :

ما لمتُ حمّادَ على فُسْقه يلومُه الجاهل والمـابقُ
ما بات الاّ فوقَه فاسقٌ ينيكه أو تحته فاسقُ

وقال فيه أيضًا :

نهاره أخبثُ من ليـــله ويومه أخبث من أمسِهِ
وليس بالمقلع عن غيّــه حتّى يوارى في رمسـه

وقال فيه أيضًا :

لو طُليت جلدتُه عنبرًا لأفسدتْ جلدته العنْبَرا
أو طُليت مِسكًا ذكيًا إذًا تحوّل المسكُ عليه خـَرَا /185/

وكان بشّار بن برد أعمى ، فقال فيه حمّاد عجرد :

ألا من مبلغ عنّـــي الذي والـــده بـردُ
إذا ما نسب الناس فلا قبلُ ولا بعـــدُ
شبيه الوجـه بالقرد إذا ما عمِيَ القـردُ
دنيء لم يرُح يومًا الى مـسجد ولم يغْـــدُ
ولم يُخْـــشَ له ذم ولم يـــرج له حمدُ
جرى بالنّحْس مذ كان ولم يجـــر له سعدُ
هو الكـــلب إذا ما مات لم يوجَد له فقْدُ

وبلغ ذلك بشارًا فبكى فقيل له : أتبكي من هجاء حماد ! فقال : والله ما

أبكي من هجائه ، ولكنى أبكي لأنه يراني فيصفني وأنا لا أراه فأصفه . ثم قال : لا إله الا الله ، والله لقد وقع لي هذا البيت منذ عشرين سنة ، فما نطقت به خوفا من أن يُسْمع فأُهجى به حتى وقع عليه النَّبَطي ابن الزانية .

قال عليّ بن مهدي : أجمع العلماء بالبصرة على أنه ليس في هجاء حماد عجرد لبشار شيء جيّد سوى أربعين بيتًا معدودة ، ولبشار فيه أكثر من ألف بيت جيد . قال : وكان كل واحد منهما هو الذي هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه ، فسقط حماد بقول بشار فيه ، لفضل بلاغته وجودة معانيه وبقي بشار على حاله لم يسقط وعُرف مذهبه الزندقة فقتل بها . قال يحيى بن الجوْن العبدي ، راوية بشّار : أنشدت بشّارًا يومًا قول حمّاد عجرد :

ألا قل لعبد الله إنّك واحـــدٌ   ومثلك في هذا الآنام كثيــرُ 85/
قطعت إخائي ظالما وهجرْتني   وليس أخ في الإخاء يجــورُ
أُديمُ لأهل الودّ ودّي وإنّنـــي   لمن رام هجري ظالـمًا لَهـجورُ
ولو أنّ بعْضي رابني لتركته   وإنّي بقطع الرأي منك جــديرُ
فلا تحسبنّ منْحِي لك الودّ مخلصًا   لضرّ ولا أني اليك فقيــرُ

فقال : ما قال حمّاد شعرًا أشدّ عليّ من هذا ! فقلت : كيف ، ولم يهجاك فيه ؟ فقال : هذا شعر جيّد ، ومثلُه يُرْوَى !

وأنشد بشّارًا راويته قول حمّاد عجرد :

دُعيتَ الى برْدٍ وأنت لغيره   وهبْك لبُرْد نِكْتَ أُمّك من بُرْدِ

فقال بشّار لراويته : ههنا أحدٌ ؟ قال : لا ! قال : جوّد ابن الزانية ما أنشأ ؛ ولقد تهيّأ له في هذا البيت خمس معان من الهجاء ، قوله «دعيت الى برد» معنًى ، وقوله «وأنت لغيره [معنى]» ، وقوله «وهبك لبرد» معنى ، وقوله «نكت أمك» معنى ، شتمٌ مفرد واستخفاف مجرّد وهو معنى رابع ، ثم ختم

بقوله «من برد» ، فأتى بالطلبة . ولقد طَلَبَ جريرٌ في هجائه الفرزدق تكثيرَ المعاني ، ونحا هذا النحو ، فما تمّ له أكثرُ من ثلاث معان في قوله :

لـمّا وضعتُ على الفرزدق مقسـمي   وضعا للبعيث جدعت أنف الاخطل

وكان حمّاد يأتي في شعره بالمعاني الجيدة والكلام اللطيف ، فمن ذلك قوله :

كم من أخ لك لستَ تنكره   ما دمتَ من دنياك في يُسْـرِ
متصنّع لك في مودّتـــــه   يلقاك بالترحيب والشـــكرِ
فإذا عدَى والدّهرُ ذو غِيَـر   دهرٌ عليك عدى مع الدّهـرِ
فَارفضْ بإجمال مودّة من   يقْلِى المقلّ ويعشق الـمُثْرِي /186/
وعليك من حالاته واحـدة   في العُسْر إما كنتَ واليُسْرِ

وقال ابن النطاح : أنشدت أخي يومًا شعرًا ، لحماد يهجو فيه بشار بن برد فقال :

ما يضرّ البحر أمْسَى زاخرًا   إن رمى فيه غلامٌ بحـــجَرْ

وكان رجل من أهل البصرة ، يدخلُ الى بشّار وحمّاد على اتّفاق منهما ، رُوضيَ بأن يَنْقُل الى كل واحد منهما وعنه الشعر . فدخل يومًا الى بشار ، فقال له : ايه يا فلان ، ما قال ابن الزانية فيّ ؟ فأنشده :

إن تاهَ بشّارٌ عليكم فقَــد   أمكنتُ بشارًا من التّيهِ

فقال بشار : بأيّ شيء ويحك ؟ فقال :

وذاك إذا سمَّيته باسمه   ولم يكن حُرٌّ يُسمّيه

فقال بشار : سَخُنتْ عينه ، فبأي شيء كنتُ أعرَف ؟ فقال :

فصار إنسانًا بذكري له ما ينبغي من بعدُ ذكريه

فقال : ما صنع شيئًا إيه ويحك ؟ فقال :

لم أهجُ بشارًا ولكنّني هجوتُ نفسي بهجائيه

فقال : على هذا المعنى دار ، وحوله حام .

وكان حمّاد عجرد يهوَى غلامًا ، يقال له أبو بِشْر ، فلامه على حبّه بعض إخوانه ، فقال يجيبه :

أخي كُفَّ عن لومي فإنّك لا تدري بما فعَل الحبّ المبرِّح في صدري
أخي أنت تَلْحاني وقلبك فارغٌ وقلبي مشغول الجوانِح بالفكر
أخي إن دائي ليس عندي دواؤه ولكن دوائي عند خِلِّي أبو بشر

فأُقسِم لو أصبحتَ في لوعة الهوى لأقصرْتَ عن لومي وأطنبتَ في عذري

/186ب/

ولكن بلائي منك أنك ناصح وأنّك لا تدري بأنّك لا تدري

قال يعقوب الخريمي : أهدى مُطِيعُ بن إياس الى حمّاد عجرد غلامًا ، وكتب اليه : «قد بعثت اليك بغلام تتعلّم عليه كظم الغيْظ !» .

وحضر يومًا حمّاد عجرد ومُطيع بن إياس في مجلس محمّد بن خالد ، وهو أمير الكوفة فتمازحا ، فقال حمّاد في مطيع :

يا مطيعٌ يا مطيعُ أنت إنسان رقيعُ
وعن الخير بطيءٌ والى الشر سريعُ

فقال مطيع :

إنّ حمّادًا لئيمٌ سِفْلة الأصل عديمُ
لا تراه الدّهرَ الاّ بهَنِ الغَيْر يَهيمُ

فقال حماد : ويلك ، أترميني بدائك ، والله لو لا كراهتي للشرّ لقلت لك قولا يبقى ، ولكني لا أُفْسِد مودّتك !

وقال الحسن بن عمار : نزل حمّاد على محمّد بن طلحة ، فأبطأ عليه الطعام ، واشتدّ جوعه فقال :

زرتُ أمرءا في بيته مرّة لا له حياءٌ ولا له خيرُ
يكره أن يتخم أضيافه إن أدّى التخمة محذورُ
ويشتهي أن يؤخر وعده بالصوم والصائم مأجورُ

فلما سمعه محمّد قال له : عليك لعنة الله ، أيّ شيء حملك على هجائي ؟! قال : الجوع وحياتك حملتني عليه ، وإن زدتَ في الإبطاء زدتُ في القول . فمضى مبادرًا حتى جاء بالمائدة .

وكان ابن أبي الصَّلْت صديقًا لحمّاد عجرد ، وكان يعاتبه على البخل ، فقال فيه :

تخوّف تخمةَ أصحابـه فعوّدهم أكلةً واحـدة

وقال أبو دُهمان : كان أبو حنيفة الفقيه رضي الله تعالى /187/ عنه صديقًا لحمّاد عجرد ، فلمّا نسَك وطلب الفقه رفض حمّادًا وبسَط لسانه فيه ؛ فجعل حمّاد يلاطفه حتى يكفَّ عنه وهو مُصِرّ على ذكره ، فكتب اليه حمّاد أبياتًا يقول فيها :

إن كان نُسْكُك لا يتـ ـمّ بغير شتمي وانتقاصي
فاقعد وقم بي كيف شئـ ـتَ مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكّيْتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام تأخذُها وتعطي في أباريق الرَّصاصِ

وأنا وأنت على ارتـكابِ الموبقـات من الـحُرّاصِ

فأمسك أبو حنيفة ، رحمه الله تعالى ، عن ذكره بعد ذلك ، خوفًا من لسانه .

وروي أن يحيى بن زياد كان صديقًا لحمّاد أيضًا ، وكانا يتنادمان على الشّراب ، فأظهر يحيى تورّعًا وتبرعًا عمّا كان عليه ، وهجر حمادًا وغيره من أشباهه ، وصار إذا ذُكر حمّاد عنده يذكر يحيى تهتّكه وفعله . فقال فيه حمّاد هذه الأبيات ، وبلغت يحيى ، فنُسب حمّاد الى الزندقة ، فقال فيه حمّاد :

لا مؤمن يُعرف إيمانه وليس يَحْيَى بالفتى الكافرِ
منافـقٌ ظاهره ناسـكٌ مخالفُ الباطن للظّاهرِ

وكان محمّد بن أبي العباس كثير الطِّيب ، يملأ لحيته بالغالية حتى تسيل على ثيابه ؛ فلقّبوه أبا الدِّبس . وكان قويًا شديدًا ، يلوي العمود من شدته . فقال فيه :

صِرْنا من الرِّيح الى الوَكْس إذ وليَ المصْرَ أبو الدِّبْسِ 187/
ما شئتَ من لؤم على نفسه وجنسه من أكرم الجِنْس

وكان محمّد قد قدم البصرة أميرًا عليها ، فهوى زينب بنت سليمان بن عليّ ، فخطبها ، فلم يزوجوه إياها لشيء كان في عقله . فقال لحمّاد : قل فيها شعرًا ! فقال حمّاد على لسان محمد بن أبي العباس فيها أشعارًا كثيرة ، منها :

زينب ما لي عنك من صبر وليس لي منك سِوى الهجرِ
وجهك والله وإنْ شفّني أحسنُ من شمس ومن بدرِ

واشتهرت زينبُ في البصرة ، وهي التي يُنسب اليها الزَّيْنَبيون من آل العباس. فطلب محمّد بن سليمان حمّاد عجرد . فهرب منه واستجار بقرابته ، يعني قرابة سليمان ، وقال فيه أشعارًا كثيرة فبلغه ذلك ، فقال : والله لأبلنّ قبرَ

أبي من دمه ! فهرب الى بغداد ، وعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره وقال له : أُهْجُ محمّد بن سليمان ! فهجاه بقوله :

قلْ لوجه الخَصيّ ذي العار أنّي سوف أهدي لزينبَ الأشعارَا
كنتُ عند استجارتي بأبي أيوبَ أبغـي ضلالة وخَسارَا
فلم يُجِرْني ولم أجدْ فيه حظًا أضرم الله ذاك القبرَ نـارَا

وبلغ ذلك محمّد بن سليمان ، فأرسل اليه من قتله غِيلة . فلما مات وبلغ بشّارَ موتُه قال :

لو عاش حمّادٌ لَهَوْنا به لكنّه صار الى النّـــار

ولما قتل المهدي بشارًا بالبَطيحة ، حُمل الى منزله ودفن عند حمّاد . فمرّ بهما أبو هشام الباهلي الشاعر فوقف على /188/ قبريهما وقال فيهما :

قد تبع الأعمى قفا عجـــرد فأصبحَا جاريْـــن فـي دار
قالت بقاعُ الأرض لا مرحبًا بقُرْب حمّاد وبشّـــار
جاورا بعــــد تناءيْهما ما أبغضَ الجار الى الجـــار
صارا جميعًا في يدي مالك في النّار والكافرُ في النّار

انتهى .

وقتل بشّار على الزندقة سنة ستّ وستين ومائة ، لأنه كان يصوِّب رأس إبليس ـ لعنة الله عليه ـ في امتناعه من السّجود لآدم عليه الصلاة والسلام . وكان يفضّل النّار على الأرض . ولـمّا قُتل كان قد نيّف على التسعين ، وكان أعمى ممسوح العينين .

وبشّار هو القائل في يعقوب بن طهمان وزير المهدي :

بني أميةَ هُبُّوا طال نومـكُمُ إنّ الخليفة يعقوبُ بن داوودِ

ضاعتْ خلافتكم يا قومُ فالتمسوا خليفةَ الله بين النّاي والعودِ

قال ذلك حين غلب على المهدي وتمكن عنده وصارت الأمور اليه ، وضيق على المهدي في الشرب ، فسعت به ندماؤه . وحبَسه في هذه السنة ، وبقي محبوسًا الى خلافة الرشيد . ذكر ذلك كلّه المؤيد في المختصر .

وكان بشار قد سعى بحمّاد الى الربيع بن يونس بأبيات قالها فيه . وذلك أنّ حمّاد عجرد كان يؤدّب ولد الربيع بن يونس ، فكتب اليه بشّار بن برد :

يا أيها الفضل لا تنم وقع الذيب في الغَنَمْ
إن حمّادَ عجْردٍ إن رأى غفلة هَجَمْ
بين فخذَيْه حربة في غلاف من الأَدَمْ
إن خلا البيتُ ساعةً يُجَمْجِمُ الميمَ بالقَلَمْ

/188ب/ فلما قرأ الربيع الأبيات طرده . قال أبو دُهمان فأوجع حمّادًا ما فعله بشار ، فقال فيه هذه الأبيات :

لقد صار بشار بصيرًا بدُبْرِه وناظرُه بين الأنام ضريرُ
له مقلةٌ عَمْيَا وأُسْتٌ بصيرةٌ الى الأيْرِ من تحت الثياب تُشيرُ
ومن وُدِهِ أن الحميرَ تنيكه وأن جميعَ العالمين حَميرُ

وقد فعل مثل هذا بعينه حمّاد عجرد بقُطْرُب ، فجازاه الله بمثله . وذلك أن قطرب دُعي لتأديب بعض ولد المهدي . وكان حمّاد يطمع في ذلك ، فلم يتم له لشُهْرته في الناس بما قاله بشّار . ولما تمكّن قُطرب في موضعه كتب حماد فيه الى المهدي أبياتًا يقول فيها :

قُلْ للامام جزاك الله صالحة لا تجعَل الدّهرَ بين السَّخْل والذّيبِ
السَّخْل غِرٌّ وهمُّ الذيب غفلته والذيبُ يعلَم ما في السَّخل من طيبِ

فلما قرأ المهدي الرقعة قال : أنفوه عن الدّار ! فأُخرج وجيء بمؤدِّب غيره . ووكّل به سبعين خادمًا يحفظون الصبي . وخرج قطرب هاربًا مما شُهِّر به الى أن أتى أبو دلف ، فأقام عنده بالكَرْخ الى أن مات .

وقُطْرب بضم القاف وسكون الطاء ، وهو لقب غلب على أبي عبد الله محمد بن المُستنير بن أحمد النحوي اللغوي البصري ، مولى سلم بن زياد . ويقال إن اسمه أحمد ، وقيل الحسن ؛ والأول أصح . أخذ الأدب عن سيبويه وعن جماعة من البصريين ، وكان حريصًا على النظم والاشتغال . فكان يبكِّر الى سيبويه قبل حضور أحد من التلاميذ . فقال له يومًا : /189/ ما أنت إلاّ قطربُ ليل ! فبقي عليه هذا اللقب . وقطرب ، اسم دويبة لا تزال تدبّ ولا تغير .

قال المؤيد : توفي قطرب النحوي سنة ست ومائتين . اهـ .

وكان من أئمة عصره ، وله من التصانيف كتاب القرآن ، وكتاب الاشتقاق ، وكتاب القوافي وكتاب النوادر ، وكتاب فعل وافعل ، وكتاب الردّ على الملحدين في تشابة القرآن ، وغير ذلك . وهو أول من وضع المثلّث في اللغة ، وكتابه وإن كان صغيرًا لكن له فضيلة السبق ، وبه اقتدى أبو محمد عبد الله السِّيد البطْليوسي وكتابه كبير . وكان قطرب معلم أولاد أبي دُلف العِجْلي . وكان أبو دلف من أصحاب الأمين ، فغضب عليه المأمون وبقي على ذلك الى أن صلح حاله مع المأمون سنة أربع عشرة ومائتين . قدم على المأمون وهو شديد الخوف فأكرمه وأعلى منزلته .

وأبو دلف ، هو ممدوح العَكَوّك الشاعر ، حيث يقول فيه :

إنما الدنــيا أبو دلف   بين بادية ومحــتضره
فإذا ولّــى أبو دلف   ولّت الدنيا على أثـره
كلّ من في الارض من   عرب من بادية الى حضره

مستعيرٌ منك مكرمة　　　يكتسيها يوم مفتَخَرِه

وهي قصيدة طويلة ، ثمانية وخمسون بيتًا ، عارضه فيها أبو نواس وردّ على العكوّك ، وبلغت القصيدة المأمون فغضب على العكوّك ، وطلبه فهرب منه كل مهرب ، ثم أُحضر بين يديه فقال : فضّلت القاسم بن عيسى العجلي علينا يا عكوك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أنتم أهل بيت /189ب/ اصطفاكم الله من بين عباده وأتاكم ملكًا عظيمًا ، وإنما مدحتُه على آله وأمرائه . فقال : والله ما أبقيت أحدًا ، ولقد أدخلتنا في الكلّ ، حيث تقول «كلّ من في الأرض من» وسرد البيتين ؛ ومع هذا فلا أستحلّ قتلك بهذا ، ولكن بكُفْرك وشِركك ، حيث تقول في عبد ذليل :

أنت الذي تُنْزِل الأيامَ منزلها　　　وتنقُلُ الدَّهْر من حال الى حالِ
وما مددت مدى طَرْفٍ الى أحد　　　إلاّ قضيتَ بأرزاق وآجـــــالِ

ذلّك الله ، تفعله ؛ أخرِجوا لسانه من قفاه ! فأخرجوا لسانه من قفاه ، فمات في سنة ثلاثة عشر ومائتين ببغداد .

وكان مولده سنة ستين ومائة ، وهو أبو الحسن عليّ بن جبلة بن المسلّم بن عبد الرحمان الخراساني . ولقب بالعكوّك لقصره وسِمنه . وكان من الموالي ، وهو بصير ، وُلد أعمى . وقيل أصابه جُدري وهو ابن تسع سنين فعمي . وكان أسود أبرص . وكان شاعرًا مُطبقًا فصيحًا بليغًا ، وقد أثنى عليه في الشعر الجاحظ ، فمَن بعدَه .

قال الجاحظ : ما رأيت بدويًا ولا حضريًا أحسن إنشادًا منه ؛ فمن قوله :

يا من زارني مُكتتِــــمًا　　　حذِرًا من كلّ شيء جزِعَـا
طارق نمّ عليه حسنُـــــهُ　　　كيف يُخفى الليل بدرٌ طلعَا
رصَد الغفلةَ حتّى أمكنتْ　　　ورعَى السّامرَ حتّى هجعَا

ركِب الأهوال في زوْرته ثم ما سلم حتّى ودّعَا

انتهى ، كذا ذكر في تاريخ العظمي .

/190/ ذكر الخطيب : أنّ أبا زكريا يحيى ين زياد الفرّاء كان يؤدب ولدي المأمون ، وليِيْ العهد . فقام الفرّاء يومًا فابتدراه ، أيهما يقدّم نعليْه ، فتنازعا في ذلك ثم اصطلحا على أن يقدِّم كل واحد نعلا ، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار وللفرّاء عشرة آلاف درهم ، وقال له : لا جرَم ، إذ يقدّم نعليك وليَّا العهد !

وكان الفرّاء شيخ النحاة واللغويين . والفرّاء وكان يقال له أمير المؤمنين في النحو . وكان ثقة إمامًا .

قال ابن خلكان : أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور ، المعروف بالفرّاء الأسلمي الديلمي الكوفي ، مولى بني أسد وقيل مولى بني مِنْقَر بكسر الميم وسكون النون وفتح القاف ، وكان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب . حُكي عن ثعلب أنه قال : لو لا الفرّاء لسقطتِ العربية ، لأنها كانت يُتنازع فيها ويدّعيها كل من أراد ، وتكلم الناس فيها على قدر عقولهم وقرائحهم فتذهب .

وكان الفرّاء أخذ النحو عن الحسن الكسائي وهو والأحمر من أشهر أصحابه وأخصهم . انتهى .

وكان المأمون أمره بوضع كتاب في النحو وأملاه وكُتِب عنه وأمر المأمون بكَتْبِه في الخزائن ، كذا ذكر الخطيب .

وروى أيضًا أنّ الفرّاء كان ابن خالة محمد بن الحسن الفقيه ، وكان يومًا جالسًا عنده فقال الفرّاء : كلّ رجل أتقن النظر في باب من العلم وأراد غيره إلاّ سهُل عليه ! فقال محمد : يا أبا زكريا قد أمعنتَ النظر في العربية ، فنسألك عن باب من الفقه ؟ فقال : هات على بركة الله ! فقال : ما تقول في رجل صلّى فسَها فسجد /190ب/ سجدتيْ السّهو ، فسَها فيهما ، فهل يسجد للسّهو

ثانيًا ؟ ففكر الفرّاء ساعة ثم قال : لا شيء عليه . فقال له : ولِم ؟ قال : لأن التصغير عندنا لا تصغير له ، وإنما السجدتان تمامُ للصلاة ، فليس لكل تمام تمام ! فقال محمّد : ما ظننت امرأة تلِد مثلك !

وقال ابن خلكان : كان الفرّاء يميل الى الإعتزال . وعن ثعلب أنّ الفرّاء كان يجلس للناس في مسجد الى جانب ، وكان يتفلسف في قضائه حتى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة . وقال الجاحظ : دخلتُ بغداد سنة أربع ومائتين حين قدمها المأمون ، وكان الفرّاء يُحبّني وآشتهى أن يتعلم شيئا من علم الكلام ، فلم يكن له طبع .

وحكى سلمة بن عاصم أن الفرّاء قال : كنت أنا وبشر المريسي في بيت واحد عشرين سنة ما تعلّم مني شيئا وما تعلمتُ منه شيئا ! وكان بشر معتزليًا . انتهى .

ولد الفرّاء بالكوفة وانتقل الى بغداد وجعل أكثر مقامه بها ، وتوفي سنة سبع ومائتين في طريق مكة ، وعمره ثلاث وستّون سنة . وسمّي الفرّاء لأنه كان يفري الكلام فريًا ، وله مصنفات منها كتاب الحدود ، وكتاب المعاني ، وكتابان في المشكل ، وكتاب النهي وغير ذلك . انتهى ، كذا ذكر المؤيد وغيره .

شيم سنيّة وأخلاق رضيّة

حكى الخطيب ، عن العباس صاحب شرطة المأمون أنه قال : دخلت الى مجلس أمير المؤمنين بحَرّان ، من عمِل دمشق الشّام ، فوجدت رجلا بين يديه مكبّلاً بالحديد . فقال لي : يا عباس ! قلت : لبيك ، يا أمير المؤمنين . فقال : خذ هذا اليك واستوثق منه /191/ واحتفظ به ، وبكّر اليّ به في غدٍ ، واحترز عليه كل الاحتراز .

قال العباس ، فدعوت جماعة حمَلوه ، ولم يَقْدِر أن يتحرّك . فقلت في نفسي

مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به لا يكون إلاّ معي في بيتي . وجعلتُه في مجلس في داري ، ثم أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن أين هو . فقال : أنا من دمشق . فقلت : جزى الله دمشق وأهلَها خيرًا ، فمن أنت من أهلها ؟ قال : وعمّن تسأل ؟ قلت : فلانًا . قال : ومن أين تعرفه ؟ قلت : وقع لي معه قضية . فقال : ما كنت بالذي أعرِّفك خبره حتى تُعرِّفني قضيتك معه .

قلت : كنت مع بعض الولاة بدمشق ، فخرج علينا أهلها حتى أن الوالي تدلَّى في زنبيل من قصر حجّاج ، وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم ، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعْدُون خلفي ، فما زلت أعْدو أمامهم حتى فُتّهم ، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره ، فقلت له : أغثني أغاثك الله تعالى ! فقال : لا بأس عليك ، اُدخل الدار . فدخلت فقالت زوجته : اُدخل تلك المقصورة فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت به إلاّ وقد دخل ومعه رجال يقولون : هو والله عندك ! فقال لهم : دونكم الدّار ، ففتّشوها ! فداروا فيها حتى لم يبق لهم إلاّ تلك المقصورة وامرأته معي فيها ، فقالوا : هو هنا ! فصاحت بهم المرأة ونهرتهم ، فانصرفوا . وخرج الرجل ، فجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف وما حمَلَتْني رجلاي من شدّة الخوف . فقالت المرأة : اِجلس لا بأس عليك . /191ب/ فجلست ، فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف ، قد صرّف الله عنك شرهم وصيرت الى الأمن إن شاء الله تعالى . فقلت : جزاك الله خيرًا !

وما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها ، وأفرد لي مكانًا من داره ولم يحوجني الى شيء ، ولم يفتُر عن تفقّد أحوالي . فأقمتُ عنده أربعة أشهر في أتمّ عيش وأرفعه الى أن سكنتْ الفتنة وهدأت وزال شرّها ، فقلت له : أتأذن لي في الخروج حتى أتفقّد حالَ غلماني ، فلعليّ أقف منهم على خبر . فأخذ عليّ المواثيق

بالرجوع اليه . فخرجت وطلبت غلماني ، فلم أقف لهم على خبر فرجعت اليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كلّه لا يعرِفني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلاّ بالكنية ، فقال لي : على ما تعزَم ؟ فقلت : قد عزَمْت على التوجّه الى بغداد ، فإن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، وقد تفضّلتْ عليّ هذه المرأة ولك عليّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل ، ولا أوفيك مهما استطعت ! فدعا بغلام أسود ، وقال له : انعَلْ الفرس الفلاني ، ثم جهّزْ له الفرس ! فقلت في نفسي ما أشك أنه يريد أن يخرج الى ضيعة له أو ناحية من النواحي ؛ فأقاموا يومهم ذلك في كدّ وتعب .

فلمّا كان يوم خروج القافلة جاءني في السّحَر وقال : يا فلان ، قمْ ، فإنّ القافلة تخرج الساعةَ ! فتحيّرتُ وقلت في نفسي كيف أصنع وليس معي ما أتزوّد به ولا ما أكتري به مركوبًا . ثم قمتُ ، فإذا هو وامرأته يحملان من أفخر اللباس وخفيْن جديدين وآلة السفر ، ثم جاءني بسيف ومِنطقة فشدّهما /192/ في وسطي ، ثم قدّم بغلا وحمَل عليه صندوقان فوقهما فرْش ، ودفع اليّ نسخة ما في الصندوقين ، وفيهما خمسة آلاف درهم ، وقدم اليّ الفرسَ الذي أنعله بسَرْجه ولجامه وقال : إركَبْ ، وهذا الغلام الأسود يخدُمك ويسوس مركوبك ! وأقبل هو وامرأته يعتذران اليّ من التقصير في أمري ، وركب معي وشيّعني وانصرفتُ الى بغداد وأنا أتوقّع خبره ومكافأته .

واشتغلنا مع أمير المؤمنين ، ولم أتفرغ اليه لكي أُرسل اليه وأُكافيه على صنيعه وإحسانه اليّ . فقال له الرجل : قرب الله تعَبك ، أنا ذلك الرجل ، وإنما الضُّرّ الذي أنا فيه غيّر عليك حالي ، وما كنتَ تعرفُه منّي .

ثم لم يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبتَ لي معرفته . فما تمالكتُ أن قمت وقبّلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذي آسرك الي ما أرى ؟ قال : هاجت فتنة بدمشق ، مثل الفتنة التي كانت في أيّامك ، فنسبتْ إليّ . وقد بعثَ أمير المؤمنين الجيوش فأُصلحوا بين الناس وأُخِذت أنا وضُربت الى أن أشرفتُ على

الموت . ثم إنهم قيّدوني وبعثوا بي الى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم ، وهو قاتلي لا محالة وقد خرجت من عند أهلي بلا وصية ، وقد تبِعني بعضٌ من غلماني ، مَن ينصرف الى أهلي بخبري ، وهو نازلٌ عند فلان ؛ فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يُحضرُه حتى أوصيَه بما أريد ؛ فإن أنت فعلت ذلك ، فقد جاوزتَ حدّ المكافأة وقمتَ بوفاء عهدك !

قال العباس ، فقلت : يصنع الله خيرًا ! ثم أحضرت حدّادًا في تلك الليل ، وقلت له : فُكّ /192ب/ قيوده ، وأزِل ما كان عليه من الأنكال ! وأدخلته حمّام داري ، وألبسته من الثياب ما يحتاج اليه ، ثم سيَّرْت من يُحضر اليه غلامه .

فأُحضِر ، فجعل يبكي حين رآه ويوصيه . ثم دعيتُ (كذا في الاصل . وتركناها لعاميتها على لفظ «دعوت» المقصود) نائبي وقلت : عليّ بفرسي والفرس الفلاني والبغلة الفلانية والفلانية ، الى أن ذكرتُ عشَرة أبغال وعشرة صناديق وما يحتاج اليه من الكسوة والطعام وآلات السفر . ثم أحضرت بَدرة فيه عشرة آلاف درهم ، وكيس فيه خمسة آلاف دينار ، وقلت لنائبي في الشرطة : خذ هذا الرجل وشيّعْه الى حدّ بيسان . فقال الرجل : إنّ ذنبي عظيم ، وخطبي جسيم عند أمير المؤمنين ، وأنت إن احتججتَ بأنّي هربتُ بعَث أمير المؤمنين في طلبي ، وأين أفُتْه (أفوته ، عربية) ، وربما عاقبك لأجلي ! فقلت له : انجِ أنت بنفسك ، ودعني أنا أدبّر أمري ! فقال : والله ما أبرح من حرّان حتى أُعلم ما يكون من خبَرك ؛ فإن احتجتَ الى حضوري أحضرتَني .

فقلت لنائب شرطتي : إن كان الأمر على ما يقول ، فليكن مقامك في موضع كذا ، فإن أنا سَلِمت في غداةِ غدٍ أعلمتَه ، وإن أنا قُتِلتُ وقيتُه بنفسي كما وقاني بنفسه ، وأُنشِدك الله الا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد في إخراجه من هذه البلدان ، لأن دمشق قريبٌ من هنا .

ثم توضّيت وصلّيت ما شاء الله تعالى وأقبلت على الدّعاء والتضرّع الى الله

سبحانه ، الى أن بَسَق الفجرُ فصلّيت صلاة الصبح ، فما استتمت صلاتي إلاّ ورسول المأمون يقول : أجب أمير المؤمنين ، وهات الرجل معك !

قال العباس : فتوجّهت /193/ الى دار أمير المؤمنين وإذا هو جالس وعليه ثيابه ، فقال : أين الرجل ؟ فسكتّ . فقال : ويحك ما فعل الرّجل ؟! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إسمع مني ! فقال : لله عليّ عهدٌ ، لئن ذكرتَ أنه هرب لأضربنّ عنقك ! فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما هرب ، ولكن اسمع حديثي . وحدّثته من أول الأمر الى آخره ، ثم قلت له : شأنك يا أمير المؤمنين وما تريد أن تفعله في أمري !

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك لا جزاك الله خيرًا عن نفسك ، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافيَه بعد المعرفة والعهد بهذا ، لا غير ؛ هلاّ عرّفتَني خبره فكنّا نكافيه عنك ولا نقصّر في وفائك له ؟! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنه ههنا وقد حلف ألاّ يبرح حتى يعرفَ سلامتي ، فإن احتجت الى حضوره حضر . فقال المأمون : وهذه منّة أعظم من الاولى ؛ اذهب الآن اليه وطيّب نفسه وسكّن روْعه ، وآتني به حتى أتولّى مكافأته بنفسي .

قال : فأتيت اليه وقلت له : ليزولَ خوفك ، أمير المؤمنين قال كيت وكيت ! فقال : الحمد لله الذي لا يُحمد علي الضّراء والسّراء سواه . ثم قام وصلى ركعتين ، ثم ركب نجيبًا وآمتثل بين يدي المأمون . فأقبل عليه المأمون وأدناه من مجلسه وحدّثه حتى حضَر الغداء ، وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفاه . فأمر له المأمون بعشرة أفراس مسْرجة ، وعشرة أبغال بآلاتها ، وعشَرة مماليك بدوابهم ، وعشرة بِدَر ، وعشرة آلاف دينار ، وكتب الى عامله بدمشق بالوصيّة به وإطلاق خراجه ، وقال له : انصرف /193ب/ آمنًا ، واكتبْ لنا بأحوال دمشق . فصارت كتبه تصل الى المأمون وكلّما وصلت خريطة البريد فيها كتابُه يقول لي : يا عبّاس هذا كتاب صديقك . انتهى .

ذُكر في كتاب لبّ اللبيب : روَى بعضُ أهل الأدب أنّ فتى من أهل الكوفة كان قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة واللسان ، نافذًا في صناعته حاذقًا في براعته ، حسَن الخطّ ، جيّد الضبط ، بليغًا في الترسّل ، فطِنًا في التأمّل ، حافظًا للأخبار ، راويًا للاشعار ، خبيرًا بسير الملوك في الايام السالفة ، بصيرًا بالتحدّث على أمورهم في الأيام الخالفة ، حاذقًا في التصنيف ، فائقًا في التأليف ، صبيح الوجه ، مقبول الشهادة ، حسن الشمائل ، وكان مع ذلك محرومًا ، لا يتوجّه الى وجه من العمل الاّ عاقه عائقٌ وحال دونه حائلٌ وإلاّ قد رأى سابِقًا .

فبقي على ذلك حينًا من الدّهر ، وقد برّز عليه في القدْر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة عاجزًا متأخرًا ، فضاق صدره وضلّت مقاليدُه ، فخرج الى بغداد . واكترى في بعض خاناتها منزلا ، وأجمع أمره على أن يُقحم نفسه على خِطة هائلة يكون فيها هُلْكه أو مُلْكه . وتربّص بذلك وقتًا الى أن عزم أمير المؤمنين على أن يشرب يومًا هو وأخوه المعتصم . وأمره المأمون بالاستعداد ليوم يخلُوان فيه مع الجواري منفردَيْن عن سائر الندماء .

وظهَر خبرهما بذلك وعرَف الناس أمرَهما واليوم الذي عزما عليه . وبلغ الفتى /194/ الأديب ذلك ، فعزم على أن يتطفّل عليهما في ذلك اليوم . ومضى الى إخوانه وأصدقائه واستعار من أحدهم قُباء وجُبّة ومن آخر مِنْطقة وسيفًا وخُفًّا ، ومن آخر بِرذَوْنًا ، ومن آخر ما سيحتاج اليه من الطّيب . واستعدّ لذا ، ودخل الحمام سحَرًا ، وتطيّب ولبِس وركِب عند طلوع الشمس وقال لحاجب المعتصم : عرّف الأمير أنّي رسول أمير المؤمنين ! فاستأذن عليه ومثُل بين يدي المعتصم ، فقال له : يا سيّدي ، إن أمير المؤمنين يُقْريك السّلام ويقول لك أنَسِيت الوعدَ ، أم أتقدّمُ إليك في الرّكوب لنخلوَ ونستريح يومَنا هذا ؟! قال : لا والله ، ما نسيتُ ذلك ، ولكنّي تربصت ساعة ، ونمت نومة لأتقوّى بذلك على انتصاب سائر النّهار . فقال الفتى : عجِّل أيها الأمير ، فإنه أمرني الاّ أفارقك

حتى آتيَه بك !

فأمر المعتصم بإسراج مركوبه ، وأسرع في التأهب ولبس ثيابه وتطيب . ثم ركب وركبتُ معه ، والمعتصم لا ينكر شيئا من كلامي ، ويتأمل في نظافتي وهيئتي ويتوهّم أني بعض خواص المأمون . ثم إن الفتى أخذ يُحدّث المعتصم بالأخبار النادرة والأمثال السائرة حتى خليَ بقلب المعتضم وأقبل عليه بكلّيته ، ولم يتمكن من سؤاله شهوةً لأستماع حديثه حتى بلغ باب الخليفة ، فألقى نفسه عن دابته وجعل يسعى بين يدي المعتصم والحُجّاب لا يُنكرون منه شيئا ، ويظنّون أنّه من بعض خدم المعتصم . وأخذ الفتى بركابه ودخل المجلس معه ، فلما استقرّ المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه وهو /194ب/ منهمك في حديثه وأخباره والمعتصمُ مصغ اليه متعجّبًا مما يسمع من حسن كلامه .

وبلغ المأمون قدومُ المعتصم وأنّ معه فتًى ، لا يُعرف من هو ، فقال المأمون : قد عُرف أن هذا المجلس الذي اتّفقنا عليه لا يتحمّل أن يحضره أحدٌ من الناس إلاّ من هو يعدِل النّفس ؛ وقد أحسن أخي الذي جعل لنا ثالثًا ، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين بَطل ، لقيام أحدهما الى الصلاة أو الى ما لا بد منه . وخرج المأمون من ساعته فرحًا ليس همُّه إلاّ تصفّح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قَدْره . فلمّا استقرّ على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون ، فتمكّنَ قائمًا ، فقبّل يده وعاد الى مجلسه وأخذ في حديثه ونوادره وعجائبه وظرائف مُضحكاته وحسْن أخباره وغرائب أشعاره ، كأنه يغترف من بحر (في الاصل : يغرر بحر . والاصلاح من الدرّ 109أ) . ومع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم ، فساعة يُكنّيه وساعة يسمّيه حتى غلَب على قلب المأمون وأظهر الحسَد لأخيه في صحبته لمثل هذا الغلام .

وأمر المأمون بإحضار المائدة ، فنُصبت بأنواع الطعام والشراب ، فأكلوا وغسلوا أيديهم ، ثم انتقلوا الى مجلس الشراب ، فأمر المأمون بإحضار

الجواري من غير سِتارة ، فحَضرن وأخذن في الغناء . فما من صوت يمرّ إلاّ والفتى عارف به وبقائله وبالمعنى فيه ، ومتى قيل ، وفيمن قيل . فعلا في نفس المأمون حتى ملأ عينيه ، وتزايد حَسده لأخيه المعتصم في صحبة مثله . حتى مسّ الفتى بَوْل ، ولم يجد للمدافعة سبيل ، وهو مستيقنٌ أنهما سيذكُرانه /195/ ويتواصفان أمره وحاله إذا خلا المجلس لهما .

فما هو إلاّ أن غاب بين أيديهما ، فقال المأمون لأخيه المعتصم : يا أبا اسحاق ، من صاحبك هذا ، فوالله ما رأيتُ رجلا أكثر منه أدبًا ، ولا أنظف منه هيئة ، ولا أظرفَ من شمائله ؟ فقال المعتصم : والله ما أعرف من هو ، بل جاءنا برسالة أمير المؤمنين ! فقال المأمون : سألتك بالله يا أخي ، هل هو كذلك ؟ قال : أي ، والذي لا إله إلاّ هو ! فقال المأمون : طُفيليّ وربّ الكعبة ! وغضِب وأومأ الى الجواري بالنّهوض ، فنهضن .

وأقبل الفتى راجعًا ، فلما نظر الى خلوّ المجلس من الجواري ورأى تغيّر وجه المأمون ؛ فوقف على باب المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال : يا أبا اسحاق ، كأني بك وقد أخذتَ في نوع من الزُّور والبَهت . هذا المجلس من المجالس التي لا تتحمّل المزاح ، وما هكذا وعدتني ! ثم قال : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما بُليتُ بأحدٍ من الناس مثل ما بُليتُ به من هذا ، لأنه لا بدّ يُعرِّضني لمثل هذا وأشباهه ، ويُغري بي ويوقِعني في كَل ورطة . ثم أقبل على المعتصم وقال : يا أبا اسحاق ، سألتك بالله وبحقّ أمير المومنين إلا ما عفيْتني من مُداعبتك التي لا تُحتمل ، وتؤدّي الى مَوْحشة أمير المؤمنين في أمري !

فقال المأمون الى أخيه المعتصم : سألتك بالله يا أخي وبحياتي عليك إلاّ ما عرّفتني وأعلمتني بحقيقة أمره ! فقال المعتصم : برئتُ من الله ورسوله ومن حياتك إن كنتُ أعرفه أو رأيته قطّ /195ب/ إلاّ يومي هذا ! فقال الفتى : كذب والله ، يا أمير المؤمنين ، لقد كنت معه دهري الأطول في مِصرٍ كذا ، وبموضع كذا ويوم كذا ؛ وإنّ هذا يفعلُه فيّ أبدًا !

فاستضحك المأمون تعجبًا وقال : أُدخل ! فدخل وأمره بالجلوس ، فجلس ثم قال له : لك الأمان إن صدقتني ! فصدّقه الحديث على وجهه . فعجب المأمون من حسن مَنطقه ولُطف مدخله ودقيق تصرّفه ، وأمر بإعادة الجواري الى مجلسهم ، فطربوا سائرَ يومهم . ثم قال له المأمون : أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة الى بغداد ، واجعله نظمًا ونثرًا ولا تكتُم منه شيئًا ، فقال : نعم . وأنشأ يقول :

بينا أنا راقــدٌ في البيت مكتئبٌ مفكّرًا في أمــور اللَّوِّ واللَّيْتِ
وليس في البيت من شيء أَلُمُّ به وبي من الجوع ما يُدْني الى الموتِ
إذا بصوت بباب الدّار أسمــعه والاذن مصغية مني الى الصــوتِ
ناديتُ من ذا الذي أرجوه لي فَرَجٌ نادى أنا فــرج زنْ لي كِرَا البيتِ

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه ، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه ، ثم التفت الى الفتى وقال له : ثم ماذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكّراء ، فوعدته يرجعُ اليّ مرة أخرى ومضيْت على وجهي لا أعلم أين أتوجه ؛ فسألت كل من لقيته عن صديق لي كنت آنس به وربما استقضيت منه الحاجةَ ، فما لقيت في ذلك الطريق أحدًا يخبرني عنه فخطر عليّ بيتان من الشعر ، فأنشأت أقول :

غريبُ الدار ليس له طريق جميع سؤاله أين الطريقُ /196/
تعلّق بالسؤال لكل شخص كما يتعلّق الرجل الغريقُ

فأشرفتْ عليّ جاريةٌ ، يا أمير المؤمنين ، بوجه كأنه البدر ليلة كماله وهي تقول :

ترفّقْ يا غريبُ فكلّ حُرّ تمرّ بحاله سَعة وضـيقُ
وكلّ مُلّمة إن أنتَ فيها صبرتَ لها ، لها أنتجْ طريقُ

ورَمَتْ الى صدري بقِرْطاس ، ثم قالت : خُذْه ، فادفع به فاقتك ! فوالله ما هي إلا مؤاساة من قوت ؛ ففتحتُه فإذا فيه عشَرة دراهم فقط ، فرجعتُ من فوري فوجدتُ صاحب الخان قائمًا على الباب فدفعتُ اليه خمسة دراهم واستمتعْتُ بالباقي الى أن وقعتْ هذه القصة ، وهذا الأمر الذي كلّفني على ما فعلته . ثم أنشأ يقول :

لم آت فعلاً غير مستحسَن جهْلا بفِعْل الأحسَن الأصْلحِ
لكنني قد حالتي أوجبتْ ضرورة إتيانَ مستقبَح

فاعجب المأمون أمره وآستحسنه ، وأمر له بألف دينار يُصلح بها شأنه ، وألحقه بمراتب الخاصة ، ورُفعت منزلته عنده ، وكان أقرب الناس اليه ، وآخرَ خارج من عنده ، وأوّلَ داخل عليه . وسمّي طفيلي المعتصم .

وأنشد للمأمون بعد ذلك هذه الأبيات :

كانت لقلبي أهواءٌ مفرقةٌ فاستجمعتْ إذ رأتك العين أهواءيَ
وصار يحسُدني من كنت أحسُده وصرت مولى الورَى إذ صرتَ مولايَ
تركتُ للناس دنياهم ودينهمُ شغلا بك عن ديني ودنيايَ

فاستحسنها المأمون وأمر الفتى بإلقائها على السِّتارة . /196ب/ فكان الفتى ، إذا حضر يوم سرور لم يكن له همّ إلاّ اقتراح هذه الأبيات الى أن ينقضي المجلس .

ثم إن الفتى لـمّا حسنت حاله خرج يسأل عن الدار التي أشرفتْ عليه الجاريةُ منها . فإذا هي لرجل من أهل بغداد ، من كبار مياسيرها ؛ وكان قد مات ولم يخلّف سوى تلك الجارية ، ولم يمت حتّى تضعضع حاله . فأعلم المأمون بذلك . فأمر المأمونُ من يخطبها للفتى . فزوّجه إياها ، ودفع المهر من عنده ، وحسُنت حال الفتى وصار الى نعمة كبيرة وزال ما كان به من الفاقة . انتهى .

لطيفة تُزهر ومُنيفة تُذْكر

ذُكر في شرح قصيدة ابن عبدون ، أن أبا اسحاق بن ميمون الموصليّ قال : قال لي المأمون يومًا : هذا يوم سرور ! ثم التفت للغلمان وقال : خذوا علينا الباب ! وأُحضِر الشراب ، فبقينا بقية يومنا في أُنس وشُرْب الى الليل . فقال المأمون : يا أبا اسحاق ، إني أريد الصَّبوح ، فكن بمكانك حتى أدخل الى الحَرَم وأخرُجَ اليك .

فلمّا استبطأت خروجه قلت اشتغَلَ وغَلَب عليه النبيذ ونسيَني . وكانت عندي صبية بِكْر ، كنت اشتريتُها ، فتطلّعتْ لها نفسي . فخرجْتُ . فقال لي العبيد : قد آنصرفَ عبْدُك بدابتك ! فتمشيّتُ على رجليّ ، فلمّا صرت ببعض الطريق أحسستُ بالبوْل ، فعدِلْتُ عن الطريق وقضيتُ أربي ، وأردت أن أتمسّح ببعض الحيطان ، فإذا بشيء معلَّق من حائط ، وإذا بزنبيل كبير معلّق قد لبس بالديباج وفيه أربع حبال إبْرَيْسَم . فقلت إنّ له أمرًا وتجاسرتُ فجلستُ فيه .

فلمّا أحسَّ بثِقله جُذب . وإذا بأربعة /197/ يقلن : بالرّحب والسَّعة ، أصَديقٌ أم جديدٌ ؟ قلت : جديد ! فسارت إحداهنّ بين يدي حتى أدخلتني الى مجلس لم أر مثله . فجلست في أدنى مجالسة ، وإذا بوصائف بأيديهن الشّمع والمجامِر يَسْجُر فيها العود والندُّ وبينهن جاريةٌ كالبدر الطالع ذات دَلّ وشكل . فنهضتُ لدخولها ، فقالت مرحبًا بالضيف ! ثم رفعتْني وقالت : ما السَّبب في قدومك الينا ؟ قلت : إنصرفتُ من عند بعض الأصحاب ، فلما رأيت ذلك الزّنبيل حمَلني النّبيذ على الدّخول فيه . قالت : فما صناعتك ؟ قلت : بزّاز . قالت : ومولدك ؟ قلت : في بغداد . قالت : من فقراء الناس أنت ؟ قلت : من أوسعهم . قالت : حيّاك الله ، هل رويتَ من الأشعار شيئا ؟ قلت : شيئا ضعيفًا. قالت : فذاكرْني ! قلت : إن للدّاخل دهشة ؛ ولكنْ أبدئي فالشيء

بالمذاكرة . قالت : لعمري هل تحفظ قصيدة فلان التي يقول فيها كذا وكذا . ثم أنشدتني لجماعة من الشعراء القدماء والمحدَثين ، وأنا مستمع أنظر من أي أحوالها أعجبُ ، أمن حُسنها أم من حسن إنشادها ، أو حُسن أدبها ، أو من ضبطها للغريب من النحو واللغة .

وأنا على ذلك ، إذْ قالت : ذهب عنك بعض الحَصْر ؟! قلت : إن شاء الله ، لقد كان ذلك . قالت : فأنشدْني ! فأنشدتُها . فجعلت تسألني عن أشياء ، وهي تمرّ في الشّعر كالمختبِرة ، ثم قالت : والله ما قصّرتُ ولا توهّمت فيك هذا ، ولا رأيتُ في أبناء التجّار مثلك ، فكيف معرفتُك بالأخبار وأيام الناس ؟ قلت : نظرتُ في شيء من ذلك .

ثم أمرتْ فأُحضر الطعام وأكلنا ، ثم أحضرت النبيذ فشربتْ قدحًا وقالت : هذا /197ب/ أوان المذاكرة ، فاّندفعتُ أحدّثها وقلت : بلغني كذا وكذا ، وكان رجل من قصّته كذا وكذا . فسُرّت بذلك وقالت : ليس هذا من أمر التجّار ، وإنما هي من أحاديث الملوك ! قلت : كان لي جار ينادم بعض الملك ، وكنت أدعوه في بعض الأوقات الى منزلي فيحدّثني ما يستمعه ، فمن عنده أخذته . قالت : يمكن هذا . ثم قالت : لو كان عندك شيء واحد لكنتَ كاملا ! قلت : ما هو ؟ قالت : تُحرّك بعض الملاهي أو تترنم ؟ قلت : لا أُحسِنُ من هذا شيئا ، على أني مُولع بسماعه ! قالت : عودًا يا جارية ! فأُحضر وغنّت غناء بديعًا ثم قالت : هذا الغناء لإسحاق ، وقد كنت كتمتُ لها نفسي ، فلم تزل على ذلك حتى إذا كان عند الفجر قالت : المجالس بالامانات ! ثم انصرفتْ. وأُخِذت فأُخرجتُ الى باب صغير فاّنتهيت الى داري .

فأرسل المأمون يطلبُني . فذهبت الى عنده وبقيت الى وقت البارحة . ودخل المأمون الى حرمه ، فخرجتُ الى ذلك الموضع ودخلت في الزنبيل فقالت : ضيفُنا ؟ فقلت : وما أظنّ أني ثقُلت ؟ قالت : مادح نفسه يقريك السّلام ! قلت: هفوة ، فمُنّي بالصّفح ! قالت : فَعلنا ، ولا تعُد . فلما كان الصباح

صنعتْ صنيعها البارحة ، وأُخرِجت فذهبتُ الى المأمون فقال : أين كنت ؟ فاعتذرت اليه . فلما كان عند الليل صنعتُ كالبارحة ، ودخلت الزنبيل ووصلت اليها فقالت ضيفنا ؟ قلت : أي والله ! قالت : أجعلتها دار مقام ؟ قلت : الضيافة ثلاث ، فإنْ رجعتُ فأنتِ من دمي في حِلّ ! قالت : وهذا !

ثم إني فكّرت في المأمون في ذلك الوقت وعلِمتُ أنه لا يخلّصني الاّ أنّي أخبره بالخبر ، ومما نعلم من /198/ شغفه بالنساء أنه يطالبني بالمشي اليها . فقلت لها : جُعلت فداك ، أتأذنين في ذِكْر شيء خَطَر ؟ قالت : قل ! قلت : أرك ممن تحبّ الأدب والغناء ، ولي ابن عمّ هو من أهل الحسن والأدب والغناء ، وهو أعرف خلق الله بغناء اسحاق ، الذي سمعتُك تُثْني عليه . وكانت إذا غنّت تقول هذا غناء اسحاق . فقالت : طفيليّ ويقترح ! قلت : إنما ذكَرْتُ ذلك لك وأنت المحكّمة ، قالت : فإن كان كما ذكرتَ فلا بأس ! قلت : فالليلةَ ؟ قالت: نعم .

ثم انصرفت على عادتي فما وصلت داري حتى أتاني رسول المأمون فذهبت اليه ، وهو حَنِقٌ عليّ فقال : يا اسحاق ، آمُرُك بشيء ثم لا تقف عنده ! وكان لا يدخل الى حرَمه حتى يأمرني بانتظاره ، فأتذكّر مجالسةَ تلك الجارية وأنسى عقوبتَه . فقلت له : لي قصّة أحتاج الى خُلوة . فأومأ الى من كان واقفًا ، فتنحّوْا. فقلت : كان من خبري كيت وكيت . فلما فرَغت من كلامي قال : أتدري ما تقول ؟ قلت : نعم . قال : كيف لي بمشاهدة ذلك الموضع ؟ قلت : قد علمتُ أنك تطالبني بهذا ، وقد قلت لها لي ابن عم مِن صفته ومن حديثه فوعدتْني .

ثم جلسنا نشرب على عادتنا ، وهو يسألني عن حديثها ؛ فلما جاء الليل أخذنا في الذهاب . فقلت له : دعْني من نخوة الملك والخلافة ، وكنْ كأنك تَبَعٌ لي ! قال : نعم . وسرنا الى الموضع فألفينا زنبيلين ، فدخل في واحد ودخلت في الآخر وجذبنا ، فصِرنا في البيت . فجلست في صدره وجلس المأمون تحتى ،

وإذا هي أقبلت فقالت : حيّى الله ضيفَنا بالسلام . ثم رفعتْ مجلسَه وقالت لي : هذا ضيفٌ وأنت من أهل البيت ، ولكل جديد لذّة ! وأقعدتْه في صدر /198ب/ المجلس ، وأقبلت عليه تحدّثه وهو يأخذ معها في كل فنّ فيُسْكتُها ويفحمها فالتفتت إليّ وقالت : وفيتَ بوعدك .

ثم أحضرتْ النبيذَ وجعلنا نشرُب وهي مقبلة عليه ، ثم قالت لي : وأين عمّك هذا من أبناء التجّار ! قلت : نعم . قالت : إنكما لغريبان في أبناء التجار ، إنّ حديثكما وأدبكما لمن حديث أبناء الملوك ، وليس للتجّار هذه المنزلة في الأحاديث والأدب ثم قالت لي : فوعْدُك ؟ قلت : لعمري ، إنّه يجب ؛ ولكن حتى نسمع شيئا ! قالت : ولك ذلك . ثم أخذت العود وغنّت ، فشرِبنا عليه رطلا ثم ثانيًا ثم ثالثًا ، فلمّا شرب المأمون ثلاثة أرطال ارتاح وطرِب . وكان الصوت الثالث مما يقترحه عليّ أبدًا ، فلمّا سمعه وقد داخله السُّكرُ نظر اليّ نظر الأسد الى الفريسة وقال : يا اسحاق ، غَنّ هذا الصوت !

فلما رأتني قد أخذتُ العود ووقفت بين يديه أُغنّيه علمتْ أني اسحاق وإنه المأمون ، فنهضتْ ، فقال لها : ههنا ! وأومأ الى كِلَّة مضروبة ، فدخلتْها . فلمّا فرَغْتُ من ذلك الصوت قال : يا اسحاق ، أُنظر من صاحب هذا الدار ؟ فقلت لعجوز : من صاحب هذا المنزل ؟ قالت : الحسن بن سهل . قلت : ومن هذه ؟ قالت : ابنته بُوران . فأعلمته فالتفت اليها وقال لها : افتحي لنا الباب ، فإني أخطُبُكِ من أبيك في هذه الساعة !

ونهضنا وخرجنا من بعض البيبان الصّغار . ثم أتينا باب الحسن بن سهل ، فعلِم بنا وخرج مسرعًا فقبّل يده وقال : أفي مثل هذا الوقت ، يا أمير المؤمنين ؟! فقال له : أَلك بنت ؟ قال : نعم ! قال : زوِّجْنيها ! قال : هي أمَتك وأمْرُها اليك . قال : فإني تزوّجتها على ثلاثين /199/ ألف دينار ، نحملها لك صبيحة غد ؛ فإذا نفَذَ اليك المال فاحمِلْها الينا ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين .

ثم سرنا فقال لي : يا اسحاق لا يقفَنّ أحدٌ على ما وقفتَ عليه ، فإنّ المجالس

بالامانات . فقلت : ومثلي يا أمير المؤمنين يحتاج الى وصية بهذا ؟!

وأصبح المأمون . فأمر بحمل المال . ونُقِلتْ اليه من يومها ، وأنفق أبوها في عُرْسها مالا عظيمًا . قال اسحاق : فما فُهت بالخبر إلاّ بعد موت المأمون ، عفا الله عنه . انتهى .

وهذا سبب تزوّجه ببوران . والأصح خلافُ ذلك ، فقد ذكر اليافعي أنه تزوّجها لمكان أبيها عنده وجبرًا لخاطره بعد الفتك بأخيه الفضل .

ذكر ابن خلكان ، أنه عقد عليها في سنة اثنتين ومائتين ، ودخل بها في شعبان سنة عشر ومائتين بفَم الصُّلْح ، وهي بلدة على الدّجلة قريبة من واسط . قال واحتفل أبوها بأمرها ، وعمِل من الولائم والأفراح ما لم يُعهد مثله في عصر من الأعصار . وانتهى أمره الى أن نثَر على الهاشميين والقوّاد والوجوه والكتاب بنادق المسْك ، فيها رقاعٌ بأسماء ضياع وأسماءِ جوار ووصائف ودواب وغير ذلك . فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرّجل فتحها ليقرأ ما في الرقعة فإذا علم ما فيها ، مضى الى الوكيل المُرْصَد لذلك ، فيدفع له ما في رقعته ويتسلم ما فيها ، أيّ نوع كان في الرقعة . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ، ونوافِج المسك ، وبيض العنبر .

وكانت جميع النفقة على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأبناء عمّه من عند /199ب/ الحسن بن سهل . وكان مع المأمون خلْقًا لا يُحصوْن ، فصرَف علي جميعهم ، حتى الحمّالين والمُكَارية والملاحين وكل من ضمّه عسكر المأمون ، فلم يكن في العسكر من يشتري شيئا لنفسه قلّ أو جَلّ .

وذكر الطبري ، أنّ المأمون أقام عند الحسن بن سهل تسعة عشر يومًا ، يُعِدّ في كل يوم له ولجميع من معه ما يحتاج اليه . وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم . وأمر المأمون له عند منصرَفه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فَم الصُّلح . فجلس الحسن وفرّق المال على قواده وأصحابه ، وكان قد فَرَش للمأمون

حصيرًا منسوجًا بالذهب . فوقف عليه المأمون ونُثرت على أقدامه لآلِىءُ كثيرة ، فلمّا رأى المأمون تساقط اللآلىء المختلفة على الحصير المنسوج بالذهب قال : قاتل الله أبا نواس ، كأنه شاهدَ هذه الحال ، حيث قال في وصف الخمر :

كأنّ صُغْرى وكُبْرى من فواقعها حصباءُ دُرّ على أرض من الذّهبِ

وأطلق المأمون الى الحسن خراج فارسَ وكورَ الأهواز مدة سنة ؛ وقالت الخطباء والشعراء في ذلك وأطنبوا .

ومما يستحسن من ذلك قول محمّد بن حازم الباهلي :

بارك الله للحسَنْ ولبوران في الخَتَنْ
يا ابنَ هارون ولَـ ـكنّها بُنيّـــة مَنْ

ونمَى البيتُ ، فبلغ المأمون فقال : والله لا ندرى خيرًا أراد هذا أم شرًا ؟ وكان المأمون حين طلب الدخول بها دافعوه /200/ لعُذْر بها ، فلم يندفع وزُفّت اليه فوجد بها الحَيْض فتركها . فلما قعَد للنّاس من الغد دخل عليه أحمد بن يوسف الكاتب وقال : هنّاك الله يا أمير المؤمنين بما أجدتَ من الأمر ، باليُمن والبركة ، وشدة الحركة ، والظفر بالمعركة ! فأنشد المأمون :

فارسٌ مـاض بحِرْبـته صادقٌ بالطّعْن في الظُّلمْ
رامَ أن يـرمي فريستَه فأتّقَـتْه من دَمٍ بــدمْ

فعرّض بحيضها . وهو من أحسن الكنايات .

قال ابن خلكان وبقيت بوران مع المأمون ، الى أن توفي وهي في صحبته ، وعاشت بعده زمانًا الى أن توفيت يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين . وكانت وفاتها ببغداد . ويقال إنها دُفنت بقبّة مقابلة مقصورة جامع السّلطان ، وأنها باقية الى الآن ، ويقال إن اسمها خديجة والأصح بوران . انتهى .

فطنة ذكية ونباهة زكية

ذكر الامام أبو الفرج ابن الجوْزي في الأذكياء ، أن المأمون غضب على عبد الله بن طاهر وشاور أصحابه في الإيقاع به . وكان قد حضر ذلك المجلس صديق له فكتب له كتابًا فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، يا موسى» وختم الكتاب وبعث به الى عبد الله بن طاهر . فلمّا فضّه وجد ذلك فعجب ولم يفهمه. وبقي ينظر اليه وأطال النّظر وهو يتصفّح معناه ، ولم يحصل منه على طائل ؛ وكانت جارية له واقفة على رأسه فقالت : يا سيّدي ، إني أفهم معنى هذا . فقال : وما هو ؟ قالت : إنه أراد /200ب/ قوله تعالى : «يا موسى إنّ الملأ يأتمرُون بك ليقتلوك» . وكان قد عزم على الحضور الى المأمون ، فثنَى العزم عن ذلك واعتذر للمأمون في عدم الحضور ، فكان سببَ سلامته .

ومن هذا ما حكاه ابن خلكان ، من أنّ بعض الملوك غضب على بعض عمّاله ، فأمر وزيره أن يكتب اليه كتابًا يُشْخِصه به . وكان للوزير عناية بالعامل ، فكتب اليه كتابًا وكتب في آخره : «إنّ شاء الله» وجعل في صدر النون شدة ؛ فعجب العامل كيف وقعت هذه الشدة ، مع أن من عادة الكتّاب لا يُشْكِلون كتبَهم ! فتفكّر في ذلك فظهر له أنه أراد : «إنّ الملأ يأتمرُون بك ليَقْتلوك» . فكشط الشدة وجعل مكانها ألفًا وختم الكتاب وأعاده . فلمّا وقف عليه الوزير سُرّ بذلك وفهم أنّه أراد : «إنّا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها» . انتهى .

نباهة جليّة وقينة بهيّة

قال أحمد بن طاهر : اِصطبح المأمون يومًا وعنده ندماؤه وفيهم محمد بن حامد وجماعة المغنين وعَرِيب معه على مصلاّه ، فأومأ محمّد بن حامد اليها بقُبلة ، فأندفعت تغنّي ابتداء :

رمَى ضَرْع نابٍ فَاستمرّ بطعنة   كحاشية البُرْد اليمانيِّ الـمُسَهّمِ

فتنبّه المأمون وقال لها : اَمسكي ! فأمسكت . ثم أقبل على الندماء وقال : أيّكم أوْمَأ الى عريب بقبلة ، والله لئن لم يصدُقْني لأضربَنّ عنقه ! فقام محمّد فقال : يا أمير المؤمنين ، أومأت اليها . والعفو أقرب للتقوى ! فقال : قد عفوت عنك . فقال محمد : بماذا اَستدلّ أمير المؤمنين ؟ فقال : إنها ابتدأت صوتًا وهي لا تغنّي ابتداء إلاّ /201/ لمعنى ، فعلمتُ أنها ما ابتدأت بهذا الصوت الا لشيء أومِيء اليها به ، ولم يكن من شرط هذا الموضع إيماءٌ الاّ بقُبْلة ، فعلمتُ أنها أجابت بطعنة .

وكانت عريب تعشق محمّد بن حامد وتحبّه في خفاء ، فكتبت اليه يومًا تطلبُه ، فردّ اليها : «إني أخاف على نفسي» . فكتبت اليه :

إذا كنتَ تحذر ما تحـذَرُ   وتزعُمُ أنّـك لا تجسُرُ
فما لي أُقيم على صَبْوتي   ويوم لقائك لا يُقْـدَرُ
تبيّنتَ عذري فما تُعْـذَر   وأبليتَ جسمي ولا تشعرُ
أَلِفتُ السرورَ وخلّفْتني   ودمعي من العين لا يفتُرُ

فصار اليها من وقته وأقام عندها يومَه .

قال ابن المعتز : ولـمّا كانت عَريب في دار المأمون ، احتالت حتى أوصلتْ اليها محمّد بن حامد ، وكانت تعشقه فحبَلت منه ، وولدت بنتًا . فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها .

وقال بعضهم : لـمّا وقف المأمون على خبر عريب مع ابن حامد أمر بإلباسها جبّة صوف ، وحبَسَها في كنيف مظلم ، لا ترى فيه ضوءًا ، وأن تُطعَم خبزًا ومِلحًا يدخل اليها من تحت الباب . ثم إنه ذكرها بعد مدّة ، فرقّ لها وأمر بإخراجها . فلمّا فُتح الباب عنها وأُخرجتْ فلم تتكلّم بكلمة حتى اندفعت تغنّي بقولها :

حَجَبوه عن بصري فمَثَّل شخْصَهُ في القلب فهو محجَّبٌ متقرِّبُ

فبلغ المأمون ذلك ، فعجب منها وقال : لن تُفلح هذه أبدًا .

ووقعت بينهما مُلاحاة ، فتغاضبا ، وكان يجد بها كما تجد به ، فلقيتْه يومًا فقالت له : كيف قلبك يا محمّد ؟ قال : أشقى /201ب/ والله مما كان وأقْرحه . فقالت : إستَبْدِلْ تَسْلُ ! فقال : لوكانت البلوى باختيار لفعلت . فقالت : لقد طال إذًا تعبُك ! فقال : وما يكون الصّبر مكرَهًا ، أما سمعت قول العباس بن الأحنف :

تَعَبٌ يطول مع الرّجاء لذي الهوَى خيرٌ له من راحــة في الْياسِ
لولا كرامتكمْ لما عاتبتكم ولكُنْتمُ عندي كبعض النّـاسِ

فذرّفت عيناها ، واعتذرت اليه وتصالحا وعادا الى ما كانا عليه .

قال بعضهم ، جاءها يومًا فجلس يعاتبها فقالت له : خذ لما نحن فيه وما جئنا له ، واجعلْ سراويلي مِخْنقتي ، وألصق خلخالي بقُرْطي ، وكاتبْني غدًا بعتابك حتى أكتبَ اليك بعذري ، ودعْ هذا الفضول ! فقد قال الشاعر :

دعِي عَدّ الذّنوبِ إذا التقينا تعالَيْ لا نَعُدُّ ولا تـعُدّي
فأقسِم لو همَمْتِ بمدّ شَعْري الى نار الجحيم لقلت مُدّي

قال ابن المرزبان حدّثني ابن حمدون ، قال : كنت مع المأمون ببلاد الروم ، فدعاني بعد العَشاء في ليلة ظلماء ذاتِ رعود وبُروق ، فقال لي : إركب الساعةَ فرس النّوبة ، وسرْ الى أبي اسحاق – يعني المعتصم – وأدِّ اليه رسالتي !

قال : فركبتُ وسرت . فلم يثبُتْ الشّمع بين يديَّ من شدّة الهواء ، فسمعتُ وقع حافرِ دابة ، فنَصِتُّ اليه ورهِبْته . فلمّا قرُب منّي برَقتْ بَرْقةٌ أضاء لها وجْهُ الرّاكب . فإذا عَريب . فقلت لها : من أين أقبلت في /202/ هذا الوقت ؟ قالت : من عند محمّد بن حامد ، وقد خرجتُ من مَضرب الخليفة ،

وأنا راجعة اليه . فقلت : وما صنعتِ عنده ؟ قالت : أي مسكين ، عريب تجيء في مثل هذا من عند ابن حامد ، وقد خرجت من مضرب الخليفة تقول لها «أيّ شيء عملت عنده» ، يكون قد صليت معه التراويح ، أو قرأت عليه جزءاً من القرآن ، أو درسًا من الفقه ؟! أيْ أحمق ، لعِبنا وتحادثنا وتعاتبنا وأكلنا وشربنا وغنينا وتنايكنا وانصرفنا .

فأخجلني والله قولها ، وغاضني . فمضيتُ وأدّيت الرسالة وعدت الى المأمون ، وأخذنا في الحديث وتناشدنا الاشعار فهمَمْتُ أن أحدّثه بحديثها ، ثم هِبْتُه فقلت : أقدّم قبل ذلك تعريضًا بشيء من الشّعر فأنشدته :

ألاَ حيٍّ أطلالاً لقاطعةِ الحَبْل   ألُوفٍ تُساوي صالحَ القول بالرَّذْلِ
فلو أنّ من أمْسى بجانب تَلْعة   الى جَبَليْ طَيّ فساقِطة الحَبلِ
جلوسٌ الى أن يَقْصُر الطلُّ عندها   لراحوا وكلّ القوم منها على وصْلِ

فقال المأمون : أخفض صوتك لا تسمع عريب فتغضب ، وتظن أننا في حديثها ! فأمسكت عمّا أردتُ أن أخبره ، وخار الله لي في ذلك .

وقال ابراهيم بن أبي العَنْبس : دخلت أنا وجماعة على عريب ، مُسلّمين عليها . فقالت : أقيموا اليوم عندي حتى أُطعمكم لَوْزَنيجَة بِدْعة ، صنعتُها بيدي من لوْز رطب ، وأغنّيكم ! فقلت لها : على شريطة ! قالت : وما هي ؟ قلت : أريد أن أسألك عن شيء وأنا أهابُك ! قالت : ذلك اليك ، وأنا أجيبك قبل أن تسأل ، وقد علمتُ ما هو . فتعجبّتُ منها /202ب/ وقلت : قولي ! فقالت : تريد أن تسألني عن شَرْطي أيّ شيء هو . فقلت : والله ذلك الذي أردت . فقالت : شرطي ، أيْرٌ صُلْب ونُكهة طيبة ، فإن انضاف الى ذلك حُسْن وجمال ، زاد قدْرُه عندي ، والا فهذان لا بدّ لي منهما !

قال أبو الحسن بن الفرات : كنت يومًا عند أخي العباس وعنده عَريب . فجرى ذكرُ الخلفاء ، فقالت : ناكني منهم ثمانية ما اشتهيت منهم أحدًا إلاّ

المعتزّ ! فقلت لبعض بني أخي سرّا : أترى كيف تكون شهْوَتُها اليوم ؟! فضحك . فقالت : أيّ شيء قلتم ؟ فقلت : شيء ليس في معنى ما قلتِ . فقالت : جواريّ حرائرُ ، لئن لم تخبراني ما قلتُما لأنصرفنّ ، ولئن أخبرتماني لا أجرّد كائنا ما كان . فصدَقْتها . فقالت : وأي شيء في هذا ، أمّا الشهوة باقيةٌ بحالها ، ولكن الآلة قد ضعُفتْ ؛ عودوا الى ما كنّا فيه !

وكانت عَريب قد عمّرت وأدركت جماعة من الخلفاء ، وأخبارها كثيرة (نقل أكثرها أبو الفرج الاصفهاني في الاغاني وفي كتاب له بعنوان «تحف القلائد بأخبار الولائد ، ووضع عبد الله بن المعتزّ فيها ديوانا) . يقال إنها كانت من بني البرامكة ، وكانت مغنية حسنة شاعرة ، مليحة الوجه والخطّ ، جميلة في غاية الحسن ، ظريفة حسنة الصوت ، جيّدة الضرب ، خفيفة الروح ، سريعة الجواب ، تلعَبُ بالنّرْد والشّطرنج ، وتروي الشعر . وقد اجتمع فيها خصال لم تجتمع في غيرها . وكانت إذا قُدّم اليها الفرس لتركبه تَطْفَر الى ظهره بغير ركاب .

قال ابن المعتز : سمعت عن اسماعيل بن الحسين ، خال المعتصم ، أنه قال : إنها بنت جعفر بن يحيى ، وأنّ البرامكة لـمّا آنتُهِبوا سُرقتْ وهي صغيرة وبيعتّ .

وقال محمّد بن عبد الواحد : حدّثني من أثق به ، أنّ أم عريب اسمُها فاطمة ، وكانت يتيمة لأم عبد الله بن /203/ يحيى بن خالد . وكانت صبيّة نظيفة ، فرآها جعفر فهوَى بها ، وسأل أمّ عبد الله أن تزوّجه إياها ففعلت . فبلغ الحسين بن يحيى بن خالد ذلك فأنكره ، وقال له : أتتزوّج من لا يُعرف لها أمّ ولا أب ، إشْترِ مكانها ألف جارية وأخرِجْها ! فأخرجها وأسكنها دارًا في ناحية باب الأنبار ، سرّا من أبيه ، ووكّل بها من يحفظها ، وكان يتردّد اليها . فولدت له عريب في سنة إحدى وثمانين ومائة . وماتت أمّها ، فدفعها الى امرأة نصرانية ، وجعلها داية لها . فلمّا حدثتْ بالبرامكة الحادثة باعتْها ، فآشتراها المَراكبيّ .

قال الفضل بن مروان : كنت إذا نظرت الى قدميْ عَريب شبّهتها بقَدَم جعفر بن يحيى .

وقال بعضهم : إنها كانت لعبد الله بن اسماعيل ، صاحب مراكب الرشيد ، وهو ربّاها وعلّمها الغناء .

وقال ابن المعتزّ : إنها كانت لرجل خرج بها الى البصرة وأدبّها وعلّمها الخطّ والنحو والغناء . وكان له صديق يقال له حاتم بن عديّ ، من قواد خراسان ، فكاتبها وأراها محبّة فعشِقَته ، ودامت المواصلة بينهما . فاحتالت وعمِلت سُلّمًا وتسوّرت الحائط ليلا ، وهرَبت ومضت اليه . فمكثت عنده مدة ومولاها يطلُبها فلا يقف لها على خبر ، ولا يتوهّم أنّها عند صاحبه ، ثِقَةً ، ولا يتّهمه بشيء من أمرها ؛ فعَرَّف عيسى بنَ عبد الله المراكبيّ بخبرها ، فقال أبياتًا طويلة منها :

قاتَل اللهُ عَـــريبًا فعلت فعلا عجـــيبًا
ركبتْ والليـلُ داجٍ مركبًا صعبًا مهيـبًا /203ب/
فلقد أصبح عبدُ الــ ـلّه كَشْخانًا رقِيــبًا
قد لعمري لطَمَ الخَـ ـدّ وقد شَقّ الجيُـوبًا
وجرت منه دمـوعٌ بَلّت الذّقْنَ الخضِـيبًا

ثم إنها ملّته ، فهربَت من عنده ، فكانت تغنّي عند قوم من أهل بغداد مستترة . فأجتاز ابنُ أخ للمراكبي يومًا فسمع صوتها فعرّفه ، فبعث الى عمّه فجاء وكبَس الدار وأخذها وضربها . ثم ندِم على ضربها ، فقبّل رأسها ويديها ورجليْها ، ووهَب لها عشَرة آلاف درهم .

كان للمراكبي جاريةٌ يقال لها مظلومة . وكانت جميلة الوجه ، بارعة الحُسن ، وكان يبعث بها مع عَريب الى الحمّام والى من تزوره من أهله ومعارفه ؛ وكانت ربّما دخلت معها الى محمّد بن حامد الذي كانت تهواه ، فقال فيها

بعض الشعراء وقد رآها عنده :

لقد ظلموكِ يا مظلومَ لمّا أقاموك الرّقيبَ على عَريبِ
ولو أوْلوك إنصافًا وعدلا لما أخلَوْكِ أنت من الرّقيبِ
أتَنْهين المُريب عن المعاصي فكيف وأنت من شان المريبِ

وقد أنشد عليّ بن سليمان الأخفش مثل هذا في قيْنة مغنية :

فديتك لو أنهم أنصفوا لما منعوا العين عن ناظريْكِ
وقد بعثوك رقيبًا لنا فمن ذا يكون رقيبًا عليكِ
تصُدِّين أعيننا عن سواك وهل تنظر العين إلاّ اليكِ

وكان الأمين قد بلغه خبرها ، فطلبها من المراكبي في حياة أبيه . فلم يجبه الى ذلك . فلمّا وليَ الخلافة أخذه وأمر بضرْب عنقه . فسئل في أمره ، فطالبه بخمسمائة ألف درهم وأخْذ /204/ عَريب منه ، وأطلقه . فلمّا قُتل الأمين هرَبت عَريب الى المراكبي ، فكانت عنده .

وذكر جَحْظة ، أنّ المأمون اشترى عَريب بخمسين ألف درهم . وقال لعبد الله بن اسماعيل : لو لا أنّي حلفت لا اشتري مملوكًا بأكثر من هذا لرددتك ، ولكني سأولّيك عملا تكسب منه أضعاف هذا الثمن ! ثم أعطاه خاتمين من ياقوت أحمر ، قيمتُهما ألف دينار وخلع عليه . فقال له : يا سيدي إنما ينتفع بهذا الأحياء ، وأمّا أنا فميّت لا محالة ، لأنّ هذه الجارية حياتي . وخرج عن حضرته فاختلط وتغيّر عقله ومات بعد أربعين يومًا .

ذكر ابن المعتز أنّ المأمون اشتراها بمائة ألف درهم ، وأمر بحملها الى اسحاق ، وأمر له بمائة ألف درهم . فلمّا رفع الكاتب حسابَه الى المأمون وجد فيه ثمن جوهرة مائة ألف درهم والى صانعها ودلاّلها مائة ألف درهم ، فأنكر المأمون ذلك وأحضر الكاتب وسأله فقال : هذا ثمن عَريب وصلة اسحاق ،

فأيّما أصوب يا أمير المؤمنين ما فعلت أوْ كنتُ أذكُرُ ثمنَ مغنيّة وصِلةَ مُغنّ ؟!
فضحك واستحسن فِعْله وقال له : الذي فعلتَ أصوب ! انتهى .

قال في بستان الأدب : إنّ عَريب كانت من جواري المأمون ، وكان يحبّها فأنشدها مداعبًا :

أنا المأمون والملكُ الـهُمام على أني بحبّك مُسْتهـــامُ
أترْضيْ أن أموتَ عليك وجْدًا ويبقى النّاس ليس لهم إمامُ

فقالت له : يا أمير المؤمنين ، والدك الرشيد كان أعشقَ منك ، حيث يقول :

مَلَكَ الثلاثُ الآنسات عِناني وحَلَلْن من قلبي أعزّ مكان /204ب /
ما لي تُطاوعني البرية كلّها وأُطيعهنّ وهُنّ في عِصْياني
ما ذاك الاّ سلطانُ الهــوَى وبه قوين أعزّ من سلـطاني

وذلك أنّ والدك ، أمير المؤمنين ، قدّم ذكر جواريه على نفسه في شعره ، وأنت قدّمت ذكر نفسك على من زعمت أنّك تهواه ! فقال لها : صدقتِ ، إلاّ أني منفرد بحبّك ، وحبُّ الرشيد ثلاثَ جوار ، وشتّان بين مرتبتيْ الـحُبّين ! فقالت : أعرفهنّ الواحدة هي فلانة ، وكانت المقصودة وأما الأخرتان فإنّهما محبوبتان لها ؛ فأحبّهما لأجلها وقرّبهما من قلبه بسببها ، كما قال خالد بن يزيد بن معاوية في رَمْلة :

أُحِبّ بني العوّام من أجل حبّها ومن أجلها أحبَبْتُ أخوالَها كلْبًا

وقال آخر في مثل هذا :

أحبُّ لحبّها السّودان حتى أحبّ لحبّها سودَ الكلابِ

فهل أنه أحبّ القبيلتين من أجل محبوبتيهما وعشقا هذين الوصيفتين تقربًّا الى معشوقتيهما . وهذا المخرج لعُذر أمير المؤمنين الرشيد ، فما المخرج لعُذر

أمير المؤمنين المأمون ؟ فاستحيى منها ، وعظُم وجده بها ، لما رأى من فضلها وحسن أدبها وخطابها . انتهى .

وقال ابن المرزبان : غضب المأمون على عَريب ، وهجرها أيّامًا ، ثم إنها اعتلّت فعادها وقال لها : كيف وجدتِ طعم الهجْر ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين لو لا مرارة الهجر لما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذمّ بدْء الغضب أحمَدَ عاقبة الرضى ، وأنشدتْ تقول :

لم آت عامدةً ذنبًا اليك بَلَى أُقِرّ بالذنب فاعفُ اليوم عن زَلَلي
فالصّفْح من سيّد أوْلى بمعتذر وقاك ربُّك يومَ الخوف والوَجَل

قال ابن المعتزّ : حدثني ابن المدبر ، قال : خرجت مع المأمون الى الرّوم . فبينما نحن نسير ذات يوم رأيت الحَرَم ومعه جماعة من الخَدَم ، فقال لي بعض أصحابنا : هذه عَريب على بعض الجمّازات . فقلت : من يراهِنُني على أنّي أمُرّ اليهم وأنشدْتُ أبياتَ عيسى بن عبد الله المَراكبي فيها ؟! فقال بعضهم : أنا . فسرْت الى جانبها وأنشدتُ : قاتل الله عَريبًا فعلت فعلاً عجيبًا ، الأبيات المتقدّمة . فأخرجتْ رأسها من السُّجُف وقالت : يا فتًى ، أنسيتَ أجود الأبيات وأطيبَها ، وهو قوله :

وعَريبُ رَطْبَةُ الشَّفْرَيْـنِ قدْ نيكـتْ ضُروبـا

إذْهب ، وخذ الرّهْن ! فبادرْتُ الى أصحابي خوفًا من الخدم ، وأخذتُ الرّهن .

وقال اليزيدي : خرجت مع المأمون في خرجته الى الرّوم ، فرأيت في ليلة ذات غيْم وبرق عَريب في هوْدج . فقالت : ابراهيم بن اليزيدي ! قلت : لبيك ! فقالت : قل في هذا البرق أبياتًا مِلاحًا لأغنيها ، فقلت :

ماذا تقلّن من ألَم الخفْق إذا رأيتُ لمعان البـرقِ

من الأردنّ أو من دمشق لأنّ من أهوى بذاك الافقِ
فارقته وهو أعزّ الخَلْق ذاك الذي يملك منّي رقّي
ولست أنعَى ما حييت عِتْقِي

قال : فتنفّستْ نفَسًا ظننته قد قطع حَرازَتَها ؛ فقلت : ويْحك ، /205ب/ على من هذا ، فوالله هذا نفَس عاشق ؟ فقالت : لا والله وإنما هو على الوطن ! فقلت : ليس هذا كلّه على الوطن ! فقالت : أتُرَاكَ أنّي أَعْشَقُ أُحدًا ، والله لقد نظرتُ نظرة مُريبة في مجلس فأدعاها أكثرُ من عشرين رئيسًا ، والله ما علِم أحد منهم لمن كانت ، الى هذه الساعة . انتهى .

قال حماد بن اسحاق : ذكرتُ عَريب يومًا وما آجتمع فيها من الخصال ليحيى بن أكثم القاضي ، فقال : صدقتَ هي كذلك ! قلت له : أفسمعتَها ؟ قال : نعم هناك . يعني دار المأمون ، قلت : أفكانت كما وُصفت ؟ فقال : هذه مسألة جوابُها على أبيك ، فهو أعلم بهذا منّي . فأخبرتُ أبي بذلك ، فضحك وقال : أمَا استَحيْت من قاضي القضاة أن تسأله على مثل هذا . انتهى .

وقال بعضهم ، دخل الهاشميّ على المعتز وهو يشرب ، وعَريب تغنّيه ، فقال له : يا ابن هاشم ! فقال : قد تُبت من الغناء منذ قُتل سيدي المتوكل؛ فقالت له عَريب : والله لقد أحسنتَ كيف تُبْتَ ، فإنّ غناءك كان لا متقَن ، ولا صحيح ، ولا مطرِب ! فضحك أهل المجلس منه وخجِل ؛ فبسط لسانه فيها وعيّب صنعتَها. وكان يقول لها : ألف صوت في العدد ، وهي صوت واحد في المعنى !

وقال أبو الخطاب العباس بن أحمد بن الفرات : حدّثني أبي قال : كنا يومًا عند جعفر بن المأمون نشرَب وعَريب حاضرة ، فغنّى بعض منْ كان عنده :

يا بدرُ إنّك قد كبَسْتَ مشابهًا من وجه ذاك المستنيرِ اللاّئحِ
وأراك تضمخ بالمحاق وحُسنهَا باق على الأيام ليس ببارحِ

فضحكتْ عَريب ْوصفّقت وقالت : ما على الأرض من يعرف خبر

/206/ هذا الصوت غيري ! فسألتها عنه فقالت : لو لا أنّ صاحب القصة قد مات لما أخبرتكم . وذلك أنّ أبا محلّم قدِم بغداد ، فنزل بقرب دار صالح ؛ فاطلعت أمّ محمّد بن صالح يومًا ، فرأته يبول فأعجبها متاعه ، فأحبّت مواصلته . فبعثت اليه تقترض منه مالا ، فبعث اليها عشَرة آلاف درهم وحلَف أنه لو ملَك غيرها لبعث به . وجعلتْ القرْض سببًا لمواصلته ، وصارت تُدْخله اليها ليلا ، وكنت أنا أغنّي لهما . فشربنا ليلة في القمر ، فقال أبو مُحلّم :

يا بدرُ قد كُسيتَ مشابهًا من وجه أم محمّد ابنةِ صالحِ

والبيت الآخر ، وقال لي : غنّي به ! ففعلتُ واستحسنّاه وشربنا عليه . فقالت لي أم محمد في آخر المجلس : يا أختي ، إنّ هذا الشعر يفضحُني ، ويَبْقي عليّ سُبّة الى آخر الدهر ! فقال أبو مُحلّم : أنا أغيّره . وغيّره الى ما ذكر أولا . وأخذه الناس عنّي ، ولو كانت أم محمد باقية ما أخبرتكم بهذا الخبر . انتهى .

وقال عليّ بن يحيى : أمرني المعتمد أنّ أجمع غناء عَريب الذي صنَعَتْه . فأخذتُ منها دفاترها التي جمعت فيها غناءها ، فكانت ألف صوت .

وكانت تعشق صالحا الخادم عشقًا عظيمًا ، وتزوّجته سرّا . فدخل عليها يومًا بعض جواري المتوكل ، فقالت لها : تعالي قبّلي هذا الموضع فإنك تجدين رائحة الجنّة ! وأومأت الى أسافلها . ففعلت ثم قالت : ما السبب في هذا ؟ فقالت لها : قبّلني صالح الخادم في هذا الموضع !

وعشقتْ أبا عيسى بن الرشيد ، فكانت تضرب المثَل بحسن وجهه وغنائه وتقول : ما عشِقت /206ب/ أحدًا من بني هاشم وأصْفيْته ودّي من الخلفاء وأولادهم سِواه .

وقال الفضل بن العباس بن المأمون : زارتني عَريب يومًا ، ومعها عدّة من جواريها ، فسألتها أن تقيم يومَها عندي ، فقالت : قد دعاني جماعة من أصحابي من أهل الأدب والظرف ، وقد عزَمت على المصير اليهم . فأقسمتُ

عليها أن تقيم عندي . فأقامت وكتبت اليهم سطرًا واحدًا فيه «أردت ، ولولا ، ولعل» . ووجهتْ الرقعة اليهم . فكتب ابراهيم بن المدبِّر تحت أردت «ليت» وتحت لولا «ماذا» وتحت لعل «أرجو» . فلمّا قرأتْ الجواب صفّقت وضحِكت وشربت رطلا وقالت : أنا أترك هؤلاء وأقعُد عندكم ، تركني الله من بين يديه إن فعلت ، ولكنّي أخلّف عندكم من جواريَّ من تكفيكم ! ثم قامت ومضت اليهم . انتهى كذا ذكر الأغاني وغيره .

ذكر الخطيب : أنّ عَريب عاشت ستّا وتسعين سنة . وانحرف الواثق والمعتصم عنها ، وسبب ذلك أنه وجد لها كتابًا الى العباس بن المأمون ببلد الرّوم فيه : «أُقتلْ أنت العِلْج ثَمّ ، حتى أقتلَ أنا الأعْور ههنا !» تعنى الواثق وكان قد استخلفه المعتصم ببغداد .

قال : وكانت عَريب تجد في رأسها بردًا ، وكانت تُغلّفه بستين مثقالا مسكًا وعنبرًا وتغسله في كلّ يوم جمُعة . فإذا غسلته اقتسمَ الجواري غُسالة رأسها . انتهى .

وكانت من نُدماء المأمون المغنّين له . فإنه كانت له جماعة نُدماء مغنّين منهم اسحق الموصلي وابراهيم بن المهدي ، عمّه ، وأبا عيسى بن الرشيد ، أخيه /207/ ومخارق وعَلُّوية وابن الضحّاك الخليع وعمرو الشيباني وعلي بن صالح وعبد الملك الموصلي وبَذْل ، جارية أخيه الأمين ، وعَريب جاريته ، وآخرون غيرهم . انتهى .

قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي : أقام المأمون بعد قدومه من خراسان عشرين شهرًا لا يظهر عليه شُرب النّبيذ ولا سماعُ غناء ، ولا اشتغلَ بتدبير مملكة. يجلس على اللبود ويسمع مظالم العامة حتى ظَفِر بابراهيم بن المهدي وابراهيم الإمام ، ويعرف بابن عائشة ، فحينئذ جلس للنُّدماء والمغنين من وراء حِجاب مشتبهًا بالرشيد ، ثم ظهر للندماء والمغنين وظاهرَ بشُرب النبيذ وطلب قومًا من أهل البلد البيّتات يجالسونه ، فاجتمع عليه جماعة من

أعيان بغداد اهـ .

وكان المأمون قد ظفر بابراهيم بن المهدي وبجماعة من الأعيان الذين سعوا في البيعة لابراهيم ، فسجنهم ثم صَلب منهم أربعة ، منهم ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام المعروف بابن عائشة ، وهو أوّل عباسيّ صُلب ، وذلك لأنهم أرادوا الفتك بالموكَّلين بالسجن ، ليهرُبوا مع ابراهيم بن المهدي . كذا ذكر البدري والمؤيد .

وكان سبب الظفر بابراهيم بن المهدي أنّ ليلة الأحد من شهر ربيع الآخر لثلاث عشرة بقين منه ، سنة عشر ومائتين اجتاز ابراهيم بن المهدي ببعض الدروب في أثناء الليل وهو متنقّب في زيّ امرأة ، ومعه امرأتان يرافقانه وكان ابراهيم مختفيًا من المأمون وله ستّ سنين وشهور مختفيًا . وقد /207ب/ جدّ المأمون في طلبه وجعل لمن أتاه به أو دلّه عليه مائة ألف درهم . فلمّا مرّ ببعض الدروب ليلا في زيّ النّساء قام الحرس اليه وقال له : الى أين ، ومن أين في هذه الساعة ؟ وأرادوا إمساكه مع من معه ، فعمَد الى خاتم كان في يده من ياقوت وناوله الحرَس . فآستراب منه حين رآه وقال : إنما هذا خاتم رجل كبير الشأن ! ومسَكه وذهب به الى متولّى الليل والمرأتان معه . فأمرهنّ المتوَلّيّ بأن يُسفِرن عن وجوههنّ ، فتمنّع ابراهيم فكشفوا عن وجهه ، فإذا هو هو ، وعرَفوه فذهب به الى صاحب السِّجن فسُلِّم اليه ، فرفعه الى باب المأمون فأصبح في دار الخلافة ونِقابُه على رأسه وفي صدره المِلحفة ليراه النّاس ويعلموا كيف أُخذ .

فأمر المأمون بالاحتفاظ والاحتراس به مدة ، ثم أطلقه ورضيَ عنه . وقيل لما وقف ابراهيم بين يدي المأمون شرَع في توبيخه فترفّق له عمّه ابراهيم كثيرًا وقال : يا أمير المؤمنين ، إن تعاقبْ بحقّك ، وإن تعفُ فبفضلك ! فقال : بل أعفو يا ابراهيم ، إنّ القدرة تُذهب الحِفْظَة ، والنّدم توبة ، وبينهما عفو الله تعالى ، وهو أكبر مانعًا . فكبّر ابراهيم وسجد شكرًا لله عزّ وجلّ ، فأمر له بعشرة آلاف دينار ، وخلع عليه ، وأمر بردّ دوره وضياعه وأمواله . فرُدّت

وخرج من عنده معظَّمًا .

وقال ابن كثير : لـمّا جيء بابراهيم الى المأمون بعد اختفائه ست سنين وشهورًا قال له المأمون : أنت الخليفة الأسود ! فأخذ في الاعتذار والاستغفار وقال له : أنا الذي مننْتَ /208/ عليه بالعفو . فأنشد المأمون عند ذلك :

ليس يُزْري السّواد بالرّجُل الشّهْـ ـــم ولا بالفتى الأديب الأريب
إن يكن للسّـواد منك نصيبٌ فبياض الأحداق منك نصيبي

وقال بعضهم : لما مثل ابراهيم بين يدي المأمون رقّ له واسترجع . فرأى ابراهيم روائح الرّحمة في شمائله ، ثم إنّ المأمون أقبل على أخيه المعتصم وعلى ابنه العباس وعلى جميع من حضَر من خاصته وقال : ما ترون من أمره ؟ فكل أشار بقتله الا أنّهم اختلفوا في الكيفية . فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد : ما تقول في صديقك ؟ فقال : وما تُغْني صداقتي عنه ، وأمير المؤمنين ساخط عليه ، أمَا إني وإن كنت صديقًا لا أمتنع من قول الحق فيه ! فقال : قل ، فإنك غير متّهم ! فقال أحمد : إن قتلته فقد قتلتْ الملوك قبلك أقلّ جرمًا منه ، وإن عفوتَ عنه عفوتَ عمّن لم يُعْفَ قبلك عن مثله . فنكت المأمون بيده ساعة ، وتمثّل بقول الشاعر :

قومي همُ قتلوا أُمَيْمَ أخي فإذا رميتُ أصابني سهْمِي
فلئن عفوتُ لأعفُونّ جـلَلا ولئن ثأرْت لأوهِننّ عظْمِي

ثم قال : يا عمُّ ، قد مات حقدي عليك بحياة عُذْرك ، وعفوت . ثم سجد طويلا ورفع رأسه فقال : يا عمّ ، أتدري لما سجدت ؟ قال : شكرًا لله تعالى الذي أقدرك على عدوّك في دولتك . قال : ما أردتُ ذلك ، ولكن شكرًا لله تعالى على ما ألهمنى من العفو عنك من قِبَل نفسي ، وأعظمُ من عفوي عنك أنني لم أجرّعْك مرارة امتنان الشّافعين !

ثم أمر بردّ ما قُبض من /208ب/ أملاكه وماله وجميع ضياعه ووظائفه السابقة ، ثم (انظر الخبر فيما بعد 212ب) . حادثه وخَلع عليه وصرَفه آمنًا الى عِياله . فلما كان من الغد كتب اليه أبياتًا يقول فيها :

يا خيرَ من حمَلْتُ اليه مطيّتي   بعد النبيء لآيسٍ أو طـــامعِ
لم أدر أنْ لمثل ذنبيَ غـــافرٌ   فأقمتُ أرقبُ أيَّ حتْف صارِعي
إن الذي قسّم الفضائلَ جازها   في صُلب آدم للإمام الســابعِ
كم من يد لك لا تحـدثني بها   نفسي إذا آلت إليّ مطامِــعي
اسديتها عفـــــــوًا الى هَنيّة   فشكرتَ مصطنعًا لأكرم صانعِ
ورحمتَ أطفــالا كأفراخ القَطا   عفوًا ولم يشفعْ اليك بشافعِ

فلمّا قرأ الأبيات بكى ودعا به وخلع عليه وحمّله ، وأمر له بعشرة آلاف دينار ، وأمر أن يُطرح له مُتّكَأٌ إذا جلس بين يديه . وكان ينادمه لا ينكر منه شيئا . وقيل : لما صلُح ابراهيم عند المأمون دخل عليه وقبّل البساط ، وقال له :

البِرُّ بي منكَ وِطاءُ العُذر عندك لي   دون اعتذاري ، فلِمْ تَعْذل ولِمْ تَلُمِ
وقام حِلْمك بي ، فاحتج عندك لي   مقام شاهد عدْل غير متّـــــهمِ

ثم قال يُنشده :

رددتَ مالي ولم تمْـــنُنْ عليّ به   وقبل ردّك مالي قد حقَنْت دَمي
فبُؤت منك وقـــد كافأتُها بيد   هي الحَياتان من موْت ومن عـدَمِ
تعفو بعدْل وتسطو إن سطوتَ به   فلا عدِمْناك من عاف ومنتَقمِ

فقال له : /209/ اجلس يا عم آمنًا مطمئنًا ، فلن ترى أبدًا ما تكره الاّ أن يحدث حادث أو تتغيّر عن طاعة ، وأرجو ألاّ يكون ذلك منك إن شاء الله تعالى. انتهى .

قال في كتاب الأغاني : قال محمّد بن الحارث بن يخبز : لما قدِم المأمون من

خراسان الى مدينة السّلام بعث اليّ فكنت أنادمُه سرّا ، ولم يَظهر الى النُّدَماء . فجمعَنا يومًا ووالى ابراهيم (قوله : ووالى ابراهيم ، غير واضحة المعنى) إن حضر في ثياب مُنَزّلة ؛ فلما رآه المأمون قال : ألقَى عمى الكِبْر عن مَنْكبيه ! وأمر له بخِلعة فاخرة ، فغنّى مُخارق صوتًا فقال له ابراهيم : أسأتَ ! فأعاده . فقال له : أسأتَ ! فقال المأمون : إن كان أساء ، فأحسنْ أنتَ ! فغنّى ابراهيم ذلك الصوت ، ثم قال لمخارق : أعده ! فأعاده . فقال له : أحسنتَ ! ثم قال : يا أمير المؤمنين ، كم بين الصوتين ؟ فقال : كثير !

فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تأمر سيّدي بإلقاء الصوت عليّ ، وتجعله جائزتي ، فهو أحبّ اليّ منها . فقال : يا عمّ ، ألق هذا الصوت على محمّد ! فألقاه حتى إذا كدْت أن آخذه قال : اِذهب ، فأنت أحسن النّاس غناء ! فقلت : إنّه لم يصلح لي بعد . قال : فَاْغدُهُ عليّ . فغدوت عليه فغنّاه متلوِّنًا . فقلت : أيها الأمير ، لك في الخلافة ما ليس لأحد ، أنت ابن الخليفة ، وأخو الخليفة ، وعمّ الخليفة ، وأراك تجود بالرغائب وتبخل عليّ بصوت ! فقال : يا أحمق إنّ المأمون لم يستَنْغِني (كذا) محبّة لي ، ولا صلةً لرحمي ، ولكن سمع مني هذا الجرْم ما لم يسمعه من غيري . قال : فأخبرت المأمون بمقالته . فقال : إنّا لا يتكدّر عفونا عن أبي اسحاق ، فدعْه . انتهى /209ب/

قال في كتاب الفرج بعد الشدة ، عن هشام بن قيراط الكاتب البغدادي بإسناده عن أحمد بن يوسف الكاتب قال : كنت أشرُب مع المأمون وأنادمه وأنا أتقلد له ديوان المشرق وديوان الرسائل ، قبل وزارتي . وكان كثيرًا ما أنادمه على الانفراد ، وربما يجمع بيني وبين اليزيديّ ، فلما رضي عن ابراهيم بن المهدي ونادمه صار لا يكاد يشرُب معه غيري وغيره ، ويقتصر على استماع الغناء من وراء الستائر ، وربّما حضر اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، فنحن ذات يوم على الشُّرب ومعنا اسحاق إذ غنّى ابراهيم بن المهدي هذا البيت :

صُونوا جيادكُمْ وَآجلُوا سلاحكمْ   وشمِّروا إنها أيامُ من غلبا

فاستعاده المأمون مرارًا ، وبان لي في وجهه الغيظ والغضب والهمّ وزوال الطرب . ولم يفطن لذلك . وترك المأمون القدَح الذي كان في يده ونهض . فظنناه يريد الوضوء .

ثم عاد ، فما شعُرنا الاّ وقد استدعانا الى مجلس آخر ، فإذا هو جالس على سرير الخلافة ، بقلَنْسوته وثياب الهيبة ، وبين يديه اسحاق بن ابراهيم المصعبي وجِلّة القوّاد ، فآستدعى ابراهيم بن المهدي بزيّه . فحضر بأخسّ صورة وأقبحها وعليه ثياب المنادمة ، ليفضحه بذلك . فلما وقف بين يديه قال له : يا ابراهيم ما حمَلك على الخروج عليّ ، والخُطبة لنفسك بالخلافة ؟

قال أحمد بن يوسف ، وقد كنتُ لـمّا أبطأ /210/ المأمون عن مجلس الشُّرْب تعرّفتُ الصورة وعلمتُ أنه كرِه الصوتَ على ابراهيم ؛ فنحّيْتُ ثيابَ المنادمة ولبستُ ثياب العمل ، وأقبلت في ذلك على المأمون حين استدعانا للكلام مع ابراهيم .

فأقبل عليه ابراهيم بوجه صفيق وقلب ثابت وقال : يا أمير المؤمنين لست أخلو من أن أكون عندك عاقلا أو جاهلا ؛ فإن كنت جاهلا فقد سقَط عني اللوم من الله تعالى ثم منك ، وإن كنت عاقلا فيجب أن تعلّم أني قد علمت أن محمّدًا أخاك مع أمواله وذخائره وأموال والدته وكثرة ضياعها وصنائعها والأعمال التى كانت في يده ارتفاعَها ومحبّةَ بني هاشم له لم يثبت لك وهو خليفة وأنت أمير من أمرائه ، فكيف كنتُ أثبُت أنا لك وأنا في قوم أكثرُ رزق الرّجل ثلاثون درهمًا في الشهر ، وقد غلَبني على بغداد ابن أبي خالد العَيّار وأصحابه يقطعون ويضربون ويحبِسون ويُطلقون ؛ والله العظيم وحقّ رسوله ﷺ وحقّ جدي العباس ما دخلتُ فيما دخلت فيه الا لأبقِي هذا الأمر عليك وعلى أهل بيتك ، لـمّا رأيتُ الفضل بن سهل قد حمله البطَر والرّفْض على أن يُخرج الخلافة عنك ، فأردت ضبط الأمر الى أن تَقْدِم فتتسلّمه ! قال : فرأيت المأمون

قد أسفَر وجهه فقال : عليّ بناقد الخادم . فأحضِر فقال : رقعةٌ سلّمتها اليك بمرو قبل رحلتي عنها ، وأمرتك بحفظها ؛ هاتها !

فمضى وجاء بسَبْط ، ففتحه وأخرج منه الرقعة ، فإذا فيها مكتوب بخط المأمون «لئن أظفر الله /210ب/ تعالى بابراهيم بن المهدي لأسأله بحضرة الأولياء والخاصة من أهل بيتي وأجنادي عن السبب الذي دعاه الى الخروج عليّ ، فإن ذكر أنه إنما أراد بذلك حفظ الأمر على أهل بيتي لما جرى من أمر عليّ الرضا بن موسى الكاظم لأُخْلِينّ سبيله ، ولئن ذكر غير ذلك من العذر ، كائنًا ما كان ، لأضربنّ عنقَه» ! قال أحمد بن يوسف : ولم يكن بحضرته كاتب غيري . فدفعها اليّ وقال : يا أحمد ، ادفعها اليه ! ثم قال : يا عمُّ ، خُذْ أحمدَ وعُدْ الى مجلسك الذي خلّفتك فيه !

قال : فسلّمت الرقعة اليه ، وعدنا الى موضعنا ومجلسنا ، فطرح ابراهيم نفسه مغْشيًا عليه ، فما شعرنا بالمأمون الا قد رجَع بثياب بُذْلته . فقمنا له وجلس فجلسنا ، وقال : ارجعوا الى ما كنّا فيه . وأتممنا يومَنا ذلك معه . انتهى .

ودخل الحسن بن سهل على المأمون وهو يشرُب ، فناوله كأسًا وحلَف عليه أن يشرب وقال له : بحقّي عليك إلاّ أمرتَ من شئت أن يغنّيك ! فأومأ الى ابراهيم بن المهدي فقال له المأمون : غنّه ! فآندفع يغنّي بشعر الأعشى :

تسمعُ للحَلْي وسْواسًها إذا انصرفتْ كما استغاثَ برُمح غير ذي رَجْلِ

فغضب المأمون ، ووثَب من مجلسه وقال له : لا تدع كِبْرك ، ولعلك أنفت من أيمائه إليك بالغناء ، فغنّيتَ معرِّضا بما يُعرِّض له من المره (كذا) ، والله لقد عزمت على قتلك حتى قال لي إنّ قتَلْته فعلتَ ما فعله الناس وإن عفوتَ عنه فعلت ما لم /211/ يفعله أحد قبلك ؛ فعفوت عنك بقوله ، فلا تعدْ ! فقال: يا أمير المؤمنين ، من سُحُب عقله على مثل هذا ، فلست أغادره . انتهى ،

كذا في كتاب قطب السرور.

ذكر في كتاب الجليس والأنيس : أمر المأمون يومًا بِبَسْط بُسُطٍ من بُسُط الرشيد . فأُخرجتْ من الخزائن ، فكان فيها بساطا طبَرِيّا مكتوبٌ في حواشيه هذه الأبيات (البيت الثاني في الاصل : «هجت») :

لجّ بالعين واكِــفٌ   من هوَى لا يُساعفُ
كلّ ما هاج دمــعُها   هيجته (؟) المعارفُ
إنما الموت أن تُــفا   رق من أنت آلِـفُ
لك حُبّان في الفؤا   دِ قليـــل وطــارفُ

فاستحسنها المأمون ، وبعث الى اسحاق فأحضره ، وأمره أن يصنع فيه الهزَج الذي يُغنّى اليوم . فسمعه منه أحمد المكي فقال : لو كان هذا الهزج لـحَكَم الوادي لكان قد أحسن ! يريد أنّ حَكم الوادي كان صاحب الأهزاج ومُحكِمَها . فشرب المأمون بقية يومه وليلته ، وأمر بالبساط فحُمل مع اسحاق .

ولـمّا قام المأمون وأراد الانصراف التفت الى ابراهيم بن المهدي ، وقال : يا عمُّ ، بحقي عليك إلاّ ما صنعت أبياتًا وصنعتَ عليها لحنًا حديثًا ! ثم قال له : بكّر عليّ ، فلقد اشتهيتُ الصَّبوح غدًا ! فقال اسحاق : والله لأكيد لإبراهيم ، ولأسرقنه منه !

فلمّا صلّيتُ العشاء الأخير ركبتُ وسرت الى سَباط (في الصحاح : ساباط ، سقيفة بين حائطين تحتها طريق) لإبراهيم كان له عليه مجلس يقعُد فيه . فدعوت /211ب/ الحارس وأعطيته دينارًا ، وقلت له : لا تُعلم أحدًا بمكاني ! وصرَفْتُ غلامي وأمرته أن يأتيني بدابتي سحَرًا . فلم ألبث أن جلس ابراهيم في مجلسه ذلك ، ودعا ابراهيم بجواريه ، وجعَل يُلقنهنّ الشعر وقد صاغ اللّحن ، وهو يضرب العود وأنا أضرب على فخذي أتابع الصوت ، حتى

أحكَمْته وفهمته . فلما كان السحَر أتاني غلامي بدابتي ، فصرت من فوْري الى باب المأمون . فقال أحمد بن هشام : بكرّتَ ، يا اسحاق ! ثم دخل فأعلمه ، فأذن لي . فدخلت على المأمون فقال لي : أكلت ؟ فقلت : لا ! فدعا لي بالطعام وقد كان أكل وشرب ، فغنّيته بشعر ابراهيم ولحنه ، الذي سرقته منه ، وهو هذا :

قالتْ نـظرتَ الى غيري فقلتُ لها   وسائلُ الدّمع من عيني مَحْـدورُ
نفسي فِداك وطرْف العين مُشْترِك   والقلبُ منّي عليك الدّهرَ مَقصورُ
والعينُ تنظـرُ أحيانـًا وباطـنُه   مما يقاسي بظهْر الغيب مَسْتُـورُ

فطرب المأمون وشرب عليه ، فما لبث ساعة واحدة حتى أقبل ابراهيم بن المهدي ، فاستأذن له أحمد بن هشام ، فأذن له . فدخل فدعا له بالطعام فأكل وشرب ثم جلس يغني هذا الشعر في اللحن . فقال المأمون : ما هذا ، أراك تسرق أشعار الناس وتدّعيها لنفسك ؟! وآحمرّت عيناه وغضب غضبًا شديدًا وكاد يسطو بابراهيم . فقام ابراهيم على قدميه وقال : /212/ وقرابتِك من رسول الله ﷺ ، وبيْعتِك في عنقي ما سبَقني اليه أحد ! فقال المأمون : هذا اسحاق يغنّيه ! وقال : يا اسحاق غنّه ! فغنّيته فبقي ابراهيم مبهوتًا ، لا يجد جوابًا .

قال اسحاق ، فلما رأيت المأمون على تلك الحالة ، قلت : يا أمير المؤمنين ، الشعر واللّحن له ، ولكنْ سَرَقه اللّصوص ! وحدّثته الحديث . فسكن حينئذ ثم قال : يا أمير المؤمنين ، قد اقتصّيْت منه ، لانه قد فعل هذا الأمر مع ابراهيم والدي في أيام الرشيد . فقال : أحقّ ما يقول يا عمّ ؟ قال : بلى يا أمير المؤنين ! فضحك المأمون ثم قال : لأحمد بن هشام : خذ من مال ابراهيم ثلاثين ألف درهم وادفعها الى اسحاق ، لتضييع ابراهيم سِتْرَه ! قال اسحاق ، فغدوت الى ابراهيم فقلت : أيها الأمير ، اِقْبلها منّي ، وقد أخطأت ! واعتذرتُ اليه فقال :

لا أقبل منك ما جاد لك به ابن أخي ، ولكن كدتَ والله يا اسحاق تُسفك دمي ، فلا تعدْ من المزاح الى مثلها ، فإنّ الملوك تعفو عن الكثير وتقتل على اليسير! انتهى . كذا في كتاب الجليس عن أبي الفرج النهرواني ، حدّثه به محمد بن أحمد المكي عن أبيه . انتهى .

ولابراهيم بن المهدي أشعار وألحان في صناعات يغنيها .

حكى الصفدي : إنّ المأمون اصطبح يومًا ، وأمر بإحضار ابراهيم بن المهدي فقال له : غنّني لحنًا من صنعتك في شعرك ! فاندفع يغنيه بقوله :

فرّقا بيني وبين البُـــ ـــكا بالـرّاح الشّمُولِ
واسقياني قبل أن يصْـ ـحَبَـني عَذْل العَـذولِ /212ب/
مال بي عن صـحّة الرأ ي الى السُّكر الطويلِ
ما أرى من غضَب الدّنـ ـيا على أهــل العقولِ

فطرِب المأمون ، وما زال يستعيده فيه يومَه ويشرَب عليه حتى سكِر وقام . انتهى .

وقال مخارق : كنّا نشرَب مع المأمون على دجلة في ليلة مُقمرة ، وهو يتأمّل ضوء القمر والنجوم في الماء ، إذ طلع ابراهيم بن المهدي . فسلّم وقبّل يده ، فدَعا برطل فسقاه ، وقال : غنّ يا عمّ صوتًا لكي نشرَب عليه ! فغناه :

قد سمعنا الدِّيك صاحًا ورأينا النّجـــم لاحًا
فاَسْقنا واَقطع بنا الدّ هرَ اغْتباقًا واصْطِباحًا

فشرب المأمون وطرِب وقال : يا ياسر ، إحْمِلْ الى عمّي عشرة آلاف دينار . انتهى . كذا من قطب السرور ، وأخبار ابراهيم بن المهدي في هذا كثيرة .

لطيفة

حكي أنّ ابراهيم بن المهدي ، قال : لما دخل المأمون أرض العراق ، طلبني أشدّ الطلب . وجعل لمن دلّه عليّ أو أتاه بي مائة ألف درهم . فخِفت على نفسي وتحيّرت في أمري ، فخرجت من داري وقت الظهر ، وما أُدري أين أتوجّه . فمررت بزُقاق لا ينفّذ ، فقلت : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، إنّا لله وإنا اليه راجعون ! وخفتُ إن رجعت على أثري يَعلموا بي ، فرأيت في صدر الزقاق عبدًا أسود قائمًا على باب داره ، فتقدّمت اليه وقلت له : أعندك موضع أقيم فيه ساعةً من نهار ؟ قال : نعم . وفتح الباب ، فدخلت الى بيت نظيف فيه حصير نظيف ومخدة جلد طائفي نظيفة ، ثم إنه أغلق الباب عليّ ومضى .

فخِفت أن يكون /213/ قد سمع الجَعالة في حقّي وأنه عرَفني ، وقد مضى يدلّ عليّ . فبقيت كالحبّة على المقلاة ، قلقًا ميّتًا من الخوف . وأنا كذلك إذ أقبل ومعه حمّال ، وهو حاملٌ كلّ ما يحتاج اليه من لحم وخبز وقدور جديدة وجرّة وكِيزان جدد . ثم التفتَ اليّ وقال : جعلني الله فِداك ، أنا رجل حجّام ، وأنا لا أعلم أنك تنفرُ منّي لما أتولاّه من معيشتي ، فشأنك بما لم تقع عليه يد !

وكان لي جاجة الى الطعام ، فقمتُ وطبخت قِدرًا ما أذكر أنني أكلت مثلها قط ! فلمّا قضيت أربي قال : هل لك أن تشرَب شيئا ، فإنه يسلّي الهمّ ويطيّب الفم ويهَبُ النفس الفرح ، ويعْزل الغمّ ! قلت : ما أُكره ذلك ! رغبةً في أن أؤنسه . فأتى بقِمَطْرة (في الاصل : بقمطرة من . وفي الدرّ 98أ : بقطرمز) جديدة وأحضر لي قدحًا جديدًا وفاكهة في أواني فخار جديد . ثم قال بعد ذلك : جُعلت فِداك ، لو أقعُد ناحيةً منك وآتي بشراب ، فأشربُ سرورًا بك ؟! فقلت : إفعل ! فقعَد وشرب ثلاثًا ، ثم دخل الى خزانة له فأخرج عودًا مصلّحًا وقال : يا سيدي ، ليس من قدْري أن أسألك أن تغنّي ، ولكن قد وجب على مروءتك حُرْمتي ؛ فإن رأيت أن تشرّف عبدك بأن تغنّي لنفسك والعبدُ يسمع

فَافعل ! فقلت له : ومن أين لك بأنّي أُحسِن الغناء ؟! فقال متعجّبًا : سبحان الله ، أنت أشهر من ذلك ، أنت ابراهيم بن المهدي ، خليفتنا بالأمس ، الذي جعل المأمون لمن دلّ عليك مائة ألف درهم ! فلمّا قال ذلك عظُمت همّته ومروءته عندي ، وعلمت أنّ نخوته أجلُّ مما بذَل . فتناولت /213ب/ العود فأصلحته وغنّيت ، وقد مرّ بخاطري ذكر أهلي وولدي فقلت :

وعسى الذي أهدى ليوسفَ أهلَه وأعزّه في السِّجن وهو أسيرُ
أن يستجيب لنا فيجمَع شَمْلنا والله ربّ العالمين قديرُ

فقال : يا سيدي ، أتجعلُ ما تغنّيه مما اقتضَيْتك ؟ قلت : نعم ! فقال : غنّ لي : «إنّ الذي عقد الذي انعقدت به» فقلت :

إنّ الذي عقد الذي انعقدتْ به عقْدُ المكارهِ فيك يحسُن حلُّها
فاْصبر فإنّ الله يُعْقب راحةً فلعلها أن تنجلي ولعلّها

فحسن عندي اقتراحه فشربت وشرب ثم قال غنّ :

فلا تجزع وإن اعسرتَ يومًا فقد أيسرْتَ في الدّهر الطويلِ
ولا تيأسْ فإنّ اليأسَ كُفْرٌ لعلّ الله يُغْني عن قليلِ
ولا تظننّ بربّك غيرَ خير فإنّ الله أوْلى بالجميلِ

فغنّيته وشربت ، فشرب وقال غنّ :

وراء مضيقِ الخوف متّسعُ الأمن وأوّل مفروجٍ به آخرَ الحُزْنِ
فلا تيأسنْ فالله ملّك يوسفَ خزائنه بعد الخلاص من السِّجنِ

فغنّيته وشربت فشرب وقال غنّ :

إذا الحادثات بلغن النُّهى وكادت تذوبنّ منها المُهَجْ
وهلّ البلاء وقلّ العزاء فعند التناهي يكون الفَرَجْ

فغنّيته . وحسُن في نفسي اقتضاؤه ، وأنِست به واستظرفْته وشربت ، فشرب ثم قال : لله عليّ نذْرٌ ، إذا آنسْتني بقُربك ، وما كنتُ أحسب أنّ الزمان يسمح بكونك في منزلي ، فإنْ رأيتَ /214/ يا سيّدي أن تأذن لي أن أغنّي ما خطر ببالي ؛ وإنْ كنتُ من غير أهل هذه الصناعة ؟ فقلت : يكون ذلك زيادة في أدبك ومروءتك !

فأخذ العود وقال : بدُسْتور (بهامشه : «أي إذنه ، كذا نعرفه في خطاب العامة . وانظر على أنه أصل لغة») مولاي ! ثم ضرَب عليه وغنّى :

تُعَيِّرنا أنّا قليلٌ عـــديدُنا ... فقلتُ لها إنّ الكرام قـليلُ
وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا ... عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلُ
وإنّا لقوم لا نرى الموتَ سُبّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ
يقرّبُ حبّ الموت آجالاً لنا ... وتكرهُه آجالُهم فتـطولُ

فوالله لقد أجاد . وذهب عنّي كلّ ما كان لي من الجزع والفزع والخوف واستأنست به ، وداخلَني من الطرب ما لا مزيد عليه ، وعاجلني وإياه السُّكر فنمت .

ولم نستيقظ إلاّ بعد المغرب . وجال فكري في أدب هذا الحجّام وظرفه وكيف غنّى ما أراد أن يسليني بما فيه إشارة الى تخصيصه بالوفاء الى ضيفه ونصرةً لجاره . فقعَدْت وغسلت وجهي وأيقظْته وأخرجت خريطة كانت صحبتني فيها دنانيرُ لها قيمة عظيمة ، فدفعتها اليه وقلت : أنتَ في وداعة الله وحفظه ، فإني ماض عنك ، وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهمّاتك ، ولك عندي المزيد إنْ أمنتُ من خوفي ! فأعادها عليّ مبادرًا وقال : يا سيّدي إنّ الصُّعلوك منّا لا قدَر له عند ذوي الرئاسات ، ويظنّون فيه الظنون الرديئة . أآخُذُ على ما وَهَبني الله تعالى من قُربك وحلولك في منزلي ثمنًا ، لا والله ! فلَحَحْت عليه ، فأخذ موسَى له بيده وقال : والله لئن راجعتني في ذلك

لأُحَزِّنَ نفسي !

فخشيتُ عليه وأخذتُ الخريطة ، وانتهيتُ الى باب الدار /214ب/ فقال: يا سيدي إن هذا الموضع أخفى لك من غيره ، وليس في مؤنتك ثِقَل . فأقِمْ عندي الى أن يفرِّج الله تعالى عنك ! فرجعتُ وسألته أن يكون منفقًا من تلك الخريطة . فلم يفعل . وكان في كل يوم يفعل مثلَ فِعْله في يوم حلولي عنده .

وأقمتُ أيامًا في أطيب عيش وأهنأه . ثم تذمّمْتُ من الإقامة عنده وخشيت التثقيل عليه ، فتركته وقد مضى يجدّد لنا حالنا ، فلبست ثيابي وتزيّيْتُ بزيّ النساء وخرجتُ (راجع ما تقدم حول مغامرة ابراهيم بن المهدي وظهوره ، 208أ . وأخباره 104ب وما بعدها) .

فكانت هذه الخرجة سبب ظهوره وظفَرِ المأمون به والعفو عنه . انتهى ، كذا ذكر هذه الحكاية في بستان الآداب عن الواقدي .

والواقدي كان قاضيًا ببغداد ، وهو محمّد بن عمر ابن واقد الواقدي المدني ، مولى بني هاشم . وقيل مولى بني سهم ، مِن أسلمَ . كان إمامًا عالـمًا ، له نصانيف في المغازي وغيرها . سمع ابن أبي ذيب ومعمر بن راشد ومالك بن أنس والنووي وغيرهم . وروى عنه كاتبُه محمد بن سعيد وجماعة من الأعيان . وتولى القضاء بشرقيّ بغداد ، ولاه المأمون . وضعّفوه في الحديث .

قال أبو الفرج بن الجوْزي في سنة خمس ومائتين ولّى المأمون محمد بن سماعة قضاء بغداد ، ومحمّد بن رجاء قضاء الشرقية ، والواقدي قضاء العسكر .

وفي الكشاف : محمد بن عمر ابن واقد الواقدي ، قاضي العراق . عن ابن عجلان وثور وابن جريج وطبقته ، وعنه الشافعي والصاغاني والرمادي والحارث ين أبي أسامة وخَلْق . قال البخاري وغيره ، متروك . وكانت ولادته سنة ثلاثين ومائة ، وتوفي عشية يوم الاثنين حادي عشر ذي الحجة سنة سبع

ومائتين ، وهو /215/ يومئذ قاضي الجانب الغربي من بغداد . قاله ابن قتيبة .

وقال السمعاني : بالجانب الشرقي وصلّى عليه ابن سماعة التميمي ودفن بمقابر الخيزران . وقال المؤيد : وعمره ثمان وستعون سنة . وكان عالـمًا بالمغازي واختلاف العلماء . وكان يُضعَّف في الحديث . وله مصنفات . وكان المأمون يكرم جانبه ويبالغ في رعايته . وقال ابن خلكان : والواقدي نسبة الى واقد وهو جده المذكور . انتهى .

نادرة غريبة ولطيفة عجيبة

ذكر المسعودي في مروج الذهب ، أنّ الواقدي قال : كان لي صديقان أحدهما هاشمي ، وكنّا كنفس واحدة . فنالتني ضائقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي : أمّا نحن في أنفُسنا فنصْبِر على البؤس والشدة ، وأمّا صبيانُنا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمةً لهم ، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الهيئة من الثياب الرثّة ؛ فلو احْتلتَ في شيء نصرِفُه في كُسْوتهم ؟

قال ، فكتبتُ الى صديقي الهاشميّ أسألُه التّوسعة عليّ . فوجّه لي كيسًا مختومًا ، ذكر أنّ فيه ألف درهم . فما آستقرّ قراري حتى كتب اليّ الصديقُ الآخر يشكو مثل ما شكوْتُ الى صاحبي الهاشمي . فوجّهت اليه الكيس بحاله ، وخرجت الى المسجد . فأقمت فيه ليلتي مستحيًا من امرأتي .

فلما دخلت عليها وأخبرتها استحسنتْ ما كان منّي ولم تُعيِّبني عليه . فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : أصْدِقْني عمّا فعلتَه فيما وجّهْتُ به إليك ؟! فعرّفته الخبر على /215ب/ وجهه . فقال : إنّك وجهتَ اليّ ؛ وما أملك على الأرض إلاّ ما بعثتُ به اليك ، وكتبتُ الى صديقنا أسالُه المؤاساة ، فوجَّه كيسي بخاتمي !

قال الواقدي : فتواسيْنا الألف درهم فيما بيننا ، ثم أخرجنا للمرأة مائة

درهم ، ووزّعنا باقيَهُ بيننا بالسّواء . ونمى الخبر الى المأمون فدعاني فشرحتُ له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار . انتهى .

بذل وإنعام ومنادمة وإكرام

نُقل عن اسحاق الموصلي ، أنه قال : استحضرني المأمون يومًا وهو مصطبح ونَعَم ، جارية بين يديه تغنّيه ، وهي وصيفة . فقال : يا اسحاق ، أُصبحتُ اليوم نشيطا ، فأسمع غناء هذه الوصيفة ، فإنْ كان فيه ما تأخذه عليها فأصلِحْه لها ! ثم قال : غنّي فغنت :

وزعمتَ أنّي ظالم فهجرْتِـــني ورميتَ في قلبي بسهْم نافــــذِ
ونَعَمْ ظلمتُكْ فأغفرنْ وتجاوزي هــذا مقامُ المستجير العـــائذِ

قال اسحاق : فسمعت ما أذهلني وأطربني ، فشربت ثلاثة أرطال متوالية ، وأمر المأمون فسُقيت مثلها ؛ ثم قال : غنّ في خفيف ثقيل :

فإن كان حقّا ما تقول أتيتـه إليك مقام النائبات على قــبْري
وإن كان ما بلّغتَ عني باطلا ملامةً حتى يسهر الليلُ من ذكري

فغنّيته ، فطرب وشرب ثلاثة أرطال ، وأمر فسُقيت مثلها . ثم قال يا إسحاق : غنّ أنت صوتًا وتغني هي صوتًا . ففعلنا ، فإذا /216/ أعجبه صوت (في الاصل : صوتا) من غنائي قال : أعِدْه عليّ مرتين أو ثلاثًا ! فأعيده حتى تأخذه وتراسلني فيه . ثم قال لأبي محمد اليزيدي : هل رأيت قط أحسن من يومنا هذا ؟ قال : لا والله إنه لحسن ، أُعيذك بالله ، فتلقّه بشكر الله تعالى ! فقال: صدقتَ ونصحتَ وأذكرْتني في موضع انكاري .

ثم طرب وشرب ثلاثة أرطال وأمر فسُقيت مثلها ثم قال : نكْرٌ (كذا في الاصل بدون شكل) قولُ اليزيدي ، يا اسحاق ، استغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ! ثم إنه أمر بإخراج مائة ألف درهم من خالص ماله ،

فتصدّق بها على الفقراء والمساكين ثم قال : ويحمل الى منزل اسحاق مثلها . فلمّا انصرفت وجدتها قد سبقتني الى منزلي ! انتهى .

وقال ابراهيم السِّندي : إنّ عمرو بن مسعدة وأحمد بن أبي خالد دخلا على المأمون ، فوجدناه على شرابه ، فعرّض عليهما الشراب فاستعفياه ، فأطرق ساعة حتى ظننّا أنه تأمّر بهما ، ثم رفع رأسه اليهما وأنشأ يقول :

رُدّا عليّ الكأس إنّكما ... لا تعلمان الكأسَ ما تُجْدي
لو ذقتُما ما ذقتُ للأمْزجتُما ... ها بدمعكما من الوَجْد
ما مثل نُعْماها إذا اشتملَتْ ... الاّ اشتمال فَمٍ على خَدٍّ
خوّفتماني الله ويحكُما ... وكخيفَتُه رجاؤه عندي
إن كنتما لا تَشْرَبان معي ... خوف العقاب شربتها وحدي

وفي رواية أخرى ، أنّ المأمون شرب يومًا فدخل عليه سعيد بن مُسلم ، فناوله كأسًا فقال سعيد : والله ، يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيتُ الله عهدًا عند بيته الحرام أنّي لا أذوقها أبدًا /216ب/ ، فإن رأى أمير المؤمنين ألاّ يُجشّمني بشُرْبها فعَل . فأطرق المأمون طويلا حتى ظنّ من حضر أنه سيبالغ في عقوبته ، ثم رفع رأسه وأنشأ يقول :

سأشرَبُها وإن زعموا حرامًا ... وأرجو عفو ربٍّ ذي امتنانِ
يشْرَبْنها ويزعمْنَ حرامًا ... وتلك على الشَّقيِّ بَليّتانِ

مكارم أخلاق ومراعاة أرفاق

قيل : شكا أبو محمّد اليزيدي الى المأمون خَلّة ودَيْنًا لحِقَه ، فقال : ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكَه بلغتَ به . فقال : يا أمير المؤمنين ، لك منادمون ؛ فأُطْلِقُ الحيلةَ عليهم ! قال : اِصنعْ ما بدا لك ! قال : إذا حضَروا ، فَأمُرْ فلانا الخادم يصل رقعتي اليك ، كأني طفيلي ، فإذا قرأتها فأرسلْ اليّ : «فإن دخولك

في الوقت لا يمكن ، اختر لنفسك من أحببتَ ينادمُك» .

فلما علم أبو محمّد جلوسَ المأمون على الشّراب واجتماع ندمائه اليه أتى الباب ، فدفع الى ذلك الغلام رُقْعة فقرأها المأمون عليهم ، فإذا فيها :

يا خيرَ إخوانٍ وأصحابِ   هذا طفيليٌّ على البـــابِ
فصيِّروني واحــدًا منكمُ   أو أَخرجوا لي بعض أصحابي

فقال المأمون : ماينبغي أن يدخل الطفيليّ على هذه الحال ! وأرسل اليه : «دخولك في هذا الوقت لا يمكن ، فآختر لنفسك من أُحببت ينادمك» فقال : ما أرى نديمًا أُرتضيه إلا عبد الله بن طاهر . فقال : المأمون لعبد الله : قد وقع اختياره عليك فصِرْ اليه ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أُخرج عن منزلك الى مجلس رجل من /217/ العامة ؟ فقال له المأمون : إفْدِ نفسك ! قال : يا أمير المؤمنين ، له عليّ عشرة آلاف درهم . قال : لا أحسب ذلك يُقْنعه منك . فقال : أزيده عشرة آلاف درهم . ولا زال يزيده عشرة فعشرة حتى بلغ مائة ألف . فقال المأمون : إقبِضْ هذه الآن أصلحُ لك من منادمته وأحسن عاقبة ! انتهى ، كذا حكاه الخطيب البغدادي .

قيل أشرف المأمون على الحريق فقال : أيكم ينشد لأبي نواس ؟ فقام غلام من أبنائهم فقال : أنا أنشد له . فقال : هات ! فأنشده :

لا تَبْكِ ليلَى ولا تطرَبْ الى هند   وآشربْ على الورْد من حمراءَ كالورْدِ

حتى أتى على آخرها ، فقال المأمون لمن كان معه : والله الشعرُ ، لا قوله على وجه الهزل والعبث لأجل المزاح ! وأمر للغلام بأربعة آلاف درهم . انتهى ، كذا في قطب السرور .

وقال المأمون لأبي عمرو الشيباني : من أشعر الناس ؟ فقال : قد آختلف في هذا يا أمير المؤمنين ؛ فقيل أشعر الناس أمروُ القيس إذا ركِب ، وزهير إذا

رغِب، والنابغة إ ذا رهِب ، والأعشى إذا طرِب . فقال المأمون : دعْني من هذا، من الذي يقول :

لايزال الليل حيث حلّت فدهرُ شـــرابها نَــهارُ

فقال : أبو نواس . فقال : من الذي يقول :

فتَمَشّتْ في مفاصِلهم كتمشّي البُرْء في السَّقَمِ

فقال : أبو نواس . فقال : من الذي يقول :

إذا ما أتتْ دون اللّهاتِ من الفتى دعا همُّه من صـدره برحيـــل /217ب

فقال : أبو نواس . فقال : هذا أشعر الأولين والآخرين !

وذكر عمرو بن مسعدة ، أنه لما قدم المأمون مصر أحبّ أن ينادم أحد أدباء البلد . فوُصف له فتى منهم ، فأمر بإحضاره . فدخل والمائدة بين يديه وغلام على رأسه يسقيه ، فقال له : أتشرب ؟ فقال : ومن يرغب عن مِلّة ابراهيم إلاّ من سفّه نفسه ! فوقعت كلمته منه موقعها . ونادمه طول مقامه بمصر ، فوجد عنده ما أحبّ . فلمّا أراد الانصراف عرض عليه المسير فآعتذر اليه ، فعذره ووصله بمال جليل . انتهى ، كذا في قطب السرور .

قيل إنّ اسحاق الموصلي قال : دخلت يومًا على المأمون فوجدته مستلقيًا على فراشه . فآستدْناني حتى صارت ركبتي على الفراش ، ثم قال لي : بلغني أنك صنعت في هذه الأيام لحنًا في شعر الرّاعي ، فلم أسمعه منك . فقلت : يا سيدي ، ما سمعه أحدٌ الاّ جواريَّ ، ولا حضرتُ للشّراب منذ صنعتُه ! فقال : غنّه فقلت: لم يتهيأ ، والصّحْو يمنعني من تأديته . قال : صدقت ! وأمر بالغداء فتغدّينا . ومُدّت الستارة فغنِّي من ورائها ، وشربنا أقداحًا ثم قال : يا اسحاق ما حان أوان هذا الصوت ؟ فقلت : بلى يا سيدي ! وغنّيته لحني هذا :

ألم تسـل بغارمة الدّيارَا عن الحـــيّ المفارقِ أين سارا

بل ساءلتُها فأبتْ جوابًا   وكيف تساءل الدِّمَن الدِّيارا

فاستحسنه وقال : يا اسحاق ، لا طرَبَ بعد وجود البقية ؛ ما أشرب بقية يومي إلاّ على هذا الصوت . فشرب عليه سائر /218/ يومه ، وخلع عليّ خلعة من ثيابه . انتهى .

وقال ابن المرزبان : كان المأمون إذا اعتنى بالصوت الذي يسمعه استعاده ولم يسمع غيره ، وإذا اشتهى لونًا من الطعام لم يأكل غيره . قال : وانصرف الينا علُّويَة من مجلس أمير المؤمنين فقال : غُنّي في هذه الليلة في مجلس أمير المؤمنين صوتٌ في بيت واحد ! فسأل كلّ من في المجلس فلم يعرف أحد منهم له ثانياً [قال]: فهل فيكم من يعرفه ؟ فقلنا : ما هو ؟ فقال :

تخيّرْتُ من نعمان عودَ أراكة   لِهِنْد ولكن من يبلِّغُه هندًا

فقال أبو الرّازي : خرجت الى اليمامة فحَدَا حادٍ :

خليليّ عرّجَا بارك الله فيكما   وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قصْدَا
وقولا لها ليس الضّلال إجارة   ولكن إجارتنا لقاوُنا كما عهدَا
تخيّرت من نعمانَ عود أراكة   لهنْد ولكن من يبلّغه هنْدَا
تبلّغه نوق عتاق وفِتْية   كرام إذا يومٌ عَلَتْ بهم نجْدَا
وما شبْه هنْدٍ غير أدماء خادر   من الوحش مُرْتاع تُراعي طَلاً فرْدَا
وما نطفة من مرية في قيعة   تصفّقها الأرواح قد خالطها شهْدَا
يا طيب من رَيّ غلاله ريقها   وقد غارت الشعر أمراقا ولا بَرْدَا
وقد خلتها بدرًا بدا شَطْر نُوره   وقد سَتَرتْ خدّا وأبدتْ لنا خدّا

قال علّوية : فرجعت الى المأمون وغنّيته بذلك ، فطرب عليه وقال : من أفادك إياه ؟ فقلت : أبو الرازي ، سمعه من حاد يحدو به ! فأمر لي بعشرة آلاف درهم ، وقال : يُحمل الى أبي الرازي مثلها ! انتهى .

قال عَلُّوية : قال المأمون لأصحابه ولي : بكّروا لنصطَبح /218ب/ فتعذّرتُ له ، فلقيَني عبد الله بن اسماعيل صاحب المراكب ، مولَى عريب ، فقال لي : ايها الرجل الظالم المتعدّي ، أما ترحم وترِقّ وتُجْبِر بقلب عَريب ، لأنها هائمة بحبّك ، تحتلِم بك في كل ليلة ثلاث مرات ! فمضيت اليها وهي جالسة على كرسيّ ، يُطبخ بين يديها ثلاث قدور . فلمّا رأتني قامت اليّ وعانقتني ثم قالت : ما تشتهي أن تأكل ؟ قلت : قِدْرٌ من تلك القدور ! فأفرغت قِدْرًا ودعت بالمائدة ، فأكلنا ثم دعت بالنّبيذ فشربتْ وسقتني ، ثم قالت : قد صنعتُ لحنًا فٱسمعه ، فإن كان فيه خلل صلّحتَه ! وتناولتْ العود وغنّت :

وإني لمشتاق الى قرب صاحب　　يروق ويصفو إن كدَرْت عليه
عذيري من الإخوان لا من جَفَوْته　　صفا لي ولا من كنتُ صريم يديه

فغنّيته معها حتى أحكمتُه وشربنا عليه حتى سَكَرْنا ، ثم جاء الحُجّاب فكسّروا باب عبد الله واستخرجوني .

فلما دخلت على المأمون أقبلتُ أرقُص من باب الدار الى باب الإيوان وأنا أصفّق بيديّ وأغنّي الصوتَ ، فسمِع وسمعوا ما لا يعرفوه فٱستظرفوه ، فقال المأمون : أُدنُ مني ، يا علوية ، أَرْدِدْ عليّ الصوتَ ! فردّدته سبع مرات ، وشرب عليه سبعة أرطال ، ثم قال : خذ منّي الخلافة وٱعطني هذا الصّوت بدلاً !

وشرب المأمون يومًا وهو بدمشق فغنّاه علُّوية شعرًا يقول فيه :

برئْت من الاسلام إن كان ذا الذي　　أتاك به الواشون عنّي كما قالوا
ولكنهم لمّا رأوكِ سريعة　　اليّ تواصوا بالنميمة واحتالوا /219/

فقال : لمن هذا الشعر يا علُّوية ؟ قال : لقاضي دمشق . فقال للمعتصم : أعزله يا أبا اسحاق ، فما كنت أُوَلّي رقابَ المسلمين من يبدأ هزْلَه بالبراءة من الاسلام ! ثم قال : يا علّوية لا تقُلْ «برئتُ من الاسلام» ، ولكن قل «حُرِمت

مناي منك إن كان الذي . . » . انتهى ، كذا نقل الأغاني وغيره .

حكى الصَّفَدي عن الحافظ بن عساكر قال : قصد المأمون يومًا من دمشق جبل الثلج . فمرّ ببِركة عظيمة من بِرك بني أمية ، وعلى جوانبها سَروات أربع ، وكان الماء يدخلها ويخرج منها ، فأستحسن المأمون الموضع ، ودعا بالطعام والشراب . وذكرَ بني أمية ، فوقّع منهم ونقصّهم ، فأخذ علوية العود وغنّى شعرًا :

أرى اسرتي في كل يوم وليلة يروح بهم داعي المنايا ويغتدي
أولئك قومي بعد عزّ وثـروة تفانوا وإلاّ تذرف الدمع تكمدِ

فضرب المأمون بكأسه الارض ووثب وقال لعلوية : يا ابن الفاعلة ، أما كان لك وقت تذكر فيه مواليك غير هذا الوقت ؟ فقال : مولاكم زرياب عند مولاي يركب في مائة غلام وأنا عندكم أموت من الجوع ! فغضب عليه نحو شهر ورضي عنه . وزرياب ، مولى المهدي جدّ المأمون ، وصل الى بني أمية بالاندلس . وعكست حاله فصلحت بالاندلس حتى كان كما قال علّوية . انتهى

لطيفة ، قيل إن أول من لقّب بالمأمون المأمون بن الرشيد ، ولقّب بذلك ولد المعتمد بن عباد ، ولقب بذلك أيضًا يحيى /219ب/ بن ذي النون صاحب طليطلة . ويحكى عنه أنه بنى قصرًا بطليطلة ، وتأنّق في بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيرًا وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبّة وسيق الماء الى رأس القبّة حواليها محيطًا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبّة في غلالة ماء سَكْب لا يفتُر والمأمون بن ذي النون قاعدٌ فيها لا يمسّه من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشّمع لفعل . فبينما هو نائم فيها إذ سمع مُنشدًا ينشد :

أتبني بناء الخالـدين وإنما بقاؤك فيها لو عقِلْت قليلُ
لقد كان في ظلّ الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيلُ

فلم يلبث بعد هذا إلاّ يسيرًا حتى قضى نحبه ودخل في خبر كان . انتهى ، كذا نقلته من بعض الخطوط (انظر حول نسبة الكتاب واتفاق ابن وادران هنا مع الدرّ في هذه العبارة المقدمة) .

قيل دخل المأمون على وزيره أبو عبّاد ، وكان شيخًا كبيرًا قد أتت عليه مائة وعشرون سنة ، فقال له : ما شرابك ؟ قال : الشديد الإبطاء ، البعيد أنسبَ من النار . قال : كم تشرَب ؟ قال : عشَرة على الحديث وأضعافها على الصّفير . فقال المأمون : البهائم تشرب على الصّفير ، فكيف بنو آدم ؟ انتهى .

وقيل ذكر في مجلس المأمون كثرة شُرْب النبيذ وقلّته واختلاف الناس في ذلك ، فقال المأمون بديهًا :

ثلاثةُ أرطال لذي اللبِّ مَقْنَعٌ ... وفي أربع أنسٌ له وتمتُّعُ
فإن كان من يهواه حاضرٌ شربه ... فحُقّ عليه خمسةٌ لا تضيَّعُ
/220/ ويزدادُ رطْلا إن رأى منه عّفة ... فيُكْمل عند المشيئة اللّهْو أجمعُ
ولا خيرَ في شُرْب الفتى بعد ستّة ... ولا عيشَ إن جاوزت ذا ينفَعُ

انتهى ، كذا من الاغاني .

وقال في زهر الآداب ، إنّ المأمون سمع بعض ندمائه ينشد قوله :

سألتُ أخي أبا عيسى ... وجبريل له عَقْلُ
فقلت الرّاح تُعْجبني ... فقال كثيرها قَتلُ
وجدت طبائع الانسا ... ن أربعة هي الأصلُ
فأربعة لأربعة ... لكلّ طبيعةٍ رطلُ

فقال : إذًا أخطأ جبريل ، إذًا صحّ بدَنُ الانسان وأكل وشرب ما شاء لم يَضُرّه ذلك ، وإذا كان سقيمًا فالجُرعة تؤْذيه وتؤلمه ، فضلا عن أربعة أرطال . انتهى .

وقال المأمون لسهل بن هارون : ما تقول في الطِّلاء ؟ فقال : مصحّحة للبدن ، مطيّبة للنفس ، تفتح له العروقُ أفواهَها كما يفتح الفِراخ أفواهَها للزَّقّ . وزعمت الفلاسفة أنّ الذي يُذهب الهمّ ويطيّب النفس عند تناول الشّراب أنه يبسُط الدم الغزير في البدن ، فيكون من ذلك الفرَح والنّشاط . فقال المأمون : شرب الرّاح كيمياء الأفراح ، والكرَم مشتقّ من الكرْم ، فلا يجب أن يشارك فيه اسم كريم .

وشرب عبد الله بن طاهر مع المأمون فقال له : يا عبد الله غنّ لحنك الهزَج الذي صنعته ! فغنّى بهذه الأبيات :

وقهوةٍ صهباءَ مشمولــةٍ	إحدى السبايا من قرى بابلِ
ما نزلت بالهمّ إلاّ دعا	بالريح والويل من النّــازلِ

وقال أيضًا :

أعجبتني ان أناخ لي الـدّهـ	ـر فحاكمْته الى الأقـداحِ /220ب
لا تزال الهموم انشى أقـــدا	حًا حداد الشّرب ماء القَراحِ
أحمد الله صارت الكأس تأسوا	دون إخواني الثّقات جـراح

فطرب المأمون وشرب ثلاثًا ، وقال : أحسنتَ يا عبد الله ، أيي الشراب أحبّ اليك ؟ قال : الخمرُ معشوقة الدّنيا ، ريحها الرّاح ، موقع الروح من الأبدان موقع القَطْر من الجدْب .

وأنشد عمرو بن شبة الى المأمون :

صِلْ النُّدْمانَ يوم المهرجان	بصافٍ من مُعتّقة الدِّنانِ
وجنّبْنــي الـزّبيبين طُـرّا	فشأن ذوي الزّبيب خلافُ شاني

ونقل ابن شبّة عن أبي محمّد اليزيدي قال : دخلت على المأمون يشرَب وعَريب ومحمّد بن يسخبز يغنّيانه فقال : أطعموا أبا يزيد شيئا ! فقلت : أما

ترى عِتْق هذا الشراب حتى لم يبق إلاّ أقلّه ! قال : ما أحسنُ ما قيل في قديم الشراب ؟ قلت : قول الحكم . قال : قل ! فقلت :

عَتَقتْ حتّى لو اتّصلتْ   بلسان ناطـق وفـمِ
لاختفتْ في النّوم ماثلة   ثم قصّت قصةَ الأمـمِ

فقال : قد كان هذا في نفسي ، اعطوا أبا محمّد رطلين وأعطوه عشرين ألف درهم . ثم نكت في الأرض ورفع رأسه فقال : يا محمّد ، قد قلتُ شعرا في شرابنا . ثم أنشد :

أنا وأنتَ رضيعا قَهْوة لطُفتْ   عن العيان ودقّتْ عن مدى القِدَمِ
ما بيننا رحِمٌ إلا إدارتـهـا   والكأس حُرْمتها أوْلى من الرَّحِمِ

وقال النظام : ما حسُنت الدّنيا ولا خُطِبت أبكار اللذّات ولا جُنِيت ثمارالمسرّات بغسل الهموم والآصاب كما يَغْسِل /221/ الصّابون دنَس الثياب . إذا نَزَل العُقار ارتْحلَ الوَقار !

وقال عبد الله بن طاهر : التبذُّل على النبيذ ظُرْف ، والوقار عليه سُخْف . وقال :

أقمنا أكلنا أكلَ اسـتيلاف   هناك وشربنا شُرْب يُـدارُ
ولم يك ذاك سُخفًا غير أنّي   رأيتُ الشَّرْبَ سُخْفُهُمُ الوقارُ

قال اسحاق الموصلي ، قال لنا المأمون يومًا : ما ألذُّ الغناء ؟ فقال كلّ واحد منّا ما عنده . فقال المأمون : لكنّه ما أطرب السّامعين خطأً كان أو صوابًا (أسقط الاعراب هنا) !

وكان المأمون يحبّ الغناء ، ويعظّم إسحاق لأجله ، على أنه كان أجلّ من ذلك . قال بعضهم ، قال المأمون : لو لا الإسم الذي سبَق لإسحاق عند العامة لأوْليته القضاء ! على صحّة علم المأمون ، وتمام معرفته . وقيل ، مملكته .

وكان اسحاق إذا خاض في شيء من العلم في مجلس الملوك إلتفتوا اليه واستمعوا وأصغوا اليه . وأما علمه بالغناء وتقدّمه فيه وحفظ الأخبار ومعرفته بالأوتار وعِلَلها فشيء مما لا يُلحَق فيه .

يروى عنه أنه دخل على المعتصم ، وهو خليفة ، وفي مجلسه ثماني عشرة مغنية ، تسع منهنّ فوق تسع ، وابراهيم بن المهدي حاضرٌ . قال اسحاق : فسلّمت فردّ عليّ السّلام ثم أومأ اليّ بالجلوس ، فجلست . ثم قال : لي يا اسحاق ، كيف تسمع هؤلاء الجواري ؟ قلت : أسمع خطأً يا أمير المؤمنين . فقال لابراهيم بن المهدي : ما تقول فيما يقول ؟ فتسَمَّع ، وهنّ يضربْن جميعًا ، فقال : ما أرى شيئا أنْكره . 221ب فقلت : يا أمير المؤمنين ، أناظره على أنه هو سيّدي وأنا عبده ، أو أناظره على الإنصاف . فقال : بل على الإنصاف .

فقلت : أعِد النّظر ! فضربْنَ ، وتسمَّع فقال : ما أرى شيئا أنكرُه ! فقلت : إنّ الخطأ في حيّز هؤلاء التّسع دون صواحبهنّ . وأفردتُهن ، فسمِعهنّ وقال : ما أرى بأسًا . فقلت لسائر الجواري : أمسِكْن ! وأمرتُ الجارية التى كان الخطأ في عودها ، فغنّتْ مفردة . فقلت له : كيف تسمع ؟ فقال : نعم ، ههنا وترٌ معتلّ ! فقال المعتصمُ : فهِم اسحاقُ اعتلالَ وتر واحد في مائة وأربعة وأربعين وترًا ولم تفهمه أنت حتّى أُفرِدَتْ صاحبتُه ، إنّ بينكما لتباينًا بعيدًا ! انتهى ، كذا ذكر أبو الفرج الأصفهاني .

قيل كان المأمون في جلسائه وندمائه ، وتجاذبوا الكلام الى أن ذكروا الموسيقية . فسألهم المأمون في ذلك ، فقال سَهْل بن هارون : يا أمير المؤمنين ، وإن صناعة الألحان واختراعها وتأليف الأوتار والأنغام وابتداع الألحان الى الأصوات ذوات النّغم والإيقاع لمؤلّفٌ على أعداد هندسية ؛ وزعم قوم أنّ الألحان على أعاريض .

فقال اسحاق الموصلي : هذا قولُ من لم يدْر هذه الصناعة ، يا أمير المؤمنين . بلغني أن اليونان رتّبتْ الألحان على النّسب الفلكية في النّغم والأصوات .

فقال له المأمون : والأمر كذلك ، يا اسحاق ، إعلم أنّ التي عليها مدار الوجود أربعة . أفضلها ، المآكل لعدم قيام البدن بدونها ، ويليه السّماع لتعلّقه بالطباع /222/ النفسانية ، وهي أشرف جزء البِنْية ، ويليه النّكاح لتعلّقه بإيجاد النوع ، ثم الملبس لحفظ البدن .

ونقَد بعضهم هذا (هنا يقول الدرّ : «قلت») ، بأنّ النّكاح والمأكل كلاهما من تعلّقات البهائم أصالة ، فما زاد عن توليد النوع وإقامة الجسم فيهما فيه نظر . وأمّا السّماع فلْيُسْتكثَر منه ما شاء ، لأنه أقلّ الأربعة حاجات الى مُزيلة خارجة ، بل كلّما وافق الدّعَة أو السكون كان أدخل في المزاج . ثم لا يُختلف بالنسبة الى النّفس من حيث الآلات اختلافًا يعتدّ به ، وإنما الاختلاف من حيث اللّحون والأغاني . ولهذا ، إنْ كانت في ذكر الشجاعة والحرب ناسَبَ أهل طالع المريخ والغضب وكانت أكثر حظا من الحيوانية ؛ وإن كانت في العشق ومحاسن الأغزال ولُطف الشمائل ومدح أهل الأدب ناسب أهل الزّهرة وعُطارد ؛ وإن كانت في الديانات والزّهد ناسب أهل المشتري ؛ وإن في الكِتاب والحساب وتدبير الممالك فأهل القمر وعُطارد ؛ وإن في السلطنة وعلوّ الهمّة فأهلُ الشمس .

وأكثر النّفوس حظًا من هذه الأقسام النفسية الناطقة وأقواها العاقلةُ والعاملة . وإن كانت تتعلق بالمآكل والمناكح والتطفّل وغير ذلك فأهلُ حضيض السفليات .

وكان بطليموس يقول : الألحان أشرَفُ المنطق ، ولذلك ترتاح اليها النّفوس أكثر ارتياحًا .

وقال أفلاطون : من حزِن فليسمع الألحان المطربة ، فإنّ النفس إذا حزِنت خمَد نورها ، فإذا سمعتْ من يُطربها /222ب/ اشتعل منها ما خمد .

وسئل أبو سليمان المنطقي لِمَا صارت الطبيعة محتاجة الى الصناعة ، فإنّ (في الاصل : «في أنّ») الشخص يكون بغيض المنظر والقرب ، فإذا غنّى بألحان (في الاصل : «بالالحان») مطربة عشِقه قِرْنه وأقبل الطّرْف عليه ؟ فقال : إن

الطبيعة إنما احتاجت الى الصناعة في هذا المكان ، لأن الصناعة هنا تَسْتَمْلي من النفس والعقل وتُمْلي على الطبيعة . وقد صحّ أنّ الطبيعة مرتبتُها دون مرتبة النفس ، وأنها تعشق النفس وتَقْبَل آثارها وتكتُب بإملائها . والموسيقيّ إذا صادف طبيعة قابلة ومادة منقادة أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوسًا شريفًا وأعطاها صورة معشوقة ، فمن ههنا احتاجت الطبيعة الى الصناعة ، لانها وصلت الى كمالها من ناحية النفس الناطقة بوساطة الصناعة الحاذقة ، التي من شأنها استملاء ما ليس لها ، وإملاء ما يحصل فيها استكمالاً لما يأخذ لا لما يعطي؛ فأمّا الأوماء والأنقار فإشارة الى الآلات المطربة الملهية ، من العيدان والدفف وما أشبه ذلك .

وقال ابن ماسويه : يا أمير المؤمنين ، ومتى وقع السّماع ولم يُصِب غرَض الطالب فلآفةٍ مَنعتْ ، إمّا من حيث الآلة أو اللّحن أو الضّارب أو الطالع أو شُغْل قلب السامع لمهمّ ، فيتعذّر («فليتعذر») ذلك أوّلا ، ثم الصوت ، وهو الهوى الممتزِج بين قارع ومقروع ، فإن تجوّف كثيرًا أو صلُب ييس ، أو اختلف الطُّرْقُ فسدَ . وأصحّ الألحان تنزيلُ ذلك الصّوت /223/ على النِّسب المخصوصة والسّماعُ لإصغاء ذلك (ويواصل الدرّ في نص طويل ، 149أ ، نقل كلام ابن ماسويه تحت عنوان «بقية كلام ابن ماسوية») .

[إذا عرفت هذا ، فاعلم أن فواصل الألحان تكون بالحركة والانتقال ، ويقابل هذه جنس الحركة في النّبض؛ وقد عرفت أنها إمّا سريعة أو بطيئة . ولا شكّ أن الإيقاع والألحان إذا دخلا في السّمع أوجب سرَيان الهواء عنهما حركة القلب ، وهي توجب تغيّر النّبض لذلك ، توضّح عمّا أخبَأتْه الطبيعةُ خصوصًا في نحو الجنون والعشق .

ثم الصوت الكائن 'حَ' (بعلامة مدّ فوقها) ، إمّا عظيم أو جَهْر أو حادّ وأضدادها . وهذا الجنس عليه تتفرّع الأنباض . وزاد بعضهم السّرعة في الصوت . والصحيح أنها من الحركة والحِدّة والغِلظ كالصّلابة واللين . ويظهر

كلٌّ بالاضافة . ولـمّا كان بالضّرورة بين كلّ حركتين سكون لا محالة ، لانتقال («انتقال») الحركة كما مرّ ، وجَب انقسام الأصوات الى منفصلة ، يقع السّكون بين نغماتها كالأوتار . وهي إمّا حادة («عادة») وعليها ساعة الضّرْب الواقع من الحُمّيات الحادة وعليها العكس ، ومن الكم متّصلا كالمزامير والمقابل لهذا النّبض السريع . وحاصل الحِدّة راجع الى خرْق الوتر ، كما أنّ في سرعة النبض وصلابته تكون عن فرط الحرارة والحميّات وبالعكس . فإذا تألّف على نِسَب طبيعية حدث الاعتدال .

وهذه الصناعة ، التي هي الغناء ، مؤلّفة من سبَب ووتِد وفاصلة كالعَروض. فالسبب هنا نقرة يليها سكون ، وهذا إجراء النّبض ؛ والوتِد سكون بين اثنتين والفاصلة بعد ثلاث . وهذه كالنّبضة الواحدة كما مرّ ، لأنّ بهذا القدر تتوطّن النفسُ على نسبة الإيقاع والطبيبُ على حال البدن . فإذا تركبّت أثناؤه كان الحاصل تسعة وثلاثة من عشرة ؛ ولا يخفى التفريع . ولذلك كان النّبض بالقسمة الأولية والمزاج والنسب والأوتار تسعة عشر ، وإن تأصلت أربعة كمثلّثات الفلك ، وتسعة كالنقلة فيه وكالرّمْل ، واثني عشر كالبروج ، وستّا وثلاثين كالوجوه ، وتسعين كدَرْج الربع المجيب ، ومائة وعشرين كالقُطْر ، الى غير ذلك . وكلّ أوتاره آلة ، ألاَ ترى أنّ القانون مائة وعشرون ، كلّ أربعة نسبة والتسعة للعود والاربعة للدَّرج والثلاثمائة والستين أوزانات لذات الشّعب ، وهكذا . ومن ثمّ يختلف الإيقاع والآلات كالأزمنة والبلدان ، فقد صرّح الموصلي وغيره لوجوب الأوتار سببًا وضربًا نحو القانون فيه لكثرته وكون أوتاره من الشّريط النّحاس وهو الآن المعروف بالصّنطير . فإن ذلك يوجب الحِدّة ، وهي تجرّ للحرّ واليبس وذلك يوجب الاعتدال حينئذ ، وفي الصيف بالعكس . وقس باقي الطواري ترشد .

وإذا عرفت أنه لا بدّ من كلّ نقرتين من سكون ، فإن ساوى زمنه من النّقرة الواقعة قبله وبعده ، فهذا النّمط هو العمود الأول ويسمى الخفيف المطلق ،

وإن طال زمن السكون على زمنها فهذا هو العمود والخفيف الثاني ، وعلى الأول سواتر النبض والثاني متفاوتة . هذا إذا كان ما زاده السكون عليهما قدْر نقرة ، فإن كان بقدر اثنتين فهو الثقيل الثاني ، وما زاد على ذلك فغير مستلذّ . وعلى كلّ من الأربعة يتخرّج وزن النّبض وقد سبق .

ثم الجنس التاسع الذي هو كالأصل ، ويتبع هذه النّسب في الثقيل والخفيف /150أ/ والحركة والسكون سواء واختلاقًا على نظْم طبيعي أو غير طبيعي أو بلا نظم كما ستراه . فهذا غاية ما يمكن تطبيق النّبض عليه من هذا العلم .

تنبيه : ولما كان الالتذاذ بهذا العلم موقوفًا على الآلات ، وكانت كثيرة مختلفة ، بحسب الأزمنة والأمكنة والأمم ، وكان ألذّها من الآلات هذه الآلة ، المصطلح عليها الآن الموسومة بالعود ، المركّبِ من أربعة في المضاعف عند بعض الناس الى ثمانية لشهرته والاتفاق عليه دون غيره . وإن أردت أن نضرب لك مثلا لمناسبة به ليكون أصلا لكل ما أرشدتك («رشدتك») اليه فتجعل التصرّف بحسبه ، فنقول الواجب في هذه الآلة أن يكون طوله مثل عرضه مرّة ونصف ، وعمقه كنصف عرضه ، وعنُقه كربع طوله ، والواحدة تخرم الورقة من حيث كونه خفيفًا ووجهه أصلب ، ويمدّ عليه أربعة أوتار أغلظها البم بحيث يكون غِلظه مثل المثلث الذي يليه مرّة وثُلث ، والمثلث الى المثنى مثله كذلك مرة وثلث ، والمثنى مثل الزير . وقد أضبطوها بطاقات الحرير ، فقالوا يجب أن يكون البم أربعًا وستين طاقة والمثلث ثمانية وأربعين ، والمثنى ستة وثلاثين ، والزير سبعة وعشرين ، وتُجعل رؤوسها من جهة العنُق في ملاوي والأخرى في مشط ، فيتساوى أطوالها ثم يقسّم الوتر أربعة أقسام طولا ، ويشدّ على ثلاثة أرباعه مما يلي العنُق أيضًا ، وهذا دُسْتان الخنصر ، ثم يقسّم الآخر تسعة ويشدّ على تسعة مما يلي العنق أيضًا وهذا دُسْتان السبّابة ، ثم يقسّم ما تحت دُسْتان السبّاسة الى المشط أتساعًا متساوية ، ويُشدّ على التّسع مما يلي المشط ، ويسمى هذا دُسْتان البِنصر ، فيقع فوق دُسْتان الخنصر مما يلي السبّابة ثم يقسّم الوتر

وتشدّه ، فهو دُسْتان الى غاية معلومة يسمّى الزّير ، فيخرق المثنى على نسبة ملية في الانحطاط . وهكذا مع الخَبْس بالخنصر والضّرْب حتى يتساوى .

فالزّير كعنصر النار في الطبع والتأثير ، والمثّنى كالهواء والمثلث كالماء والبم كالتّراب والتطبّق على الأخلاط والأمزجة إفرادًا وتركيبًا . وتقوى ما يكون عن الأخلاط من سجايا وأمراض وأمكنة وأزمنة حتى قيل إنّ لطف الهواء بالنسبة الى الماء والماء الى التراب كما مرّ في الأوتار .

وأما تصنيفهم هذه كالأوتار حتى جعلوها ثمان ، فلِمّا مرّ من أنها أول مكعب مجدور، لأنّ المرض كذلك ، فشاكلوا بذلك مزاجها . /151ب/ وقد قيل إن هذه النسبة مستمرّة الى الفلك ، فإن قطر الأرض ثمانية ، والهواء تسعة ، والقمر اثنا عشر ، وعُطارد ثلاثة عشر ، والزّهرة ستة عشر ، والشمس ثمانية عشر ، والمريخ واحد وعشرون ، وزُحل سبعة وعشرون وأربعة أسباع ، والثوابت ثلاثون ، ولأن القسمين داخل في أشياء كثيرة منها تضاعف المزاج والطباع .

وبالجملة فقد اختلف ميل طوائف العالم الى مراتب الأعداد كما عشقت الصوفية الواحد فطوَتْ الأشياء فيه ، والمجوس الاثنين ، والنّصارى الثلاثة ، وأهل الطبائع الأربعة ، وأهل الأوفاق الخمسة ، والهندسة الستّة ، والحكماء والفلكيين السبعة . والذهن من حيث هو يَستحسن النِّسَب حتى إذا برزت الى الخارج زادت البسطتان الكتابة بحسب مناسبة حروفها استقامة وتدويرًا وغلظًا بحسب الأمم لا تخرج من خط مستقيم ومقوّس ومركّب منها .

ثم قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية ، ثقيل الأول من تسع نقرات ثلاثة متوالية وواحدة كالسكون فخمسة مطوية الأول ، وثقيل ثاني من أحد عشر ثلاثة متوالية وواحدة ساكنة فثقيلة فنسبة مطوية الأول ، وخفيف الثقيل الأول من سبعة ثنتان فثقيلة فأربع مطوية ، وخفيف الثقيل الثاني من ستّ ، ثلاثة متوالية فسكون ثم ثلاثة ، فرمَل من سبعة ثقيلة فمتواليات فسكون ، هكذا الى آخره ، وخفيفة من ثلاث نقرات متوالية متحركة ، وخفيف الخفيف من

نقرتين بينهما سكون قَدْر واحدة ، وهجَز من نقرة كالسكون ، ثم سكون قدر نقرة ثم بين كل اثنين سكون . فهذه أصول التركيب وإنما تُكرِّر بحسب إشفاء الأدوار . انتهى] .

وقال غيره : النّغم ، فضْلٌ بَقِيَ من المنطق لم يقْدِر اللّسان على استخراجه فاسْتخرجتْه الطبيعة بالألحان على التّرنيم لا على التقطيع . فلمّا ظهَر عشِقته النفس وحنّ اليه الطّبع .

فقال سهل بن هارون : يا أمير المؤمنين ، قد رأيناه في ترنيم فرفوريوس ، من أنه قال للمعلّم حين فرَغ من المنطق : هل أبقيتَ ؟ قال : نعم ما دوّنته نصفُ ما أدّته الألفاظ ، وبقي في النّفس نصفٌ لا يدخل الألفاظ بل هو مجرّد الهواء (أضاف الدرّ هنا ، 148أ : «قلت وهذا كلام مادة وزيادة لمن تأمل ما وقع في الهندسة والنجوم وغيرها من العلوم») . اه .

واختُلف فيمن وضع المويسيقى ، فقيل بطليموس . وقيل غيره والصحيح أنها قديمة موجودة في تعاليم الفلاسفة الاولى ، وإنما الأشهر بطليموس أوّل من أفرد لها كتابًا وسماه كتاب اللحون الثمانية ، ولها ألقاب وأوضاع معروفة .

قال بعضهم (هنا يقول الدرّ : «قلت . . ») : وقد كان غناء النّاس اختياريًا ، يأخذونه قياسًا على نطق الحيوانات ، فألطفُها ما يُحاكَى به الطير البرّي عند الصّباح في الرّياض المشتبكة ذوات المياه الجارية ، العندليب والهَزار والمطوّق ؛ ومنهم من يقيس على محرّكات المياه في المصابّ المختلفة والنواعير والدّواليب ؛ ومنهم من يُحاكي الهواء عند حُلوله في منافذ الطيور وغيرها ؛ ومنه أُخذ ذوات الشّعب المثمّنة على ما ذكر (هنا يقول الدرّ ، 148ب : «رأيت . . ») في الاستدراك والأسرار اليونانية . وأكثر ألحان الصين عليه الى الآن . وأمّا الهند فقد لحّنوا على طَرْق الأواني المجوّفة وغايروها بالماء على أنماط مختلفة ؛ والرّوم بالنّحاس والخشب ، وعلى ذلك لُحِّنت الأناجيل في الكنائس . واستمرّ الأمر حتى ظهر العود /223ب/ والآلات المطربة الذي نحن عليها الآن .

ويقال إنّ أوّل من اتّخذ [العود]بنُ متوشلخ (فراغ بقدر كلمة «العود» ، التي يفهم مقامها مما سبق . وفي الدر «من اتخذ ملك بن متوشح») . على أمثال فخذ آنية الميت . وهو قول ضعيف . وقيل بطلْيموس ، وقيل بعض حكماء الفرس وسمّاه البُربط . وتفسيره باب النجاة (في الاصل: «البربط تفسير باب النجات») ، ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة . وجُعلت أوتاره أربعة بإزاء الطبائع : فالزّير بإزاء المِرَّة السّوداء ، والمتبنّي بإزاء الدم ، والمثلّث بإزاء البلغم ، والبم بإزاء المِرّة الصّفراء . فإذا اعتدلت أوتارُه المرتّبة على ما يجب جانست الطبائعَ ، وأنتجت الطّرْب ، وهو رجوع النّفس الى الحالة الطبيعية دفعة واحدة .

وأوّل من اتّخذ الدُّفَف لوبا بن الملك .

واتّخذت العرب القصَب والتوقيع عليها .

واتّخذت الفرس الصُّنوج وأشباهها .

وكلّ ذلك موضوعُ نَقَرات معدودة ووَقَفات بينها .

وأوّل من غنّى من العرب على العود بألحان الفرس النَّضر بن الحارث بن كِلدة . وقد وفد على كسرى بالحِيرة ، فتعلّم ضرْب العود والغناء . وقدِم مكة فعلّم أهلها .

وأوّل من غنّى في الاسلام سعيد بن مِسْجح . وقيل طُويْس ، وذلك أنّ عبد الله بن الزبير لـمّا وهي بناء الكعبة رفَعها وجدّد بناءها ، وكان فيها صنّاع من الفرس يغنّون بألحانهم ، فوقّع عليها ابن مسجح الغناء العربي . ثم دخل الى الشام فأخذ عن ألحان الرّوم ، ثم رحل الى فارس فأخذ الغناء وضرْب العود واتّبعه مَن بعده .

قيل ، وقد بُدىء هذا العلم بيَطْليْموس وختم الآن بإسحاق بن ابراهيم الموصلي (يظهر أن كاتب هذا الكلام معاصر لاسحاق بن ابراهيم الموصلي . أي

من القرن الثالث . والعبارة الواردة غير موجودة في الدرّ) . انتهى .

كذا حكاه غير معزوّ الي أحد . وإنما ذكرنا ذلك على ما فيه من الفائدة ، لأنّ أربابَه كانت /224/ على عهد المأمون رحمه الله ، وتكلّم فيه بمجلسه ، فناسب ذكره واقتضاء المقام . انتهى .

قيل ، إن المأمون كان ناظر سهل بن هارونِ في حكماء اليونان وما قد تكلّموا في الحكمة وعلم الفلك وغير ذلك ، فوجده ماهرًا .

فسأله عن اسقبلينوس (الدرّ : «جالينوس») ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد قال : «إنّ الله تعالى أوحى الى اسقبلينوس أنّي الى أن أسمّيك ملكًا أقرب من تسميتك إنسانًا» . وكان معظّمًا عند اليونان ، يستَسْقُون بقبره ، ويُوقِدون عليه كلّ ليلة ألف قنديل . وخلّف ابنين ماهريْن في صناعة الطبّ ، وعهد اليهما ألاّ يعلّما الطبّ إلاّ لأولادهما وأهل بيتهما ، ولا يُدخلا في هذه الصناعة غريبًا .

وكان تعليم الطب تلقينًا الى أن وضع بُقْراط الكتب . وهو السادس عشر من ولده . قال جالينوس : وأما صورته ، يعني المصوَّرة في الهيكل ، فصورة رجل مليح ، قائم مشمّر ، مجموع الثياب ، يدلّ بهذا الشكل على أنه ينبغي للاطباء أن يستعدّوا في جميع الأوقات آخذًا بيده عصًا معوّجة ذات شُعَب ، يدلّ بذلك على أنه مَن تمكّن في صناعة الطبّ وبلغ به من السنّ يحتاج الى عصًا يتوكّأ عليها . وقيل إنما صورة العصَا لأنها كانت من شجر الخَطْميّ ، وأنه كان يُطرَد بها الأمراض ، وأمّا شُعَبها فتدلّ على كثرة أُصناف الطبّ والتفنن فيه . ثم صُوِّر على تلك العصا صورةُ حيوان طويل العمر ، وهو التنّين ، ويُقرِّب من هذا الحيوان لأشياء كثيرة ، أحدُها أنه حيوان حادّ البصر كثير /224ب/ السّهر ، وكذلك ينبغي للطبيب أن يكون في المعرفة والاجتهاد ، والثاني أنه يسلخ لباسه بما يفيده من الصحّة ، والثالث أنه طويل العمر وعلى ذلك تحرص بعض الأطباء .

ويروى أنه عاش تسعين سنة . من كلامه : الصنيعة عند الكَفور إضاعة

للنّعمة بغير معرفة ، كحمار الطّاحون يمشي ولا يبرّح ولا يعرِف ما هو فاعل .

(بياض بمقدار أربع أو خمس كلمات ، وهي التالية ، من الدرّ ، الموضع السابق) [وناظره المأمون على العالم العلوي] فقال : يا أمير المؤمنين ، أوّل من تكلّم فيه هُرْمس . وهو الذي يزعُم قوم من الصابئة أنه نبيّ مرسل ، وأنه إدريس عليه السّلام ، ويُسنِدون اليه شرائعهم ، من تعظيم الكواكب السبعة والبروج الإثني عشر ، والتقرّب اليها بالذبائح والدُّخَن وما أشبه ذلك من مذاهبهم . وهو أوّل من تكلّم في الاشياء العُلْوية من الحركات النُّجومية . وجدّه كيومرت ، وهو آدم عليه السلام ، علّمه ساعات الليل والنهار ، وهو أوّل من بنى الهياكل ومجّد الله تعالى فيها ، وهو أول من نظر في الطبّ وتكلم فيه وصنّف لأهل زمانه كتبًا كثيرة بأشعار موزونة بلغتهم في معرفة الأشياء العلوية والأرضية ، من الماء والنار . وكان مسكنه مِصْرَ ، فحين ذلك بنى الأهرام ومدائن التُّراب . وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البَرابي والجبل المعروف ببربات أخميم ، وصوّر فيها الصّناعات نقشًا وأشار الى صفات العلوم لمن بعده ، حرصًا على تخليدها من بعده .

وتزعم الصابئة أنّ النبوّة بعده لإسقبلينوس ، وكان اسمه بليوس . قد أخذ /225/ العلوم والاسرار عن هُرمس هذا ، وهو هُرمس الهرامسة . وزعم آخرون أن هُرمس صاحب بلينوس كان بعد الطوفان ، وهو غير هذا .

وقال الكِنْدي : هو صاحب كتاب الحيوان ذوات السُّموم . فكان حكيمًا طبيبًا فيلسوفًا عالـمًا بطبائع الأدوية ، جوّالا في الأرض طوّافًا بالبلاد ، عالـمًا بنَصْب المدائن وطبائعها وطبائع أهلها وأدويتها . وهو صاحب الطلسمات الأندلسية ، مثل السّودانية النّحاس وغيرها .

وكان بلينوس هذا ، تلميذه ، سافر معه البلاد . فلمّا خرجا من الهند الى فارس خلّفه ببابل ، وكان قد أخذ عنه جميع علومه . وظهرت له في الطبّ وإبراء المرضى وقائعُ معجزة الى أن اكثرت فيه الأقاويل . فقالوا هو نبي وقالوا

ملك . وزعموا أنّ مولده روحانيّ ، وأنّ الله تعالى رفعه في عمود من نور .

(في الدرّ «اقليدس ينسب اليه») وهو الذي وضع علم الطبّ في هيكل ، يعرف بهيكل اقبلنيوس (في الدرّ «اسقنبليوس») ؛ ويدلّ على ذلك قول جالينوس في بعض كتبه : إنّ الله تعالى لما خلّصني من دبيبة قتّالة كانت عرضتْ حجَجْتُ الى بيته المسمى بهيكل اسقبلنيوس (في الدر «اسقنيلنيوس») . ويقال إن هذا الهيكل بمدينة رومية كانت فيه صورةٌ تكلّم الناس مركّبةٌ على حركات نجوميّة ، وأنه كان فيها روحانية كوكب من الكواكب السبعة . انتهى .

[ثم سأله عن أرسطاطاليس ، فقال :] (في الدرّ 141ب : «ثم قال المأمون لسهل بن هارون : يا فيلسوف الاسلام وفريد العصر والأوان ، أخبرْني عن أرسطوطاليس . قال :) يا أمير المؤمنين ، هو أرسطاطاليس بن يتقوماخوس المعروف بالمعلّم الاول . وأنما سمّي بذلك لأنه أوّل من وضع التعاليم المنطقية وأخرجها من القوة الى الفعل . وحُكْمُه حُكْم واضع النحو وواضع العَروض . وكان تلميذ أفلاطون وكان يحبّه . وسبب محبّته له /225ب/ وإلقاء علومه اليه أنّ أباه كان قد أسْلمه لأفلاطون صغيرًا ومات ؛ فبقي أرسطاطاليس يتيمًا في خدمته . وكان روفسطاليس الملك قد اتّخذ لولده بطافوروس بيتًا للحكمة ، وأمر أفلاطون بتعليمه .

وكان غلامًا متخلّفًا ، قليل الفهم ، وأرسطاطاليس غلامًا ذكيًا حاذقًا . فكان أفلاطون يعلم بطافورس الأدب والحكمة ، وأرسطاطاليس يتلقّى ذلك سرّا ويرْسَخ في صدره . حتى إذا كان يوم العيد ، زُيّن بيت الذهب الذي هو بيت الحكمة ، وأُلبِسَ بطافروس التاج وحضر الملك وأهل المملكة على العادة ، وصعد أفلاطون وولد الملك الى مجلس الحكمة ، وأشرف على رؤوس الاشهاد ، فلم يورد الغلامُ شيئا ، ولا نطَق بحرف ، فسقَط ما في يد أفلاطون واعتذر بأنه لم يقصرٌ في الإلقاء عليه ، ثم قال : معشرَ التلامذة ، مَن فيكم ينوب عن بطافورس ؟ فأبتدر أرسطاطاليس وصعِد الى المجلس المعروف بمجلس

الشّرف ، وأخذ يسرُد جميع ما ألقاه أفلاطون الى ابن الملك ، لم يغادر منه حرفًا . فقال أفلاطون : أيها الملك ، هذه الحكمة التى ألقيتها على ولدك قد حفِظها هذا اليتيم ؛ فما احتيالي في الرِّزق والحرمان !

ثم انصرف الجميع وقد اغتبط أفلاطون بأرسطاطاليس واعتنى به بعد ذلك ، ومكث عنده نيِّفًا وعشرين سنة . وكان يُكثر تعظيمَه ، بحيث إنه كان إذا جلس فيُستَدعى منه الكلام يقول : إصبروا حتى يحضُر النّاس ! وربما قال : يحضُر العقل ! فإذا حضَر أرسطاطاليس ، قال : تكلّموا !

ثم مات أفلاطون وقد أخذ عنه أرسطاطاليس جميع علومه ، /226/ وخالفه في مسائل استدركها عليه . وكان يقول إنّي لأحبّ أفلاطون ونُحبّ الحقّ ، فإذا افترقا فالحقّ أولى بالمحبة !

ثم وضع علم المنطق ورتّب أصوله وقال : إنما فُضِّل الناس على البهائم بالمنطق ، فأحقّهم بالانسانية أبلغهم منطقًا وأوصلهم الى عباراتِ ذات نفسه بالإيجاز . وله في ذلك مسائل ومصنّفات معروفة وكذلك في جميع علوم الحكمة والفلسفة .

وكان قد سُلِّم الاسكندرَ بن فليبس من أبيه ، وعلّمه وهذّبه . وولي الإسكندر المملكة ، وكان لا يُبرِم أمرًا ولا يَنقضُه الاّ بإشارته . فكان بمنزلة الوزير والمشير الى أن توفي الإسكندر . فعاش بعده قليلا ومات . فوضعت جثته في إناء من نحاس ، وقيل في خشبة كالتابوت ، وعُلّقت في جزيرة صقلية ، فكان أهل البلد يجتمعون اليه عند المشاورة والمدارسة في قول الحكمة ويقولون إنّ مجيئهم الى ذلك الموضع يُذْكي عقولهم ويُصحّح فكرهم ، وربما استسقوا بقبره في الجدب .

ومن كلامه ، ممّا كتَب به الى الإسكندر وهو في غاية البلاغة : «أيها الملك ، لا تنخدع الى الهوى ، وإن قيل لك إن في انخداعك له خُداعة ، فقد يسترسل الانسان وهو يظنّ أنه محتفِظ . وأجمع في سياستك بين بَدار لا حِدّة

فيه وريب لا غفلة معه ، وآمزج كلّ شكل بشكله حتى تزداد قوّتك ، وكن عبدًا للحقّ فعبد الحقّ حُرّ ، وليكن وكْدك الإحسان الى الخلق . ومن الإحسان وضع الأشياء في موضعها ، وكن نصيحَ نفسك ، فليس لك أرأف بك منك ، وإذا أشكل اليك أمر فتضرّع الى الله تعالى الذي بلّغك هذه الغاية ، فإنه يَفتح بك المغلَق ، وإذا /226ب/ فاتك شيء فآعلم أنّ ذلك لِسهو عرَض في الشّكر على ما أفادك . ومهما أخطأك شيء فلا يخطئك الفكرُ في الرحيل عن هذه الدار» .

ومن كلامه : إنّ لكلّ شيء صناعة وصناعة العقل حُسْن الاختيار . وقال (في الدر 143أ من قوله سلوا ، الى المصائب وقع تأخيره عما بعده ، وانظر فيما يلي ص /229ب/ ، فقد أعاده منسوبا الى بقراط) : سَلُوا القلوب عن المودّات فإنها شهودٌ لا تقبل الرُّشا . وقال : مقدّم الرأس للفكر ، ومؤخره للذّكر ، والدليل على ذلك أن المتفكّر يطأطىء رأسه والمتذكّر يرفع رأسه ! وقال : من علِم أن الفناء مُسْتَوْلٍ على كوْنه هانت عليه المصائب ! ورأى إنسانًا سمين البدن فقال: ما أشدّ عنايتك برفْع سُور جسمك !

وحكى عبد الله بن طاهر أنّ المأمون قال : رأيت رجلا في المنام قد جلس مجلس الحكماء ، فقلت له : من أنت ؟ قال : أُرسطاطاليس الحكيم . فقلت : أيها الحكيم ، ما أحسنُ الكلام ؟ قال : ما يستقيم في الرّأي . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما يستحسِنه سامعه ! قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما لا تُخشى عواقبه . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما عدا هذا هو ونهيق الحمير سواء ! ثم قال المأمون : ولو كان حيًا ما زاد على هذا !

وقد قيل إنّ هذا الكلام وُجد في كتبه . انتهى .

قال في شرح رسالة ابن زيدون : إنّ أفلاطون بن أُرسطس الالهي آخر المتقدمين الأوائل معروفٌ بالتوحيد والحكمة . ولد في زمن أزدشير الأول ، وتتلمذ لسقراط . ولـمّا اعتلّ سقراط ومات مسمومًا قام مقامه وجلس على

كرسيه . وقد أخذ العلم من سقراط وطيماوس . وكان قد رحل الى مصر فأخذ أيضا عن أصحاب فيثاغورش وغيره ، وضمّ الى علومه الالهية العلوم الطبيعية والرياضية . وهو أحد المشائين /227/ المشهورين ، ومعنى المشائين أنه كان من رأيه الرياضةُ للبدن بالسّعي المعتدل لتحليل الفضول ومدارسة الحكمة في تلك الحال .

ويقال إنه أمر الملوك باتّخاذ بيوت الحكمة لتعليم أولادهم ، فكانوا يتخذون البيوت المذهّبة المزخرفة وتصوّر فيها أصناف الصّور المستحسنة ، التي ترتاح اليها النفوس ثم يتعلّم فيها الصّبي ، فإذا حفِظ علمًا أو حكمة صعد يوم عيدٍ على دُرْج الى مجلس بديع الصُّفَة ، وقد اجتمعت كبارُ أهل المملكة ، فيتكلم بالحكمة التي حفظها على رؤوس الأشهاد وعليه التاج وسمّي حكيمًا . وكلّ ذلك ترغيبًا للصّبي في الاشتغال لما يحصل له من التشريف والسّرور في ذلك اليوم .

(الدرّ 142أ «قال سهل ثم ظهر أمر أرسطاليس كما سيأتي ذكره ، ولأفلاطون . .») ولأفلاطون المذكور آراء ومذاهب أخذها عنه أرسطاطاليس ، وخالفه في بعضها ؛ مثل حدوث العالم وغيرها .

وكان يُصوَّر لأفلاطون ويجيء بها اليه ، فيقول إنّ من خُلق هذه كذا ومن حالها («خالها» ونظنّها خطأً) كذا ؛ فصُوِّرت له صورتُه وسئل عنها فقال : مِن خُلُق صاحب هذه الصورة كذا وكذا ! وهو محِبٌ للزِّنى ، فقيل : له إنّها صورتك ! فقال : نعم ، ولو لا أني أحبِس نفسي عن الزِّنى لفعلت (من قوله وكان يصور الى لفعلت ، غير موجدة في الدرّ 142أ) .

ومن كلامه : إنّ الله تعالى ما يُعطي من الحكمة إلاّ يمنع من الرِّزق (في الاصل ، بسقوط «إلاّ») . قيل له : ولِمَ ؟ قال : لأن الحكمة حظّ النّفس الناطقة والمال حظّ النّفس الشهوانية . والناطقة عالية على الشهوانية . والمال والحكمة متغايران ، فلا يجتمعان .

وقال : لا ينبغي إن فعلتَ شيئا إذا عُيِّرت به غضبتَ ، فإنك إذا فعلت ذلك كنت القاذفَ لنفسك .

وقال : عقول الناس مدوّنة في رؤوس /227ب/ أقلامهم وظاهرة في اختياراتهم . وقيل له : بماذا ينتصف الإنسان من عدوّه ؟ قال : بأن يزداد فضلا في نفسه .

وقال في معنى المُلْك : هو كالبحر تستمدّ منه الأنهار ، فإن كان عذبًا عذُبت وضدّ ذلك .

وقال : ينبغي للّذين يأخذون على أيدي الأحداث أن يدَعوا لهم موضعًا للعُذر لئلا يُضطرّوا الى الحجّة بكثرة التوبيخ .

وقيل له : إنّ فلانًا لا يعرف الشرّ ! قال : فإذًا ، لا يعرف الخير ! يريد أن يكُون الأُمورُ مميّزةً عند الإنسان ، فإنّه بعد تميّزها يختار منها ، وإذا لم يوضّحها التمييز بطُل اختياره ، ومتى بطُل اختياره خِيف عليه أن يقع في مُهلكاتها .

وقال : من القبيح أن نَمْتَنع من الطّعام اللّذيذ لتصحّ أبدانُنا ولا نَمْتَنع من القبائح لتصفوَ نفوسنا . انتهى (هنا انتقل الدرّ الى أخبار ارسطاليس) .

ثم سأله عن بطليموس ، فقال : يا أمير المؤمنين هو صاحب المجسْطي الكبير ، وجغرافيا ، والأسطرلاب ، وكتاب اللّحون الثمانية وغير ذلك ، وهو أوّل من شرح القول على هيئة الافلاك ، وأخرج علم الهندسة من القوة الى الفعل. وأكثر الرواة يقولون إنه ثالث ملوك اليونان بعد الإسكندر . وسبب تملّكه أنّه لما مات ملك اليونان لم يكن في أهل بيت الملك من يصلح للمملكة ، فذكر اليونان رجلا يصلُح ، فقال بطليموس : إنه لا يصلح للمَلك ! قالوا : ولِم ؟ قال : لأنه كثير الخصومة ، وليس يخلو في خصومته أن يكون ظالـمًا أو مظلومًا ، فإن كان ظالـمًا لم يصلح للملك لظلمه ، وإن كان مظلولـمًا لم يصلح لضُعفه . فقالوا : صدقت ، وأنت أوْلى بالملك ! فملّكوه عليهم .

وقال /228/ بعض أهل التاريخ : ليس بطليموس الحكيم من ملوك اليونان ، بل هو رجل حكيم ، كان في زمن انطيبوس أحد ملوك الروم بعد اليونان بملوك كثيرة . والدليل على أنه ليس من ملوك اليونان أنه ذُكر في كتاب المجِسْطي أنه رصد الشّمس بالاسكندرية لبُخْتَ نَصْر سنة ثمانمائة وثمانين سنة . وكان بُخْتَ نَصْر قبل غلبة الاسكندر على دارًا ، ودارا قبل زوال ملك اليونان على يد أغُسْطُس ، ومنذ غلب أغُسْطُس الى أن ملك انطقيوس مائة وتسعون سنة .

وهو الذي وضع الأَسْطُرْلاب ، وهو باللغة اليونانية ميزان الشّمس ، وبه يعرف مقدار السّاعات وأخذ الأرصاد ومطالع الكواكب وغير ذلك ، وبه مثّلت هيئة الفلك وكذلك الأُكْرَةُ (الاكرة ، الحفرة وفي الاصل : «الاكره») .

والأسطرلاب ، كرَة مطبوعة مثل كرة من شمْع ضُمّت («ضممت») عليها اليدان فصارت دائرة . وزعم بطلْيموس أن الافلاك تسعة ، فأَوّلها أقربُها الى الأرض وهو أصغرها وهو فلك القمر ، ثم الذي يليه فلك عُطارد ، ثم الزُّهرة ، ثم الشّمس ، ثم المرّيخ ، ثم المُشتري ، ثم زُحَل ، ثم الثامن فلك البُروج ، وفيه سائر الكواكب الثابتة ، ثم التاسع الفلك الأعظم الحاكم على جميع الافلاك ، ويسمى الأبتر ، لأنه يؤثر في غيره وغيرُه لا يؤثر فيه ، والقَسْر ، لأنه يدير الأفلاك دورة قسرية في كلّ يوم وليلة . وهيئاتُ البروج مثل البطيخة المخطّطة أعلاها وأسفلها كالنّقطتين ، وكلّ بيت بين خطّين بمنزلة البُرْج . ثم إنّ الفلك المحيط يدير الأفلاك الثمانية ، يدور من المغرب الى المشرق ؛ وشبّهوا ذلك بسفينة /228ب/ تجري مع الماء وفيها رجل يمشي مُصعِّدًا .

وحكى أبو حيان التوحيدي أن ابن مكبّر يقول : دون فَلك القمر فلَكان هما سبب المدّ والجزْر ، ويقْطعان الفلك كلّ يوم وليلة مرّتين . وهذا من آرائه التى آنفرد بها ، ولم أجد أحدًا يوافقه عليها ، والصّناعة بُرْهانية ولا أعرف أيّ برهان قام له على هذه الدّعوى .

ومن كلامه : ما أحسن بالإنسان أن يصبر عمّا يشتهي ، وأحسن منه أن

لايشتهي إلا ما ينبغي .

وقال : ينبغي للعاقل أن ينظر كلّ يوم وجهه في المرآة ، فإن رآه حسَنًا ، لم يَشِنْه بقبيح فِعْله ؛ وإن رآه ذميمًا لم يجمع بين قبيحين !

وسمع جماعة من أصحابه حول خيْمة له يقعون فيه ، فهزّ رُمْحًا بين يديه ليعلَموا أنّه بمسمع منهم وأن يتباعدوا منه قَدْر رُمْح ثم يقولون ما أحبّوا .

وكان يقول : إنما نحن كائنون في الزمان الذي يأتي من بعد هذا زُمرًا الى المعاد ، إذ الكون والوجود الحقيقي ذلك الكون والعالم .

ثم سأله عن أبُقْراط فقال : يا أمير المؤمنين ، هو بقراط بن إقليدس ، كان في زمن بهمن بن اسفنديار . ويقال إنه سابع الأطبّة الذين أوّله اسقبلنيوس ، وهو قبل سُقراط وأفلاطون ، وهو الذي نظر في صناعة الطبّ فوجدها قد كادت تبيد لقلة أبناء المعروفين بها من آل أسقبلنيوس · فإنهم كانوا يلقونها لأبنائهم ولا يكتبونها ليتعلّمها غيرهم . فبثّ بقراط هذه الصناعة في الناس وعلّم الغرباء وعهد الى الأطباء عهدًا طويلا مشهورًا .

قال جالينوس في بعض كتبه : إنّ أبقراط كان يعْلَمُ ما كان يعلَمه من الطبّ من النّجوم مالم يكن يدانيه فيه أحد من أهل زمانه ، وكان يعلم أمرَ الأركان التي منها تركيب أبدان /229/ الحيوان وكوْنَ جميع الأجسام التى تقبل الكون والفساد ، وفسادَها . وهو الذي برهن كيف يكون الصحّةُ والمرضُ في جميع الحيوان والنبات ، واستنبطَ أجناس الامراض وجِهات مداواتها .

وهو أوّل من اتّخذ المارِسْتان ، وذلك أنه عمِل بالقرب من داره موضعًا مفردًا للمرضى ، وجعل لهم خدَمًا يقومون بخدمة هؤلاء المرضى ، وسماه أخشيدوكان ، أي يجمع المرضى . وأما لفظ البيمارستان لفظ فارسي .

ولم يكن يرغب في الاتصال بالملوك ، حتى إنّ ملك الفرس كتَب الى عامله من بلاد اليونان يأمره بحمل أبُقْراط اليه لأجل وباء عرَض في بلاده ، وأن يحمل

اليه مائة قنطار ذهبًا ويضمَن اليه إقطاعًا مثلها يستعين به على إخراجه اليه ، وضمِن له مهادنةً سبع سنين . فلم يُجِب أبقراط الى ذلك . وقال أهل المدينة : إن خرج أبقراط خرجنا كلُّنا وقُتِلنا دونه !

وتفسير أبقراط ضابط الخيَل . وكتب كتبًا جليلة وأخباره حسَنة .

ومن طرائف حكاياته ، أن وَلَد أحدُ الملوك عشِق جارية من حظايا أبيه . فنحَل بدنه واشتدّت علّته وهو كاتمٌ خبره . فأحضَر أبُقْراط ، فجسّ نبضه ، ونظر الى بَشْرته فلم ير عليه علّة . فذاكَرَه حديثَ العِشق ، فرآه يهتزّ لذلك ويطرب فاستخبرَ الحال من حاضِنته فلم يكن عندها خبر . فقال : هل خرج عن الدار ؟ فقالت ! فقال لأبيه : مرْ رئيس الخِصْيان بطاعتي ! فأمره بذلك ، فقال : اَخرِج عليّ النّساءَ ! فخرجْن وأبُقْراط واضعٌ يده على نبْض الغلام . فلمّا خرجت الحظيّة اضطربَ عِرْقه وخار طبْعه . فعلِم أبُقْراط /229ب/ أنها المعنِيّة بهواه . فصار الى الملك وقال : إنّ ابنك عاشِق لمن الوصولُ اليها صعب ! قال الملك : ومن تلك ؟ قال : هي زوجتي ! قال : اِنزِلْ عنها ولك منها بَدَل ! فتمنّع أبُقْراط ، وقال : هل رأيت أحدًا كلّف أحدًا طلاق آمرأته ، ولا سيّما الملك في عدْله وإنصافه يأمُرُني بمفارقة زوجتي وهي عَديلة روحي ! فقال الملك : إني أُوْثر ولدي عليك فأعوضّك أحسنَ منها ! فآمتنع ، حتى بلغ الأمر به الى التهديد والسيف ، فقال أبقراط : إنّ الملك لا يُسمّى عادلا حتى يُنْصِفَ من نفسه ما يُنْصف من غيره ؛ أرأيت لو كانت العشيقةُ لابنه حظيةَ الملك ! ففطِن الملك له وقال : يا أبقراط ، عقلُك أتمّ من معرفتك ! ونزل عن الحظيّة لابنه ، وشُفِيَ الفتى .

ومن كلامه : سلُوا القلوبَ عن المودّات ، فإنّها شهودٌ لا تقبَل الرِّشَا (تقدم هذا في /226ب/ وقد نسبه الى أرسطاطاليس) .

وقال : الإقلال من الضّار خيرٌ من الإكثار من النافع . يعني في المأكل والمشرب .

وقال : خيرُ الغدَاء بواكرُه ، وخيرُ العَشاء بواصرُه ، والمبادرةُ به في بقايا

النهار والضوء متمكّن أوْلى من الدّخول به في حدّ النوم .

وقال : إستهينوا بالموت ، فإنّ مرارته في خوفه .

وسئل : كم ينبغي للإنسان أن يُجامع ؟ قال : في كلّ سنة مرّة ! قيل : فإن لم يقدِر ؟ قال : في كل شهر مرّة ! قيل : فإن لم يقدِر ؟ قال : في كل أسبوع مرّة ! قيل : فإن لم يقدِر ؟ قال : هي روحه متى شاء أخرجها !

ولـمّا حضرته الوفاة قال : خذوا منّي العلم ، مَن كثُر نومه ، ولانتْ طبيعته ونديَتْ جِلْدته طال عمُره .

ثم سأله عن جالينوس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هو آخر /230/ الحكماء المشهورين ، ويسمَّى خاتمة المعلِّمين . وذلك أنه عندما ظهر وجد صناعة الطبّ قد كثُرت فيها أقوال الأطباء السوفسطائيين ، ومُحيت محاسنها ، فأنتُدب لذلك ، وأبطل آراءهم ، وشيّد رأي أبقراط والتابعين له ، وساح وتطلّب الحشائش وجرّب وقاس أمزجتها وطبائعها وشرّح الأعضاء ، ووضع الكتب النفيسة في هذه الصناعة ، وهي مادة الأطباء الى اليوم . وأشهرها الكتب الستّة التى شرحها الإسكندَرانيّون ، ولم يأت بعده إلاّ من هو دون منزلته .

وكانت وفاته بعد مبعث المسيح عليه السلام ، ولم يره . وحُكي أنه لـمّا بلغه من دعوة المسيح صلوات الله عليه وسلامه ، مِنْ إحياء الموتى وخلْق الطير وإبراء الأكمه والأبرص ، قال لمن حوله من التلامذة : إن عُلم من هذا المدّعي بما لا يُستقلّ به من الطبيعة سَفَهٌ قبْل ما آدّعاه لا يخاطَبُ ويُحمل فيما آدعاه على ما تَقدّم العلمَ من السّفَه ، وإن لم يُعلم منه سفهٌ تَقدّم دعواه يُطلب بالبيان ، لإمكانه مما وراء عالم الطبيعة ؛ وذلك سبيلُ كل ناطق يقوم في ابتداء كل قرن يأتي في الزّمان للاضطرار اليه عند ظهور الفساد في الأرض ، سبيله الدعوى بما لا يستقلّ به الطبيعة لأنقياد الناس الى طبيعة بعد القيام بصحّة ما آدّعاه ، فمن سلك سبيله بعد ذلك تمّت حركته .

ثم تجهز للاجتماع به ، وسار اليه ، فمات في طريقه بمدينة العرنا ، وهي شاطيء بحيرة تقيس ، وبها قبره .

ولـمّا اشتدّ به المرض قيل له : ألا تتداوى ؟ قال : إذا نزل قضاء الربّ بطُل حذَر المربوب ، ونِعم /230ب/ الدّواء الأجل ! ومات مبطونًا .

وكان أرسطاطاليس مات بالسلّ ، ومات أفلاطون مبَرْسمًا ، ومات أبقراط مفلوجًا . سبحان من قهر عباده بالموت ولم تغن عنهم حكمتُهم شيئا !

ومن حكاياته ، أنه قال : مررتُ بشيخ يزرع شجرة ، فقلت : ما تزرع ؟ فقال : شجرة ثمرتها لي ولك ! فقلت : وما هي ؟ قال : شجرة المشمش ، ثمرتها لي ، لأني آخذ ثمنها ، وهي تُكثر المَرْضى فتأخذُ أنت من أموالهم .

[وحكى عن نفسه في معرفة التّشريح ، قال : أعرف رجلا شكا ضُعف شهوة الطعام ، فوضعتُ على رقَبته أدوية مقويّة ، فبُرىء ، لأن في العضوين المجاورين للعرقين النّابضين شُعبة الى فم المعدة نأى منها الحسّ ، وكان في رقبة ذلك الرجل خنازير فقطَعها الأطباء ، فأضرّ ذلك بتلك القَصَبة التي منها الشُّعبة وبرئت رقبتُه وصار ضعيف الشّهوة عن الطعام ، ووضعت عليها الادوية المقوية فبرىء].

ومن كلامه : الإنسان سِراج ضعيف ، فكيف يدوم ضوء بين رياح أربع . يعني الطبائع .

وقال : الإنسان إلى تجنّب ما يضرُّه أحوج منه الى تناول ما ينفعه .

وقال : من كان له مال ، فليجعلْ نصفَه في النّرجس ، فإنّه راع للدُّماغ ، والدُّماغ راعي العقل !

انتهى ، كذا وجدناه بالمسوّدة غير معزوّ ، والظاهر أنّ هذا ليس جميعه مخاطبة سهل للمأمون ، وإنما أدخل فيه كلام غيره مع عدم تبيينه ، والله أعلم . (يزيد الدرّ ، ص 146أ ، بعد قوله والدماغ راعي العقل ، فقرة طويلة يظهر

أنها شرح لمتن طبي منسجوع ، فيه لسهل بن هارون حديث عن العلاج والمزاج والأعضاء والدواء) .

[وكلاهما قلّدك في العلاج ، وسألك عن المزاج .

قلت : العلاج والمعالجة في اللغة المغالبة ، وسمّي الطبيب علاجًا ، لأن الطبيب يغالب المرض . وقال بقراط : يعالَج الجسدُ على خمسة أضرب ، ما في الرأس بالغرغرة ، وما في المعدة بالقَيء ، وما في أسفل المعدة بالإسهال ، وما بين الجلد بالعَرَق وإسهال الدم . ويحتاج ذلك الى علم الأصول من الاسطقسات والطبائع والأخلاط والقوى والأرواح والأسباب وغير ذلك .

والمزاج في اللغة ، خلط الشراب ، يعبِّر به الأطباء عن تكافىء الطبائع واختلاطها في البدن . والمزاج عندهم تسعة : واحد معتدل ، وثمانية غير معتدلة . وفي الثمانية أربعة مفردة : وهي الحارّ والبارد والرّطب واليابس . والأخلاط أربعة : الدّمُ والمِرّة والصّفراء والمِرّة السّوداء باردة يابسة ، وتُعرف باقسام الأسباب والعلامات ، ويُعرف مزاج غير ذلك بالتجربة والقياس .

وآستوصفك تركيب الأعضاء ، وآستشارك في الداء والدواء .

يشير بذلك الى معرفة التشريح التي أحكمها جالينوس ، وحكى فيها عن نفسه الحكايات العجيبة .

والأعضاء عندهم على قسمين ، قسم مركّب وقسم بسيط ؛ فالبسيط كالعظم والعصَب والعروق ، والمركب كالرأس واليدين والرجلين . ومن الأعضاء أعضاء رئيسة وأعضاء مرؤوسة وأعضاء ليست برئيسة ولا مرؤوسة . فالرئيسة أربعة ، الدِّماغ والقلب والكبِد والأُنثيين ؛ والمرؤوسة ما يخدُم هذه الرئيسة ، وذلك أنّ الدّماغ يخدُمه العصَب ، والقلْب يخدُمه الشرايين ، والكبد تخدُمها العروق ، والأُنثيين أوعيةُ المنيّ . وما ليس برئيس ولا خادم ، كالعظام والغضاريف والشّحم واللّحم والأعضاء التي لها قوة المعدة والكِلى .

والدّاء ، هو المرض الداخل على الأبدان . وأجناسه ثلاثة : الأول فساد المزاج ، والثاني تفريق الاتّصال ، والثالث المرض المشترك .

والدّواء ، ما يُحفظ به الصحّة المزايلة عن البدن ، وما يجلب به الصحّة للبدن المزايلة له . وهو نفس القسم العملي ومداره على الحذق . وكان بقراط يقول : الطبيب الحاذق يُصيِّر السُّمَّ دواءً نافعًا ، والجاهل يُصيِّر الدّواء سُمّا قاتلا ، مثال ذلك الجاهل بالطبّ إذا أخذ الصَّنْدل فسَحَقَه كالكُحْل ثم طلاه على بدن حارّ ، كثير الحرارة ، طليًا ثخينًا دخلتْ تلك الأجزاءُ الرقيقة في منافس الجسد ومسامّه فيؤذي العليلَ ؛ والطبيب الحاذق يأخذ العود الهندي فيسحقُه سحقًا ناعمًا ثم يطليه على البدن طليًا رقيقًا فيتّصل ما فيه من الرطوبة الى حرارة البدن فيبرِّدها ويجِدُ الحَرّ سبيلا الى الخروج فيكون حرارةُ العود مبردة بتبريد الطبيب الحاذق . انتهى].

روض زاهر وحكيم ماهر

قد تقدم ذكر سهل ، فينبغي أن يُعرّف ليُعْرف (انظر كتابنا «سهل بن هارون ، حياته وأدبه» تونس 1980) . قال (الدرّ 140أ) بعضهم : كان في أوّل أمره خِصّيصًا بالفضل بن سهل البرمكي ، ثم قدّمه الى المأمون ، فأعجب ببلاغته وعقله وجعله كاتبًا على خزائن الحكمة ، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت الى المأمون من جزيرة قبرص ، فاْغتبط بها المأمون وأمر الحكماء بتعريبها . وكان سهل خازنها ، فصنّف وكتب على منوال كُتُب منها .

وهو سهل بن هارون بن راهبون الكاتب ، ويكنّي أبا عمرو ، من أهل نيسابور . نزل البصرة فنسب اليها ، ويقال إنه كان شعوبيًا /231/ ، والشعوبية فرقة تبغض العرب وتتعصّب عليها للفرس . وقد انفرد في زمانه بلاغة وحكمة ، وصنّف الكتب الحسنة معارضًا بها كتب الأوائل حتى قيل له بزرجمهر الإسلام. وله اليد الطولى في النظم والنثر . وكان في أوّل [الامر] خصّيصًا

بالفضل بن سهل كما قدّمنا . وصنّف كتاب عفرا وثعلب ، عارض به كتاب كليلة ودمنة ، وكتب سيرة المأمون ، ووضع كتابًا في مدح البخل ثم أهداه للحسن بن سهل ، فكتب اليه الحسن : «قد مدحتَ ما ذم الله وحسّنت ما قبّح الله تعالى ، وما يقوم بفسادٍ صلاحٌ لفعلك ؛ وقد جعلنا ثوابك فيه قبولَ قولك ، فما نعطيك شيئا !

وكان سهل بن هارون من أبخل الناس ، وله في البخل وغيره نوادر حسنة . حكى الجاحظ أنّ سهلا لقي رجلا فقال : هب لي ما لا ضرر به («ملا رزيه» وفي الدر 140ب «ما لا مزية عليك به») عليك ! فقال سهل : وما هو يا أخي ؟ قال : درهم ! فقال سهل : لقد هوّنت الدرهم ، وهو طائع الله في أرضه ، الذي لا يُعصى ، وهو عُشْر العشرة ، والعشَرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دِيّة المسلم ، ألاَ ترى الى أين انتهى الدرهم الذي هونته ، وهل تنمو الاموال الاّ بدرهم على درهم . فأنصرف الرجل ولو لا انصرافه لم يسكت .

وحكى دعبل الخزاعي قال : أقمنا يومًا عند سهل ، وأطلنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فأوتي بصفحة فيها مرق تحته ديك هرم ، فأخذ كِسرة وتفقّد ما في الصحفة فلم يجد رأس الديك ، فبقي مُطرقًا ثم قال لغلامه : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به . قال : ولـمَ ؟ قال : لم أظنك /231ب/ تأكله ! قال : ولم ظننتَ ذلك ، فوالله إني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه ، والرأس رئيس يُتفاءل به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولو لا صوته ما أتيقّظ ، وفيه فَرْقُه الذي يُتبرّك به ، وعينه التي يضرب بصفائها المثَل ، ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم نرَ عظمًا قط أهشّ من عظم رأسه ، فإن كان بلغ من نُبلك ألاّ تأكله فعندنا من يأكله ، أوَ ما علمت أنه خير من طرف الجناح أو الساق ؛ انظر أين رميته . قال : لا والله ، لا أدري ! قال : أنا أدري أنك رميت به في بطنك !

وحكى الجاحظ أن أبا الهذيل العلاف المتكلّم سأله رقعةً يكتبها الى الحسن بن سهل ، يستعينه على ضائقة لحِقته ، فكتب له رقعة ودفعها اليه فأوصلها الى الحسن ، فلما قرأها ضحك وأوْقف عليها أبا الهذيل ، وإذا فيها :

إنّ الضّميرَ إذا سألتُك حاجة لأبي الهذيل خلافُ ما أبـدي
فآمنحْه روح اليأس ثم امْـدُدْ له حبل الرّجاء بمُخْـلِف الوعْدِ
حتى إذا طالت شقاوة جَـدّه وعنائـه فأجـبهْه بالـردّ
وإن استطعتَ له المضرّة فآجتهد فيما يضرّ بأبلغ الجُـهدِ

ثم قال الحسن : هذه صفته لا صفتنا ، وأمر لأبي الهذيل . فعاد أبو الهذيل فعاتبه . فقال سهل : أترى أين غرُب عنك الفهم ، أما سمعت قولي «إنّ الضمير خلاف ما أبدي» فلو لم يكن ضميري الخير ما نلت هذا ! وهذه من مغالطات سهل وبلاغته .

ومن محاسن تعريضاته أنه خاطب بعض الامراء فقال له : كذبت ! فقال : أيها /232/ الامير ، إنّ وجه الكذاب لا يقابلك ، يعني نفسه بذلك ، لأنّ وجه الانسان لايقابله .

ويروى أنّ المأمون كان قد انحرف عن سهل ، فدخل عليه يومًا وقال : يا أمير المؤمنين ، ظلمتني وظلمت فلانًا الكاتب . فقال : ويلك ، وكيف هذا ؟ قال : إنك رفعته فوق قدره ووضعني دون قدري ، إلا أنك له في ذلك أشدّ ظلمًا ! قال وكيف ؟ قال : لأنك أُقمته مقام هَزار وأقمتني مقام رَخْمة ! فضحك المأمون وقال : قاتلك الله ما أهجاك ! ثم رضي عنه . وقد رويت هذه الحكاية لغيره .

وحكي أنّ سبب رضاء المأمون عنه أنه تكلّم بكلام حسَن في محفل فقام سهل فقال : ما لكم تسمعون ولا تَعجبون ، أما والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما قالت وفعلت بنو مروان في الدهر الطويل ! فأعجبَ المأمونَ قولُه

ورضي عنه .

ومن كلامه : التعزية على آجل النّوائب أولى من التعزية على عاجل المصائب .

وقال : مصيبة في غيرك لك أجرها خيرٌ لك من مصيبة فيك لغيرك ثوابها .

وقال : حُقّ على كلّ ذي مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها كما بدىء بالنعمة قبل استحقاقها .

وكتب الى صديق له : «أمّا بعد ، فالسّلام على عهدك ، وداعَ ذي ظنّ بك ، في غير مُقلة لك ، ولا سُلوة عنك بك ، استسلامًا للبلوى في أمرك وإقرارًا بالعجز عن استعطافك الى أوان فَيْأتك ، أو يجعل الله لنا دولة من رِجْعتك» .

وقال : تعلموا العلم ، فلئن يذمّ الزمان لكم خيرٌ من أن يذمّ بكم .

وقال يومًا : ثلاثة من المجانين ، الغضبان والغيْران والسّكران . فقال شخص من العوام : فما تقول في المنعِظ ؟ فضحك ! /232ب/ وقال :

وما شرُّ الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذي لا تصحبينا

وكان شدّاد الحارثي قد وصف الذهب يمدحُه فأطنب فيه ، والنّظّام قد ذمّ الزجاج . فعارضهما برسالة يفضّل فيها الزّجاج على الذهب يقول فيه : «الزجاج مجلوّ («مخلق») نوري ، والذهب منّاع ساتر ؛ والشراب في الزجاج أحسن منه في كلّ معدن ، ولا يُفقد معه وجه النديم ، ولا يُثقل اليد ، ولا يرتفع في السوم («السموم») ؛ واسم الذهب يتطيّر منه ، ومن لؤمه سرعته الى اللئام ، وهو فاتن فاتك لمن صانه ، وهو أيضًا من مصائد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجالَ الأحْمران . والزجاج لا يحمل الوضَر (الوضر ، الدرن والدسم . وفي الاصل «الوثير») ولا يتداخله العمرَ ، ومتى غسل بالماء وحده عاد جديدًا ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبة وصناعته أعجب (وأوردت كتب أخرى هذه الرسالة بشيء من التطويل . انظر كتابنا سهل بن هارون ، حياته وأدبه) .

ومن كلامه في كتابه عفرا وثعلب : «اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدّمًا قبل الذي تؤدونه من فعلكم ، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء في أداء الفريضة شاهدٌ على وهَن العقيدة والتدبير ، ومُخلّ بالاختيار ، وليس في نفع تحمدته («محمدته») عِوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة» .

ومن شعره :

إن كنت أخطأت أو أسأت معي — فضلك مأموى للعون والمتن
أتيت ما استحق من خـطأ — فجد بما تستحقّ من حسـن

وقال يهجو ذا بيت :

من كان يعمر ما شادت أوائله — فأنت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق أن تأتي فعائلهمُ — وأنت تحوي من الميراث ما تركوا

انتهى . /233/

قال في كتاب النصائح لابن ظفر : إنّ المأمون سأل الأصمعي عن ابراهيم بن سيّار بن هانيء البصري ، المعروف بالنظام ويكنى أبا اسحاق ، فقال له : يا أمير المؤمنين هو شيخ من شيوخ المعتزلة ومن أئمتهم ، متقدّم في العلوم شديد الغوص على المعاني . وإنما أدّاه الى المذاهب [التي] استشعبتْ منه تدقيقُه وتغلغله ؛ فإنه كان اطلع على كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ومال في كلامه الى الطبيعيين منهم والالهيين ، فاستنبط من كلامهم مسائلَ وخلَطها بكلام المعتزلة وانفرد بها عنهم ، مثل قوله : إنّ الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي ، خلافًا لأصحابه ، فإنهم قضَوْا بأنّه قادر عليها ولكنه لا يفعلها ؛ ومثل قوله : إنّ الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعتْ . وقوله : إنّ الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن معادنًا ونباتًا وحيوانًا وإنسانًا ، ولم يتقدّم خلق آدم على خلق أولاده ، غير أنّ الله تعالى أكمن بعضها في بعض . وهذا قول أهل الكمون من الفلاسفة . وقوله في القرآن : إنّ في قوى

الشرّ أن يأتوا بمثله الاّ أنّ الله تعالى صرف أذهانهم عن ذلك . الى غير ذلك من مسائله المذكورة في كتب الأصوليين . انتهى .

وحُكي أن أباه جاء به صغيرًا الى الخليل بن أحمد ، ليعلّمه . فقال الخليل يمتحنه وفي يده قدَح زجاج : يا بُني ، صف لي هذه الزجاجة . فقال : أبمدح أم بذم ؟ قال : بمدح . قال : نعم ، تريك القذى ، ولا تقبل الاذى ، وتُري من وراء ولا تستر ما ورى ! قال : فذُمّها ! قال : يسرع اليها الكسر ، ولا تقبل /233ب/ الجبر . قال : صف لي هذه النخلة ، وأومأ الى نخلة في داره . قال : بمدح أو بذم ؟ قال : هي حلو جَناها ، باسق منتهاها ، قاصٍ أعلاها ! قال : فذُمّها ! قال : صعبة المُرتقى ، بعيدة المجتنى ، محفوفة بالأذى ! فقال الخليل : يا بني ، نحن الى التعليم منك أحوج !

ثم اشتغل على أبي الهذيل العلاف بمذهب أهل الكلام الى أن برع ومهر ، وكان قد تبعه خلق كثير . وكان أصل مذهبهم ، أنه من زعم أنّ الله تعالى شيء فهو كافر . وكان المأمون لم يكترث به لأجل تخليطه وتلاعبه بالمذاهب ؛ وإنما ظهر في أيام المعتصم . وكان ناظر شيخه أبا الهذيل وظهر عليه مرارًا ، فقيل له : أتناظر أبا الهذيل ؟ قال : نعم ، وأطرح له زوجًا من عقلي !

وحكى الجاحظ أنه كان من أكبر تلامذته وأصحابه . قال : دخل أبو اسحاق النظام على أبي الهذيل بعد عهده بالمناظرة وقد أسنّ ، وأبو اسحاق حدث السنّ فقال : يا أبا الهذيل ، أخبرني عن إقراركم أن يكون جوهرًا مخافة أن يكون جسمًا ، فهل لا أقررتم أن لا يكون جوهرًا مخافة أن يكون عرضًا ، والجوهر أضعف من العرض ؟! فبصق أبو الهذيل في وجهه ، فقال أبو اسحاق : قبّحك الله من شيخ ، فما أضعف حجتك !

وحكى في شرح رسالة ابن زيدون قال : مات لصالح بن عبد القُدّوس ولد ، فمضى اليه أبو الهذيل والنظام معه ، وهو غلام حدث كالمتبوع له ، فرآه محترقًا فقال أبو الهذيل : لا أعرف لجزعك وجهًا ، إذا كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح :

يا أبا الهذيل ، إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك! /234/ فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعتُه ، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهّم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظنه قد كان . فقال النظام : فشُكّ أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت ، وشك أيضًا أنه قد قرأ هذا الكتاب وإن كان لم يقرأه ! فخرّص (في الدرّ «خرس») صالح بن عبد القدوس ، وكان مذهبه مذهب السوفسطائية ، فإنهم يزعمون أنّ الاشياء لا حقيقة لها ، وأنّ ما نستبعده يجوز أن يكون على ما نشاهده ، ويجوز أن يكون على غير ما نشاهده ، وأنّ حال اليقضان كحال النائم .

وحكى الجاحظ ، قال : تجاريتُ أنا وإياه يومًا حديث الطِّيرة ، فقال : أخبرك أني جُعْت يومًا حتى أكلت الطين ، وما صرت الى ذلك ؛ فقلّبت قلبي أيذكر أهل حيّ أو رجل قوم (أو لعله أسقط الاعراب في الكلمتين) نُصيب عنده غداء أو عَشاء فما خطر ببالي . وكان عليّ جبة وقميص فبعت القميص ثم قصدت الأهواز وما أعرف بها أحدًا ، وما كان ذلك الاّ شيئا أمر به الضّجر ، فوافيت الفُرْضةَ فلم أُصِب بها سفينة ، فتطيّرت من ذلك . ثم أني رأيت سفينة في صدرها خرْق وهشْم فتطيّرت أيضًا ، فقلت للملاح : تحملني ؟ قال : نعم ! قلت : ما اسمك ؟ قال : داوود ! وبالفارسية هو اسم الشيطان ، فتطيرت وركبت معه . فلمّا مر بنا الفُرضة صحت : يا حمّال ! ومعي لحاف لي وشملة ومضربة خلِق وبعض ما لا بدّ لي منه . فكان أول حمّال أجابني أعور ، فقلت لبقّار كان واقفًا : بكم تكري ثوْرك هذا الى الخان ؟ وتكارينا . فلما أدناه مني إذ هو عضِب ، فازددت طيرة الى طيرة وقلت في نفسي الرجوع أسلم .

ثم ذكرت حاجتي الى أكل الطين ، فقلت /234ب/ ومن لي بالموت . فلما صرت الى الخان وأنا حائر ما أصنع إذ سمعت قرع الباب الذي أنا فيه ، فقلت : من هذا ؟ قال : رجل يريدك . قلت : من ، أنا ؟ قال : أنت ، ابراهيم بن سيار النظام !

فقلت هذا عدوٌّ أو رسول سلطان . ثم تحاملت وفتحت الباب ، فقال : أرسلني اليك ابراهيم بن عبد العزيز ، ويقول لك وإن كنّا اختلفنا في المقالة فإنا نرجع بعد ذلك الى حقوق الاخلاق والحُرمة ، وقد رأيتك حيث مررت بي على حال كرهتُها ، وينبغي أن يكون دعت («رغب») بك حاجة ، فإن شئت فأَقِم بمكانك مدة شهر أو شهرين فعسى أن نبعث اليك بجميع ما يكفيك من دهرك ، وإن شئت الرجوع فهذه ثلاثون دينارًا فخذها وانصرف وأنت أحقّ من عذر. قال فأورد عليّ أمرًا («امر») أذهلني ، أمّا واحدة فإني لم أكن أملك قبلُ من دهري ثلاثين دينارًا ، والثانية أنه لم تطل غيبتي ومقامي عن أهلي ، والثالثة ما تبيّن لي من أمر الطيرة أنها باطل .

وكانت وفاة النظام سنة إحدى وعشرين ومائتين وله من [السنّ] ستة وثلاثون سنة ، وله كلام حسن وشعر رقيق .

فمن كلامه : العلم شيء لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك ، فإذا أعطيته كلّك فإنه من إعطائه لك البعض على خطر .

وقال : مما يدلّ على لؤم الذهب والفضة مصيرهما الى اللئام ، فالشيء يصير الى شبهه .

وقال : إن كانت في جيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة ، فإن المصيبة عندك أكبر منها عند القوم وبيتك أولى بالمأتم .

وقال أبو العيناء أنشدت النظام :

إذا همّ النديم له بلَحْظ   تمشّت في مفاصله الكلومُ /235/

فقال : ما ينبغي أن يُنادم هذا الأعمى ! ثم أنشد هذين البيتين :

ذكرتُك والرّاح في راحتي   فشبّ المدامُ بدمع غـزيرِ
فإن ينفد الدّمعُ فرْطَ الأسى   بكتك الحشا بدموع الضميرِ

ومن قوله أيضًا :

يا تاركي جسـدًا بغير فـؤادِ ... أسرفت في الهجران والإبعادِ
إن كان يمنعك الزيارة أعينٌ ... فادْخل اليّ بعلّة العـوّادِ
إنّ العيون على القلوب إذا جنَت ... كانت بليّتُها على الأجسـادِ

ومن قوله أيضًا :

أريد الفراقَ واشتاقـكمْ ... كأنّا افترقنا ولم نفتـرِقْ
وأستغنِمُ الوصلَ كي اشتفي ... وهل يشتفي أبدًا من عشِقْ

وقيل له ، وهو في مرضه وفي يده قدح دواء : ما هذا ؟ فقال :

أصبحت في دار بليّات ... أدفـع آفـةً بآفـاتِ

انتهى ذكر النظام .

تكميل مرام وذكر إمام

قد تقدّم ذكر الأصمعي مرارًا ، وليذكر على وجه يعرّف .

كان صاحب لغة ونحو ، إمامًا في الأخبار والنوادر ، سمع شعبة بن الحجاج والحمادَيْن ومسعر بن كدام وغيرهم وروى عنه عبد الرحمان ابن أخيه وأبو عبيدة القاسم بن سلام وأبو حاتم السجِستاني وأبو الفضل الرِّياشي وغيرهم . وقال في الكشاف : الأصمعي صدوق . وقال عمرو بن شبة : سمعت الأصمعي يقول أنا أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة .

وقال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول : ما عبّر أحد عن العرب فأحسن من عبارة /235ب/ من الأصمعي ، وهو من البصرة وقدم بغداد في أيام الرشيد . وقال أبو أحمد العسكري : لقد حرص المأمون على الأصمعي وهو بالبصرة أن يسير اليه فآعتذر بكبره وضعفه ، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيّرها اليه ليجيب عنها .

وقال الأصمعي حضرت يوما أنا وأبو عبيدة معمر بن المثنى عند الفضل بن الربيع ، فقال لي : كم لك من كتاب في الخيل ؟ قلت مجلدًا واحدًا . فسأل أبا عبيدة كم صنّف من كتاب قال : خمسين مجلدًا ! فقال له : قم الى هذا الفرس وأمسك عضوا عضوا منه وسمّه ! فقال : لست بيْطارًا ، وإنما هذا شيء أخذته من كلام العرب ؛ فقال : قم يا أصمعي وافعل ذلك . فقمت ومسكت ناصيتَه وشرعت أذكر عضوًا عضوًا وأنشِدُ ما قالت العرب فيه الى أن فرَغت منه ، فقال : خذه ! وأمر لي بألف دينار ؛ فاستغاظ أبو عبيدة عليّ مدة من الزمان ، وكنت إذا أردت أن أغيظه ركبت اليه على الفرس المذكور .

والأصمعي ، هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك بن علي بن أصمع ، واليه ينسب وينتهي نسبه الى مضر بن نزار . وكانت ولادته سنة اثنتين وقيل ثلاث وعشرين ومائة . وتوفي في صفر سنة ستّ عشرة وقيل خمس عشرة ومائتين بالبصرة ، وقيل بمرو .

قال الخطيب : بلغني أنه عاش ثمانيا وثمانين سنة ، وقُرَيْب لقب أبيه واسمه عاصم ، وهو بضم القاف ، وكان جدّه علي بن أصمع سرق ، فقامت عليه بيّنة عند علي بن أبي طالب فقطع يده لذلك .

قال المؤيد : وللأصمعي /236/ عدة مصنفات منها كتاب خَلق الانسان ، وكتاب الاجناس ، وكتاب الانواء ، وكتاب الصفات ، وكتاب الميسر والقداح ، وكتاب خلق الفرس ، وكتاب خلق الابل ، وكتاب الشاء ، وكتاب جزيرة العرب ، وكتاب النبات وغير ذلك . اه .

وعدّها ابن خلكان قريبًا من خمسة وثلاثين كتابًا .

وقال [أبو] العالية [الشامي] يرثيه :

لا درّ دُرّيات الارض إذ فُجعتْ   بالأصمعيّ لقد أبقت لنا أسفَا
عش ما بدا لك في الدنيا فليس يُرى   في النّاس منه ولا من علْمه خلفَا

بِدَع واعتزال ومِحن وأكدار

قال ابن كثير : كان المأمون له بصَرٌ بعلوم متعدّدة ، فقه وفرائض وغريب وكلام وطبّ وشعر ونجوم ، واليه ينسب الزيج المأموني ، وقد اختبر مقدار الدرجة في وطأة سنجار ، فاختلف عمله وعمل الاوائل من القدماء .

وقد كان فيه تشييع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة ، حَمَله على ذلك القول بتفضيل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه على جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فإنه كان يقول بذلك وأظهره بين الناس . وهو سبب ولاية العهد لعليّ الرّضا على ما تقدّم (137–145) .

وروى ابن عساكر من طريق النّضر بن شُميل قال : دخلت على المأمون فقال : كيف أصبحت ؟ قلت : بخير يا أمير المؤمنين ! قال : يا نضير أتدري ما قلتُ في صبيحة هذا اليوم ؟ قال : أنّى لي بعلم الغيب ! فقال : قلت : /236ب/

أصبح ديني الذي أدينُ به ... ولستُ منه الغَداة معتـذرًا
حبّ علّي بعد النبـي ولا ... أشتم صدّيقًا ولا عُمَـرًا
وابن عفّان في الجِنان مع ... الأبرار ذاك القتيل مصطبِرًا
لا ولا أتّهم الزّبيـــر ولا ... طلحة إن قال قائل عـذَرًا
وعائشة الأم لست اشتُمها ... من يفتريها فنحن مـــنه بَرَا

قال بعضهم : وهذا المذهب ثامن مراتب التشييع .

وقد قال بعض السلف والدارقطني من فضّل عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والانصار . وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : لو أُوتي بأحَد فضّلني على أبي بكر وعمر إلاّ جلدته جلد المفتري .

وتواتر عنه أنه قال : خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر . فخالف المأمون مذهب الصحابة كلهم رضي الله تعالى عنهم ، وتبع بِشر بن عتّاب المريسي وجماعته فأخذ عنهم هذا المذهب الباطل .

وكان يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه ، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل ، وراج عنده الباطل ، ودُعي عليه وحمل الناس عليه قهرًا ، وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته .

قال ابن كثير : ولـمّا ابتدع المأمون ما ابتدع من التشييع والاعتزال فرِح بذلك بِشر المريسي ، وكان شيخ المأمون في ذلك ، وأنشأ المريسي يقول :

قد قال مأموننا وسيّـدنا   قولا له في الكتاب تصديقُ
إنّ عليا أعـني أبا حـسن   أفضل من أرْقَلَتْ به النُّوقُ
بعد نبيّ الهدى وإنْ لنا   أعمالنا والقرآن مخلوقُ /237/

فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة بقوله :

يا أيّها الناس لا قولٌ ولا عمَـل   لمن يقول كلامُ الله مخـــلوقُ
ما قال ذاك أبو بكر ولا عمـــر   ولا النبيّ ولم يذكره صـــدّيقُ
ولم يقل ذلك الا كلّ مبتَـــدِع   على الاله وعند الله زنـــديقُ
عمدًا أراد به امحاق دينــكمُ   لأن دينهم والله ممحـــوقُ
أصبح يا قوم عدلا من خليفتكم   يمسى ويصبح في الأغلال موثوقُ

فسأل بشر المأمون أن يطلب قائل هذا ويؤدبه على ذلك فقال المأمون : ويحك ، لوكان فقيهًا لأدبته ، ولكنه شاعر ؛ فلست أتعرّض له !

غريبة

قال الخطيب البغدادي : حدّثني الحسن بن محمّد الخلاّل لفظًا ، قال : وجدت بخط أبي الفتح القوّاس ، حدّثنا محمد بن عبد الله الواسطي قال ، قال عبد الله بن المبارك : رأيت زبيدة في المنام ، فقلت لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفَر لي في أوّل مِعْول ضُرب في طريق مكة . فقلت لها : ما هذا الصّفرة التي في وجهك ؟ فقالت : دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسي ، كان من

أهل البدع والاهواء ، وهو الذي كان يقول إنّ القرآن مخلوق ، فزَفَرت عليه جهنّم زفرة فاقشعرّ لها جسدي ، فهذه الصّفرة من تلك الزفرة . نقل من تاريخ البدري . انتهى .

قلت (قلت وما بعدها ، ليس في الدر) : وعندي في إسناد الرواية لعبد الله بن المبارك نظر ، لأنّ عبد الله بن المبارك مات على عهد الرشيد سنة إحدى وثمانين ومائة ، وزبيدة توفيت سنة ستّ عشرة ومائتين على ما حكاه /237ب/ المؤيد فيهما .

وقال ابن الجوزي في كتاب الالقاب : إنّ زبيدة سقت أهل مكة بعد أن كانت الرّاوية عندهم بدينار ، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحفر الجبال ونحت الصّخور حتى غلغلته من الحِلّ الى الحرم ، وعملت عقبة اليسار ، فقال لها وكيلها : تلزمك نفقة كثيرة . فقالت : أعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار !

وروى الخطيب البغدادي أنها حجّت ، فبلغت نفقتها في ستين يومًا أربعة وخمسين ألف ألف درهم !

قال بعضهم : وكانت من الجمال والمال والخير والديانة على جانب عظيم ولها من الصدقات والاوقاف ووجوه القربات شيء كثير جدا .

قال ابن الجوزي : وكان لها مائة جارية ، يحفظن القرآن ، ولكل واحدة وِرْد عشُر القرآن ، فكان يسمع في قصرها كدويّ النّحل من قرآءة القرآن العظيم. وزبيدة لقب غلب عليها ، لانّ جدّها أبو جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول لها إنما أنت زبيدة فغلب ذلك عليها ، فلا تعرف الاّ به ، وأصل اسمها أَمَة العزيز . وقال الطبري : عرّس بها الرشيد سنة خمس وستين ومائة وكان أحبّ الناس اليها في زمانها مع ما عنده من الحظايا والزوجات . قال المؤيد : توفيت أم جعفر زبيدة زوجة الرشيد سنة ستّ عشر ومائتين ، انتهى .

لطيفة

قيل إن المأمون كان يفضّل عليّا ، ويُكثر من الكلام عليه رضي الله تعالى عنه ، فجرى يومًا ذكر الحسن والحسين رضي الله عنهما ، /238/ فأطنب في ذكرهما وفضلهما ومروءتهما ، وكان عنده عالم من علماء خراسان فقال له : يا أمير المؤمنين ، حدّثني جماعة من مشائخ خراسان عن الشّعبي قال : بلغ الحجاج أنّ يحيى بن يعمر بخراسان يقول إنّ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما من ذرية رسول الله ﷺ ، وكان يحيى بن يعمر بخراسان . فكتب الحجاج الى قتيبة بن مسلم والي خراسان أن ٱبعث اليّ ابن يعمر ، فبعث به اليه .

قال الشعبي : كنت عند الحجاج حين أوتي به اليه ، فقال له الحجاج : بلغني أنك تزعُم أنّ الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ ؟ قال : أجل يا حجاج ! قال الشعبي : فعجبت من جوابه يقول له يا حجاج . فقال له الحجاج : والله لئن لم تخرج منها وتأتيني بها مبيّنة من كتاب الله تعالى ولا تأتيني بهذه الآية : «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم» ! قال : فإن خرجتُ وآتيتك بها واضحة مبيّنة من كتاب الله عزّ وجل ، فهو أماني ؟ قال : نعم ! فقال يحيى : قال الله تعالى : «ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاّ هدينا» ، الى أن تلا قوله «وزكريا ويحيى وعيسى» ثم قال يحيى : من كان أبو عيسى عليه السلام وقد ألحقه الله بذرية ابراهيم ، وما بين عيسى وابراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمّد ﷺ . فقال الحجاج : ما أراك ألا قد أتيت بها مبيّنة ، والله لقد رأيتها وما علمت بها قط ، وهذا من الاستنباطات البديعة .

ثم قال له : أخبرني هل ألحن ؟ فسكت ، فقال : أقسمت عليك ! فقال : أمّا إذًا ، أيها الأمير ، إنك ترفع بخفض وترفع /238ب/ ما انخفض ! قال : والله ذلك اللحّين السيء ! ثم كتب الى قتيبة بن مسلم : «إذا جاءك كتابي هذا

فاجعل يحيى على قضائك والسلام» . قال بعضهم : والذي ذكره البغوي وغيره أنّ الضمير يعود الى نوح لأنّ الله تعالى ذكر من جملتهم يونس ولوطا ، وهما صلوات الله عليهم من ذرية نوح ، لا من ذرية ابراهيم عليهما السلام ، ولكن استدلاله صحيح على الثاني أيضاً .

ويحيى بن يعمر كان تابعيًا عالـمًا بالقرآن والنحو ، وكان شيعيًا من الشيعة الاولى ، يسمع سمعًا حسنًا ، ويقول بتفضيل أهل البيت من غير نقص لأحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كذا ذكر ابن خلكان . وذكر أنه توفي سنة تسع وعشرين ومائة . انتهى .

قال بعضهم : ولا يُذمّ المأمون الا بما فيه من التشييع والاعتزال لقوله بخلق القرآن العظيم وحمْل الناس عليه مع ما كان فيه من الانهماك على تعاطي المسكر والأفعال التى لا يعذر فيها المنكَر . وما عدا ذلك فإنّه قدرُه عظيم وفضائله لا تحصى .

قيل والسبب الحامل له على القول بخلق القرآن أنّه كان في مدينة قبرص كتُبُ اليونان الفلاسفة ، فبعث في طلبهم ، فلم يعطوها ، فألحّ عليهم وتهددهم. فقال لهم بطريق من بطارقتهم : اعطوها ، فإنّها ما دخلتْ على ملة اسلامية الاّ أفسدتها ! فسلموها الى المأمون ، فأمر بتعريبها . وقرأها ففهمِها وتوغّل فيها مع الكلام ، فأدّى الى ما أدّى من اعتزاله ، الى أن أظهره وحمل الناس عليه .

قال بعضهم : وفي ربيع الأول من سنة /239/ اثنتي عشرة ومائتين أظهر المأمون في الناس بدعتين فظيعتين ، إحداهما تفضيل علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه على جميع الصحابة ، وقال : هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، والثانية وهي أعظم من الاولى قوله بخلق القرآن العظيم وقد أخطأ في كلّ منهما خطأً كبيرًا .

ومن العلماء من يقول بكفر قائل ذلك .

ولا زال على ذلك الى أن حمل الناس على ذلك في السنة الثامنة عشرة بعد المائتين . وذلك أنه كان بالرقّة ، فكتب الى عامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب (ذكر الدرّ وفاته في سنة 235هـ . وترجمته باختصار) يأمره أن يمتحن القضاة والمحدّثين والشهود وجميع أهل العلم بالقول بخلق القرآن ، وأن يرسل اليه منهم جماعةً ، عيّنهم له ، ويمتحن الباقين ؛ فمن أجاب بخلق القرآن وأنه محدَث خلّى سبيله ، ومن أبى يُعلمه به ليرىَ فيه رأيه .

ففعل اسحاق نائب بغداد ذلك على أمْر المأمون . فأجابوه الى ذلك وأظهروا موافقته وهم كارهون . فكتب الى المأمون بذلك ، وأرسل له الجماعة التي طلبهم وعيّنهم له . فبلغوا الى المأمون وأظهروا موافقته وهم كارهون فردّهم الى بغداد وأمر بإشهارهم بين الفقهاء ، وكتب كتابًا الى اسحاق النائب يستدلّ فيه على القول بخلق القرآن بدلائل لا تحقيق لها ، وأمره أن يقرأه على الناس ويدعوهم الى القول به .

فأحضر اسحاق جماعة من العلماء ، وفيهم بشر بن الوليد الكندي قاضي القضاة وأحمد بن حنبل وغيرهما من الافاضل . فقرأ عليهم كتاب المأمون وفهموه ، فقال لبشر /239ب/ بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا ؛ أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كلّ شيء والقرآن شيء . قال : نعم ، أمخلوق هو ؟ قال : ليس بخالق ! فقال : ليس عن هذا أسألك ، أمخلوق هو ؟ فقال : ما أُحسِنُ غير هذا ! ثم قال : أشهد أن لا إله الا الله أحدًا فردًا صمدًا ، لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه . قال : نعم . ثم التفت للكاتب وقال له : اكتب ما قاله . فكتب .

ثم سأل غيره وغيره وهو يمتحنهم وهم يجيبون قريبًا مما أجاب به بشر ، الى أن انتهت النوبة الى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ، أمخلوق هو ؟ قال : كلام الله تعالى ! قال : أمخلوق ؟ قال : كلام الله ، ما أزيد عليها !

قال : فما تقول في هذه الرقعة ؟ قال : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول سميع بأذن بصير بعين . فقال له : ما أردتَ بذلك ؟ قال : أردت ما أراد الله منها ، وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك .

ثم سأل قتيبة وجماعة فأجابوا أنّ القرآن مجعول ، لقوله تعالى : «إنّا جعلناه قرآنا عربيًا» ومحدَث لقوله تعالى : «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث» . قال اسحاق : فالمجعول مخلوق قالوا : نعم . قال : فالقرآن مخلوق ! قالوا : لا نقول مخلوق ولكن مجعول . فكتب مقالاتهم فردًا فردًا ، وبعث بها الى المأمون .

وكان من الحاضرين من أجاب الى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهًا لـمّا بلَغهم أن من لم يجب عُزل عن وظائفه ، ومن له رزق قُطع عنه ، ومن كان مفتيًا منع من الافتاء ، ومن كان شيخَ حديث رُدع عن /240/ الإسماع .

فورد جواب المأمون الى اسحاق أن يُحضر بشر بن الوليد قاضي القضاة وابراهيم بن المهدي ، وكان صديقًا لبشر ، فإنْ قالا بخلق القرآن وإلاّ تُضرب أعناقُهما ؛ وأمّا من سواهما فمن لم يقل بخلق القرآن يوثِقه بالحديد ويحمله اليّ . فجمعهم اسحاق وعرض عليهم ما أمر به المأمون ، فأجابوا الى ذلك بأجمعهم ، وأجاب بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي وكل من حضر لذلك الاّ أربعة ، أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح المصروب والحسن بن حماد سجادة وعبيد بن عمر القواريري . وكانت فتنة عظيمة وداهية شديدة ، فكان جلّ من أجاب مكرهًا متأوِّلا قوله تعالى : «الاّ من أكره وقلبه مطمئنّ بالايمان» .

ثم إنّ اسحاق قيّد الاربعة المذكورة وأرصدَهم ليبعث بهم الى المأمون ، وامتحنهم ثانيًا فرجع سجادة ثم رجع القواريري وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ، فوجّههما في القيود متعادلَيْن على جمل الى المأمون بطرسوس .

ثم ورد كتاب المأمون الى اسحاق نائب بغداد يقول فيه : «بلغني أنّ بشر وجماعة معه إنما أجابوا متأوّلين الآية التي أنزلها لله تعالى في عمّار بن ياسر ،

وهي قوله تعالى : «إلا من أكره ، الآية» وقد أخطأوا في التأويل ، فإنّ الله تعالى عنَى بها من كان معتقدًا الايمان مظهرًا للشِّرك ، فأمّا من كان معتقدًا للشرك مظهرًا للايمان فليس هذا له . فآستحضِرهم اليّ الى طرسوس ا» .

فأمسكهم اسحاق وأرسلهم الى المأمون بطرسوس ، فلمّا صاروا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون ، فرُدّوا الى الرقّة . وكان أحمد بن /240ب/ حنبل وصاحبه محمد بن نوح قد سبَقا الجماعة ولكن لم يجتمعا به ، حتى مات واستجاب الله دعاء الامام أحمد ، وبقي الأمر على ذلك الى أوّل ولاية المعتصم . وسيأتي إن شاء الله ما وقع من ذلك الامر الفظيع في دولة المعتصم . انتهى كذا ذكر الملك المؤيد وغيره .

كان المأمون قد ابتدع بدعة ثالثة ايضًا ، وهي التكبير عقيب الصلوات . وكتب بذلك الى جميع نوابه ، يأمرهم بالتكبير . فبدىء بذلك في جامع المدينة والرصافة يوم الجمعة [لأربع عشرة ليلة خلت] من شهر رمضان سنة ستّ عشرة ومائتين ، ثم استمروا على ذلك في بقية الصلوات . وهذه بدعة أُحدثها المأمون بلا مسند ولا دليل ، فإنه لم يفعله أحد قبله ؛ ولكن ثبت في الصحيح عن ابن عباس رفع الصوت بالذكر على عهد رسول الله ﷺ حين ينصرف الناس من المكتوبة وقد استحبّ هذا طائفةٌ من العلماء كابن حزم وغيره ، وقال أبو الحسن بن بطال : المذاهب الأربعة وغيرهم على عدم استحباب هذا . انتهى. كذا نقلناه من المسودة (العبارة الأخيرة غير واردة في الدر . انظر التعليق على ذلك في المقدمة) .

قيل : لما كان المأمون في أرض الروم ، بينما هو ذات يوم سائر إذ خرج على عسكره فرس جمحٌ («حجم») ، عظيمُ الخلق ، لم ير الراؤون مثله ، فطلبه الناس ، فلم يقف لأحد ، كلّما طُلب نفَر . فالتفت المأمون الى ابنه العباس وقال له : اذهب وآتي به ! فذهب العباس فلم ينفُر منه حتى قبض على ناصيته وجعل اللِّجام في فيه /241/ وأتى به الى المأمون . فتعجّب الناس من ذلك فقال يحيى

بن أكتم القاضي : ما السرّ في ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال المأمون : يا أبا عبد الله أوّل من ركبها جدّه اسماعيل عليه السلام ، وهي كنزٌ لنا ، وأحدّثك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال لما أذِن الله تعالى لابراهيم واسماعيل عليهما السلام برفع القواعد من البيت قال الله تعالى : «إني معطيكما كنزا ادّخرته لكما» ، ثمّ أوحى الى اسماعيل أن آخرج الى أجياد فآدع يأتيك الكنز ، فخرج الى أجياد ولم يدر ما الدعاء ولا الكنز ، فألهمه الله تعالى الدعاء ، فلم يبق على وجه الارض فرس بأرض العرب الا جاءته وأمكنته من ناصيتها وذللها الله له ولذريته . ولو ذكرنا ما قال الناس في ذلك وشرحناه لطال . كذا حكاه في تحفة الالباب انتهى (انظر ص 250ب) .

وأنشد ابن عبد البرّ في التمهيد لابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكان يحب الخيل فقال :

أحبّوا الخيل واصْطبِروا عليها ... فإنّ العزّ فيها والجَمالا
إذا ما الخيل ضيّعها أنـاس ... ربطناها فأشركتْ العِيالا
نقاسمها المعيشةَ كل يـوم ... ونكسُوها البراقعَ والجِلالا

لطيفة

قيل إنه عرض على أبي مسلم الخراساني ، صاحب الدعوة ، جواد لم ير مثله فقال لقواده : يصلح هذا الجواد ؟ قالوا : للغزو في سبيل الله عزّ وجل . قال : لا ! قالوا : فيُطلب عليه العدوّ . قال : لا ! قالوا : فلِمَ ذا يصلح ، أُصلح الله الامير ؟! قال : ليركَبه الرجل ويهرَب من المرأة السّوء والجار /241ب/ السوء! انتهي كذا حكاه صاحب ابتلاء الاخيار بالنّساء الاشرار .

قال في عيون المعارف : كان المأمون كامل الفضل ، جوادًا ، عظيم العفو حسن التدبير ، فقيهًا ، عالـمًا ، يحبّ العلماء وإكرامَهم . اهـ .

وذكر الخطيب عن القاسم محمد بن عباد قال : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه والمأمون . قال بعضهم وهذا غريب جدا . اه .

قال ابن كثير : وكان المأمون يتلو في شهر رمضان ثلاثة وثلاثين ختمة . وجلس يومًا لإملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي يحيى بن أكتم وجماعة ، فأملى من حفظه ثلاثين حديثًا . اه . وكان يقولَ : معاوية بعمْروه وعبد الملك بحجّاجه وأنا بنفسي !

قال ابن عساكر : روي الحديث عن أبيه وهشيم وأبي معاوية الضرير ويوسف بن عطية وعباد بن العوام واسماعيل بن عليجة وحجاج بن محمد الاعور ويوسف بن محمد المروزي وروي عنه أبو حذيفة اسحاق بن بشر ، وهو أسنّ منه ، ويحيى بن اكتم القاضي وابنه الفضل بن المأمون ومعمر بن شبيب وابن أبي يوسف القاضي وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي وأحمد بن الحارث الشعبي («السبعي») واليزيدي (الدرّ «الزيدي») وعمرو بن مسعدة وعبد الله بن طاهر ومحمد بن ابراهيم السلمي ودعبل بن علي الخزاعي .

وروى ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي قال : حدّثنا ابن ابراهيم الموصلي قال : سمعت المأمون في الشمّاسة (الدرّ «الشماسية») وقد جعل ينظر الى كثرة الناس ، فقال /242/ ليحيى بن أكتم : أما ترى ؟! ثم قال : حدّثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أنّ النبيء ﷺ قال : الخلق كلّهم عيال الله ، فأحبّهم اليه أنفعهم لعياله .

وروى له ابن عساكر أحاديث أخرى غير هذا . اه .

وكان يحب العلم وأهله ويناظرهم .

قال في البهجة لأبي عمر ، قال يحيى بن أكتم : كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أُدخِلوا دارًا

مفروشة ، وقيل لهم : اَنزِعوا خِفافكم ! وأُحضِروا المائدة فقيل : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجدّدوا الوضوء ، ومن ضاق عليه خفّه فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فلينزعها . فإذا فرَغوا أوتوا بالمجامر فبُخروا وطيِّبوا ، واستدناهم وناظرهم أحسن مناظرة وأنصَفها وأبعدها من مناظرة المتجبّرين . فلا يزال كذلك حتى تزول الشمس ، ثم تُنصب الموائد ثانيًا فيطعمون وينصرفون . انتهى .

قال بعضهم : وإنما قال «وأبعدها من مناظرة المتجبرين» لأن هذا الذي ينبغي للملك عند المناظرة والمشاورة ، ألاّ يرتفع ولا يسلك سبيل الهيبة ، فإن ذلك يقصِّر لسان المشير والناصح . انتهى .

ذكر ابن كثير ، أن المأمون رحمه الله كان يقصد العدل ، ويتولى بنفسه بين الناس الفَصْل . وقد جاءته امرأة ضعيفة فتظلّمت من ابنه العباس ، وهو واقف على رأسه ، فأمر الحاجب فأخذ بيده وأجلسه معها بين يديه ، فأدعت /242ب/ عليه أنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها ؛ فتناظرا ساعة فجعل صوتها يعلو على صوته فزجرها بعض الحاضرين ، فقال له المأمون : أُسكتْ ، فإن الحق أنطقها والباطل أسكته ! ثم حكم لها بحقها وأغرم لها ولدَه عشرة آلاف درهم . اهـ .

وذكر في تاريخ العظمي ، أنه لـمّا توفي أبو الفضل عمرو بن مسعدة في سنة أربع عشرة ومائتين خلّف ثمانين ألف دينار ، فرُفع الى المأمون ذلك . فقال: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيما خلف ، وأحسن لهم النظر فيه . اهـ .

قال المسعودي : ولم يعرّض بمال وزير غيره . اهـ .

وقال ابن كثير : كتب المأمون الى بعض الامراء ليس من المروءة ، آنِيتُك من ذهب وفضة ، وغيرُك عار وجارُك طاو ! قال : ووقف رجل بين يدي المأمون فقال له : والله لأقتلنّك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، تأنّ عليّ ، فإن الرّفق

نصف العفو ! فقال : ويحك ، وقد حلفت لأقتلنّك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لئن تلقى الله حانثًا خيرٌ لك من أن تلقاه قاتلا ! فعفى عنه وخلّى سبيله . اهـ .

وروى ابن عساكر ، أنّ المأمون قال يومًا لمحمد بن عبّاد بن المهلب : يا أبا عبد الله قد أعطيتك ألف ألف وألف ألف وألف ألف ، وإنّ عليك دينًا ؟! فقال : يا أمير المأمنين ، إن منعَ الموجود سوءِ ظنّ بالمعبود ! فقال : أحسنت يا أبا عبد الله ، اعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف !

وذكر الخطيب ، أنه لـمّا ولد للمأمون ابنه /243/ جعفر ؛ فدخل عليه الناس يهنونه بصنوف التهاني ، وكان فيهم بعض الشعراء ، فقال منشدًا :

مدّ لك الله الحياة مدّا حتى ترى ابنك هذا جَدّا
ثم تُفدّى مثل ما يفدّى كأنه أنت إذا تبَـدّى
أشبه منك قامةً وقدّا موَزّرًا بمجـده مُرَدّا

فأُمر له المأمون بعشرة آلاف درهم . انتهى .

وقال ابن عساكر : كان المأمون بدمشق ، وقلّ المال الذي صحبه حتى ضاق وشكا الى أخيه المعتصم ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة . وحمل إليه أخوه المعتصم من خارج ما يتولاه له ثلاثين ألف ألف ألف . فلما ورد المال خرج يستعرضه وقد زُيّنت الجمال والأحمال ، فنظر اليه وهو في أحسن هيئة ، فاستحسنه واستبشر به والناس ينظرون ويتعجبون . وكان معه يحيى بن أكثم فقال له : يا أبا محمّد ليس من المروءة أن نحوز نحن هذا المال كله ونتصرّف فيه ويرجع أصحابنا خائبين ، إن هذا لَلؤم ! ودعا محمد بن داود فقال له : وقّع لآل فلان بألف ألف ألف ، ولآل فلان بمثلها وما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ألف ورِجْله في الركاب لم ينزل عن فرسه ، رحمه الله تعالى . انتهى وكذا حكاه المؤيد .

لطيفة

يحكى أنّ المأمون خرج يومًا متنزهًا متصيّدًا ، فمرّ بصبي من صبيان الاعراب على بئر أو عين قد ملأ قِربته بالماء وهو يعالج ربط فمِها ولا يُطيقه فجعل يصيح : وا أبتاه تعالَ ، أعِنّي على القربة /243ب/ لأشُدّ فاها ، غلبني فوها ولا طاقة لي بفيها ! فأعجب المأمون قوله وفصاحته ، وهو طفل فوقف عليه وقال له : يا فرْخ أبيه وأمّه ، ممن أنت ؟ قال : من كلب . فقال : وأنتم كلاب كلكم ! فقال : لسنا بكلاب ، ولكنها قبيلة تدعى كلب .

ثم قال الغلام : قد سألتني عن نسبي فما نسبك ؟ قال : أنا ممن تَبغَضه كلب. قال : فأنت إذًا من مضر ! قال : ممن تبغَضه مضر . قال : أنت إذًا من كنانة ! قال : ممن تبغَضه كنانة . قال : فأنت إذًا من قريش ! قال : أنا ممن تبغَضه قريش . قال : فأنت إذًا من بني هاشم ! قال : أنا ممن يحسُده بنو هاشم . قال : فأنت إذا أمير المؤمنين المأمون ! ثم سكت ساعة ، وأنشأ يقول :

مأمون يا ذا النّسبة الشريفة ... والـمُلك والمنزلة المُنيـــفة
هل لك في أرجوزة ظريـفة ... أظرفُ من فقه أبي حنيـفة
لا والذي أنت له خليـــفة ... ما قد ظلمتَ بأرضنا ضعيفة
عاملنا وطأته خفيـــفة ... قد سار فينا سيرة الخليـفة
فالذئب والنّعجة في سقيـفة ... واللصّ والتّاجر في قطيـفة

فأعجب المأمون مقالته هذه وقال له : يا فُريخ أبيه وأمّه ، أيهما أحبّ اليك عشرة دنانير عاجلة أوعشرين دينارًا آجلة . فقال : بل العشرون المؤجلة لأنّني لا أتّهم ذمة أمير المؤمنين ! ثم مشى معه مشيًا لطيفًا ، وقال له : يا أمير المؤمنين أيصلُح لمثلي أن يكون له ديْن على مثلك الى أجل ؟ فقال له المأمون بل نعجِّل لك العشرين . وأمرله بها . انتهى /244/

قيل : كان المأمون شاعرًا مُجيدًا وناظمًا بليغًا ، ومن لطيف شعره ما روي عنه :

بعثتُكَ مرتادًا ففزتَ بنظـــرة وأغفَلْتني حتى أسأتُ بك الظنّا
مناجية من أهوى وكنتُ مباعدًا فيا ليت شعري عن دنوك ما أغْنَى
أرى أثرًا منها بعيـــنك بيّنا لقد أُخذتْ عيناك من عينها حُسْنَا

ومن لطيف ما روي عنه أيضًا قوله :

لساني كَتُوم لأســـراركم ودمعي نموم فسريّ مـذيعْ
فلو لا دموعي كتمتُ الهوَى ولو لا الهوَى لم يكن لي دموعْ

وحكي ، أنه لـمّا تجهّز للغزو في آخر سفرة سافرها الى طرسوس استدعى بجارية كان يحبّها ، وقد اشتراها في آخر عمره ، فضمّها اليه . فبكت الجارية وقالت : قتلتني يا أمير المؤمنين بسفرك هذا ! ثم أنشأت تقول :

سأدعو دعوة المضطرّ ربّا يُثيب على الدّعاء ويستجيبُ
لعلّ الله أن يكفيك حربًا ويجمعُنا كما تهوَى القلوبُ

فضمّها اليه وأنشأ يقول :

فيا حُسْنها إذ يغسِل الدمعُ كُحْلها وإذ هي تذْري الدمع منها الأوابِلُ
صبّحتُها فبكت وقالت قتلْـــتني وقلبي بما قالت هناك تحـــاوِلُ

ثم أمر الخادم مسرورًا بالاحسان اليها والاحتفاظ /244ب/ عليها حتى يرجع ، ثم قال : كما قال الأخطل :

قوم إذا حاربوا شدُّوا مآزرهم دون النِّساء ولو باتت بأطهارِ

ثم ودّعها وسافر . فمرِضت الجارية في غيبته هذه ، ومات المأمون أيضًا . فلما جاء نعيه تنفّست الصُّعَداء وحضرها الموت ، فأنشأت تقول وهي على ذلك

الحال :

إنّ الزّمان سقانا من مرارته بعد الحلاوة أنفاسًا فأرْوانا
أبدى لنا تارة منه فأضحكنا ثم انثنى تارة أخرى فأبْكانا
إنّا الى الله فيما لا يزال لنا من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا نراها ترينا من تصرُّفها ما لا يدوم مصافاة وإخوانا
ونحن فيها كأنّا لا يُزايلنا للعيش أحياؤنا يبْكون موتانا

وكان هذه آخر سفرة سافرها المأمون ، وهي التي مات فيها ، رحمة الله تعالى عليه .

قيل ، كان المأمون كثير السّفر والغزو على الأعداء .

وروى ابن عساكر ، أنه كان فيه شهامة عظيمة ، وقوة جسمية ، وله همّة في القتال وحصار الاعداء ومصافّ (جمع المصفّ ، الموقف في الحرب) الروم وحصْرهم في بلدانهم وقتْل فرسانهم وأسْر ذَراريهم وولْدانهم . اهـ .

كان ركب في العسكر قاصدًا بلاد الروم من بغداد ليغزوهم ، واستخلف على بغداد وأعمالها اسحاق بن ابراهيم بن مصعب . وسار منها في أواخر المحرم سنة خمسة عشرة ومائتين ، فوصل الرقّة . فتلقاه محمّد الجواد بن عليّ الرّضا /245/ بن موسى الكاظم من المدينة ، فأذن له المأمون في الدخول على ابنته أمّ الفضل التى كان عقَد عليها في حياة أبيه عليّ الرّضا ؛ فدخل بها . وأخذها معه الى بلاد الحجاز .

ثم سار المأمون فتلقاه أخوه المعتصم من الدّيار المصرية . وكان عامل مصر أولاه أخوه المأمون إياه سنة ثلاثة عشرة ، وأولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم في تلك السنة . وكان لقاؤه به قبل وصوله الى الموصل ، فسار في جحافله العظيمة فبلغ بلاد طرسوس في جمادى الاولى ، وفتح حصنًا هناك عنوة وأمر بهدمه . ثم رجع المأمون الى دمشق وعمّر دير مزار ، وأقام بها مدة .

وفي تاريخ العظمي ، أنه لما غزا المأمون كان نُفيل ملك الروم معه مستأمِنًا ، ثم هرّب الى الّروم .

قال : ودخل المأمون انطاكية ثم طرسوس ودخل ولده العباس من ناحية ملطية ، ففتحوا حصن قرّة وحصونًا كثيرة ثم عاد المأمون الى دمشق ، وشتّى عليها ، وجمَد الفرات في الشتاء حتى عبرت الخيل على الجليد . انتهى ، كذا حكاه البدري .

ثم عاد الى بلاد الرّوم سنة ستة عشر ومائتين . وسبب ذلك أن نفيل ملك الروم عاد الى أرض طرسوس ، فقتل جماعة من المسلمين نحوًا من ألف وستمائة إنسان . فبلغ المأمونَ ذلك ، فنهض من فوره في الجيوش ، وصحَبه أخوه المعتصم نائب الشام ومصر ، فأفتتح بلدانًا كثيرة صلحًا وعنوة ، وافتتح أخوه المعتصم ثلاثين حصنًا . وبعث المأمون يحيى بن أكثم في سرية الى طوانة فأفتتح بلادًا /245ب/ كثيرة ، وآسر خلقًا من الذراري وغيرهم ، وقتل جمّا من الروم وحرق حصونًا عديدة ثم عاد سالمًا مؤيدًا الى العسكر .

وأقام المأمون ببلاد الروم من منتصف جمادى الاولى الى النصف من شعبان ، ثم عاد الى دمشق . وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهري على الديار المصرية في شعبان من هذه السنة وتغلب على نواب أبي اسحاق المعتصم ، وقويت شوكته واتّبعه خلق كثير . فركب له المأمون من دمشق يوم الاربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة . ودخل الديار المصرية في المحرم من سنة تسع عشرة ومائتين ، فظفر بعبدوس الفهري المذكور ، فأمر بضرب عنقه ومهّد البلاد . ثم كرّ راجعًا الى الشام . كذا ذكر ابن كثير .

وقال النويري : ولـمّا دخل المأمون مصر ابتدأ بعمل المقياس المأموني الذي هدمه الماء ، وفتَح كوّة في الهرم ، فوجد فيها ذخائر نفيسة . اه .

قال العلامة جلال الدين السيوطي ، في حُسْن المحاضرة : لما دخل الخليفة المأمون مصر ورأى الاهرام أحبّ أن يعلَم ما فيها ، فأراد فتحها فقيل له : إنك

لا تقدِر على ذلك ! فقال : لا بدّ من فتح شيء منها . ففُتحت له الثلمة الموجودة الآن بنار توقد وخلّ يرشّ وحدّاد يسنّ ومناجيق («وجراديسن ومناحنيق» والدر «حداد يسن الحديد ويحدونه ومناجيق يرمي بها) تُرمي حتى انفتحت . وأنفق عليها مالا عظيمًا فوجد عرض الحائط عشرين ذراعًا . فلما انتهوا الى خلف الحائط وجدوا خلف الثقب مطهرة من زبرجد فيها ألف دينار ، وزن كلّ دينار أوقية من أواقينا . فتعجبوا من ذلك ولم يعرفوا معناه . فقال /246/ المأمون : إرفعوا اليّ حساب ما أنفقتم على فتحها . فرفعوه ، فإذا قدْر الذي وجدوه لا يزيد ولا ينقص . ووجدوا كتابة مرقوم فيها : «سيفتح هذا الهرم من هذا المكان على يد خليفة من خلفاء مصر ، ويصرف عليه كذا من المال ، فإذا دخلتموه فخذوا المقدار الذي صرفتموه لا يزيد ولا ينقص . وارجعوا لا تهلكوا» .

ووجدوا في داخله بئرًا مربّعة ، في تربيعها أبواب ، يُفضي كل باب منها الى بيت فيه أموات بأكفانهم ، ووجدوا في رأس الهرم بيتًا فيه حوض من الصخر وفيه صنم كالآدمي من الدَّهَنَج (الدهنج ، بالتحريك ، نوع من الزمرد) وفيه وسطه إنسان عليه درع مرصّع بالجوهر ، وعلى صدره سيف لا قيمة له ، وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوءه كضوء النهار ، وعليه كتابة بقلم الطير الدرّ /158ب/ «الطير» والطبر أصح ، لان الطبر نوع من السلاح له فأس . وهو أقرب لأن يستعمل في الكتابة النقشية . وبلفظ الطير على كثرة الطيور في الكتابة الفرعونية) ، لم يعلم أحد في الدنيا ما هو . ولـمّا فتحه المأمون أقام الناس سنين يدخلون فيه وينزلون من الزلاقة التي فيه ، فمنهم من يسلم ومنهم من يموت . انتهى .

وقال ابن المتوّج ، في كتابه من عجائب مصر : ما بجانبها الغربي من البنيان المعروف بالاهرام ، وعددها ثمانية عشر هرمًا ، منها ثلاثة بالجيزة مقابل الفسطاط . ولما فتح المأمون أحدها انتهى الى حوض مغطّى بلوْح من رخام مملوء

من ذهب ، واللوح مكتوب فيه أسطر ، فطلب من يقرؤها فإذا فيها : «إنّا عمرنا هذا الهرم في ألف يوم ، وأبحنا لمن يهدمه في ألف سنة ، والهدم أسهل من العمارة . وجعلنا في كل جهة من جهاته بقدر ما يَصرف الى الوصول اليه لا يزيد ولا ينقص » . وعند مدينة فرعون يوسف أهرام دورته ثلاثة /246ب/ آلاف ذراع وعلوه سبعمائة ذراع ، وعند مدينة فرعون موسى آخر ، وآخرها هرم يعرف بهرم ميدوم كأنه جبل ، وهو خمس طبقات والطبقة العليا كأنها قلعة على جبل . انتهى .

وقال في ربيع الابرار : الهرمان بالجيزة على فرسخين من الفسطاط ، كل واحد أربعمائة ذراع .

وقال المسعودي : وأساسهما في الأرض مثل طولهما في العلو .

وقال صاحب مرآة الزمان : الهرمان من عجائب مصر ، وسُمك كل واحد منهما خمسمائة ذراع في ارتفاع مثلها ، وكلّما ارتفع البناء دقّ رأسها حتى يصير مثل مفرش حصير . وقال صاحب مناهج الفكر : وكل هرم منهما مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعًا يحيط به أربع سطوح متساويات الاضلاع ، كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعًا ، ويرتفع الى أن يكون سطحه مقدار ستة أذرع في مثلها . ويقال إنه كان عليه حجر شبه المكبّة ، فرمَتْه الرّياح العواصف ، وهو مع هذا العِظم وإتقان الهندسة وحسن التدبير لم يتناثر الى الآن بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل . وهما من المباني التى يبلى الزمان ولا تبلى .

قال القاضي الفاضل : الهرمان فرقد الأرض ، وكل شيء يخشى عليه من الدهر الاّ الهرمان يخشى على الدهر منهما !

قال في ربيع الابرار : وبناؤهما بالحجارة المرمر ، وهي منقولة من مسافة أربعين فرسخًا من موضع يعرف بذات الحمام فوق الاسكندرية . ولا يزالان ينخرطان /247/ في الهواء حتى يرتفع دورهما الى مقدار خمسة أشبار في

خمسة ، وليس على وجه الارض بناء أرفع منهما .

وقال في مناهج الفكر : هذا البناء ليس بحجارته بلاط الاّ ما يُتخيّل أنه ثوب أبيض فُرش بين حجرين أو ورقة ، ولا تتخلّل بينما الشعرة . وطول الحجر منها خمسة أذرع في سمك ذراعين . ويقال إنّ بانيها جعل لهما أبوابًا على آزَجٍ مبنية بالحجارة في الارض طول الأزج عشرون ذراعًا ، وكل باب من حجر واحد يدور بلولب إذا أُطبق لم يعلم أنه باب . يدخل من باب منها الى سبعة بيوت ، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة ، وكلها مقفلة بقفل واحد ، وكل بيت من ذهب ، وفيه عند بابه صنم مجوّف أحدى يديه على فيه ، وفي جبهته كتابة بالسِّندي إذا قرأتها انفتح فوه ، فيوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح به . قال : وأما أبو الهول فهو صنم بقرب الهرم الكبير في وَهدة مستخفضة وعنقه أشبه شيء برأس راهب حبشي على وجهه صباغ أحمر ، لم ينحلّ على طول الزمان . يقال إنه طلسم يمنع الرّمل عن المزارع .

وقال في المسالك : قد أكثر الناس القول في سبب بناء الاهرام . فقيل هياكل للكوكب ، وقيل قبور ومستودع أموال وكتب ، وقيل ملجأ من الطوفان . قال: وهذا أعبر ما قيل فيها ، لانها ليست شبيهة بالمساكن .

وقال صاحب المرآة : والظاهر أنها قبور الأوائل من الملوك وعليها أسماؤهم وأسرار الفلك والسِّحر وغير ذلك . قال : وعليها جميع الاقلام السبعة اليوناني والعربي والسرياني /247ب/ والسندي والحميري والرومي والفارسي .

وقال صاحب مناهج الفكر : والقِبط تزعم أنها لهم ، وأنها قبور . فالهرم الشرقي فيه سورية الملك ، والغربي أخوه مرحب ، والهرم الملوّن فيه افريبون بن مرحب . والصابئة تزعم أن أحدهما قبر شيت ، والآخر قبر هرمس ، والملون قبر صاب بن هرمس واليه تنسب الصابئة ، وهم يحجّون اليها ويذبحون عندها الديك والعُجول السود ، ويبخّرون بدَخَن .

وقال في المسالك : وقد كانت الصابئة تأتي فتحج الواحد ، وتزور الآخر

ولا تبلغ به مبلغ الاول في التعظيم .

وقال صاحب المرآة : واختلفوا فيمن بنى الاهرام ، فقيل يوسف وقيل نمرود ، وقيل دلوكة الملكة ، وقيل بناها القبط قبل الطوفان . وكانوا يرون أنه كائن فألقوا («فلقوا») ذخائرهم فيه ، فما أغنى عنهم شيئا .

وقال صاحب المناهج : يقال إنّ بانيها سورية بن شهلوق بن شرياق قبل الطوفان ، لرؤيا رآها فقصّها على الكهنة ، فنظروا فيما يدلّ عليه الكواكب النيّرة ، فدلّ على إحداث حادث يحدث في العالم ، وأقاموا مركزها في وقت المسألة ، فدلّ على أنّها نازلة من السماء تحيط بوجه الارض ، فأمر حينئذ ببناء البراري («براي») والاهرام العظام ، وصوّرَ فيها صور الكواكب ودرُجها وما لها من الاعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة .

ويقال إنّ هرمس الذي يسميه العبرانيون اخنخ ، وهو ادريس عليه السلام ، استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان ، فأمر ببناء الاهرام وإيداعها الاموال وصحائف العلوم وما يخاف عليهما من /248/ الذهاب والدّثور ، قال : وبدمنهور من أعمال الجيزة أهرام شدّاد بن عاد بن فقطيم بن مصر . وقال عبد الله بن سراقة : إنّ العماليق حين أخرجتها جُرهُم من مكة نزلت مصر ، فبنت الاهرام واتّخذت فيها المصانع وبنت فيها العجائب ، ولم تزل مصر في أيديهم حتى أخرجهم مالك بن دعر الخزاعي .

وقال سعيد بن عفير : لم تزل مشائخ مصر يقولون الاهرام بناها شداد بن عاد . وكانوا يقولون بالرِّجعة ، فكان أحدهم إذا مات دفن معه ماله ، وإن كان صانعًا دفنت معه آلته . انتهى .

وحكى بعض شيوخ مصر أنّ بعض من يعرف لسان اليونان حل بعض الاقلام التي عليها ، فإذا هي : «بني هذان الهرمان والنسر الواقع في السرطان» قال ومن ذلك الوقت الى زمن نبينا ﷺ ستّ وثلاثون ألف سنة ، وقيل إثنتان وسبعون ألف سنة . وقيل إنّ القلم الذي عليها تاريخه قبل بناء مصر بأربعة

آلاف سنة ولا يعرفه أحد .

قال : ولـمّا ملك أحمد بن طولون مصر حُفر على أبواب الهرم ، فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوب عليها سطور باليوناني ، فأحضير من يعرف ذلك القلم وإذا هي أبيات شعر ، فترجمت فكان فيها :

أنا باني الاهرام في مصر كلّها ... ومالكها قدما بها والمقـدَّمُ
تركتُ بها آثار علمي وحكمتي ... على الدّهر لا تَبْلى ولا تتهدَّمُ
وفيها كنوز جُمعتْ وعجائبُ ... وللدّهر لينٌ مدّةً وتَهـجُّمُ
وفيها علومي كلُّها وغـرائبي ... وفي ليلة من آخر الدّهر تنجمُ
ثمان وتسع واثنتان وأربـع ... وسبعين من بعد المئين تُسـلَّمُ /248ب
ومن بعدها أجر تسعين برهة ... فتلقى البرابي سنجر وتهـدَّمُ
تدبّرْ فعالي في صخور قطعتُها ... ستبقى والتي قبلها ثَمّ تُعـدَمُ

فجمع ابن طولون الحكماء وأمرهم بحساب هذه المدة ، فلم يقدروا على تحقيق ذلك ، فأيس من فتحها .

ودخل جماعة في أيام أحمد بن طولون الهرم الكبير ، فوجدوا في إحدى بيوته جاما من زجاج غريب اللون والتكوين ؛ فحين خرجوا فقدوا منهم واحدًا ، فدخلوا في طلبه فخرج اليهم عريانًا وهو يضحك وقال : لا تتعبوا في طلبي ورجع هاربًا الى داخل . فعلموا أنّ الجنّ استهوته وشاع أمرهم فبلغ ابن طولون ، فمنع الناس من الدخول وأخذ الجام منهم ، فملأه ماء ووزنه ثم صبّ ذلك الماء ووزن الجام فكان وزنه مليانًا كوزنه فارغًا .

وقيل إنّ الروحاني الموكّل بالهرم في صفة امرأة عريانة مكشوفة الفرج ولها ذوائب الى الأرض . وقد رآها جماعة تدور حول الهرم وقت القائلة . والموكّل بالهرم ، الذي الى جانبه ، غلام أخضر أمرد عريان . وقد رأوه يدور حول الهرم بعد المغرب ؛ والموكّل بالثالث في صورة شيخ في يده مبخرة وعليه ثياب

الرهبان ، وقد رأوه يدور ليلا حول الهرم . انتهى . ذكر ذلك صاحب مرآة الزمان والمسعودي .

وقال صاحب المناهج : ولما فتحه المأمون ، فُتح الى زلاّقة ضيقة من حجر الصوان الاسود ، الذي لا يعمل فيه الحديد ، بين حاجزين ملتصفين بالحائط . قد نقر في الزلاقة حُفر ، يتمسّك الصاعد بتلك الحفر ويستعين بها على المشي في الزلاقة لئلا يزلق وأسفل الزلاقة /249/ بئر عظيمة بعيدة القعر . ويقال إن أسفل البئر أبواب يدخل منها الى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب ، وانتهت بهم الزلاقة الى موضع مربع في وسطه حوض من حجر صلد مغطّى فلمّا كُشف عنه غطاؤه لم يوجد فيه الا رِمّة بالية .اهـ .

لطيفة

ذكر في صحيح مسلم وغيره عن صهيب رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : كان ملك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن يكهّن له ـ وفي رواية ساحر ـ فقال الساحر : إني قد كبُرت وأخاف أن أموت فينقطع علمي منكم ولا يكون فيكم من يعلمه ؛ فآنظروا لي غلامًا فطِنًا فاهمًا لأعلّمه علمي ، وأفهّمه . فنظروا له غلامًا على ما وصف. وأمروه أن يحضر ذلك السّاحر وأن يختلف اليه ، فجعل يختلف اليه . وكان على طريق الغلام راهب في صومعته ـ قال معمر : أحسب أن أصحاب الصوامع يومئذ كانوا مسلمين ـ فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مرّ به ، فلم يزل به حتى أخبره ، فقال : إنما أعبد الله عز وجلّ ! فجعل الغلام يمكث عند الراهب ويبطيء على السّاحر فأرسل الى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضُرني ؛ وأُخبر الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا خشيتَه فقُلْ حبَسني أهلي ، وإذا خشيت أُهلك فقل حبسني السّاحر !

فبينما الغلام على ذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة وقد حبَستْ الناس ، فقال : اليوم أتبين أمر الراهب من السّاحر . فأخذ حجرًا وقال : اللّهم إن كان أمر

الراهب أحبّ اليك من أمر السّاحر فاّقتل هذه الدابة ! ثم رماها فقتلها . فقال الناس : من قتلها ؟ /249ب/ فقيل : الغلام ! ففزع الناس وقالوا : لقد علِم هذا الغلام علمًا لم يعلمه أحد . فسمِع به أعمى ، وكان جليسًا للملك ، فأتاه ليردّ بصره ، فقال له : لا أريد منك شيئا ، ولكن أرأيت إن رجع اليك بصرك أتؤمن بالذي ردّ اليك بصرك ؟! قال : نعم . فدعا الله عزّ وجلّ فردّ عليه بصره فآمن الأعمى وجاء الى الملك بعدما شُفي ، فجلس منه كما كان يجلس ، فقال له : من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي ! قال : وهل لك ربّ غيري ؟! قال : الله ربي وربّك ! فأمر بالمنشار فوُضع على رأسه حتى وقع شِقّاه .

قال الترمذي : إن تلك الدابة كانت أسدًا ، وأن الغلام لما قتلها أخبر الرّاهبَ فقال له : إن لك شأن ، وإنك تبتلى فلا تدُلّ عليّ !

وإنّ الملك بلغه أمرُهم ، فبعث اليهم فأُتِي بهم ، فقال : لأقتلنّ كل واحد منكم قِتلة لا أُقتل بها صاحبه . ثم أمر بالرّاهب وبالرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق كلّ واحد منهما فقتله ، ثم أمر بالغلام فقال : انطلقوا به الى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه !

فانطلقوا به الى ذلك الجبل فلمّا انتهوا به اليه ، قال الغلام : اللهم أكفنيهم بما شئت . فجعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردّوْن منه حتى لم يبق منهم الا الغلام . ورجع الى الملك فقال له : أصحابك كفانيهم ربي بما شاء ! فأمر الملك أن ينطلقوا به الى البحر فيلقونه فيه .

فانطلقوا به اليه فقال الغلام : اللّهم أكفنيهم بما شئت . فأغرق الله عزّ وجلّ الذين كانوا معه وأنجاه . فأقبل الغلام يمشي على وجه الماء حتى أتى الملك /250/ فتحيّر الملك في نفسه فقال له الغلام : أتريد أن تقتلني ؟ قال : نعم . قال : إنك لن تقدر أن تقتلني حتى تصلبني وترميني بسهم من كنانتي وتقول إذا رميتني «بسم الله ربّ هذا الغلام» ، بعد أن تجمع الناس في صعيد واحد .

ففعل الملك ذلك ، وأمر بالغلام فصلب وأخذ الملك سهمًا من كنانة الغلام

وقال «بسم الله ربّ هذا الغلام» . فقيل له : لكنّك جزعت حين خالفك ثلاثة ، فهذا العالم كلهم قد خالفوك !

فأمر بالأخدود ، فخدّ أخدودًا ثم ألقي فيه الحطب والنار ثم جمع الناس وقال من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذا النار فجعل يلقيهم في ذلك الاخدود . فذلك قوله تعالى : «قتل أصحاب الأخدود ، الآية» .

زاد مسلم : فأُتِيَ بامرأة لتلقى في النار ومعها صبيّ رضيع ، فجزعت فقال لها الصبي : يا أماه لا تجزعي ، فإنك على الحقّ !

وذكر ابن قتيبة أنّ الرضيع كان ابن سبعة أشهر .

قال الترمذي : وأنّ الغلام خرج في زمن عمر رضي الله تعالى عنه ويده على صُدْغه كما وضعها حين قتل .

وذكر صاحب السيرة ، محمد بن اسحاق ، فيها ، أنّ اسمه عبد الله بن التامر . وأنّ رجلا من أهل نجران حفر حفرة في زمن عمر رضي الله تعالى عنه في بعض حاجته فوجده تحت الرّدم قاعدًا واضعًا يده على ضربة في رأسه وفي يده خاتم مكتوب عليه «ربي الله» فكتبوا بذلك الى عمر رضي الله [تعالى عنه] فكتب اليهم «أقِرُّوه على حاله» اه .

قال السمرقندي : والواقعة كانت قبل مبعث /250ب/ النبيء ﷺ بسبعين سنة ، قال : وكان اسم الراهب قيمون . كذا قال ابن بشكوال . انتهى .

قال الملك المؤيد : ثم إنّ المأمون رجع الى الشام ثم دخل بلاد الروم ، وأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم عاد .

قال البدري : ولما رحل استخلف على حصارها عُجيفًا فخدعته الروم وآسرته ، فأقام في أيديهم ثمانية أيام ، ثم انفلت من أيديهم واستمر محاصرًا لهم ، فجاء ملك الروم بنفسه وأحاط بجيشه من وراء . فبلغ المأمون ذلك فسار اليه وهرب ملك الروم ثم بعث وزيره يسأل الأمان والمصالحة والمهادنة لكنه بدأ

بنفسه في الكتاب ، فردّ اليه المأمون يوبّخه ويقول له : «لا أقبل منك شيئا الا الدخول في الحنفية ، والا السيف والقتل . والسلام على من اتبع الهدى» اه .

قال الهمداني في تاريخه : لما غزا المأمون أرض الروم ، وعمد الى حصونهم ودعاهم الى الاسلام وخيّرهم بين الاسلام أو الجزية أو السيف ، وذلل النصرانية فأجابه خلق عظيم الى الجزية .

وذكر القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد الدمشقي قال : لـمّا توجه المأمون غازيًا ونزل البذندون جاءه رسول ملك الروم فقال له : إنّ الملك يخيّرك بين أن يردّ عليك نفقتك التي أنفقتها من بلدك الى هذا الموضع ، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار ، وبين أن تعمّر لك النصرانية ما خرّبته من بلاد المسلمين ، فيُعمّر كما كان وترجع عن غَزاك هذا !

فقام المأمون ودخل /251/ الى مضربه وصلّى ركعتين واستخار الله عز وجلّ ، وخرج فقال للرسول : قل له أما قولك بردّ نفقتي ، فإني سمعت الله تعالى يقول في كتابه العزيز : «وإنّي مرسلةٌ اليهم بهدية فناظرة بم يرجعُ المرسَلون ، فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما أتاني الله خيرٌ مـمّا أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون» (النمل 35 ، 36) ؛ وأمّا قولك إن كل أسير في بلد الروم من المسلمين تخرجه ، فما ذلك الا أحد رجلين إما رجل طلب الله عز وجل في الآخرة ، فقد صار الى ما أراد ؛ وإما رجل طلب الدنيا فلا فكّ الله أسره ؛ وأمّا قولك تعمّر كل بلد للمسلمين قد خرّبه النصارى ، فلو أني فعلت أقصى حجر في بلاد الروم ما اغتظت بآمرأة عثرتْ في حال أسرها وقالت «وامحمّداه !» . عد الى صاحبك ، فليس بيني وبينه الا السيف ! يا غلام ، إضربْ في الطّبل !

فرحل ولم ينثن عن غزاته ، حتى فتح أربعة عشر حصنًا . انتهى .

ولا زال المأمون ببلاد الروم ، الى أن دخلت سنة ثمانية عشر ومائتين ،

فأنقضت فيها أيامه ، وألمّ به حِمامه .

ذكر في تاريخ النويري : أنّ المأمون مرِض لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة . وسبب مرضه ما حكاه سعيد بن العلاف ، قال : دعاني المأمون وهو وأخوه المعتصم جالسان على شاطيء نهر البذندون وقد وضَعا أرجلهما في الماء ، فقال له : أيّ شيء يؤكل ليُشرب عليه من هذا الماء الذي لا نهاية له في الصفاء والعذوبة ؟ قال : أميرَ المؤمنين /251ب/ أعلم . فقال : الرُّطَب .

فبينما هم في الحديث إذ دخلت بغال البريد ، عليها تحف وفيها الالطاف . فقال للخادم : انظر إن كان في هذه الالطاف رطب ! فمضى وعاد ومعه سلتان فيهما رطب من أطيب ما يكون . فشكر الله تعالى ، وتعجبّنا جميعًا . وأكلنا من ذلك الرطب وشربنا عليه من ذلك الماء ، فما قام منّا أحد الا وهو محموم . ولم يزل المعتصم مريضًا حتى دخل العراق ومرض المأمون أيضًا ، ومات رحمة الله عليه .

قال ابن الوزير ابن بدورن : وكان ذلك أوّل علة المأمون . ثم تولّدت به مادة تنصبّ الى حلقه ، فكان دواؤه أن يترك حتى ينضج ، فيفتح . ففعل ذلك مرات ، وكان طبيبه ابن ماسويه فعلم أنّ تلك العلة لا تزول وأنه إن أخطأ في إصلاحها بعض الخطأ هلك صاحبها . فعلّق بها طبيبًا آخر يطبُّه منها ، فطبّه ذلك الطبيب قبل النضج فمات .

ويقال إنه لـمّا خرج في تلك الغزاة التي مات فيها صاح في إحدى الليالي غلامٌ اسمه شفير ، وقال له : ويحك ، من يغني ؟ قال : ما يغنّي أحد . قال شفير ، ثم قمت فتسمّعت فلم أسمع شيئا فقلت : ما أسمع شيئًا ! فقال : بلى والله إنه كان مَن يغنّي ، ويقول :

ألم تعلم لمنزلة ودور خلتْ بين المعشّر والخدور

كأن بقية الآثار فيا بقايا الخطّ من قلم الزبّور

فاعتل في اليوم الثالث من هذه الليلة . قال ابراهيم /252/ بن المهدي : رأيته في منامي ، كأن جارية من جواري الرشيد وفي يدها عود وهي على منبر الرسول ﷺ ، وهي تقول :

سوف يأتي الرسول من بعد شهر يجــدّ بنعي الخليــــفةِ المأمونِ

قلت : فهذه مفسّرة ! فجاء نعيه بعد شهر . انتهى .

وكانت وفاته سنة ثماني عشرة ومائتين في رجب .

قال ابن المحبّر : يوم الخميس وقت الظهر . وقيل بعد العصر لثلاث عشر ليلة بقيت من رجب . وقيل يوم الخميس لسبع عشرة ليلة خلت من رجب بالبذندون من أرض الروم ، وحمل ودفن بطرسوس ، وله من العمر على حساب مولده ثمانية وأربعون سنة وأربعة أشهر وخمسة أيام . لأنه ليس في مولده خلاف . انتهى .

وفي عيون المعارف : أنه توفي بالبذندون من أرض الروم غازيًا لثمان خلون من رجب . وقال غيره : يوم الاربعاء لثمان خلون من رجب ، وعمره ثمان وأربعون سنة . وقيل تسع وأربعون سنة وشهران وثمانية عشر يومًا . وقال ابن كثير : إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل ، فحمل الى طرسوس حتى دفن بها . وقيل إنه نقل بعد ذلك الى أذنة فدفن بها ، والله أعلم .

وقال المؤيد : حمله المعتصم وابنه العباس الى طرسوس فدفناه بدار جلعان خادم الرشيد . وصلى عليه المعتصم ، فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا سوى أيام دعي له بالخلافة وأخوه الامين /252ب/ محاصر ببغداد . وكان مولده النصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، وكانت كنيته أبا العباس . وكان ربعة ، أبيض جميلا ، طويل اللحية رفيعها قد وخطه الشيب . وقيل كان أسمر ، أقنى ، أعين ، ضيّق الجبهة بخدّه خال أسود . انتهى

كلام المؤيد .

وقال في عيون المعارف : الخال بخدّه الايمن .

وقال ابن أبي الدنيا : كان حسن الوجه تعلوه صفرة .

وفي تاريخ العسقلاني : ويكنى حين استخلف بأبي جعفر ، وتلقب النظار والمبارك ، وله ألقاب كثيرة . وهو أوّل خليفة تسمى بإمام المسلمين ، وأوّل من كتب «من عبد الله الامام المأمون بالله أمير المؤمنين» . وكان نقَش على خاتمه «سل الله يعطيك » كذا في تاريخ القضاعي وفي عيون المعارف .

وكان يسمى المجلود ، لانّ أباه الرشيد جلده ، وذلك أنه دخل وبحضرة الرشيد قينة تغنّي فلحَنَت فكسر المأمون جفْنه عند سماع اللّحن ، فتغيّر لون الجارية وفطن الرشيد ، فأمر من يضربه عشرين مقرعة . ففُعل به ذلك . اه .

وكانت فيه شهامة عظيمة ، وقوة جسيمة ، وله همّة في القتال وحصار الأعداء . وكان يقول : معاوية بعمرِوه ، وعبد الملك بحجاجه ، وأنا بنفسي ! وكان يقصد العدل ، ويتولّى بنفسه الفصل ، وكان جوادًا عظيم العفو ، حسن التدبير .

قال اسحاق الموصلي : كان المأمون أحفظ الناس للسرّ وأكتمهم لما في صدره . ولقد كان ينادم من هو أبغض اليه من قذى العين ، فينصفه ويوفّيه حقّ /253/ المجالسة . ولقد قال يومًا : ما البغض عندكم ؟ فقلت : هو عندي حُمّى الروح ! قال : فكيف به إذا كان مغنيًا ؟! فقلت : كرَبُ الموت . قالوا : فمن هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو معنا في المجلس ! اه .

وكان فقيهًا ، عالـمًا يحبّ العلماء وإكرامَهم ، وله بصيرة بعلوم متعددة واليه ينسب الزِّيج المأموني . وكان يعلم النجوم ولذا قال أبو سعيد المخزومي :

ما رأيت النُّجوم اغنت عن الـمأ　　مون في عزّ ملكه المأسـوسِ

خلّفوه بعرصتيْ طرْسوس　　مثلما خلّفوا أباه بطُوسِ

قال الثعالبي : لا يعرف أب وابن من الخلفاء وقد تباعدت قبورهما الا الرشيد والمأمون . وذلك أن الرشيد بطوس والمأمون بطرسوس ، وأين العراق من الروم ، فسبحان القادر على كلّ شيء ! قال : وكذلك خمسة من وُلْد العباس تباعدت قبورهم اشدّ تباعد ، ولم ير الناس مثلهم ، فقبر عبد الله بن عباس بالطائف ، وعبيد الله بالمدينة ، والفضل بالشام ، وقثم بسمرقند ، ومعبد بإفريقية . انتهى .

ولما مرض المأمون أوصى أخاه أبا اسحاق المعتصم ، وعهد له وكتب وصيته بحضرة العباس بن المأمون وجماعة القضاة والامراء والوزراء وفيها القول بخلق القرآن والدّعاء اليه ولم يتُبْ من ذلك ، ثم قال له : يا أخي عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله لتقومنّ بحق الله في عباده ، ولتؤثرنّ طاعة الله على معصيته إذ أنا نقلتها من غيرك اليك . قال : اللهم نعم ! قال : هؤلاء /253ب/ بنو عمّك ، ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، أحسنْ صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم ولا تغفل صِلاتهم في كل سنة عند محلّها .

ثم أوصاه أن يكبّر الذي يصلّي عليه خمس تكبيرات ، وأن يعتقد ما كان يعتقده هو في القرآن . ثم أوصاه خيرًا بعبد الله بن طاهر ، واسحاق بن ابراهيم وأحمد بن أبي دؤاد القاضي . وكان المأمون يجلّه ، فقال لأخيه : شاوره في أمورك كلها ولا تفارقه . وحذّره من يحيى بن أكثم ونهاه عنه وذمّه ، وقال : له خانني ونفّر الناس عني ، ففارقته غير راض عنه . ثم تمم له بعهد الخلافة ولم يعهد لولده .

وكان له عدة أولاد وهم محمد الاكبر ، وعبد الله ، ومحمد الاصغر ، والعباس ، وعلي ، والحسن ، وجعفر ، واسحاق ، وأحمد ، وهارون ، وعيسى ، وعدة بنات أيضًا ثم مات ، رحمه الله كما تقدّم ذكر ذلك ، واستولى أخوه المعتصم وبايعه الناس . انتهى .

الباب الرابع
في دولة أمير المؤمنين
أبي اسحاق محمّد المعتصم بالله

هو محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور الهاشمي العباسي ، وأمّه أم ولد اسمها فاردة (ماردة ، في مراجع أخرى) ، من مولدات الكوفة ويقال إنها تركية . كذا في تاريخ العسقلاني . ومولده يوم الاثنين لعشر خلون من رمضان سنة ثمانين ومائة .

وقال ابن كثير : لعشر خلون من شعبان /254/ . ويقال كان مولده سنة ثمانية وسبعين .

وهو أحد أولاد ستّة من ولد الرشيد ، كل منهم اسمه محمّد .

بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس . وكان إذ ذاك مريضًا ، فأحضر العباس بن المأمون ، وبايع له فبايعه الناس . وقد شغب الجند ونادوا باسم العباس ، وأرادوا أن يولّوه فخرج عليهم ، وقال : ما هذا الحبّ البارد ، أنا قد بايعت عمّي المعتصم ! فسكن الناس وخمدت الفتنة ، وركبت البُرُد بالبيعة [الى] الآفاق وبتعزية الناس بالمأمون ، وولاية المعتصم .

ثم ركب في جنود الى بغداد وصحبه العباس بن المأمون . فدخلها يوم السبت مستهلّ شهر رمضان فى أبهة عظيمة ، وتحمّل في الدرّ وفي بعض المراجع «تجمّل» والظاهر أنه خفي عنهم المعنى في التحمل وهو الترحل) تام ، وفرحت به الناس .

وكان أبيض أصهب اللحية طويلها ، مربوعًا مشوب اللون بحمرة .

وكان شديد البدن ، يحمِل ألف رطل ويمشي به خطوات . وكان شجاعًا عظيمًا كثير الصدقات طيب الاخلاق ، ولكنه إذا غضب لا يبالي بمن قتل ولا ما فعل .

وهو أول من أضيف الى لقبه من الخلفاء اسم الله تعالى . وكان يلقب بالمثمّن وبالسباع والبيطار . انتهى . كذا ذكر المؤيد وصاحب عيون المعارف وغيرهما .

وكان عُرْيًا من العلم ، وله شجاعة وقوة وهمة . وتزيّى بزيّ الاتراك في اللّبس والهيئة . كذا ذكر ابن خلكان .

ذكر الخطيب البغدادي ، أنّ المعتصم أوّل من أدخل الاتراك الديوان ، وأول من مدّ السماط في الديوان كلّ يوم /254ب/ ، ولم يعهد في أيام من كان قبله من الخلفاء . وكان يتشبّه بملوك العجم ويلبس لِبسهم ويمشي مِشيتهم . وبلغت غلمانه بضعة عشر ألفًا.اهـ .

قال الحافظ الذهبي : اعتنى المعتصم بالتّرك وتشبّه بملوكهم في الزي واللبس ، وبعث الى سمرقند وفرغانة والنواحي وجمع منهم خلقًا كثيرًا ورتّب لهم الارزاق وبذل فيهم الاموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب ، فكانوا يطردون خيولهم في بغداد ، ويؤذون الناس ، وضاقت بهم البلد ، فاجتمع اليه أهل بغداد وقالوا له : إن لم تخرُج عنّا بجندك حاربناك ! قال : وكيف تحاربوني ؟ قالوا : بسهام الأشجار (في الاصل «الاسحار») . قال : لا طاقة لي بذلك . وكان هذا سبب بناء سرّ من رأى . انتهى .

قال ابن يونس : ومن أجله حقَد الناس على المعتصم ، وهجاه دِعبل بقوله :

ملوك بني العبّاس في الكُتْب سبعةٌ ... ولم يأتنا في ثامنٍ منهمُ الكتْبُ
كذلك أهلُ الكهف سبعةٌ عادة ... تواروْا فيه وثامنهم كلبُ
وإني لأزهو كلبَهم عنك رغبة ... لأنك ذو ذنب وليس له ذنبُ

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيفٌ وأشناس وقد عظم الخطبُ
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع شمس قد يغصّ بها الشُّربُ /55
وهمّك تُركيّ عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أبٌّ

فبلغت الأبيات المعتصم فأهدر دمه ، فهرب الى مصر ، ثم خرج الى المغرب .

وكان المعتصم قد قرّب منهم الرجال واستوزر منهم الأبطال ، مثل بُغا الكبير وعجيفًا ووصيف واشناس والأفشين وغيرهم ، وكان ذلك سبب تغلب الأتراك على بني العباس .

قال بعضهم : رأيت في بعض المجامع أنّ المعتصم بالله لما نكب على الافشين قال لأحمد بن أبي دؤاد : يا أبا عبد الله ، أرأيت ما صنع هذا الكلب الأقْلَف معي ، وأنا رفعت شأنه وقلّدته الاعمال ، وحكّمته في الاعلى والادني ! فلما سمع ابن أبي دؤاد كلام المعتصم أمكنته الفرصة في العجم والمماليك ، وكان لا يقدر يتكلم فيهم لميل المعتصم اليهم وحبّه فيهم . وقال له : يا أمير المؤمنين أحدثك بحديث لم تحدّث به ، وقد سمعته عن عمّك أبي طالب .

فقال له : وما هو ؟ قال : حدّثني هشام بن السائب ، أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم ، فقال : يا معشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب ، فيكم السيّد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا في المآثر نصيبًا الا أحرزتموه ، ولا شرفًا الاّ أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به اليكم الوسيلة ، والناس لكم حزب ، وعلى حزبكم ألب (الألب والإلب ، الناس يجتمعون على عداوة انسان) /255ب/ وإني أوصيكم بتعظيم هذه البِنْية ، فإنّ فيها مرضاة للربّ وقواما للمعاش وثباتا للوطأة ، وصِلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإنّ في صلة الرحم منسأة في الأجل وزيادة في العدد ، فاَتركوا البغي والعقوق فإنّ فيها هلكت القرون قبلكم ، وأجيبوا الداعي واَعطوا السائل ، فإن

فيها شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام ، وإني أوصيكم بمحمّد خيرًا ، فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به وقد جاء بأمر قَبِله الجَنان وأنكره اللسان ، مخافة الشنّآن ؛ وأيم الله ، كأني أنظر الى صعاليك العرب وأهل البرّ في الاطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته ، وأعظموا أمره . فخاض بهم في غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا ودورها خرابًا وضعفاؤها أربابًا ، وأعظمها عليه أوجههم اليه ، وأفقرهم منه أحظاهم عنده ، قد محّضْته العرب ودادها ، وأصفت له قوادها ، وأعطته قيادها دونكم . يا معشر قريش ، ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة .

وكأنّي ، يا أمير المأمنين ، أنظرُ الى هذه المماليك ، وقد تحزّبوا («يتحزبوا») بالاعمال وجمع المال وإدخالهم العجم في العُمّال وإبطالهم العرب من الدواوين والاعمال حتى ينفردوا بالكلمة اليهم دون غيرهم ، فتصير ساداتهم /256/ لهم أذنابًا ودورهم خرابًا كما قال أبو طالب . فأنحرف المعتصم على المماليك وصار يبطِش بهم وأراد الدخول الى بلاد المغرب ليقطع ذكر بني أمية ويهلك الاتراك والمماليك بالأسفار . فكان أجله قد آن ووقع ما جرى به قلم الديّان . انتهى .

ذكر ابن الاثير ، أنّ المعتصم غضب على حيدر الافشين سنة خمسة وعشرين ومائتين ، وأمر بسجنه . فبُني له مكان كالمنارة من دار الخلافة ، تسمى الكوة وحُبس به . وكان سبب ذلك أنّ الخليفة المعتصم تحقق أنه كان يريد مخالفته والخروج عليه ، وأنه عازم على الذهاب الى بلاد الخَزر ليستجيش بهم على المسلمين . فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك . وعقد له مجلسًا فيه قاضيه أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات ونائبه اسحاق بن ابراهيم بن مصعب .

وأُحضر الأفشين واتّهم بأنه باق على دين أجداده الفرس ، وذلك أنه غير مختتن . فاعتذر أنه يخاف من ألم ذلك . فقال له الوزير ابن الزيات ، وكان هو الذي تولّى مناظرته من بين القوم : فأنت تُطاعن بالرّماح في الحروب ولا تخاف من وقعها ، وتزعم أنك تخاف من قطع قلفة من بدنك !

ثم أُلقِي عليه أنه جلد رجلين إمامًا ومؤذنًا كل واحد منهما ألف سوط لكونهما هدما بيت أصنام واتخذاه مسجدًا ، وأنّ عنده /256ب/ كتاب كليلة ودمنة وفيه الكفر ، وهو محلّى بالجوهر والذهب . واعتذر أنه ورثه من آبائه . وآتهم بأن الأعجام يكاتبونه فيقولون «الى اله الالهة من عبيده» وأنه يقرّهم على ذلك ، فجعل يعتذر بأنه أجراهم على ما كانوا يكاتبون به آباءه وأجداده ، وخاف أنه إن يأمرهم بترك ذلك يضيع عندهم . فقال له الوزير : ويحك ، فماذا أبقيتَ لفرعون حين قال «أنا ربكم الاعلى !»

ثم اتُّهم أنه كان يكاتب المازيار بأن يخرج عن الطاعة حتى ينصُرا دين المجوس الذي كان قديمًا ويَظهَرا على العرب والمغاربة والأتراك . وكان المازيار أحد العمال الأعجام ، وغضب عليه المعتصم وصلبه .

ثم أُلقي على الافشين أنه كان يستطيب المخنوقة على المذبوجة ، وأنّه كان يأكل في كل يوم أربعاء شاة سوداءَ ، بعد أن يَستدعي بها ويضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلهما . فجعل يعتذر على ذلك . واشتدّ غضب المعتصم بالله عليه ، ثم أمر عند ذلك بُغا في مهانته . فجعل يقول : أنا كنت أتوقّع ذلك منكم ! وحُمل محبوسًا . ثم أمر المعتصم عبد الله بن طاهر أن يحمل الحسين بن الافشين الى سامراء فحمله اليها ومعه زوجته أترجّة بنت أشناس . انتهى .

وذكر ابن الجوزي ، في تاريخه ، أنّ في السنة السادسة والعشرين أمطرت أهل نيما ببَرَد كالبيْض ، فهدمت بيوتًا كثيرة وقتلت جماعة وسُمع صوت يقول : /257/ ارحم عبادك ارحم عبادك ! ورأوْا أثَر قدم طوله ذراع ونصف

بعشرة أصابع ، وعرضه شبران ، وبين خطوتيه سبعة أذرع . وآتبعوا الصوت ، فكانوا يسمعونه ولا يرون شخصه .

وفيها فُتح بمصر كنز بغير موانع ، فوُجد فيه من الذهب خمسمائة ألف دينار ، ووجد فيه ضِلع طوله اثنى عشر شبرًا وعرضه شبر ؛ ذكر أنه من بقية قوم عاد ، وفيها انخسف جبل يعرف بالتل ، فخرج من تحته ماء كثير ، غرق منه عدة من القرى ، وانخسف قطعة عظيمة من جبل لبنان وسقطت في البحر .

وفيها كانت كلاب ودواب بالبرّية يطلبون الناس ، فمن عضّوه أهلك ، وتناثر النجوم تناثرًا عجيبًا الى جهة واحدة نحو خراسان . وفيها غضب المعتصم على الافشين حيدر . انتهى .

وقال الملك المؤيد في المختصر ، في سنة ستّ وعشرين ومائتين غضب المعتصم على الافشين ، حيدر بن كاووس ، وحبسه حتى مات في حبسه . وأُخرج فصُلب ثم أحرقت جثته .

والافشين هذا ، هو الذي قاتلَ بابك الخُرّمي المجوسي الذي استولى على جبال طبرستان مدة عشرين سنة ، وعظم جمعه وهزم مرارًا عسكر المعتصم ، حتى انتدب له المعتصم الافشين المذكور ، فقاتل بابك وجرى معه حروب وقتال شديد في مدة طويلة ، ثم انتصر الافشين وأخذ مدينة بابك البذّ ، وأسره ، وأحضره الى المعتصم فقتله . انتهى .

وقال بعض المؤرخين : إن سبب بطش المعتصم بالافشين ما نُقل عنه أنه يريد انفراد الكلمة له والقرب /257ب/ منه دون غيره . وكان الافشين له منزلة ومكانة من المعتصم فبلغ به ذلك أن جار وتعدّى وظلّم ، فكثرت أعداؤه وانثنى عنه أصدقاؤه .

قال بعض الحكماء : من فعل الخير بنفسه بدأ ، ومن فعل الشرّ فعلى نفسه جنى ، ومن أبصر عيبه لم يُعِبْ أحدًا ، ومن عمِيَ عنه لم ير شرًا أبدًا ، ومن لم

يكن له من نفسه زاجرٌ لم تنفعه الزّواجر ، ومن ظلم يتيمًا ظلم أولاده ، ومن أفسد أمره أفسد معاده ، ومن أحبّ نفسه اجتنب الآنام ، ومن أحبّ ولده رحم الايتام ، ومن زرع خيرًا حصد أجرًا ، ومن اصطنع حُرا استفاد شكرًا ، ومن سالم الناس ربح السلامة ، ومن تعدّى عليه مكسب الندامة ومن جاد بماله جل ، ومن جاد بعرضه ذلّ ، ومن ضعف رأيه قوي ضدّ ه ، ومن ساء تدبيره أهلك جنده ، ومن كثر مزاحه قلت هيبته ، ومن كثُرت مخالفته طابت غيبته ، ومن استغنى برأيه ضلّ ؟ ، ومن اكتفى بفعله ذل ، ومن آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ، ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى ، ومن صبر نال المنى ، ومن شكر حصّن النُّعمى ، ومن حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسير ، ومن أرضى سلطانًا جائرًا أسخط ربّا قادرًا .

وقال سطيح : إياكم والقرب من السلطان ، فلا تلتزموا بقربه ، فإنه يغضَب غضَب الصبيّ ، ويفترس كما يفترس الأسد !

وقال كسرى لوزيره : إياك وكثرة الدخول والخروج عليّ فأمَلّك ، ولا تُكثر من السؤال في حاجة غيرك فتثقُل عليك حوائجك ، /258/ ولا تطل الغيبة عليّ فأنساك .

وقال النعمان بن المنذر : من سأل فوق قدره استحقّ الحرمان ، ومن ألحّ في المسألة استحقّ المطل . والرّفق غُنْم والحزن شؤم . وخير العطاء ما وافق الحاجة ، وخير العفو ما كان مع القدرة .

وقيل لأعرابي : لم قطعت أخاك وهو من أمّك وأبيك ؟ فقال : إني لأقطع العضو الفاسد من جسدي وهو أقرب اليّ منه ، إذا رأيت في ذلك الصلاح !

وقال ابن الزيات : احذروا الصديق الجاهل أكثر من حذركم العدوّ العاقل ، فليس من أساء وهو يعلم أنه مسيء كمن أساء وهو يظنّ أنه محسن .

وقيل لبعض الحكماء : ما الحزم ؟ قال : سوء الظنّ بالناس ! قيل : فما

الصواب ؟ قال : المشورة . قيل : فما الاحتياط ؟ قال : الاقتصاد في الحبّ والبغض . قيل : فما الذي يجمع القلوب على المودّة ؟ قال : كفٌّ بَذول وبِشرٌ جميل .

وفي كتاب الفرس : إذا أردت أن تسأل فآسأل من كان في غِنًى ثم افتقر ، فإنّ عزّ الغِنى يبقى في قلبه أربعين سنة ، ولا تسأل من كان في فقر ثم استغنى ، فإن ذل الفقر يبقى في قلبه أربعين سنة !

وإنما ذكرنا هذا ليتنبّه الغافل مما كان عليه الافشين وما صار اليه بسيرته في أقرب حيز . وقد كان للمعتصم من الأنجاد حتى أُطلق له يده في بعض القواد ، ثم انحط عن ذلك المرام ، ولعبت به أيادي اليالي والايام .

ذكر في كتاب الفرج بعد الشدّة قال : كان ابتداء العداوة /258ب/ بين أحمد بن أبي دؤاد وبين الافشين أنه كان أغرى المعتصم على أبي دُلف العِجلي ، لعداوة كانت بينهما ، فسلمّه له المعتصم ، فأجمع رأي الافشين على قتله من يومه ذلك . فبلغ الخبر أبا دلف فأرسل الى ابن أبي دؤاد ، فاستجار به وعرّفه ما قد أشرف عليه . فجاء ابن أبي دؤاد الى المعتصم يسأله في أمره فوجده نائمًا ، وكره أن ينبّهه .

وخاف أن يسرع الافشين الى قتل أبي دلف فجاء الى الافشين وقال له : يقول لك أمير المؤمنين بلغني أنك تريد أن تُحدث على القاسم بن علي حادثة ؛ والله لئن فعلت لأقتلنّك ! ولم يكن المعتصم أرسله ولا قال له شيئا . فرهِب الافشين أن يقتُل أبا دلف .

وعاد ابن أبي دؤاد الى المعتصم فوجده قد انتبه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قال ﷺ : «ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين فقال خيرًا أو نوى خيرًا» . وقد أديت عنك رسالة أُحْيي بها أهل بيت من المسلمين ، وكنفت بها عَوَادي خلقٍ من العرب . فبلغني أنّ الافشين عزم على قتل القاسم بن علي العجلي ، فأديت عنك كذا وكذا وحقّنت دم الرجل ونَعَشْت عياله وكففت عنك غضب بني

عجل ومن يتبعها إن غضبت له ، ويتعيّن عليك منها ما تغتمّ له ، والرجل في يده مشرفٌ على القتل ! فقال له المعتصم : قد أحسنت ! ووجه الى الافشين «ابعثْ اليّ القاسم بن علي مكرّمًا» . فكان خلاصه على يد ابن أبي دؤاد .

فوجه الافشين الى ابن أبي دؤاد «لا تأتيني ولا تقربني !» . فقال /259/ للرسول : أتؤدي عني كما أدّيت اليّ ؟ قال : نعم . قال : قل له لا آتيتك تفرّدًا من ذلة ولا تكثّرًا من قلّة ، وإنما أنت رجلٌ ساعدَك زمان ، ورفعك سلطان ، فإن جئتك فلي ، وإن تأخرت عنك فلنفسك ، وما فاتك مما أُردته خيرٌ مما تصيبه منه .

ومن طريق آخر قال : حدّثني أبو اسحاق قال : أخبرنا أحمد بن أبي دؤاد قال ، دخلت على المعتصم يومًا ، فقال : يا أبا عبد الله ، لم يدَعْني اليوم أبو الحسين الافشين حتى أطلقتُ يده على القاسم بن عليّ العجلي ! قال : فقمت من بين يديه وما أبصرُ شيئا جزعًا على أبي دلف ، ودخلني أمر عظيم ، وخرجت فركبت دابتي وسرت سيرًا عنيفًا ، كدت أن أهرول من الجاسوق الى باب الافشين ، بقرب الظهيرة ، أؤمّل أن أدرك أبا دلف من قبلِ أن يُحدث عليه حادثة .

فلما بلغت بابه أنِفت أن أستأذنه ، فيعلم أنّي قد حضرتُ بسبب أبي دلف فيعجِّل عليه . فدخلت على دابتي الى الموضع الذي كنت أنزل فيه ، وأوهمت حاجبه أني قد جئت برسالة من المعتصم ، ثم نزلت ، فرُفع السّتر ، فدخلته . فوجدت الافشين في مجلسه وأبا دلف مصفّدًا بالحديد بين يديه ، على نِطْع وهو يقرِّعه ، ويخاطبه بأقبح مخاطبة . فحين قرُبتُ منه أمسك ، فسلّمتُ وأخذت مجلسي ، ثم قلت للافشين : قد عرفتَ حُرمتي بأمير المؤمنين وخدمتي إياه وموضعي عنده وموضعي من رأيه وتفرّدي بالصنيعة عنده والاحسان اليّ ، وعلمتَ مع ذلك ميلي اليك ومحبتي /259ب/ لك وقد رغبتُ اليك في ما يرغب فيه مثلي الى مثلك ممن رفع الله قدره وأجلّ خطره وأعلى همته . فقال :

كل ما قلت كما قلت ، وكل ما أردته منّي فهو مبذول اليك ما خلا هذا الجالس ، فإني لا أشفّعك فيه !

فقلت : ما جئتك الاّ في أمره ، ولا ألتمس منك غيرَه ، ولولا شدّة غضبك وما تتوعّده به من القتل لكان في جميل عفوك ما أغنى عن كلامك ، ولكني لـمّا عرفتُ غيْضك وما أنت منتقِمُه عليه احتجت بموقعه منّي الى كلامك في أمره وتركه بعظيم جُرمه إذ مثلك في جلالتك إنما يُسأل جلائل الأمور . فقال : يا أبا عبد الله ، هذا رجل طلَب دمي ، ولم يقتصر على إزالة نعمتي ، ولا سبيل الى تشفيعك فيه ، ولكن هذا بيت مالي وضياعي وكل ما أملكه ، فخذ من ذلك ما أردت ! فقلت : بارك الله لك في مالك . وثمرّها لك ، لم آت لهذا ؛ وإنما أتيت في مكرمة ليبقى لك فضلها وحسن أحدوثتها (في الاصل «يحسن حدوثتها») ويجعل مِنّتها في عنقي لا أزال مُرْتهنا بشكرها . فقال : ما عندي في هذا شيء البتة ! فقلت : القاسم بن علي ، فارس العرب وشريفها ، فأستبقه وأنعم عليه ، فإن لم تره لهذا أهلا فهبه للعرب كلها ، وأنت تعلم أنّ ملوك العجم لم تزل تتفضل على ملوك العرب ، ومن ذلك ما كان من كسرى الى النعمان حتى ملّكه ، وأنت اليوم بقية العجم وشريفها ، والقاسم شريف العرب ، فكن اليومَ شريفٌ من العجم أنعم على شريف من العرب /260/ وعفى عنه !

فقال : ما عندي في هذا الا ما سمعتَه . وتنكّرَ وتبيّن الشرّ في وجهه ، فقلت في نفسي أنصرف وأدَع هذا يقتل أبا دلف ، لا والله ؛ ولكن أمْثُل بين يديه قائمًا وأسأله ، فلعلّه يستحي . فقمت ، فتوهّمني أريد الانصراف فتخفّر لي . فقلت : لست أريد الانصراف ، وإنما مثُلت بين يديك قائمًا طالبًا راغبًا ضارعًا سائلاً مستوهبًا هذا الرجل منك ! فكان جوابه أغلظ . فتحيّرتُ فقلت أكُبّ على رأسه فأقبّله ؛ فدخلني من ذلك أنَفٌ شديد ، وقلت أقبّل رأس هذا الاغلف ، لا يكون هذا أبدًا . ثم راجعتني الشفقة على أبي دلف فقبّلت رأسه وتضرّعت ؛ فلم يجبني ، فأخذني مَندم وحدثٌ ؛ فعدت فجلست وقلت : يا أبا الحسين ،

قد طلبت إليك وتضرّعت ووضعت خدّي لك وقبّلت رأسك ، فشفّعني وآصرفني شاكرًا فهو أجمل لك ! قال : لا والله ، ما عندي غير ما قلته لك !

فقلت : إني رسول أمير المؤمنين اليك ، وهو يقول لك لا تُحدِث في القاسم بن عليّ حدثًا ، فإنك إن قتلته قتلْتُك به ! قال : أمير المؤمنين يقول هذا لي بعد أن أُطلقَ يدي عليه ! قلت : نعم ، أنا رسوله اليك بما قلتُه لك. ، فإن كنت في الطاعة فآسمع وأطع ، وإن كنت خلعتَ فقل لا طاعة لي ! ونفضتُ يدي في وجهه ونهضتُ ، فآضطرب حتى لم يقدر أن يدعو لي بدابة . وركبت ، فأغذذْت السير الى باب المعتصم ، لأخبره بالخبر وبما /260ب/ اضطررت اليه من تأدية رسالة باطلة عنه ، لأني علمت أنه لم يقبل لي مقالة الا أنه يحبّ استبقاء أبي دلف .

فآنتهيت الى الجوْسق في وقت حار والحجاب نيام والدار خالية ، فآنتهيتُ الى الدار التي فيها المعتصم وجلست وقلت إن جاء الافشين دخلت معه وتكلمت ، وإن سأل الوصولَ أخبرت أمير المؤمنين بالخبر كله . فبينما أنا كذلك إذ خرج خادم صغير من وراء السِّتر ثم دخل وخرج فقال : أُدخل ! فدخلت وقلت : يا أمير المؤمنين ، لي اليوم مع القاسم بن عليّ قولا ، علِمت أنك تريد استنقاذه وحقن دمه ، فمضيت من فوري الى ابي الحسين الافشين . ثم قصصت عليه القصة ، موضع الرسالة التي أديتها اليه عنه ، وهو في كلّ ذلك يتغيّر ويفتل بسبّابته ، حتى إذا أردتُ أن أُعرفّه الرسالة التي أدّيتها عنه قطع كلامي وقال : يمضي قاضيٌ وصنيعيٍ أحمد بن أبي دؤاد الى جندي ، فيَخضع له ويقف بين يديه ويقبّل رأسه فلا يشفّعه ؛ قتلني الله إن لم أَقتُلْه ! فجعل يكرّرها مرارًا ، فما استوفى كلامه حتى ارتفع السِّتر ، ودخل الافشين .

فلقيه بأكثر البرّ والإكرام ، وأجلسه بقربه وقال : في هذا الوقت الحار ، يا أبا الحسين ! فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل عرفتَ ما نالني منه وأنّه طلّب دمي وقد /261/ أطلقتَ يدي عليه ، يجبرني هذا ويقول إنك بعثت له اليّ تأمرني ألاّ أحدِث

في القاسم حدثًا ، وإنْ قتلتُه قُتلتُ به ! قال له بغضب : إنّا أرسلناه إليك ، فلا تُحدث على القاسم بن علي حدثًا . فنهض الافشين مغضبًا يُدمدم ؛ وأتّبعته لائتلافه ، فصاح المعتصم بي وقال : إرجع يا أبا عبد الله ! فرجعت وقلت : يا أمير المؤمنين ، فإنه بقي مما جرى منّي قطعْتَني بكلامك عنه . قال : تعني الرسالة . قلت : نعم . قال : قد فهمتها ، والقاسم بن عليّ يوافيك العشيّةَ ، وآحذر أن تتفوّه بشيء مما جرى . ثم أطلق القاسم وخلع عليه ، فجاءني من عشيته . وما أخبرت الحديث أحدًا حتى قُتل الافشين ومات المعتصم رحمه الله ، انتهى .

كان أبو دُلَف من أصحاب الأمين وغضب عليه المأمون ثم رضي عنه وصار من قواده ، ثم من قواد المعتصم بعده . وكان من أشراف بني عجل بن لخم ، ويتّصل نسبه بنزار بن معدّ بن عدنان . وكان كريمًا جوادًا شجاعًا ممدّحًا مقدمًا ذا وقائع مشهورة وصنائع مأثورة ، أُخذ عنه الادب الفضلاء ، وله صنعة في الغناء ، وله مصنفات من الكتب ، ككتاب البُزاة والصيد ، وكتاب السلاح وكتاب النزه ، وكتاب سياسة الملوك ، وغير ذلك .

مدحه بكر بن النطّاح بقوله :

يا طالبًا للكيمياء وعلــــمه   مدْحُ ابن عيسى الكيمياءُ الاعظمُ
لو لم يكن في الأرض الاّ درهم   ومدحته لأتاك ذاك الــدّرهمُ

/261ب/ قيل إنه أعطاه على هذين البيتين عشرة آلاف دينار .

ومدحه أبو تمام الطائي بأحسن المدائح . قال بعض الرواة : حضرت أبا دلف القاسم بن عيسى وعنده أبو تمام ، وقد أنشده قصيدته التي أولها «على مثلها من أربُع وملاعب» فأمر له بخمسين ألف درهم ، وقال له : والله ما هو بإزاء استحقاقك وقدْرك ، فآعذرنا . فشكر وقام ليقبّل يده ، فحلف ألاّ يفعل ثم قال له : أنشدني قولك في محمّد بن حُميد ، فأنشده :

وما مات حتى مات مضرِبُ سيفه   من الضَّرب واعتلّت عليه القَنا السُّمْرُ

وقد كان الموت سهلا فـــردّه إليه انخفاض المر والخلق الـــوعْرُ
فأنبت في مستنقع الموت رجـــله وقال لها من تحت إخمصك الحشْرُ
غدا غدوة والحمد حشـوٌ برأيـه فلم ينصرف وأكفـانه الأجـرُ
كان بني نبهان يوم مُصابـــه نجوم سماء جُرّ من بينها البَـدْرُ
يغزون عن ثاو يُغْزى به العُلا ويبكي عليه الناس والجود والشّعْرُ

فقال : والله لَوددت أنها فيّ وإنيٌ الميت ! فقال : بل أفدي الأمير بنفسي ومالي ! فقال : إنه لم يمت من رُثي بهذا الشعر . انتهى .

قال بعضهم وكان شجاعًا معطاء لا يملّ العطاء ، /262/ ويستدين على ذمّته ويعطي . وكان أبوه قد شرع في بناء مدينة الكرج ، فمات ولم يتمّها فأتمها ابنه أبو دلف . وهي بفتح الكاف والراء وبعدها جيم ، مدينة بالجبل بين اصفهان وهمدان ، كذا ذكر ابن خلكان («الكرخ» بالخاء في ابن خلكان 77/4 . انظر تعليقنا على ذلك في المقدمة ص 36) . واحترق الكرج سنة خمس وعشرين وجددها المعتصم .

قال ابن خلكان : رأيت في بعض المجامع أنّ أبا دلف لـمّا مرِض مرَض موته حُجب عن الدخول عليه ، لانه لا يَعقِل . فاتفق أن أفاق في بعض الايام ، فقال لحاجبه : من بالباب من المحاويج ؟ فقال عشرة من الاشراف قد وصلوا من خراسان ، ولهم بالباب عدة أيام لم يصلوا اليك ، ولا وجدوا طريقًا . فقعد على فراشه واستدعاهم .

فلمّا دخلوا رحّب بهم وسألهم عن بلادهم وأحوالهم وسبب قدومهم . فقالوا : أضاقت بنا الاحوال وسمعنا بكرَمك فقصدناك ! فأمر خازنه بإحضار بعض الصناديق ، وأخرج منه عشرين كيسًا في كلّ كيس ألف دينار ، ودفع لكلّ واحد منهم كيسيْن ، ثم أعطى كل واحد مؤنة طريقه ، وقال لهم : لا تمسِكوا الاكياس حتى تصلوا بها سالمة الى أهلكم ، واصرفوا هذا في مصالح

الطريق . ثم قال : ليكتب لي كلّ واحد منكم خِطّة ، أنه فلان ابن فلان حتى ينتهي الى عليّ بن أبي طالب ، ويذكر جدّته فاطمة ابنة رسول الله ﷺ ، ثم يكتب «يا رسول الله إني وجدت إضاقةً وسوءَ حال في بلدي ، فقصدت أبا دلف العجلي فأعطاني ألفي دينار كرامة /262ب/ وطلبًا لمرضاتك ورجاء لشفاعتك» .

فكتب كل واحد كتابًا وتسلّم الاوراق . وأوصى من يتولّى تجهيزه إذا مات أن يضع تلك الاوراق في كفنه حتى يلقَى بها رسول الله ﷺ ، ويعرضها عليه ، انتهى .

وقال ابن كثير : وكان في أبي دلف تشييع ، وكان يقول من لم يكن مُغاليًا في التشييع فهو ولد زنى . فقال له ابنه دلف : لستُ على مذهبك يا أبتِ ! فقال له : والله ، لقد وطئت أمك قبل أن أستبرئها (في الاصل «اشتريتها») ، فهذا من ذلك !

وقال ابن خلكان : حكى جماعة من أرباب التواريخ أنّ دلف بن أبي دلف قال : رأيت في المنام آتيا أتاني فقال لي : أجب الامير ! فقمت معه فأدخلني دارًا ، وِحشة ، وعرة ، سوداءَ الحيطان ، مقطّعة السقوف والابواب ، وأصعدني على دَرج منها ، ثم أدخلني غرفةً في حيطانها أثر النيران ، وإذا في أرضها أثر الرماد ، وإذا أنا بأبي وهو عريان واضعٌ رأسه بين ركبتيه ، فقال لي كالمستفهم : دلف ! فقلت : دلف . فأنشأ يقول :

أبلغن أهلنا ولا تُخْفِ عنـــهم ما لقينا في البرزخ الخـــنّاقِ
مذ سُئلنا عن كلّ ما قد فعلنا فأرحموا وحشتي وما قد ألاقي

ثم قال : أفهمت ؟ فقلت : نعم . ثم أنشد :

فلو كنّا إذا متْنا تُركنا لكان الموت راحـةَ كل حَيّ

ولكنّا إذا متنا بُعثنا ونُسأل بعده عن كلّ شَيّ

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم ! انتهى .

وذكر الملك المؤيد : /263/ أن وفاة أبي دلف كانت سنة خمس وعشرين ومائتين ، انتهى .

قيل إنّ المعتصم كان شجاعًا بطلا ذا شهامة وصولة ، وكان محبًا للظفر والاصلاح . قال في محاسن البلاغة : زينة السلطان حلّتان الظفر والاصلاح . وكان المعتصم بالله يحبّ العمارة ويقول : إنّ فيها أمورًا محمودة أوّلها عُمران الارض التي يحيى بها العالم ، وعليها تزكو الخراج ، وتكثر الاموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الاسعار ، ويتّسع المعاش . وكان يقول لوزيره : إذا وجدت موضعا متى أنفقتَ فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهمًا فلا تؤامرني فيه . انتهى .

وبنى المعتصم سامراء ، ابتدأها سنة عشرين ومائتين واستجاش بها الترك ، وجمع منهم جندًا عظيمًا .

وقال ابن كثير : إنما كان المعتصم شهمًا في أيّامه ، وكان له همة عالية ومهابة عظيمة جدا . وكانت همته في الانفاق في الحروب لا في البناء ولا في غيره . وقد استخدم من الاتراك خلقًا كثيرًا . وكان له من المماليك قريب من عشرين ألفًا . وتمّ له من آلات الحروب والدواب ما لم يتّفق لغيره ، انتهى .

وكان بابك الخرّمي ، رئيس الزنادقة ، قد استفحل أمره وقويت شوكته في أيام المعتصم ، وانتشرت أتباعه في البلاد من أذربيجان وما والاها . وكان أوّل ظهوره في سنة إحدى ومائتين على عهد المأمون . وكانت بينه وبين /263ب/ عمال المأمون وقائع . وكان زنديقًا كبيرًا وشيطانًا رجيمًا . واستفحل أمره في أيام المعتصم ، فعقد المعتصم للافشين على جيش عظيم ، ووجهه الى بابك الخرمي . فسار الافشين اليه في سنة عشرين ومائتين في أبهة عظيمة وقد أحكم صناعة الحرب وعمارة الحصون واتصال المدد . وأرسل اليه

المعتصم بابنه مع بُغا الكبير ، ثقة لمن معه من الجند والأتباع .

وقد التقى الافشين مع بابك في هذه السنة ، فاقتتلا . فانهزم بُغا ، وقُتل خلق كثير من أصحابه ، فانتصر له الافشين وقابله ، فانهزم بابك ، وأكثر في قومه القتل بعد حروب طويلة في سنة إحدى وعشرين ، ولا زال الامر كذلك الى سنة اثنتين وعشرين ، فأمّر المعتصم الافشين وجهّز له جيشًا عظيمًا لقتال بابك وبعث اليه بثلاثين ألف درهم نفقة للجند والاتباع ، فبلغ الى الافشين . فدَهَم به بابك فهزمه ، وافتتح مدينته واستباح ما فيها . ودخلها الافشين يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان من السنة المذكورة .

وهرب بابك بمن تبعه من أهله وولده ، ومعه أمّه وامرأته وانفرد بشرذمة قليلة من خدَمه ، ولم يبق معه /264/ طعام يأكله فاجتاز بحرّاث ، فبعث اليه غلامَه يذهَب يدفعُه الى الحرّاث ويأتي بما عنده من الخبز . ففعل ما أمره مولاه ، ولـمّا أن ناوله الحرّاث الخبز كان له شريك ينظره من بعيد فظنّ الشريك أنّ الغلام اغتصب الخبز من الحراث ؛ فذهب الى حصن هناك فيه نائب للخليفة ، يقال له سهل بن سنباط ، واستدعاه نصرةً للحرّاث . فركب سهل بنفسه ، فوجد الغلام فقال له : من أنت ؟ فأراد أن يعمّيَ خبره ، فألح عليه . فقال : أنا من غلمان بابك ! قال : فأين هو ؟ قال : هو هذا جالس .

فسار اليه سهل ، فلما رآه ترجّل وقبّل يده وقال : يا سيدي الى أين تريد ؟ فقال : بلاد الروم . فقال : عندي أحسن ، وأنا غلامك . ولم يزل به حتى خدعه وأخذه معه الى الحصن . فأنزله عنده ، وكتب الى الافشين يُعلمه بذلك . فأرسل الافشين اليه أميرَيْن ، فقبضاه وأقبلا به اليه . فلمّا اقتربوا منه أمر الافشين بالملاقاة وأن يصطفّ الناس صفيّن وأن يترجّل بابك ، فيدخل بين الصفين راجلا ففعل ذلك . وكان يومًا مشهودًا ، ثم أمر بسجنه واحتفاظه . وكتب الى المعتصم بذلك وأنه في أسْره ، وأنه قد استحضر أخاه عبد الله أيضًا . فردّ اليه المعتصم أن اقدمْ بهما عليّ الى بغداد . فتجهز الافشين وسار الى المعتصم فبلغه في هيئة

عظيمة وتحمُّلٍ حسن . وكان دخوله الى سامراء يوم الخميس ثالث صفر من سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ومعه بابك الخرّمي وأخوه عبد الله ، وجعل بابك على فيل خضّبتْ /264ب/ أُطرافه ، وألبس من الحرير والامتعة التي تليق به بشيء كثير ، وألبس بابك أيضًا قَباء ديباج وقلنسوة سمُور مدوّرة ، وأدخل بين الناس . وذلك كله ليشهر أمره ويعرفه الناس .

وقد قال بعضهم في ذلك :

قد خضّب الفيل كعـاداته   بحمل شيطان خراسانِ

والفيل لا يُخْضَب أعضاؤه   الاّ لذي شان من الشّانِ

ولـمّا حضر بين يدي الخليفة المعتصم أمر بقطع يديه ورجله ، ثم حزّ رأسه وشقّ بطنه . وأمر بحمل رأسه الى خراسان وصلب جثته على خشبة بسرّ من رأى . وكان بابك قد شرب الخمر في ليلة قتله ، وهي ليلة الخميس لثلاثة عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة .

قال ابن جرير : وكان قد قتل من المسلمين في مدة ظهوره ، وهي عشرون سنة ، مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة نفر ، وآسر خلقًا لا يحصون كثرة . وكان الافشين قد استنقذ من أسره نحوًا من سبعة آلاف وستمائة إنسان ، وآسر من أولاده سبعة عشر رجلا ، ومن حلائله وحلائل أبنائه ثلاثًا وعشرين امرأة . ولـمّا قتله المعتصم وأراح منه المسلمين ، وكان ذاك على يد الافشين ، توّج الافشين وقلّده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم ، وكتب له بولاية السند . وبلغ من المرتبة وعظم الجاه عنده ما لم يبلغه غيره ، ولا زال محظيًا عنده الى أن أوقع به ، على /265/ حسب ما تقدّم ذكره ، بعد أن كان نجْدتَه العظمى ، وفتح على يده ثمانية فتوحات بلاد بابل ، انتهى .

كذا نقل من تاريخ البدري وغيره أيضًا . انتهى .

همّة هاشمية وصولة عباسية

قيل ، كان المعتصم بالله في بعض قصوره على شرابه وطربه ، إذ دخل عليه الحاجب وقال : يا أمير المؤمنين ، أسيرٌ من عمّورية يستأذن في الدخول عليك . فقال : له ذلك ، إذ لا بدّ من فائدة ! فلما مثُل بين يده قال له : من أيّ البلاد أتيت ؟ قال : من أرض الروم ، يا أمير المؤمنين ، من مدينة يقال لها عمّورية ، حصينة منيعة ، فيها بَطريق جبّار ، لا يُصطلى له بنار . وكنتُ في أسره ومعنا امرأة شريفة ، فلطمها الملعون يومًا على وجهها ، فبكت وقالت : «وامعتصماه»؟! فقال لها : «يأتيك على البُلْق !» . وأنا قدِمتُ اليك وأخبرتك لأجل ابنة عمّك ، نصرَك الله على أعداء الدين .

وكان القدَح في يد المعتصم ، فغطّاه وربطه وختَم عليه ، وناوله الى الساقي وقال له : إحفظْه ! ووثب قائمًا ، وخرج من القصر وهو يقول : لبيكِ لبيكِ ! ونادى في الجيش بالرّحيل . وانتخب من الخيل ثمانين ألف من البُلق . فأتاه مُنجّمو ذلك العصر ، وقالوا : في غير هذا اليوم ! وقيل في غير هذه الساعة ، فركب الجواد وسار من وقته الى فتح عمورية ، وخلّص الشريفة وهو ينادي «لبيك لبيك» ، ودعا الساقي فطلب منه الكأس ، ففكّ ختامه وشربه ، فهنأته /265ب/ الشعراء بالقصائد الفاخرة .

ومن جملتهم أبو تمام ، قال فيه قصيدته الفاخرة التي أوّلها : «السيف أصدق إنباء من الكتب» وقد كانت إحدى وسبعين بيتًا ، فأعطاه أحد وسبعين درهمًا وقيل دينارًا . انتهى .

وقيل سبب فتح عمورية أنّ بابك ، لعنه الله ، لـمّا أحيط به من جانب في مدينته البذ ، وتضايق أمره واستوثقت الجنود حوله كتب الى توفيل ملك الروم يقول له : «إنّ ملك العرب قد جهّز اليّ جمهور جيشه ، ولم يبق في أطراف بلده من يحفظها . إن كنتَ تريد الغنيمة فانهض سريعًا الى ما حولك من بلاده ،

فخذها فدونك لا تجد أحدًا يمانعك» . فركب توفيل في مائة ألف وانضاف اليه المحمّرة الذين كانوا خرجوا في الجبال وقاتلهم ابراهيم بن اسحاق بن مصعب فلم يقدر عليهم . وعصوْا بتلك الجبال ، وانضافوا الى توفيل ملك الروم ، وصاروا على المسلمين .

وسار توفيل بجيشه ومن انضم اليه الى أن وصل زِبطرة ، .فقتل من رجالها خلقًا كثيرًا ، وآسر وسبى من ذرّيتها أمة كثيرة ، وأوقع بأهل ملَطية وما والاها من المسلمين ملحمة عظيمة ، قتَل فيها خلقًا وآسر أمة لا يحصوْن كثرة ، فكان من جملة ما آسر ألف امرأة من المسلمات ، ومثّل بمن وقع في أسره من المسلمين ، فقطع آذانهم وأنوفهم وسلّ أعينهم ، قبّحه الله تعالى . فبلغ ذلك المعتصم ، فآنزعج لذلك جدًا ، وخرج من قصره بالنّفير ، ونهض من فوره وأمر الجيوش /266/ تَتْبعه ، واستدعى بالقاضي والعدول فأشهدهم أنّ ما يملكه من الضياع ثُلثه لله وثلثه لولده وثلثه لمواليه . وخرج من بغداد فعسكر غربي دجلة ، ووجّه بين يديه عُجيفًا بن عنبسة وطائفة من الامراء ، معهم خلق من الجيش ، إغاثة لأهل زبطرة .

فأسرعوا السير ، فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر الى بلاده راجعًا ، وتفارط الحال ولم يمكن فيه استدراك ، ورجع لإعلام الخليفة المعتصم بما وقع . فقال : أي بلاد الروم أمنع ؟ قالوا : عمّورية ، لم يتعرّض لها أحد منذ كان الاسلام ، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية . كذا في تاريخ العلامة بدر الدين الحنفي .

وقال الملك المؤيد : وتجهّز المعتصم جهازًا لم يُعهد مثله لمن كان قبله من الخلفاء ، وسار في جحافل كالجبال حتى نزل على نهر قريب من طرسوس ، بينه وبينها يوم . وجعل عسكره ثلاث فرق ، فرقة مع الافشين حيدر بن كاووس ميمنة ، وفرقة مع إشناس ميسرة ، وفرقة مع المعتصم في القلب وبين كل فرقة وفرقة فرسخان وأمرهم المعتصم بحريق القرى وتخريب بلاد الروم .

ففعلوا ذلك حتى وصلوا عمورية . فأوّل من قدمها أشناس ثم المعتصم ثم الافشين ، فأحدقوا بها وأقام عليها المنجنيقات ، وجرى بين الفريقين قتال شديد ، وخربوا في السور مواضع بالمنجنيق ، وهجموا البلد وقتلوا أهلها ونهبوا الاموال والنساء . وأقبل الناس بالسبي والاسارى الى المعتصم من كل جهة ، وأمر بعمورية /266ب/ فهدمت وأحرقت بجميع آلاتها وما لا يمكن حمله من الاثاث والغنيمة . وانصرف المعتصم غانمًا ورجع سالـمًا . وكان مقامه على عمّورية خمسة وخمسين يومًا . انتهى ، كذا ذكر العسقلاني في تاريخه بزيادة .

إنمام شيطاني وإلمام سلطاني

قيل إن العباس بن المأمون كان مع عمّه المعتصم في غزوة عمورية ، وكان عُجيف بن عَنْبسة المذكور قد ندّمه على تركه الخلافة ، حيث لم يأخذها بعد أبيه المأمون حين مات بطرسوس . فندم العباس وكان ذلك منه بموقع ، وصار يستميل الناس . وأخذ له عجيف البيعة من الامراء في الباطن ، وتهيأ لذلك فلمّا كانوا بدروب الروم قاصدين الى عمورية أشار عُجيف على العباس أن يقتل عمّه في المضيق ، ويأخذ له البيعة ، ويرجع الى بغداد . فكره العباس ذلك في هذه الحالة ، ووُشي به الى المعتصم ، وبلغه أمره ، فدسّه الى أن رجع من غزوته دعا المعتصم بالعباس بن المأمون وأمسكه ، وسلّمه مقيّدًا الى الافشين حيدر بن كاووس .

فلما وصل الى منبج ، طلب العباس الطعام فأكل ، ومُنع الماءَ حتى مات بمنبج عطشًا . وصلّى عليه بعض إخوته ، فأمر المعتصم بلعنه على المنابر وسمّاه اللعين . وقتل جماعة من ولد المأمون أيضًا . وأمر بعجيف وبقية من اتّهم من الامراء فقُتل كل منهم بنوع من القتلات . وأتم المعتصم سيره حتى دخل سامرّاء . انتهى ، /267/ كذا حكاه ابن الاثير في حوادث سنة ثلاث وعشرين

ومائتين (الدرّ 183أ : «وفيها مات ملك افريقية زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب رحمه الله ، كان يقول : ما أبالي إن شاء الله تعالى بأهوال يوم القيامة ، فقد قدّمت أربعة أشياء ، بنائي الجامع بالقيروان وقد أنفقت عليه ستة وثمانين ألف دينار ، وبنائي القنطرة بباب الربيع ، وبنائي حصن الرباط بسوسة وتوليتي أحمد بن محرز القضاء . ولما مات تولى بعده أخوه أبو عقال الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب . انتهى) .

قال بعضهم : وكان الدالّ على العباس بن المأمون والمبلّغ خبره الى المعتصم من أعزّ الناس عليه . وكان عجيف بن عنبسة يقول له : يا مولاي لا تأمنه ولا تُفش له سرّنا ! فيقول له العباس : لا تخفه ، فإنه من حياة المأمون مطّلع على جميع أسراري ، ولم يكن عندي آمَنُ منه ! فيقول له عجيف : أيها الامير لا تأمنه ، فإنّ مواضع الأسرار صدور الأحرار ، ومن أودع سرّه في غير صدر الكرام أُذيع ، قال الشاعر :

ضع السرّ في صمّاء ليست بصخرة صلدٍ كما عاينتَ من سائر الصّخْرِ
ولكنها قلب امرىء ذي حفيظة يرى منعة الأسرار سرّا من السرِّ

وقال آخر :

لكل امرىء يا أمّ عمرو طبيعة وتَفْضُل ما بين الرّجال الطبائعُ
فلا يسمعنّ سرّي وسرّك ثالث ألاَ كلّ سرّ جاوز اثنين شائعُ

فيقول : لا تخفه ، فإنه ممن يُؤْمَن على سرّي ، وليس عندي مثله .

وكان يراه بما في نفسه ، وهو على خلاف ذلك من الغدر والمكر ، فكان سبب هلاكه . ولم تؤثّر فيه نعمته لدناءته .

قال بعض الحكماء : ستّ خصال لا يطيقها الا من كانت نفسه شريفة ، الثبات عند حدوث النعمة الجسيمة ، والصّبر عند نزول المصيبة العظيمة ، وجذب النفس عند دواعي الشهوة ، والصّبر على الجوع ، واحتمال الجار ،

/267ب/ وكتمان السرّ .

قيل لرجل من العرب : كيف كتمانك السرّ ؟ قال : أجحد المخبِر ، وأحلف للمستخبِر .

وقيل : أسرّ رجل الى رجل سرّا واستحفظه إياه ، فلمّا فرغ حديثه قال له : حفظت سرّي ؟ قال : بل نسيته ؟ يريد أنه من شدة الكتمان كاد أن ينساه .

ويروى أنه ﷺ قال : «قلّما يخلو الأحمق من ستّ خصال ، الغضب من غير شيء ، والثقة بكلّ أحد ، والكلام في غير موضعه ، وقلة المعرفة بصديقه من عدوّه ، وإفشاء السرّ» .

وقال الشاعر :

أسيرك سرُّك إن صُنْته   وأنت أسيرٌ له إن ظهرْ

وقال غيره :

إذا المرءُ أفشَى سرّه بلسانه   ولام عليه غيرَه فهو أحمَقُ
إذا ضاق صدرُ المرء عن سرّ نفسه   فصدرُ الذي يُستودع السرَّ أضيقُ

وقد تُفشى الأسرار الى الأصفياء من الأخدان إذا ضاقت بها الصدور ، وكادت تذوب لها النفوس ، فتكون من الاخ مشاركةٌ وتخفيفُ وَجْدٍ ومعونة على التسلّي ، وإنْ لاح له فيه رأي صرَف همّته لزوال همّه ، وأعان بذلك أخاه . وربما بلغ الرجل الراحة والإرادة بإفشاء سرّه لأخيه المخلص الصفيّ ، قال الشاعر :

من لم يكن ذا صديق   يُفْضي إليه بسرِّه
ويستريحُ اليه   في خير أمر وشرِّه
لم يدر ما طعم دهر   من حلو عيش ومرِّه   /268/

قال غيره :

إذا كتم الصديق أخاه سرّا　　فما فضل الصّديق على العدوّ

قال بعض الحكماء : ستة أشياء تُنقص الحزن ، استماع كلام الحكماء ومحاضرة العلماء ، ومحادثة الأصدقاء ، والمشي على الخضرة ، والجلوس على الماء الجاري ، والتأسّي بذوي المصائب .

وقال آخر : اجتنب سبع خصال ترِحْ جسمك وقلبك ، ويسلَم عِرضك ودينك ، لا تحزن على ما فاتك ولا تحملْ قلبك من الهمّ ما لا يطيق ، ولا تلُم الناس على ما فيك مثله ، ولا تطلب الجزاء على ما لم تعلم ، ولا تنظر بالشهوة الى ما لا تملك ، ولا تغضب على من لا يضرّه غضبك ، ولا تمدح من يعلم من نفسه خلاف ذلك .

وقال آخر : ثمانية إن أهين صاحبها فلا يلوم الاّ نفسه ، من أتى مائدة لم يُدْع اليها ، والمتآمر على صاحب البيت في بيته ، والداخل بين اثنين في حديث لم يُدخلاه فيه ، والمستخِفّ بالسلطان ، والـمُفْشي سرّه ، والجالس في مجلس ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على من لم يسمعه منه ، وطالب الخير من أعدائه ، وراجي الفضل من اللئام .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : ارتجل علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، تسع كلمات ارتجالاً ، قُطعتْ الاطماع عن اللّحاق بواحدة منهنّ ، ثلاثة في المناجاة ، وثلاثة في العلم ، وثلاثة في الادب ؛ فأمّا اللواتي في المناجاة ، فقوله : كفاني عزّا أن تكون لي ربّا ، وكفاني فخرًا أن أكون لك عبدًا ، أنت كما أحبّ فوفقّني لما أحب ؛ وأما اللواتي في /268ب/ العلم ، فقوله : المرء مخبوء تحت لسانه ، تكلّموا تُعرَفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره ؛ و أما اللواتي في الادب فقوله : انعم على من شئت تكن أميرَه ، واستغن عمّن شئت تكن نظيرَه ، واحتج الى من شئت تكمن أسيرَه .

وقال الحسن بن سهل : الأدب عشَرة ، فثلاثة شَهْريانية ، وثلاثة أنو شروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أُوثِرَتْ عليهن ؛ فأما الشهريانية فالضرب بالعود واللعب بالشطرنج واللعب بالصوالج ؛ وأما الانوشروانية فالطب والهندسة والنجوم ؛ وأما العربية فالشعر والنسب وأيام العرب ؛ وأمّا الواحدة التي أوثِرت عليهنّ فمقطّعات الحديث والسِّير وما يتحادثها الناس بينهم في المجلس وما يتمثّل به من أبيات الشعر .

كما يقال فيما يتمثّل به من الشعر :

وإذا افتقرت الى الذّخائر لم تجِدْ ... ذُخْـرًا يكون كصالح الأعمال

كما يقال :

ولرُبّ نازلة يضيق بها الفتَى ... ذَرْعًا وعند الله منها المخرجُ

وكما يقال :

متى أُحوجت ذا كرم تَخطّى ... إليك ببعض أخلاق اللئيمِ

وكما يقال :

غيري جنَى وأنا المعاقَب فيكم ... فكأنّني سبابـةُ المتنـدّمِ

وكما يقال :

عين الرِّضى عن كلّ عيب كليلةٌ ... ولكنّ عينَ السُّخط تبدي المساويَا /269/و

كما يقال :

تحمّقْ مع الحمقَى إذا ما لقِيتهُمْ ... وكنْ عاقلا إذا ما رأيت أخَا عقلِ

وكما يقال :

إذا اعتذر الجاني محَا الذّنبُ عذرَهُ ... وكل امرىء لا يقبَل العُذْر مُذنبُ

وكما يقال :

تودّ عدوّي ثم تزعُمُ أنّــني   صديقك إنّ الرأي منك لَعازِبُ

وكما يقال :

وعاجز الرّأي مِضياع لفُرصته   حتى إذا فاته أمرٌ عاتبَ القَدَرَا

وكما يقال :

والصّمتُ أحسَنُ ثوبٍ أنت لابسُهُ   كم هامة حذفتها عثرةٌ بفَمِ

انتهى .

وإنما ذكرنا هذا الاستطراد لتتشنّف الأسماع وتستلذّ الطباع بما ناسب كلام عُجيف بن عنبسة للعباس بن المأمون فيمن خذله ودلّ عليه المعتصم .

جلسة رائعة وصولة قامعة

قيل : كان المعتصم بالله سريع الغضب عند ما يكرهه ، وإذا عضب لا يبالى بما فعل ولا من قتل .

ولـمّا أدخِل عليه المازيار بن قارن بن ونداهرير ، وكان قد اشتدّ غضبه عليه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل عليه ، فإن عنده أموالا جمّة ! فلم يلتفت اليهم وأنشد بيتًا لأبي تمام وهي :

إنّ الأسود أُسودَ الغاب هـمّتها   يوم الكريهة في المسلوب لا السّلَبِ

ومازيار كان قد خرج من طبرستان واستولى عليها ، وأظهر /269ب/ المخالفة للمعتصم . وكان ممن يكاتب بابك الخرّمي المقدم الذكر ويعِده بالنصر . ويقال إنّ الذي قوّى رأس المازيار حيدر الأفشين ، وذلك لعجز عبد الله بن طاهر فيولّيه المعتصم بلادَ خراسان مكان عبد الله بن طاهر .

فبعث المعتصم محمد بن ابراهيم ، أخا اسحاق بن ابراهيم بن مصعب ، في

جيش كثيف لقتال المازيار . فٱقتتلا وجرت بينهما حروب كثيرة ، ثم انتصر محمد بن ابراهيم المذكور ، وأسر المازيار وحمله الى عبد الله بن طاهر ،فٱستقرَرَه عبدُ الله بن طاهر عن الكتب التي أرسلها اليه الافشين ، فأقرّ بها ثم وجّه به الى أمير المؤمنين المعتصم ومعه من أمواله شيئا كثيرًا جدًا من الذهب والجواهر والثياب . فلمّا مثُل بين يديه سأله عن كتب الافشين ، فأنكرها فشتمه المعتصم وقال له : يا كافر ، يا ملعون من ينجّيك منّي اليوم : يا عدوّ الله ! فقال المازيار : والله لست بكافر ولا ملعون ، ولا يجوز لك أن تقول هذا ، ولا لإبليس ! فبُهت المعتصم من قوله ، ثم التفت الى أحمد بن أبي دؤاد وقال له : أسمعت ما قال هذا الكافر في حقّ إبليس ، وهو متّفق على كفره بالكتاب والسنة والإجماع ، ثم أمر بضرب المازيار بالسياط حتى مات ، وأمر بصلبه على جسر بغداد . وقتَل عيون أصحابه ، كذا ذكر ابن خلكان وغيره .

فائدة : قال القرافي رحمه الله تعالى : اتفق الناس على تكفير إبليس /270/ لعنه الله تعالى ، لقصّته مع آدم عليه السلام ؛ وليس مُدرَك الكفر فيها الامتناع على السجود ، وإلاّ لكان كلّ من أُمر بالسجود فٱمتنع منه كافرًا ، وليس كذلك ؛ ولا لكونه حسد آدم عليه السلام على منزلته من الله تعالى ، وإلاّ لكان كلّ حاسد كافرًا ؛ ولا لعصيانه وفسقه ، وإلا لكان كل عاص وفاسق كافرًا . و قد أشكل ذلك على جماعة من متأخّري الفقهاء ، فضلا عن غيرهم .

وينبغي أن يُعْلَم إنْ كَفَر ، إمّا كان من نسبتِه الحقَّ ، جلّ جلاله ، الى الجوْر والتصرّف الذي ليس بمرضي ، وعُلِم ذلك من فحوى قوله : «خلقتني من نار وخلقته من طين» ؛ ومراده ، على ما قاله المحقّقون من المفسّرين وغيرهم ، أنّ الزام العظيم الجليل بالسجود للحقير من الجور والظلم ، وهذا وجه كُفْر . لكنه الله تعالى ، وقد أجمع المسلمون قاطبة على أن من نسب الله تعالى لذلك كافرٌ . واختلفوا هل كان قبل ابليس كافرٌ ، فقيل لا ، وأنه أوّل من كفر ، وقيل كان قبله قوم كفار ، وهم من الجنّ الذين كانوا في الارض . اه .

واختلفوا أيضًا هل كفره جهلا أم عنادًا على قولين بين أهل السنة ، ولا خلاف أنه كان عالمًا بالله تعالى قبل كفره ، فمن قال إنه كفر جهلا ، قال إنّ الله تعالى سلبه العلم الذي كان عنده عند كفره ؛ ومن قال كفْرُ عناد قال كفَر ومعه عِلمه . قال ابن عطية : والكفر مع بقاء العلم مستبعَد إلاّ أنه جائز لا مستحيل مع خذلان الله تعالى من شاء ، انتهى . /270ب/

قيل : لما أن استخلف المعتصم بعسكر المأمون في بلاد الروم كان الفضل بن مروان ببغداد ، فأخذ البيعة للمعتصم ببغداد ، ومهّد له أمرها إلى أن دخلها المعتصم من سنة ، فجلّه وخلع عليه واستوزره وردّ أموره كلها اليه ، فبقي يدير الأمور الى أن غلَب على المعتصم بطول خدمته ، واستقل بالأمور وحجبه عن الناس ، ومنع التصرفات عن غيره ، فأوغل صدور الناس ونفّر طباعهم عن الخليفة وبغضته الناس حتى أنه جلس يومًا لقضاء اشغال الناس كعاداته ورفعت اليه قصص العامة ، فرأى في جملتها ورقة فيها مكتوب :

«تفرعْنتَ يا فضلُ بن مروان فَاعتبر   فقبلَك كان الفضلُ والفضلُ والفضلُ
ثلاثةُ أملاك مضَوْا لسبيلهم   أبادتهم الأقياد والحبْس والقتلُ
وإنّك قد أصبحت في الناس ظالما   ستُودِي كما أُوْدَوا الثلاثةَ من قبلُ»

أراد بالثلاثة الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى البرمكي والفضل بن سهل .

فلم يؤثر ذلك فيه ، ولا زال على حاله الى أن تغيّر عليه المعتصم ، وقبض عليه سنة إحدى وعشرين ومائتين ، في رجب . فحبسه وأخذ أمواله بعد أن عزله عن الوزارة ، وجعل مكانه ابن الزيات ، إلاّ أنه فصل بينهما بأحمد بن عمّار . وقال المعتصم حين قبض عليه : عصى الله في /271/ طاعتي فسلّطني الله عليه ! انتهى . كذا حكاه ابن خلكان وغيره .

وحكى الصولي : أنّ المعتصم أخذ من داره ألف ألف دينار وحبّسه خمسة أشهر ، ثم أطلقه وألزمه بيته . انتهى .

قال ابن خلكان : ثم خدَم بعد ذلك جماعةً من الخلفاء الى أن توفي في شهر ربيع الآخر سنة خمسين ومائتين ، وعمره ثمانون سنة . ويقال عاش ثلاثًا وتسعين سنة ، وكان نصراني الاصل ، قليل المعرفة بالعلم ، حسَن المعرفة بخدمة الخلفاء ، وله ديوان رسائل ، وكتاب المشاهدات والأخبار التى شاهدها . وكان يقول : مثل الكاتب كالدّولاب إذا تعطل تكسّر ! انتهى ، كذا ذكر ابن خلكان .

ذكر الخطيب البغدادي عن أحمد بن أبي دؤاد أنه قال : ما رأيت رجلا عاين الموت فما أذهله ، وما شغله عمّا أراده ، حتى بلغه أنْ خلّصه الله تعالى من القتل ، الاّ تميم بن جميل . فإني رأيته بين يدي المعتصم ، وقد بسط له النّطع وأقام السيّافَ على رأسه . وكان رجلاً جسيمًا وسيمًا ، فأحبّ المعتصم أن يستنطقه لينظر أين منظره من مخبره ، فقال له : تكلّم ! فقال : أمّا إذْ أذِنَ أمير المؤمنين في الكلام ، فالحمد لله الذي أحسن كلّ شيء خلْقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . يا أمير المؤمنين ، جبَر الله بك الدين ، ولمّ بك شعَث المسلمين ، إن الذّنوب /271ب/ تُخرِس الالسنة ، وتخلع الافئدة ، وأيمُ الله لقد عظُمتْ الجريرة ، وانقطعت الحجّة ، وساء الظنّ ، ولم يبق الا عفوك وإبقاؤك . وأنشأ يقول :

أرى الموتَ بين النّطع والسيف كامنًا ... يلحظُني من حيث لا أتلفّتُ
وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأيّ امرىء مما قضى الله يفلتُ
وماجزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أنّ الموت شيئا مؤقّتُ
ولكنّ خلفي صبْيةٌ قد تركتُهم ... وأكبادهم من حسرتي تتفتتُ
كأني أراهم حين أُنْعَى إليهمُ ... وقد خدشوا تلك الخدودَ وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا حافظين لغبطة ... أذودُ الرّدى عنهم وإن مُتّ مُوّتوا

فاستعبر المعتصم ، ورقّ له ، ثم قال : يا تميم ، قد عفوتُ عن الهفوة ، ووهبتك للصّبية ! ثم أمر بفكّ قيوده ، ثم خلع عليه وغفر له وعقد له على سَقي

الفرات . اهـ .

ومن ذلك ، اليَقَظَة ، ما حُكي أنه أُتِيَ الى معن بن زائدة بثلاثمائة أسير ، فأمر بضرب أعناقهم . فأحضر السيفَ والنِّطع ، وقُدِّم واحد منهم ، فقال للسياف : إضرب عنقه ! فقُتل . ثم قدِّم غلام كانت فيه فطنة ، فقال الغلام : يا معن لا تقتُل أُساراك عَطاشى ! فقال : أسقوهم ماء ! فشربوا ، فقال الغلام : أيها الامير لا تقتل أضيافك ! فقال : خلّوا عنهم ! فأُطلقوا جميعًا . انتهى ، كذا نقل من تاريخ النويري .

ذكر أبو بكر الحافظ البغدادي في كتابه المتّفق /272/ والمفترق ، عن أحمد بن أبي دؤاد ، أنه قال : ما صحِب السلطان رجل أجلد من عمر بن فرج الرخجي ، ولا أرجل ولا أخبث منه . قال ، وقد غضب عليه المعتصم يومًا وهم بقتله ، فأمر بإحضاره ، فجاء وقد نزَف دمه ، فقال المعتصم : السيفَ يا غلام ! فجعلتا ـ رُكْبتا عمر ـ تصطكّان . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يسأله عن ذنبه ، فلعله أن يخرج منه بعذر . فقال له المعتصم : يا أبن الفاعلة ، أمرتك في ولْد بني طالب أن لا تتعرّف خبرَ منازلهم ؟! قال : نعم . قال : فلِم فعلت ؟ قال عمر : بلغني من واحد منهم أن ائمتهم يكاتبونهم ، فأردت أن أعرف ما في الكتب الواردة عليهم . وجعل عمر في خلال ذلك يتلمّس البساط الذي تحت المعتصم ، فزاد ذلك في غضب المعتصم وقال : يا ابن الفاعلة ، ما شغلك ما أنت فيه عن لمس البساط ، كأنك غير مكترث بما أُريده منك ! فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن العبد يعتني من أمر سيده بكل شيء على جميع الاحوال ، وإني استحسنت هذا البساط ، ولكن ليس هو من بُسُط الخلفاء ! فقال له : ويلك كيف هذا ، وقد ذكر محمد بن عبد الملك أنّ هذا البساط قام علينا بخمسين ألف درهم ؟! فقال عمر : يا سيدي ، عندي خير منه بسبعمائة دينار . قال أحمد بن أبي دؤاد فذهب والله عن المعتصم ذلك الفود الذي كان به وسكن غضبه وقال لعمر : وجِّه الساعة بمن يحضره ! فجاء ببساط

/273ب/ قد قام عليه فيما أظنّ بأكثر من ثلاثمائة دينار ، فبُسِط واستحسنه المعتصم واستلانه ، وقال : هذا والله أحسن من بساطنا وأرخص ، وقد أخذنا بما قام عليك . ووالله ما برح ذلك اليوم حتى نادمه وخلع عليه .

قال الحسن بن مُخلَّد : لـمّا دخل المعتصم بغداد خليفةً أمر بإحضار عليّ بن الجنيد ، ثم قال : يا عليّ ، أتذكر حين وقفتَ لابراهيم بن المهدي فنزلت وقبّلت يده ، ثم جاء ابني هارون فقبّل يده فقلتَ له عبدك هارون ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ؟! فقال عليّ : أذكرُ ذلك . قال المعتصم : فإنه قد ترجّل لي اليوم وقبّل يدي بذلك الموضع بعينه ، ثم قال عبدك هبة الله ابني ، فأدناه ، فقبّل يدي فأمرتُ له بعشرة آلاف درهم ، لم تطِب نفسي بغيرها . فقال عليّ : بئس ما صنع أمير المؤمنين ! قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ ابراهيم أمر لهارون بعشَرة آلاف درهم وليس في يده الاّ بغداد وحدها وأمير المؤمنين في يده الشرق والغرب ! قال : صدقتَ ، اعطوه عشرة آلاف دينار ! كذا في تاريخ العسقلاني .

قال أبوبكر الصُّولي : ولا يُعرف خليفة قبّل يد خليفة ثم قبّل ذلك الخليفة بعينه يده الاّ ما كان من المعتصم وابراهيم بن المهدي . اه .

في ربيع الأبرار : أنّ ابراهيم الصّولي قال : رأيت ابراهيم بن المهدي في هذه الدار ، يعني دار الخلافة في خمس طبقات ؛ رأيته في أيام الهادي والرشيد والامين /273/ والمأمون في طبقة الخلفاء ، ثم رأيته خليفة ، ثم رأيته في مرتبة العامة ، ثم رأيته في مرتبة النُّدماء ، ثم رأيته في أيام المعتصم في مشايخ بني هاشم ، انتهى .

وكان ابراهيم بن المهدي ينادم المأمون بعد عفوه عنه ، كما تقدم ، ثم صار ينادم المعتصم بعده أيضًا .

قال أحمد بن اسحاق : حدّثني محمد بن الحارث بن بُسخنَّر قال : دعاني المعتصمم وهو بالوزيرية ، فدخلت أنا ومخارق وعلُّوية ، فإذا عنده ابراهيم بن

المهدي وبين يديه جام فضّة مملوءة دنانير ، وجام ذهب مملوءة دراهم ، وجام زجاج مملوءة عنبرًا ، فغنّينا واجتهدنا فلم يَطرَب ، فغنّى ابراهيم صوتًا فطرب المعتصم ثم غنّاه بصوت من صنعته في هذا الشعر واندفع يغنّيه :

ما بال شمس أبي الخطاب قد غرُبتْ   يا صاحبي أظنّ السّاعة اقتربتْ

فٱستحسنه وسُرّ به ، وقال له : أحسنت والله يا عمّ ! فقال : إنْ كنتُ أحسنت يا أمير المؤمنين فهبْ لي جامًا واحدًا من هذه الثلاثة . فقال : خذ أيَّها شئت ! فأخذ الجام الفضة الذي فيه الدنانير ، ثم غنّى صوتًا آخر ، فٱستحسنه وقال : أحسنت والله يا عمّ ! وسُررت ، فقال : إنْ كنتُ أحسنت يا أمير المؤمنين فهب لي جامًا آخر . فقال : خذ أيّهما شئت ؛ فأخذ الجام الذهب الذي فيه الدراهم ثم غنّى بعد : /273ب/

أظنّ بليْلى وهي غيرُ سخيّة   وتبخَل ليْلى بالهوَى وأجودُ
ألام فأُصغي الى لوْم عـــاذل   وأعلم أنّي مخطىء وأعــودُ

فقام المعتصم على رجليه قائمًا حتى ارتج الايوان الذي كنّا فيه ، ثم جلس وقال : أحسنت يا عمّ والله ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كنتُ أحسنت فهب لي الجام الآخر ! فقال : خذه ! ونام المعتصم ، فٱنصرفنا ولم يحظ بشيء آخر غيره .

ذكر في مختار الاغاني : أنّ محمد بن اسماعيل بن موسى الهادي قال كنت عند المعتصم ، وعنده مخارق وعلوية وعقيد ، فترنم عقيد وكنت أضرب عليه وغنّى بقوله :

نام عُـــذّالي ولم أنم   واشتفى الواشون من سقمي
وإذا ما قـلت بي ألم   شكّ من أهواه في ألمي

فطرب المعتصم وقال : لمن هذا الشعر والغناء ؟ فأمسكوا . فقلت لعلوية :

فأعرَضَ عنّي . فعرفتُ غلطي وأنّ القوم أمسكوا عمدًا . ففطن المعتصم بي وقال: لا تُرَعْ يا محمد ، فإنّ نصيبك فيها مثل نصيبنا . اه .

وعلية هذه هي علية بنت المهدي ، أخت ابراهيم بن المهدي والرشيد ، وزوجها موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، كذا ذكر النويري ، وأمها أم ولد مغنية يقال لها مكنونة ، كانت أحسن جارية بالمدينة وجهًا ، اشتُريت للمهدي في حياة أبيه بمائة ألف درهم ، فغلبت عليه حتى كانت الخيْزران تقول : ما ملَك أُمَةً أثقل عليّ منها ! فولدت /274/ له علية في سنة ستين ومائة .

قال ابن خلكان : علية كانت من أُحسن الناس وجهًا واظرفهم ، تقول الشعر الجيّد وتصوغ فيه الالحان ، وكان في جبينها فضل سعة ، فاتخذت العصابة المكلّلة بالجوهر لتستُر جبينها . وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ الا إذا كانت معتزلة عن الصلاة ، فإذا طهُرت أقبلتْ على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب وقول الشعر ولم تله بشيء إلاّ إنْ دعاها الخليفة فلا تقدر على خلافه ، وكانت تقول ما حرّم الله شيئا إلاّ وقد جعل في ما حلّل عوضًا منه ، فبأيّ شيء يحتج عاصيه والمتهتك لحرمته . وكانت تقول : لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها ، ووالله ما أقول الشعر الا عبثًا . انتهى .

وقال الخطيب : وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يقول : ما اجتمع في الاسلام أخ وأخت أحسن من ابراهيم بن المهدي وأخته علية . انتهى .

وكانت علية تقول الشعر الجيّد وتصوغ الالحان .

قيل أهديت للرشيد جارية في غاية الجمال والكمال ، فخلا معها يومًا ، وأخرج كلّ قيْنة في داره واصطبح ، فكان من حضَرَه من جواريه للغناء والخدمة في الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن زيّ . واتصل الخبر بأمّ جعفر ، فغلُظ عليها ذلك ، فأرسلت الى علية تشكو اليها ، فأرسلت اليها لا يهُولنّك

هذا ، والله لأردنّه اليك ، وقد عزمت أن أصنع شعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرحه على الجواري ، فلا تبقى عندك جارية الاّ بعثتِ /274ب/ بها اليّ ليأخذن الصوت مع جواريّ . ففعلت ذلك أم جعفر فلم يشعر الرشيد الاّ وعلية قد خرجت عليه من حُجرتها وخرجت أمّ جعفر من حجرتها ، معهما زهاء ألفي جارية ، وسائر جواري القصر عليهنّ غرائب اللباس وكلهنّ في لحن واحد هزِج ، وهو :

منفصلٌ عنّي وما　　قلبي عنه مُنفصلْ
يا قاطعي اليوم نو　　يت بعدي أن تصلْ

فطرب الرشيد وقام فاَستقبل أمّ جعفر وعلية ، وهو في غاية السرور ، وقال : لم أر كاليوم قط . ثم قال : يا مسرور ، لا تترك في بيت المال درهمًا الاّ تنثره ! فكان مبلغ ما نثره في ذلك اليوم ستة آلاف ألف درهم . وكانت تقول : من لم يطربه الرَّمَل لم يطربه شيء ، كذا في مختار الاغاني .

وفيه أيضًا ، قال محمد بن جعفر بن يحيى : شهدتُ أبي ، جعفرَ ، وأنا صغير وهو يحدِّث أباه يحيى بن خالد في بعض ما كان يخبره به من خلواته مع الرشيد ، فقال : أخذ الرشيد بيدي ثم أقبل الى حجرة ففتحها ، ودخلنا حتى انتهينا الى مكان لم [أكن] دخلته قط فوجدنا بابًا مغلقًا ، ففتحَه بيده ثم أغلقه (في الاصل «أغلقها») بيده ، وصرنا الى رواق ففتحه وفي صدره مجلس مغلق ، فقعد على بابه ونقر الباب ، فسمعنا حسًّا ، ثم أعاد النقرة فسمعنا صوت عود ، ثم أعاد النقرة ثالثًا فغنّت جارية ما ظننت أنّ الله تعالى خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضَّرْب /275/ فطرِبْت والله طربًا هممت معه أن أنطح برأسي الحائط ، ثم غنّت صوتًا آخر اقترحه الرشيد فرقص ورقصتُ معه ، ثم قال : اِمض بنا ، فإني أخشى أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا ! فمضينا ، فلمّا صرنا الى الدهليز قال : وهو قابض على يدي أعرفتَ هذه المرأة ؟! قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : إني

أعلم أنّك ستسأل عنها فلا تكتمْ ذلك وأنا أخبرك بها ، هذه علية بنت المهدي ، ووالله لئن لفظت به بين يدي أحد وبلغني لأقتلنك ! قال : فسمعت جدّي يقول له قد لفظتَ به ولا بقيت تخبرني بمثل هذا لئلا يتعوّد لسانك فيقتلك ، فأصنع ما أنت صانع ! انتهى .

وفيه أيضًا قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي : عملت في أيام الرشيد لحنًا في هذا الشعر وهو :

سُقْيًا لأرض إذا نمت نبّهـني   بعد الهدوّ بها قرعُ النّـواقيسِ
كأن سوسنها في كلّ شارفة   على الميادين أذناب الطواويسِ

وعزمت على أن أباكر به الرشيد ، فلقيني خادم لعُلية وقال : مولاتي تأمرك بدخول الدهليز لتسمع من بعض جواريها غناء أخذتْه عن أبيك . فدخلت معه . فقال لي : مولاتي تقول لك أعلَمُ أنـّك قد غدوتَ الى أمير المؤمنين بصوت قد أعددتَه له ، مُحدَث ؛ فأَسمِعْنيه ، ولك جائزة سنِيّة تتعجّلها ، ولعله لا يأمر لك بشيء ، أو لا يقع /275ب/ الصوت في غرضه فيذهب سعيك باطلا ! فغنّيتها إياه ، فآستعادته مرارًا ثم أخرجتْ لي عشرين ألف درهمًا وعشرين ثوبًا ، وقالت : هذه جائزتك ! ثم قالت : إِسمعه مني . فغنّته غناء ما خرَق سمعي مثله ، وقالت : كيف تراه ؟ قلت : أرى والله ما لم أر مثله ! فقالت لجارية : هات له مثل ما أخذ . فأحضرتْ ، فقالت : هذا ثمنه ، وأنا الآن داخلة الى أمير المؤمنين وأغنيه به وأقول له من صنعتي ؛ فأَعْطِ لله عهدًا إن نطقتَ بأنّ لك فيه صنعة وإن قلتَ والله قتلتك . هذا إن نجوتَ منه إذا علِم بمسيرك اليّ !

فما جسرتُ والله أن أتنغّم به في نفسي فضلا عن أن أظهره حتى ماتت . فدخلت على المأمون وغنّيته به ، فتغيّر لونه وقال : من أين لك هذا ؟ قلت : ولي الامان على الصدق ! قال : ولك الامان . فحدّثته بالقصّة ، فقال : يا بغيض ، ما كان في هذا حتى ذكرتَه وشهَرْته مع ما أخذته من العِوَض ! وهجّنني

فيه هُجنة وددت معه أني لم أذكره ، وآليت أن لا أغنيه بعد ذلك أبدًا . انتهى .

وذكر الخطيب البغدادي : عن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع أنّ عُلية كانت تحبّ خادمًا ، من خدم الرشيد ، يقال له طَلّ . وكانت تراسله بالشعر ، فلم تره أيامًا ، فمشيَتْ على ميزاب لتراه ، فلمّا وصلت اليه قالت له :

قد كان ما كُلّفته زمنًا ... يا طلُّ من وجد بكم يكفي
حتى أتيتك زائرًا عجلاً ... أمشي الى حَتْفي على حَتْفي /276/

فاتصل ذلك بالرشيد ، فحلف ألاّ تكلّم طلاّ ولا تسميّه بآسمه . فضمنتْ له ذلك ، فآستمع إليها يومًا وهي تقرأ آخر سورة البقرة ، حتى بلغت قوله عزّ وجلّ : «فإن لم يصبها وابِلٌ» فالذي نهَى عنه أمير المؤمنين . ولم تقل «فطلّ» فدخل وقبّل رأسها وقال : قد وهبتُ لكِ طلاّ ولا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه . ومن كلامها فيه وقد صحّفت اسمه :

أيا سَرْوة البستان طال تشوُّ ... قي فهل الى ظِلّ اليك سبيلُ
متى يلتقي من ليس يقضي خرو ... جه وليس لمن يهوى اليه وصولُ

كانت لأم جعفر جارية يقال لها طُغْيان ، فوشت بعُلية الى رشأ وقالت عنها ما لم تقل ، فقالت علية فيها :

لِطغيانَ خُفٌّ مذ ثلاثون حِجّةً ... جديدٌ فما تبْلَى ولا يتخرّقُ
وكيف بَلَى خُفٌّ هو الدّهرُ كلّه ... على قدميْها في السّماء مُعلّقُ
فما خرّقتْ خُفًّا ولم تُبْل جَوْرَبًا ... أمّا سراويلاتها فتمزّقُ

اه .

وذكر في الاغاني : أنّ الرشيد لـمّا خرج الى الريّ أخذ أخته عُلية معه فلمّا وصلت المرج عمِلت شعرًا وصاغت فيه لحنًا وغنّته به ، وهو هذا :

ومغترب بالـمَرْج يبكي لشجْـوهِ وقد غاب عنه المسعدون على الحبّ
إذا ما أتـاه الركب من نحو أرضهِ تَنشّـق يستشـفي برائحة الرّكبِ

فعلم أنها قد اشتاقت العراق فردّها اليه ، وغنّت عند الرشيد في رمضان هذا البيت :

طالت عليّ ليالي الصّوم واتّصلت حتى لقد خلتها زادت على الابد

فأمر لها /276ب/ بثلاثين ألف درهم . وتوفيت عُلية سنة عشر ومائتين وهي بنت خمسين سنة ، وصلى عليها المأمون ، واعتق على قبرها خمسين رقبة . وكان سبب موتها أنّ المأمون ضمّها اليه وقبّل رأسها ووجهها مغطّى فشرقت وسعَلت ثم حُمّت أيامًا يسيرة وماتت ، رحمة الله عليها .اهـ . كذا حكاه النويري في تاريخه ، والله أعلم .

ذكر في مختار الاغاني أنّ علي بن القاسم قال : كنت مع المعتصم في بعض غزواته بالروم ، فجاءه بعض سراياه بخبر فغمّه فركب من فوره وسار أشدّ سير وأنا أسايره فسمع منشدًا في عسكره يتمثل بهذا الشعر :

لا تيأسنّ وإن طالت مطالـبة إذا استعنتَ بصبر أن ترى فرَجًا
إنّ الامور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كلّ ما أُرْتِـجَ

فسُرّ بذلك ، وطابت نفسه والتفت اليّ وقال : يا عليّ ، أتروي هذا الشعر؟ قلت : نعم . قال : من يقوله ؟ قلت : محمد بن بشير . فتفاءل بهذا الاسم ، فقال : أمر محمود ويسرٌ سريع سيعقُب هذا الامر . ثم قال : أنشدْني الابيات ، فأنشدته إياها وهي :

ماذا يكلفك الرّوحات والدلّجـا البر طورًا و طورًا تركب اللّجَجَا
كم من فتى قصرت في الرزق خطوته ألفيته بسهام الرّزق قد فلـجَا
لا تيأسنْ وإن طالت مـطالبة إذا استعنتَ بصبْر أن تـرى فرَجًا

إن الامور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كلّ ما أُرْتِجَا
أخلِقْ بذي الصّبر أن يحظى بحاجته ومُدْمن القَرْع للابواب أن يَلِجَا /277/
قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقًا عن غِرّة زَلَجَا
ولا يغرنّك صفوٌ أنت شاربُه فربما كان بالتكدير ممتزِجَا

قال : عليّ ، ثم قلت : يا أمير المؤمنين كان أبو ابراهيم بن رياح إذا أحزنه أمرٌ تمثّل بقول محمد بن بشير :

تحظى النفوس مع العيا ن وقد تصيبُ مع المظنّهْ
كم من مضيق في الفضـ اء ومخرج بين الأسنّهْ

ففرح المعتصم بهذه الابيات ، وقال : يا عليّ ، إذا رجعت الى دار السلام اذكر لي محمد بن بشير . قال علي : فلما رجع أنشدته الابيات فتذكّره المعتصم وأمر بإحضاره ، فمثل بين يديه ، فقال له : أنشدني الابيات . فأنشده إياها فأمر له بجائزة ، وأحسن اليه وحظي عنده وصار من شعرائه .

وهو محمد بن بشير الرياشي ، يقال إنه مولى لبني رياش ، ويقال منهم صليبة ، وهم معروفون بالبصرة . وكان الرياشي شاعرًا ظريفًا لم يفارق منتجعًا بشعره ولا يجاوز صحبة طبقته ، وكان ماجنًا خبيثًا هجّاء بخيلاً . قيل إنه هوى قينة ، فعاتبته امرأته عليها ، فقال مجيبًا لها :

ما تصنعين بعين عنك قد طمَحَت الى سواكِ وقلب عنك قد نَزَعَا
إن قلتِ قد كنتُ في حظّ ومكرُمة فقد صدقتِ ولكن ذاك قد نَزَعَا
وأيّ شيء من الدُّنيا سمعتِ به إلا إذا صار في غاياته انقطعَا

وقيل : إنه كان له دار ببابين ، كبير وصغير ، يدخل هو أصحابه /277ب/ من الباب الكبير ، ويدخل المُرْد من الباب الصغير ، فجاء اليه غلام قد خرجت لحيته وأراد أن يدخل من الباب الصغير على عادته فمُنع من ذلك ، فالتقى به

بعد أيام وأخبره بذلك ، فقال له :

أنت ما تدخـل إن ... جئت من الباب الصغير
بعـد أن عُلـق في ... خديْك مخلاة الشعيرِ

اجتاز يومًا بأبي عثمان المازني ، فجلس اليه . فرأى من كان في مجلسه ينظرون الى نعله ، ويعجبون من وسخها وتقطيعها . فأخذ ورقة وكتب فيها :

كم أرى ذا تعجُّب من نعالي ... ورضائي منها بلبس البوالي
من نعالي من الرجال بنعل ... فسواي إذًا بهنّ نعـــالي
أوحداهن للجمـــال فإني ... في سواهنّ زينتي وجمالي
في إخائي وفي ودادي ورأيي ... ولساني ومنطقي وفعـالي
ما وقاني الحَفَا وبلغـني الحا ... جة منها فإنّي لا أبـــالي

وعوتب على حضور المجالس بغير ورق ولا محبرة ، وأنه لا يكتب ما يسمعه فقال :

ما دخل الحمام من عـلم ... فـذاك ما فـاز به سهْمي
والعلم لا ينفعني جمعُه ... إذا جرى الوهم على وهْمي

وكان يعاشر بعض الهاشميين ، ثم جفاه الهاشمي فكتب اليه :

قد كنتُ منقبضًا وأنت بسطتني ... حتى انبسطتُ اليك ثم قبضتني
أذكرتني خُلق النِّفـــاق وكان لي ... خلقًا فقد أحسنتَ إذ أذكرتني /278/
لو دام ودّك فانبسطت الى أمرىء ... في الودّ بعدك كنت أنت عروتني

وكان لمحمد بن بشير ابن ، يقال له عبد الله ، وكان مشغوفًا بالنبيذ مشتهرًا به ، ما بات قطّ إلاّ سكران ، فأصبح يومًا بالبصرة وقد مطرت الدنيا ولم يتمكّن من قصد أحد من إخوانه فكاد يجنّ ، فكتب الى محمد بن أيوب الهاشمي أمير

البصرة أبياتًا طويلة يستدعيه بها شرابًا ، منها :

ما لي نبيذٌ ولا خمرٌ فأشـــربُه　　وقد حمـــاني من تطفّلي المطَرُ
فَابعث اليّ قليلا منه يا أمـــلي　　فإنني واقف بالبـــاب أنتظرُ
وإن تكن حاجتي ليست بحاضرة　　وليس في البيت من آثارها خبَرُ
فَاستسق غيرَك أو أذكرْ له خبري　　إن اعتراك حياءٌ منه أو حـــصرُ

فبعث اليه زقّ نبيذ ومائتي درهم ، وكتب اليه : «متى أعوزك شيء فأخبرني» . انتهى منه .

قال القاضي أحمد بن أبي دؤاد : تصدّق المعتصم بالله على يديّ ، ووهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم .

وقيل إن عبد الصّمد بن المعذّل دخل على المعتصم بالله ، فأنشده هذه الابيات :

لو قيل للجود مَنْ حليفُك ما　　كان الا اليك ينتسبُ
أنت أخوه وأنت صورتـه　　والرأس فيه وغيرك الذنبُ
لو أنّ كعبًا وحـاتمًا نشدَا　　كانا جميعًا في بعض ما تهبُ　/278ب/
لا تخلف الوعد إن وعدتَ ولا　　أنت عن المعْتَفين مُـحتجبُ
ما دونك اليـوم عن نوال ولا　　خلفك للرّاغبين مُـــطّلبُ

فأمر له المعتصم بمائة ألف درهم . وعبد الصمد بن المعذل بن غيلان هو من بني ربيعة بن نزار . كان شاعرًا فصيحًا من شعراء الدولة العباسية ، بصري المولد والمنشأ ، كان هجّاء خبيث اللسان . وكان له أخ اسمه أحمد كان شاعرًا أيضًا ، الاّ أنه عفيف ذو مروءة ودين وجاه واسع ، وكان أخوه يحسُده ويهجوه.

وكان عبد الصمد كثير الهجاء ، وأشعاره في ذلك كثيرة ، منها أنه كان له

صديق كثير الكذب ، فوعده يومًا بشيء ومطله فيه ، فقال فيه :

ولي صاحب في حديثه البَرَكَةْ   يزيد عند السُّكون والحرَكَةْ
لو قال لا في قليل أحرفـها   لردّها بالحروف مشتبِكةْ

وبلغه عن صديق له أنه عاب شعره ، واغتابه يومًا وهو سكران ، فكتب اليه :

لـمّا أتاني ما نطقـت به   في السُّكر قلت جناية السُّكْرِ
فمتى سكرتَ فأنت في   سعة ومتى صحوْت فأنت في عُذْرِ

ومن ذلك ما أجاب به اللاّحقي ، وذلك أن أبان اللاحقي هجا المعذّل بقوله :

كنت أمشي مع المعذّل يومًا   ففسَا فَسْوة فكدت أطيرُ

فأجابه المعذل بقوله :

صحّفت أمُّـك إذ   سمّتك في المهد أبانا   /279/
قد عِلْمنا مـا أرا   دتْ لم تُرد الاّ أتانا

وكان لعبد الصمد جار فقير ، رثّ الحال ، فرآه يومًا يخطر في مشيته خطرة مُنْكرة ، فاغتاض منه وقال :

دبّ في رأسه خمار من الجو   ع سوى خمرة الرّحيق الشمولِ
فبكى شجوه وحنّ الى الخبـ   ـز ونادى بزفرة وعـويلِ
من لقلبِ متيّم برغيـفيْـ   ـن ونفس تاقت الى تطفيلِ

وكان في البصرة طفيلي ، يكني أبا سلمة ، إذا عرف بوليمة أخذ ابنيه وأتى باب الدار ، فيدقّ أحد ولديه الباب ويقول : افتح يا غلام لابي سلمة ! ويصيح

الآخر : ويلك افتح جاء أبو سلمة ! ويقول هو : ويلك أبو سلمة واقف ، فعجِّل وآفتح له ! فإن كان الغلام لا يعرفهم فتح لهم ، وإن كان يعرفهم لم يلتفت اليهم . فيقعد حتى يأتي بعض من قد دُعي ، فإذا فتحوا له هجموا ودخلوا معه . فجاء يومًا الى وليمة ، وكان فيها عبد الصمد ، فلمّا جلس على الطعام تقدّم أبو سلمة وأكل لقمة حارة من فالوذج ، فمات على المائدة من شدّة حرارتها في ساعته . فقال فيه عبد الصمد أبياتًا ، منها :

قد كنت أعلم أنّ الأكل يقتله　　　لهفي عليك وويلي يا أبا سَلمه

وحكى الخطيب : أنّ عبد الصّمد كان نظر الى الافشين المقدّم ذكره ، وهو غلام أمرد واقف مع أولاد القواد بباب الخليفة ، فأعجبه وتمناه ، فقال فيه :

أيها اللاحظي بطَرْف كليـل　　　هل الى الوصول بيننا من سبيلِ
/279ب/ علم الله أنني أتمنّى　　　زوْرَة منك عند وقت المقـيلِ
ثم أسقيك بعد شـربي من　　　ريقك كأسًا من الرّحيق الشّمولِ
وأغنّيـك إن هويت غناء　　　غير مستكرَهٍ ولا مـملولِ
فإذا ارتاحت النُّفوس اشتياقًا　　　وتمنّى الخليل قربَ الخليلِ
كان ما كان بيننا لا أسـمّيـ　　　ـه ولكنّه شفـاء العليلِ

وفي تاريخ ابن هارون ، أن أبا تمام الطائي وعبد الصمد المعذل جمع بينهما مجلس ، وكان عبد الصمد يقول الشعر سريعًا وأبو تمام يقوله بطيئًا . فقال عبد الصمد :

أنتَ بين اثنين تبرُز للنّا　　　س فكلتيهما بوجه مـذالِ
لست تنفك طالبًا لوصال　　　من حبيب أو طالبًا لنوالِ
أيّ ماء لحرّ وجهك تبغي　　　بعد ذل الهوى وذلّ السؤالِ

فأخذ أبو تمام قِرطاسًا ، وخَلَى طويلا وكتب فيه :

أفِـيَّ تنظُم قولَ الزُّور والفنَـــدِ وأنت أبرزُ من لا شيء في العددِ
أشْرجْت قلبك من بُغْضي على حَرَق كأنها حركات الرُّوح في الجســدِ

فقال له عبد الصّمد : أخبرني عن معنى قولك «أبرز من لا شيء في العدد» وعن قولك «أشرجت قلبك» ، أقلبي مفرَشٌ أو عَيْبة أو خُرج حتى أُشرِجُه ، قبّحك الله ، ما رأيت أعثّ منك ! وانقطع . وما راجعه ، وقام وانصرف . اه .

وقيل هجا الجمّاز عبد الصّمد بقوله :

ابن المعذَّل من هـو ومن أبوه المعــذَّلُ
سألت وَهْبان عنه فقال بيْض محوَّلُ

فشكا عبد الصمد من ذلك ، فقيل له : أمثلك يقلق من /280/ الجمّاز ؟! قال : نعم ، لانه لا يبالي بالهجاء ولا عرض له ، وشعره ينفُق على من لا يدري . وكان وهبان ، المذكور في النظم ، رجل يبيع الحمام ، فلمّا سمِع ذلك جمع جيرانه وأصحابه وحلَف لهم أنه ما قال عن عبد الصمد أنّه «بيض محوَّل» والتمس منهم أن يخبروه بذلك ويعتذروا له اليه ؛ فلما أتوْا عبد الصمد وخبّروه بذلك ، قال : والله إن قول وهبان واعتذاره أصعب عليّ من الهجاء ! وشاع ذلك في البصرة ولم يبق للناس شغل غيره .

وقال الخطيب وقع بين عبد الصّمد ومحمد بن حازم مهاجاة وتشاجر . وأفرط ابن حازم في هجاء عبد الصمد حتى قال فيه هذه الابيات :

إذا استقلّتْ بك الرِّكاب فحيث لا دُرْتَ السَّحابُ
وحيث لا يُرْتَجَى إيّـاب وحيث لا يبلغ الكِتــابُ
فقَبْل معروفك امتنـانٌ ودون معروفك العـذابُ
وخير أخلاقك اللواتـي تعاف أمثالُها الكـلابُ

فلم يجبه عبد الصمد فقيل له : هجاك ! فلم يجبه ، فقال : أتّقي شرّه ، لأنه لا يبالي بمن هجا ، فترْكه أولى من هجائه . انتهى .

ومحمد بن حازم هذا كان من شعراء الدولة العباسية ، من سكان بغداد ، ومولده ومنشأه بالبصرة . وكان مطبوعًا ، مطرّحًا ، كثير الهجاء للناس ، ولم يكن له نباهة . وكان ساقط الهمّة جدًا .

قال في الاغاني : قال أحمد بن يحيى : قال لي محمد بن حازم : لم يبق في قلبي شيء من اللذات إلاّ بيعُ السنانير . فقلت له : وأيّ لذة لك في بيع السنانير ؟! فقال : يعجبني أن تجيئني العجوز /280ب/ الرّعناء ، فتخاصمني وتقول هذا سنّوري قد ضاع مني وأنت سرقته ، فأخاصمها وتخاصمني وأشتمها وتشتمني ! ثم ضحك وأنشد :

صِلْ خمرةً بخُمار ... وصل خُمارًا بخمْرِ
وخذْ بحظك من ذا ... زادًا الى حيث تدري

فقلت : ويلك ، الى أين ؟ فقال : الى النار ، يا أحمق !

أنشد يومًا بعض إخوانه :

وقالوا لو مدحتَ فتًى كريمًا ... فقلتُ وكيف لي بفتًى كريمِ
بلوْتُ الناس من خمسين عامًا ... حسبُك بالمجرّب من عليمِ
فما أحدٌ يعدّ ليوم سـوء ... ولا أحدٌ يعدّ على حـميمِ
ويعجبني الفتى وأظـنّ خيرًا ... فأكشف منه عن رجل لئيمِ

ومن شعره أيضًا :

وإذا نبا بي منزل خلّيـته ... قفرًا مجالَ ثعالب وذيـابِ
وأكون مشترَك الغنَى متبدّلا ... فإذا افتقرتُ بعُدْتُ عن أصحابي

ومما قاله في مدح الشباب وذم الشيب من أبيات كثيرة :

لا حينَ صبرٍ فخلِّ الدّمع ينهَمِلِ فقْد الشّباب بيوم المرء متّصِلُ
سقْيًا ورعيًا لأيام الشّـــباب وإنْ لم يبق لي منه لا رَسْم ولا طللُ
جرّ الزمان ذُيُولاً في مفـارقه وللزّمان على إحسانه عِـــللُ
ربّما جرّ أذيال الصِّبا مرَحًا وبين بُرْديه غن ناعم خضِلُ
لا تخدعنّ فما الدنيا بأجمعها من الشباب بيوم واحد بـدَلُ
كفاك بالشيب ذنبًا عند غايته وبالشباب شفيعًا أيها الـرجلُ
بان الشبابُ وولّى عنك باطله فليس يحسُن منك اللّهو والغزَلُ /281/
أمّا الغواني فقد أعرضْن عنك قِلًى وكان إعراضهنّ الذلّ والخـجلُ
أغرنّك الهجْرُ ما ناحت مطوَّقة فلا وصال ولا عهدٌ ولا رسُـلُ
ليت المنايا أصابتني بأسهُمها فلا يكثّرن عهدي قبل أكتـهلُ
عهد الشباب لقد أيقنت لي حزنا ما جدّ ذكرُك الاّ جدّ لي ثَـكلُ
إنّ الشّباب إذا ما حلّ زائـــده في منهل زاد يقفو إثـره الأجلُ

وقصد بعض وُلْد سعيد بن مسلم ، وقد ولي عملا فأسترفده ، فمطله وأطال مدته ولم يعطه شيئًا فأنصرف عنه ، وقال فيه :

أللدّنيا أُعِدّك يا ابن عــمّي فأعلم أم أعِدّك للحســابِ
الى كم لا أراك تنيلُ حتى أهُزّك قد برمتُ من العتابِ
أتيتك زائرًا فأتيت كلــبًا فحظي من إخائك للـكلابِ
فشرُّك عن صديقك غير نـاء وخيرك عند منقطع التُّرابِ
فبئس أخو العشيرة ما علمنا وأخبثُ صاحب لأخي اغترابِ
أيرحل عنك ضيفُك غيرُ راض ورحلك واسع خصْب الجَنابِ
فقد أصبحتَ من كرم بعيـدًا ومن ضدّ المكارم في لُبـابِ
وما لي حاجة بجَـداك لكنْ أردُّك عن قبحك للصّـوابِ

وهجا رجلا وأفرط في هجائه ، فبعث اليه ألف درهم وثيابًا وقال له : أمّا ما مضى فلا سبيل الى ردّه ، ولكن أحبّ ألاّ تزيد عليه . فردّ ذلك عليه وكتب اليه :

أبيْت أن أشرُب عند الرِّضا | والسُّخط الاّ مَشْربًا يَعْذُبُ
أعزّني الناس وأغْنى فما | أرجو سوى الله ولا أرهَبُ
قارونُ عندي في الغنَى | مُعْدَم وهمّتي ما فوقها مذهبُ
فبأيّ هاتين تراني بها | أصبو الى مالك أو أرغبُ /281ب/

ومرّ به أبو عليّ فقال له : كيف ما بينك وبين صديقك فلان ؟ فقال :

راجَعَ بالعُتبى فعاتبْته | وربما أعتبك المذنِبُ
وإن في الدهر على صرفه | بين الصديق لمستعتبُ

ومدح رجلا ، فلم يجِزْه وجعل يسبّ شعره ، فبلغه ذلك فهجاه ، فبعث اليه بمال واعتذر وسأله الكف ، فأعاد المال وقال :

يا جامعًا مانعًا بخيلا | ليس له في العُلا نصيبُ
أبالرُّشا يُستمال مثلي | كلاّ ومن عنده الغُيوبُ
مالك مال اليتيم عندي | فما أرى أكلَه يطيبُ

وكان الحسن بن سهل عاتبه على هجائه الناس وقال له : هبهم لي ! فقال : فعلت . فكساه ووصله على تركه الهجاء ، فقال أبياتًا يقول فيها :

بلوْتُ خيارهم فبلوْتُ قومًا | كُهولُهمُ أخسّ من الشّبابِ
فقلت له برئْتُ اليك منهم | فليْتَهم بمنقطِع التُّرابِ

فضحك منه ، وقال : ويلك ، الساعة ابتدأتَ بهجائهم ! فقال : هذه بقية طفَحتْ على قلبي وأنا كافّ عنهم ما بقي الأمير . انتهى ، كذا ذكره الخطيب .

وذُكر في بعض المجامع : أنّ عبد الله بن المعتز كان يقول : أربعة من الشعراء سارت أشعارهم بخلاف أسمائهم ، أبو العتاهية سار شعره بالزهد وكان على الالحاد ، وأبو نواس سار شعره باللّواط وكان أزْنى من قرد ، وأبو حليمة الكاتب سار شعره بالعِنّة وكان أهَبَّ من تيْس ، ومحمد بن حازم سار شعره بالقناعة ، وكان أحرص من كلب .

قال الخطيب البغدادي : رأيت لابن /282/ حازم خبرًا لا يطابق حكاية ابن المعتز ويوافق شعره ، وذلك أنه كان جار سعيد بن حُميد الكاتب الطوسي . فهجاه لأمر كان بينهما . فسمع سعيد هجوه فأغضى عنه . ثم إنّ محمد بن حازم ساءت حاله فتحوّل عن جواره ، فبلغ ابن حميد ذلك فبعث اليه عشرة آلاف درهم وتُخوت ثياب وفرَس بآلته ومملوكًا وجارية ، وكتَب اليه : «ذو الادب لا يحمله ظُرفه على بعث الشيء بغير هيئته ، ولم يكن ما شاع من هجائك فيّ جاريًا الاّ هذا المجرى . وقد بلغني من سوء حالك وشدة خَلّتك ما لا غضاضة به عليك مع همّتك وعِظم نفسك ؛ ونحن شركاء فيما ملكنا ، ومتساوون فيما تحت أيدينا ، وقد بعثتُ اليك بما جعلته وإن قَلّ استفتاحًا لما بعده وإن جَلّ» . فردّ محمد بن حازم جميعه ولم يقبل منه شيئًا ، وكتب اليه هذه الابيات :

وفعلتَ بي فعلَ المهلَّب إذ عمّ الفرزدقَ بالنَّدى الدَّثْرِ
فبعثتَ بالأموال ترغّبني كلاّ وربِّ الشّفع والوِتْرِ
لا ألبس النّعْماء من رجُلٍ ألبستُه عـارًا على الدّهرِ

وهذا دليل على قناعته وحسن صبره واحتماله الإضاقة .

وكان سعيد بن حُميد هذا من شعراء المعتصم .

ذكر الخطيب أنّه يكنى أبا عثمان . قال : وكان كاتبًا شاعرًا مترسِّلا عذب الالفاظ مقدَّمًا في صناعته ، جيّد السّرقة (في الاصل «المعرفة») حتى قال بعض

الفضلاء : لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع لـمّا بقي معه منه شيء ! وكان يدّعي أنه من أولاد ملوك الفرس وله /282ب/ من الكتب كتاب انتصاف العجم من العرب ، ويعرف بالتسوية ، وله ديوان رسائل .

وذُكر في الاغاني أنّ سعيد بن حميد كان من أولاد الدّهاقين ؛ ولد ببغداد ونشأ بها . وكان شاعرًا كاتبًا حسن الكلام . قيل للمعتصم إنه زنديق ، فحبسه مدة بانت براءته ، فخلى سبيله . ولما كان صبيًّا سلّمه أبوه الى أبي يوسف اللغوي ، فمضى الى مجلس ابن الاعرابي وهو معه ، فأنشد ابن الاعرابي أرجوزة فاستحسنها ، ولم يكن هناك مِحْبرة ليكتبها ، فلمّا انصرفا قال : فاتتنا الارجوزة ! فقال سعيد : لم تفتك ، أتحبّ أن أنشدكها ؟ قال : نعم . فأنشدها ، وهي نيّف وعشرون بيتًا ، سمعها مرة واحدة فحفظها .

ودخل يومًا على أبي العباس ابن ثوابة ، وكان أبو العباس يعاتبه على الشغف بالغلمان الـمُرْد ، فرأى على رأسه غلامًا أمرد ، حسن الوجه ، فقال له :

أزعمت أنّك لا تلوط فقل لنا | هذا المفرطق قائمًا ما يصنَعُ
شهِدتْ ملاحتُه عليك بريبـة | وعلى الـمُريب شواهدٌ لا تُدْفَعُ

فضحك وقال له : خذه ، لا بورك لك فيه ، حتى تستريح من عَتْبك .

وكان يهوى غلامًا ، فغاب عنه مدة ثم جاءه مساء ، فسأله أن يبيت عنده فاعتذر . فتقرّرت الحال أن يقيم عنده إلى العتَمة ، فإذا سمع الأذان انصرف ؛ فأحضر الشراب وحثّ الشّرب بالأرطال ، فلمّا قرب وقت العتَمة كتب الى المؤذن :

قل لداعي الصلاة أخّر قليلا | قد قضينا حقّ الصلاة طويلا
أخّر الوقتَ في الأذان وقدّم | بعدها الوقت بكرة وأُصيلا /283/
فتراعي حقّ المـودة منّا | وتُعافي من أن يكون ثقيلا

فكتب المؤذن اليه : «إنه لا يؤذن ليلته» ! والصبيّ ينتظر الأذان ، فسمع أصوات الحُرّاس فعلِم أنها حيلة وقعتْ ، فبات في موضعه . فقال سعيد في ذلك :

عرّضتُ في الحبّ له وعرّضا   حتى طوَى قلبي على جمر الغَضَا
ثم جفاني وتولّى مُعْرِضًا   حتى أتاني فنسيت ما مضَى
وأظهرت نفسي على الدّهر الرّضا   فسألته حُويجة فأعرضَا
وقال لا قول مجيب فأعرضَ   وكان ما كان وقلوبنا الفضَا

وشرب سعيد يومًا عند بعض أصدقائه ، فلمّا سكر قام ، فقال :

سلام عليكم حالت السُّكر بيننا   ومالت بنا عن كلّ مرأى ومسمَعِ
ولم يبق الاّ أن يميل بنا الكرَى   ويجمع سكري بين حيّ ومضجَعِ

ثم انصرف .

وتغاضب سعيد وفضْلٌ الشاعرة ، فكتب اليها :

تعاليْ نجدد عهدَ الرِّضى   ونصفح في الحبّ عمّا مضَى
ونجري على سنة العاشقين   وأضمن عني وعنك الرضَى
فإن فرّق الدهر بيننا   فمن ذا يقوم بجاري القضَا

فصارت اليه وصالحته ، ثم تعشقتْ بنانَ بن عمرو وعدلت عنه ، فقال فيها قصيدته الدالية :

تنامين عن ليلي وأسهرُهُ وحدي   وأنهى جُفوني أن تَبُثّكِ ما عندي

فلم تعطف عليه ، وبلّغها أنه عشق جارية من جواري /283ب/ القيان ، فكتبت اليه :

يا عاليَ السنّ سيّء الادب   شِبت وأنت الغلامُ في الطّرَب

ويحك إنّ القيان كالشَّرَك الـ　　منْصوبِ بين الغـرور والعطبِ
لا يتصدَّيَنّ للفقيـــــر ولا　　يطلُبن الاّ معـــادن الذهــبِ
تلحَظُ هذا وذا وذاك وذا　　لـحْظَ مُحـبّ بعين مكتَسِبِ
بتُّ أُشكّي هــواك إذ عدلت　　عن زفرك الشكوى الى الطلبِ

ثم كتبت اليه رقعة بعد ذلك تشكو أشواقها اليه ، فضحك وكتب اليها :

ما واصف الشّوق عندي من شواهده　　قلب يهـــيم وعين دمعها يكِفُ
فكنْ على ثِقَـــــةٍ منّي وبيِّنَــة　　إنِّي على ثقة من كل ما نصِفُ

انتهى . من الأغاني ، الجزء الثاني .

وذكر في الأغاني أيضًا : أنّ أحمد بن مرزوق المكّي ، الملقب بطنين ، كان يومًا بين يدي المعتصم مع المغنين والندماء ، وهو أحد المحسنين للغناء والموصوفين بالضَّرب ، فقال المعتصم : لقد خلعت اليوم على فتى ظريف حسن الوجه شجاع وولّيته عملا . فقيل : من هو ، يا أمير المؤمنين ؟ فقال خالد بن يزيد . فقال عَلوية لأحمد المكي : يا أحمد غنّ أمير المؤمنين صوتك فيه ! فأمسك . فقال له المعتصم : ما لك لا تجيبه ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ، ليس هو مما يُغنَّى به في حضرة الخلفاء . فقال المعتصم : لا بدّ أن تغنيه ! فغنّى :

علّم الناسَ خالد بن يزيـــد　　كلّ علم وكل بأس وجُودِ /284/
فترى الناس هيبة حين يبدو　　من قيام ورُكّــع وسُجودِ

فقال المعتصم : أَلقِ هذا الصوت في غد على الجواري . وأمر له بعشرة آلاف درهم .

قال أحمد : غنى أبي يومًا محمد الامين :

فعشْ عمْر نوح في سرور وغبطة　　وفي خطّ عيش ليس في طوله إثْمُ
تساعدك الاقدار فيه وتنثـــني　　إليك ويرعى فضلك العُرْب والعجْمُ

فأمر له الامين بألف دينار انتهى .

كان اسحاق الموصلي أديبًا أريبًا ، نادر الشّكل في وقته ، وله الظُّرف المشهور، ونادم الخلفاء وحُظِي عندهم ، وكانوا يكرّمونه ويقرّبونه .

وكان المأمون يقول : لو لا ما سبَق على ألسنة الناس اسحاق واشتهاره بالغناء لوليته القضاء ، فإنه أولى وأصدق وأعفّ وأكثر دينًا وأمانة من هؤلاء القضاة ، لكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع أنه أصغرها . وكان نديم المأمون ثم المعتصم بعده ونادم الواثق ثم المتوكل .

وقال المتوكل لما مات اسحاق في أيامه : ذهب صدرٌ عظيم من جمال الملك وزينته .

وكان يغنّي بين يدي المعتصم ، فكان المعتصم يقول : إذا غنّاني اسحاق يتخيّل لي أنه قد زيد في ملكي .

وكان له الالحان العجيبة والصناعة الغريبة .

ذكر النويري أنه تلاحى يومًا هو وابراهيم بن المهدي على الصناعة بين يدي المعتصم ، فأخذ عودًا فشوّش أوتاره ثم قال لابراهيم : غنّ /284ب/ على هذا فعجز . فغنى عليه زَرْزُور المغنّي واسحاق يضرب حتى فرغ من الصوت ، فتعجّب المعتصم من ذلك وانكسر ابراهيم ، وقال : والله ما ظننت أنّ مثل هذا يكون أبدًا . فقال المعتصم : ألق هذا على الجواري ! فقال : يعجزن عنه يا أمير المؤمنين ، لأنّ لي سبعة عشر سنة أُروِّض نفسي عليه حتى أتقنته ! فقال صدقت.

ومع هذا كان اسحاق عالما باللغة والاشعار والاخبار وأيام الناس ، كثير الحديث ، روى عن سفيان بن عيينة ومالك بن أنس وهُشيم بن بشير وأبي معاوية الضرير . وأخذ الأدب عن الاصمعي وأبي عبيدة . ولكنه برع في علم الغناء ، فغلَب عليه ونسب اليه ولم يكن له نظير في الدنيا .

قال ابن خلكان : وروى عنه مصعب بن عبد الله الزُّبيري والزبير بن بكار

وغيرهما ، وكانت له يد طولى في الفقه والحديث والكلام . وكان كثير الكتب حتى قال ثعلب : رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب ، كلُّها سماعه ، وما رأيت اللغة في منزل أحد قط أكثر منها في منزل اسحاق ثم منزل ابن الاعرابي . وله شعر حسن وديوان كبير فمن شعره ما كتب به الى هارون الرشيد :

وآمِرةٍ بالبخل قلتُ لها اقْصِري ... فذلك شيءٌ ما اليه سبيلُ
فإني رأيت البخل يُزْري بأهله ... لرقّة نفسي أن يقال بخيلُ
أرى الناس خِلاّن الجواد ولا أرى ... بخيلا له في العالمين خليلُ
ومن خير حالات الفتى لو علمته ... إذا نال خيرًا أن يكون ينيلُ
عطائي عطاءُ المكثرين تكرُّمًا ... ومالي كما قد تعلمين قليلُ /285
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغِنَى ... ورأي أمير المؤمنين جميلُ

قال ابن عساكر : غنّى اسحاق يومًا عند يحيى بن خالد البرمكي ، فوقّع له بمائة ألف درهم ووقّع له ابنه الفضل بمثلها ، وكذلك وقّع له جعفر بمثلها أيضًا .

قال ابن خلكان : وكان قد عمي في آخر عمره قبل موته بسنتين . ومولده سنة خمسين ومائة . وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وخمسين ومائة وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين بعلّة الذّرب . وقيل في شوال سنة وثلاثين ومائتين ، والاوّل أصح .

حُكي أن اسحاق سأل الله عزّ وجل ألا يميته بالقولنج لـمّا رأى من صعوبته على أبيه ، فإنه مرض به فرأى في منامه قائلا يقول له : قد استجبنا دعاءك ولن تموت بالقولنج ، بل بضدّه . فمات اسحاق بالذّرب . وكانت وفاته في خلافة المتوكل .

ورثاه بعض أصحابه بقوله :

أصبح اللهوُ تحت عَفْر التراب ثاويًا في محــــلّة الأحبابِ
إذْ فنى الموصليّ وانقرض الانـ ـس ومُجّتْ مشاهد الإطرابِ
بكت الملهيــات حزنًا عليه وبكاه الهوى وصفوُ الشرابِ
وبكتْ آلة المجــالس حتى زحم العــود ضربه المطرابِ

وقيل إن هذه المرثية في ابراهيم ، والصحيح الاول . انتهى .

وكان من شعراء المعتصم أبو تمام حبيب بن أوس .

قال الخطيب : وهو شامي ، وكان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس الادباء فأخذ عنهم الشعر وتعلّم منهم . وكان فطِنًا فهِمًا ، وكان يحبّ الشعر فلم يزل يعانيه حتى قال : /285ب/ الشعر فأجاد وشاع ذكره . وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه ، وهو بسرّ من رأى ، وعمل فيه قصائد فأجازه المعتصم وقدّمه على شعرائه . وقدِم بغداد فجالس الادباء وعاشر العلماء. وكان موصوفًا بالظُّرف وحسن الاخلاق وكرم النفس . وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر وغيره أخبارًا بسنده .

قال ابن خلكان : كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب ، غير القصائد والمقاطيع وغير ذلك . وكان يقال في طيّء ثلاثة : حاتم في كرمه ، وداود الطائي في زهده ، وأبو تمام في شعره .

وقال (الدرّ 195ب) ابن كثير : وقد كان الشعراء في زمانه جماعة ، فمن مشاهيرهم أبو الشّيص ودِعبَل بن عليّ وابن أبي مرّ . وقد كان أبو تمام من خيارهم دينًا وأدبًا وأخلاقًا . وقد سئل ابراهيم بن العباس : من أشعر الناس ؟ فقال : الذي يقول :

وما أبالي وخيرُ القول أصدقُه حقَنْتَ لي ماءَ وجهي أم حقنتَ دَمِي

فقيل : من هو ؟ قال : الذي يقول :

مطرٌ أبوك أبو أهلّةَ وائل ملأ البسيطة عُدّة وعديدًا

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى نورًا ومن فَلَقِ الصباح عمودًا
ورثوا الابوة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدودًا في العُلا وجدودًا

ذلك أبو تمام الطائي .

وذكر الاغاني أنه قدم عمارة بن عقيل بغداد ، فاجتمع الناس اليه وكتبوا شعره وعرضوا عليه الاشعار ، فقال بعضهم : ههنا شاعر تزعم قومه أنه أشعر الناس ! فقال : أنشدوني شعره . فأنشدوه قصيدته التي يقول فيها :

وطول مقام المرء في الحيّ مُخْلِقٌ /286/ لديباجتيْه فاغترب تتجدَّدِ
ألم تر أن الشّمس زيدتْ محبّة الى الناس إذْ ليست عليهم بسَرْمدِ

فقال : والله هذا أشعر الناس !

ومرّ أبو تمام برجل يقول لآخر : جئت أمس فاحتجبتَ عنّي ! فقال له : السماء إذا احتجبتْ بالغيم رُجِيَ خيرُها . فقال في الحال :

ليس الحجابُ بمُقْصٍ عنك لي أملا إنّ السّماء تُرجّى حين تحتَجِبُ

وتحدّث قوم فذكروا أبا تمام ، فقال دعبل : كان يتتبّع معاني الشعر فيأخذها . فقال رجل : وأيّ شيء أخذ منك ؟ قال : قولي :

وإنّ امرءًا أسدى إليك بشافع اليه ويرجو الشّكر منّي لأحمقُ
شفيعك فاشكر في الحوائج إنّه يصونك عن مصروفها وهو يخلقُ

فقال : وما قال أبو تمام ؟ قال : قال :

فلقيت بين يديك حُلْوَ عطائه ولقيت بين يدي مرّ سؤاله
وإذا امرؤُ أسدَى اليّ صنيعة من جاهه فكأنّها من ماله

فقال : والله لئن كان أخذه منك ، فلقد أجاد وصار أولى به منك .

وخرج أبو تمام الى خالد بن يزيد ، وهو بأرمينية فامتدحه فأعطاه عشرة آلاف دينار ونفقة لسفره ، وقال له : إن أردت الشخوص ففي الدَّعة وإن أردت المقام

عندنا فلك الحِباء والبرّ . فقال : بل أشخص . وودّعه ثم ركب خالد بعد أيام فرآه تحت شجرة وبين يديه زكرة شراب وغلام يغنيه بالطّنبور ، فقال : أبو تمام ؟! قال : نعم ، خادمك /286ب/ وعبدك ! قال : [ما] فعل المال ؟ فقال :

علّمني جودك السّماح فما أبقيت شيئا لدي من صلتك
ما مر شهر حتى سمحت به كأن لي قدرة كمقدرتكْ
تنفق في اليوم بالهبات وفي الساعة ما تجبيه في سنتكْ

فأمر له بعشره آلاف أخرى .

وحدّث أبو عبيدة الرقّي قال : قدم أبو تمام مادحًا للحسن بن رجاء فأنشده حتى بلغ قوله :

عادت لنا أيّامه مسودّة حتى تُوهِّم أنهنّ لياليَ

فقال له : والله لا تسودّ عليك بعد اليوم ! فقال :

لا تُنْكِرَنْ عَطَل الكريم من الغنى فالسَّيْلُ حرْبٌ للمكان العالي
وتَنظَّرَنْ خبَبَ الرّكاب ينصّها مُحْيي القريض الي مُميتِ المالِ

فقام الحسن وقال : والله لا أتممتها الا وأنا قائم . فقام أبو تمام لقيامه ، وقال متمّمًا :

بسط الرجاء لنا برغم نوائب كثُرتْ بهنّ مصارع الآمال
أُغلى عذارى الشعر إنّ مُهورها عند الكرام وإن رخصن غوال
تَرِدُ الظنون بها على تصديقها وتحكم الآمال في الاموال
أضحى سميُّ أبيك فيك مصدَّقا بأجلّ فائدة وأيمن فال
ورأيتني فسألت نفسك سَيْبَها لي ثم جُدْت وما انتظرت سؤالي

وقال : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ! فقال له : والله لو كانت من

الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها ! فأمر له بعشرة آلاف درهم . انتهى . من الاغاني .

وقال ابن كثير : وقد امتدح أحمد بن المعتصم ، وقيل ابن المأمون ، بقصيدته التي يقول فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلمِ أحنفَ في ذكاء إياسِ

فقال له بعض الحاضرين : أتقول هذا للأمير ، وهو أكبر قدرًا من هؤلاء ! فأطرق ساعة ، ثم قال :

لا تنكروا ضَرْبي له مَنْ دونه   مثلاً شرودًا في النّدى والباسِ

فالله ضرَب الأقل لنــــوره   مثلا من المِشكاة والنِّبـراسِ

فلما أخذوا منه القصيدة لم يجرِّروا فيها هذين البيتين ، وإنما قالهما ارتجالا ، فقال بعضهم : لا يعيش هذا بعد هذه الا قليلا . فكان كذلك .

قال ابن كثير : وزعم بعضهم أن هذه القصيدة امتدح بها بعض الخلفاء فأقطعه الموصل ، فأقام بها أربعين يومًا وليس هذا بصحيح ، وإن كان قد لهج به بعض الناس كالزمخشري وغيره . انتهى .

قال ابن خلكان : ورأيت الناس مطْبِقين على أنه مدح الخليفة بقصيدته السيفيّة المذكورة ، فقال الوزير للخليفة : أي شيء طلبه فأعطه إياه ، فإنه لا يعيش أكثر من أربعين يومًا ، لأنه قد ظهر في عينه الدم من شدة الفكرة ، وصاحب هذا لايعيش أكثر من هذا القدر ! فقال له الخليفة : ما تشتهي ؟ فقال: أريد الموصل . فأعطاه إياها و بقي هذه المدة ومات . وهذا لا صحة له أصلا ، لأن هذه القصيدة ما هي في أحد من الخلفاء بل مدح بها أحمد بن المعتصم أو أحمد بن المأمون ، ولم يل أحد منهما الخلافة . انتهى .

وأورد ابن عساكر من شعره الرائق ونظمه الفائق :

فلو كانت الأرزاق تجري على الحِجَى هلكْنَ إذًا من جهلــــــهنّ البهائمُ
ولن يجتمع شرقٌ وغربٌ لقاصــــدٍ ولا المجدُ في كفّ امـرىء والدراهمُ/287ب/

وأورد له ابن كثير أيضًا قوله :

يا حليف النّدى ويا توْم المجد ويا خير من حبَوْتَ القـريضَا
ليت حماك بي وكان لك الدّ هرَ فلا تشتكي وكنت المريضَا

وتوفي أبو تمام رحمه الله بالموصل في ذي القعدة ، وقيل في جمادى الاولى سنة ثمان وعشرين . وقيل في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . ومولده سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وقيل غير ذلك ، كذا ذكر ابن خلكان .

قال البحتري : وبنى عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة . وحكى الصولي أنّ ابن الزيات الوزير رثاه بقوله :

نبأ أتى من أعظم الأنبـــاء لما ألّمّ مغلغـــل الأحشاء
قالوا حبيب قد ثوَى فأجبتهم ناشدتكم لا تجعلوه الطّائي

وقال الحسن بن وهب ، وقيل ديك الجنّ :

فُجع القريض بخاتم الشّعراء وغدير رونقها حبيبِ الطائى
ماتا معا فتجاورًا في حفـرة وكذلك كانا قبلُ في الأحـياء

وقد جمع الصولي شعر أبي تمام على حروف المعجم .

وكان أبو تمام أسمر طويلا فصيحًا ، حادّ الكلام فيه تمتمة يسيرة . كذا ذكر ابن خلكان .

وأبو تمام هو حبيب بن أوس بن الحارث ، وينتهي نسبه الى طيء ثم الى يعرب ، وقيل هو حبيب بن أوس بن تدرُس النصراني ، فتغيّر وصار أوْسًا ومنشؤه بقرية منبج ، يقال له جاشم .

قال ابن خلكان : والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام أن أباه كان نصرانيًا من أهل جاشم المذكورة يقال له تدرس العطار ، فجعلوه أوسًا .

وذكر ابن عساكر /288/ أنّ أبا تمام هو الذي يسمّى أباه أوس ، وكان اسمه تدرس . وأصله من قرية جاشم ، من عمل الشام ، بالقرب من طبرية . وكان بدمشق يعمل عند حائك ، ثم صار الى مصر . اهـ .

وذكر بعضهم أنّ جاسم ، بفتح الجيم وبالسين المهملة اسم قرية من بلد الجَيْدور ، من أعمال دمشق ، وهي بين دمشق وطبرية ؛ والجيدور بفتح الجيم وسكون الياء وضمّ الدال إقليم من أعمال دمشق مجاورٌ الجولان . انتهى .

ذكر في عيون المعارف ، أنّ المعتصم كان شجاعًا عظيمًا ، وله قوة وشدة في بدنه حتى أنه كان يحمل ألف رطل ويمشي به خطوات .

وروي عن ابن أبي دؤاد القاضي أنه قال : ربّما أخرج المعتصم ساعده وقال لي : عُضّ يا أبا عبد الله بكلّ ما تقدر عليه ! فأقول : إنه لا تطيب نفسي ، يا أمير المؤمنين ! فيقول : إنه لا يضُرّني ! فأعُضّ بكلّ ما أقدِرُ عليه ، فلا يؤثر ذلك في يده .

وقال في تحفة الالباب ، مرّ يومًا في خلافة أخيه بمخيّم الجند ، فإذا امرأة تقول : ابني ابني ! فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : أخذه صاحب هذه الخيمة ! فجاء اليه المعتصم ، وقال له : اطلقْ هذا الصبي . فأمتنع عليه ، فقبض على جسده بيده فسُمع صوت عظامه تحت يده ، ثم أرسله فسقط ميتًا ، وأمر بإخراج الصبيّ الى أمه . وكان إذا غضب لا يبالي ما فعل . اهـ.

وحكى أنّه انفرد عن أصحابه في يوم مطر ، فبينما هو يسير إذ رأى شخصًا معه حمار عليه حِمل شوْك وقد توحّل الحمار /288ب/ فوقع الحمل بين يديه وهو ينظر من يمرّ به ويساعده على ذلك . فنزل المعتصم عن دابته ، وخلّص الحمار ورفع الحمل عليه ، ثم لحقه أصحابه . فأمر لصاحب الحمار بأربعة آلاف

درهم . كذا ذكر المؤيد .

وكان يصيد السبّاع بيده ويلوي في أعناقها أعمدة الحديد أطواقًا ، ثم يُطلقها ، ويصيد حمر الوحش فينعلها ويطلقها أيضًا ؛ فلقّب بسبب ذلك بالسبّاع والبيْطار . ولقّب أيضًا بالمثمّن ، وذلك لأوجه : **أوّلها** ، أنّه ثامن الخلفاء من بني العباس ؛ **والثاني** ، أنّه الثامن من ولد العباس ؛ **والثالث** ، أنّه دخل بغداد في مستهلّ رمضان سنة ثماني عشرة بعد إكمال ثمانية أشهر من السنة ؛ **والرابع** ، أنه استخلف في شعبان وهو الثامن من السنة ؛ **والخامس** ، أنه ولد سنة ثمان وسبعين ومائة في شعبان أيضًا ؛ **والسادس** ، أنّه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون عامًا ؛ **والسابع** ، أنّه أقام في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وقيل يومين ؛ **والثامن** أنّه خلّف ثمانية بنين وثماني بنات ؛ **والتاسع** ، أن له ثمانية آلاف ألف درهم ومثلها دنانير ؛ **والعاشر** ، أنّ له ثمانية آلاف غلام ؛ **والحادي عشر** ، أنه خلف ثمان آلاف دابة ؛ **والثاني عشر** ، أنه فتح ثمان فتوحات ببلاد بابل على يد الافشين وعمورية بنفسه والزطّ بعُجيف ، فإنه انتصر عليهم وجاءه بسبعة وعشرين ألفًا من الزطّ بالامان ، فدخلوا بغداد في يوم عاشوراء من سنة عشرين ومائتين ثم نفاهم الخليفة المعتصم عن بغداد فأخذتهم /289/ الروم عن آخرهم ، ولم يفلُت منهم أحد فكان آخر العهد بهم . وغزا أعراب ديار ربيعة والتاتار وفتح مصر بعد عصيانها ؛ **والثالث عشر** أنه قتل ثمانية أعداء ، بابك الخرمي ، ومازيار ، وصاحب عمورية ياطس ، ورئيس الزنادقة ، والافشين وعجيف المذكورين ، وقارن ، وقائد الرافضة . اهـ . كذا ذكر العسقلاني في تاريخه .

وخرج عليه رجل من آل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقال له القاسم بن محمد ، فظفر به على يد عامله عبد الله بن طاهر . فأمر المعتصم بحبسه . فحبس في مكان ضيق ، طوله ثلاثة أذرع في ذراعين . فمكث به ثلاثة أيام ثم حوّل الى أوسع منه وأجرى عليه الرزق ومن يخدمه . فلم يزل محبوسًا هنالك

الى ليلة عيد الفطر ، فاشتغل الناس بالعيد فأُدلي له حبل من كوّة كان يأتيه الضوء منها فخرج وذهب ولم يُدْر كيف ذهب ولا الى أين صار من الأرض .

وكان خروجه بالطالقان سنة تسعة عشرة ومائتين .

وخرج عليه آخر بالشام ، يقال له أبو حرب المبرقع اليماني ، من أهل الغور . فخلع الطاعة ودعا الى نفسه . وسبب خروجه أنّ رجلا من الجند أراد أن ينزل في منزله وكان غائبًا ، فمنعته المرأة فضربها الجندي فأثّرت الضربة في معصمها . فلمّا جاء زوجها أبو حرب أخبرته ، فذهب الى الجندي فقتله ثم تحصّن في رؤوس الجبال وهو مبرقع ، فدعا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وذم السلطان . فتجمّع عليه خلق كثير نحو مائة ألف مقاتل ، واستفحل أمره فجهّز اليه المعتصم الامير رجاء بن أيوب ، فلم يزل يطاوله الى أن أمكنته الفرضة /289ب/ فناهضه ، فأسره وانهزم جيشه فسَرّ ذلك المعتصم وشكر رجاء بن أيوب على فعله . وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين ، كذا ذكره النويري .

والمبرقع هذا هو غير المقنع الذي كان على عهد المهدي ، وأنّ المقنع يقال له عطاء الخراساني ، وكان قصّارًا من أهل مرو في ابتداء أمره ، وكان مشوّه الخلق أعور قصيرًا ، فاتخذ وجهًا من ذهب وتقنّع به ، فكان لا يُسفر عن وجهه ، ثم ادّعى الربوبية وكان ساحرًا ، خَيّل للناس صورة قمر يطلعُ ويراه الناس من مسافة شهرين . والى هذا القمر أشار ابن سناء الملك بقوله :

إليك فما بدرُ المقنّع طالعًا بأسحر من ألحاظ بدري المعمّمِ

وكان المقنع يقول ، إنّ الله عز وجلّ حَلّ في آدم ، ثم في نوح ، ثم في نبيء بعد آخر ، حتى حلّ فيه ! تعالى الله عن ذلك .

وأطاعه جماعة كبيرة في كفره . وعمّر قلعة تسمّى سنام فيما وراء النهر وتحصّن بها ، فاجتمع المسلمون وحلّقوا بها وحاصروه الى أن ضاق أمره فسقى نساءه سُمّا فمتن ثم تناول منه فمات . ودخل المسلمون قلعته وقتلوا من بها من

أشياعه وكان ذلك سنة ثلاث وستين ومائة في خلافة المهدي ؛ وأمّا المبرقع ، كان في خلافة المعتصم ، كذا ذكره المؤيد . انتهى .

قال في سراج الملوك : كان المعتصم ذا بأس وشجاعة وشدّة في جسمه ثم أنكر نفسه وقوّته . فذكر أحمد بن أبي دؤاد ، وكان به أنيسًا ، أن المعتصم لـمّا أنكر نفسه وقوّته دخلتُ /290/ عليه يومًا وعنده ابن ماسويه ، فقال : لا تبرح حتى أخرج اليك ! فقلت ليحيى بن ماسويه : ويلك ، إني أرى أمير المؤمنين قد حال لونه ونقصت قوته وذهبت صورته ، فكيف تراه ؟ قال : هو والله زُبْرة من زُبر الحديد إلا أنّ في يده فأسًا يضرب به تلك الزبرة . قلت له : وكيف ذلك ؟ قال : كان قبل هذا إذا أكل السمك اتخذنا له صباغًا من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل والجوز ، فيأكل ذلك الصباغ فيدفع أذى السمك وإضراره بالعَصَب ؛ وإذا أكل الرؤوس اتخذت له أصباغًا تدفع أذاها وتلطّفها ؛ وكان في أكثر أمره يلطّف غذاءه بمشورتي . فصار اليوم إذا أنكرتُ عليه شيئا خالفني وقال آكُلُ هذا على غيظ ابن ماسويه . فما أقدِرُ ما أصنع !

قال ، وكان المعتصم خلف السرير يسمع ما نحن فيه . فقلت له : ويلك يا يحيى ، ادخل في عينه ! قال : جُعلت فِداك ، لا أقدر أردّه ولا أجترىء عليه في خلاف . فلمّا فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم ، فقال لي : ما الذي كنتَ فيه مع ابن ماسويه ؟ قلت : ناظرته يا أمير المؤمنين في لونك الذي أراه حائلا ، وفي قلّة طعمك الذي قدّ جوارحي وأنْحل جسمي . قال : فما قال لك ؟ قلت : شكا أنّك لا تقبل منه ما يشير عليك به ، وكنت ترى في ذلك ما يحبّ وأنّك الآن تخالفه . قال : فما قلت أنت له ؟ فجعلتُ أُحرّف الكلام ، فضحك وقال : هذا بعد ما دخل في عيني أو قبل ذلك ؟ قال فتصبّبتُ عرقًا وعلمت أنّه قد علم ما قلت /290ب/ وما كنّا فيه ورأى ما قد داخلني . فقال : يغفر الله لك يا أحمد ، لقد فرِحت بما ظننت أنّه أحزنك ، إذ سمعته وظننته أنه نوع من الانبساط والانس . انتهى . منه .

وكان المعتصم طيب الاخلاق ، ذا همة عالية ، وشهامة عظيمة ، وكرم زائد وله رحمة وشفقة على الرعايا ، كذا ذكر الخطيب وغيره ، الاّ أنّه كان أُميًّا لا يُحسن الكتابة ، ذكر هذا العسقلاني .

وقال الخطيب : إنه كان يكتُب ويقرأ قراءة ضعيفة .

وروى الصولي ، عن محمد بن سعيد عن ابراهيم بن محمد الهاشمي قال : كان المعتصم غلامًا في الكُتّاب ومعه غلام له يتعلّم معه ، فمات الغلام . فقال له الرشيد : يا محمد مات غلامك ! قال : نعم ، واستراح من الكُتّاب ! فقال الرشيد : وإن الكتّاب بلغ بك هذا المبلغ فلا تذهب اليه واسترح منه . وفي رواية: وإن كان الكتاب ليبلُغَ منك هذا ، دعوه لا تعلمّوه .

وقال ابن خلكان : إنه روى الحديث عن أبيه وأخيه المأمون ، وروى عنه اسحاق بن ابراهيم الموصلي وحمدون بن اسماعيل وآخرون . وكان ذا شجاعة وقوة وهمة ، وكان عُريا من العلم . وأسند الخطيب البغدادي من طريقه عن آبائه حديثين منكَرَيْن ، أحدهما في ذم بني أمية ومدح بني العباس من الخلفاء ، والثاني في النهي عن الحِجامة يوم الخميس . انتهى .

تقلب أحوال وانقضاء آجال

قال بعضهم : ولـمّا آن المعتصم أوان حِمامه ، وانقرضت أيامه ، أنكر ما كان يعهده من نفسه وقوة جسمه الى أن مات /291/ رحمه الله .

قال اليافعي : كان سبب موته أنه وقع له صُداع ، فدخل الحمّام واغتسل ، ولـمّا خرج منه غلّف رأسه بدهن الغالية ، وقطّره في أذنيْه ، ونام ، فوَرِمَ دماغه . فمات لثمانية أيام . وسنّه ثمانية وأربعون سنة .

قيل إنه لما حضرته الوفاة جعل يقول : «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة» . وقال : لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت ! ويقال إنه قال في مرض موته : اللهم إني أخافك من قِبَلي ولا أخافك من قِبَلك ، وأرجوك من

قِبلك ولا أرجوك من قِبلي .

قال ابن كثير : توفي المعتصم بالله بسامرّاء يوم الخميس لتسع عشر خلت من ربيع الاول سنة سبع وعشرين ومائتين . ومولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة . وقال غيره لعشر خلون من رمضان سنة ثمانين . وقيل سنة ثمان وسبعين . وقال : توفي لثماني عشرة مضت من ربيع الاول بسامرّاء ، وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ويومين . وكان مولده سنة سبع وسبعين ومائة . وفي تاريخ العسقلاني : وله من السنين على حساب مولده في قول ستة وأربعون سنة وستة أشهر وستة أيام . وفي قول ثمانية وأربعون سنة وستة أشهر وتسعة أيام . وصلّى عليه ابنه هارون الواثق بالله ، ودفن بالجوسق الكبير . وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام . اه .

وكان أبيض ، أصهب اللحية طويلها ، مربوعًا مشوب اللون بحمرة .

وكان نقَش على خاتمه «سلِ الله يعطيك» /291ب/ .

وفي عيون المعارف ، نقشه «الله ثقة أبي اسحاق بن الرشيد وبه يؤمن» . وكان حاجبه وصيف التركي مولاه ، ثم محمد بن حماد . وقيل وصيف ومعه ايتاخ التركي . ووزيره الفضل بن مروان ، ثم أحمد بن عمار ، ثم محمد بن عبد الملك بن الزيات . اه .

ورثاه ابن الزيات الوزير بقوله :

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطفقت ... عليك أيدي التّراب والطين
اذهبْ فنعم الحفيظ كنتَ على ... الدنيا ونعم الظّهيـر للدّين
لا أجبر الله أمة فقـــدت ... مثلك الاّ بمثل هـــارون

وخلف المعتصم بالله ستة عشر ولدًا ، ثمانيةً بنات وثمانِ ذكور ، منهم هارون الواثق ولي عهده من بعده ، وجعفر المتوكل ، ومحمد أبو المستعين . واستخلف بعده الواثق .

الباب الخامس
في
دولة أمير المؤمنين
أبي جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بالله

وهو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن أبي اسحاق محمد المعتصم بالله بن أبي جعفر هارون الرشيد الهاشمي العباسي ، وأمّه أمّ ولد رومية ، يقال لها قراطيس . وكان عالـمًا جيّد الشّعر ، شجاعًا مهيبًا صابرًا ، فيه شهامة وجبروت. وكان مليحًا أبيض يعلوه اصفرار ، حسَن اللحية ، وفي عينه نكتة بياض ، كذا حكاه الهمداني في تاريخه .

قال ابن كثير : بويع له بالخلافة يوم الاربعاء لثمانية عشر خلون من ربيع الاول سنة سبع وعشرين ومائتين قبل أن /292/ مات أبوه بيوم . وذكر النويري يوم الخميس لثماني عشرة ليلة مضت من ربيع الاول من هذه السنة في اليوم الذي مات فيه أبوه المعتصم ، ولعلّهما بيعتان ، بيعة خاصة وبيعة عامة . وذكر ابن كثير أيضًا أنّ أمّه أم ولد كما ذكرنا ، ويقال لها قراطيس ، قصدت الحج فتوفيت بالحيرة ، لأربع خلون من ذي القعدة من هذه السنة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى . انتهى .

مطارحة

قيل كان الواثق حسن العبارة بديع الالفاظ ، ذا ذكاء وفطنة ، متحليًا بمحاسن الآداب .

قال بعضهم : ومما ينال به الخامل أعلى الرتب التحلّي بأنواع جواهر الأدب . وهو نوعان نفسي وكسبي ، فالنفسي ما كان من محاسن الافعال الدالة على كرم الطباع ؛ والكسبي ما استفادته النفس من أحاسن الاقوال الآخذة بأعنة القلوب والاسماع ، وهو المراد في هذا الموضع ليقع ذكره في النفس أحسن موقع . انتهى .

قيل إنّ الواثق بالله قال يومًا لأحمد بن أبي دؤاد : يا أبا عبد الله ، ما أحبّ الـيّ علم البيان ؟ فقال له القاضي ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين قال الله تعالى : «الرّحمن علّم القرآن خلق الانسان علّمه البيان» وقال عليه السلام : «إنّ من البيان لسحرًا». وقال الجاحظ : البيان ، اسم جامع لكلّ كلام كشَف لك عن قناع الغيّ وهتَك الحجاب عن الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقة اللفظ /292ب/ ويهجم على محصوله كائنًا ما كان . فقال الواثق : قيل لجعفر بن يحيى البرمكي : ما البيان ؟ فقال : أن يكون اللفظ محيطًا كاشفًا عن معناك ، فقال آخر : البيان ما كان مطرَّحًا عن المعنى يُسرع الى الفهم تلقّيه ، وموجزًا ليخفّ على اللسان تعاهده . فقال ابن الزيات الوزير : يا أمير المؤمنين ، مما ورد عن جهابذة هذا الميدان في مدح موهبة الفصاحة والبيان : البيان ترجمان القلوب وصقيل العقول . وقال سهل بن هارون : البيان ترجمان العقول وروض القلوب . وقال بعض الاعراب لولده : عليك بالفصاحة في منطقك ، فإنها مع صواب لفظك كالريش البهتيّ في حُسْن الصورة . ويقال : من عرف بفصاحة اللسان لحَظتْه العيون بالوقار . وقال هشام بن عروة : ما أحدّث الناس مروءة أعجب اليّ من الفصاحة ؛ وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه السلام على مصر ، وملك زمام الامور وأطلعه ملِكها على الجليّ من أمره والمستور . فإن العزيز لـمّا رأى فصاحة لسانه وحسن بيانه أعلى مكانه وأعظم شأنه . ومما يتميّز به الانسان فصاحة المنطق وذلاقة اللسان .

فقال له الواثق : أحسنت يا أبا عبدالله !

ومن هذا ما قاله بعض الحكماء : إنّ حدّ الانسان الحيوانُ الناطق ! وقالوا : الصمت منام والنطق يقظة . وقال عبد الملك بن مروان : الكلام قاض يحكم

بين الخصوم ، وضياء يجلو الظّلوم ، حاجة الناس الى /293/ موادّه كحاجتهم الى موائد الاغذية . ويقال : حدّ الانسان أنه ناطق ، فمن كانت رتبته في النطق أبلغ كان بالانسانية أحقّ .

وقيل لبعض الحكماء : أيّما أفضل الصمت أو النطق ؟ فقال : إنّ الله بعث الانبياء بالنطق ، وما عبّرتَ به عن شيء فهو أفضل . قال الشاعر :

خُلق الانسان لنطقه وكلامه   لا للسّكوت وذاك حظ الأخرسِ
فإذا نطقت فكن مجيبًا سائلا   إنّ الكلام يُزين ربّ المجلسِ

وقالوا : اللسان إذا كثرت حركته راقت عذوبته وكثرت بلاغته . وقال خالد بن صفوان : ما الانسان لو لا اللسان الاّ صورة ممثّلة أو بهيمة غير ممتثلة ! وقال بعض البلغاء : مفرش الكلام القلب ومزارعه الفكر وقيمته العقل وزهرُه الإعراب وثمره الصواب وجانيه اللّسان .

ومما شرُف به اللسان من خصائص الاحسان أنّ الله تعالى رفع قدره على سائر الاعضاء فأنطقه بتوحيده وألهمه لتمجيده .

وقالوا : اللسان جوهر الانسان من خصائصه أداة تظهر البيان وظاهر يخبر عما بطن في الجَنان ، وحاكم يفصِل بالخطاب ، وناطق يردّ الجواب ، وواصف تُعرف به الاشياء ، وواعظ ينهى عن الفحشاء ، وشاهد يسأل به عن الغائب ، وشافع تدرك به المطالب ، وموفّق يلهى الخاطر ، ومؤنس يزيل وحشة النافر ، ومعين تسكُن به علة الخليل ، ومزين يدعو الى الحليل ، وزارع ينبت /293ب/ الوداد ، وحاصد يُذهب الضغائن ، والاحقاد .

فائدة : ما تقدم من قوله ﷺ : «إنّ من البيان لسحرًا» .

أُصل هذا الحديث أن عمرو بن سنان بن الاهتم بن سُميّ التميمي المنقري وفَد على النبيء ﷺ هو والزبرقان بن بدر فأسلما . وكان عمرو بن سنان الاهتم المذكور من أكابر سادات بني تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية

والاسلام، وكان بليغ القول، طلق العبارة؛ وكان يُدعى المكحول لجماله. ولـمّا أسلم هو والزبرقان كان النبيء ﷺ يكرمهما، فسأل يومًا عمروا عن الزبرقان، فقال: مطاع في أذنيه، شديد العارضة في قومه، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر من ذلك، ولكنه حسدني. فقال عمرو: أما والله إنه لزمِر المروءة، ضيّق العَطن، لئيم الخال، أحمق الولد؛ والله يا رسول الله ما كذبت في الاولى ولقد صدقت في الثانية. ولكنني رجل رضِيت فقلت أحسن ما علِمت وغضبت فقلت أقبح ماعلمت! فقال عليه السلام: «إنّ من البيان لسحرًا».

واختلف في معنى الحديث، فقال قوم أريد به المدح، فإن البيان الفهم وإنما سمي سحرًا لحدّة علمه وسرعة قبول القلب له والتعجّب له كما يُتعجّب للسحر. وقد اتفق الناس على أنّ تصوير الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق من أعلى درجات البلاغة.

وقال قوم: أريد به الذم لأن السِّحر تمويه، والبيان كثرة الكلام والنفاق /294/ واحتجوا بقوله عليه السلام: الحياء والعِيّ شعبتان من الايمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق. والاول أصح. وإنما سمى البيان ههنا نفاقًا إذ كان من البذاء.

وحكي العتابيّ أن الاحنف وعمرو بن الاهتم المذكور وفدا على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. فأراد أن يقرّع بينهما في الرئاسة، فلمّا اجتمعت بنو تميم قال الاحنف:

ثوى قدح عن قومه طول ما ثوى   فلما أتاهم قال قوم تناحروا

فقال عمرو: إنا كنا وأنتم في دار جاهلية، وكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكْنا دماءكم وسبينا نساءكم؛ واليوم في دار اسلام والفضل فيها لمن حلِم فغفر الله لنا ولك. فغلب يومئذ عمرو على الاحنف، ووقعت القرعة على آل الاهتم.

فقال عمرو بن الاهتم :

ولما دعتني للرئاسة منقــــر لدى مجلس أضحى به النّجم باديًا
شددتُ لها أزْري وقد كنتُ قبلها لأمثالها قِدْمًا أشــــد إزاريًا

وكان له شعر جيّد في أعلى طبقاته ، من ذلك قوله :

ومستنبَح بعــد الهدوّ دعــوته وقد حان من ساري الشتاء طروق
يعالج عرنيــنًا من الليل مــاردًا يلفّ رياح ثــوبه ويـــروق
أُصغت فلم أُفحـش عليه ولم أقـل لأُخْرِمَهُ إنّ المكان مضـيق
وقلت له أُهلا وسـهلا ومرحـبًا فهــذا مبيت صالح وصـديق
وقمت الى البُزْل الهـواجد فآتقت مفاخــيذ لوم كالمجــادل روق
بأدماء مرباع النّتــاج كأنــها إذا عـرضت دون العشـاء رقيق /294ب
فقام اليها الحـازران فاعلمـوا يطيران عنها الجلد وهي تفـوق
فخرّ إلينا ضرعــها وسنامــها عشاء سمين واهن وعبـــوق
وكلّ كريم يتّقــي الدم بالقـرى وللخير بين الصالحين طـريق
لعمرك ما ضــاقت بلاد بأهـها ولكن أخلاق الرجال تضـيق
نمتني عـروق من زُرارة للعُلى ومن فدكي والاشد عـروق
مضاريب يجعلن الفتى في أرامة بقاع وبعض الوالدين دقيق

وقوله :

وذي لوثة سها الرّقاد بعينــه فقام رخيم الصوت ألوث فاتر
فقلت له كمش ثيابك فارتحـل ولا يتك ذل السرى والهواجر
إذا ما نجوم الليل صارت كأنها هجائن يطلعن الفلاة صوادر
شافية الا سهيل كأنه فنيق علا عن شولة وهو جافر

وقوله وهو أحسن ما قيل للمتقدّمين في معناه :

تطارحني يوم جيّد وليلُه   هما أبليا جسمي وكل فتى بالي
إذا ما سلخت الشهر أهللت بعده   كفى قائلا سلخي الشهور وإهلالي

وكان عمرو بن الاهتم ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وقال فيها : لو كان العقل يُشترى ما كان شيء أنفس منه ، فالعجب ممن يشتري الحمق بماله ، فيدخله في رأسه فيفتق ما في جيبه ويسلخ /295/ ما في ذيله . وكان يقول أشجع الناس من ردّ جهله بحلمه . وكانت وفاته سنة سبع وخمسين . انتهى .

قيل إنّ الواثق كان في جلسائه وندمائه وبين يديه جارية تغنّي فغنّت بين يدي الواثق الى أن قالت :

أظلومٌ إن مصابكم رجلا   ردّ السلام تحية ظلمُ

فاختلف من بحضرة الواثق في إعراب هذا البيت ، وهل يكون رجلا مرفوعًا أو منصوبًا ، وبم نُصب ؛ والجارية مصرّة على أنّ شيخها أبا عثمان المازني لقّنها إياه بالنصب . فأمر الواثق بإشخاص أبي عثمان .

قال أبو عثمان ، فلمّا مثُلت بين يديه قال الواثق : ممن الرجل ؟ قلت : من مازن . قال : من أيّ مازن ، أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة . فكلّمني بكلام قومي ، وقال : ما اسبك ؟ لأنهم يقلبون الهمزة باء والباء ميمًا ؛ قال فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر ، إذا قلبت اسمي . فقلت : بكر ، يا أمير المؤمنين ! ففطن لما قصدته ، فأعجب به فقال : على مَ نصب «رجلا» في البيت ؟ فقلت لانه معمول بالمصدر ، وهو مصابكم ، لانه في معنى إصابتكم . فأخذ اليزيدي يعارضه ، فعلاه المازني بالحجة ثم قال له الخليفة الواثق : هل لك من ولد يا أبا عثمان ؟ قال ، قلت : نعم بُنية يا أمير المؤمنين . قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ قلت : أنشدت قول

الاعشى : «أيا أبتا لا نذم عندنا» /295ب/ قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت لها قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنّجاحِ

فقال : على النجاح إن شاء الله تعالى ! ثم أمر لي بألف دينار ، وردّني مكرمًا .

قال المبرد ، لما عاد أبو عثمان الى البصرة قال لي : كيف رأيت يا أبا العباس ، ودنا لله مائة فعوّضنا ألفًا !

وأصلُ هذا ما روى المبرد ، أنّ بعض أهل الذمّة قصد أبا عثمان المازني ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار في تدريسه إياه ، فأمتنع أبو عثمان من ذلك قال المبرّد ، فقلت له : جُعلت فداك أتردّ هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟! فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على كذا وكذا آية من كتاب الله عزّ وجلّ ، فلست أرى أن أمكن ذمّيا [منه] غيرة («دنيا غيره») على كتابه عز وجل فحميته له .

وكان المازني في غاية الورع والدين . قال أبو جعفر الطحاوي الحنفي سمعت القاضي بكار بن قتيبة قاضي مصر يقول : ما رأيت نحويًا قط يشبه الفقهاء الاّ حيان بن هلال والمازني ، يعني أبا عثمان المذكور .

واسمه بكر بن محمد بن عثمان . وقيل عدي بن حبيب المازني البصري النحوي . كان إمام عصره في النحو والادب ، أخذ الادب عن أبي عبيدة والاصمعي وأبي زيد الانصاري وغيرهم ، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وبه انتفع وله عنه روايات كثيرة وللمازني تصانيف منها كتاب ما يلحن فيه العامة ، وكتاب الالف واللام /296/ وكتاب التصريف وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الديباج . وتوفي المازني بالبصرة سنة تسع وعشرين ومائتين ، وقيل سنة ستّ وثلاثين ومائتين . كذا ذكر ابن كثير . انتهى .

قيل : إنّ الواثق بالله كان كامل العقل كثير الحِلم حسن الخلق . حكي أنّه كان إذا شرب ينام في موضعه الذي شرب فيه ، فشرب ليلة فنام فخرج كلّ من كان في المجلس الاّ مُغن أظهر التناوم وبقي بعد الخارجين فتُرك . وكانت مغنية بين حظايا الخليفة الواثق جالسة في المجلس ، فلمّا خلا المجلس كتب المغني أبياتًا في ورقة ورمى بها الى الجارية ، فأخذتْ الورقة ونظرت اليها ، فإذا فيها مكتوب هذه الابيات :

إني رأيتكِ في المنام ضجيعتي   مُترشِّفًا من ريق فيكِ البارِدِ
وكأن كفّك في يـدي وكأننا   بتنا جميعًا في فـراش واحدِ
ثم انتبهتُ ومنكباك كلاهـما   في راحتي وتحت خدّك ساعدي

فلمّا قرأتْ الابيات كتبتْ على ظهرها هذه الابيات :

خيرًا رأيـتَ وكلّما أمّلتَـه   ستنالُه منّي برغم الحـاسدِ
وتبِيتُ بين خلاخلي ودَمالجي   وتحِلّ بين مراسفي ومجاسدي
ونكون أوّلَ عاشقين تعاطيًا   حُسْن الحديث بلا مخافة راصدِ

وجعلت تمدّ الورقة الى المغنّي ، فرفع الواثق رأسه ورآها تمدّها ، فأخذها من يدها وإذا فيها خطّاهما ، فقرأ الابيات من الجانبين فقال : ماهذا ؟ فحلفا له أنهما لم يجر /296ب/ بينهما هذا الكلام ولا كتاب ولا رسول إلاّ أنّ الخمر قد لعب بينهما . فأطرق الواثق مليًا وهو يتأمل ، ثم أعتقها من وقتها وزوّجها له ؛ وقال له : لا تقْربَنا بعد هذا اليوم ! وهذا مما يدلّ على حلمه ، وكمال عقله ، وحسن تدبيره العواقب ، رحمة الله تعالى عليه . انتهى .

حكي أنّ الواثق كان على مذهب أبيه المعتصم وعمّه المأمون في القول بخلق القرآن ، وبالغ في التشديد على منكر ذلك وامتحانه . ذكر بعضهم أنّه كانت معاداة بين الروم والمسلمين في أيام الواثق على يد خاقان الخادم ، وكان ذلك عند سلوقية بالقرب من طرسوس ، فجعل بدل كلّ مسلم أو مسلمة في أيدي

الروم أو ذمّي أو ذمّية ممن تحت عقر الاسلام وهو في أسر الروم أسيرًا من الروم الذي في يد المسلمين ، فنصبوا لذلك جسرين على نهر اللامس . ووقف كلّ فريق عند جسر منهما ، فإذا أرسل الروم رجلا أو امرأة من جسرهم وانتهى الى المسلمين كبّر وكبّر المسلمون ، ويرسل المسلمون أسيرًا من الروم بدله فيذهب الى قومه فإذا انتهى الى جسرهم تكلّم بكلام يشبه التكبير . ولم يزالوا كذلك مدّة أربعة أيام ، وهم يجعلون بدل كلّ نفس نفس الى أن استوفى عدد من في أيدي الروم من المسلمين . وبقيت مع خاقان المذكور جماعة مساكين من أسارى الروم ، فأطلقهم خاقان للروم ليكون له الفضل عليهم .

ولـمّا تمّ الصلح والمفاداة سار خاقان /297/ الخادم الى الواثق ، فقدم اليه بمن معه من الأسارى ومعه أيضًا جماعة من أهل الثغور من رؤسائهم وأعيانهم ، فأمر الواثق بامتحانهم في القول بخلق القرآن ، وأنّ الله عزّ وجل لا يُرى في الآخرة ؛ فأجابوا الى ذلك الاّ أربعة منهم . فأمر الواثق بضرب أعناقهم إن لم يجيبوا الى ذلك كما أجاب بقيتهم ، ثم أمر بامتحان الاسارى . فمن أجاب الى القول بخلق القرآن ومنع الرؤية فُدي وإلاّ يُترك في أيدي الكفار . وهذه بدعة لم ير غيره أخرجها بلا دليل ولا برهان .

وكان الواثق قد استقدم جماعة من أهل مصر الى بغداد ليمتحنهم في ذلك . وكان منهم أبو يعقوب يوسف ين يحيى البويطي ، منسوب الى بويط قرية [من] قرى مصر .

وكان البويطي من الصالحين ، فقيهًا عالمًا لطيفًا فاضلا جليل القدر ، وهو ممن صحب الشافعي في كِبر سنه وأخذ عنه ، وكان الشافعي استخلفه في حلَقته . وكان يُدني الغرباء ويقرّبهم إذا قدموا للطَّلَب ويعرّفهم فضل الشافعي وفضل كتبه حتي كثر الطالبون للشافعي ، فحسده ابن أبي الليث الحنفي ، قاضي مصر على فضله ، وعاداه . وأخرجه فيمن أخرج الواثق للمحنة في القرآن العزيز ، فسجنه الواثق الى أن مات في حبسه لامتناعه من ذلك .

قال الربيع بن سليمان : رأيت البويطي على بغل ، في عنقه غلّ ، وفي رجله قيد ، وبين الغلّ والقيد سلسلة من حديد وفيها طوبة وزنها أربعون رطلا وهو يقول : إنما قال الله تعالى للخلق كن ، فإذا كانت «كن» مخلوقة فكأنّ مخلوقًا خلَقَ مخلوقًا ، فوالله لأموتَنّ في حديدي /297ب/ حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في الشأن قوم في حديدهم ، ولئن أدخلت عليه لأصدقنّه ، يعني الواثق . اهـ .

ومات البويطي في السجن يوم الجمعة قبل الصلاة في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين . انتهى ، كذا ذكر ابن خلكان والمؤيد وغيرهما .

وكان الواثق بالله إنما بالغ في التشديد على منكر خلق القرآن برأي ابن أبي دؤاد القاضي ، فإنه قد استولى على الواثق وحمله على ذلك . وكان ابن أبي دؤاد شيخًا في الاعتزال ، وهو أحد من أضلّ الواثق والمعتصم قبله والمأمون قبلهما ، وكان أشدّ الضلالة للمأمون في هذا . ومن هو أصل لهذه البدعة وبثّها بين الانام بشر بن عتّاب بن أبي كريمة المريسي الحنفي ، المتكلم شيخ المعتزلة ، غلب عليه علم الكلام ، وجرّد القول لخلق القرآن وأضلّ المأمون اليه ودلّه على حمل الناس عليه .

وحكي عنه ابن خلكان أقوالا من المرجئة ، وكان يقول : إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، وإنما هو علامة الكفر . قال : وهو من موالي زيد بن الخطاب ، ويقال إنّ أباه كان يهوديًا صائغًا بالكوفة ، وكان يسكن درب المريس ببغداد ، والمريس عندهم هو الخبز الرُّقاق الذي يمرَس فيه التّمر والسمن. ومريس ناحية ببلاد النوبة ، يأتي من هناك الرياح الباردة ويسمونها المريسي . وقال أبو سعيد الوزير : المريس قرية بمصر . وتوفي بشر المريسي في أوائل دولة المعتصم .

قال ابن كثير : ولـمّا توفي في ذي الحجة سنة ثماني عشرة /298/ ومائتين صلّى عليه رجل من المحدّثين يقال له السوتزي فلامه بعض المحدثين فقال لهم :

ألا تسمعون كيف دعوت له في صلاتي عليه ، قلت : اللّهم إنّ عبدك هذا كان ينكر عذاب القبر ، اللّهم فأذقه من عذاب القبر، وكان ينكر شفاعة نبيك ، فلا تجعله من أهلها ، وكان ينكر رؤيتك في الدار الآخرة فأحجب وجهك الكريم عنه ! فقالوا : أصبت .

وهذا الذي فطن به بعض السلف حيث قالوا : من كذّب بكرامة لم ينلها . انتهى .

وإنما كان بشر المذكور أصلٌ في هذا المذهب الفاسد بالنسبة الى من بعده ، وحمل الناس على ذلك قبل ابن أبي دؤاد القاضي . وأمّا أوّل من تكلم بخلق القرآن المجيد من أمة محمد ﷺ هو الجَعْد بن درهم ، مولى بني الحكم . كان يسكن دمشق ويعلّم مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية ، فنسب اليه وقيل مروان الجعد . ويروى أنّ أمّ مروان المذكور كانت أمَة ، وكان الجعد أخوها وقيل إنّ الجعد أخذ ذلك من أبان بن سمعان ، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودي الذي سحر النبيء ﷺ ، فإنه كان يقول بخلق القرآن ، وكان زنديقًا ، وهو أوّل من صنّف في ذلك ، ثم أظهر الجعد بن درهم . ولـمّا اشتهر أمره بخلق القرآن طُلب فهرب ثم نزل الكوفة ، فتعلّم منه الجهم بن صفوان القول بخلق القرآن ، وهو الذي ينسب اليه الجهمية .

قال المسعودي ، قال دخل بهلول على خالد بن عبد الله القسري فقال له : أحسن الله إليك عزاءك في «قل هو الله أُحد» ، فإنها ماتت ! قال : وكيف تموت ؟ قال إنّ هذا الجعد يزعم أنّها مخلوقة ، /298ب/ وكلّ مخلوق يموت . فأغتاض عليه ، وكان واليًا ، فأستحضره . وأوتي به حين صلّى وخطب للإضحى فقال في آخر خطبته : انصرفوا وضحّوا ، تقبّل الله منّا ومنكم ، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فإنه يقول ما كلّم الله موسى تكليمًا ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عمّا يقول الجعد علوًّا كبيراً !. ثم نزل وحزّ رأسه بالسكين بيده ، وطفئت نائرته الى نشأت في أيّام

ابن أبي دؤاد . كذا وجدناه في المسودة (الدرّ 213ب . عبارة كذا وجدناه في المسوّدة غير موجودة في الدرّ ، وقد أورد الدرّ هذه الحكاية التي سمّاها لطيفة بعد استعراض طويل للنحو ومسائله وشرح لبعض سجعات تتعلق بالصرف والمذاهب ، من الورقة 208 الى 213ب) .

وقيل : أول من تكلم في القدَر وخلق القرآن غيْلان بن يونس العدوي الدمشقي ، أبوه مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه . وقيل أوّل من تكلم في ذلك في الاسلام رجل من أهل العراق ، وكان نصرانيًا فأسلم ثم تنصّر ، وأخذ عنه معبد الجُهني وغيلان الدمشقي ؛ وكان غيلان قدَريًا ؛ روي أنّه وقف يومًا على ربيعة فقال له : أنت الذي تزعم أنّ الله يُحِبّ أن يُعصى ؟! فقال له ربيعة : أنت الذي تزعم أنّ الله يحبّ أن يعصى قهرًا .

وروي أن مكحولاً قال له : ويلك يا غيلان ، ألم نجدك تُرامي النساء بالتفاح في شهر رمضان ، ثم صرت حارثيًا تخدم امرأة الحارث الكذاب ، وتزعم أنها أم المؤمنين ثم تحوّلت بعد ذلك قدريًا زنديقًا .

وكان غيلان على عهد عمر بن عبد العزيز .

حَكى ابن مهاجر أنّه لـمّا بلغ عمر بن عبد العزيز أنّ غيلان وفلانًا نطقا في القدَر أرسل اليهما ، وقال لهما : ما الامر الذي تنطقان فيه ؟ فقالا : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ! قال : وما قال الله تعالى ؟ قال غيلان : يقول : «اهل أتى /299/ على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورًا إنّا هديناه السبيل إمّا شاكرًا وإما كفورًا» ثم سكت . فقال عمر : إقرأ ! . فقرأ : «إنّ هذه تذكرة الى آخر السورة» . فقال : كيف تريا يا أبناء الأتانة ، تأخذون الفروع وتدعون الاصول !

قال مهاجر ، ثم بلغ عمر بن عبد العزيز أنهما أسرفا ، فأرسل اليهما وهو مغضبٌ . فقام عمر وكنتُ خلفه قائمًا حين دخلا عليه وأنا مستقبلهما فقال لهما : ألم يكن في سابقِ علمِ الله تعالى حين أمر إبليس بالسجود ألاّ يسجد ؟ قال

مهاجر ، فأومأت اليهما برأسي أن قولا نعم وإلا فهو الذّبح . فقالا : نعم . فقال عمر : أوَ لم يكن في سابق علم الله تعالى حين نهى آدم وحواء عن أكل الشجرة ألاّ يأكلا منها ؟ قال مهاجر ، فأومأت اليهما برأسي ، فقالا : نعم . فأمر بإخراجهما وأمر بالكتاب الى سائر الاعمال بخلاف ما يقولان ، وسكتا عن الكلام . فلم تلبث الاقدار حتى مات عمر رضي الله تعالى عنه ولم ينفد الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السبيل .

وقد كان يقال لغيلان : من كان أشدّ عليك ؟ فقال : عمر بن عبد العزيز كأنما يلقّن من السماء . وكان غيلان قد تاب على يد عمر بن عبد العزيز فقال عمر : اللهم إن كان كاذبًا فلا تمته حتى تذيقه حدّ السيف ! فقبل الله منه ، وقطع هشام بن عبد الملك يديه ورجليه .

وذلك أنه استُخلف هشام ، وبلغه ما يقول غيلان فأرسل له وقال له : ما هذه المقالة التى تبلغني عنك في القدَر يا غيلان ؟ /299ب/ قال : هو ما بلغك يا أمير المؤمنين ، فأحضرْ من أحببتَ يُحاججني ، فإن غلبني ضربتَ رقبتي ! فأحضر الاوزاعي فقال له الاوزاعي : يا غيلان ، إن شئت ألقيتُ عليك سبعًا وإن شئت خمسًا وإن شئت ثلاثًا . قال : ألق ثلاثًا . فقال له : أقضى الله تعالى على ما نهَى عنه ؟ قال : ما أدري ما تقول . قال : أفأمر الله تعالى بأمر حال دونه . قال : هذه أشدّ من الاولى . قال : أفحرّم الله تعالى حرامًا ثم أحلّه ؟ قال : ما أدري ما تقول ! وعجز ، فأمر به هشام بن عبد الملك فقُطعت يداه ورجلاه وصُلب حيًّا على باب كيسان بدمشق .

ثم قال هشام للأوزاعي : يا أبا عمرو فسِّر لنا ما قلت . قال : قضى الله تعالى عمّا نهى عنه ، نهى آدمَ عليه السلام ألاّ يأكل من الشجرة ثم قضى عليه فأكل منها ، وأمر إبليس أن يسجد لآدم وحال بين إبليس والسجود ، وقال حُرّمت عليكم الميتة» ثم قال «فمن اضطرّ فأحلّه بعد ما حرمه» . فعجب هشام من جوابه .

ومات غيلان وبقي قوله في الناس الى أن أظهره الجعد ، كما تقدم ، ثم الجهم بن صفوان ، وإليه تنسب الجهمية . ولذا كان الامام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه يقول : إنّ من قال القرآن مخلوق فهو جهميّ . ومن قال كلام الله ولا يقول غير مخلوق ولا مخلوق فهو واقفيّ ، ومن قال لفظي بالقرآن مخلوقٌ تلاوته فهو مبتدع .

وكانت الحنابلة يبدعون الكرابيسي ، لانه يقول إنّ القرآن الذي تكلم الله به صفة من صفاته لا يجوز عليه الخلق وأن تلاوة التالي للقرآن وكلامه كسب له وفعل له ، وذلك مخلوق وأنه حكاية عن /300/ كلام الله تعالى ، وليس هو القرآن الذي تكلم الله به ، وشبهوه بالحمد والشكر ، وهو غير الله تعالى فكما يؤجر بالحمد والشكر والتهليل والتكبير فكذلك يؤجر بالتلاوة . وتجنّبت الحنابلة هذا وبدّعوا قائله .

وكان مذهب المأمون القول بخلق القرآن ، وهو الذي أشهره بين الناس وحمل الناس عليه وتبعه في ذلك أخوه المعتصم وابنه الواثق . وقد تناهى الأمر وبلغ غايته في أيام الواثق لـمّا فعله من امتحان العلماء وإلزام الناس بأتباع هذا المذهب المبتدع ، وقتلِ من خالفه فيه . وبقي الأمر على ذلك الى أن أبطله أخوه المتوكل ، ورفع المحنة على العلماء ، وأظهر السنّة .

وروي أنّ الواثق توقّف في البِدعة في آخر أيامه ، وروى أيضًا أنّه رجع عن ذلك وتاب عن هذه المقالة . وقد روى ذلك المهتدي بالله ، كذا ذكر الخطيب البغدادي .

ذُكر أنّ أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي كان انتظمت له البيعة في السرّ على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخروج على السلطان لبدعة ودعوتِه الى القول بخلق القرآن . وكان جدّه مالك بن الهيثم من أكبر الدعاة في الناس الى دولة بني العباس ، وكانت له وجاهة ورياسة وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث .

وقد بايعه العامة في سنة إحدى ومائتين على القيام بالامر بالمعروف والنّهي عن المنكر حين كثرت الدُعّار والشُطّار /300ب/ في أرجاء بغداد في زمن غيبة المأمون عن بغداد كما تقدم ذكره في خلافته . وكان أحمد بن نصر المذكور من أهل العلم والديانة وكان يقول : إنّ القرآن غير مخلوق .

وبلغ الواثق بالله ما قيل من أنّه انتظمت له البيعة في السرّ ، ووقف على ذلك فأمر بإحضاره ، وحاججه في القرآن والرؤية فقال أحمد : القرآن غير مخلوق ، والله تعالى يُرى يوم القيامة . ولم يرجع عن مقاله ذلك . فقال القاضي أحمد بن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين ، هو كافر يُستتاب لعلّ به علة أو نقص عقل . فقال عبد الرحمن بن اسحاق قاضي الجانب الشرقي من بغداد : هو حلال الدم . فلمّا سمع الواثق ذلك ، وكان شيعيًا معتزليًا ، قام اليه وقتله بنفسه بالصمصامة . وكانت سيفًا لعمرو بن معدي كرب الزبيدي أُهديت لموسى الهادي في أيام خلافته ، وكانت صفيحة موصولة من أسفلها بثلاثة مسامير ، فأخذه الواثق وضرب به أحمد بن نصر المذكور ضربة على عاتقه ، وهو مربوط بحبل ، ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه على بطنه ، فسقط صريعًا على النّطع ميّتًا . وكان مقتله بسرّ من رأى ، وحمل رأسه الى بغداد ، فنصب في الجانب الشرقي أيامًا وفي الجانب الغربي أيامًا وعنده الحرس ليلا ونهارًا .

وكان أحمد من أهل العلم والدين والفضل ، سمع الحديث من حماد بن زيد وسفيان بن عيينة وهُشيم بن بشير ، وكانت عنده مصنفاته كلّها ، وسمع من مالك بن أنس أحاديث جيّدة ، /301/ ولم يحدّث بكثير من حديث ، وحدّث عنه أحمد بن ابراهيم الدورقي وأخوه يعقوب بن ابراهيم ويحيى بن معين .

لطيفة

حكي أنّ الهيثم كان يجالس المنصور والمهدي والهادي والرشيد ، وكان مختصًا بهم . فقال له المهدي يومًا : ويحك يا هيثم ، إن الناس يخبرون عن

العرب قبحًا ولؤمًا وكرمًا وسماحة ، وقد اختلفوا في ذلك فما عندك ؟ قال الهيثم فقلت : على الجُرْم خرجتُ ، يا أمير المؤمنين ، من عند أهلي أريد قريبًا لي ومعي ناقة أركبها إذ شرَدتْ ، فجعلت أتبعها حتى أمسيتُ ، فأدركتها ونظرت فإذا خيمة أعرابي ، فأتيتها فقالت ربّة الخباء : من أنت ؟ فقلت : ضيف . فقالت : وما يصنع الضيف عندنا ، إن الصحراء لواسعة ! ثم قامت إلى بُرّ فطحنته وعجنته وخبزته ، فأكلته ، ولم ألبث قليلا إلاّ أن أقبل زوجها ومعه لبن فسلّم وقال : من الرجل؟ فقلت : ضيف . فقال : حيّاك الله . ثم قال : يا فلانة ما أطعمتِ ضيفك شيئًا ؟! قالت : نعم . فدخل الخباء وملأ قِعْبًا من لبن ثم أتاني به فقال : اشرُبْ ! فشربت شرابًا هنيئًا . فقال : ما أراك شربتَ شيئا ولا أراها أطعمتك . فقلت : لا والله . فدخل إليها مغضبًا وقال لها : ويلك ، أكلتِ وتركت ضيفك ! قالت : وما أصنع به ، أأطعمه طعامي ؟! وجاراها الكلام حتى شجّها ، ثم أخذ شفْرة وخرج إلى ناقتي فنحَرها ، فقلت : لا تفعل عافاك الله ! قال : لا والله ، لا يبيت ضيفي جائعًا . ثم جمع حطبًا وأجّج النار وأقبل /301ب/ يشوي ويُطعمني ويلقي إليها ويقول : كلي ، لا أطعمك الله ! حتى إذا أصبح تركني ومضى . فقعدتُ مغمومًا ، فلما تعالى النهار أقبل ومعه بعيرٌ ما يسام الناظر إن ينظر إليه ، فأتاني به وقال : هذا مكان ناقتك ! ثم زوّدني من ذلك اللحم ومما حضر وخرجت من عنده .

فضمّني الليل الى خِباء ، فسلمت فردّت صاحبة الخباء السلام وقالت : من الرجل ؟ قلت : ضيف . فقالت : مرحبا بك حيّاك الله وعافاك . فنزلتُ ثم عمدتْ الى بُرّ فطحنته وعجنته وخبزته ناضجًا ثم زوّقت الخبز بالزُّبْد واللبن ، ثم وضعته بين يدي ، وقالت : كل وآعذر أيّها الضيف . فلم ألبث أن جاء أعرابي كريه المنظر ، فسلّم فرددت عليه السلام ، فقال : من الرجل ؟ قلت : ضيف . قال : وما يصنع الضيف عندنا ؟! ثم دخل الى أهله فقال : أين طعامي ؟ فقالت : أطعمته الضيف [فقال]: أتطعمي طعامي الاضياف ؟ وتجاريا الكلام

فرفع عصاه وضربها على رأسها فشجّها ، فجعلتُ أضحك ، فخرج اليّ وقال : ما يضحكك ؟ قلت : خيرٌ . قال : والله لتخبرني . فأخبرته بالرجل والمرأة اللذان نزلتُ عليهما قبله ، فأقبل عليّ وقال : إن التي عندي أختُ ذلك الرجل ورأيتَ خسرانهما وما هما عليه من التفريط ، وتلك التي عنده أختي أنا ، وقد رأيتَ حفظها وتدبيرها ، بارك الله ! فبقيت متعجّبًا . وهذا من أغرب ما رأيته يا أمير المؤمنين . انتهى .

حكي أن الواثق كان في سُمّاره وهم يتحادثون بين يديه . فذُكرت البرامكة وتكلّموا في أمرهم ، فسأل الواثق بعضهم عن سبب هلاكهم . فقيل له إنّ ذلك كان بسبب استهلاكهم أموال بيت المال . فلمّا سمع الواثق ذلك بطش بكُتّابه وأهل الدواوين واستخلص منهم أموالا وسجن بعضًا وضرب بعضًا . ومنهم من ضربه ألف سوط ، ومنهم من أخذ منهم ألف ألف دينار . وكان الوزير ابن الزيّات قد ضيّق عليهم .

قال في كتاب الفرج بعد الشدّة : لـمّا مرض الواثق واشتدّ به المرض دخل عليه أحمد بن أبي دؤاد القاضي وقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ محمد بن عبد الملك الزيات قبض على أهل الدواوين والكتاب وحبسهم وضيّق عليهم ، ووراءهم عيال وأولاد ووالٍ خلقٌ كثير ولهم أيدٍ يدعون عليك ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يوقّع بيده الى محمد بن عبد الملك أن يُخْلي سبيلهم فتبقى تلك الايدي تدعو لك لا عليك («فتبقى ذلك الايدي تدعون . . ») . قال الواثق : يوقّع لهم أبو عبد الله يعني ابن أبي دؤاد . فقال له : بل يوقّع لهم أمير المؤمنين ، ويكون في سعة حلمه لانّ أمير المؤمنين يعلم تعلُّل ابن عبد الملك الزيات ، فإذا رأى توقيع أمير المؤمنين لم تسعه المخالفة .

فأخذ الواثق القلم وهو مستند على ابن أبي دؤاد وكتب الى محمد بن عبد الملك أن يطلق أهل الدواوين والكتاب في مكان يرِدُ عليه كتابُه ، ولا ينتقل من ذلك المكان حتى يطلقهم عن آخرهم ، ولا تراجعني في أحد منهم . فأخذ ابن

/302ب/ أبي دؤاد التوقيع ، وسار من وقته فوافى محمد بن عبد الملك الزيات في الطريق فأعطاه التوقيع ، فقرأه فقال للقاضي : يا أبا عبد الله ، إذا أطلقت هؤلاء من اين أعطي أرزاق الجند إذا طُلبت ؛ أمهلني أراجع أمير المؤمنين . فقال له القاضي : لا سبيل إلى ذلك ، والله لا تبرح من مكانك هذا حتى تطلقهم عن آخرهم . فنزل الوزير وأمر باطلاقهم في تلك الساعة ثم ركب وسار إلى الديوان وأحمد بن أبي دؤاد القاضي واقف بمكانه حتى وافاه المحبوسون وبادروا ان يقبِّلوا ركابه ، فنزل لهم وقبّلهم واحدًا بعد واحد ، وهم يدعون له ولأمير المؤمنين .

فلما كان من غد دخل القاضي على الواثق فوجده منتبهًا ، فقال له : يا أبا عبد الله ، من حين أشرتَ عليّ بتسييب المسجونين بتّ في عافية وأكلت الخبز ! فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ الايدي التي كانت تدعو عليك صارت تدعو لك ، ولعل الله يتقبّل دعاءهم ؛ وتعلمُ يا أمير المؤمنين أنّ القوم لهم دور وضياع ورِباع ، وهم الآن حُفاة عراة ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يُجبر بخاطرهم ، أن يردّ عليهم ما أُخذ منهم لكي يكمُل سرورهم ويُكثرون بالدعاء إلى الله تعالى أن يشفي أمير المؤمنين من هذه العلة ؟ فقال الواثق : سأفعل إن شاء الله تعالى . ثم دعا بدواية وقرطاس وكتب بردّ جميع أملاكهم فرُدّت إليهم ، ومات الواثق من ليلتَه تلك .

وكان ابن أبي دؤاد ممن يسعى في الخيرات /303/ والبرّ . وكان من أهل الكرم والعلم والأدب لو لا ما فيه من التشييع والاعتزال وحمْلِ الناسَ ذلك ودلالةِ الخلفاء على امتحانهم . وقد عاقبه الله تعالى [على] ذلك بان فُلج ومات مفلوجًا بعد ان عزله المتوكل وامتحنه بالمصادرة ، وأُخَذ ضياعه وما يملك ، ومات على ذلك ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى . وكان هو الذي تولّى غسل الواثق ودفنه والصلاة عليه . انتهى كذا في المسودة .

ذكر ابن كثير أنّ هلاك الواثق وموته كان بعلة الاستسقاء ، واشتدّ به ذلك

حتى أنّه لم يقدر على حضور العيد عامئذ ، فاستناب في الصلاة بالناس قاضيه أحمد بن ابي دؤاد الايّادي المعتزلي ، وقوي به الاستسقاء ، فعولج بان أُقعد في تنّور قد أُحمِي له بحيث يمكن إجلاسه فيه ليسكُن وجعه ، فلان عليه أمره بعض الشيء ، فلمّا كان من الغد أمر بأن يُحْمَى أكثر من العادة ، فأحمي له وأجلِس فيه ، ثم أخرج فوضع في مِحفة وحوله أُمراؤه ووزراؤه وقاضيه ، فمات وهو محمول ، فما شعروا حتى سقط جبينه على المحفة وهو ميت . فغمّض القاضي عينيه بعد ذلك .

لطيفة

قال ابن جرير الطبري : كان الواثق لـمّا اشتد به مرضه جمع أصحاب النجوم في زمانه لينظروا في مولده وما يقتضيه صناعة النجوم ، كم تكون أيامه ودولته . فأجتمع عنده من رؤوس المنجّمين جماعة /303ب/ منهم الحسن بن سهل والفضل بن اسحاق الهاشمي ومحمد بن موسى الخوارزمي واسماعيل بن بويحب والمجوسي القُطربُّلي وسيد صاحب محمد بن الهيثم ومامه وغيرهم ممن يتكلم في النجوم ، فنظروا في مولده وما يقتضيه الحال عنده ثم أجمعوا باتفاق منهم أنه يعيش دهرًا طويلا ، وقدّروا له أنه يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم ، فلم يمكث بعد قولهم ذلك الا عشَرة أيام ومات ، ولـمّا احتضر واشتدّ به الالم جعل يردّد هذين البيتين :

الموتُ فيه جميع الخلق مشتَرَكٌ لا سُوقة منهم تبقى ولا مِلِكُ
ما ضرّ أهلي قليل في تفاقدهم وليس يُغني عن الاملاك ما ملَكوا

ثمّ أمر بالبساط فطُويت ثم ألصق خدّه بالارض وجعل يقول : يا من لا يزول ملكه إِرحم عبدًا قد زال ملكه . انتهى .

ذكر الدّميري في حياة الحيوان : أنّ الواثق كان مُؤْثِرًا لكثرة الجماع ، فقال لبعض الاطباء : اصنع لي دواء للباءة . فقال الطبيب : يا أمير المؤمنين أتَهْدم

بدنك بالجماع واتّق الله في نفسك ! فقال : لا بدّ من ذلك . فأمره الطبيب أن يأخذ لحم السِّباع فيُغلي سبع غليات على خمر ، ويتناول منه إذا شرب وَزْن ثلاثة دراهم ولا يجاوز هذا القدر . فأمر بذبح أسد فذُبح وصار يتناول منه على شرابه كما ذكر /304/ الطبيب ، فلم يكن الا قليلا حتى استسقى . فأجمع الاطباء على أنّ لا دواء له الا أن ينزل بطنه ، ثم يُترك في تنّور قد سُجر بحطَب الزيتون حتى يصير جمرًا ثم يُجلس فيه .

ففُعل به ذلك ، ومنعوه الماء ثلاث ساعات وهو يستغيث ويطلب الماء ، فلم يسقوه . فصار في جسده نَفّاطات مثل البطيخ ، فأُخرِج فجَعل يقول : رُدّوني الى التنّور والاّ متّ ! فردّوه فسكن صياحه ، ثم انفجرت تلك النفّاطات وقطر منها ماء ، فأخرج من التنّور وقد استودّ جسده ومات بعد ساعة وهو يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم عبدًا قد زال ملكه . ويردّد البيتين المقدّم ذكرهما الى أن طفت روحه ، فسُجي بثوب ، واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل ، فجاء جردان من البستان فأستلّ عينه وذهب بها ، ولم يعلموا به حتى غسلوه ، وهذا من أغرب ما سمع . انتهى .

حكى الواثقيّ قال : كنت عند الواثق بالله إذ لحقته غِشية ، فما شككت أنه قد مات . فقال بعضنا لبعض : تقدموا ! فما جَسَر أحدٌ . فتقدّمت أنا فلمّا أردت أن أضع إصبعي على أنفه فتح عينه فكدت أن أموت فزعًا ، فتأخّرت الى خلفي فتقلقلتْ قبضةُ السيف بالعتَبة وعثَرتُ ، فأندقّ السيف وكاد أن يدخل في لحمي ، فخرجت وطلبتُ سيفًا . ثم رجعت فوقفت لحظة فمات بلا شكّ . فشددتُ لحيته وغمّضته وسجّيته . وأخذ الفراشون تلك الفرُش المثمنة ليردّوها الى الخزانة . وتُرك وحده في البيت . فقال لي القاضي أحمد بن أبي /304ب/ دؤاد : أنا اشتغل بعقد البيعة ، فأحفظه حتى يُدفن .

فرُدِدْتُ ، وجلستُ عند الباب . فسمعت بعد ساعة حركة أفزعتني ، فدخلت وإذا أنا بجردان قد جاء فأستلّ عينه ، فأكلها فقلت : لا إله الا الله ،

هي العين التي فتحها في ساعة عثَرْتُ واندقّ سيفي له ، والآن جردان سُلّط عليه فأكله ولا حول ولا قوة الا بالله العليّ العظيم .

ذكر في عيون المعارف : أنّ وفاته كانت بسرّ من رأى يوم الاربعاء لستّ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وكان عمره ستّا وثلاثين سنة وشهورًا ، وقيل سبعًا وثلاثين سنة ، وكانت ولايته خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام . اهـ .

قال ابن كثير : كان مولده سنة ستّ وتسعين ومائة بطريق مكة ، ومات وهو ابن ستّ وثلاثين سنة ، وكانت مدة خلافته خمسًا سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل سبعة أيام واثنتي عشرة ساعة . وفي تاريخ العسقلاني خلافته خمس سنين وسبعة أشهر ، وتوفي يوم الثلاثاء بسرّ من رأى . وفي تاريخ النويري عمره اثنان وثلاثون سنة .

وفي تاريخ ابن عبد الملك الهمداني توفي بسامرّا في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وكان أبيض اللون مشربًا بحمرة جميلا ربعة ، حسن الجسم ، قائم العين اليسرى فيه نكتة بياض . وفي تاريخ العسقلاني /305/ أبيض الى صفرة في عينه اليمنى نكتة بياض ، وكذا قال في عيون المعارف ، أنّ في عينه اليمنى نكتة بياض . وكان يلقب بالشهم ، ويكنى بأبي جعفر وبأبي القاسم أيضًا ، كنّاه عمّه المأمون بهما . وكان يذهب مذهب المأمون ، وشغل نفسه بمحنة الناس في القول بخلق القرآن ، ويعاقب من امتنع من ذلك . اهـ .

قال الخطيب : وقد استولى عليه ابن أبي دؤاد القاضي وحمله على التشديد في محنة الناس في ذلك ، ويقال إنه رجع عن ذلك قبل موته . أخبرني عبيد الله بن أبي الفتح بسنده الى المهتدي بالله أنه قال : إنّ الواثق مات وقد تاب عن القول بخلق القرآن .

وفي تاريخ النويري أنّ الواثق كان قد بالغ في الاكرام للعلويين والاحسان اليهم ، وفرّق في الحرمين الشريفين أموالا عظيمة حتى أنه لم يبق بالحرمين أيام

الواثق سائل . ولـمّا بلغ أهل المدينة موته كانت نساؤهم تخرج الى البقيع في كلّ ليلة وتندبنه لفرط إحسانه اليهم . قال يحيى بن أكثم : ما أحسن أحد من خلفاء بني العباس الى آل أبي طالب مثل ما أحسن اليهم الواثق ، ومات وما فيهم فقير .

وذكر الهمداني في تاريخه أنّه كان مهيبًا صابرًا ، فيه شهامة وجبروت وكان شجاعًا عالمًا ، جيّد الشعر .

وفي تاريخ النويري ، من جيّد شعره قوله :

هي المقادير تجري في أعنّتها فاْصبر فليس لها صبرٌ على حال

ومن شعره أيضًا : /305ب/

تنحّ عن القبيح ولا تُـرِدْهُ ومن أوْليته حُسْنًا فزدهُ
ستكفي من عدوّك كل كيْد إذا كان العـدوّ لم يكِدْهُ

وكان الواثق نقش على خاتمه صورة أسدين بينهما صورة رجل . قيل وكان له خاتم آخر نقشه : «الملك لله تعالى» ، وقيل نقشه : «الواثق بالله» وقيل : «ثقة الواثق» . ولـمّا مات تولّى غسله أحمد بن أبي دؤاد القاضي وصلّى عليه ودفنه بقصر الهادي . كذا ذكر ابن كثير .

وقال المؤيد : دفن بالهاروني ، وقيل صلى عليه أخوه المتوكل ، وهو الذي خلَفه من بعده . وأولاد الواثق محمد المهتدي بالله ، الذي استخلف وبينه وبين أبيه أربعة من الخلفاء ، وعبد الله ، وأحمد ، وابراهيم ، ومحمد ، وعائشة . ولم يتولّ أحد منهم بعده ، وإنما ولي أخوه جعفر المتوكل على الله . انتهى .

[**الباب** . . . .]

هو جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسي الهاشمي ، بويع له بعد أخيه الواثق بالله ، وكانت بيعته وقت زوال الشمس من

يوم الاربعاء لستّ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وكانت الاتراك قد عزموا على تولية محمد بن الواثق ، فاستصغروه وتُرك فعدلوا الى جعفر المتوكل ، وكان عمره إذ ذاك ستّاً وعشرين سنة .

وكان الذي ألبسه /306/ خِلعة الخلافة أحمد بن أبي دؤاد القاضي ، وهو أوّل من سلّم عليه بالخلافة ، وبايعه الخاصة ثم العامة . وكانوا قد اتّفقوا على تسميته بالمعتصم الى صبيحة يوم الجمعة ، فقال ابن أبي دؤاد القاضي : قد رأيت أن يلقّب أمير المؤمنين بالمتوكّل على الله . فاتفقوا على ذلك ، وتلقّب به وكتب به الى الآفاق ، وأمر بإعطاء الشّاكريّة من الجند ثمانية شهور وللمغاربة أربعة شهور ولغيرهم ثلاثة شهور ، واستبشر الناس به .

وقد كان المتوكّل رأى في منامه في حياة أخيه الواثق كأنّ شيئا تدلّى عليه من السماء مكتوبٌ فيه : «جعفر المتوكل على الله» ، فعبّرها فقيل له : هي الخلافة ! فبلغ ذلك أخاه الواثق ، فسجنه حيناً ثم أرسله . اه .

قال المؤيد : ولـمّا مات الواثق عزم كُبراء الدولة على البيعة لمحمد بن الواثق ، فألبسوه قلنسوة ودرّاعة سوداء ، وهو غلام أمرد قصير ، فلم يروا ذلك مصلحة ، فتناظروا فيمن يولونه وذكروا عِدّة من بني العباس ، ثم أُحضروا المتوكّل ، فقام أحمد بن أبي دؤاد فألبسه الطويلة وعمّمه وقبّله بين عينيه وقال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ! فبويع له بالخلافة في يوم مات فيه الواثق لست بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة . انتهى .

قيل لـمّا استخلف المتوكل على الله نظَر في اصلاح العامة والتفتَ الى المظالم والمسجونين والجبْر لقلوبهم . وكان /306ب/ في الجسر جماعة قد شدّد عليهم ابن الزيات الوزير .

قال في كتاب الفرج بعد الشدة ، قال أحمد المدبّر : لـمّا أمر محمد بن عبد الملك الزيات بحبسي أُدخلت محبَسًا فيه أحمد بن اسرائيل وسليمان بن وهب وهما يُطالَبان ، فجُعلت في بيت ثالث ، وكنّا نتحدّث ونأكل جميعًا وربّما أدخِل الينا

النبيذ فنشرب . وكان أحمد بن اسرائيل شديد الجبن ، فكان يُنكر علينا ويمنعنا أن نحدِّث بشيء أو نرجُف لأنفسنا . فجاءني يومًا سليمان بن وهب فقال : رأيت البارحة في نومي كأنّ قائلا يقول لي يموت الواثق الى ثلاثين ليلة . فقم بنا الى جعفر حتى نحدِّثه . فقلت : والله لئن سمع جعفر بهذا ليشقنّ ثوبه ويسدنّ أذنه خوفًا . فقال لي : قم على كلّ حال ! فقمنا فدخلنا اليه ، فأخبره سليمان بالخبر ، فقال : يا هذا أنت أجسر الناس ، وأشدّهم تجنيًا على نفسك وعلينا ، وإنما تُدبِّر على أن يشيع فنُقتل ! فقال له : اكتب هذه الرؤيا عندك لتمتحِن صدقنا . فنفَر وقال : أنا لا أكتب مثل هذا ! فكتبت أنا في رقعة صغيرة اليوم . فلمّا جاز يوم الثلاثين دخل أحمد بن اسرائيل فقال لي : يا أبا الحسن هذا اليوم الثلاثون ! فأخرجت الرقعة ، فإذا هو قد حفظ اليوم .

ومضى يومنا الى آخره ، فلمّا كان الليل لم أشعر إلاّ بالباب يدقّ دقًا شديدًا ويُصاح بنا : البُشرى قد مات الواثق بالله ، فأخرجوا ! فقال أحمد بن اسرائيل : قوموا بنا ، فقد حقّق الله عز وجلّ الرؤيا وأتى بالفرج . فقال سليمان بن وهب : كيف /307/ نمشي مع بُعدَ منازلنا ، ولكن نوجّه بمن يأتينا بما نركب ، فاْغتاظ أحمد بن اسرائيل وقال : نعم ، نقعد حتى يجلس خليفة آخر ويقال له في الحبس جماعة من الكتاب عليهم أموال ، فيأمر بالتوقيع بالتوثيق منا الى أن ينظر في أمرنا ؛ قم عافاك الله حتى نخرج ! فخرج وخرجنا على إثره ، فقبل أن نخرج من الهاروني رأينا رجلين يقول أحدهما لصاحبه : سأل أمير المؤمنين عمّن في الحبس فقيل له جماعة من الكتاب ، فقال أمير المؤمنين جعفر يكونون فيه الى أن ننظر في أمرهم . فجدّدْنا في المشي وقصَدْنا غيرَ منازلنا ، فاْستترنا فيها .

وبحثنا عن الاخبار فبلغنا أنّ الخليفةَ جعفرُ المتوكّل ، وأنه أقرّ محمد بن عبد الملك الزيات على وزارته ، فكتبت اليه رقعة عن جماعتنا نعرّفه خبرنا واتساع آمالنا ونستأذنه فيما نعمل ، فلمّا وصلت اليه وقّع على ظهرها : «ولـمَ استخفيتم ، وليس منكم الا من عنايتي بتخصيصه ورأيي فيه جميل ؛ أمّا أبو

أيوب فقد تكلم في أمره أبو منصور ايتاخ واستوهبه فوهبته له وأمرت بإحضاره فليحضرْ ، ليخلع عليه ، وأمّا أبو جعفر ، فإنه طولب بما لا يلزمه ، وقد وضُحتْ حجته في إطلاقه ، فليصِر اليّ ، وأمّا أبو الحسن فإنه قُيِّد بباطل . فأظهروا جميعًا واثقين بما عندي من حِظايتكم ورعاية حرُماتكم» . فصرنا اليه جميعًا وزال عنّا ما كنّا فيه وخلع على سليمان بن وهب خاصة وظهر حِلم المتوكل /307ب/ وحسن تدبيره واستبشر الناس به . انتهى .

قال ابن أبي طاهر حدثني ابو السمط مروان ، قال لـمّا استخلف المتوكّل بعثت إلى ابن ابي دؤاد القاضي بقصيدة مدحته فيها ، وذكرت ابن الزيّات بقولي :

لقد حفر الزيّات بالغيّ حُفرة فالقاه فيها الله بالكفر والغدْرِ

فلمّا قرأها ذكَرني عند المتوكل ، فأمر بإحضاري اليه ، فلمّا قدِمت عليه أنشدته :

رحَل الشباب فليتَه لم يرحَلِ والشّيب حلّ فليته لم يَحْلُلِ

فلمّا بلغت الى قولي :

كانت خلافة جعفر كنبـوّة جاءت بلا طلب ولا بتخـيُّلِ
وهَب الاله له الخلافةَ مثل ما وهَب النبوءة للنبيّ المرسَلِ

فأمر لي بخمسين ألف درهم واتّصلت به . انتهى .

وكان المتوكّل لـمّا استخلف قَبض على الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات بعد شهرين من خلافته . فإنه استخلف في حجّة ، وقبض عليه في صفر . فحبسه وأخذ جميع أمواله وعذّبه بالسّهر ، ثمّ وضعه في تنّور خشب ، فيه مسامير حديد أطرافها إلى داخل التنور يمتنِع مَن يكون فيه مِن الحركة ، ولا يقدر على الجلوس ، فبقي كذلك أيّامًا ومات في ربيع الاوّل من سنته . وكان

ابن الزيات هو الذي عمل هذا التنور وعذّب فيه ابن السّباط المصري ، فأذاقه الله إياه . كذا ذكر المؤيّد .

وكان ابن الزيات ذا قساوة /308/ وكزازة وشدّة بأس لا خير فيه ، فلا يرعى ذِمامًا ولايوجب حُرمة لأحد ولايصطنع أحدًا بمعروف ، فتشفّتْ الناس في القبض عليه وبلغوا ما أمّلوه فيه ، لـمّا كان فيه من الجبر والصّلابة مع ما هو فيه من بلوغ المرتبة وكمال التصرّف ، فانتقم الله منه لعباده وفرّق شمله وبدّد جمعه .

ذكر في كتاب الفرج بعد الشدة قال : حدّث جماعة من الثقات ، قالوا : كنّا في مجلس عبيد الله بن أبي أيوب سليمان بن وهب وهو وزير ، فتقدّم اليه عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات يشتكي من أحمد بن اسرائيل بسبب ضيعة . فنظر في أمره وقال : أنت عمر بن محمّد ؟ قال : نعم . قال : وأين كنت ؟ فقصّ عليه خبره . فقال له : أنت ابن السّكران ! قال : نعم . فلمّا كان عشيةَ يومنا ذلك وقد خلا المجلس قال عبيد الله : سبحان الله ، ما أعجب ما كنت فيه اليوم !

فلم نسأله عن ذلك إجلالا له ، فقال : أخبركم ، قال والدي أبو أيوب : كنت في أيام الواثق في ذلك البلاء والضّرب والقيد فحُملت الى ابن الزيات ليناظرني ونُرَدّ الى محبسي ، فوُضعت بين يديه على تلك الحال وجعل يناظرني والحسن بن وهب أخي كاتبه حينئذ ، وهو بين يديه ، فربّما يتكلّم بالكلمة فيوقّعها عليه وربما أمسك ومحمد بن عبد الملك الزيات دائب في الغِلظة عليّ والتشفّي منّي ، إذ مرّ بعضُ خدمه ومعه صبيّ يحمله ، وقد أُلبِس لباس مثله من أولاد الملوك ، فلمّا رآه صاح بالخادم : هاته ! فقرّبه /308ب/ منه وقبّله وترشّفه وشمّه وضمّه اليه وجعل يلاعبه . فحانت منه التفاتة اليّ فإذا دمعتي قد سبقت وأنا أمسح عيني بالجبّة الصوف التي كانت عليّ ، فقال لي : ما الذي أبكاك ؟ قلت : خيرٌ ، أصلحك الله ! الى أن قال : لا تبرح أو تخبرني بالأمر

على حقّه !

فلمّا رأى ذلك أخي الحسن بن وهب قال له : أنا أصدُقك أيّها الوزير ، لمّا رأى عمر ـ أمتعك الله به ، وجعَلنا جميعًا فداه ـ تذكّر بُنيًا له مثل سنّه ! فقال : وما اسمه ؟ فقال : عبيد الله . وكانا وُلدا في شهر واحد . فألتفت إليّ محمد بن الزيات كالهازء ، ثم قال لي : أتراه يقدر أن يكون ابنك هذا وزيرًا ؟!

قال أبو علي الحسن بن وهب ، فلمّا أمر بحمل أخي أبي أيوب الى محبسه التفتَ اليَّ ابن الزيات وقال : لو لا أنّ هذا الامر من أمور السلطان التي لا سبيل الى التقصير فيها لاستوهبْتك أخاك ، ولو أعانني على نفسه لخلّصته . فقال أبو علي : والله ما رأيته منذ حُبس ، فإن رأى الوزير أن يأمر بالعدول به الى بعض المجالس والإذن لي في القيام اليه والخلوة به لأشير عليه بامتثال أمرك ؟ قال ، فأمر بذلك .

فقمت الى أبي أيوب وتعانقنا وبكينا فقال لي : قبل كلّ شيء ، أرأيت أعجب من بغيه ومن قوله اليّ بالتكابر والهزاء «أتراه يقدر أن يكون ابنك هذا وزيرًا» وكيف أمِنَ الاّ يكون هذا وألا يجلس ابني وزيرًا ، ووالله إني لأرجو أن يبلّغه الله تعالى الوزارة ويتقدّم اليه عمر هذا متظلّمًا ! فحقّق الله /309/ رجاءه وجلستُ وزيرًا وكان يومنا هذا ، وتقدّم اليّ عمر ابنه متظلّمًا ، وكان كما قال أبي ، وما كنت رأيت عمر قبل ذلك ولا عرفت له خبرًا .

ووقع هذا الخبر من وجه آخر ، وهو أنّ القاسم عبيد الله بن أبي أيوب سليمان بن وهب قال لأصحابه بعدما وقف عليه عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات : أحدّثكم بحديث ، فإنّه ظريف . قالوا : نعم . قال : حدّثني والدي أبو أيوب قال : كنت في يد محمد بن عبد الملك الزيات يطالبني وأنا منكوبٌ ، وكان يحضرني في كلّ يوم بغير سبب ولا مطالبة ليكيدني بحالتي وأنا في قيودي وعليّ جُبة صوف ، وكان أخي الحسن يكتب بين يديه ، ولم يكن يتهيأ له في أمري شيء الاّ أنّه إذا رآني مقيّدًا استقبلني وإذا رجعت الى موضعي شيعني . إذ

أقبل يومًا من الايام خادمٌ لمحمد بن الزيات ، ومعه ابن له صغير ، فوثب كلّ من في المجلس الى الصبيّ ، يقبّلونه ويدعون له سِواي ، فإني كنت مشغولا بنفسي ، فلم أتحرّك فأخذ الزيات الصبيّ وقبّله وضمّه اليه وقال : يا سليمان ، لم لا تفعل بهذا الصبي ما فعله به كلّ من في مجلسنا ؟ قلت : شغلني عن ذلكَ ما أنا فيه . قال : لا ، ولكنك لم تطق ذلك عداوة لابيه وله وكأني بك وقد ذكرت ابنك عبيد الله وأملّت فيه الآمال ، والله لا رأيت فيه شيئا مما تؤمله ! وأسْرف بعد ذلك في الاسماع ، فعلِمت أنه قد بغى ووثقت من الله بجميل عاداته ، وأنّه سيبلغني ما أؤمله فيه عنادًا لبغيه . قال والدي أبو أيوب : ولم يمض /309ب/ الا مدة يسيرة حتى سخَط المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات ، وقلّدني مناظرته وإحصاء متاعه فوافيت داره فرأيت ذلك الخادم بعينه ومعه الصبي المذكور يبكي فقلت : ما بال هذا الصبي يبكي ؟ فقال الخادم : قد مُنع من كل ماله وأدخل فيما أُحصيَ . فقلت : لا بأس عليه .

ودخلت فسلّمت اليه كلّما كان باسمه . ثم قال لي : يا بني ، فينبغي لك إن تهيأت لك حالٌ ورأيت الصبيّ ، وهو عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات ، أن تحسن اليه وتقابل نِعم الله عزّ وجل فيه وفيك بما يجب لها . وها أنا رأيته في هذا الوقت وتذكّرت ما قاله والدي أبو أيوب ، وامتثلت ما أشار به . وكان عبيد الله لـمّا نظر في شكاية عمر المذكور وقّع له بجائزة مبذولة وصلة مبرورة . وروي أنّ عبيد الله أمر بإحضار عمر المذكور وخلع عليه وقلّده ديوان البريد والخرائط ، وحسُنت حاله بإنعامه عليه . ولم يفعل به ما فعل ابن الزيات بوالده أبي أيوب . انتهى

وحكى في كتاب الفرج بعد الشدة أيضا أنّ عبيد الله بن سليمان بن وهب قال : قال أبي : أصبحت يومًا وأنا في حبس محمد بن عبد الملك الزيات في خلافة الواثق ، وقد أيست من الفرج واشتدت محنتي وغمّي فوردت عليّ رقعة أخي الحسن بن وهب فيها :

خطْبٌ أبا أيوب جلّ محـــلُّه فإذا جزعت من الخطوب فمن لها
إنّ الذي عقد الذي انعقدت به عقد المكاره فيك يحسن حلها /310
فاصبر فإنّ الله يُعقب راحـة ولربّما أن تنجـــلي ولعلّها
وعسى تكـون قريبًا حيث لا تُرجى ويمحو عن جديدك ذلّها

قال فتفاءلت وقويت نفسي ، فكتبت اليه :

صبّرتني ووعظتني فأنا لها وستنجلي بل لا أقول لعلّها
ويحلّها من كان صاحب عقدها ثقـة به إذ كان يملك حلّها

قال ، فلم أُصلِّ العتمة ، ذلك اليوم حتّى أُطلقت . فصلّيتها في داري .

وقيل إن هذه الرّقعة وقعت في يد الواثق فأمر بإطلاق سليمان بن وهب وقال : والله لاتركت من يرجو الفرج يموت في حبسي ولا سيما من خدَمني ! فأطلقه وابن الزيّات كارهٌ لذلك . اه .

وكان ابن الزيات المذكور يكره فعل البر والاحسان من السلطان لعبيده ورعاياه ولاسيما إذا كان على يديه .

ذكر في كتاب الفرج بعد الشدة ، أنّ أحمد بن اسرائيل قال : كنت كاتبًا لمحمد بن عبد الملك الزيات ، فقدِم عليه رجل من ولد عمر ابن هبيرة يقال له ابراهيم بن عبد الله الهبيري . فلازمه يلتمس منه تصرّفًا ؛ وكان ابن الزيات قليل الخير لايرعى ذِمامًا ولا يوجب حُرمة ولا يحبّ أن يصطنع أحدًا ، فأضجر الهبيري من طول تردّده إليه ، فدعاني ابن الزيات يومًا وهو راكب فقال : قد تبرّمت بملازمة هذا الرجل ، فقل له لست أُولّيه ولا له عندي تصرّف ومُرْه بالانصراف عنّي !

فقلت له : أنا والله استحي ان ألقَى مولًى لك بمثل هذا عنك . فقال : لا بدّ من أن تفعل هذا . قلت : نعم . فلمّا سرت إلى منزلي وجهت إلى الهبيري فجاءني فقلت /310ب/ له : ما كنت تؤمّل أن تناله بصحبة أبي جعفر ؟ قال :

كذا . قلت له : خذه من مالي ، ولا تقرُب بابه ! فقال متعجّبًا : من مالك ؟ قلت : نعم . قال : أنا أؤمّل أن أكسِب معه أكثر مما تناله يدك . فقلت له : إنه حمّلني إليك رسالة استحييت من آدائها فعدِلت بك عن ذلك إلى هذا . قال : فهات ما حمّلك به ! فأعدت عليه ما قاله ابن الزيات ، فقال : سمعتها منك ، فهل أنت مؤدٍّ عني إليه ما أقوله ؟ قلت : نعم . قال : قل له قد كنت أتيتك في صبيحة كل يوم ، ووالله لأتيتك منذ الآن في كل غدوة وعشية ، فإن قضى الله جلّت عظمته لي على يديك رزقًا لأخذته على رغمك !

فرجعت الى ابن الزيات فأعلمته قولَه ، فقال : دعه ، فوالله لا يرى خيرًا مني أبدًا . ولازمه الرجل غدوة وعشية ، فكان إذا رآه التفتّ وقال : قد جاء البغيض ! ومكث كذلك مدة الى أن ركب ابن الزيات يومًا الى الخليفة الواثق وهو بالهاروني وكان يوم دجْن ، وكنت معه فدخل الى الخليفة . وجلست انتظر خروجه ، فخرج وهو يكثر التعجّب فسألته فقال : إنّك تعرف مذهبي وكان يرى رأي الخوارج والمعتزلة ويقول : إنّ الأرزاق بالاكتساب . فقلت له : وما ذلك ؟ قال دخلت الى الخليفة فقال : عليّ بأنباء أحدٍ نصطنعه ! فلم يخطر ببالي أحد غير الهبيري ، فأمسِكُ . فقال : ويحك ، أكلمك فلا تجيبني ! وأعجلني عن الفكر . فقلت : يا أمير المؤمنين ، رجل من أعدائك وأعداء دولتك وأولاد أعدائك ، /311/ سَلَفُه من صنائع بني أمية ، من ولد عمرو بن هبيرة . قال : نصطنعه ليشكر . فقلت له : إنه لا معنى فيه . قال : لِم تدفعني عنه ، إعطه الساعة ثلاثين ألف درهم . ثم قال : من أهل الدراريج هو أم من أهل الاقبية ؟ قلت : صاحب قِباء . قال قلّدْه الساعة عملا يصلُح له ، وأثبِتْ له من ولده وغلمانه وأهله مائة رجل .

فلمّا فرغ ابن الزيات من كلامه قال لي : قل للهبيري ما أمرتك وادفع له ما أمر به الخليفة وسله ألاّ يشكرني ، فقد جهِدْتُ في دفع الرزق عنه ، فلم يندفع ! قال أحمد بن اسرائيل : فلمّا خرجت الى الشارع إذ أنا بالـهُبيْري ينتظر

خروج ابن الزيات ، فأخبرته بما وقع وما صار اليه . وبقي ينتظر ابن الزيات الى أن خرج فترجّل له وتشكّر ، فقال له : ألم أقل لأحمد بن اسرائيل يقول لك لا تشكرني ! فقال الهبيري : لا بدّ من ذلك ، لأنّ الله تعالى جَدّه أجرى رزقي على يديك . انتهى . وهذا مما قرّر الله تعالى به على خلاف ما يريده الفاعل لفعله .

لطيفة تندرج في سلك هذا النظام ويوشّح بها هذا الكلام .

وهي ما حكى الحميدي في كتاب جذوة المقتبس ، أنّ الوزير أبو عمر أحمد بن سعد بن حزم كان جالسًا بين يدي مخدومه أبي عامر محمد المنصور بن أبي عامر في بعض مجالسه العامة فرفعت اليه رقعةَ استعطاف لأمّ رجل مسجون كان المنصور اعتقله حِنْقًا عليه ، لجرم استعظمه منه . فلمّا قرأ المنصور الرقعة اشتدّ غضبه وقال : ذكّرتني /311ب/ والله به ! وأخذ القلم وأراد أن يكتب : «يصلب» فكتب : «يطلق» . ورمى الورقة الى وزيره المذكور ، فأخذ الوزير القلم وتناول ورقة ، وجعل يكتب بمقتضي التوقيع الى صاحب الشرطة . فقال له المنصور ما هذا الذي تكتب ؟ قال : بإطلاق فلان . فخرج وقال : من أمر بهذا ؟ فناوله التوقيع ، فلمّا رآه قال : وهِمت ، والله ليصلبنّ ! ثم خط على التوقيع الاول وأراد أن يكتب : «يصلب» فكتب : «يطلق» . وأخذ الوزير الورقة وجعل يكتب الى الوالي بالاطلاق ، فنظر اليه المنصور وغضب أشدّ من الاولى وقال : من أمر بهذا ؟ فناوله التوقيع الثاني ، فرأى خطّه فسكت . وخطّ عليه ووقّع ثالثًا فأراد أن يكتب : «يصلب» فكتب «يطلق» . وأخذ الوزير التوقيع وشرع في الكتابة الى الوالي ، فرآه المنصور ، فأنكر ذلك أكثر من المرتين الاولتين ، فأراه الوزير خطه بالاطلاق ، فلمّا رأى خطه بالاطلاق عجب من ذلك وقال : نعم ، يطلق على رغمي ، فمن أراد الله سبحانه إطلاقه لا أقدر أنا على منعه . انتهى

ذكر أنّ محمد بن البعيث بن الجليس صاحب أذربيجان خرج عن طاعة

المتوكّل ، وأظهر أنّه مات ، فٱلتفّت عليه الجموع من أهل تلك الناحية ولجأ الى مدينة مزيد فحصّنها وجاءته البعوث من كل جانب ، فقوي أمره واشتدت شوكته ، فوجّه اليه المتوكل جيشًا عرمرم مع بُغا السراي . فسار بُغا بجيشه العظيم في أبّهة ضخمة حتى بلغ /312/ ابن البعيث وتحدّق به وحاصره محاصرة عظيمة ، ونصب على بلده المجانيق وقاتله مقاتلة هائلة ، فبصر محمد بن البعيث هو وأصحابه ولا زال به بُغا حتى هزمه وأسره واستباح أمواله وحُرُمه وقتل خلقًا من رؤوس أصحابه وآسر سائرهم .

وكانت في تلك السنة باذربيجان زَلزلة عظيمة أقامت تُعاودهم سبعة أيام حتى دكّت المدينة ، وهلك عالم عظيم تحت الردم ، وشرعوا في مدينة غيرها . وانتصر بُغا المذكور على ابن البعيث ، وأخذه في أسره وكرّ راجعًا الى المتوكل .

فقدم الى سامرّا ومحمد بن البعيث معه أسيرًا هو وأخوه صفر وخالد ونائبه العلاء ومعه من رؤوس أصحابه نحو من مائة وثمانين إنسانًا ، فأُدخلوا على الجمال ليراهم الناس .

ومثُل محمد بن البعيث بين يدي المتوكل ، فأمر المتوكل بضرب عنقه وأحضر السيف والنّطع ، ثم قال له : ويلك يا ابن البعيث ، ما دعاك الى ما صنعت ؟! فقال : الشّقوة ، يا أمير المؤمنين ، وأنت الحبل الممدود بين الله تعالى وخَلْقه ، وإنّ لي فيك لظنيْن أسبقهما الى قلبي أوْلاهما بك ، وهو العفو ! ثم اندفع يقول بديهة :

أبَى الناس الاّ أنّك قاتلي . . . إمامَ الْهُدى والصّفحُ بالمرء أجمَلُ
وهل أنا الاّ حيلة من خطية وعفوك من نور النبوة يجملُ
وإنك خير السابقين الى العلا ولا شكّ أنّ خير الفعّالين يفعلُ /312ب/

فقال المتوكل : إنّ معه لأدبًا ! وعفى عنه . ويقال بل تشفع فيه ابنه المعتزّ فشفّعه فيه . ويقال بل أُودع في السجن في قيود ثقيلة ، ولم يزل حتى هرب بعد

ذلك . والاول أصحّ .

كان بُغا من أكبر القواد وأصحاب السيف والنجدة يعدّه المتوكل للمهمات .

وكان وجّهه أيضًا الى اسحاق بن اسماعيل صاحب مدينة تفليش حين عصى. فسار اليه بغا وقاتله ، فأنتصر عليه بعد المحاصرة ورمي المجانيق وآسر اسحاق المذكور . فأمر بُغا بضرب عنقه وصلبه ، وأمر بالقاء النار في النفط ورمى بذلك المدينة . وكان أكثر بنائها من خشب الصّنوْبر ، فأُحرق أكثرها وأحرق من أهلها نحوًا من خمسين نفرًا ، وطفئت النار بعد يومين ، ودخل الجند المدينة ، فآسروا من بقي من أهلها ، واستَلَبوهم وخلعوا ثياب الموتى ، وغنموا مغنمًا عظيمًا .

ثم سار بُغا الى مدن أخرى ، ممن كان أهلها على محمد بن يوسف نائب أرمينية ليأخذ بثأره ويعاقب من تجرأ عليه .

وذلك أنّ ابن يوسف المذكور كان قبل هذا قبض على بطْريق كبير من أهل تلك الناحية وبعث به الى باب الخليفة المتوكل . فأتفق بعد بعثه إياه أن سقط على تلك البلاد ثلج عظيم فأغتنم الروم الفرصة وتحزّب أهل ذلك البطريق وحاصروا محمد بن يوسف المذكور ، فخرج لقتالهم فقتلوه وطائفة من المسلمين ممن كان معه ، وهلك خلق كثير من شدة الثلج والبرد . فبلغ المتوكل ما وقع من ذلك الامر الفضيع ، فوجّه الى تلك الناحية بُغا في جيش كثيف ، فسار بُغا في جحافله يقتل ويَسْبي الى أن قتل من أهل تلك الناحية ممن حاصر ابنَ يوسف المذكور نحوًا من ثلاثين ألفًا ، وآسر منهم نحوًا من عشرين ألفًا ، ثم سار بُغا الى بلاد الروم ودخل كور السرخان ، وسلك مدنًا كثيرة ومهّد تلك الممالك ، وعاد الى المتوكّل سالمًا غانمًا .

لطيفة

قيل كان ممن خرج على المتوكل رجل ادّعى النبوءة ، وادعى أنه نوح عليه السّلام ، وتبعه جماعة وشغَب على العامة ، فأُخذ وجيء به الى المتوكل فأمر بصلبه ، فصُلب على خشبة ، وكان رجل من أصحابه تحته واقف ، فقال : ما زلت تزعُم أنّك نوح حتّى صُلب على صاري السفينة ! فضحك الناس منه .

وخرج على المتوكل آخر يقال له محمود بن فرج النّيسابوري ، وادعى أنه نبيء ، وأنّه ذو القرنين ، وتبعه سبعة وعشرون رجلا ، وقد نظَم لهم كلامًا في مصحف له ، وزعم أنّ جبريل عليه السلام جاءه به من الله تعالى فجاءوا به وبأصحابه الى المتوكل ، فأمر المتوكل أصحابه بصفعه ، فصفعه كلّ واحد منهم عشر صفعات . وضُرب حتى مات من الضّرب وحُبستْ أصحابه . انتهى كله من المسوّدة .

قيل إن المتوكل كان ليلة على شرابه ومعه ايتاخ حاجبه ، وكان ايتاخ من موالي أبيه المعتصم ، وهو خزري ، كان طبّاخًا لسلاّم الابرش ، مغنّي الرشيد فأشتراه المعتصم في سنة /313ب/ تسع وتسعين ومائة ، فرفع منزلته وحظي عنده ثم عند الواثق بعده ، وزاده الواثق بأن ضمّ اليه أعمالا كبيرة . وكذلك حظي عند المتوكل أيضًا . وكانت له منزلة ومكانة ، وكان ذا رَجلة وشهامة ونهضة . فلمّا جالس المتوكل على الشّراب وعلا بينهم وظهرتْ شيمة السُّكر ، عربد المتوكلُ على ايتاخ فوقع له هضْم بين الحاضرين ، فهمّ ايتاخ بقتل المتوكل ، ولم يتمكّن منه ذلك . فلما كان الصباح لاطفه المتوكل واعتذر اليه وقال له : أنت أبي ورئيسي وأنت رئيس دولتي ، فلا تأخذْك حالات السُّكر .

ثم دسّ المتوكل الى ايتاخ من يشير عليه بالحج . فاستأذن المتوكلَ في الحج ولم يعلم أنه دسيسةٌ منه . فأذن له في ذلك وخرج مكرَّمًا في سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وولّى وصيف الخادم الحجابة عِوضًا عن ايتاخ . وبالغ المتوكل في

إكرام ايتاخ في سفره ذلك ، وأمر كلّ بلدة يحلّ بها تخرُج القواد في خدمته الى طريق الحج . وحصلت له همّة وضخامة أكثر مما هو فيه ، مع أنه من الامراء الكبار ، ووالي مكة والمدينة ، فحج في أبّهة عظيمة . ورجع يريد سامراء حيث هو الخليفة المتوكل . وكان المتوكل إذاك من أغلظ الناس عليه إلا أنّه مُظهر الإكرام له ولـمّا بلغه مَقْدمه ودخوله سامراء وجه لملاقاته هدايا تُشعر بتعظيمه ، وكتب الى اسحاق بن ابراهيم بن مصعب نائب بغداد أن يستدعي أيتاخ الى بغداد وتتلقاه وجوه /314/ بني هاشم تعظيمًا وإكرامًا لأيتاخ .

ففعل اسحاق ذلك ، واستدعى ايتاخ . وتلقّته وجوه بني هاشم وأعيان بغداد ، ودخل بغداد في هيئة حسنة ومَحفل عظيم ؛ ولـمّا ان استقرّ قبض عليه اسحاق بن ابراهيم ، عن أمر الخليفة المتوكل سرًّا . وقبض أيضًا على ابنيه مظفر ومنصور . واستراح باطن المتوكل ، وأُودِع ايتاخ وابناه السّجن ، الى أن هلك في سجنه ، وبقي ابناه فيه الى خلافة المنتصر ، فأطلقهما .

ولـمّا قُبض على ايتاخ قبض أيضًا على كاتبه سليمان بن وهب وعلى قدامة بن زياد النّصراني ، فأسلم تحت العقوبة . وكان هلاك ايتاخ بالعطش ، وذلك أنّه أكل في سجنه أكلا كثيرًا بعد جوع شديد ، ثم استسقى ماء فلم يُسق ، فمات عطشًا في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين .

وما أحسن ما قاله ابن المعتز في هذا المعنى من حكمه البليغة : أجهل الناس من كان للخِوان مُذلا وعلى السلطان مدلاً . من سعادة جَدّك وقوفك عند حدّك . حد العفاف الرّضى بالكفاف . من أطاع غيظه أضاع أدبه . الفهم شعاع العقل ، عادات السادات سادات العادات . المنية تضحك من الأمنية . ما لخرق الرقيع ترقيع . من أصلح فاسده أرغم حاسده . الرشوة رشاء الحاجات . فهذه جملة من الحكم يعلم بها ما كان فيه ايتاخ وما صار اليه بعد المناخ .

وعبد الله بن المعتز هذا ، هو حفيد المتوكل الخليفة المذكور . وكان عبد

الله بن المعتز استخلف يومًا وليلة ، كما قدّمنا ذلك على /314ب/ سبيل الاستطراد .

وكان ابن المعتز أديبًا بليغًا ، شاعرًا مطبوعًا ، مقتدرًا على الشعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، جيّد القريحة ، حسن الابداع للمعاني ، مخالطًا للعلماء والادباء ، معدودًا من جملتهم . وله تصانيف كثيرة ، منها كتاب الزهر والرياض ، وكتاب البديع ، وكتاب مكاتبات الاخوان بالشعر ، وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب أشعار الملوك ، وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب الجامع في الغناء ، وكتاب أرجوزة في ذم الصّبوح .

ومن كلامه : البلاغة البلوغ الى المعنى ولم [يطل] سفَر الكلام . وكان صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس والانيس البديع التأسيس . وله أشعار حسنة وتشبيهات بديعة ، فمن ذلك قوله :

سقَى المطيرة ذاتَ الظلّ والشجرِ ... وديْر عبْدون هطّال من المطرِ
فطالما أنبهتني للصّبوح بها ... في غُرّة الفجر والعصفور لم يطرِ
أصواتُ رهبان ديْر في صلاتهمُ ... سود المدارع نعّارين في السّحرِ
مُزنّرين على الاوساط قد جَعلوا ... على الرؤوس أكاليلا من الشّعرِ
كم فيهمُ من مليح الوجه مكتحل ... بالسّحر يكسِرُ جفنيه على حَوَرِ
لا حظته بالهوى حتى استقاد له ... طوعًا واسلفني الميعاد بالنظرِ /315/
وجاءني في قميص الليل مستترًا ... يستعجل الخطوَ من خوف ومن حذرِ
فقمتُ أفرش خدّي في الطريق له ... ذلا وأسحب أذيالي على الاثرِ
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا ... مثل القُلامة قد قُدّت من الظّفرِ
وكان ما كان مما لست أذكره ... فظُنّ خيرًا ولا تسأل عن الخبَرِ

وله في الخمرة المطبوخة ، وهو معنى بديع ، وفيه دلالة على أنه كان حنفي المذهب :

خليلي قد طاب الشراب المورّد وقد عدتُ بعد النسك والعود أحمدُ
فهاتا عقارًا في قميص زجاجة كياقوتة في درة تتوقّـدُ
يصوغ عليها الماء شباك فضة له حَلَق بيض تُحَلّ وتُعقدُ
وقتني من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها ليس يُجْحدُ

ومن ظريف شعره أيضًا :

ومفرْطق يسعى الى الندماء بعقيقة في دُرّة بيضاء
والبدر في أفق السّماء كدِرْهم ملقى على ياقوتة زرقاء

وهي طويلة وليست في ديوانه ، إلا أنّ الرواة أطبقوا /315ب/ على أنّها له ، ومن نادر شعره أيضًا :

إن هزّ أقلامه يومًا ليُعْملها أنساك كلّ كميّ هزّ عاملَهُ
وإن أقرّ على رقّ أناملــه أقرّ بالرقّ كتّب الانام لـهُ

وله أيضًا :

إذا تحدّثت عن قوم لتؤنسهم بما تحدّثت من ماض ومن آت
فلا تعُدْ لحديثٍ إنّ طبعهمُ مُوكل بمعاداة المعادات

وله أيضًا :

تحمّل أخاك على ما به فما في استقامته مطمعُ
وأنّى له خلُق واحد وفيه طبائعه الاربعُ

وله أيضًا :

وقد يلبس المرء خزّ الثياب ومن دونهم حاله مضنيَهْ
كمن يكتسي خدّه حُمرة وعلّتها ورَمٌ في الريهْ

ولـمّا اعتقله المقتدر وأراد قتله خنقًا أنشد قول أبي نواس يتمثّل به :

ما رعَى الدّهرُ آل برمك لـمّا　　أنْ رمى مُلكهم بأمر فضيعِ
إنّ دهرًا لم يَرْعَ عهـدًا لِيحيى　　غيرُ راع ذِمام آل الرّبيعِ

ثمّ أنشد لنفسه هذه الابيات :

تعَزّ أبا العبّـاس عن نفسـك　　وأنت هالكٌ كان أو هـو كائن
حوادث أيّام تـدور صروفها　　لهنّ مساو مـرّة ومحـاسنُ
وفي الحيّ بالميْت الذي غُيّب الثّرى　　فلا أنت مغبونٌ ولا الموتُ غابنُ

وكان عبد الله المذكور يكنّى بأبي العبّاس واسمه عبد الله بن المعتزّ بن المتوكّل المحدّث عنه هنا . انتهى .

ذكر في كتاب الفرج بعد الشدّة (51 ـ 52 ، والقراءة فيه مشوّهة للمعنى في كثير من المواضع) أنّ أبا أيّوب سليمان بن وهب ، قال : كنت كاتب أيتاخ ، المذكور ، وساعة قُبض عليه ببغداد قبض المتوكل عليّ بسُرّ من رأى وسلّمني إلى عبيد الله بن يحيى . وكتب المتوكل الى اسحاق بن ابراهيم بن مصعب أن يقدِم من بغداد الى سرّ من رأى ليتقوّى به على الاتراك لكثرة الطاهريّة بخراسان وكثرة شوكتهم . فدخل اسحاق بغداد ، ومعه بضعة عشرة ألفًا . ولـمّا استقرّ اسحاق بسرّ من رأى أمر المتوكل بتسليمي اليه ، وقال له : هذا عدوّي ، فصَلّْ عظامه ، فإنه كان يلقاني في أيام المعتصم ، فلا يبدؤني بالسّلام ، وأبتدره لحاجتي اليه فيردّ اليّ كما يرد المولى على عبده ؛ وكل ما دبّره ايتاخ فعن رأيه !

فأخذني اسحاق وقيّدني بقيد ثقيل ، وألبسني جبّة صوف وحبسني في كنيف وأغلق عليّ خمسة أبواب ؛ فكنت لا أعرف الليل من النهار . فأقمت كذلك نحو عشرين يومًا لا يفتح عني الباب إلا دفعة كل يوم وليلة ، يُدفع اليّ فيها خبز وملح وماء حار . فكنت آنس بالخنافس وأتمنى الموت لشدة ما أنا فيه . فعرض لي ليلة أن أطلْت الصلاة وسجَدت ودعوت الى الله تعالى بالفرج

فما استتممت الدّعاء حتى سمعت أصوات الأقفال تُفتح ، فلم أشكّ في أنه القتل. ففُتحت الابواب وجيء بالشمع وحملني الفراشون لثقل حديدي ، فقلت /316ب/ لحاجبه : سألتك بالله أصدقْني عن أمري ؟ فقال : ما أكل الأمير شيئا اليوم ، لأنّ أمْرَك غليظ ؛ وذلك أنّ أمير المؤمنين وبّخه بسببك ، وقال سلّمتُ اليك سليمان بن وهب لتسُمَّه أو تستخرج ماله ؛ فقال الأمير أنا صاحب شُرط وسيْف فلا أعرف وجوه المناظرة على الأموال ، ولو قُرِّر أمْرُه بشيء لطالبته به ؛ فأمَرَ الكتّابَ بالاجتماع عند الامير لمناظرتك وإلزامك ما لا يؤخذ فيه خطّ ، وتُطالب به ؛ وقد اجتمعوا واستُدعيت لهذا .

قال فحُملتُ الى مجلس اسحاق ، فإذا فيه موسى بن عبد الملك صاحب ديوان الخراج ، والحسن بن محمد صاحب ديوان الضياع ، وأحمد بن اسرائيل الكاتب ، وعيسى بن ابراهيم كاتب الفتح بن خاقان ، وداود بن الجراح صاحب الزّمام . فطُرحت في آخر المجلس ، فشتمني اسحاق بن ابراهيم أقبح شتم وقال : يا فاعل ، يا صانع ، تعرّضني لاستبطاء أمير المموٴمنين . والله لأفرقنّ بين لحمك وعظمك ، ولأجعلنّ بطن الارض أحبّ اليك من ظهرها ؛ أين الاموال التى جمعتها من غير وجوهها ؟ فاحتججْتُ بنكبة ابن الزيات لي . فبدرني الحسن بن محمد وقال : أخذتَ من الناس أضعاف ما أدّيت ، وعادت يدك الى كتابة ايتاخ فأخذتَ ضياع السلطان فأقطعتَها لنفسك وحُزْتها ، وأنت تُغلّها ألفَ ألف درهم ، وتتزيّى بزي الوزراء ؛ وقد بقيتْ عليك من تلك المصادرة جملة لم توٴدّها !

وأخذت الجماعة تواجهني بكل قبيح الاّ موسى بن عبد الملك ، فإنه كان ساكتًا لصداقة كانت بيننا /317/ . فأقبل من بينهم على اسحاق ، وقال : يا سيّدي ، تأذن لي في الخلوة لأفصِل أمره ؟ فقال اسحاق : افعل .

فاستدناني ، فحُملت اليه فسارّني وقال : عزيزٌ عليّ يا أخي حالك ، وتالله لو كان خلاصُك بنصف ما أملك لافتديْتك به ؛ ولكن صورتك قبيحة ، وإن

خالفتني فأنت والله هالك ! فقلت : لا أخالفك . فقال : الرأي أن تكتب خطك بالتزام عشرة آلاف ألف درهم تُؤديها في عشرة أشهر ، في كلّ شهر ألف ألف درهم ، فتترَفّهَ عاجلا مما أنت فيه . فسكتُّ سكوتَ مبهوت . فقال لي : ما لك ؟ فقلت : والله ما أرجع الى دفعها الا بعد بيع عقاري ؛ ومن يشتريه مني وأنا منكوب ، وكيف يتوفّر الثمن ؟! فقال : أنا أعلم أنك صادق ولكن آحرُس نفسك عاجلا بعظيم ما تبذله ويُطمّع فيه من جهتك ؛ وأنا من وراء الحيلة لك في شيء أُميِّل به رأي الخليفة إلى صلاحك ، والله المعين ، ومن ساعة الى ساعة فرج ، ولا تتعجل الموت ، ولو لم تستفد الا الراحة مما أنت فيه يومًا . فقلت : لست أتّهم ودّك ولا رأيك ، وأنا أكتب .

فأقبل على الجماعة وقال : يا سادتي ، إني قد أشرت عليه أن يكتب شيئًا لا طاقة له بأكثر منه ، ورجوت أن نعاونه بأموالنا وجاهنا ليتمشّى أمره ، وقد وافقته أن يكتب بكذا وكذا . فقالوا : الصواب أن يفعل هذا . فدُعي له بدواية وقرطاس ، وأُخذ خُطة بالمال على نجومه . فقام موسى وقال لاسحاق : يا سيّدي ، هذا رجل قد صار للسلطان عليه بيت مال وسبيله /317ب/ أن يرفّه ويحرُس نفسه ويُنقل عن هذا الحال ؛ ويغيّر زيّه ويردّ جاهه بإنزاله في دار كبيرة وإخدامه بفرش وآلة وأثاث حسن ، ويمكّن مَنْ يؤثِر لقاءه من أهله وولده وما شئت ومعامليه ليجدِّ في تحصيل الاموال ، فيعينه الناس ويبيع أملاكه ويرتجع ودائعه ممن هي عنده ! فقال اسحاق : أفعلُ الساعةَ ذلك ، وغدا أُخرجه الى دار كبيرة كما وصفتَ وأمكّنه من جميع ما التمست له .

ونهضتْ الجماعة ، فأمر اسحاق فأُخِذ بيدي في الحال الى الحمام . فحُملت الى الحمام وجاءوني بخلعة نظيفة وبخور طيّب ، فلبستها وتطيّبت ودخلت على اسحاق . فنهض اليّ ولم يكن في مجلسه أحدٌ ، فأعتذر لي مما خاطبني به وقال : أنا صاحب سيف ومأمور ، ولقد لحقني اليوم من أجلك سَماعُ كل مكروه حتى امتنعت والله من الطعام ، بأن أُبتلَى بقتلك أو بعَتْب

الخليفة من أجلك ، وإنما خاطبتك بذلك إقامةَ عذر عند هؤلاء الاشراف ليبلّغوا الخليفة ذلك ، وجعلتُه وقايةً لك من الضّرب والعذاب . فشكرته ، وقلت ما حضرني من الكلام .

فلمّا كان من غد حوّلني الى دار كبيرة مفروشة ، ووكّل بي فيها عشرة على إحسان وإجلال ، واستدعيْت كلّ من أردتُ وتسامع الناس بأمري وجاءوني . فأُفرِج عني ومضت سبعة وعشرون يومًا وقد أعددت ألف ألف درهم ، مالَ النجم الاول ، وأنا أتوقّع أن يطلب المال فأؤدّي . فإذا أنا بموسى بن عبد الملك قد دخل اليّ ، فقمت اليه . فقال : /318/ أبشر ! فقلت ما الخبر ؟ قال : ورد كتاب صاحب مصر بمبْلغ مالها لهذه السنة مُجملا ، ومبلغ المجمل والنفقات الى أن يُنْفِذَ حسابًا مفصلا ؛ فقرأ عبيد الله ذلك على أمير المؤمنين ، فوقّع إليّ بإخراج العَيْن بمصر ليعرِّفه آثار العامل ، فأخرجتها من ديوان الخراج والضياع ، لأنّ ضياع مصر تجري في ديوان الخراج وتجري في ديوان الضياع ويُنفَذُ حسابها الى الديوانيْن كما علمتَ ، وجعلتُ سنتك التي توليت فيها عمالة مصر مصدَّرة وأفردتُ بعدها السنين الناقصة عن سنتك تلطفًا في خلاصك ، وجعلت أقول النقصان في سنة كذا وكذا عن التي صدّرتُها كذا وكذا . فلمّا قرأ عبيد الله الفضْلَ على الخليفة المتوكل قال : هذه السنة الوافرة من كان تولاّها ؟ فقلتُ : سليمان بن وهب ، يا أمير المؤمنين . فقال المتوكل : لم لا يُردّ اليها ؟ فقلت : وأين سليمان ، يا أمير المؤمنين ، ذلك مقتول بالمطالبة ، قد استصفي وافتقر ! فقال : تزال عنه المطالبة ويعاون بمائة ألف درهم ويعجّل إخراجه ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، وتُردّ ضياعه ليُرفع جاهه ؟ قال : ويُفعل ذلك !

وقد تعذّر إليّ عبيد الله بهذا ، واستأذنته في أن أجيئك وأخرجك ، فأذن لي . فقم بنا الى الوزير ! وقد كان أُرسل الى اسحاق برسالة الخليفة يأذن له في إطلاقي . فخرجت من وقتي ، ولم أُؤدّ من مال النّجم الاول حبّة واحدة ،

ورددته الى موضعه . وجئت الى عبيد الله ، فوقّع لي بمائة ألف /318ب/ درهم معونة على سفري ، ودفع اليّ عهد مصر ، فخرجت اليها مسرورًا ناعمًا . انتهى .

ذكر أنّ المتوكل كان ـ رحمة الله تعالى عليه ـ عُريًا عن الاعتزال والتشييع ، فإنه خالف أخاه وأباه فيما يعتقدونه ، واتّبع السنّة وأظهرها وأرتفعت في أيامه ارتفاعًا بيّنًا ، وكتب الى الآفاق بالمنع من الكلام والكفّ عن القول بخلق القرآن وأظهر إكرام العلماء ممن كان من أهل السنّة ، والتعظيم لهم .

وأمر بإنزال جثث أحمد بن نصر المصلوب في محنة القول بخلق القرآن في خلافة الواثق . فأنزله المتوكل وجمع بينه وبين رأسه ودفعه الى أوليائه . ففرح الناس لذلك ، واجتمع خلق كثير من العامة على جنازته ، وجعلوا يتبرّكون به ويتيمّنون بأعواد جنازته وبالجدار الذي كان مصلوبًا فوقه تبركًا ، واستبشر الناس بذلك وفرحوا بأتباع الخليفة السنّة ، وبحُسْن صنيعه .

وكان المتوكل راعى كثيرًا اتّباع السنّة ، حتى كان أمر أهل الذمّة أن يتميّزوا عن المسلمين في العِمامة والثياب ، وأن يتطلسموا بالمصبوغ العسلي ، وأن يكون على غلمانهم رقاع مخالفة للون ثيابهم ، وأن يكونوا بالزنانير الحاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم ، وأن يحملوا في رقابهم كُرات من خشب كبيرة وأن لا يركبوا خيلا ، وليكن ركابهم من خشب ، وأن لا يستعملوا في شيء من /319/ الدواوين التي تكون لهم فيها حكم على مسلم ، الى غير ذلك . وأمر أيضًا بتخريب كنائسهم المحدثة ، وتضييق منازلهم المتسعة ، فيؤخذ منها العُشر ، وأن يعمل مما كان من ذلك متّسعًا مسجدًا ، وأمر أيضًا بتسوية قبورهم بالارض ، وكتب بذلك الى سائر الاقاليم والى كلّ بلد وقرية ورستاق ، وأظهر السنة وإكرام العلماء .

ثم إنه استدعى الامام أحمد بن حنبل من بغداد ، فأجتمع به و أكرمه ورفع منزلته ، وأمر له بجائزة سنية ، فلم يقبل منها شيئا . وخلع عليه خلعة سنيّة من

ملابسه ، فآستحى منه ولبِسها الى الموضع الذي كان نازلا فيه ، فنزعها نزعًا عنيفًا ، وهو يبكي . وجعل المتوكل يرسل اليه في كل يوم من طعامه الخاص ، فظنّ المتوكل أنه يأكل منه ، وهو ـ رضي الله تعالى عنه ـ لا يأكل لهم طعامًا بل كان صائمًا واصلا ، يطوي تلك الايام كلها ، لأنه لم يتيسّر له طعام يرضي أكله . وكان ابناه عبد الله وصالح يقْبلان تلك الجوائز وهو لا يشعر بشيء من ذلك . قال صالح ابنه : فلو لا أننا أسرعنا به الى بغداد لكنتُ أخشى أن يموت الشيخ من الجوع .

وكان المتوكل يُجلّه ويعظمه حتى كان لا يولّي أحدًا الاّ بعد مشورته . وكان استشاره في يحيى بن أكثم ، فولاه القضاء بمشورته ؛ وذلك أنّ المتوكل غضب على أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي ، وكان على المظالم ، فعزله عنها لاعتزاله وولى يحيى بن اكثم قضاء القضاة والمظالم أيضًا ، وذلك /319ب/ بمشورة الامام أحمد بن حنبل . وكان الامام أحمد يشير على المتوكل بالصلاح ، وإنما أشار عليه بيحيى بن أكثم ، وإن كان عزل عن القضاء بعد أن وليه ، لانّه كان من أئمة السنّة ومن المعظمين للكتاب والفقه والدين ، وسليم من البدعة ، فولاه لذلك القضاء . ولـمّا تولى القضاء صار يولّي من جهته أهل السنة ، فولى حِبّان بن بشر قضاء الغربية من بغداد ، وولّى سَوّار بن عبد الله قضاء الجانب الشرقي ، وكلاهما كان أعور ، فقال فيهما بعض أصحاب ابن [أبي] دؤاد المعزول :

رأيتُ من الكبائر قاضيين ... هما أحدوثة في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين بذا ... كما اقتسما قضاء الجانبين
ويحسب منهما من هزّ رأسًا ... لينظر في مواريثٍ ودين
كأنك قد وضعت عليه دَنّا ... فتحت بزاله من فرد عين
هما كما قال الزمان بهُلك يحيى ... إذا فتح القضاء بأعورين

لـمّا غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد أمر بالاحتفاظ على ضياعه ، وأخذ ابنه أبا الوليد محمد ، وأمر بمصادرته لأن أباه كان مفلوجًا غائبًا على عين الخليفة . فحمل أبو الوليد بتلك المصادرة مائة ألف دينار وعشرون دينار ، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم . ثم نفاهم الخليفة ، هو وأبوه وأهلهم من سامراء الى بغداد ، مُهانين . وطالت الالسن فيه فقال أبو العتاهية يعرِّضه :

/320/ لو كان في الرأي منسوبٌ الى رشد ... وكان عزمه عزمًا فيه توفـــيقُ
لكان في الفقه شغلٌ لو قنعتَ به ... عن أن تقول كتابُ الله مخلوقُ
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ... ما كان في الفرع لو لا الجهل والموقُ

وامتدت فيه الالسن وارتفعت بوضع السنّة ، وتُعُظِّم أهلها وأُكرِم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه إلى أن مات مكرّمًا معظمًا .

قال المؤيّد : في سنة إحدى وأربعين ومائتين توفّي الإمام أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس ، ينسب إلى معدّ بن عدنان . وكانت وفاته في ربيع الاوّل منها ، وكان مجتهدًا ورعًا زاهدًا صدوقًا . روى عنه مسلم والبخاري وابو داود وابراهيم الحربي . قال الشافعيّ خرجت من بغداد وما خلّفت بها أحدًا أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل . انتهى كلام المؤيّد .

ومات ابن ابي دؤاد في خلافة المتوكل أيضًا في سنة سبع وثلاثين ومائتين مفلوجًا مهانًا ، بعد المرتبة العليا والعزّ الوافر والحظوة عند الخلفاء من المأمون ومن بعده إلى المتوكل . انتهى

قال صاحب كتاب الفرج بعد الشدّة : وجدت في بعض الكتب أنّه أوتي بالجاحظ إلى أحمد بن ابي دؤاد بعد نكبة محمد بن عبد الملك الزيّات مقيّدًا في قميص رثّ ، فقال له ابن ابي دؤاد : والله يا عمرو ما علمتك إلا متناسيًا للنعمة ، جاحدًا للصنيعة ، معدِّدًا للمثالب ، /320ب/ مُخفيًا للمناقب ؛ وإنّ الايّام لا تُصلح مثلك ، لفساد طويّتك ، وسوء اختيارك ! فقال له الجاحظ :

حفظ الله عليك ، فوالله لأن تكون المنّة لك عليّ خيرٌ من أن تكون لي عليك ، ولأن أسيء وتُحسن أحسن في الأحدوثة عليك ، ولأن تعفو في حال قدرتك أجمل بك من أن تنتقم . فقال له ابن ابي دؤاد : ما علمتك إلا كثيرَ رونق اللّسان ، قد جعلت بيانك أمام قلبك ، ثمّ اصطفيت فيه النّفاق . أُغرُبْ قبّحك الله !

فأُنهض في قيوده . ثمّ قال : يا غلام ، ألحقْه ، فخذ حديده ، وصوبّه إلى الحمّام ، واحمل إليه خِلعة يلبسها واحمله إلى منزل تبوّؤه إيّاه بفُرُش وفراش وآلة وقماش ، وادفع إليه عشرة آلاف درهم لنفقته ، إلى أن أُصلح من حاله . ففعل ذلك به . فلمّا كان من الغد رُئي الجاحظ متصدّرًا في مجلس ابن ابي دؤاد ، عليه خلعة من ثيابه وطويلة من قلانسه وهو مُقبل عليه بوجهه يقول : هات يا أبا عثمان . انتهى .

وكان الجاحظ قد تعلق بأسباب ابن الزيات . فلما قُتل ابن الزيات قيّد الجاحظ وسُجن ثمّ أُطلق . وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ صاحب التّصانيف المشهورة . كان كثير الهزل نادر النّادرة . خالط الخلفاء ونادمهم . أخذ العلم عن النّظام المتكلّم . وكان جاحظ العينين كاسمه .

قال الجاحظ : ذُكرت للمتوكل لتعليم ولده ، فلمّا مثُلت بين يديه بسامرّاء استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني . وصنّف الجاحظ كتبًا كثيرة ، منها /321/ كتاب البيان والتبيين ، جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وكتاب الحيوان ، وكتاب الغلمان ، وكتاب في الفرق الاسلامية .

قال المبرد : دخلت على الجاحظ في مرضه ، فقلت : كيف أنت ؟ فقال كيف مَنْ نصفه مفلوج ولو نُشر ما أحسّ به ، ونصفه الآخر منَقرس لو طار الذباب عليه آلمه . وقد جاوز التسعين ، ثم أنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ   كما قد كنتَ أيام الشبابِ

لقد كذّبتك نفسك ليْس ثوبٌ   دَرِيسٌ كالجديد من الثيابِ

وقد روي أن موته كان بوقوع مجلّدات عليه ، وكان من عادته أن يصُفّها قائمة كالحائط محيطة به وهو جالس اليها ، وكان عليلا ، فسقطت عليه فقتلته في محرم سنة خمس وخمسين ومائتين ، في خلافة المهتدي بالله . انتهى من مختصر الملك ، رحمه الله .

ذكر أنّ المتوكل مع ما كان فيه من اتّباع السنّة والحمل عليها كان شديد البغض لعليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ولأهل بيته . كذا حكاه النويري في تاريخه . وكان اعتقل جملة من أعيان العلويين ، وكان كثيرًا ما يسعون فيهم اليه . وكان من شدة بغضه للعلويين أمرُه بهدم قبر الحسين بن علّي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، ونادى في الناس : من وُجد ههنا بعد ثلاثة دُفع الى المطبق ! فلم يبق هناك بشر . واتّخذ /321ب/ ذلك المكان مزرعة تحرّث .

فغاض الناس ذلك وأحزنهم وقال الشامي في ذلك :

تالله إن كانت أميّة قد أتت   في قتْل ابن نبيّها مظلومًا
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله   هذا لعمرك قبرُه مهدومًا
اسِفوا على أن لا يكونوا شاركوا   في قتله فتتبّعوه رَميمًا

وكان المتوكل يجالس من اشتهر ببغض عليّ رضي الله تعالى عنه ، مثل ابن الجهم ، وأبو السِّمط من وُلد مروان ابن أبي حفصة ، مولى بني أميّة المقدّم ذكره ، وعبادة المخنّث وغيرهم .

قال بعضهم : كان المتوكل من أحسن الخلفاء سيرة ، ومنع الناس من القول بخلق القرآن ، فغطّى حسناته بذمّ عليّ ونبش قبر الحسين رضي الله عنهما .

حكي أنّ المتوكل قال لأبي يوسف يعقوب بن السكّيت : أيّما أحبّ إليك ابنائي المعتز والمؤيّد أم الحسن والحسين ؟ فغضّ ابن السّكيت من ابنيه وذكر من

الحسن والحسين ما هما أهله . فأمر مماليكه فداسوا بطنه ، فحُمل إلى داره فمات بعد غد ذلك اليوم . وقيل إنّ المتوكل لـمّا سأل ابن السّكيت عن ولديه وعن الحسن والحسين قال له ابن السكّيت : والله إن قنبر خادمُ عليّ خيرٌ منك ومن أولادك ! فقال المتوكّل : سُلّوا لسانه من قفاه ! ففعلوا ذلك ، ومات لساعته في رجب سنة أربع وأربعين ومائتين وعمره ثمان وخمسون سنة :

وكان إمامًا في اللغة والأدب ، وله كتاب إصلاح المنطق في اللغة وغيره . والسكّيت بكسر السّين /322/ المهملة وتشديد الكاف فُعّيل إسم لكثرة السكوت والصمت ، انتهى . كذا ذكر المؤيّد .

ذكر بعض أهل السنّة وكان من الثّقات قال : رأيت عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في المنام ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، تفتحون مكة ويقولون من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ثمّ يتم على ولدك الحسن ما تمّ ! فقال : ما سمعتَ أبيات ابن الصيفي في هذا ؟ قلت : لا . قال : اسمعها منه . ثم انتبهت فبادرتُ إلى دار حيْص بيْص فذكّرت له الرؤيا ، فشهِق وبكى وحلَف بالله لم يخرج من فيه أو حرف إلى أحد وما نظمتُها إلا في ليلتي ، ثمّ انشدني :

ملكنا فكان العفو منّا سجيّة فلمّا ملكتم سـال بالدّم أبطُحُ
وحللتمُ قتلَ الأسارى فقل ما غدونا من الأسرى نعُفُّ ونصفَحُ

وحيْص بيْص ، هو سيّد بن محمد ، أبوالفوارس التميمي ، ويعرف بابن الصيفي . ولقّب حيْص بيْص لأنه رأى الناس يومًا في حركة مزعجة وأمر شديد فقال حيْص بيْص : ما للنّاس ، في حيْص بيْص ! فبقي عليه هذا اللقب ونظم الشعر ، فكان مجيدًا فيه . ومن محاسن شعره :

يا طالب الرّزق في الآفاق مجتهدًا أقصر عناءك فإن الرِّزق مقســومُ
الرّزقُ يسعى الى من ليس يطلبه وطالب الرّزق يسعى وهو محرومُ

وله أيضًا :

ياطالب الطبّ من داء أصيب به /322ب/ ان الطبيب الذي ابلاك بالداء
هو الطبيب الذي يُرجى لعافية   لا من يُذيق لك التّرياق في الماء

وله أيضًا :

انفقْ ولا تخْش إقلالا فقد قُسِمت   على العِباد من الرّحمن أرزاقُ
لا ينفع البخـل من دنيا مولّية   ولا يضُرّ مع الإقبـال إنفاقُ

وله :

أَلْهُ عمّا استأثر الله به   أيها القلب ودع عنك الخرَقْ
فقضاءُ الله لا يدافـعه   قولُ محال إذا الأمر سبَـقْ

وكان إذا سئل عن عمره يقول : أنا أعيش في الدنيا مجازفة ، لأنه كان لا يحفظ مولده . وتوفي رحمه الله سنة أربع وسبعين وخمسمائة . انتهى . كذا في المسوّدة .

ذكر النويري في تاريخه : أنّ المتوكل كان على شرابه وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث ، فكان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مِخدّة ، ويكشف رأسه وهو أصلع ، ويرقص ويقول : أقبل الأصلع البطين على خليفة المسلمين ، يعني بذلك عليًّا ! والمتوكل يشرب ويضحك . وفعل ذلك يومًا بحضرة المنتصر ولد المتوكل . وكان يجلّ عليا رضي الله تعالى عنه ، فقال لأبيه : يا أمير المؤمنين ، لو علموا رضاك في سبّ الملائكة والرّسل لفعلوا ، وإنّ عليا ابن عمّك ، فكل أنت من لحمه إن شئت ، ولا تخلّي /323/ مثل هذا الكلب وأمثاله يطمع فيه ! فقال المتوكل للمغنّين غنّوا :

غار الفتَى لابن عمّهْ   رأسُ الفتى في حَرِ أُمّهْ

انتهى .

وروى أبو هاشم الحباني : دخل أبو السمط مروان بن أبي الجنون على المتوكل بقصره بالماخورة فأنشده :

الصِّهر ليس بوارث والبنت لا ترث الإمامة
لو كان حقّهم لهم قامت على الناس القيامة
أصبحتُ بين مُحبّكم والمبغضين لكم علامة

قال : فحشَى المتوكل فاه بجوهر لا يُدرى قيمته . انتهى .

وكان أبو السمط يتشبّه بجدّه مروان بن أبي حفصة في الشِّعر ، وكان يمدح المتوكل ويتقرّب اليه بهجاء آل أبي طالب ، فتمكّن عنده وقرُب منه وكسب مالا كثيرًا . فلما أفضت الخلافة الى المنتصر تجنّب مذهب أبيه وطرح أبا السمط وحلف ألاّ يدخل عليه أبدًا ، لِما كان يسمعه منه في عليّ رضي الله تعالى عنه .

قال المرزبان حاجب المنتصر : استأذن مروان على المنتصر لـمّا وليَ الخلافة فقال : والله لا أذِنت للكافر ابن الزانية ، أليس هو القائل :

وحكّم فيها حاكمين أبوكما هما خلعاه خلع النّعل بالنّعلِ

قولوا له : والله لا وصلتَ اليّ أبدًا ! فمضى .

وقال قصيدته التي يقول فيها :

لقد طال عهدي بالامام محمّد وما كنت أرجو أن يطول به عـهدي /323ب/
وأصبحتُ ذا بُعْد وداري قريبةٌ فوا عجبًا من قُرب داري ومن بُعدي

فغُنّي بها المنتصر . فسأل عن قائلها ، فأُخبر أنها لأبي السمط ! فقال : أمّا الوصول اليّ فلا ، ولكن اعطوه عشرَة آلاف درهم ، يتحمّل بها الى اليمامة . فأعطوه ذلك فأخذها وانصرف . انتهى .

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان : أنّ المتوكّل قد سعى اليه بعض الاشقياء

بأبي الحسن عليّ الهادي ، الملقب بالعسكري ، وهو ابن محمّد بن الجواد بن عليّ الرّضا ، وكان من الائمة الاثني عشر عند الإمامية ، فاستقدمه المتوكل من المدينة وأسكنه بسرّ من رأى . ثم وُشي به الى المتوكل أنّ في منزله سلاحًا وكتبًا وغيرها من شيعته ، وأوهموه أنه يطلب الأمر لنفسه .

فوجّه اليه عدّة من الاتراك ليلا . فهجموا عليه في منزله على غفلة ، فوجدوه وحده في بيت مغلق ، وعليه مِدْرعة من شعر ، وعلى رأسه مِلحفة من صوف ، وهو مستقبل القبلة يترنّم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد ، ليس بينه وبين الارض بساط الا الرّمل والحصى . فأُخذ على الصورة التي وُجد عليها وحُمل الى المتوكل في جوف الليل ، فمثُل بين يديه . وعرِّف أنه لم يكن في منزله شيء مما قيل عنه ، ولا حالة تتعلق عليها بها ، وكان المتوكل يستعمل الشراب وفي يده الكأس ، فلمّا رآه المتوكل أعظمه وأجلسه الى جنبه ، وناوله الكأس /324/ الذي بيده فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خامر لحمي ودمي قطّ ، فأعفني منه ! فأعفاه ، وقال له : أنشدني شعرًا أستحسنه . فقال : أني قليل الرواية للشعر ! قال : لا بدّ أن تنشدني . فأنشده :

باتوا على قُللِ الأجبال تحرُسُهم غُلْبُ الرِّجـال فما أغنتهم القُلَلُ
واستنزلُوا بعد عزّ عن معاقـلهم فأودِعــوا حُفَرًا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخٌ من بعد ما قُـبروا أين الأسـرّة والتِّيـجان والـحُلَلُ
فأفْصَحَ القبر عنهم حين ساءلـهم تلك الوجـوه عليها الدود يقتتلُ
قد طال ما أكلوا دهرًا وما شربُوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فبكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بُلّت لحيته بدموعه ، وبكى من حضره . ثم أمر برفع الشّراب ، وقال : يا أبا الحسن أعليك دين ؟ قال : نعم ، أربعة آلاف دينار ! فأمر بدفعها اليه ، وأمر له بمثلها ، وردّه الى منزله مكرّمًا .

كان أبو الحسن هذا يلقّب بالزكيّ والتقيّ والهادي والعسكري أيضًا . وإنما

لقّب العسكري لأنه سكن سرّ من رأى بأمر المتوكل الى أن مات بها .

وسرّ من رأى ، ويقال لها سامرّا أيضًا ، تلقب بالعسكر لأن المعتصم بالله لـمّا بناها انتقل اليها بعسكره ، فقيل لها العسكر بسبب ذلك . ولـمّا سكنها أبو الحسن المذكور نسب اليها . وكان مقامه بها عشرين سنة وتسعة أشهر ، وتوفي بها في جمادى الاخيرة سنة أربع وخمسين ومائتين . وكانت ولادته بالمدينة المشرّفة يوم الاحد ثالث عشر رجب ، وقيل يوم عرفة سنة أربع عشرة ، وقيل ثلاث عشرة ومائتين ، وهو عاشر الائمة الاثني عشر ، ووالده محمد الجواد توفي سنة عشرين ومائتين في خلافة المعتصم ، وولد سنة خمس وتسعين ومائة ، وولده الحسن العسكري بن عليّ الزكيّ بن محمد الجواد هو حادي عشر الائمة الاثني عشر ، ولد سنة ثلاثين ومائتين وتوفي سنة ستين ومائة في ربيع الأول ، وقيل في جمادى الاولى .

وثاني عشر الائمة الاثني عشر هو صاحب السرداب محمد المنتظر بن الحسن العسكري بن عليّ التقيّ بن محمد الجواد بن عليّ الرّضّا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين . ومحمد المنتظر المذكور يقال له القائم والمهدي والحجة ، ولد سنة خمسين ومائتين ، وإنما قيل له صاحب السِّرداب لأن الشيعة يقولون دخل سردابًا في دار أبيه بسرّ من رأى وأمّه تنظر ، فلم يعد يخرج اليها وعمره حينئذ تسع سنين ، وذلك في سنة خمس وستين ومائتين ، وفيه خلاف . انتهى كذا حكاه الملك المؤيد في مختصره مع ما ذكر ابن خلكان أيضًا . انتهى /325/

قيل إن أبا العيناء الضرير ، وأصله من موالي المنصور الخليفة ، فهو هاشمي بالولاء ، كان من أحفظ الناس وأفصحهم لسانًا ، وكان من أظرف العلماء ، وفيه من الذكاء والكيْس وسرعة الجواب ما لم يكن في غيره . ذكر له أن أمير المؤمنين المتوكل قال : لو لا أنّه ضرير لنادمته ! فقال : إن أعفاني من رؤية الأهلة

وقراءة نقش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة !

دخل يومًا على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري سنة ستّ وأربعين ومائتين فقال له : ما تقول في دارنا هذه ؟ فقال : إنّ الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك ! فآستحسن كلامه ، ثم قال له : كيف شربك للخمر ؟ فقال : أعجز عن قليله وأفتضح عند كثيره . فقال له : دع عنك هذا ونادمنا . فقال يا أمير المؤمنين ، أنا رجل مكفوف ، وكلّ من في مجلسك يخدُمك وأنا احتاج أن أُخدَم ؛ ولست آمن أن تنظر اليّ بعين راض وقلب غضبان ، أو بعين غضبان وقلب راض ، ومتى لم آمن بين هاتين هُلْكا ، فأختار العافية على التعريض للبلاء ! فقال له المتوكل : بلغنا عنك أنّك بذًا في لسانك ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ، قد مدح الله تعالى وذم ، فقال : «نعم العبد إنّه أوّاب» وقال عز وجل : «همّاز مشّاء بنميم منّاع للخير معتد أثيم» ، وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أُثْر صادقًا ولم أشتم النّكس اللئيم المذّمما
ففيم عرفتُ الخير والشرّ بآسمه وشقّ ليَ الله المسامعَ والعَمى /325ب/

فقال المتوكل : فمن أين أنت ؟ قال : من البصرة ؟ قال : فما تقول فيها ؟ قال : ماؤها أُجاج وحرّها عذاب ، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنّم . انتهى .

قيل كان أبو العيناء فيه سرعة جواب ، ولا يبالي حتى قيل إنه دخل يومًا على بعض الوزراء وجالسه في أصحابه ، فتفاوضوا في حديث البرامكة وكرّمهم وما كانوا عليه من الجود ، فقال الوزير لأبي العيناء وكان قد بالغ في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والاتصال : قد أكثرتَ من ذكرهم ووصفك إياهم ، وإنّما هذا تصنيف الورّاقين وكذب المؤلفين ! فقال أبو العيناء : فلم لا يكذِب الورّاقون عليك أيّها الوزير ؟! فسكت الوزير وعجب الحاضرون من إقدامه عليه .

شكى الى عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير سوءَ الحال فقال له : قد كتبنا الى ابراهيم بن المنذر في أمرك . قال : نعم ، قد كتبت الى رجل قد قصّر من هـمّته طولُ الفقر وذُلّ الأسر ومعاناة الدهر ، فأخفق معي وجانبَ . فقال عبيد الله : أنت اخترته ! فقال : وما عليّ أيها الوزير في ذلك ، وقد اختار موسى من قومه سبعين رجلا فما كان فيهم رشيد ، وآختار النبيء ﷺ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتبًا فرجع الى المشركين مرتدًا ، وآختار عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أبا موسى الاشعري حكَمًا له فحَكم عليه .

وإنما قال ذلّ الأسر ، لأنّ ابراهيم المذكور كان قد أُسره عليّ /326/ بن محمد صاحب الزنج بالبصرة ونقَب السجن وهرَب .

دخل يومًا على أبي الصّقر اسماعيل بن بلبل الوزير فقال له : ما الذي أخرّك عنّا يا أبا العيناء فقال : سُرق حماري ! قال : وكيف سرق ؟ قال لم أكن مع اللصوص فأخبرَك ! قال : فهلاّ أتيتنا على غيره . قال : أقعدني عن الشّراء قلة يساري وكرهت ذل المكاري ومِنّة العَواري .

خاصم علويّا فقال له العلوي : أتخاصمني وتشتُمني وأنت تقول اللّهم صلّ على محمد وعلى آله ؟! فقال : لكني أقول الطيّبين الطاهرين ، ولستَ منهم !

وقف عليه رجل من العامة فلمّا أحس به قال : من هذا ؟ قال : رجل من بني آدم ! فقال أبو العيناء : مرحبا بك ، أطال الله بقاءك ، ما كنت أظنّ هذا النسل الاّ قد انقطع !

صار يومًا الى باب صاعد بن مخلّد الوزير واستأذن عليه فقيل له : هو مشغول بالصلاة . فقال : لكلّ جديد لذة . وكان صاعد قبل الوزارة نصرانيًا .

مرّ بباب عبد الله بن منصور ، وهو مريض وقد صلح ، فقال لغلامه : كيف خبره ؟ فقال : كما تحبّ . فقال : ما لي لا أسمع الصراخ عليه .

دعا سائلا ليُعشّيه فلم يدع شيئا الا أكله ؛ فقال : يا هذا دعوتك رحمة

فتركتني رحمة !

لقيه بعض أصحابه في السَّحَر ، فجعل يعجب من بكوره فقال أبو العيناء : أراك تشركني في الفعل وتُفردُني بالتعجّب .

كان بينه وبين ابن مكرّم مداعبات ، فسمعه يقول : من ذهب بصره قلت حيلته . فقال : ما أغفلك عن أبي العيناء ذهب بصره وعظمت /326ب/ حيلته .

سمع ابن مكرم أبا العيناء يقول في بعض دعائه يا ربّ ، سائلك ! فقال : يا ابن الفاعلة ومن لستَ سائله !

قال له ابن مكرم يومًا يعرِّض به : كم عدد المُكدين بالبصرة ؟ قال : مثل عدد البغائين ببغداد !

لما سلم نجاح بن سلمة الى موسى الاصفهاني يستأْدِي ما عليه من الأموال فتلف في مطالبته ، فاجتمع بعض الرؤساء بأبي العيناء وقال : ما عندك من خبر نجاح ؟ فقال أبو العيناء : «وكره موسى فقضى عليه» فبلغت كلمته الى موسى فلقي أبا العيناء في الطريق فتهدده فقال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس !

كتب الى بعض الرؤساء وقد وعده بشيء فلم ينجزه : «ثقتي بك تمنعني من استبطائك ، وعلمي بشغلك يدعوني الى ادّكارك ، ولست آمن مع استحكام ثقتي بطوْلك والمعرفة بعلوّ همّتك اخترام الأجل ، فإنّ الآجال آفات الآمال ، فسَح الله في أجلك ، وبلغني منتهى أملك . والسلام» . وحاصل الأمر أن نوادره كثيرة وظرائفه غزيرة .

قال المؤيد : ولقب بأبي العيناء ، لانه قال لأبي زيد الأنصاري : كيف تصغّر عينًا ؟ فقال : عيينة يا أبا العيناء ! فبقي عليه لقبًا . وكانت ولادة أبي العيناء سنة إحدى وتسعين ومائة بالاهواز . ونشأ بالبصرة وتوفي بها في جمادى

الآخرة سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة ثمانين ومائتين .

روي عنه أنه قال : كنت عند أبي الجهم إذ أتاه /327/ رجل فقال : وعدتني وعدًا فإن رأيت أن تنجزه ؟ فقال : ما أذكره . فقال : إن لم تذكره فلأنّ مثلي من تعِده كثير ، وأنا لا أنساه لأن من أسأله مثلَك قليل ! فقال : أحسنتَ ، لله أبوك ! وقضى حاجته .

وما يحكى من ظرائف أخباره ما حدّث به أبو الفرج الاصفهاني قال : حدّثني جعفر بن قدامة قال حدّثني أبو العيناء قال : كنت أجالس محمد بن صالح ، من وُلْد عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وكان حُمل الى المتوكل أسيرًا فحبسه مدّة ثم أطلقه . وكان أعرابيًا فصيحًا مخبِّرًا ، فحدثني قال : حدّثني غيري ممن تحيّف العلالي وكان حسن الوجه حبيبًا قال : كان منّا فتى يقال له بشر بن عبد الله ، ويعرف بالأسير ، وكان يهوى جارية من قومه يقال لها جيدًا ، وكانت ذات زوج . وشاع خبره في حبّها ، فمُنع منها وضُيّق عليه حتى لم يقدر أن يلُمّ بها ، فجاءني ذات يوم وقال : يا أخي ، قد بلغ مني الوجد وضاق عليّ سبيل الصبر ، فهل تساعدني في زيارتها ؟ قلت : نعم .

فركبنا وسرنا يومين حتى نزلنا قريبًا من حيّها . فكمَن في موضع ، وقال لي : اذهب الى القوم فكن ضيفًا فيهم ، ولا تذكر شيئا من أمرنا حتى ترى راعية لجيدًا صفتها كذا وكذا فتُعلِمها خبري وتأمرها بأخذ موعد عليها . فمضيب ففعلت ما أمرني به حتى لقيت الراعية فخاطبتها ، ومضت الى جيدًا وعادت فقالت لي : قل له موعدك الليل عند تلك الشجرات في وقت كذا .

فمضيت اليه فأعلمته وجلسنا /327ب/ عند الشجرات في الوقت ، فإذا بجيدًا قد أقبلت ، فوثب الأسير اليها ، فقبّل عينيها فقمت مولّيًا عنهما ، فقال : لا ، نقسم عليك إلا رجعت ، فوالله ما بيننا ما نستره عنك ! فرجعت وجلسنا نتحدث فقال : يا جيدًا أما فيك حيلة فنتعلّل اليك ؟ فقالت : لا والله الاّ بأن تعود حالي الى ما تعرف من البلاء والشدة . فقال : ما من ذلك بدّ ولو وقعت

السماء على الارض . فقالت : فهل في صاحبك هذا خير ؟ فقلت : إيهًا اليه . فخلعتْ ثيابها ودفعتها اليّ وقالت : اِلبسها وأعطني ثيابك ! ففعلتُ فقالت : اذهبْ الى بيتي ، فإن زوجي سيأتيك العَتمة ويطلب منك القدَح ليتحلّب فيه الإبل فلا تدفعه اليه من يدك ، فهكذا كنت أفعل ، ودعه بين يديه ، فإنه سيذهب فيحلب فيه ويجيء به ملآن لبنًا ، فيقول هالكِ ، فلا تأخذه منه حتى تُطيل فكرك عليه ، ثم خُذه أو فدعْه حتى يضعه هو ، ثم لستَ تراه حتى تصبح .

فذهبتُ ففعلت ما أمرتني به وجاء بالقدَح ، فلم آخذه منه وأطلت النّكَد عليه ثم هويْت لآخذه وأهْوى ليضعه فاختلفتْ الايدي فانكبّ القدح ، فقال : إن الطِّماح مُفْرِط ! وضرب بيده الى سوطه ثم تناول جهتى فضرب ظهري بذلك السوط ثلاثين . فجاءت أمّه وأخته فانتزعوني من يده بعد أن زال عقلي وهممت بأن أُوجِئه بالسكين . فلمّا خرجوا عليّ لم ألبث الاّ يسيرًا ، فإذا بأم جيدًا قد دخلت عليّ تكلمني /328/ ، فلزمتُ الصمت والبكاء فقالت : يا بنيّتي اِتّقِ الله وأطيعي زوجك ، فأمّا الأسير فلا سبيل لك اليه ، وأنا أبعث اليك الليلة أختك تُؤنسك .

ومضتْ ثم بعثت اليّ بالجارية ، فجعلت تكلّمني وتدعو على من ضربني وتبكي وأنا ساكت ، ثم اضطجعتْ الى جانبي . فشددْتُ يدي على فمها وقلت: يا جارية إنّ أختك مع الأسير ، وقد قُطع ظهري بسببها وأنتِ أُولى بسترها منّي ، وإن تكلمتِ بكلمة فضحتِها وأنا لست أبالي ! فاهتزت مثل القضيب فزَعًا ثم ضحكت وبات معي منها أظرف الناس . فلم نزل نتحدّث حتى برق الفجر .

ثم خرجت وجئت الى أصحابي فقالت جيدًا : ما الخبر ؟ فقلت : سلي أختك عن الخبر ، فلعمري إنها عالمة به ! ودفعت اليها ثيابها وأريتها ظهري فجزعت وبكت ومضت بسرعة وجعل الأسير يبكي وأنا أحدّثه بقصّتي ، ثم

ارتحلنا . انتهى . كذا ذكر في كتاب الفرج بعد الشدة .

قيل إن المتوكل كان فيه أدب وظرف ، وحُسْن الخطاب .

حكى المبرد إمام النحاة قال كنت عند المتوكل وقد ولّى رجلاً على أمراء الأرزاق على العميان والأيتام والقواعد من النساء اللاتي لا أزواج لهنّ . فدخل عليه رجل وأمير المؤمنين يتكلم مع الوالي المذكور ، وإذا بالرجل يقول : يا أمير المؤمنين ، قل للوالي يكتبني ويثبّت اسمي مع القواعد ! فضحك المتوكل وقال له : القواعد نساء ، وأنت /328ب/ رجل ، فكيف يكتبك معهن ؟! فقال : مع العميان ! فقال المتوكل : أمّا مع هؤلاء فنعم ، لأن الله تعالى يقول : «لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» ! فقال : يا أمير المؤمنين ويثبّت ولدي في الايتام . فقال : وهذا أفعله ايضًا ، فإنه من تكن أنت أباه ، فإنه يتيم لا محالة ! فانصرف عنهم وهم يضحكون ، وقد أثبته مع العميان وولده في الأيتام . انتهى كذا ذكر سبط ابن الجوزي .

والمبرد ، هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الله الأكبر الثُّمالي الأزدي البصري ، المعروف بالمبرَّد ، كان إمامًا في النحو واللغة ، وله التصانيف النافعة في الأدب ، منها كتاب الكامل ، والروضة ، والمقتضب وغير ذلك . أُخذ الأدب عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني ، وأخذ عنه نِفطويه وغيره من الأئمة . كان المبرد المذكور وأبو العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب ، صاحب كتاب الفصيح ، عالمين متقادرين قد خُتم بهما تاريخ الأدباء ، وفيهما يقول معاصرهما أبو بكر بن أبي الازهري :

أيا طالب العلم لا تجهلن   وعُذْ بالمبــرّد أو ثعلبِ
تجد عند هذين علمَ الورى   فلا تك كالجمل الأجـربِ
علوم الخلائق مقـرونة   بهذين في الشّرق والمغربِ

كان المبرد يحبّ الاجتماع في المناظرة بثعلب والاستكثار منه . وكان ثعلب

يكره ذلك ويمتنع منه .

حكى أبو الهاشم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلي /329/ ، وكان صديقهما ، قال : قلت لأبي عبد الله الدينوري خاتِن ثعلب : لِمَ يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ فقال : لأنّ المبرد حسَنُ العبارة ، حلو الاشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ؛ وثعلب مذهبه مذهب المعلمين ، فإذا اجتمعا في محفل حُكم للمبرد على الظاهر الى أن يُعرف الباطن . وكان المبرد كثير الامالي حسن النوادر . انتهى .

والثُّمالي بضمّ المثلثلة وفتح الميم نسبة المبرد الى ثمالة ، واسمه عَوف بن اسلم ، وهو بطن من الأزد . وكان عبد الصمد المعذّل هجاه وهجا قبيلته بسببه بقوله :

سألنا عن ثمالة كلّ حيّ   فقال القائلون ومن ثُماله
فقلت محمّد بن يزيد منهم   فقال زدتنا بهم جَهاله
فقال لي المبرّد خلّ عنهم   فقومي معشرٌ فيهم بَذاله

كذا ذكر أبو علي في كتاب الامالي . يقال إنّ هذه الأبيات للمبرّد ، وكان يشتهي أن يشتهر بهذه القبيلة ، فصنع هذه الأبيات ، فشاعت وحصل له مقصوده من الاشتهار .

واختلف في سبب تلقيبه بالمبرد ، والذي ذكره الحافظ أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الالقاب أنه قال : سئل المبرد لما لقّب بهذا اللقب فقال : كان سبب ذلك أنّ صاحب الشرط طلبني للمنادمة والمذاكرة فكرهتُ الذهاب اليه ، فدخلت الى أبي حاتم السجستاني ، فجاء رسول الوالي فطلبني ، فقال لي أبو حاتم : ادخل في هذا ! يعني غلاف مزبلة فارغًا ، فدخلت فيه وغطّى رأسه . ثم خرج الى /329ب/ الرسول فقال : ليس هو عندي . فقال : أُخبِرنا به دخل اليك ! فقال : أُدخل الدار وابحث ! فدخل وطاف كلّ موضع في الدار ولم يفطن

لغلاف المزبلة . ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفّق وينادي على المزبلة : المبرد المبرد! وتسامع الناس بذلك ولَهَجوا به .

وقيل إنّ الذي لقبه بهذا اللقب شيخه أبو عثمان المازني . وقيل غير ذلك انتهى من كتاب الالقاب .

وكانت ولادة المبرد ضُحى يوم الاثنين سنة عشر ومائتين . وقيل سنة سبع ومائتين . وتوفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة . وقيل من ذي القعدة بسنة ستّ وثمانين . وقيل خمس وثمانين ومائتين ببغداد . ودفن في مقابل باب الكوفة في دار اشتريت له . وصلّى عليه أبو محمد يوسف ين يعقوب القاضي ، رحمهما الله . لما مات نظم فيه وفي ثعلب أبو بكر الحسن بن علي المعروف بالعلاّف أبياتًا ، وكان الجواليقي كثيرًا ما ينشدها وهي :

ذهب المبرّد وانقضت أيّامـه ... وليذهبنّ إثر المبرّد ثعـلبُ
بيت من الآداب أصبح نصفه ... خربًا وباقي نصفه فسينخربُ
فأبكوا لما سلب الزمان ووطّنوا ... للدهر أنفسكم على ما يسلبُ
وتزودوا من ثعلب فبكأس ما ... شرب المبرد عن قليل يشربُ
فأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه ... إن كانت الانفاس مما يكتبُ

قريب من هذه الابيات ما أنشده أبو عبد الله الحسين بن علي اللغوي البصري النّمري لما مات ابو عبد الله الازدي ، وكان بينهما تنافس ، فقال هذه الابيات : /330/

مضى الأزديّ والنمريّ يمضي ... فبعض الكلّ مقرونٌ ببعض
أخي والمجتنِي ثمـرات ودّي ... وإن لم يجزني قرضي وفرضي
وكانت بيننا أبدا هِنـات ... توفّرَ عِرضه منها وعِرضي
وما هانت رجال الازد عندي ... وإن لم تدن أرضهمُ بأرضي

انتهى ، كذا نقل عن ابن خلكان .

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان ، في ترجمة المبرد : كنت رأيت المبرد في المنام ، وجرى لي معه قصّة عجيبة أحببت ذكرها لغرابتها ، وذلك أني كنت بالاسكندرية في بعض شهور سنة ستّ وثلاثين وستمائة ، وأقمت بها خمسة أشهر ، وكان عندي كتاب الكامل للمبرد وكتاب العقد لابن عبد ربه وأنا أطالع فيها ، فرأيت في العقد في فصل ترجمه : ما غلِط فيه الشعراء ، وذكر أبياتًا نسبوا أصحابها فيها لغلط ، وهي صحيحة وإنما الغلط ممن استدرك عليهم لعدم اطلاعهم على حقيقة الأمر بها ، ومن جملة من ذُكر المبرّد ، حيث غلّط أبا نواس في قوله :

وما لبكر بن وائل عَصَمٌ إلاّ بِحَمْقائها وكاذبها

فزعم أنه أراد بحمقائها هَبَنّقة القيسي ، وغلّطه بأن الرجل لا يقال فيه حمقاء وإنما يقال أحمق . فاستدرك صاحب العقد على المبرد بأنّ أبا نواس لم يرد هبنقة القيسي وإنما أراد دُغَة العِجْلية ، وعِجل في بَكْر ، وهي امرأة يُضرب بها المثل في الحمق . والمرأة يقال لها حمقاء ، وكلام أبي نواس صحيح ، /330ب/ فالغلط حينئذ من المبرد لا من أبي نواس .

ولما كان بعد ليال قلائل من وقوفي على هذه الفائدة رأيت في المنام كأني بمدينة حلب في مدرسة القاضي بهاء الدين بن شدّاد ، وفيها كان اشتغالي بالعلم، وكأننا قد صلينا الظهر في المواضع التي جرت العادة بالصلاة فيها جماعة فلمّا فرغنا من الصلاة قمت لأخرج ، فرأيت في آخر باب الموضع شخصًا واقفًا يصلي ؛ فقال لي بعض الحاضرين : هذا أبو العباس المبرّد ! فجئت اليه وقعدت الى جانبه انتظر فراغه ، فلمّا فرغ سلمت عليه وقلت له : أنا في هذا الزمان أطالع في كتابك الكامل . فقال لي : رأيت كتابي الرّوضة ؟ قلت : لا . وما كنت رأيته قبل ذلك ، فقال : قم حتى أريك أياه . فقمت معه وصعد

بي الى بيته ، فدخلنا اليه ورأيت فيه كتبًا كثيرة ، فقعد وجعل يبحث عنه ، وقعدت أنا ناحية عنه ، فأخرج منها مجلدًا ودفعه اليّ ، فتركته في حِجري ثم قلت له : قد أخذوا عليك فيه . فقال : أيّ شيء أخذوا ؟ فقلت : إنك نسبت أبا نواس الى الغلط في البيت الفلاني ، وانشدته إياه . فقال : نعم ، غلط في هذا . فقلت : إنه لم يغلط بل هو على الصواب ، ونسبوك أنت الى الغلط في تغليطه . فقال : وكيف هذا ؟ فعرّفته ما قاله صاحب العقد فعضّ على رأس سبّابته وبقي ساهيًا ينظر اليّ ، وهو في صورة خجلان ، ولم ينطق . ثم استيقظت من منامي وهو على تلك الحال ، ولم أذكر هذه الرؤيا الا لغرابتها . انتهى كلامه /331/ .

وهبنقة بفتح الهاء والباء الموحّدة والنون والقاف وبعدها هاء ساكنة ، وهو لقب أبو الودَعات يزيد ين سروان القيسي وقيل كنيته أبو نافع وكان يضرب به المثل في الحمق ، فيقال أحمق من هبنقة القيسي لانه كان شرد له بعير فقال من جاء به فله بعيران فقيل له أتجعل في بعير بعيران فقال : إنكم لا تعرفون حلاوة الوِجْدان . فنسب الى الحمق لهذا السبب ، وسارت به الاشعار . فمن ذلك قول أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي في شيبة بن الوليد القيسي عم دفّافة من جملة أبيات قالها ، وهي :

عش بجَدّ ولا يضرّك نَـوْكٌ	إنما عيش من ترى بالجدودِ
ربّ ذي إربة مُقلّ من الما	ل وذي عُنجهيّة مجدودِ
عش بجَدّ وكن هبنّقة الـقيْـ	سيّ أو مثل شيبة بن الوليدِ

وسبب نظم اليزيدي هذه الابيات أنه تناظر هو والكسائي في مجلس المهدي وكان شيبة بن الوليد حاضرًا فتعصّب للكسائي ، وتحامل على اليزيدي فهجاه في عدة مقاطيع هذا من جملتها . وأما دُغه بضم الدال المهملة وفتح العين المعجمة وبعدها هاء ساكنة ، لقب مارية ابنة مغنّج العجلي ، وهي التي يضرب بها المثل في الحمق ، لأنها ولدت فصاح المولود ، فقالت لأمرأةٍ : أيفتح الجعْر

فاه ؟ فقالت : نعم ، ويسبّ أباه ! فصار مثلا . والاصل في الجعْر أنه روْث كل ذي مِخلب من السّباع وقد يستعمل في غيره بطريق التجوّز . ودُغه لجهلها ظنّت لما وَلَدت أنه خرج منها المعتاد /331ب/ وأنه صوّتَ ، فأطلقت عنه الجعر وسألت عنه ؛ وهو المولود استهلّ ، وقد جهِلت ذلك ، فصارت يُضرب بها المثل في الحمق . وكانت متزوجة في بني العنبر من بني تميم ، فصار يقول العنبر يدعون بنو الجعراء لذلك . انتهى .

ذُكر أن المتوكل كانت له ندماء وشعراء .

وكان من جملتهم أبو العميثل عبد الله بن جليد ، مولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ويقال أصله من الريّ ، وكان يفخّم الكلام ويعربه ، وكان كاتب الامير عبد الله بن طاهر بن الحسين وشاعره ومنقطعًا اليه ، وكاتب أبيه طاهر من قبله ، وكان مُكثِرًا من نقل اللغة عارفًا بها شاعرًا مُجيدًا ، امتدح عبد الله بن طاهر بقوله :

يا من يحاول أن تكون صفاته ... كصفات عبد الله أنصت وآسمعِ
فلأنصحنّك في المشورة والذي ... حجّ الحجيج اليه فآسمع أو دعِ
أصدق وعفّ واصبر واحتملْ ... واصفح وكاف ودار واحلم واشجعِ
والطف وأنّ وتأن وارفق واتّئد ... واحزم وجدّ وحام واحمل وادفعِ
فلقد محضتك إن قبلتَ وصيّتي ... وهديت للنّهج الاشدّ المتعِ /332/

ولقد أحسن في هذا المقطوع كل الإحسان .

كان عبد الله بن طاهر من أكبر قواد المأمون هو وأبوه من قبله ، ولاه المأمون بعد أبيه نيابة خراسان وما والاها وجمَع له مع ذلك الشام ، فوجّه عبد الله أخاه طلحة الى خراسان . ووُلى عبد الله أيضًا نيابة مصر وعُزل عَنها . قال الوزير ابن المغربي في كتاب أدب الخواص : إنّ البطيخ العبدلاوي الموجود بالديار المصرية منسوب الى عبد الله بن طاهر . قال ابن خلكان : إما لأنه كان يستطيب أكله أو

لأنه أول من زرعه هناك . قال : ولم أر هذا النوع في شيء من البلاد سوى مصر .

وكان المأمون يجل عبد الله المذكور ويُكثر الاعتماد عليه ويحسن الالتفات اليه ، رعاية لحقّ والده طاهر وما أسلفه من الطاعة في خدمته . وكان عبد الله قد أحسن خدمة المأمون والمعتصم بعده وكذا الواثق الى أن مات في خلافة الواثق ، يوم الاثنين لأحد عشر ليلة خلت من ربيع الاول سنة ثلاثين ومائتين بمدينة مرو . وقال الطبري : بنيْسابور . وعاش مثل أبيه ثمان وأربعين سنة . وله أشعار ورسائل ، فمن شعره ما نسب له من قوله :

نحن قـــوم تليننا الحُدُق النُّجْـ ـلُ على أنّنا نُلـين الحــديدَا
طوعُ أيدي الظباء يقتــادُنا الـ ـعينُ ونقتادُ بالطِّعان الأسودَا
فترانا يوم الكـــريهةِ أحرا رًا وفي السِّلم للغواني عبيدا
نملك الصِّيدَ ثم تملكنا البيــ ـض المصـونات أعينا وقــدودا
تتّقي سُخطنا الأسودُ ونخشى سُخط الخُشَف حين تُبدي الصُّدودا/332ب/

وقيل إنها لغيره .

وكان أبو العميثل من شعرائه كما تقدم ، وكثيرا ما يجالسه ولا يحجب عليه .

قيل إنّ أبا العميثل وصل يومًا الى عبد الله بن طاهر فرام الدخول اليه فحُجب ، فقال :

سأترك هذا البـاب ما دام إذنـه على ما يُرى حتى يخِفّ قليلا
إذا لم أجد يومًا الى الإذن سلّمًا وجدتُ الى تَرْك اللّقاء سبيلا

فبلغ ذلك عبد الله فأنكره ، وأمر بدخوله .

وحكي أنّ أبا تمام الطائي لما أنشد عبد الله قصيدته البائية كان أبو العميثل حاضرًا ، فقال له : يا أبا تمام ، لِم لا تقول ما يُفهم ؟ فقال : يا أبا العميثل ، لِم لا تفهم ما يقال ؟!

وقيل إن أبا العميثل شدّ كفّ عبد الله بن طاهر فاستخشن مسّ شاربيْه ،

فقال أبو العميثل في الحال : شوك القنفد لا يؤلم كفّ الأسد ! فأعجبه كلامه وأمر له بجائزة سنية .

وعاش أبو العميثل بعد عبد الله بن طاهر الى أن أدرك المتوكل ، ومات في خلافته ، سنة أربعين ومائتين . وصنّف كتبًا منها كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه ، وكتاب المتشابه ، وكتاب السائرة وكتاب معاني الشعر وغير ذلك من كتبه . والعميثل بفتح العين المهملة والميم وسكون الياء التحتية اسم لعدة أشياء ، من جملتها الاسد . والظاهر أنه المقصود هنا . انتهى ، انظر وفيات الاعيان لابن خلكان .

قال ابن دريد : انحدرت من البصرة الى سرّ من رأى في حداثة سنّي /333/ وذلك في أيام المتوكل على الله ، فدخلت عليه وهو في قصره المعروف بالجعفري وهو مشرف الى بستان وأبو العميثل يُنشده :

لله يوم في بسوط وليلة ... صرفُ الزّمان بأختها لا يغلِطُ
بتنا وعمر اللّيل في علوائه ... وله بنور البدر فرعٌ أشمَطُ
والطّل في سلك الغصون طلوعه ... رطيب يصاحفُه النّسيم فيسقُطُ
والطير يقرأ والغدير صفيحة ... والرّيح يكتب والغمامة تَنقُطُ

وهذا تقسيم بديع ، ثم أنشده قوله :

ولقد نزلت بروضة خزنية ... رتَعت نواظرنا بها والأنفسُ
فظللت أعجب حيث يخلف صاحبي ... والمسك من تفاحها يتنفَّسُ
ما الجو الا عنبر والدّوْح إلاّ ... جوهر والرّوض الاّ سندسُ
سفرت شقائقها فهمّ الاقـ ... حُوان بلَثْمها فرّنا اليه النّرجسُ
فكأن ذا خدود للقِطاف وذا ... ثغر يحاوله وذا عيونٌ حُرَّسُ

قال ابن دريد : فطرب المتوكل من إنشاده ، وأمر له بعشرة آلاف درهم

وتخْت ثياب . انتهى

ابن دريد هذا ، هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، ودريد تصغير أدرد ، والأدرد الذي ليس في فيه سنّ ، وهو تصغير ترخيم . وهو من الأزد ، ويتصل نسَبه بكهلان بن سبا . كان إمامًا في اللغة والأدب والشِّعر الرائق .

قال في مروج الذهب : كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا /333ب/ هذا في الشعر ، وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها ، وأورد شيئا في اللغة توجد في كتب المتقدّمين . وكان يذهب في الشعر كلّ مذهب ، فطورًا يُجزل وطورًا يرق . وشعره أكثر من أن يحصى ، منه قوله :

غرّاء لو جلت الخدود شعاعها ... للشمس عند طلوعها لم يُشرِقِ
غصن على دعص تأوّد فوقه ... قمــرٌ تألق تحت ليل مطبقِ
لو قيل للحسن احتكمْ لم يَعْدُها ... أو قيل خاطب غيرها لم ينطقِ
تبدو فيهتف بالعيون ظباؤها ... الويـــل حــلّ بمقلة لم تُطبقِ
فكأننا من فرعها في مغرب ... وكأننا من وجهها في مشـــرقِ

وكان من تقدّم من العلماء يقول : ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء . وكان واسع الرواية لم يُر أحفظ منه ، فكان يُقرأ عليه دواوين العرب ، فيسابق الى إتمامها من حفظه . أخذ عن أبي حاتم السجستاني والرياشي وعبد الرحمان بن عبد الله ، ابن أخي الاصمعي ، وأبي عثمان سعيد بن هارون الاشنانداني صاحب كتاب المعاني وغيرهم . وله التصانيف المعتبرة ، منها كتاب الاشتقاق ، وكتاب السرج واللجام ، وكتابي الخيل الكبير والصغير ، وكتاب الانوار ، وكتاب المقتبس ، وكتاب الملاحن ، وكتاب زوار العرب ، وكتاب /334/ اللغات ، وكتاب السلاح ، وكتاب غريب القرآن لم يُكمله ، وكتاب المجتنى وهو مع صغره كثير الفائدة ، وكتاب الوشاح صغير مفيد ، وكتاب الجمهرة .

وسئل عنه الدارقطني أثقة هو أم لا . فقال : تكلموا فيه . وقيل إنه كان

يتسامح في الرواية ، فيسند الى كلّ أحد ما يخطر له . وقال أبو منصور الازهري اللغوي دخلت عليه فرأيته سكران ، فلم أعد اليه . وقال ابن شاهين : كنّا ندخل عليه ونستحي مما نرى من العيدان المحلّقة والشراب المصفّى .

وذُكر أنّ سائلا سأله شيئا فلم يكن عنده غير دنّ من نبيذ ، فوهبه له فأنكر عليه أحد غلمانه وقال له : تتصدق بالنبيذ ؟! فقال : لم يكن عندي شيء سواه . ثم أهدِيَ له عشَرة دنان من النبيذ بعد ذلك ، فقال لغلامه : أخرجْنا دنًّا فجاءنا عشرة !

وينسب اليه من هذه الامور أشياء كثيرة .

ولد بالبصرة وارتحل منها عند ظهور الزنْج ، وسكن عُمان اثنتي عشرة سنة . ثم عاد الى البصرة وسكنها زمانًا ، ثم خرج الى نواحي فارس وصحب ابني مكائيل وكان يومئذ على عمالة فارس ، وعمل لهما كتاب الجمهرة وامتدحهما بمقصورته المشهورة التي يقول فيها :

أمَا ترَيْ رأسيَ حاكى لونُه ... طُرّة صبْح تحت أذيالِ الدُّجَى
واشتعلَ المُبيَضُّ في مُسْوَدِّه ... مثل اشتعال النّار في جزْل الغَضَى

ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور . فوصلاه بعشرة آلاف دينار وقلداه ديوان فارس . فكانت تصدر كتب /334ب/ فارس عن رأيه ، ولا ينفَّذ أمر الا بعد توقيعه ، فأفاد معهما أموالا عظيمة . وكان مفيدًا مبيدًا ، لا يمسك درهمًا سخاء وكرمًا ، وبقي معهما الى أن عُزلا وانتقلا الى خراسان ، ففارقهما الى بغداد ، فنزّله عليّ بن محمد الخوارزمي في جواره ، وأفضل عليه وعرّف الخليفة المقتدر فضله ومكانه من العلم ، فأمر أن يُجرى عليه خمسون دينارًا في كل شهر ولم تزل جارية عليه الى حين وفاته .

وكان قد طعن في السنّ وعرض له في رأس التسعين من عمره فالج ، سُقي له الترياق فبرىء وصحّ ورجع الى أفضل أحواله ، ولم ينكر من نفسه شيئا ورجع

الى إسماع تلاميذه وإملائه عليهم . ثم عاوده الفالج بعد حول ، لغذاء ضار تناوله ، فكان يحرّك يديه حركة ضعيفة ، وبطُل من مَحزمه الى قدميْه ، فكان إذا دخل عليه الداخل ضجّ وتألم لدخوله وإن لم يصل اليه . وكان يصيح لذلك صياح من يمشّى عليه أو يسلّ بالمسال ، والداخل بعيد منه . وكان مع هذا الحال ثابت الذهن ، كامل العقل ، يردّ فيما يسأل عنه ردّا صحيحًا .

قال تلميذه أبو علي اسماعيل ابن القاسم القالي ، المعروف بالبغدادي : فكُنت أقول في نفسي إنه الله عزّ وجل عاقبه لبيت قاله في مقصورته حين ذكر الدهر وهي قوله : «مارست» البيتَ . قال أبو علي : وعاش بعد ذلك عامين ، وكنت أسأله عن شكوكي في اللغة وهو بهذا الحال ، فيردّ بأسرع من النّفَس بالصواب .

وقال مرة ـ وقد /335/ سألته عن بيت شعر ـ : لئن طُفِئت شحمتا عيني لم تجد من يشفيك من العلم ! ثم قال لي : يا بني ، وكذلك قال لي أبو حاتم و قد سألته عن شيء ثم قال لي أبو حاتم وكذلك قال لي الاصمعي وقد سألته .

قال أبو علي . وآخر شيء سألته عنه جاوبني بأن قال : يا بني ، حال الجريض دون القريض ! فكان هذا آخر كلام سمعته منه وكان قبل ذلك كثيرًا ما يتمثل بهذه البيت وهي :

فوا حزنَي أن لا حياة لذيذةٌ ولا عملَ يرضي به الله صالحُ

وكانت ولادته بالبصرة في سكة صالح ، سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ونشأ بها وتعلم فيها . وتوفي يوم الاربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ببغداد . ودفن بالمقبرة العباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح ، بالقرب من الشارع الاعظم . ويقال إنه عاش ثلاثًا وتسعين سنة لا غير . ورثاه جحظة البرمكي بقوله :

فقدت بابنِ دُريد كلّ فائــدة   لـمّا غدا ثالث الأحجار والتُّرَبِ
وكنت أبكي لفقد الجود منفردًا   فصرت أبكي لفقد الجود والادبِ

وتوفي في يوم وفاته أبو هاشم عبد السلام ابن أبي علي الجُبّائي المتكلم المعتزلي ، فقال الناس : اليوم مات علم اللغة والكلام !

قوله حال الجريض دون القريض ، هذا مثل مشهور . أول من نطق به عَبيد بن الابرص ، أحد شعراء الجاهلية لـمّا لقي النُّعمان بن المنذر ، أحد ملوك /335ب/ الحيرة في يوم بؤسه . وكان قد عزم على قتله ، وكان ذلك من عادته ، فأحسّ به عَبيد وقد استنشده شيئا من شعره ، فقال له : حال الجريض دون القريض ! فصار مثلا يضرب . والجريض بالضاد المعجمة ، الغُصّة . يعني حالت الغصّة دون إنشاد الشعر . انتهى من مروج الذهب وغيره .

قال المرزباني : قال لي ابن دريد : سقطتُ من منزلي بفارس ، فانكسرت ترقُوتي ، فسهِرت ليلتي ، فلمّا كان آخر الليل غمّضت عيني ، فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوْسَجًا دخل عليّ وأخذ بعَضادتيْ الباب وقال : أنشدني أحسن ما قلت في الخمر ؟ فقلت : ما ترك أبو نواس لأحد شيئا . فقال : أنا أشعر منه ! قلت : ومن أنت ؟ قال : أنا أبو ناجية ، من أهل الشام . وأنشدني :

وحمراء قبل المزج صفراءُ بعده   أتتْ بين لوني نرجس وشقائــقِ
حكتْ وجنَةَ المعشوق صِرْفًا فسلّطوا   عليها مِزاجًا فاكتستْ لونَ عاشــقِ

فقلت له : أسأت ! فقال : ولِم ؟ قلت : لأنّك قلت «وحمراء» فقدّمت الحمرة ثم قلت «بين ثوبيْ نرجس وشقائق» ، فقدّمت الصُّفرة ؛ فهلاّ قدّمتها على الأخرى ؟! فقال : وما هذا الاستقصاء يا بغيض ! انتهى ، كذا وجدته في المسوّدة .

ذكر ابن كثير أنّ المتوكل أخذ العهد لأولاده الثلاثة . /336/ وهم محمد المنتصر ، ثم محمد المعتز ، وقيل اسمه الزبير ، ثم ابراهيم المؤيّد ، الاّ أنه لم

يُستخلف . وأعطى كل واحد منهم طائفة من البلاد ، فيكون نائبًا عليها ونوّابه فيها ، ويضرِب السكّة بها ، وعقد لكل واحد لواءين ، أسودَ للخلافة والعهد ، وأبيضَ للعمالة . وكتب بينهم كتاب التّراضي منهم ، وبايع الأمراء والكبراء لهم على ذلك . وكان يومًا مشهودًا ، وهو يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين . انتهى .

قال حمّاد بن أحمد البُستي في سيرة الملوك ، قال أبو السمط مروان : لـمّا صرت الى المتوكل ومدحته ومدحت ولاة العهود وأنشدته قولي :

سقَى الله نجدًا والسّلام على نجدٍ ويا حبّذا نجدٌ على النّأي والبُعْدِ

أمر لي بمائة الف درهم وخمسين ثوبًا ، فلم أبرح حتّى قلت قصيدتي التي أقول فيها :

فأمسكْ ندَى كفّيْك عنّي فإنّني لقد خِفتُ أن أطغَى وأن أتجبّرَ

فقال : لا والله ، لا أُمسك حتّى أُغرقك بجودي ، سلني حوائجك ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، الضيعةَ التي أمرتَ أن أُقطَعها باليمامة ، ذكَر ابن المدبّر أنها وقفٌ ! فقال : قد قبّلتك إيّاها بدرهم في كلّ سنة . فقلت : لا يجوز أن يضمن مثل هذه الضيعة في السنة بدرهم . فقال ابن لمدبر : فبألف درهم . فقلت : هذا نعم . فأمر لي بذلك وقال : هذه /336ب/ ليست حاجة ، سلني حاجتك ! قلت : ضيعة قد كان أمر لي بها الواثق دافعني عنها ابن الزيّات . فأمر لي بها ، وقال : تُعطى حاصلها منذ أمر الواثق لك بها من بيت المال . وفعل ذلك ، وأخذت المال . انتهى .

وكان مروان شاعره ومادحه ، وأفاد منه أموالا عظيمة ، ومدح غيره من الامراء أيضًا .

قال المرادي النيسابوري في كتابه : دخل مروان على الأمير أشناس فأنشده ،

فجعل أشناس يحرّك رأسه ويومىء بيديه ويُظهر طربًا وسرورًا ، ثم أمر له بصلة . فلما خرج قال له كاتبه : رأيتُ الامير قد طرِب وحرّك رأسه ، أفهم ما كان يقوله ؟ قال : نعم . قال : فأيّ شيء قال ؟ فقال : مازال يقرأ عليّ ريقة (في الاصل «ريقه» ولعلها تحريف رُقية أو وُريقة») الدّراهم حتّى حصّل ما أراد . انتهى .

وكان مروان له نوادر ومضحكات بين يدي المتوكل ، وهو أحد الشعراء المتقدّمين عنده إلا أنّ هناك من هو أمكن وأحظى منه .

قال ابن خلّكان : وكان أبو الحسن عليّ بن يحيي بن أبي منصور المنجِّم من ندماء المتوكل على الله ، وكان شاعرًا محسنًا ، وكان من خواصه وجلسائه المتقدمين عنده ثم انتقل الى من بعده من الخلفاء ، ولم يزل مكينًا عندهم حظيًا لديهم ، يجلس بين أيدي أسرّتهم ، ويُفْوضون اليه بسرّهم ، ويؤمّنونه على أخبارهم ، ولم يزل عندهم في المنزلة العلية . وكان قبل اتصاله بهم يلوذ بمحمد بن اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، ثم اتصل بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة كتب ، أكثرها حكمة . واستكتب /337/ له شيئا عظيمًا يزيد على ما كان في خزانته أضعافًا مضاعفة ، مما لم تشتمل عليه خزانته . وكان راوية للأشعار والأخبار ، حاذقًا في صنعة الغناء ، أخذ عَن اسحاق بن ابراهيم الموصلي وشاهده، وصنّف عدّة كتب منها كتاب الشعراء القدماء والاسلاميين ، وكتاب اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، وكتاب في البطيخ ، وغير ذلك . وكان شاعرًا محسنًا ، فمن شعره قوله في الطيف :

بأبي والله مــن طَرَقا ... كابتسام البرق إذ خفقا
زادني شوقا بــرؤيته ... وحشا قلبـي به حرقا
من لقلب هــائم كلِفٍ ... كلمّا ســكّنته خفقا
زارني طيف الحبيب فما ... زاد أن أغــرى بيَ الأرقا

وكان له الشّعر الحسن . وعاش الى أن خدم المعتمد ، وتوفي في أواخر أيامه سنة خمس وسبعين ومائتين بسُرّ من رأى . وخلّف جملة من أولاده ، وكلهم علماء نجباء ندماء . انتهى منه .

ذكر في كتاب سيرة الملوك قال قال أحمد بن أبي طاهر : كان عليّ بن الجهم يقع في مروان المقدم ذكره ويثلِبه حسدًا له على موضعه من المتوكل ، فقال المتوكل يومًا : يا عليّ أيما أشعر ، أنت أم مروان ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين . فقال لمروان : ما تقول ؟ فقال : كلّ أحد أشعر منّي ، ولا أصف نفسي ولا أزكّيها ، وإذا أصبتُ غرضي في أمير المؤمنين فما أبالي . والتفت الى عليّ وقال : أنت أشعر مني ! قال : أوَ تشُكّ في ذلك ؟ /337ب/ قال : أيْ والله ، أشدَّ شكّ ! قال : فأمير المؤمنين بيني وبينك . قال : فأمير المؤمنين يُحابيك . فقال المتوكل : هذا يا عليّ من عِيّك ، وقد أبحت كل واحد منكما في هجاء صاحبه ! ثم قال لابن حمدون : احكم بينهما . فقال : طرحتني والله يا أمير المؤمنين بين أنياب ومخاليب ؛ وأمّا إذ أمرت فإنّ أشعرهما عندي أعرفهما في الشعر . فقال المتوكل : قد سمعت يا عليّ . فقال : قد علمت ميلك اليه . فقال : هذا عِيٌّ منك ، فإن كنت شاعرًا ماهرًا ، فلا أفضله عليك ، والحقَّ أقول ، فاْهجه أنت ! فوجم ، فقال لمروان : اُهجه أنت ، بحياتي ، ولا تبق غاية ! فقال :

إنّ ابنَ جَهْم في المغيب يَعيبني ... ويقــول لي حسنًا إذا لاقاني
فإذا التقينا ناك شعرى شعره ... ونَزَا على شيطانه شيـطاني
صغرت مهابته وعظم بطنــه ... فكأنما في بطنه وَلَـدان
إنّ ابنَ جهم ليس يرحَم أمّــه ... لو كان يرحمُها لما هجـاني

فضحك المتوكل والنّدماء وانخذل عليّ . ولم يقل شيئا ، فقال المتوكل لمروان: بحياتي إن حضرك شيء آخر فهاته . فقال :

بنت جهم يا عليـــه　　صرت بعدي قرشيه
قلت ما ليس بحق　　اســكتي يا نبطيه
اسكتي يا بنت جهم　　اسـكتي يا حلقيه

فضحك المتوكل وضرب برجله الأرض فقال عليّ : هذا الشّعر يشبه وجهه ! فقال له والله صدقت إنّه لهزل ، ولكنّي أتيتك بالجِدّ . وقال /338/ :

لعمرك ما الجهم بن بدر بشاعر　　وهذا عليٌّ نجلَه يدّعي الشّـعرَا
ولكنْ أبي قد كان حـاور أُمّه　　فلمّا ادّعى الأشعار أوهمني أمرَا

فقال عليّ عند ذلك :

بلاء ليس يشبهـــــه بلاء　　عداوة غير ذي حسَب ودينِ
يبيحك منه عرْضًا لم يصنه　　ويرتع منك في عرْض مصونِ

قال أحمد بن حمدون : بلغ المتوكل أنّ عليّ بن الجهم خطب امرأة من قريش. فلم يزوّجوه ، فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له : إنّ أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لم يُدخلاهم في قريش ، وأنّ عثمان أدخلهم فيهم وأخرجهم عليّ عليه السلام ، فارتدوا مع الخريف ؛ فقتل من ارتدّ منهم وسبى بقيتهم وباعهم من مصقلة ابن هبيرة . فبعث المتوكل وأحضر علي بن الجهم وسأله عمّا قالوا ، فأنكر ذلك وقال : هذه دعوى من الرافضة . وشتم القوم ، وكان مروان جالسًا بحضرة المتوكل فقال :

إنّ جهمًا حين تنسبُـه　　ليس من عجَم ولا عـربِ
لجّ في شتمي بلا سبب　　سارقٌ للشّعـر والنّسبِ

فلم يجبه . وكان يحتقره فأومأ اليه المتوكل أن يزيده فقال :

عليٌّ تعرّضت لي ضِلّــة　　لجهلك بالشّعر يا مارقُ

فخلٌ قريشًا وأنسابــها فأنت لأنسابها ســارقْ
فإن كان سامة جدًا لكم فأمّك منّي إذًا طـــالقُ

قال أحمد بن المفضل الكاتب : ودخل عليّ بن الجهم على المتوكل وأنشده قصيدة يمتدحه بها أوّلها : /338ب/

اغتنمْ جُدّةَ الزمان الجديد وآجعلِ المهرجان أيمنَ عيدِ

وكان مروان في مجلسه ، فغمزه المتوكل عليه فقال له : يا عليّ المهرجان عيد أم يوم لهو ، إنما العيد ما تعبّد الله به الناسُ من الفطر والإضحى والجمعة وأيام التشريق ؛ وأمّا المهرجان والنيروز ، فإنهما أعياد المجوس ، ولا يجوز أن يقال لخليفة الله في عباده اجعل المهرجان عيدًا . فلم يلتفت اليه حتي بلغ قوله :

نحن أبناء هذه الخِرَق السُّود وأهلُ التشيّع المحمــودِ

فقال له مروان : لو كنتم من أهل التشيّع المحمود ما قتل قحطبة جدّك وصلبه في عداوة بني العباس ! فقال له المتوكل : ويلك أَقَتل قحطبة جدّك كما قال ؟ فقال : لا ، والله . فقال محمد بن طاهر : بحياتي الأمرُ كما قال ، فأيّ ذنب لعليّ بن الجهم في ذلك ؛ قد قتل الله أعداءكم وأبقى أولياءكم ! فضحك المتوكل وقال : شهدتَ والله بها عليه . فقال مروان :

غضِب ابن الجهم من قولي له إنّ في الحقّ لقــوم مَغْضبَه
يا ابن جهم كيف تهوَى معشرًا صلبُوا جدّك فــوق الخشبَه
يا إمام العــدل نُصحي لكمُ نصح حــقّ غير نُصح الكَذَبه
إنّ جدّي من رفعتم قــدرَهُ بكرامات لشكري موجبه
وابن جهم من صلبتُمْ جــدّه وتــولّى ذلك منه قَحْطبه
أتراه بعد ذا ينصحــكم لا وحقّ الكعبـــة المحتجِبه

انتهى .

قال الخطيب البغدادي : دخل مروان يومًا /339/ على المتوكل وانشده :

إنّي نزلت بساحة المتوكّل ونزلنَ في أقصى بلاد المَوْصِلِ

فقال بعض الحاضرين : كيف يكون الاتّصال بين هؤلاء في المراسلة ؟ فقال ابو العنبس : يكون عندهم حَمَام يكتبون على أجنحتها . فضحك المتوكل حتّى استلقى ، وخجل مروان وحلف بالطلاق لا يكلّم ابا العنبس ابدًا . انتهى .

لطيفة : حكي عن مروان أنه دخل عليه أمرد إلى منزله وقال له : أنت ابو السمط الزّنديق ؟! قال : نعم . فقال له : اشتهي أن تعلّمني الزندقة . قال له : حبّا وكرامة . ثم بطحه على وجهه ليعلّمه ، ودفع عليه . فصاح الغلام وقال : أوّه آش هذا ؟ فقال له : هذا أوّل باب في الزندقة . انتهى .

ذكر أنّ البحتري الشاعر قال : كنت عند المتوكل يومًا فاجتازت جارية معها شربة ماء ، وهي أحسن من القمر ، فقال لها : اسمك ؟ قالت : برهان . قال ولمن هذا الماء ؟ قالت : لستّي . قال : صبّيه في حلْقي ! ففعلت ، فقال لي : قل في هذا المعنى شيئا . فقلت :

ما قهوة من رحيق كأسُها ذهب جاء به الحور جناه رَضْوانُ
يوما بأطيب من ماء على عطش شربته عبثا من كفّ برهانُ

وحكى جحظة البرمكي في كتاب الوزارة قال : كان /339ب/ أبو العنبس الصّيمري عند المتوكل والبحتري ينشده حتى بلغ قوله :

عن أيّ ثغر تبتسم وبأيّ طرف تحتلمْ
قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصمْ
اِسلمْ لدين الله فاذا سلمتَ فقد سلمْ

قال : وكان البحتري من أبغض الناس إنشادًا ، يتشادق ويتزاور في مشيه ، فيمشي مرّة جانبًا ومرّة القهقرى ، يهزّ رأسه مرّة ومنكبه أخرى ، ويشير بكمّه

ويقف عند كلّ بيت ويقول : أحسنتُ والله ! ويقول للمستمعين : مالكم لا تقولون لي أحسنتَ ، هذا والله لا يُحسِن أحدٌ يقول مثلَه ! فضجر المتوكّل منه وقال للصيمري : ما تسمع ما يقول !؟ فقال : بلى يا سيدي ! قال : بحياتي اهجه على هذا الرويّ . فأخذ الدواة وكتب أبياتًا يقول فيها :

أدخلتَ رأسك في الحُرُم   وعلمتَ أنّك مُنهـزِمْ
من أيّ سَلْح تلتقِـمْ   وبأيّ كفّ تلتـطِمْ
فوَحقّ جعفر الامام   ابن الامام المعتـصِمْ
لأصيرنّك شهـرة   بين المسيل الى العـلَمْ
يابن الثقيلة والثّقيـ   ـل على قلوب ذوي النّعمْ
وعلى الصغير مع الكبيـ   ـر من الموالي والحشَمْ

قال : فخرج البحتريّ مُغْضبًا يعدو والصيمريّ يصيح به :

أدخلت رأسك في الحرم   وعلمت أنّك منهـزم

والمتوكل يضحك ويصفق ثم أمر للصميري بعشرة آلاف درهم . انتهى

وكان ابو عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري /340/ هذا شاعرًا ظريفًا فصيحًا حسن المذهب ، له تصرّف في ضروب الشعر إلا أنه لا يحسن الهجاء وبضاعته فيه نزرة ، وجيّده منه قليل .

حكى ابنه أبو الغوث أنّه دعا به لـمّا حضرته الوفاة وقال له : اجمع كلّ شيء قلته في الهجاء . ففعل فأمره باحراقه ثم قال له : يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفَيْت به غيضي وكافأتُ به قبيحًا فُعل بي . وقد انقضى أرَبي في ذلك وإن بقيَ رُوي عنّي وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك . قال : فعلمت أنّه قد نصحني فأحرقته .

كان البحتري من أوسخ الناس ثوبًا و أبخلهم بكلّ شيء ، وكان له أخ

وغلام يقتلهما جوعًا . فإذا بلغ منهما الجوع أتياه وبكيا فيرمي إليهما بشيء وهو مقترٌ مضيِّق ويقول لهما : كُلا ، أجاع الله أكبادكما ، وأعرى أجسامكما وأطال إجهادكما !

قال أبو مسلم الاصفهاني الكاتب : دخلت على البحتري يومًا فدعا بطعام وعرض عليّ فامتنعت من أكله ، وكان عنده شيخ شاميّ لا أعرفه ، فدعاه الى الطعام فتقدّم وأكل أكلا عنيفًا فغاضه ذلك ، فالتفت إليّ وقال لي : أتعرف هذا الشيخ ؟ قلت : لا . قال : هذا من بني الجهيم الذي يقول فيهم الشاعر :

وبنو الجهيم قبيلة ملعونة　　　بيض اللّحى متشابهو الالوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة　　　بعمّان أمسى جميعهم بعمّان

فشتمه الشيخ ولعنه وانصرف .

وكان للبحتري غلام /340ب/ اسمه نسيم . روي انّه قد جعله بابًا من أبواب الحِيل على الناس ، فكان يبيعه على بعض أهل المروءات ومن يَنفُق الأدب عنده ، فإذا صار في ملكه شبّب به وتشوّقه ومدح مولاه ، فيهَبُه له . فلم يزل كذلك حتّى مات الغلام ، فكُفي الناس أمرَه .

وكان يتعشّق غلامًا اسمه شقران ، فخرج البحتري في بعض أسفاره وأطال الغيبة ثم عاد ، فوجده قد التحَى فقال فيه :

نبتت لحية شقــرا　　　ن شقيق النفس بعدي
حُلِقَت كيف أتته　　　قبل أن يُنجزَ وعْـدي

قال عليّ بن الجهم الشاعر : كتب البحتريّ الى محمد بن عليّ أحد قواد المتوكل يستهديه نبيذًا ، فبعث اليه نبيذًا مع غلام له أمرد ، فخمشه البحتري . فغضب الغلام غضبًا يدلّ على أنّه يخبر مولاه بما جرى فكتب اليه :

أبا جعفر كان تخميشُـــنا　　　غلامَكَ إحدى الِهنات الدنيّه

بعثتَ الينا بشمس المُــــدا | مِ تضاءَ لنا مع شمـس البريّه
فليتَ الهدية كان الرســول | وليت الرّســول إلينا هديّه

فانقطع البحتري عنه مدة حياء وخجلا ، فكتب اليه محمّد بن علي أبياتًا يقول فيها :

هجرت كان البِرّ أعقب حِشْمة | ولم أر وصلا قبل ذا أعقبَ الهَجْرَا

فكتب اليه البحتريّ قصيدة يقول فيها :

ليواصلنّك ركبُ شعريَ سائرًا | يرويه فيك لحسنِه الأعـــداءُ /341/
حتى يتمّ لك الثناء مخلّــدًا | أبدًا كما تمت لك النعـــماءُ
فتظل تحسدك الملوك الصِّيد فيّ | وأظل يحسُدني بك الشُّعــراءُ

كان البحتري مدّاحًا لمحمد بن يوسف طول أيامه ولابنه من بعده ، ورثاهما فأجاد مراثيه فيهما . فقيل له في ذلك ، فقال : من تمام الوفاء أن تَفضُل المراثي المدائح ، لا كما قال بعضهم وقد سئل عن ضَعف مراثيه فقال : كنّا نعمل للرجاء ونحن الآن نعمل للوفاء ، وبينهما بعد .

قال ابن ثوابه : قدم البحتري الى النيل على أحمد بن عليّ الإسكافي مادحًا له ، فطالت مدّته عنده ولم يُرضه ، فهجاه وهجَى بني ثوابة بقصيدة منها قوله :

ما كسبنا من أحمد بن عليّ | ومن النّيل غير حَمْي النّيلِ

وهجاه بغير ذلك ، فبلغ العباس بن أحمد بن ثوابة ، فبعث اليه ألف درهم وثيابًا ودابة بسرجه ولجامه ، فردّ عليه ذلك وقال : قد أسلفتكم إساءة ، فلا يجوز لي معها قبول صلتكم .

فكتب اليه : أمّا الإساءة فمغفورة ، والمعذرة فمشكورة ، «والحسنات يُذْهبن السيّات» ، وقد رددته عليّ وأضعفته ، فإن تلافيتَ ما فرّط منك أثنينا

وشكرنا ، وإن لم تفعل احتملنا وصبَرْنا .

فقبل ما بعثه ، وكتب اليه : كلامك والله أحسنُ من شعري ، وقد أسلفتني ما أخجلني وحملتني ما ثقلني ، وسيأتيك ثنائي .

ثم مدحه بعد ذلك بقصائد . انتهى من الاغاني وغيره .

/341ب/ ذُكر أن من شعراء المتوكل وندمائه أبو اسحاق ابراهيم بن المدبّر كان شاعرًا كاتبًا ، من وجوه كتاب أهل العراق . وكان يهوى عَريب وتهواه ، وحالهما في ذلك مشهورة . وكان المتوكل يؤثره ويقدّمه . وذكر في كتاب الفرج بعد الشدة أنه حُبس في أيام المتوكل . حبسه نجاحُ بن سلمة ، مكايدة لأخيه . فلمّا طال حبس ابراهيم ولم يجد حيلة في الخلاص عمل أبياتًا يقول فيها :

بأبي من بات عندي ... طارقًا من غير وعْدِ
بات يشكو شدة الشو ... ق وأشكو فرْطَ وجدِ
وتنحّى فبكى فأنـ ... ـهلّ درّ فوْق ورْدِ
فيد تحت يد صو ... را وخدّ فوق خدٍّ

وأنفذها الى المسرود المغني ، وسأله أن يعمل فيها لحنًا ، ويغنّي بها المتوكل ، فاذا سأله من قائلها عرّفه أنّها له . ففعل المسرود . وسأله المتوكل فقال : لعبدك ابراهيم بن المدبر ! فذكَره وأمر بإطلاقه وحظي عنده . انتهى .

ودخل ابراهيم بن المدبر على المتوكل يومًا ، وقد كان المتوكل مريضًا وخيف عليه ثم عوفي بعد ذلك ، فانشده ابراهيم هذه الابيات :

يوم أتانا بالسرور ... فالحمد لله الكبيرِ
أخلصت فيه شكره ... ووفيت فيه بالنُّذور
يا جعفر المتوكل العا ... لي على البدر المُنيرِ
اليومَ أصبحت الخلا ... فة وهي أرْسى من ثَبيرِ /342/

قد خالفتك وعاودتـ ـك على مطاولةَ الدُّهورِ
يا رحمـة للعاليـ ن ويا ضياءَ المستنيرِ
لله أنت بما نشا هِدُ من كـرم وخيرِ
حتى تقول ومن يقرِ نُك من ولي أو نصيـرِ
البدُر ينطـق بيننـا أمْ جعفرٌ فوق السَّريرِ

فقال المتوكل للفتح بن خاقان : إن ابراهيم لينَطق عن نية خالصة ، فأعطه خمسين ألفًا ! انتهى .

ذُكر أنّ المتوكل كان له انهماك في الشّراب والتوغّل في بُغْض عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . وكان ولده المنتصر لا يُرضيه ذلك من أبيه ، وكان يتعقّب أموره فيما يفعله ، ورفع من ذلك حِمْلا ثقيلا الى أن اعتلّ المتوكل واشتدّ عليه المرض ، وتوقّع المنتصر موته ثم برىء وقام من مرضه ، وأيس المنتصر موتَه ، فدسّ عليه من يقتله ، فدخلت عليه جماعة بالليل بالسيوف وهو على شرابه وقت خلوته فقتلوه ، وهو بالجعفري .

وكان المتوكل قد رام التنقّل من سامرّا الى دمشق . وسار اليها فدخلها في صفَر سنة أربع وأربعين ومائتين ، وعزَم على المقام بها ونقْل دواوين الملك اليها فقال يزيد بن محمّد المهلبي :

أظنّ الشام يشمُت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاقِ
فإن تدع العراق وساكنيـه فقد تبكي المليحة بالطلاقِ

ثم استثقل المتوكل ماء دمشق ورجع الى سامرّاء بعد /342ب/ مقامه بدمشق شهرين وأيامًا . ولـمّا رجع ابتدأ في عمارة الجعفري سنة خمس وأربعين ومائتين ، وأنفق عليه أموالا لا تحصى . وكان يقال لموضعه الماحورة . وتحوّل اليه في السنة التي مات فيها ، وبقي به الى أن دخلت عليه الجماعة المذكورة فقتلوه ، وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان باتفاق من ابنه المنتصر ومن بُغا

الصغير الشرابي .

ولـمّا كان صبح ليلة مقتله اجتمع الناس والعساكر والقواد الى الجعفري فخرج اليهم أحمد بن الخصيف وقرأ عليهم كتابًا من المنتصر مضمونه أنّ الفتح قتل مولاه المتوكل فقتله به . فسمع الناس ذلك ، وبايعوا المنتصر . وكان ذلك يوم الاربعاء الخامس من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين . وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام ، وعمره إذ ذاك نحو أربعون سنة . وكان اسمه خفيف العارضين .

ولـمّا استُخلف المنتصر أمّن العلويين . وكانوا خائفين في زمن أبيه المتوكل ، وأمر الناس بزيارة قبر الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما ، الا أنه لم تطل أيامه . فقد اعتلّ ثلاثة أيام ومات يوم الأحد بسامرّا لخمس بقين من ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائتين ، فكانت خلافته ستة أشهر ويومين . وكان أعين ، أقنى ، قصيرًا ، مهيبًا ، عظيم اللحم ، راجح العقل ، كثير الإنصاف .

واستخلف بعده أحمد المستعين بن محمد المعتصم ، وهو /343/ ثاني عشرهم . اتفق عليه كبراء الدولة ، فأولوْه وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وكرهوا أن يولّوا بعض وَلد المتوكل ، لكونهم قتلوا أباهم . وكان المستعين أكبر من المنتصر بما يزيد على السنتين ، لأن المنتصر مات وعمره خمس وعشرون سنة .

وهنا ألقى القلم رحله وطوى ، وألقت عصاها واستقرّ بها النوى . إذ هذا آخر ما وجدناه مما جُمع في أخبار بني العباس وقد أوْعَدْنا فيما سبق بتبييضه وتنقيحه لتتشنّف الأسماع وتروق بأخبارهم الأنفاس . والحمد لله على بلوغ المقاصد والآمال مما أردنا تنقيح ما أهمل وانخرم وكان في زوايا الإهمال .

خاتمة
في
ذكر عمّال بني العباس بافريقية
ومن دخلها من عمّالهم

أوّل من دخل افريقية من عمّال بني العباس الأشعث بن عقبة الخزاعي . أرسله أبو جعفر المنصور سنة أربع وأربعين ومائة .

وقال ابن نباتة : هو من عمال السفّاح ، أرسله سنة ثلاث وثلاثين ومائة ؛ وذلك أنه لما تشتت جمع بني أمية واستقام الأمر لبني العباس واشتغلوا بتمهيد البلاد بالمشرق فوقع بعض إهمال افريقية فاشتعلت بها نار الفتن ، وهاجت الخوارج ، وقام بافريقية أبو الخطاب رأس الخوارج ، فبلغ بنو العباس ذلك وأرسل لهم أبو جعفر المنصور /343ب/ الأشعث بن عقبة المذكور .

فقاتل الخوارج وهزمهم ، وقتل أبا الخطاب وشرّد الصُّفرية وبدّد شملهم . واستقام له الامر ، فبنى سور القيروان من الطوب سبعة عشر ذراعًا في شهر ربيع الاول من السنة المذكورة ، وكمُل في شهر رجب الفرد سنة ستّ وأربعين. وهو أول قائد للمسودة بافريقية ، والمسودة كناية لبني العباس ، لأنهم جعلوا شعارهم السواد ، كناية عن طلب الثأر لأنهم خرجوا طالبين دم الحسين وزيد وابراهيم الامام رضي الله تعالى عنهم . فكان لباسهم السواد ، وكانت أعلامهم سودًا وخِلَعهم سودًا ، وبثوا ذلك في كلّ بلاد الى أن بلغ شعارهم افريقية ، وكان أول قائد لهم الاشعث المذكور . ثم أولى المنصور على افريقية

عمر بن حَفْص ، فكان ثاني عامل لبني العباس بافريقية .

ولاية عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة أبن ابي صفرة

وقبيصة أخو المهلب بن أبي صفرة المشهور . وعمر المذكور كان يلقب هَزار مَرْد ، معناه ألف رجل . لقّبه الفُرس بذلك ، لأنه كان يقوم مقام ألف فارس في الحرب . وكان بطلا شجاعًا مهابًا مقدّمًا عند المنصور ، ولاّه السِّند وهمذان وفارس ، ثم عزله عن ذلك بهشام بن عمر الثعلبي ، وسيّره الى افريقية سنة إحدى وخمسين ومائة .

فقدِمها ومعه خمسمائة فارس ، فاجتمع اليه وجوه أهل القيروان فواصلهم وأحسن اليهم . وأقام /344/ الامور المستقيمة ثلاث سنين ، ثم سار الى الزاب وبنى مدينة طُبنة ، وذلك بعد أن ورد عليه كتاب الخليفة المنصور يؤكد عليه بقتل الخوارج الذين بافريقية ، فقتل منهم خلقًا كثيرًا ، ثم اشتدّ عليه الأمر مع الخوارج ، فلجأ الى جبل أوراس فاّغتاله بعضهم وهو نائم ، فمات قتيلا ، رحمة الله عليه .

ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة

وجهه المنصور الى افريقية سنة خمس وخمسين ومائة بعد قتل عمر بن حفص المذكور . فدخلها ومعه خمسون ألفًا من العسكر ، فقتلوا الخوارج الذين قتلوا عمر بن حفص ، ومهّد البلاد ودانت له العصاة والعباد . ثم دخل القيروان لعشر بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ورتّب أمر القيروان وجعل كل صناعة في مكانها . وكان جوادًا مشكورًا .

حكى عنه سحنون أنه كان يقول : والله الذي لا اله الا هو ما هِبت شيئا قطّ أهبتي الاّ رجلا واحدًا يزعُم أني ظلمته ، وأنا أعلم لا راحم له الا الله ، يقول بيني وبينك الله !

وهدم جامع القيروان ما عدا المحراب وبناه ، واشترى العمود الأخضر بمال جزيل . وكان ذا حزم ، يباشر الحروب بنفسه مع ما فيه من الجود والكرم والعقل . ولـمّا رحل عن العراق كان في صحبته يزيد السُّلمي عامل مصر ، فكان يزيد بن حاتم ينفق على الجيشين من عنده . وهذا غاية /344ب/ الكرم والجود . وقصده جماعة من الشعراء فأحسن اليهم . وكان قصده مروان بن أبي حفصة الشاعر ، وأنشده :

إليك قصَرْنا النّصف من صلواتِنا مسيرةُ شهر ثم شهر نؤمّلُه
فما نخشى أن يخيبَ رجـاؤنا لديك ولكن أهنأُ البرّ عاجلُه

فأمر له بخمسين ألف درهم ، ونادى في الجند : من أحبّني واسى هذا الشاعر ! فحصل له من الجند خمسون ألفًا أيضًا ، فرجع من عنده بمائة ألف درهم في بيتين ، وكانت ولايته خمسة عشر عامًا . ومات بالقيروان سنة سبعين ومائة وخلفه ولده من بعده ، وبايعه أهل القيروان . وكانت هذه السنة هي التي مات فيها الهادي واستُخلف مكانه الرشيد . ولـمّا أن استقرّ له الأمر وجه الى افريقية روْح بن حاتم .

ولاية روْح بن حاتم بن قبيصة الازدي

وهو أخو يزيد المذكور . وجّهه الرشيد الى افريقية سنة إحدى وسبعين ومائة وعَزل ولد أخيه يزيد عن افريقية وولاه الموصل ، ووجه عمّه روْح المذكور الى افريقية . وكان روْح من الأمراء الكبار وُلّي الولايات الضخمة ، وخدم خمسة من الخلفاء ، السفّاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد . وكانت له همّة وفصاحة وبلاغة وكرم وشجاعة . قال ابن رشيق القيرواني : كان روْح بن حاتم جالسًا يومًا في بعض منتزهاته والى جانبه حظية من حظاياه /345/ وكان في وسط النهار إذ أقبل عليه رجل ومعه وعاء ، يسمى قادوس ، ملآن بالورد الابيض والاحمر في غير أوان الورد ، ففرح به روْح وأمر أن يملأ

له ذلك القادوس دراهم . فقالت الحظية : ما أنصفته أيها الامير ! قال : ولِم ؟ قالت لانه أتاك به وهو من لونين ، فينبغي أن تلوّنه له كما أتى به ! فضحك ، وأمر أن يكون نصفه دراهم ونصفه دنانير . اه .

وكان مقامه بافريقية أربع سنين . ومات بالقيروان في شهر رمضان . ومن غريب الاتفاق أنه لـمّا مات أخوه بافريقية ، وكان هو واليًا على السند ، استعجب الناسُ من شدة ما بينهما من بعد المسافة ، حيث كان أحدهما بالسِّند والآخر بافريقية . فأتفق أن عزله الرشيد عن السّند وولاه افريقية مكان أخيه . ومات بها ودفن في القبر الذي دفن فيه أخوه ، وضمّهما تراب واحد . ولله عاقبة كلّ أمر .

وكان على عهد روْح المذكور ظهورُ الادارسة بالمغرب سنة اثنتين وسبعين ومائة . ولـمّا مات روْح وجه الرشيد الى افريقية هرثمة بن أعين .

ولاية هرثمة بن أعين الهاشمي بالولاء

ولاه أمير المؤمنين الرشيد افريقية سنة تسع وسبعين ومائة . فقدمها لثلاث خلون من ربيع الآخر من تلك السنة . وقال ابن خلكان : وبنى بلد المنستير سنة ثمانين . وقال ابن الشبّاط : إنه بنى القصر الكبير بالمنستير سنة ثمانين على يد زكرياء بن قادم ، وبنى سور مدينة طرابلس ، وأمّن الناس /345ب/ في أيّامه ، وقفل الى المشرق في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة بعد ما كتب الى الرشيد يستعفيه عن الولاية لما رآه من الخلاف ، فأعفاه الرشيد وكتب اليه بالقدوم الى المشرق .

وعاش الى أيام المأمون وكان يعتمد عليه في الأمور العظام الى أن حقد عليه وحبسه في سنة مائتين ، ثم أرسل اليه من قتله . وقيل قتله الفضل بن سهل بغير علم المأمون وكان من الأمراء الكبار من موالي بني العباس . ولـمّا رجع الى المشرق تولّى بعده ابراهيم بن الاغلب من قبل الرشيد ، وهو أول الاغالبة

بالقيروان .

ولاية ابراهيم بن الاغلب

ولاّه الرشيد على افريقية أميرًا في سنة أربع وثمانين [ومائة] . وذلك أنّه في تلك السنة ولّى حمّاد البربري اليمن ومكة ، وولّى داود بن يزيد بن مرثد بن حاتم المهلبي السّند ، وولّى يحيي الحرشي الجبل ، وولّى مهرويه الرّازي طبرستان ، وولّى افريقية ابراهيم بن الاغلب ، وكان على الموصل وأعمالها فعزله ، وولى يزيد بن مزْيد بن زائدة الشيباني مكانه .

وقدم ابراهيم الى افريقية من سنته ، وبنى مدينة القصر على ثلاثة أميال من القيروان ، وهدم دار الامارة التى كانت بالقيروان ، قِبليّ الجامع الاعظم ، وانتقل الى القصر وجعله دار الامارة . وعمّرت بإزائه مدينة القصر ، وصار بها أسواق وحمّامات وفنادق وجامع ، وذلك سنة خمس وثمانين ومائة الا /346/ أنه لم تطل أيامه وأدركه حمامه ، ومات سنة سبع وتسعين ومائة في آخر خلافة الامين ، فكان من عمال الرشيد والامين بعده ، لانه أُبقاه على عمله لـمّا استُخلف وخدمهما معًا الى أن مات ، وخلفه ولده أبو العباس .

ولاية أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

كانت ولايته من قِبل المأمون في سنةٍ مات فيها والده ابراهيم المذكور . وذلك أنه لـمّا مات ابراهيم بن الاغلب كان الامين محصورًا ببغداد في آخر أيامه وظهرت شيم الخلافة على المأمون ، وخلع الناس طاعة الامين وجاءت كتائبهم الى المأمون بالطاعة والبيعة له ، فكتب لهم بالولايات في أعمالهم ، وجاءه من جملة ذلك كتاب افريقية بموت ابراهيم بن الاغلب فكتب الى ولده أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بالولاية مكان أبيه ابراهيم ، وتم الامر لعبد الله المذكور من قبل المأمون . فمكث سنتين ، ثم قام عليه منصور الطُّنْبُذي ، وكان من قواد الجند ، وفيه ميل لمحمد الامين . فأخذ معه جماعة من الجند واستجمع الجموع

ونسب أهل القيروان الى الجَوْر ، وحاصر أبا العباس عبد الله بن الاغلب المذكور واستولى على افريقية وبرقة والمغرب كله . ودام أمره نحو اثنتي عشرة سنة ، وآخر الأمر انتصر أبو العباس عبد الله (والصحيح زيادة الله) على الطنبذي وهزمه ومَلك القيروان وافريقية بعد /346ب/ حروب يشيب لها الرضيع ، وفتح الله تعالى عليه واستقام له الامر الى أن مات في خلافة المأمون ، سنة إحدى ومائتين ، فولِـي بعده أخاه زيادة الله .

ولاية زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب

كانت ولايته من قِبل المأمون سنة إحدى ومائتين ، فطالت أيامه واستقام له الامر ، وبنى سور القيروان ، وأدار سور سوسة ، وبنى جامع القيروان بعد هدمه ما عدا محرابه ، وأنفق عليه ستّا وثمانين ألف دينار ، وبنى قنطرة باب الربيع وحصن الرباط بسوسة ، وفتح في أيامه جزيرة صقلية على يد قاضيه أسد بن الفرات ، وكان قاضي القيروان . قال ابن رشيق (في كشف الظنون وغيره ينسب لابن رشيق علي بن حسن كتابان في التاريخ أحدهما ميزان العمل والآخر يعرف باسم تاريخ ابن رشيق) : فسيّره في نحو من عشرين ألفًا من الجيش وأركبه البحر من سوسة ، وسار الى صقلية ، والتقى بصاحبها ، يقال إنه كان في مائة ألف وخمسين ألف مقاتل ، فهزمه أسد بن الفرات وخذل الله الكافرين، وغنم المسلمون أموالهم وبدّدوا شملهم واستفتحوا من صقلية مواضع كثيرة .

ومات أسد بن الفرات محاصرًا لسرقوصة ، في ربيع الآخر سنة ثلاث عشر ومائتين . واستولى المسلمون على الجزيرة واستوطنوها . ودفن أسد المذكور هناك . وصارت الجزيرة بأيدي المسلمين ، تتداول عليها الولاة من قِبل القَرونيين ولاةِ بني العباس ومن بعدهم . وهي بأيدي المسلمين الى ما بعد الاربعين وخمسمائة ، ثم افتكها العدوّ ورجعت الى الكفار .

وكان /347/ فتْحها في أيام زيادة الله على عهد الخليفة المأمون ، وأقام زيادة الله على أعماله الى أن مات سنة ثلاث وعشرين ومائتين في خلافة المعتصم. وكان زيادة الله يقول : ما أبالي إن شاء الله تعالى بأهوال يوم القيامة وقد قدّمت أربعة أشياء بناء الجامع بالقيروان وقد أنفقت عليه ستًّا وثمانين ألف دينار ، وبناء القنطرة بباب الربيع ، وبناء حصن الرباط بسوسة ، وتوليتي أُحمد بن محرز القضاء ، وكان من العلماء العالمين الزاهدين ، وتوفي سنة إحدى وعشرين ومائتين قبل موت زيادة الله المذكور . ولما مات زياد الله ولي بعده أخوه أبو عقال .

ولاية أبي عقال الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب

وهو أخو زيادة الله . كانت ولايته من قِبل المعتصم بالله ، وكان الامير على صقلية محمد بن عبد الله بن الاغلب . فمكث أبو عقال المذكور مُديدة ولم تطل أيّامه وأدركه حِمامه ومات سنة ستّ وعشرين ومائتين في خلافة المعتصم وقبل وفاته بسنة . وكانت مدة الاغلب سنتين وتسعة أشهر ، وتولّى بعده أخوه أبو العباس .

ولاية أبي العباس محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

كانت ولايته من قبل المعتصم في السنة المذكورة . وكان فاضلا زكيًا عادلاً فطِنًا ، يباشر الأمور بنفسه ، /347ب/ وأمِنَت السُّبل في أيامه . وكان على عهده الامام سحنون بن سعيد .

ومنع الامام سحنون في زمانه أهلَ الأهواء من المسجد الجامع . وكان قبل ذلك يجتمعون فيه ويتناظرون بمذاهبهم الفاسدة ، مثل الإباضية والصّفرية والزنادقة والمعتزلة . فمنعهم سحنون من الاجتماع لذلك في المسجد .

وكان على عهده أميرًا على صقلية العباسُ بن الفضل بن يعقوب بن فزارة . تولاها سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ففتح فيها الفتوحات الجليلة وفتح قصريانة

(Enna) يوم الخميس منتصف شوال من السنة المذكورة ، أعني سنة سبع وثلاثين ، وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية . وكان الملك قبل ذلك يسكن سرقوصة . فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك الى قصريانة المذكورة لحصانتها ، ففتحها العباس المذكور ، كما قلنا ، وبنى فيها مسجدًا في الحال ، ونصب فيه منبرًا وخطب عليه وصلّى فيه الجمعة ، وذلك على عهد أبي العباس بن الاغلب ، وعامله على صقلية العباس بن فزارة المذكور ، وذلك في خلافة المتوكل . ومات أبو العباس بن الاغلب سنة اثنتين وأربعين ومائتين وتولّى بعده ولده أبو ابراهيم .

ولاية أبي ابراهيم أحمد بن محمد المذكور

كانت ولايته بعد أبيه من قِبل الخليفة المتوكل على الله . استولى على افريقية بالقيروان ، وعصى عليه أهل /348/ تونس سنة أربعين ومائتين ، فغزاهم وسبى منهم خلقًا كثيرًا .

وللامام سحنون معه واقعة مشهورة في المسبيات التونسيات ، فإنه هجم على بعض أمرائه وأخذ المسبيات من داره ومنع من التصرّف فيهن ؛ فبعث الامير أبو ابراهيم في ردّهنّ ، فأقسم سحنون لا يردهنّ مادام قاضيًا الاّ أن تُرفع يده عن القضاء ، فكفّ عنه الامير أبو ابراهيم بن الاغلب .

وعلى عهده توفي العباس بن الفضل الفزاري ، صاحب صقلية ، سنة سبع وأربعين ومائتين ، فولّى الناس عليهم ابنه عبد الله بن العباس . ثم ورد عليهم من افريقية مِن قبل أبي ابراهيم الاغلبي المذكور خفاجة بن سفيان أميرًا على صقلية فغزا وفتح فيها ثم اغتاله رجل من عسكره فقتله وهرب الى المشركين ، فولّى الناس بعد قتله ابنه محمد بن خفاجة على صقلية الى سنة سبع وخمسين ، فقتله خدمه الخصيان .

وبقي أبو ابراهيم الاغلبي على عمل افريقية الى خلافة المستعين سنة تسع

وأربعين ومائتين ، وتولى موضعه أخوه أبو محمد زيادة الله بن محمد .

كانت ولايته بعد أخيه من قبل الخليفة أحمد المستعين بالله . لم تطل أيامه ومات بعد ثمانية عشر شهرا من ولايته /348ب/ وكانت وفاته سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين وتولى بعده ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد .

ولاية أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

كانت ولايته بعد موت ابن أخيه من قبل المستعين بالله وعلى عهده ظهرت السامانية ، وتولّى نصر بن أحمد الساماني فيما وراء النهر ، وذلك سنة إحدى وستين ومائتين .

وفيها عصى أهل برقة على أحمد بن طولون ، فجهز اليهم جيشًا من مصر ، ففتحها وقبض على رؤسائهم . وكانت برقة خرجت على افريقية وصارت مصرية .

وتوفي أبو عبد الله المذكور سنة إحدى وستين ومائتين في جمادى الاولى منها ، في خلافة المعتمد على الله وخطب لاربعة من الخلفاء ، المستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد المذكور . وكانت مدة ولايته على افريقية عشر سنين وخمسة أشهر ونصفًا . وتولى بعده أخوه ابراهيم بن أحمد (جاء في الدرّ ، 204 ، أن الذي قام بالامر بعد زيادة الله بن محمد هو ابن أخيه الامير أحمد) .

ولاية ابراهيم بن أحمد بن الاغلب

كانت ولايته من قِبل المعتمد على الله . وكان ذا فطنة عظيمة ومعروف جزيل ، وله مآثر وحسنات . وكان يكثر الاقامة بتونس فبني بها الجامع ، وبنى أيضا ماجل القيروان (جاء في الدرّ (204) أنّ الذي تولّى بعد محمد هو ابنه أحمد وذكر أنه «هو الذي بنى ماجل القيروان وجامع تونس وله وقعة

مشهورة») ، وأسس مدينة رقادة سنة ثلاث وستين وتمّها سنة أربع وستين ومائتين . فكان عملها في سنة واحدة ، وبنى بها الجامع ، وانتقل بالملك اليها وسكنها /349/ وجعلها دار ملكه . وكان تصدّق بجميع ماله وبعث الى صقلية الحسن بن إلياس عاملا عليها . فبعث الحسن سراياه فيها وفتح بها عدة حصون وأماكن ، ودانت له البلاد وصلح حالها في أيامه .

ثم انتقل الى صقلية بنفسه فسار اليها ، وخلّف على افريقية ولده أبا العباس أحمد ، وفتح فيها بنفسه الفتوحات العظيمة ، وجاهد في الله حقّ جهاده ، وبقي ولده أبو العباس أحمد بافريقية ينوب أباه ابراهيم الى أن مات سنة ثمان وثمانين ومائتين .

ومات ابراهيم المذكور بالذّرَب (الذرب ، داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه) ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين بصقلية ، فجُعل في تابوت وحُمل الى افريقية ودُفن بالقيروان ، فكانت ولايته خمسًا وعشرين سنة . وتولّى بعده ولده عبد الله . (جاء في الدر (204أ) بعد قوله وكانت ولايته خمسًا وعشرين سنة «وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي بأرض كتامة يدعو الى الرّضا من آل محمد ﷺ كذا حكاه ابن سعدون القيرواني ، انتهى ومنهم الامير أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن محمد المتقدم ذكره . . »).

ولاية عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

كانت ولايته من قبل المكتفي بالله ، فإنه تولّى بعد نحو الستة أشهر من خلافته . ومات أبوه في خلافته أيضًا ، لأنه خدم ثلاثة من الخلفاء وخطب لهم ، وهم المعتمد والمعتضد والمكتفي . هذا ، وكان عبد الله المذكور حسن السيرة ، كثير العدل ، صاحب معروف وإحسان . صار اليه الامر بعد أبيه ، فانتقل الى مدينة تونس ، وجعل مقامه بها وسكنها .

وكان قد حبَس ولده زيادةَ الله على شرب الخمر ، فكرِه زيادة لله ذلك واتفق مع ثلاثة من موالي أبيه الصقالبة /349ب/ على قتل أبيه . فأجابوه على ذلك ، وقتلوا عبد الله بن ابراهيم باتفاق من ولده زيادة الله . وأحضروا له رأس أبيه وهو في السجن . فأُخرج من سجنه وقُدِّم للبيعة وولّى بعد أبيه . وكان مقتل أبيه عبد الله سنة خمس وتسعين . وقال المؤيد سنة ستّ وتسعين ومائتين .

ولاية أبي مضر زيادة الله بن عبد اُلله بن الاغلب

كانت ولايته في خلافة المقتدر بالله . استقل بالامر بعد قتل أبيه ودفنه بمدينة تونس . وكان زيادة الله المذكور سّيء السيرة ، أهمل الملك وأحوال الرعية ، وتغافل عن مصالح العباد ، وانعكف على اللذات ، وانهمك في الشراب واللهو ، وجالس المغنين وأهل اللهو والمضحكين ، فكانوا لا يفارقونه ليلا ونهارًا .

وقتَل قتَلَة أبيه مع أنهم فعلوا ذلك باتفاق منه . وقتل من الاغالبة كل من قدر عليه من أعمامه وإخوته وأهل بيته ؛ على غير جُرم صدر منهم .

وفي أيامه قوي أمر أبي عبد الله الشيعي القائم بدعوة الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب . وكان أوّلا بأرض كُتامة ، يدعو الى الرّضا من آل محمد ﷺ في أيام جدّه ابراهيم بن الاغلب ، المقدم الذكر . واستفحل أمره في أيام زيادة الله هذا . فأرسل اليه زياد الله جميع عسكره من تونس الى بلد سبيبة وكانوا أربعين ألفًا . وقد أمّر عليهم ابراهيم بن الاغلب ، وهو من بني عم زيادة /350/ لله المذكور .

فتوجّه ابراهيم الاغلبي الى أبي عبد الله الشيعي بسبيبة . فأنهزم ابراهيم الاغلبي مع عسكره ، واستفحل أبو عبد الله الشيعي ، وقوي أمره . وعلم زيادة الله أنّ لا مقاومة له لـمّا رآه من هزيمة عسكره وضُعف أمره . فجمع ما قدَر عليه من أمواله ، وأخذ عياله وأقاربه وأهل بيته وخرج فارًا عن ملكه الى المشرق. وذلك في أوّل خلافة المقتدر بالله . فبلغ زيادة الله مصرَ ، وكان بها

النوْشري عاملا للمقتدر .

فكتب النوشري بأمره الى المقتدر . وسار زيادة الله الى أن بلغ الرقّة ، فوافاه كتاب الخليفة المقتدر ، يأمره بالعوْد الى بلاده ، لقتال الشيعي . ويأمر النوشري عامل مصر أن يمدّ زيادة الله بما يحتاجه من المال والرجال . فأمره النوشري بالذهاب الى الحمامات ، ليخرج اليه ما يحتاجه من الرّجال والأموال . فخرج زيادة الله وماطله النوشري ، وأطال مُقام زيادة الله ينتظر ما يمدّه النوشري ، فتفرّق عنه أصحابه وتتابعت به الامراض ، وسقط شعَر لحيته (هنا جاء في الدرّ ، الموضع السابق ، «فماطله العامل» . ولا ذِكر فيه لعبارة «بالذهاب الى الحمامات» المذكورة في البلدان لليعقوبي والمسالك للبكري باسم ذات الحمام ولا إشارة فيه كذلك «لسقوط شعر لحيته») ، ومع هذا لا يفارق اللهو وملازمة الشرب واستماع الملاهي الى أن أيست منه أصحابه ، فتفرقوا عنه وأيس هو من النوشري . فسار الى القدس ، يريد المقام بها . فمات بالرّملة ، ودفن بها ولم يبق بالمغرب من بني الاغلب أحد .

فكان زيادة الله المذكور آخرهم وبه انقرضت أيّامهم . فكانت مدة ملكهم مائة سنة واثنتي عشرة سنة بالتقريب ، لأن جدّهم ابراهيم بن الاغلب كان ولاه الرشيد /350ب/ على افريقية سنة أربع وثمانين ومائة . ودامت أيامهم الى أن انقرضت في خلافة المقتدر بالله سنة ستّ وتسعين ومائتين .

(جاء في ترتيب ولاة بني الاغلب في الدر 204أ : أبو العباس أحمد بن ابراهيم . وبعده : أبو ابراهيم محمد بن ابراهيم بن محمد بن الاغلب . وجاء فيه أيضا أن الذي قام بالامر بعد زيادة الله بن محمد هو ابن أخيه الامير أحمد . وأن الذي تولّى بعد محمد هو ابنه أحمد وذكر أنه «هو الذي بنى ماجل القيروان وجامع تونس وله وقعة مشهورة») .

وكان المقتدر بالله هو آخر الخلفاء من بني العباس الذين استولوا على

افريقية ، وخُطب لهم بها قبل بني عبيد الفواطم ، لأنّ بني عبيد الشيعة كان ابتداء دولتهم بافريقية سنة ستّ وتسعين ومائتين ، حين انقرضت منها بنو الاغلب وتمحّضت لبني العبيد الشيعة ، وخُطب لهم بها وانقطع ذكر بني العباس منها .

وكان المقتدر بالله هو الثامن عشر من بني العباس رحمهم الله تعالى .

وهذا آخر ما أردناه من غرضنا من هذا الكتاب ، والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب .

ولكن حيث انتهى بنا الكلام الى المقتدر ، وكان هو الثامن عشر ، فينبغي أن نذكرهم ، أسماءهم ومددَهم على سبيل العدّ والتحصيل ، ليحصُل العلم بهم من غير إطناب ولا تطويل .

فنقول إنّ **أولهم** هو أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنه ، بويع له بالخلافة في ربيع الاول وقيل الآخر بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين مائة . ومات بالانبار بالجُدَري في ذي الحجة سنة ستّ وثلاثين ومائة . وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، ومدة خلافته من لدن قتْل مروان الجعد الاموي أربع سنين . وكانت له بيعة أخرى قبل قتله بثمانية أشهر . وكان طويلا أقنى ، حسن الوجه واللحية .

وثانيهم أبو جعفر المنصور . /351/ بويع له بعد موت أخيه السفاح بالحجاز وكان حاجًا . فبايعه الناس بعهد من أُخيه . ومات حاجا أيضًا لستّ خلوْن من ذي الحجة ، ببئر ميمونة سنة ثمان وخمسين ومائة . ودفن بباب المعلّى وعمره ثلاث وستون سنة . وخلافته اثنتان وعشرون سنة ، وثلاثة أشهر وكسر . وكان أسمر نحيفًا خفيف العارضين .

وثالثهم محمد المهدي بن عبد الله المنصور . بويع له بعد موت أبيه في منتصف ذي الحجة ببغداد ، وتوفي بأسبدان لثمانية بقين من المحرم سنة تسع

وستين ومائة . وعمره ثلاث وأربعون سنة . وخلافته عشر سنين وشهر .

ورابعهم موسى الهادي بن محمد المهدي . بويع له يوم مات أبوه بعسكر المهدي ، وكان بجُرجان . وتوفي ليلة الجمعة منتصف ربيع الاول سنة سبعين ومائة وعمره ستّ وعشرون سنة . وخلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر . وكان طويلا جسيمًا ، أبيض بشفَته العليا نقص .

وخامسهم هاورن الرشيد .

وسادسهم محمد الامين .

وسابعهم عبد الله المأمون .

وثامنهم محمد المعتصم .

وتاسعهم هارون الواثق .

وعاشرهم جعفر المتوكل .

وقد جعلنا لهذه الستة ، لكل واحد منهم ، بابًا يخصّه . فراجع ذلك إن شئت ، إذ هم المقصودون من هذا الكتاب .

وحادي عشرهم محمد المنتصر بن جعفر المتوكل . بويع له يوم قتل أبوه المتوكل في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين . ومات في ربيع الاول سنة ثمان وأربعين /351ب/ ومائتين بسامرا ، وعمره خمس وعشرون سنة وستة أشهر . وخلافته ستة أشهر ويومين . وكان قصيرًا أعيَن أقنى ، كثير اللحم ، راجح العقل مهيبًا كثير الانصاف .

وثاني عشرهم أحمد المستعين بن محمد المعتصم . بويع له يوم دفن المتوكل ، وخلع يوم الجمعة رابع المحرم ، فاتح سنة اثنتين وخمسين ومائتين . وقتل مخلوعًا في تلك السنة ، وعمره أربع وعشرون سنة ، وخلافته الى أن خلع ثلاث سنين وَتسعة أشهر وكسرًا .

وثالث عشرهم أبو عبد الله محمد المعتز . وقيل اسمه الزبير ، وهو ابن جعفر

المتوكل ، بويع له وهو مسجون في المحرّم سنة إحدى وخمسين ومائتين ، وتمّ له الامر بعد خلع المستعين . وخُلع المعتزّ يوم الاربعاء لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين بعد أن دخلت عليه جماعة من الجند طالبين أرزاقهم ، وجرّوه برجله الى باب الحجرة ، ولطموه وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه ، وأقاموه في الشمس ، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر . وعذّبوه ومنعوه الطعام ثلاثة أيام ، وجصّصوا عليه سردابًا . فمات ، ودفن بسامرا مع المنتصر . وعمره أربع وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يومًا ، وخلافته من بيعته الى خلعه أربع سنين وسبعة أشهر الا سبعة أيام . وكان أبيض أسود الشعر .

ورابع عشرهم محمد المهتدي بن هارون الواثق . يوم /352/ خلْع المعتز . وخُلع المهتدي في منتصف رجب سنة ستّ وخمسين ومائتين ، بعد أن قامت عليه الاتراك ، وهرب الى بعض الدور . فأُمسِك وصُفع ودسّوا خِصْيَتيه ، ومات لاثنتي عشرة ليلة بقيت من الشهر المذكور . ودفن بمقبرة المنتصر ، وعمره ثمان وثلاثين سنة . وخلافته أحد عشر شهرًا ونصف . وكان أسمر عظيم البطن ، قصيرًا طويل اللحية . وكان ورعًا كثير العبادة ، قصَد أن يكون في بني العباس مثْل عمر بن عبد العزيز في بني أمية .

وخامس عشرهم أبو العباس أحمد المعتمد بن جعفر المتوكل . أُخرج من الحبس وبويع له حين خلع المهتدي . وتوفي لأحد عشر ليلة بقين من رجب ببغداد سنة تسع وسبعين ومائتين ، وهو على الشط بعد أن أكل وأكثر من الشراب . وعمره خمسون سنة وستة أشهر وخلافته ثلاث وعشرون سنة وستة أيام . وكان قد تحكّم عليه في خلافته أخوه أبو أحمد طلحة الموفّق بن جعفر المتوكل ، وضيّق عليه حتى أنه احتاج الى ثلاثمائة دينار ، فلم يجدها في ذلك الوقت فقال :

أليس من العجائب أنّ مثلي يرى ما قــلّ ممتنعًا عليه
وتؤخذ باسمه الدّنيا جميعًا وما من ذاك شيء في يديه

وكان الموفّق المذكور قد بويع له بولاية العهد من المتوكل ، وبعده المفوّض جعفر بن المعتمد . فمات الموفق في خلافة المعتمد في صفر سنة ثماني وسبعين ومائتين . وبايعوا بالعهد لابنه أبي العباس المعتضِد وخلعوا المفوّض من /352ب/ العهد ، وتولى المعتضد ما كان يتولاه أبوه الموفق .

وسادس عشرهم أبو العباس أحمد المعتضد بن طلحة الموفّق بن جعفر المتوكل . بويع له حين مات عمّه المعتمد ، وتوفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين . ومولده كان في ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وخلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا . وهو واسطة بني العباس . كان شهمًا مهيبًا عند أصحابه يتّقون سطوته ، ويكفّون عن المظالم خوفًا منه . وكان عفيفًا ، حلَف أنه ما حلّ سراويله على حرام قطّ . الاّ أنه فيه الشحّ . وكان يقول حين حضَرَتْه الوفاة أبياتًا منها :

ولا تأمنن الدّهر إنّي أمنتــه فلم يبق لي حالا ولم يرع لي حقّا
قتلت صناديد الرّجـال ولم أدعْ عدوا ولم أمهـل على طفّـة خَلْقَا
وأخليت دار الملك من كل نــازع فشردّتهم غربًا ومزّقتـهم شـرْقًا
فلمّا بلغتُ النّجم عزّا ورفعــة وصارت رقابُ الخلقِ أجمعُ لي رِقّا
رماني الرّدى سهمًا فأخمدَ جمرتي فهـا أنا ذا في حفرتي عجلا ألقى

وسابع عشرهم أبو الحسن علي المكتفي بالله بن أحمد المعتضد . بويع له بالرقّة ، وأخذت له البيعة ببغداد حين مات أبوه ، وتوفي لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين ، بعد أن مرض عدة شهور وعمره ثلاث وثلاثون سنة وخلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يومًا . وكان ربعةً ، جميلا دقيق /353/ السُّمرة وافر اللّحية ، حسن

الوجه والشعر .

وثامن عشرهم أبو الفضل جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر . بويع له يوم مات أبوه ، وعمره ثلاث عشرة سنة . وقتل وحُزّ رأسه في قتال مؤنس الخادم وهو مُغاضب له سنة عشرين وثلاثمائة . وتولّى بعده محمد القاهر بالله بن المعتضد .

وعُمر المقتدرِ لـمّا قتل ثمان وثلاثون سنة . وخلافته أربع وعشرون سنة وأحد عشر شهرًا وستة عشر يومًا .

وكان ثقيل البدن ، عظيم الجثة . وكان أهمل أحوال الخلافة ، وحكّم فيها النساء والخدم ، وفرّط في الاموال واستولت عليه بعض الوزراء . وكان قد عُزل ، كما قدمنا ذلك استطرادًا في خلافة الامين (109ب) ، واستخلف في أيامه في العَزلة الاولى عبد الله بن المعتز يومًا واحدًا ، وفي العزلة الثانية محمد القاهر المذكور يومين . ورجعت الخلافة الى المقتدر الى أن قتل في السنة المذكورة . وتولى بعده ثانيًا محمد القاهر المذكور .

فكان المقتدر هو آخر الخلفاء من بني العباس بافريقية . ثم صارت الخلافة لبني العبيد الفواطم بافريقية ، وقُسّموا بالبلاد مع بني العباس الى أن استولوا على مصر وغيرها . انتهى كذا نقلناه من تاريخ المؤيد ، من أماكن منه . وراجعنا فيه ذكر بني الاغلب ، مع ما نقلناه من المسوّدة بعزو لابن الشبّاط وابن الشمّاع وغيرهما ؛ الا أنّ فيه تخليط . فصححنا ذلك من المختصر للمؤيد رحمه الله تعالى .

وهذا آخر ما أردناه من هذا الكتاب ، والله الموفق /353ب/ للصواب ، واليه المرجع والمآب ، ولا حول ولا قوة الا بالله العليّ العظيم ، وصلّى الله على نبيه محمد المصطفى الكريم ، وعلى آله وأصحابه ذوي الفضل العميم .

قال مؤلفه الفقير الى الله الديّان حسين بن محمد وادران : ووافق الفراغ من

تبييض هذا الكتاب في أول جزء من نصف السدس الخامس ، في أوّل سبع من السبع السابع ، من الخمس الخامس ، من السدس الخامس ، من الربع الثالث ، من الثلث الثاني ، وهو ثاني الخمس الاول ، من العُشر الثامن ، من ثاني السدس السادس من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وعلى آله وأصحابه خير آل ، والحمد لله على الاكمال . انتهى .

التعاليق

التعاليق
على كتاب دولة الرشيد من
بني العباس وبنيهِ

إشارات :

ـ الصفحة . . والفقرة . . وموضوع التعليق . .

ـ الارقام بعد (ص) تشير الى صفحات المخطوط ، وبعد (ف) الى الفقرات داخل كل صفحة .

ـ تبدأ الفقرة الاولى من كل صفحة بعد أول رجوع للسطر من بداية رقم الصفحة .

ـ عند عدم ذكر الفقرة فإن موضوع التعليق يقع بعد بداية رقم الصفحة المذكورة مباشرة .

ـ لا يعدّ العنوان فقرة مستقلة ، وكذلك المقدمات التي تقل عن سطر والتي تعلن عن موضوع الفقرة أو الفقرات التالية .

ـ (الدرّ) ، هو كتاب «المختار من الدرّ المكنون المنتظم في خلافة الرشيد والامين والمأمون والمعتصم» الذي قابلنا نسخته المخطوطة على ابن وادران ، كما ذكرنا ذلك في المقدمة .

* * *

3ب ، ف1 ، الرشيد (ترجمة الرشيد وأخباره مذكورة هنا من مصادر

متنوعة عديدة ، وكذلك تراجم الخلفاء الخمسة الآخرين بعده و الأمراء والقواد والكتاب والشعراء والعلماء والفنانين وغيرهم ممن عاصرهم . وكان يطول بنا العدّ والحصر والتنقيب لو تتبعناها كلها في المصادر والمراجع الحديثة المطبوعة . وللرجوع الى الاساسي منها ينظر في دائرة المعارف الاسلامية أو قاموس الاعلام للزركلي . وما ذكرناه منها فعلى سبيل المثال لا الاستقصاء كما في حالة الرشيد هنا : تاريخ بغداد 5/14 ، البداية والنهاية 213/10 ، فوات الوفيات 225/4 ، الديارات 144 ، تاريخ الخلفاء 307 ، تاريخ الخميس 331/2 ، الفخري 175 ، معجم المرزباني 462 ، الزركشي 340 ، الروحي 48 ، خلاصة الذهب المسبوك 107) . . الملك المؤيد (المختصر 12/2) .

ف2 ، ما حكاه بعضهم (انظر الفرج بعد الشدة 284-5 . والرواية هنا في نصنا أكمل) .

5ب ، ف1 ، تاريخ الخميس (تاريخ الخميس في أحوال النفس والنفيس لحسين بن محمد الدياربكري ، مجلدان ، طبع مصر 1283هـ . والخبر هنا مذكور في المختار من الدرّ المكنون المنتظم في أخبار الرشيد وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم 4أ ، وهو المخطوط المشار اليه اختصارا فيما يلي بالدرّ) . . عن اليافعي (اليافعي ، عبد الله بن أسعد بن علي ، مؤرخ ، باحث متصوّف من شافعية اليمن (-768هـ) ، من كتبه مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان . 4 أجزاء ، ط. حيدر آباد الدكن 1337-1339هـ) . . كانت المواكب تهتدي (كذا في الاصل ، ولها وجه ، ولعلها «تغتدي» . وفي بعض المراجع : تغدو . .) . . بكلام لحّ (كذا في الاصل مع شكلا لحرف الاخير ، وفي الدرّ 4أ «لحَحٍ» ، وفي بعض المراجع «وألحّ فيه») . . حتى مات (في الدرّ 4أ ، مع هذه الاضافة : «حتى مات ، وكان قصده هلاك الرشيد ليولي العهد لولد له صغير عمره عشر سنين كما ذكرنا» .

ف2 ، قال البكري (الدرّ ، 3ب) .

ف3 ، قال بعضهم (الدرّ ، 3ب) .

ف6 ، وقال الملك المؤيد (المختصر 12/2 «وكان بشفته العليا تقلّص» ، «بعيساباذا الكبرى») . . ودفن بعيساباذ (في الاصل : بعيشاباذا ، والتصحيح من البداية 158/10) .

ف7 ، وذكر في الإحياء (إحياء علوم الدين للغزالي (–505هـ) طبع مصر) .

6أ ، ف1 ، نفطويه في تاريخه (نفطويه هو ابراهيم ين محمد الازدي المتوفى 323هـ . إمام في النحو على مذهب سيبويه . ذكر له ابن النديم في الفهرست من كتبه «كتاب التاريخ» . الدرّ 4أ) .

ف3 ، ابن عساكر (وروى ابن الاثير (البداية 217/10) قريباً من هذا القول منسوبًا الى الجاحظ . الدرّ 4ب) .

ف4 ، حياة الحيوان (حياة الحيوان الكبرى للدميري ، نشر المكتبة الاسلامية ، القاهرة) .

6ب ، ف1 ، المؤيد (المختصر 120/1) .

ف2 ، أمّ الرشيد (الدرّ 4ب ، ذكر وفاة الخيزران أم الرشيد ، شبه عنوان) . . وبرّ قَسَمه (الدرّ 4ب ، وبعده : كما سنذكره إن شاء الله) .

ف3 ، كان الرشيد (الدرّ 4ب) . 7أ و 7ب . . (نقص ورقة كاملة) . (الدرّ 91أ من أول الخبر والزيادة بين معقوفين من الأغاني . وفي الدرّ 91أ) . . إذ أنا بجارية (في الاغاني «بجارية حميراء») .

ف2 ، حرفٌ منه (في الاصل ، لم يدر حرف منه . وفي الدرّ : «لم يدُرْ لي حرف منه») . . دارلي (في الاصل : «ما داري») . . فقطبّت فيّ (في بعض المراجع «ففطنت») . . فضربت بيدي (في الاصل : ضربت يدي ، وفي الاغاني «ضربت بيدي») . . أن تَلْقيْ (في الاصل «تلق» ، و«نلتقي» ولا وجه له) .

8ب ، الباب المحوَّل (في الاغاني «باب محوّل») . . شارع الميدان (في الاغاني «شارع المدينة») .

ف1 ، سلاّم الابرش (خدم للمنصور وتولّى المظالم للمهدي والهادي والرشيد) . . بغَسول (الغسول ، الماء يعتسل به ، أو ما يعتسل به من أشنان) . . والتكثير (كذا في الاصل ، وفي الدرّ «والتكبير») .

9أ ، يغني بصوت لي (الكلل ، مفرد كلّة ، وهي ستر يخاط كالبيت (ناموسية) . والشعر هنا مطابق لما في الدرّ ، ص 19أ ، وفي الاغاني وبعض المراجع «كأن الريح ترجعها» أو «كأنّ المشي يوحشها» . اليعافير : الظباء . والوهل : الفزع) .

ف1 ، بصوت لـحُنَيْن (في البيت الاول : «صافي . . » والهجان : الابيض الخالص من كلّ شيء) .

ف2 ، فشبّه فيه (شبه فيه ، يريد لم يؤده على وجهه) ، والشعر . . (البيت الثاني : «ذي بقر» ، والبيت الثالث : «بمشرق . . ومسبكر») .

ف3 ، تغنّت الثانية (الدرّ 20ب : بشعر جرير) . . الخنساء (في الاصل ، البيت الاول : «. . فما بصرت» . وفي الثاني «ثائرا» ولا يستقيم الوزن) .

ف4 ، عمرو بن معدي كرب (في البيت الثاني : نزار على وفر . . ، في بعض المراجع) . . عمر بن أبي ربيعة (في البيت الاول «وقفنا» ، ولا يستقيم به الوزن . وفي البيت الاخير : يروى «تنازعن») .

ف5 ، دُسْتان (الدستان مفرد دساتين وهي الرباطات التي توضع عليها الاصابع في العود ، راجع عنها مفاتيح العلوم للخوارزمي ، ص 40) . . وعاد الخادم فقال : كذبت (يوجد نقص هنا في الاغاني تفطن اليه محققوه بالهامش 1 . الاغاني 317/6) .

11أ ، جَوارٍ (في الاغاني : «وكل آلة من الخدم وخول الى جوار» . ورواية

النص هنا أصح) . . أجِلّة (جلّة) .

ف1 ، لتنوخي (غير مذكور في الفرج بعد الشدة ، الاغاني طبعة دار الكتب . 311/6 ، الدرّ 12 ب) . . فأحثلتُ شيئا (في الاصل «اجلت» حثل شيئا ، يقصد تناول غذاء سيّئا) . . خبر السوداء (انظر تعليقنا على الجارية في أول الخبر ، جارية حميراء) .

ف3 ، بن حسن بن الحسن (في الاصل «بنُ حسين بن حسن» . انظر مقاتل الطالبيين 308) . . المؤيد (المختصر 13/2) .

ف4 ، المؤيد (13/2) .

12أ ، [جماعة من مضر] (الزيادة من المختصر) .

ف1 ، الفرج بن فضالة (الفرج بن فضالة التنوخي الحمصي كان على بيت المال ببغداد ، بداية 171/10) وصالح بن بشير (في الاصل «بن بشر» ، وهو صالح بن بشير القارىء المري ، بداية 170/10) . . ابن أبي شريك (وفيات 467/2 (291) . وهو أبو عبد الله . . من نسل ابراهيم النخعي تولّى القضاء بالكوفة) . . عبد الله بن مصعب (في الاصل «مصعب بن عبد الله» الوفيات : عبد الله بن مصعب ، وكان المهدي استعمله في اليمامة . وتوفي سنة 184هـ) .

12ب ، من المخ وغيره (في الوفيات «من المخ المعقود بالسكر الطبرزذ والعسل وغير ذلك») . . فقايضه (في الاصل «فياقضه» وفي الوفيات «فضايقه» واستقربنا عبارة المؤلف مع تصحيحها) .

ف1 ، حمّاد (انظر ترجمة حماد في الوفيات 205/2) . . تاريخ العظمي (في الدرّ 5أ «كذا حكاه في تاريخ العاصمي») .

ف3 ، الاغاني (الدرّ 81أ . وأخبار ربيعة الرقي في الاغاني 254/16-297) . . يقول فيها (في الاصل أما . . وفي الدرّ 81أ «ما أعد المكارم . .») .

13أ ، ف1 ، قال (الدرّ 18أ والاغاني 258/16) : وكان الرقّي . . ببَرنِيّة

(البرنية ، إناء من خزف) . . من بحر (في الاغاني «من شحر عمان» والشَّحر هو الساحل . وهو المعنى في النص هنا) .

14أ ، بثلاثين ألف درهم (بعد هذه الحكاية أورد الدرّ 18أ : حدّث عبد الله بن شبيب قال إن رجلين لقيا الرشيد لـمّا حج فقال أحدهما يا أمير المؤمنين أهلكتنا النوائب الخ . . لشتان ما بين اليزيدين . . قال أبو دعامة . .) .

ف1 ، ووفاة إمام (الدرّ 5أ «فصل في وفاة الامام مالك رضي الله عنه») .

ف2 ، مالك بن أنس (مالك بن أنس (93–176هـ) الديباج المذهب ، 17–30 ، وفيات 135/4–139 ، تهذيب التهذيب 5/10 . صفة الصفوة 99/2 ، حلية 316/6 ، ذسل المذيل 106 ، الانتقاء 9–47 ، الخميس 352/2 ، اللباب 86/3 . ورسالة مالك الى الرشيد مشهورة وإن كان أنكرها بعضهم . انظر الديباج ، ص27) .

ف3 ، مالك (الدرّ ، 5أ) . . ربيعة الرأي (ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن فروخ . وفيات 288/2–290) .

ف4 ، في الحِلية (حلية الاولياء 317/6) .

ف5 ، عض العلماء (المرجع السابق والديباج ، ص 24 . ويروى البيتان باقل بلاغة مما هنا : «يأبى الجواب فلا يراجع . . » ، «أدب الوقار وعز سلطان التقى ، فهو المطاع») .

ف6 ، النووي (النووي (–676هـ) ، تهذيب الاسماء واللغات ، ط . أوروبا ، ص 530) .

15ب ، وهو عبد الله (شذرات الذهب 306/1 وفيه «عبد الله» ثانية بعد الاولى وهو الصواب) .

ف2 ، التمهيد (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد ، للحافظ ابن عبد البرّ النمري الاندلسي (–463هـ) ط. المغرب 1387/1967) .

ف3 ، وفي الاخبار (الدرّ 6أ) .

16أ ، ف2 ، وفيه أيضًا (الدرّ 6ب) . . مالك النجم (الدرّ 6ب : فمالك هو النجم الثاقب) .

ف3 ، ونقل المؤيد (المختصر 14/2) .

16ب ، ف1 ، وروي أنّ أبا جعفر المنصور (الدرّ 6ب) . . في الطلاق المكره (الدرّ 6ب : في طلاق المكره) .

ف2 ، وذكر المؤيد (المختصر 14/2) . . وكلّ ذلك بفضل العلم (عبارة «وكلّ ذلك بفضل العلم» ليست في المختصر . ووفيات 137/4) .

ف3 ، قال ابن فضل (الدرّ 6ب : قال ابن بطال) . . ما قاله يحيى بن يحيي : (يحيى بن يحيى الليثي ، من قبيلة مصمودة من وسلاس ومعناها بالبربرية «يسمعهم» . رحل الى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع من مالك بن أنس الموطأ ، وكان مالك يسميه عاقل الاندلس ، ترجمته في ابن الفرضي 44 ، الجذوة 359 ، المغرب 163/1 ، الديباج 350 ، نفح الطيب 9/2 ، عبر الذهبي 419/1 ، مرآة الجنان 113/2 ، المدارك 143 ، ابن خلكان 143/6 وفيه قال ابن حزم : مذهبان انتشرا في مبدأ أمرهما بالرئاسة والسلطان ، مذهب أبي حنيفة ، فإنه لما ولِـي قضاء القضاة أبو يوسف صاحب أبي حنيفة كان القضاة من قِبله ، فكان لا يولّـي قضاء البلدان من أقصى المشرق الى أقصى افريقية إلا أصحابه والمنتمين اليه والى مذهبه ، ومذهب مالك بن أنس عندنا في بلاد الاندلس فإنّ يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة فكان لا يلي قاضيا في أقطار بلاد الاندلس إلا بمشورته واختيارة ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ اعراضهم به ، على إنّ يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه ، وكان زائدا في جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم . . ويحيى هذا من المصامدة من وِسلاس ومعناها بالبربرية «يسمعهم» . ابن خلكان 146/6) .

17أ ف1 ، حتّمْت (في الدرّ : أحتمت) .

17ب ، فليس (في الدرّ : ليس . .) بيني . .

ف2 ، أقوام بدَوْا (في الاصل : بدو . و لعلها بدأوا) .

ف4 ، وقال الواقدي (الدرّ 7 ب) .

18أ ، ف1 ، وفي الحلية (الدرّ 7ب وانظر ترجمة الشافعي في الحلية 63/9) . . الشيخ الامام (الدرّ 8ب والعبارة فيه : شيخ مشايخنا) .

ف3 ، كتاب الفرج بعد الشدّة (للتنوخي 325 . وفيه «ولا يضرّ أن نحجمه فأحضر وتقدّمت» . ونصنا هنا أكمل . وفيه أيضا «يصفرّ لونه» وهو خطأ واضح) . . خلط فيها (الدرّ 8ب . في الاصل : شيئا خلط فيه) . . لم يشك (في الاصل : لم يشكك) وحضر ابناه (الدرّ 8ب في الاصل : حضر ابنيه) . . ومسست (في الدرّ : وجسست) عِرقه .

18ب ، دينار (هناك اختلافات كثيرة في عبارات التنوخي عمّا هنا) .

19ب ، مناهج التوسّل الى مباهج الترسّل (مباهج التوسل الى مباهج الترسل لعبد الرحمن بن محمد الحنفي البسطامي ، طبع في آخر كتاب جنان الجناس في علم البديع . ط. الجوائب القسطنطينية 1299 ، ما نصّه (مناهج 153–154 وبروايته نقص) . . جبريل بن بختشوع (الكتابة المشهورة «بختيشوع» بالياء) . . وطعِم (في مناهج التوسل «طعم» ، في الأصل : طمع. ولعلها سبق لسان) .

20ب ، تزوّج العباسة (في الدرّ : العباسية) .

ف1 ، قد تقدّم ذكر عبد الصّمد بن علي (الدرّ 14ب . عبد الصمد بن علي الهاشمي . وفيات (388) 195/3–196 ، تاريخ بغداد 37/11 ، الهميان 153 ، عبر الذهبي 290/1 ، ميزان الاعتدال 620/2) .

ف3 ، قيل (الدرّ 14ب . تاريخ بغداد 38/11) . . وعم عم أمير

المؤمنين (في تاريخ بغداد «وعم عمّه وعم عم عمّه») . . ومنها (الدرّ 14ب) .

20 ب ، قطعة واحدة . ومنها (الدرّ 14ب . تاريخ بغداد 38/11) .

ف1 ، ذكر في كتاب الفرج بعد الشدة (الدرّ 8أ) .

21أ ، ف3 ، قال (الدرّ 10ب) : دعاني الرشيد .

21ب ، ف1 ، الرشيد (ذكر ابن خلكان هذه القصة بأكثر تفاصيل 6/ 385–86) .

ف2 ، قيل (الدرّ 11ب) إنّ الرشيد .

22أ ، ف1 ، التنوخي (الدرّ 10أ . غير موجود ة في الفرج بعد الشدة ، وذكرها ابن خلكان ، وفيات 381/6 في ترجمة أبي يوسف ، 824) .

23ب ف1 ، وذكر التنوخي (الدرّ11أ) .

ف4 ، وروي عنه (الدرّ 11ب . توجد هذه الرواية بشيء من الاختلاف في العبارة في الوفيات في ترجمة أبي يوسف 380/6 . وهي هنا أكمل) .

24أ ، ف2 ، أبي حنيفة (ترجمة أبي حنيفة النعمان في الوفيات (765) 405/5–415 ، البداية والنهاية 107/10 ، الشذرات 227/1 ، تاريخ بغداد 323/13) .

24ب ، ف2 ، قال الملك المؤيد (المختصر 5/2 «مسه الزقّ فأُعتق») . . زُوطى (في الاصل : زوطا) . . فأُعتق (في الاصل : فعتق) .

25أ ، ف1 ، أبو الطُفيل (في الاصل «الطفل») . . أهل النقل (وفيات . 406/5 ، تاريخ بغداد 324/13) .

ف2 ، سبعة آلاف مرة (تاريخ بغداد 354/13) . . العربية (قيل لكلمة قالها ، أجرى فيها ما وزنه على الاسماء الستة المعربة بأعراب واحد في جميع الاحوال ، على مذهب أهل الكوفة . وفيات 413/5) .

ف3 ، وروى أنّ أبا حنيفة (الدرّ 12أ) .

25ب ، ف1 ، قال المؤيد (المختصر 15/2) . . أبو يوسف القاضي (انظر ترجمة ابي يوسف القاضي في ابن خلكان ، 824 ، 378/6 ، البداية والنهاية 180/10 ، اخبار القضاة 254/3 ، وفيه (256/3) أن النبيذ الجمهوري أدخله أبو حنيفة . شذرات 298/1 ، عبر الذهبي 284/1) . . خيثمة (أبقينا على صورة هذا الاسم «خيثمة» كما جاء هنا ، لانه في ابن خلكان «حبتة» وعلق عليه المحقق بانه لم يجد له تصحيحًا في عدة مواضع من الكتب) .

26أ ، . . بعضهم (الدرّ 12ب) . . قدت (لم تتبين لنا هذه الكلمة ، فبين أن تكون بالراء أو بالدال . وملنا الى كونها من القود موضوع العنوان ، غير أننا توقفنا في تائها المفتوحة) داهمت وعامة خالفت .

ف1 ، قيل (في الدرّ في الهامش 12ب) .

غضب أمير وغيظ (في الاصل «غيض») وزير ،

ف2 ، حكى (الدرّ 12أ وأورد أقوال أبي يوسف في 115ب و116أ) .

26ب ، ولا مبالاة (في الاصل «لامبالات») . . وكتب به (في الاصل : بالاسود . وخيّرنا ما في الدرّ) .

ف1 ، حكي (الدرّ في الهامش 12ب) . . من العزّة (في الدرّ : الغيرة) .

ف2 ، وحكي (ابن خلكان 387/6) .

27ب ، كِيمُخْت (في ملحق دوزي للمعاجم العربية 506/2 ، الكيمخت نوع من الجلد) .

28أ ، ف1 في السِّراج (لعله سراج الملوك للطرطوشي . وطبع في الاسكندرية 1289) . . في العرزال (في الصحاح ، العرزال : موضع يتخذه الناطور فوق أطراف الشجر فرارًا من الاسد ، وهو أيضًا ما يجمعه الصائد في القترة من القديد . وفي المعجم الوسيط : المتاع القليل . ويظهر أن المقصود هنا في الركاب) .

28ب ، ابن عبد البرّ (صاحب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد) .. عَقيل ابن أبي طالب (في ابن خلكان «بالغ معاوية في برّه إرغاما لعلي رضي الله عنه» وفيات 156/6) .

ف1 ، المختصر (المختصر 188/1) . . أروى بنت الحارث . . (ترجمة أروى في طبقات ابن سعد 50/8 ، والخبر مذكور في العقد 119/2) . . يا خالة («يا عمّه» في العقد ، وكذا في بلاغات النساء ، وعليه فبعدها «يا ابن أخي») .

29أ ، عمرو بن العاصي (كذا في الاصل ، بالياء ، ويكتب بدونها في بعض المصادر) . . يا ابن الباغية (في الاصل : النابغة وكذا في العقد ، ويظهر أن المقصود الذم «الباغية») . . على شدّة (في الاصل : مدة ، وفي بعض المراجع «شدة») . . آنصرفت (وفي رواية العقد تقول إنها لم تجب معاوية لحاجة منه) .

ف2 ، (البيت الثالث في الاصل : والعار ، وفي الثالث : تأججها) .

29ب ، ف2 ، أعِنت على عليّ بثلاث (الزيادة من المؤيد) . . وأخلى (في بعض المراجع : خلى) .

ف3 ، حياة الحيوان (260/1) .

30أ ف 1 ، وهو يتصحّف (في الاصل «يتصفح») . . أصحاب الدرّجة (في الدميري 260/1 «أصحاب الوجوه») .

ف2 ، طريف الشيباني (الدرّ 14ب . والكامل لابن الاثير 97/5) .

30ب ، ف1 ، وهو (الدرّ 14أ تحت عنوان ذكر وفاة يزيد بن مزيد) يزيد .

31أ ، ف1 ، وحكى الاصفهاني (في الدرّ قال أبو الفرج الاصفهاني في كتابه مختار الاغاني) . . الوليد بن طَريف الشيباني (ترجمته في الوفيات (771) 30/6 . وأخباره في تاريخ الطبري وابن الاثير والنجوم الزاهرة 95/2

واليعقوبي ومروج الذهب والعيون الحدائق ومرآة الجنان 370/1 وعبر الذهبي 272/1) . . يزيد بن مزيد (وفيات الاعيان (820) 6/327–324 وألف عبد الجبار الجومرد كتاباً في سيرة يزيد بن مزيد) . . شهر رمضان (في الوفيات (32/6) «عشية أول خميس في شهر رمضان») .

ف2 ، ليلى (قال ابن خلكان (32/6) تسمى الفارعة وقيل فاطمة) .

31ب ، أبياتاً منها (قال ابن خلكان يصف قصيدتها : «وهي قليلة الوجود ولم أجد في مجاميع كتب الادب إلاّ بعضها . . فاتفق أني ظفرت بها كاملة فأثبتها لغرابتها مع حسنها» . الابيات الواردة هنا تختلف في روايتها عمّا أثبته ابن خلكان . والبيت الرابع في النص فيه كلمة بها نقص وأمامها فراغ بقدرها ، صورتها «الر» وهي في ابن خلكان «الزاد» . ولا تبدو لنا لها وجه) .

ف1 ، فقال فيه (شرح ديوان مسلم بن الوليد . تحقيق سامي الدهان ، ط . المعارف مصر 9–21 ، الشعر والشعراء 834) .

ف2 ، والقُلَلِ (ويروى : الغلل) .

32أ ، الرئاسات (في المصادر «الراسيات له» وهو أضعف مما هنا في المعنى . مع اختلافات أخرى في رواية هذا الشعر . ففي البيت الخامس «تقري الضيوف شحوم الكوم والبزل» والمعنى أبلغ هنا بدليل لفظ الشحوم . والكوم جمع كوماء وهي الناقة العالية السنام والبزل جمع بزول وهو البعير . والخول ، الذين يملكون) . . يأْبى (ويروى : يأتي) لك الذم في يوميْك . .

32ب ، فأنشد معن متمثلا (وردت هذه القصة في شرح ديوانه 434–435) .

ف1 ، قفَارة (في الاصل «القفار» بتقديم القاف . وظننا أنها زلة قلم ؛ لكن وقد تكررت فيما بعد أصبحنا نشكك في ذلك ، لان المشهور «ذو الفقار» لا العكس) .

ف2 ، جمهرة النسب (الدرّ 16أ . كتاب جمهرة النسب لابن الكلبي . والخبر مذكور في وفيات 6/329-330) .

ف2 ، قفَارة (انظر التعليق قبله) .

ف3 ، وقال المعرّي (الدرّ 16ب . في سقط الزند ، انظر شرح ديوانه 412 و446) .

33أ ، يقول («تغرّ بها» في شرح الديوان «وثقن بها» ص 12 ولم تذكر رواية أخرى للبيت ؛ مما يقرّر أهمية نصنا) .

ف1 ، وقيل (شرح ديوانه 440 ، نقلا عن الغيث المسجم للصفدي 2/187) : يزيد . . بيدها غرّاف (كلمة غراف غير واردة في الغيث المسجم) .

33ب ، ف1 ، بن مزيد (شرح ديوانه 371 . نقلا عن الاغاني) .

ف2 ، ذكر عون (الدرّ 16ب . في الوفيات 6/337 : «ذكر ابن أبي عون في الاجوبة المسكتة») .

ف3 ، محمد بن يزيد بن مزيد (ترجمته في وفيات الاعيان ، 337 ، 6/341) .

34أ ، صاحب الاغاني (الدرّ 17أ . الاغاني 18/325-326 ، وفيات 6/339) . . بَردعة (كذا ضبطها ابن خلكان وكتبها غيره بالذال) . . من بلد دران («إرّان» في الوفيات 6/340) . . فقال يرثيه (شرح ديوانه 313 ، 314) .

ف1 ، بأبيات منها (شرح ديوانه وفيه البيت الثاني «كان بها الصعيد» ، والبيت الرابع شطره «دعائمه وهل شاب الوليد» ، والبيت الثامن «تختزن البواكي» وأبلغ منها هنا كلمة «الموالى» الواردة في النص) . الخبر في شرح ديوانه نقلا عن الاغاني 373 والبيت من قصيدته في الديوان 122 . ورواية البيت فيه «وصدّقها» . والمعنى أقوى هنا) .

34ب ، كان مسلم (الخبر في شرح ديوانه نقلا عن الاغاني ، 373 والبيت من قصيدته في الديوان 122) .

ف2 ، سعيد المَرْوزي (الدرّ : 17أ . الخبر في الاغاني ونقله محقق ديوان مسلم بن الوليد ، 378) .

ف3 ، ودخل (الدرّ 17ب) مسلم . . فأنشد (شرح ديوانه 263–264 وفي البيت الاول «أتتك المطايا») .

35أ ، ف2 ، وروي (الدرّ 17ب . في الاغاني وعنه نقل هذا الخبر في شرح ديوانه 366) . . في رجل قد رثاه (شرح ديوانه 320) .

ف3 ، بالشجاعة (شرح ديوانه 321) .

ف4 ، والاخلاق (شرح ديوانه 321) .

35ب ، قيل (الدرّ 13ب . وفيات 308/5) لما حج .

ف1 ، وكان (الدرّ 13ب باختصار) .

ف2 ، وذكر ابن خلكان (في ترجمة موسى الكاظم ، 746، 309/5 ، ميزان الاعتدال : 201/4 وعبر الذهبي 115/4) .

36أ ، وهو موسى (الدرّ 13ب) . . ولقب (الدرّ 13ب) .

36ب ، ف1 (الدرّ 13ب) .

ف2 ، فائدة (الدرّ 14ب) .

37 أ ، ف1 ، ابن خلكان (ترجمته 131 ، 327/1) .

ف3 ، حكاه المؤيد (المختصر 5/1) .

ف4 ، ذكر ابن خلكان (الدرّ 14أ . ترجمته 131 . 328/1) . . في مُحْرِم (في ابن خلكان «في محرم كسر رباعية . . . فقال له أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية» . ولم تبد لنا عبارة المؤلف هنا أقل وضوحا) .. (المصائد 202) .

ف5 ، وروي (الدرّ 14ب ، السطر قبل الاخير) .

37ب ، ف1 ، مختار الأغاني (الدرّ 21ب . وأورد الخبر النويري ، نهاية الارب 327/5 . والاغاني 81/ 41) . . مازردة (في النويري : «ماردة») .

38أ ، حتى قيل (النويري : 94/5) .

ف2 ، وحُكي (الدرّ 22أ . مما حكاه اسحاق وأحمد بن الطيب ، النويري ، نهاية الارب 94/5) .

38ب ، ومما قيل (الشعر لعقيد في النويري ، نهاية 94/5—95) .

ف2 ، بذات الخال (الدرّ 24ب . شيء من أخبارها في النويري . نهاية 91/5) . . ألف دينار (درهم) .

39أ ، في المعني شيئا فقال (البيت الثاني ، عبارته في المراجع «تعطفت» وأبلغ منه هنا رواية المؤلف) .

ف2 ، وكانت ذات الخال (الخبر في النويري ، نهاية ، 92/5) . . بدلة (في الاصل تصحيح للعبارة في كتابتها الاولى بالنون بعد الدال ، وهي في المراجع «بدنة» وهو قميص للنساء لا كمين له . وبدلة ، المخيّرة في النص أعم وأشمل ؛ لان المقصود به لباس كامل للمرأة) .

ف3 ، وهو العباس (الدرّ 32ب) قوله (ديوانه 116 . والبيت الثاني العبارة فيه وقع تصحيحها وربما روايتها على غبر وجه البلاغة في الشعر ، فاللفظ فيها «يعينك دمعها المدرار» . بينما تكرار اللفظ الاول مقصود لذاته) .

39ب ، ف1 ، قالها (ديوانه 84) .

ف2 ، الحرمازي (ديوانه 282) .

ف3 ، للعباس قوله (الدرّ 33أ . ديوانه 147) .

40أ ، وهو قوله (ديوانه 81) .

ف1 ، ميمون بن هارون (الدرّ 33أ) . . العباس بن الاحنف (ديوانه 116).

ف2 ، وعن اسحاق بن ابراهيم (الدرّ 25أ) . . العباس بن الاحنف (ديوانه 206) .

40ب ، ف3 ، قال ابن الأغرّ (الدرّ 25أ) .

40ب ، ف . . ، ابن مجمع (الدرّ 25أ) .

ف . . ، وأمّ حكيم (الدرّ 25أ) .

41أ ، ف1 ، ذكر (الدرّ 23أ) في كتاب لبّ اللبيب .

41ب ، البردان (شوارع بغداد) .

42أ ، ف1 ، للرشيد (ديوانه تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، 264 مع تقديم وتأخير في الابيات واختلاف قليل في الرواية) .

42ب ، فلو لا صياحي بالغلام وأنه (يولففني ، كذا بالاصل بدون نقط الفاء الثانية) . . على ظهرِ (ويروى : على الظهر) .

ف1 ، وأبو نواس (الدرّ 138أ . ولابن منظور كتاب عنه بعنوان «أخبار أبي نواس» منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية 593 تاريخ ، وقد طبع نصفها الاول وحظر طبع نصفه الثاني لأسباب أخلاقية . ولعبد الرحمن صدقي كتاب «ألحان الحان») .

43أ ، ف2 ، الرشيد وهي (أول البيت الثاني : «أنت على ما بك من قدرة» والرابع : «وليس لله») .

ف3 ، قال (الدرّ 139أ) .

43ب ، الجهْلتين (الجهلتان هما جانبا الوادي . مجمع الامثال للميداني 82/2) .

ف2 ، قال (الدرّ 23ب) .

ف3 ، قال عذبان (الدرّ 24أ) .

44أ ، يقول فيها (الاغاني ، ط. ساسي ، 16/143–144) .

ف2 ، وقال (الدرّ 24ب) الدلعجي . . أبي نواس (الاغاني ، ط. الثقافة 44/18) .

44ب ، ف4 ، وقال (الدرّ 139أ) في كتاب لب اللبيب .

45أ ، ف1 ، قال (الدرّ 139ب) : دخلت الى دمشق

45ب ، ف2 ، عبد الله بن المعتز (طبقات الشعراء 308–309 ، وفيات 79/3) .

ف3 ، بعض منها (100ب–104ب . وانظر الفهرس) .

ف4 ، قال في كتاب لبّ اللبيب (الدرّ 22ب) .

46أ ، ف1، أما وأبيك (أما والله) . . السّهارُ (النهارُ) .

46ب ، ف3 ، الخطيب البغدادي (الدرّ 8ب) .

47أ ، ف2 ، الفرج بعد الشدة (الدرّ 27ب) .

48أ ، ف1 ، الفضل بن الربيع (الفرج بعد الشدة ، 86) . . معن بن زائدة (وفيات ، 244/5–254) . . القائل (الاغاني ، ط. الثقافة 323/19) .

48ب ، ف2 ، بعددها ألوف (لعله هنا أسقط الاعراب) .

49ب ، ف3 ، في المختصر (3/1) .

50أ ، ف2 ، الشيباني (ترجمته في وفيات الاعيان 244/5–254 ، تاريخ بغداد 235/13 ، المرزباني 324 ، تاريخ ابن الاثير وأمالي المرتضى 222/1 ، خزانة الادب 182/1) . . يزيد بن مزيد الشيباني (ألف عبد الجبار الجومرد في سيرته وأخباره كتابا) .

51أ ، ف3 ، بن أبي حفصة (الدرّ 27ب) .

ف4 ، الليلة (ليس في ترجمته في تاريخ بغداد ، وجاءت هذه الحكاية في الاغاني ط. التقدم . 45/9) .

ف5 ، قال أبو عبيدة (الدرّ 27أ في الهامش) .

ف6 ، بالجنبي (في الدرّ 27أ «الجني») .

51ب ، ف1 ، من فعله (نقل الاغاني هذه الحكاية بشيء من التصرف 45/9) .

ف2 ، الفرج بعد الشدة (238-239 . الدرّ 28أ) .

ف3 ، ملالة («وأنا أتصبّر وأتذكر عاقبة الصبر وما ورءه من الفرج») .

53أ ، ف1 ، كتاب الاغاني (الدرّ 29أ) .

53ب ف6 ، حكي (29ب) أنّ رؤبة .

ف7 ، وأما عديّ (الدرّ 30أ) . . كتاب الأغاني (307/9) .

54ب ، أبو العرّاف (308/9 ، بدائع البدايه 18 ، ديوانه 262) .

55أ ، ف3 ، محمد بن سلام (الدرّ 30ب) .

55ب ، وهلك (الاغاني 316/9) .

56ب ، ف3 ، ابن عتبة (الدرّ 31ب) .

57ب ، ف2 ، ذا الرمة (الدرّ 32أ) .

58أ ، ف2 ، قال ذو الرمة (الدرّ 32ب) .

58ب ، ف2 ، قيل (الدرّ 34ب) . . ابن مناذر (في الاصل «منادر») .

59أ ، ف1 ، حكي (الدرّ 34ب) أنّ ابن منادر .

ف2 ، قيل (الدرّ 34أ . وفي الاغاني «أخبار ابن مناذر») .

60أ ، بالّرقّة (أو الرافقة ، والرقة هي الرافقة كما ورد في بعض الراجع . قال ابن خلكان «وكان حبسهما في الرافقة ، وهي الرقة القديمة تجاور الرقة الجديدة ، وهي البلد المشهور الآن على شاطىء الفرات ويقال لهما الرقتان ، تغليبا لاحد الاسمين على الآخر ، كما قيل العمران والقمران وغير ذلك . وفيات 228/6) .

60ب ، ف2 ، فقال الرشيد (الدرّ 34أ) .

61أ ، في المختصر (17/2) .

ف1 ، ابن خلكان (الدرّ 40أ . ترجمة جعفر 132 ، 331/1-332) .

64أ ، ف3 ، الفرج بعد الشدة (ببعض الاختصار في العبارة ، 98-102) .

67أ ، ف2 ، حياة الحيوان (الدرّ 38ب) .

67ب ، ف2 ، ابن الجوزي (الدرّ 39أ) .

68أ ، ف2 ، المختصر (2/ 7-8) .

69أ ، ف1 ، المنصور (في الدرّ 48أ نقلاً عن أبي الفرج ابن جوزي مع شيء من الاختلاف في التعبير وهي هناك أطول مما هنا ومما قاله الرجل للخليفة : «وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى أرض الصين فدخلتها وبها ملك قد ذهب سمعه فجعل يبكي فقال له وزراؤه : ما يبكيك لا أبكى الله لك عينا ! فقال : أما أنا فلستُ أبكي للمصيبة التي نزلت بي من قِبَل السمع ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته . ثم قال : أمّا فإنْ كان ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في جميع الاقطار : ألاَ لا يلبس ثوبًا أحمر إلا مظلوم ! وكان يركب فيلاً في طرفي النهار ويسير ليرى مظومًا فينصفه . وهذا يا أمير المؤمنين ، مشرك بالله قد غلبتْ رأفته على الخلق وشفقته ورحمته . . الخ» . ولعلنا فيما نجده اليوم من تلك العصابة الحمراء التي يضعها المضربون في اليابان أصل لهذه الحكاية) .

70أ ، التعتيق في الاصل : تعليق التعليق ، وفي الدرّ : . . العتق . وقد قرّبنا العبارة للرسم الموجود في الاصل) .

ف1 ، مختصره (اللفظ عند المؤيد 17/2 في المطبوع «بكساء») .

ف2 ، قول الشاعر (الخرب ، الذكر من الحبارى ، والعير الذكر من حمار

الوحش والرواية في الاصل «. . نفر . . صفر» .

ف4 ، ربيع الابرار (الدرّ 39ب) .

70ب ، ف1 ، الرشيد (الدرّ 8ب مع اختلاف يسير) .

71 ب ، ف2 ، حكي (الدرّ 37أ) .

72أ ، ف1 ، سئل (الدرّ 37ب) .

73ب ، ف2 ، روض الرياحين (الدرّ 41أ . روض الرياحين في مناقب الصالحين ، لليافعي ، ط. القاهرة 1301) .

74أ ، ف2 ، روض الرياحين (الدرّ 42أ) .

75ب ، أنشأ يقول (البيت الثالث : «كل بدر أعلى») .

ف1 ، أنشد يقول (البيت الاول : «. . لا يؤوب يرجع . . » . في حين نجد كلمة يرجع فوق كلمة يؤوب في الدرّ (43أ) ، تفسيرًا لها ، مما أوقع ابن وادران في السهو أو الخطأ) .

76 ف2 ، قال بعضهم (الدرّ 43ب) .

قال الامام (الدرّ 46ب) حجة الاسلام .

78أ ، وألقى (الدرّ 44أ . وبقية هذه الحكاية في الدرّ : «قال عباد وألقى الكتاب اليّ منشورًا غير مطوي ، فأُخذته وأقبلت به الى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة في قلبي ، فناديت : يا أهل الكوفة ! فأُجابوا لي فقلت لهم : يا قوم من يشتري ثياب رجل فرّ الى الله ؟ فأقبلوا بالدرّاهم والدنانير . فقلت لا حاجة لي بالمال ، ولكنني أريد جبة صوف خشنة وعباءة تطوانية . قال فأتيت بذلك ونزعتُ كلّ ما كان عليّ من اللباس وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي أحمله حتى أتيت باب هارون الرشيد حافيا راجلا . فاستؤذن لي عليه ، فلما رآني وصلت على تلك الحال قام وقعد ثم قام وجعل يلطم وجهه ورأسه ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسِل مالي وللدنيا وللملك يزول سريعًا فألقيت

اليه الكتاب منشورًا كما ألقي السّر فأقبل يقرأه ودموعه تتحدر وهو يبكي ويشهق. فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد أجترأ عليك سفيان . فلو وجهت من يأتيك به مكبّلاً بالحديد مضيّقا عليه في السجن كنت تجعله عبرة لغيره . فقال: اتركوا سفيان يا عَبيد الدنيا ، المغرورُ من غررتموه والشقي من أهلكتموه . إن سفيان أمة وحده !») .

80 ف1 ، وروي (الدرّ 45أ) أن امرأة .

ف2 ، ابن خلكان (الدرّ 45ب . وفيات 4/ 48) .

80ب ، ويقال (في الدرّ 45ب : «وقلت لعل المذكور . . ») .

ف2 ، لبّ اللبيب (الدرّ 43ب) .

81ب ، ف2 ، حكى (الدرّ 45ب) أنّ الفضيل .

ف3 ، وشكى (الدرّ 45ب) .

82أ ، ف1، الفضيل (الدرّ 46أ) .

ف6 ، وروي (الدرّ 46أ) أنّ الرشيد (الدرّ 46أ) .

82ب ، ف1 ، من القطار (في الاصل القطان . والقطار من الابل ، عدد منها بعضه خلف بعض على نسق) .

83أ ، ف3 ابن خلكان (وفيات ، ترجمة ابن المبارك ، وفيها أخطاء كثيرة يصححها النص هنا . الدرّ 40أ) .

83ب ، ف1 ، وذكر ابن خلكان (الدرّ 40أ) .

ف4 ، قيل (الدرّ 40ب) .

ف5 ، وحكي (الدرّ 40أ) .

84ب ، ف2 ، ومما حكي (الدرّ 41ب) .

86ب ، ف2 ، وروي (الدرّ 34أ) أن المهدي .

ف4 ، قال (الدرّ 34أ) في كتاب الاغاني .

87أ ، ف1 ، حكي (الدرّ 59أ) في كتاب الفرج بعد الشدة .

88ب ، ف2 ، اليافعي في تاريخه (الدرّ 60أ) .

ف3 ، قال (الدرّ 60أ) ابن عبدوس .

ف4 ، المؤيد في المختصر (18/2) .

90ب ، ف1 ، قال أبو نواس (الدرّ 60ب) .

ف2 ، قال (الدرّ 60أ) ابن عبدوس .

91أ ، الباب الثاني (الدرّ 60ب) .

91ب ، ف3 ، المؤيد في المختصر (21/2)

92أ ، ف1 ، ابن رشيق القيرواني (وصحته : الرقيق . .) في كتاب قطب السرور .

92ب ، ف2 ، قال المسعودي (الدرّ 72ب)

ف3 ، قال الثعالبي (الدرّ 72ب) .

ف4 ، ذكر ابن رشيق القيرواني (وصحته : الرقيق) .

93 ، ف2 ، وفيه يقول أيضًا (البيتان على سوئهما لم نصادف في المراجع تصحيحا لهما) .

93ب ، ف1 ، ذكر ابن رشيق (انظر التعليق المتقدم) .

ف2 ، قال بعضهم (الدرّ 73ب) .

ف3 ، قال الدميرى (الدرّ 71ب) .

94 ، ف2 ، ذكر (الدرّ 71ب) في كتاب الاغاني .

95أ ، حكى (الدرّ 72ب) الحافظ جلال الدين السيوطي .

ف2 ، قال الدميري (الدرّ 73ب) .

95ب ، ف2 ، سَلِس العبارة ، (الدرّ 73أ) .

96أ ، ف1 ، وذكر صاحب عيون التواريخ (الدرّ 73ب) .

96ب ، ف2 ، قال في كتاب لب اللبيب (الدرّ 74أ) .

99ب ، ف1 ، فانحجوه (كذا في الاصل) قبل أن ينشر .

100ب ، آلاف دينار (انتقل الدرّ الى الباب الثالث في خلافة المأمون ، 76 ب) .

ف1 ، كان (الدرّ 139ب) الحسن بن هانيء .

101أ ، وذكر ابن رشيق القيرواني (وصحته : الرقيق) في كتاب قطب السرور .

102ب ، ف2 ، وكان أبو نواس يقول أيضًا (الدرّ 140أ) .

ف3 ، وحكى (الدرّ 139أ) بعضهم .

ف2 ، وقوله في الهجاء (الدرّ 140أ) .

103ب ، ف4 ، ومنه (الدرّ 139ب) : يا كبير .

104أ ، ف1 ، في المختصر (19/2) .

ف2 ، ورثاه بقوله (الدرّ 140أ) طوى الدّهر . . ونقل (الدرّ 139أ) الخطيب .

104ب ، ف2 ، ابن رشيق القيرواني (ينظر ما تقدم حوله) .

ف3 ، مكتوب فيها (الدرّ 140) .

ف4 ، ذكر (الدرّ 101ب) في تاريخ العسقلاني .

105أ ، ف1 ، وقالت (الدرّ 101ب) أسماء بنت المهدي .

ف2 ، وقال (الدرّ 101أ) محمّد بن موسى . . وكان (ويذكره فيما بعد ص 274أ) الناس .

ف4 ، وكان (الدرّ 101أ) حاذقًا .

105ب ، ف2 ، لما صدّقوا (وأورد الدرّ هنا قصة الوحش الذي يصغي اليه ، وقد تقدمت) .

ف3 ، وذكر (الدرّ 102أ . وأعاده في 272ب) العلامة الزمخشري .

ف4 ، وذكر (الدرّ 101أ) صاحب الأغاني .

106 ، ف1 ، وفي (الدرّ 101ب) تاريخ العسقلاني .

ف2 ، وفي (الدرّ 101أ) الأغاني .

ف3 ، قال (الدرّ 101ب) ابراهيم بن المهدي .

ف4 ، وقال (الدرّ 102أ) ابراهيم .

106ب ، ف1 ، قال (الدرّ 102أ) ابراهيم : إني كنت . .

ف2 ، و (الدرّ 101ب) جرى بين محمّد الأمين .

107أ ، ف1 وذكر (الدرّ 102أ . الاغاني 135/10) الأصفهاني .

108 ، ف1 ، قال (الدرّ 71ب) ابن جرير .

ف2 ، قال (الدرّ 69ب) ابراهيم بن المهدي .

109أ ، ف2 ، وأصل (الدرّ 117ب) هذا اللقب .

111 ، كذا ذكرالمؤيد (75/2) .

112أ ، الملك المؤيد (74/2) .

ف2 ، قال (الدرّ 65أ) في شرح منظومة ابن عبدون .

ف3 ، وذكر (الدرّ 61ب و65أ) العلامة ابن ظفر .

113أ ، ف2 ، وقال (الدرّ 61أ) غيره : في سنة . . وخامر الرسل . . (لم يتبيّن لنا المعنى مع طمس في كلمة بعد الرسل) .

ف3 ، وقد قيل في ذلك (والابيات الثالث الى ما قبل الاخير ليس في

الدرّ 61أ) .

113ب ، ف1 ، وقال (الدرّ 65أ و65ب) في شرح منظومة ابن عبدون .

114أ ، ف3 ، قال (الدرّ 66أ) في شرح المنظومة .

114ب ، بذي اليمين (المشهور أنه لقّب بذي اليمينين . انظر الدولة الطاهرية في العراق وخراسان) .

ف1 ، وذكر (الدرّ 67أ) الحافظ السيوطي .

115أ ، ف2 ، وذكر (الدرّ 67ب) في فاكهة الخلفاء .

115ب ، ف1 ، قال (الدرّ 65ب) بعضهم : ودام . . ولما (بقية ما هنا موجود في الدرّ في 72ب) تحقّق خلعَه .

116ب ، ف1 ، وقال (الدرّ 67أ ب) الحافظ بن عساكر . . صمصامة (في الدرّ : صمصامة قطعت صمصامة) .

ف3 ، وذكر (الدرّ 67أ) في نزهة النفوس .

117ب ، ف2 ، هذا رأس المخلوع ! (قفز صاحب الدرّ على هذا الشعر ، ولم يورده الا بعد ص 72أ) . . في قتله (لم نقف على مرجع لتحقيق هذا الشعر الذي يتعذر فهم معانيه هنا في المخطوطة ـ وليس في الدرّ ـ إلا في الطبري 925/3 وقبله هذا البيت الاول : عوجا بمغنى طلل . . الخ . أما الخط في الأصل فيعطي قراءة على غاية من التعقيد بحيث تكاد تكون نسخاً لكلام غير مفهوم وصورته :

والمرمرِ المسنون بطرا بـه — والباب بابي الذهب الناظر
وأبلغا عني مقالا الشمولي — عن الماماق والآمـــــر
قولا له يا ابن ولي الهـدى — طهر بلاد الله من طـاهر
لم يكفه أن حزّ أوداجـه — ذبح الهدى يا هدى الحـاذر

حتى إذا نسجة أوصـاله في بطن يغني به السـاير

قد برد الموت على جفنـه فطرفه منكسر النظـار

والملاحظ أن البيت الاخير من هذا الشعر غير موجود في الطبري) .

118أ ، ف3 ثم (الدرّ 69أ) إن طاهر . .

ف4 ، قال (الدرّ 69أ) بعضهم : وكان طاهر .

118ب ، ف1 ، وعلى (الدرّ 69أ) ما ذكره السيوطي .

ف2 ، في مختصره (20/2) والخطيب في تاريخ بغداد (337/3 . رفيه : قتل الامين «ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم») وغيرهما أنّ قتل الأمين كان لستّ بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة (أورد الدرّ 69أ الخبر عن الخطيب في تاريخ بغداد ولم يعلق عليه ، ولذلك يظهر أن عبارة قلت التالية هي لابن وادران) .

119أ ، قال المؤيد (21/2) وغيره : وكانت . . وقال المؤيد (21/2) : وكان منهمكا .

ف1 ، وذكر ابن رشيق القيرواني (وصحته الرقيق القيرواني ، صاحب كتاب قطب السرور في الانبذة والخمور الذي ذكر فيه أخبار السكر) .

ف2 ، توقيع (في الاصل : توقيعا) في مجلس .

ف3 ، السيوطي في الاكتفاء (الدرّ 71ب . في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء) .

119ب ، ف2 ، وقال النوفلي (الدرّ 71ب : قال علي بن محمد النوفلي) وغيره .

120أ ، ف2 ، هو (الدرّ 76ب) عبد الله المأمون .

120ب ، ف1 ، قيل إنه ختم (الدرّ 77أ) . . الا بغداد ، واستوْسق الأمر (الدرّ 77أ وفي نزهة النفوس وسلوة المنفوس : ولما استقر له الامر . والمعنى في

استوسق الامر له جمع له) .

ف2 ، في الفرج بعد الشدة (205–206 . الدرّ 66ب) .

122 ، ف1 ، قال في نزهة النفوس (الدرّ 77أ) .

122ب ، ف1 ، الاستعناء (من قوله تعالى : وعَنَت الوجوه للحي القيوم . أي خضعت وذلت) .

127ب ، ف3 ، قال (الدرّ ، 65ب) طاهر بن الحسين .

128ب ، ف2 ، منظومة ابن عبدون (في الدرّ 66أ : هو كما يظن من شرح منظومة ابن عبدون) .

129أ ، ف1 قال (الدرّ 77أ) الصولي .

ف2 ، في السياسة الجامعة (الدرّ 77أ) .

130ب ، (الدرّ 78أ) ، من أهل خراسان .

131 ، ف3 ، في وفيات الأعيان (2/ 521) .

132ف3 ، النويري في تاريخه (الدرّ 94 ذكره في الفصل : «فيما وقع في دخول السنة السابعة بعد المائتين» . ونهاية الارب للنويري في الجزء الذي لم يطبع ، الفن الخامس ، القسم الخامس ، الباب التاسع : «في أخبار من استغل الملك والممالك بالبلاد الشرقية والشمالية في خلافة الدولة العباسية . وهم ملوك خراسان وما وراء النهر») .

132ب ، ف1 ، ابن كثير (البداية 260/10) .

ف3 ، قال ابن خلكان (وفيات 520/2) .

136ب ، ف1 ، وكانا مجوسيين (الدرّ 34أ و79أ) .

137ب ، ف أخيرة ، محمد بن سعيد قال (الدرّ 133ب . وانظر بعده 161ب) .

138أ ، ف1 ، قال ابن خلكان (وفيات ، 44/4 . الدرّ 79أ) .

ف3 ، وعلى (الدرّ 79أ) رواية ابن الجوزي .

ف4 ، وقال (الدرّ 79أ) الذَّهبي .

139أ ، ف2 ، قال (الدرّ 83ب) بعضهم .

ف3 ، قال (الدرّ 83ب) هُدْبة بن خالد .

139ب ، ف1 ، وقال (الدرّ 83ب) غرس النعمة .

ف2 ، ودخل (الدرّ 83ب) محمد بن عبد الملك . . انتهى . (في الدرّ 84أ ، من قوله قال جامعه غفر الله عنه الى 87أ ، غير مذكور في ابن ورادران ، وهو خبر الكسائي والمأمون في الغلَط ، والرشيد ويحيى بن خالد ، والصراع بين الامين والمأمون وبعد هذا الخبر يقول 85أ : «وتفسير ألفاظ تضمنها هذا الخبر» وهو أمر لم يفعله قبل . ويتضمن التفسير إشارة الى شعر لعمرو بن صخر بن الشريد ، فيأخذ لذلك في تفسير كلمات هذا الخبر . وهناك حكاية أخرى بين الرشيد وابنه عبد الله المأمون ، رآه من منظرة وهو يكتب على حائط 87أ . وكذلك خبر بعده بين الكسائي والمأمون وقد ضربه الكسائي وحضر جعفر بن يحيى فأخفى المأمون دموعه . . 86أ و86ب ثم خبر المأمون مع الحسن بن الحسن اللؤلئي ، وكذلك : «من مستحسن الاخبار ما قيل في قطر الندى بنت خمارويه 86ب وخبر وصيفة ملك الفرس التي خرّت ساجدة ضعفا أمام هيبة الملك 86ب–87أ . هذه كلها أخبار غير موجودة في ابن وادران وبعدها انتقل الى : «فصل في ذكر من توفي في السنة الرابعة بعد المائتين من العلماء والاعيان») .

140أ ، ف3 ، قال (الدرّ 78ب) ابن الجوزي .

140ب ، ف1 ، ولـمّا (الدرّ 78ب) كان أوّل يوم .

ف2 ، و(الدرّ 78ب باختصار) خرج على ابراهيم .

141 ، ف1 ، ذكر المؤيد (2/ 32) وغيره .

ف2 ، وقال (الدرّ 79ب بشيء من التصرف . وانظر 145أ ، 145ب) ابن الأثير .

141 ب ، ف2 ، في المختصر (2/23–24) .

142أ ، ف1 ، قال ابن كثير (الدرّ 81أ) .

143ب ، ف1 ، قال ابن خلكان (وفيات 3/269) : وأم زين العابدين .

145 ، ف3 ، قال ابن الأثير (الدرّ 79–80أ) : ولما مات عليّ الرّضا .

145ب ف2 ، وكذا ذكر المؤيد (2/24) .

ف3 ، تاريخ النويري (نهاية الارب 22/208) : لـمّا خلع أهل بغداد .

146أ ، ف1 ، قال (الدرّ 81أ مع الاختصار) بعضهم : وقدم المأمون .

146ب ، ف1 ، قال (الدرّ 124ب) اليافعي .

147أ ، ف3 ، ذكر (الدرّ 118أ ، وخبرا آخر لمحمد بن يزداد في 123أ) في كتاب الفرج بعد الشدّة (87) .

148أ ، ف1 ، ذكر التنوخي (69 . الدرّ 119أ) أنّ المأمون .

148ب ف3 ، قال (الدرّ 119ب) سعد .

ف4 ، قال (الدرّ 119ب) عليّ رضي الله تعالى عنه .

149أ ، وقال (الدرّ 120أ) الشاعر في ذلك .

ف3 ، كلحم اليَعْفور (في الاصل : العفور . وقد قربنا المقصود ، ولم نعتمد القراءة في التنوخي التي تقول «العصفور» . واليعفور هو ولد البقرة الوحشية . وقال بعضهم اليعافير هي تيوس الظباء) .

149ب ، ف1 ، (الزيادة من الدرّ 122ب . وفي الاصل بياض بمقدار ذلك) ، وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين .

150 ، ف3 ، ذكرها التنوخي (240 . الدرّ 120 . «لطيفة ذكرها

القاضي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة») .

153ب ، ذكر اليافعي (الدرّ 120أ) .

154، ف3 ، ذكر الخطيب (الدرّ 124أ) أنّ عليّ بن عيسى .

155، ف2 ، وابن جليس (الدرّ 117ب) .

ف3 ، قال أبو الفرج الاصفهاني (الدرّ 104ب) .

156ب ، ف4 ، ذكر ابن الأثير (الدرّ 95ب) .

159أ ، ف1 ، قال الفضل (الدرّ 97أ) .

160ف4 ، قال حمّاد (الدرّ 119أ) .

161أ ، ف1 ، وقال (يظهر في الدرّ خلط في النقل من المصدر أو المصادر التي بين يديه ، لاننا نجده قبل هذا الموضع يتحدث عن ندماء المأمون من المغنين ثم ينتقل دون ربط واضح الى الحسين بن الضحاك . انظر الدرّ 151أ وانظر فيما يلي ص 207 أ والتعليق) .

ف3 ، ابن النطّاح (انظر قبله 137ب)

161ب ، ف2 ، قيل (الدرّ 134أ) إنّ محمد بن عبد الملك

162أ ، ف1 ، وكتب ابراهيم (الدرّ 133ب) .

ف3 ، قال أبوالعيناء (الدرّ 134أ) .

ف4 ، وجاء يومًا (الدرّ 134أ) .

162ب ، ف4 ، ملوك الأمصار (الدرّ 126ب : «وهو كتاب عظيم المقدار ولا أعلم مصنفه) .

163أ ، ف1 ، روى البيهقي (الدرّ 129أ) .

163ب ، ف2 ، فائدة (الدرّ 127أ . بعض الاخبار المتعلقة بالحمير لم يذكرها ابن وادران : رجل له حمار وكلب وديك ، في حياة الحيوان ؛ وغريبة

في كتاب النصائح لابن ظفر : راهبان من طليطلة . وفي كيفية إحياء الموتى عن البيهقي (128أ ، 129أ وب) ، وسيدنا ابراهيم وإحياء الموتى ، وسرّ ابن اسرائيل وكيف ارتحل عزير من بابل على حمار (131ب) . وما كتبه قيصر ملك الروم الى عمر بن الخطاب ليبعث له شجرة من قبله تخرج مثل آذان الحمير ثم يشقق عن مثل اللؤلؤ (132) . و أخبار الحمار من عدة كتب أخرى) .

ف3 ، قال حبيب بن أرطاس (في الدرّ : أرطات) .

164 ، ف2 ، وفي الصحيحين (الدرّ 128أ) .

ف3 ، وروى النسائي (الدرّ 128ب) .

ف5 ، بنهيقه . قال (الدرّ 128ب . والبيت في الاصل : عشر . . الردى حمار) .

164ب ، ف2 ، وقال الزمخشري (الدرّ 127ب) .

ف4 ، قال الجوهري (الدرّ 127ب) .

ف7 ، قال الدارمي (الدرّ 127ب) .

ف9 ، قال العلامة ابن ظفر (الدرّ 127أ . والزيادة في البيت منه) .

165أ ، ف1 بيده فحمة (الدرّ 83ب) .

166أ ، ف1 ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (كذا في الاصل) .

167أ ، ف1 ، قال المؤيد (27/2) .

ف3 ، وقال ابن الأثير (الدرّ 87ب) .

167ب ، ف2 ، قال ابن الأثير (الدرّ 87أ) .

ف7 ، قال ابن خلكان (وفيات 100 ، 238/1) .

168أ ، ف5 ، وترجمته (الدرّ 88أ) ، هو أبو عبد الله .

168ب ، ف1 وقيل (88أ) إنه ولد .

ف4 ، قال المؤيد (26/2) .

169أ ، قال ابن كثير (الدرّ 88أ) .

ف6 ، وفي تاريخ النويري (الدرّ 88أ) .

169ب ، ف2 ، وذكر المؤيد (62/2) .

170أ ، ف7 ، وقال الزّعفراني (الدرّ 87ب). .

170ب ، ف2 ، قال المُزني (الدرّ 88ب) .

171أ ، ف3 ، كذا نقل المؤيد (26/2 والشعر غير موجود فيه) .

ف3 ، قال ابن خلكان (166/4) .

171ب ، فتقول هي (في ابن خلكان 166/4 : وتصد عنك بوجهه وتلجّ أنت فلا تُغبّه) .

172أ ، ف2 ، في النجوم (الدرّ 115ب) . . عنده في النجوم (بمناسبة ذكر الكلام والنجوم وعناية المأمون بهما ، انظر الدرّ ، لبيان مفهوم علم الكلام والتوحيد والفرق بينهما ، وعلم النجوم وسبب النهي عنه وكذلك علم الكلام ، آخر 115ب—117ب) .

ف3 ، وكان (الدرّ 115أ) الشافعي . . ابن عبد الأعلى (الدرّ 115ب) .

ف4 ، وقال أيضًا (الدرّ 115ب) .

ف6 ، وحكى الكرابيسي (ذكر الدرّ ترجمة الكرابيسي في 90أ وكذلك في 115أ نقلا عن الكواشي) .

172ب ، ف2 ، وقال أيضًا (الدرّ 115ب) .

173أ ، ف2 ، ذكر في كتاب المستطرف (الدرّ 113أ) .

173ب ، ف1 ، وقال في سراج الملوك (الدرّ 113أ) .

ف2 ، من لا يُنصِف (في الدرّ 113أ يعقب المؤلف على هذا الخبر) .

174أ ، ف3 ، وكان يحيى (الدرّ 111أ) .

ف4 ، كذا ذكر عبد العزيز (الدرّ 111أ : أبو الفضل عبد العزيز بن علي) .

ف5 ، وذكر الخطيب البغدادي (الدرّ 111أ) .

175أ ، ف1 ، وذكر (الدرّ 113أ) ابن حُجّة .

ف2 ، ويحيى بن أكتم (الدرّ 111أ) .

ف3 ، وذكر الخطيب (الدرّ 111أ) .

ف4 ، قال ابن خلّكان (الدرّ 111أ) .

ف6 ، لكل معضلة (في الاصل : كل) . . التدبير للملك (في الاصل : الملك) .

ف7 ، قال ابن خلكان (الدرّ 114أ) .

176ب ، ف1 ، وكان يُرْمى بذلك (الدرّ 111ب) . . لأبن حكيمة (في الاصل : لابن حليمة . وفيات 155/6 : لأبي حكيمة) .

ف2 ، لأحمد بن نُعيم في ذلك (البيتان الاخيران غير موجودين في الدرّ 111ب ، وفيه زيادة بعد الاول : «يا بؤس للدهر لا يزال كما ، يرفع ناسا يحطّ من ناس» وقبل الاخير : «لو صلح الدين فاستقام لقد ، قام على الناس كلّ مقياس») .

177ب ، ف4 قال في بستان الآداب (الدرّ 112أ) .

178ب ، من أسفله الى سرّته زاغٌ (الزاغ ، من أنواع الغربان) في صدره سَلعتان (السلعة ، بالفتح والكسر ، زيادة تحدث في الجسد تتحرك) .

179أ ، سوانح تسنح (الدرّ 113ب الاصل : سوائخ تسنخ) . . جليس ممتع (في الاصل : ممتنع . الدرّ 111أ) .

ف2 ، مكتوب عليه هذا البيت (في الدرّ 111أ : إذا حلّ عشق بالفتى) .

180ب ، ف1 وقال بعضهم (الدرّ 115أ) .

181أ ، ف5 ، وهو أبو اسحاق اسماعيل (الدرّ 105ب و107أ) .

182أ ، ف1 ، وكان أبو العتاهية (الدرّ 106أ) .

ف2 ، وقال فيها أيضًا (الدرّ 106أ) .

ف3 ، في أن يُطلق له (في الاصل : ابن مهدي . وكذا في الدرّ 106أ) .

181أ ، فغار منه الشعراء (الدرّ 106أ . مع زيادة تفصيل) .

ف2 ، يقول في أولها (الدرّ 107أ) .

183ب ، ف1 ، في المختصر (29/2) .

185أ ، حمّاد عجرد (الدرّ 107ب) .

186ب ، ف4 ، وقال الحسن بن عمار (الدرّ 108أ) .

ف5 ، وكان بن أبي الصَّلْت (الدرّ 108أ) .

187أ ، ف1 ، وروي (الأغاني 334/14) .

189أ ، ف3 ، حيث يقول فيه (الدرّ 118أ) .

190أ ، ذكر الخطيب (الدرّ 118أ) .

ف3 ، قال ابن خلكان (الدرّ 93ب) .

ف5 ، وكان المأمون (الدرّ 93ب) .

ف6 ، وروى أيضًا (الدرّ 94أ) .

190ب ، ف1 ، وقال ابن خلكان (180/6) .

193ب ، ذُكر في كتاب لبّ اللبيب (الدرّ 109أ ، بشيء من الاختصار) .

194ب ، ف1 ، كأنه يغترف من بحر (في الاصل : يغرر بحر . والاصلاح من الدرّ 109أ) .

196أ ، ف1 ، ليلة كماله وهي تقول (في الاصل : في البيت الثاني «صبرت لها انتج لها الطريق) .

196ب ، ف2 ، ذُكر في شرح قصيدة ابن عبدون (الدرّ 82أ) .

199ب ، ف1 ، وذكر الطبري (الدرّ 81ب) .

200أ ، بما أجدتَ من الأمر ، باليُمن (في الدرّ : بما أخذت . وفي الاصل : باليمين) .

ف1 ، قال ابن خلكان (289/1) .

ف2 ، ذكر الامام أبو الفرج ابن الجوْزي (الدرّ 126ب) .

200ب ، ف2 ، قال أحمد بن طاهر (الدرّ 135ب) .

201أ ، ف3 ، وقال بعضهم (الدرّ 136أ) .

ف4 ، ووقعت بينهما (الدرّ 135أ) .

201ب ، ف1 ، قال بعضهم (النويري ، نهاية الارب 104/5) .

ف2 ، قال ابن المرزبان (الدرّ 137أ) .

202أ ، وقال ابراهيم بن أبي العَنْبس (الدرّ 137أ) .

202ب ، قال أبو الحسن بن الفرات (الدرّ 137أ) .

ف2 ، وأخبارها كثيرة (نقل أكثرها أبو الفرج الاصفهاني في الاغاني وفي كتاب له بعنوان «تحف الوسائد بأخبار الولائد ، ووضع عبد الله بن المعتزّ فيها ديوانا) . يقال (الدرّ 134ب) إنها كانت . .

ف3 ، وأنّ البرامكة (الدرّ 134أ) .

ف4 ، وقال محمّد بن عبد الواحد (الدرّ 134ب) .

203أ ، ف1 ، قال الفضل بن مروان (النويري ، نهاية الارب 97/5) .

ف3 ، وقال ابن المعتزّ (الدرّ 135أ) .

203ب ، ف3 ، وقد أنشد عليّ بن سليمان (الدرّ 136ب) .

ف4 ، وكان الأمين (الدرّ 136ب) .

204أ ، وذكر جَحْظة (الدرّ 135أ) .

ف1 ، ذكر ابن المعتز (الدرّ 135أ) .

205ب ، ف1 ، قال حماد بن اسحاق (الدرّ 136أ) .

ف3 ، وقال أبو الخطاب العباس (الدرّ 137ب) .

206أ ، ف1 ، وقال عليّ بن يحيى (الدرّ 138ب) .

ف2 ، فدخل عليها (الدرّ 135ب) .

206ب ، ف1 ، وقال الفضل بن العبا (الدرّ 138ب . وفيه نقص) .

ف2 ، ذكر الخطيب (الدرّ 831 ب) .

207أ ، ف1 ، قال اسحاق بن ابراهيم (الدرّ 150ب) .

ف2 ، وكان (الدرّ 98أ) المأمون . . والمؤيد (28/2) .

208أ ، ف1 ، وقال بعضهم (الدرّ 100أ) .

208ب ، ووظائفه السابقة ، ثم (هنا زيادة في الدرّ تتعلق بمجازاة المأمون للحجام والجندي وزوجته والمولاة على ما عاملوا به ابراهيم بن المهدي . انظر الخبر فيما بعد 212ب . وفي الشعر زيادة بيتين في الدرّ ، بعد الاول : تفديك نفسي أن تضيق بصالح . والعفو منك بفضل خلق واسع . وبعد الثالث : ملئت قلوب الناس منك مهابة . وتظل ساجعة بقلب خاشع . مع اختلاف في رواية الابيات المشتركة : الثالث : «إن الذي قسم المكارم حازها» والبيت السادس شطره «وحنين والدة بقلب جازع» والمصرع الاول للبيت السادس «وعفوت عمّا لم يكن عن مثله») .

ف2 ، وقال له (اختلط الشعر بالنثر هنا ولم يميّز بينهما بفواصل كالعادة) . . قال يُنشده (أورد الدرّ أبياتا ثلاثة أخرى بعد هذه قبل الاخير وهي :

فول بذلت دمي أبغي رضاك به   والمال حتى أسلّ كالنعل عن قدمي

ما كان ذاك سوى عارية رجعت إليك لو لم تعرها كنت لم تلم
وقام علمك بي فاتجّ عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم)

209أ ، فـ1 ، ووالى ابراهيم (قوله : ووالى ابراهيم ، غير واضحة المعنى) .

210ب ، فـ2 ، ودخل الحسن بن سهل (الدرّ 151أ) .

فـ3 ، يُعرَّض له من المره (كذا) .

211أ ، هذه الأبيات (البيت الثاني في الاصل : «هجت») .

فـ1 ، و لـمّا قام المأمون (الدرّ 145أ) .

212أ ، فـ2 ، و لابراهيم بن المهدي الدرّ 135ب) .

213 ، فـ1 ، فأتى بقِمَطْرة (في الاصل : بقمطرة من . وفي الدرّ 98أ : بقطرمز) .

214 ، فـ1 ، وقال : بدُسْتور (بهامشه : «أي إذنه ، كذا نعرفه في خطاب العامة . وانظر على أنه أصل لغة») .

214ب ، فـ1 ، وتزيّيْتُ بزيّ النساء وخرجتُ (راجع ما تقدم حول مغامرة ابراهيم بن المهدي وظهوره ، 208أ . وأخباره 104 أ وما بعدها) .

215ب ، فـ2 ، نُقل (الدرّ 125أ) عن اسحاق الموصلي .

216أ ، أعجبه صوت (في الاصل : صوتا) .

فـ1 ، قال : نكرٌ (كذا في الاصل بدون شكل) .

216ب ، فـ1 ، قيل (ابن خلكان ، 799–185/6 مع اختلاف قليل) .

219أ ، فـ3 ، لطيفة ، قيل (هنا قال الدرّ 84أ : «قال جامعه عفا الله عنه وهو أول من تسمّى بالمأمون . . الخ») .

219ب ، فـ1 ، بعض الخطوط (انظر حول نسبة الكتاب واتفاق ابن وادران هنا مع الدرّ في هذه العبارة المقدمة) .

220أ ، ف3 ، و(الدرّ 125أ وأسقط الابيات الثلاثة في قوله الآخِر ، واختصر في القول الاخير لعبد الله بن طاهر) شرب عبد الله بن طاهر .

220ب ، ف2 ، وأنشد عمرو بن شبة (الدرّ 135أ) .

221 ، ف2 ، كان أو صوابًا (أسقط الاعراب هنا) .

ف3 ، قال بعضهم (الدرّ 145أ) .

221ب ، ف2 ، قيل كان المأمون (الدرّ 147ب . مع شيء من الاختلاف والتقديم والتقدير) .

222أ ، ف1 ، ونقَد بعضهم هذا (هنا يقول الدرّ : «قلت») . . الى مُزيلة (في الدرّ «مذيلة») . . والغضب (في الاصل «العضب») . . أهل الأدب (في الاصل «أهل والأدب») .

222ب ، ف1 ، وسئل (الدرّ 148ب) . . الى الصناعة ، فإنّ (في الاصل: «في أنّ») الشخص . . غنّى بألحان (في الاصل : «بالالحان») .

ف1 ، وقال (الدرّ 149أ . وقد أخر هذا الكلام عن موضعه هنا) ابن ماسويه . . فيتعذّر («فليتعذر») .

223أ ، لإصغاء ذلك . (ويواصل الدرّ في نص طويل (149أ) نقل كلام ابن ماسويه تحت عنوان «بقية كلام ابن ماسوية» . وقد أثبتناه في سياقه من ابن وادران بين معقوفين) .

وقال غيره : (الدرّ 148أ) النّغم .

ف2 ، مجرّد الهواء (أضاف الدرّ هنا : «قلت وهذا كلام مادة وزيادة لمن تأمل ما وقع في الهندسة والنجوم وغيرها من العلوم») .

ف3 ، واختُلف (الدرّ 148أ) فيمن وضع الموسيقى .

ف4 ، قال بعضهم (هنا يقول الدرّ : «قلت . .») . . على ما ذكر (هنا يقول الدرّ : «رأيت . . ») في الاستدراك والأسرار اليونانية .

223ب ، ف1 ويقال (الدرّ 148ب) إنّ أوّل . . متوشلخ (فراغ بقدر كلمة «العود» ، التي يفهم مقامها مما سبق . وفي الدرّ «من اتخذ ملك بن متوشح») . . باب النّجاة («البربط تفسير باب النجات») .

ف5 ، ابراهيم الموصلي (يظهر أن كاتب هذا الكلام معاصر لاسحاق بن ابراهيم الموصلي . أي من القرن الثالث . والعبارة الواردة غير موجودة في الدرّ) .

224أ ، ف1 ، وعلم الفلك (الدرّ : «الفلك والموسيقى») .

ف2 ، اسقبلينوس (الدرّ : «جالينوس») .

ف3 ، وأمّا شُعَبها فتدلّ («ما شعبها تدل») .

224ب ، ف1 ، ما هو فاعل . (بياض بمقدار أربع أو خمس كلمات ، وهي التالية ، من الدرّ) [وناظره المأمون على العالم العلوي] .

225أ ، ف3 ، (في الدرّ «اقليدس ينسب اليه») وهو الذي . . اقبلنيوس (في الدرّ «اسقنبليوس») . . بهيكل اسقبلنيوس (في الدرّ «اسقنيلنيوس») .

ف4 ، ثم سأله عن أرسطاطاليس ، فقال : (في الدرّ 141ب : «ثم قال المأمون لسهل بن هارون : يا فيلسوف الاسلام وفريد العصر والأوان ، أخبرْني عن أرسطوطاليس . قال :) .

226ب ، ف1 ، حُسْن الاختيار . وقال (في الدرّ 143أ من قوله سلوا ، الى المصائب وقع تأخيره عما بعده ، وانظر فيما يلي ص 229ب ، فقد أعاده منسوبا الى بقراط) .

ف2 ، وحكى عبد الله بن طاهر (الدرّ 143أ) .

ف3 ، قال (الدرّ 143أ) في شرح رسالة ابن زيدون .

227أ ، ف2 ، ولأفلاطون المذكور (الدرّ 142أ «قال سهل ثم ظهر أمر أرسطاليس كما سيأتي ذكره ، ولأفلاطون . . ») .

ف3 ، لفعلت (من قوله وكان يصور الى لفعلت ، غير موجدة في الدرّ

142أ) .

ف4 ، إلاّ يمنع من الرِّزق (في الاصل بسقوط «إلا» . والزيادة من الدرّ 142أ) .

ف6 ، في رؤوس /227ب/ أقلامهم وظاهرة في اختياراتهم (ذكر هذا الدرّ في أول الكتاب ، وأشار اليه هنا بقوله «كما ذكرناه في ديباجة الكتاب») .

ف8 ، لئلا يُضطرّوا («يضطرون») .

ف10 ، أن نَمْتَنع («أن يمتنع») . . انتهى (هنا انتقل الدرّ الى أخبار ارسطاطاليس) .

228ب ، ف1 ، وحكى أبو حيان التوحيدي (الدرّ 144أ) .

ف5 ، (وبعده في الدرّ 441أ) [وكان يقول . .].

229ب ، ف1 ، الرُّشَا (تقدم هذا في 226ب وقد نسبه الى أرسطاطاليس) .

230ب ، ف2 ، من أموالهم . (الدرّ 145أ وبعده الزيادة التالية) .

ف4 ، والله أعلم . (يزيد الدرّ ، ص 146أ ، بعد قوله والدماغ راعي العقل ، فقرة طويلة يظهر أنها شرح لمتن طبي مسجوع ، فيه لسهل بن هارون حديث عن العلاج والمزاج والأعضاء والدواء) .

ف6 ، ليُعْرف (انظر كتابنا «سهل بن هارون ، حياته وأدبه» تونس 1980) . قال (الدرّ 140أ) بعضهم . . قبرص (إشارة الى ذلك في الدرّ 115أ) .

231 ، ف1 ، حكى (الدرّ 140أ) الجاحظ . . ما لا ضرر به («ملا رزيه» وفي الدرّ 140ب «ما لا مزية عليك به») .

ف2 ، وحكى دعبل الخزاعي (الدرّ 140ب) .

231ب ، ف1 ، وحكى الجاحظ (الدرّ 140ب) .

232أ ، ف4 ، استسلامًا للبلوى في أمرك وإقرارًا . . (الدرّ 141أ وفيهما «استسلام . . إقرار») .

234ب ، ف1 ، أمرًا («امر») أذهلني .

235أ ، ف4 ، انتهى ذكر النظام (الدرّ 147أ . وذكر أشعارًا أخرى للنظام) .

ف5 ، كان (الدرّ 156أ) صاحب لغة ونحو . . وقال عمرو بن شبة (الدرّ 156أ) .

235ب ، وقال أبو أحمد العسكري (الدرّ 156أ) .

ف2 ، والأصمعي (الدرّ 156أ) .

ف4 ، قال المؤيد (30/2) .

236أ ، ف3 ، له بصر («بصرة») .

236ب ، ف5 ، قال ابن كثير (الدرّ 176ب) .

237أ ، السنة بقوله (الدرّ ، البيت الاخير «عقلا من خليفتكم») .

ف2 ، قال الخطيب البغدادي (الدرّ 155ب) .

ف3 ، قلت (قلت . . ، وما بعدها غير موجود في الدرّ) .

237ب ، ف1 ، وقال ابن الجوزي (الدرّ 155ب) .

ف2 ، وروى الخطيب البغدادي (الدرّ 155أ) .

ف4 ، قال ابن الجوزي (الدرّ 155أ) .

ف5 ، وقال الطبري (الدرّ 155ب) .

ف5 ، قال المؤيد (30/2) .

ف6 ، فجرى (الدرّ 124ب) يومًا .

238ب ، ف3 ، قيل (الدرّ 115أ) والسبب .

ف4 ، قال بعضهم (الدرّ 115أ) .

239أ ، ف1 ، بكفر قائل ذلك (هنا ينتقل الدرّ الى السبب الحامل للمأمون على القول بخلق القرآن . وقد تقدم في ابن وادران أعلاه) .

ف2 ، وذلك (الدرّ 172ب) أنه كان بالرقّة . . اسحاق بن ابراهيم بن مصعب (ذكر الدرّ وفاته في سنة 235هـ . وترجمته باختصار) . . عيّنهم له (الدرّ 115أ) .

240ب ، المؤيد (31/2) .

ف2 ، من المسودة (العبارة الاخيرة غير واردة في الدرّ. انظر التعليق على ذلك في المقدمة) .

ف3 ، قيل (الدرّ 161أ) : لما كان المأمون . . جمحٌ («حجم») .

241أ ، في تحفة الالباب ، انتهى (وبعده يعنون صاحب الدرّ بفصل في الخيل وما جاء فيها من الاخبار . انظر التعليق على ذلك فيما بعد ، ص 250ب) .

ف2 ، قيل (الدرّ 171ب) إنه عرض .

241ب ، ف2 ، وذكر الخطيب (الدرّ 174ب) .

ف4 ، قال (الدرّ 173ب) ابن عساكر . . أبي يوسف القاضي (الدرّ «وأبو يوسف القاضي») . . الشعبي («السبعي») واليزيدي (الدرّ «الزيدي») .

ف5 ، وروى (الدرّ 173ب) ابن عساكر . . في الشمّاسة (الدرّ «الشماسية») .

242 ، ف5 ، ذكر ابن كثير (الدرّ 175أ) .

ف6 ، وذكر في تاريخ العظمي (الدرّ 177أ) .

ف8 ، وقال ابن كثير (الدرّ 175ب) .

ف9 ، وذكر الخطيب (الدرّ 175ب) .

243أ ، ف1 ، وقال (الدرّ 175ب) ابن عساكر . . حكاه المؤيد (المختصر 32/2) .

ف2 ، يحكى (الدرّ 175ب) أنّ المأمون .

244أ ، ف2 ، وحكي (الدرّ 176أ) ، أنه لـمّا تجهّز .

244ب ، ف4 ، كان (الدرّ 147ب) ركب في العسكر .

245أ ، ف4 ، ثم (الدرّ 154ب) عاد الى بلاد الرّوم .

245ب ، ف2 ، وقال النويري (الدرّ 157أ) .

ف3 ، قال العلامة جلال الدين السيوطي (الدرّ 157أ) .

246أ ، ف1 ، بقلم الطبر (الدرّ «الطير» ، ربما بسبب الطيور المرسومة في كتابته . ولعل والطبر الواردة في نصنا أصح ، لان الطبر نوع من السلاح له فأس . وهو أقرب لئن يستعمل في الكتابة النقشية . وبلفظ الطير على كثرة الطيور في الكتابة الفرعونية) .

ف2 ، وقال ابن المتوّج (الدرّ 158ب) .

246ب ، ف1 ، وقال في ربيع الابرار (الدرّ 159أ) .

ف2 ، وقال المسعودي (الدرّ 159أ . أورد قوله كاملا) .

ف4 ، قال (الدرّ 951ب) القاضي [الفاضل]: الهرمان .

ف5 ، قال في ربيع الابرار (الدرّ 159أ) .

247أ ، ف3 ، وقال صاحب المرآة (الدرّ 157 مكرر ب) .

247ب ، ف1 ، وقال صاحب مناهج الفكر (الدرّ 158ب) .

ف3 ، وقال في المسالك (الدرّ 159ب) .

ف4 ، صاحب المرآة (الدرّ 157 مكرر ب) .

ف4 ، وقال (الدرّ 158أ) صاحب المناهج . . البراري («براي») .

248أ ، ف1 ، وقال سعيد بن عفير (الدرّ 157ب مكرر) .

248ب ، ف3 ، وقال صاحب المناهج (الدرّ 158ب) .

249أ ، ف1 ، ذكر (الدرّ 159ب) في صحيح مسلم .

249ب ، ف1 ، قال الترمذي (الدرّ 160أ . وقد قدّم وأخر) .

250أ ، ف4 ، وذكر (الدرّ 160ب) ابن قتيبة .

ف6 ، وذكر (الدرّ 160ب) صاحب السيرة .

ف7 ، قال السمرقندي (الدرّ 160ب) .

250ب ، ف1 ، المؤيد (30/2) . . من اتبع الهدى» اه . (بعد هذا الخير في الدرّ نجد «فصل لما كان المأمون في أرض الروم . .» وبعده يعنون بفصل في الخيل وما جاء فيها من الاخبار ، 164ب : «قلت انظر الى جرأة الحجاج على أنس بن مالك . . ونذكر نبذة من أخباره وارتكابه الذي لم يرتكبه أحد . .» ويتابع في أخبار الحجاج الى 169ب ، بعدها يرجع الى الفرس . . والعربيات والبراذين الى 172أ . ومن أخباره حول الحجاج 165ب قال بعضهم : «والله ما ولدت الامهات أذكر من هذا !» . 167ب : «. . فلا تردون سلامه . والله لأؤدبنكم» . 168ب : «قال ابن خلكان ولما حضرته الوفاة أحضر منجما وقال : هل ترى ملكًا يموت ؟ قال : نعم ، ولست هو ! قال : وكيف ذلك ؟ فقال : لأن الملك الذي يموت إسمه كليب . فقال الحجاج : أنا هو والله ، بذلك الاسم سمّتني أمي» . 169أ : «إنه رأى الناس يطوفون حول حجرة رسول الله ﷻ فقال : إنهم يطوفون بأعواد ورمّة !» 169ب : «وذكر الصميري في شرح الكافية أنه لا يجوز بيع الفرس لأهل الحرب كالسلاح . .» . 172أ قال الجاحظ : لم يبلغنا من روافع الكلام عن النبي ﷺ . وغلط في هذا الحديث ونسب الى التصحيف وإنما قال القائل ما بلغنا عن الليثي يريد عثمان الليثي ،

فصحّف الجاحظ . قالوا النبي ﷺ أجل من أن يخلط مع غيره من الفصحاء حتى يقال . .») .

252أ ، ف3 ، وقال المؤيد (32/2) .

253ب ، في كل سنة عند محلّها . (في الدرّ 177ب : وفي عيون المعارف «ردّ المأمون في السنة التي توفي فيها مكة على ولد فاطمة رضي الله عنها وسلمها الى محمد بن عيسى بن الحسن بن زيد بن علي ومحمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين») .

ف2 ، وكان (الدرّ 177ب) له عدة أولاد .

ف3 ، هو (الدرّ 178أ) محمد بن هارون ،

254أ ، ف2 ، وقد (الدرّ 178أ) شغب الجند .

ف3 ، وتحمّل (في الدرّ وفي بعض المراجل «تجمّل» والظاهر أنه خفي عنهم المعنى في التحمل وهو الترحل) تام .

ف6 ، المؤيد (32/2) .

ف8 ، ذكر الخطيب البغدادي (الدرّ 178ب) .

254ب ، ف1 ، قال الحافظ الذهبي (الدرّ 178ب) .

ف2 ، قال ابن يونس (الدرّ 178ب) .

255أ ، ف2 ، قال بعضهم (الدرّ 190ب) .

256ب ، ف1 ، المازيار («المازرياز») .

ف3 ، وذكر ابن الجوزي (الدرّ 190أ) .

ف4 ، وفيها فُتح بمصر (الدرّ 190أ) .

ف5 ، وفيها كانت كلاب (الدرّ 198ب) .

ف6 ، المختصر (34/2) .

ف8 ، وقال بعض المؤرخين (الدرّ 189أ) .

257ب ، ف2 ، وقال سطيح (الدرّ 189أ) .

258أ ، ف7 ، ذكر في كتاب الفرج بعد الشدّة (الدرّ 186أ) .

262ب ، ف2 ، أن أستبرئها (في الاصل «اشتريتها») .

ف3 ، وقال ابن خلكان (الدرّ 188أ) .

263ب ، ف1 ، وبعث (الدرّ 182أ) اليه بثلاثين .

265أ ، ف1 ، تاريخ البدري (الدرّ 181أ) .

ف2 ، قيل (الدرّ 183أ) ، كان المعتصم .

265ب ، ف2 ، وقيل (الدرّ 183أ) سبب فتح .

266أ ، ف2 ، المؤيد (33/2) .

266ب ، في تاريخه بزيادة وهذه الزيادة في الدرّ 183أ) .

ف1 ، قيل (الدرّ 184أ) إن العباس .

267أ ، ثلاث وعشرين ومائتين (الدرّ 183أ : «وفيها مات ملك افريقية زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب رحمه الله كان يقول : ما أبالي إن شاء الله تعالى بأهوال يوم القيامة ، فقد قدّمت أربعة أشياء ، بنائي الجامع بالقيروان وقد أنفقت عليه ستة وثمانين ألف دينار ، وبنائي القنطرة بباب الربيع ، وبنائي حصن الرباط بسوسة وتوليتي أحمد بن محرز القضاء . ولما مات تولى بعده أخوه أبو عقال الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب . انتهى) .

ف1 ، قال بعضهم (الدرّ 183ب ، مع تقديم وتأخير في الاشعار الواردة في السرّ) .

ف2 ، وقال آخر (الدرّ 184ب) .

ف2 ، بعض الحكماء (الدرّ 184ب) .

268أ ، قال غيره (الدرّ 184ب) .

ف2 ، وقال آخر (الدرّ 185أ) : اجتنب .

268ب ، ف4 ، وكما يقال (الدرّ 185ب «متى أخرجت») متى أحوجت .

269أ ، ف6 ، وإنما ذكرنا هذا الاستطراد (قوله : وإنما ذكرنا هذا الاستطراد . .» الخ . لم يرد في الدرّ وأورد بعده (181أ) على غير انتظار حديث الموءودة وهو : «وجاء في الاثر أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في الموءودة ، فقال علي كرّم الله وجهه : أنها لا تكون موءودة حتى يأتي عليها التارات السبع . فقال له عمر : صدقت أطال الله بقاءك ! فكان أوّل من نطق بهذا الدعاء ، وأراد عليّ بالتارات السبع طبقات الخلق السبع المبيّنة في قوله تعالى: «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظامًا ، فكسونا العظام لحمًا ، ثم أنشأناه خلقًا آخر» يعني ولادته حيًا ، فأشار علي رضي الله عنه الى أنه إذا استهل بعد الولادة ثم دفن فقد وئد . وقصد أن يدفع بذلك قول من توهّم أن الحامل إذا أسقطت جنينها بالتداوي فقد وأدته) .

ف8 ، ولـمّا (الدرّ 181أ) أدخِل عليه .

269ب ، ف2 ، فائدة : قال (الدرّ 182أ) القرافي .

270ب ، (الدرّ 181ب ، ويتابع الدرّ : «واختلفوا هل بعث الله تعالى من الجنّ اليهم رسلاً قبل بعثه نبينا محمد ﷺ ، فقال الضحاك كان منهم رسل لظاهر قوله تعالى : «يا معشر الجنّ والانس ألم يأتكم رسل منكم» . وقال المحققون لم يرسل اليهم منهم رسول ولم يكن ذلك في الجنّ قط وإنما الرسل من الانس وهذا هو الصحيح المشهور . فرع كان الشيخ عماد الدين بن يونس رحمه الله يجعل من موانع النكاح اختلاف الجنس ويقول لا يجوز للانسي أن يتزوج

جنية لقوله تعالى : «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا» وقال عزّ وجلّ : «ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليهنّ وجعل بينكم مودة ورحمة» فالمودة الجماع والرحمة والولد . ونصّ على منعه أئمة الحنابلة وفي الفتاوى السراجية لا يجوز ذلك لاختلاف الجنس . وفي الغنية سئل الحسن البصري عنه فقال يجوز بحضرة شاهدين . وفي مسائل ابن حرب عن الحسن وقتادة انهما كرها ذلك . ثم روى بسند فيه ابن لهيعة أن النبي ﷺ نهي عن نكاح الجنّ وعن زيد العجمي أنه كان يقول اللّهم ارزقني جنية أتزوج بها تصاحبني حيث ما كنت . وقال ابن عدي في ترجمة نعيم بن سالم بن قنبر مولى علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال الطحاوي حدثنا يونس بن عبد الاعلى قال قدم الينا نعيم بن سالم مصر فسمعته يقول تزوجت امرأة من الجنّ . فلم أرجع اليه .

وروى في ترجمة سعيد بن بشر عن قتادة عن النضر بن أنس بن بشير ين نهيك عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أحد أبوي بلقيس كان جنيا . قال الشيخ الحافظ كمال الدين الدميري قال : رأيت شيخا من أهل القرآن والعلم قال تزوجت منهنّ أربعا واحدة بعد أخرى لكن يبقى النظر في حكم طلاقهما ولعانهما والايلاء منهما وعدتهما ونفقتهما وكسوتهما والجمع بينهما وبين أربع سواها وما يتعلق بذلك وكلّ هذا فيه نظر لا يخفى .

قال الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي رحمه الله رأيت بخط الشيخ فتح الدين العمري قال سمعت أبا الفتح القشيري يقول سمعت الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول وسئل عن ابن عربي فقال الجنّ روح لطيف والانس جسم كثيف وكيف يجتمعان ثم غاب عنّا مدّة وجاء في رأسه شجّة فقيل له في ذلك فقال تزوجت امرأة من الجنّ حدث بيني وبينها شيء فشجّتني هذه الشجة . قال الامام الذهبي بعد ذلك ما أظنّ ابن عربي تعمّد هذه الكذبة وإنما هي من خرافات الرياضة فرع . روى أبو عبيد في كتاب الاموال والبيهقي عن الزهري

عن النبي ﷺ نهى عن ذبائح الجنّ وذبائح الجنّ أن يشتري الرجل ويستخرج العين وما أشبه ذلك فيذبح لها دبيحة للطيرة وكانوا يقولون إنّ فعل ذلك لا يضرّ أهلها الجن فأبطل النبي ﷺ ذلك ونهى عنه) . قيل : لما أن استخلف المعتصم

271أ ، ف3 ، ذكر الخطيب البغدادي (الدرّ 180أ) .

271ب ، ف1 ، ومن ذلك اليقَظَة (الدرّ 180ب) .

273ب ف2 ، ذكر في مختار الاغاني (الدرّ 103ب) .

274ب ف2 ، وفيه (الدرّ 104أ) أيضًا ، قال محمد بن جعفر .

276أ ، ف2 ، وذكر في الاغاني (الدرّ 104ب) .

277ب ، ف1 ، اجتاز (الدرّ 192أ) يومًا .

278أ ، ف3 ، وقيل (الدرّ 192ب) إن عبد الصّمد .

278ب ، ف2 ، وكان (الدرّ 193أ) عبد الصمد .

ف4 ، ومن (الدرّ 192ب) ذلك ما أُجاب به اللاّحقي .

279أ ، ف2 ، وكان (الدرّ 192ب) في البصرة طفيلي .

279ب ، ف1 ، وفي تاريخ ابن هارون (الدرّ 193ب) .

ف2 ، فقال (الدرّ 193ب) له عبد الصّمد .

280أ ، ف2 ، و(الدرّ 193ب) محمد بن حازم .

ف3 ، قال (الدرّ 194أ . والشعر فيه «صل خمرة بخمار» ، «وخذ بحظك منها») في الاغاني .

280ب ، ف1 ، أُنشد يومًا بعض إخوانه (الدرّ 194أ . البيت الثالث «يعود ولا حميم») .

282أ ، ف3 ، ذكر الخطيب (الدرّ 225ب . «جيّد السرقة») .

282ب ، ف1 ، وذُكر في الاغاني (الدرّ 197أ) .

283أ ، فـ3 ، وتغاضب سعيد (الدرّ 198أ) .

283ب ، فـ1 ، وذكر في الأغاني (الدرّ 195أ) .

284أ ، فـ8 ، ذكر النويري (الدرّ 231أ) .

فـ10 ، قال ابن خلكان (الدرّ 230ب) .

285أ ، فـ1 ، قال ابن عساكر (الدرّ 230ب) .

فـ2 ، قال ابن خلكان (الدرّ 231أ) .

فـ3 ، حُكي (الدرّ 231أ) أن اسحاق .

285ب ، فـ1 ، قال ابن خلكان (الدرّ 195ب) .

فـ2 ، وقال ابن كثير (الدرّ 195ب) .

286 ، فـ3 ، وخرج أبو تمام (الدرّ 197أ) .

286ب ، فـ10 ، وأورد ابن عساكر (الدرّ 197أ) .

287ب ، فـ4 ، وأبو تمام (الدرّ 197أ) .

288أ ، فـ1 ، وذكر بعضهم (الدرّ 197أ) .

289أ ، فـ3 ، (الدرّ 199أ ، بعد «نحو مائة ألف مقاتل» نجد «فلما قدم الامير وجد أمة كثيرة قد اجتمعوا حوله فخشي أن يناجره والحالة هذه وانتظر حتى جاء وقت حرث الارض فيصرم عنه الناس الى أرضهم وبقي في شرذمة قليلة مناهضة فأسره جيش الخليفة) وخرج عليه آخر بالشام .

291أ ، فـ2 ، قيل إنه لما حضرته (الدرّ 200أ) .

فـ4 ، وكان أبيض (الدرّ 198ب) .

فـ5 ، وكان نقّش (الدرّ 200أ) .

291ب ، فـ3 ، واستخلف بعده الواثق (الدرّ 200أ وفيه : «قلت وكان المعتصم رحمه الله ذا همة عالية وشهامة وعظمة وكرم زائد ورحمة وشفقة على

الرعايا ومع هذا مات مصرا على القول بخلق القرآن والناس في كرب من ذلك الى أن فرج الله عنهم في خلافة المتوكل على الله . تكميل وإيضاح : لما تولّى الواثق الخلافة أصرّ أيضا على ما كان عليه أبوه وعمّه المأمون من القول بخلق القرآن ثم إنه توقّف حتى جاء الامر الى المتوكل فأبطله ورفع المحنة على العلماء من البدعة والقول بخلق القرآن وأظهر السنّة وسنذكر إن شاء الله نبذة من أخبارهما وما وقع في أيّامهما . ذكر خلافة الواثق بن المعتصم . . . » الخ) .

292أ ، ف3 ، قيل (الدرّ 205أ) إنّ الواثق .

293ب ، ف1 ، فائدة (الدرّ 206أ) .

294ب ، ف2 ، وقوله (الدرّ 207أ) وهو أحسن .

295ب ، ف3 ، وكان (الدرّ 207ب) المازني .

296ب ، ف2 ، ولـمّا (الدرّ 216) تمّ الصلح .

298أ ، ف2 ، الجهمية (الدرّ 214أ ، بعد ذكر الزنادقة – طائفة منهم – قال الدرّ : «ولنلحق بابن الراوندي الزنديق . قال ابن خلكان : هو الحسين أحمد بن يحيى بن اسحاق الراوندي العالم المشهور ، وله مقالة في علم الكلام . وكان من الفضلاء في عصره ، وله من الكتب المصنفة نحو مائة وأربعة عشر كتابًا . وقال ابن كثير وقد ذكره ابن خلكان ولم يجرّحه بشيء أصلاً ، بل مدحه بقوله هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن اسحق المعروف بابن الراوندي ، أحد مشاهير الزنادقة الملحدين عليه اللعنة من ربّ العالمين . كان أبوه يهوديا فأظهر الاسلام ، فيقال إنه حرّف في التوراة كما غدا ابنه في القرآن وأُلحد فيه وصنّف كتابًا في الردّ على القرآن سمّاه الدافع وكتابًا في الشريعة والردّ عليها سماه الزمرد ، وله كتاب التاج في معنى ذلك ، وكتاب الفريد وكتاب إمامة المفضول. وقد انتصب للردّ في كتبه هذه جماعة منهم الشيخ أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبائي شيخ المعتزلة في زمانه . وقد أجاد في ذلك . وكذلك أبو

هاشم عبد السلام بن أبي علي . قال الشيخ أبو علي الجبائي قرأت كتاب الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي فلم أجد فيه الاّ السفه والكذب والافتراء . قال وقد وضع كتابًا في قدم العالم ونفى الصانع وتصحيح مذهب الدهريين والردّ على أهل التوحيد ، ووضع كتابًا لليهود والنصارى في الردّ على المسلمين يحتج لهم فيها على إبطال نبوّة سيدنا ومولانا محمد ﷺ الى غير ذلك من الكتب التي تبيّن خروجه عن الاسلام . نقله ابن الجوزي .

وفي تاريخ النويري : صنّف عدة كتب في الكفر والالحاد ومناقضة الشريعة ، ومنها قضيب الذهب ، ومنها الدافع وكتاب الفريد وكتاب الزمردة وغير ذلك . فمن كفرياته في كتاب الزمردة أن قال إن الانبياء وقعوا بطلسمات جذبوا بها دواعي الخلق كما يجذب المغناطيس الحديد . ووضع كتابًا لليهود والنصارى يتضمن مناقضة دين كالاسلام . وقال لليهود قولوا عن موسى بن عمران إنه قال : لا نبي بعدي ! وقال في كتاب الفريد إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي جاء به النبي ﷺ فلم تقدر العرب على معارضته ، فقال لهم : أخبرونا لو ادّعى مدّع لمن تقدّم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن فقال الدليل على صدق بطليموس وإقليدس أنّ إقليدس ادّعى أن الخلق يعجزون على أن يأتوا بمثل كتابه لكانت نبوّته ثابتة . وقال في قوله تعالى إن كيد الشيطان كان ضعيفًا أي ضعف به وقد أخرج آدم من الجنة . وله من هذا شيء كثير ضربنا عنه لسخافته .

وقال ابن كثير وقد كان أبو عيسى الورّاق مصاحبًا لابن الراوندي هذا ، فلمّا علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى فقبضوه فأودعه في السجن الى أن مات . وأمّا ابن الراوندي فهرب ولجأ الى ابن لاوى اليهودي ، وصنّف له كتابًا سمّاه الدافع للقرآن . فلم يلبث إلا أيامًا يسيرة حتى مات لعنه الله . ويقال إنه أُخذ وصلب . وأما تاريخ وفاته في سنة تسعة وعشرين ومائتين . وقال ابن خلكان توفي في سنة خمس وأربعين ومائتين برحبة مالك بن طوق التعلبي وقيل

ببغداد وعمره أربعون سنة . وذكر النويري أن عمره ستا وثلاثين ، ثم قال هكذا وجدت في تاريخ شهاب الدين الحموي . وذكر في البستان أنه توفي سنة خمسين ومائتين ، أرّخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثمان وتسعين ومائتين وهذا بعيد ، والصحيح ما قاله ابن خلكان لان البدري ذكر وفاته في خلافة المتوكل على الله وهو الصحيح . وقال ابن خلكان ونسبته الى راوند قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان وراوند ناحية بظاهر نيسابور وقاسان بالسين المهملة غير قاشان التي بالشين المعجمة المجاورة لقم . انتهى أخبار هذه الزنادقة والملحدين وعصمنا الله من أقوالهم الشنيعة التي لا يقبلها أحد من الناس إلا من كان أحمق زنديقا مثلمهم عافانا الله مما ابتلاهم به ، 'ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب'.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثلاثين بعد المائتين .

215أ : . . وخرج الى الحج في هذه السنة وشهد الموسم اسحق بن ابراهيم بن مصعب نائب العراق وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم على يد الواثق . .» وقد تقدم 296ب) .

298ب ، كذا وجدناه في المسودة (الدرّ 213ب . عبارة كذا وجناه في المسوّدة غير موجودة في الدرّ ، وقد أورد الدرّ هذه الحكاية التي سمّاها لطيفة بعد استعراض طويل للنحو ومسائله وشرح لبعض سجعات تتعلق بالصرف والمذاهب من الورقة 208 الى 213ب) .

ف1 ، وقيل : أول من تكلم (الدرّ 212ب) .

ف3 ، حَكى ابن مهاجر (الدرّ 212ب) .

301ب ، فـ2 ، حكي أن الواثق (الدرّ 207أ) .

305ب ، فـ2 ، وقال المؤيد (36/2) .

ف3 ، هو جعفر المتوكل (الدرّ 219ب . الدرّ لم يخصص بابا لخلافة

المتوكل بل اكتفى بكتابة عنوان «ذكر خلافة المتوكل» .

306ب ، ف1 ، الفرج بعد الشدة (172/1) .

309أ ، ف1 ، الخبر من وجه آخر (الفرج بعد الشدة 111–112) .

312 ، ف2 ، فقدم (الدرّ 229ب) الى سامرّا .

312ب ، ف2 ، كان (الدرّ 240ب) بُغا .

ف4 ، من تجرّأ عليه (وبعده في الدرّ 240أ : «وفيها (أي في سنة 238) جاء الفرنج نحو ثلاثمائة مركب قاصدين ديار مصر من ناحية دمياط فدخلوها فجأة فقتلوا من أهلها خلقًا كثيرًا وأحرقوا الجامع والمنبر وأسروا من النساء نحو ستمائة امرأة ، من المسلمات مائة وخمسة وعشرين والباقيات من نساء القبط ، وأخذوا من الامتعة والاسلحة والغنائم شيئا كثيرًا جدًا ، وفرّ الناس منهم في كلّ جهة ، فكان ممن غرق في بحيرة تنيس أكثر ممن أسروه») .

ف5 ، وذلك (الدرّ 227ب وأتى قطع بالورقة على جزء من هذا الخبر) أنّ ابن يوسف .

ف7 ، وخرج (الدرّ 229ب) على المتوكل .

ف1 ، قيل (الدرّ 229ب) إن المتوكل .

314أ ، ف3 ، وما أحسن ما قاله ابن المعتز (نسب الدرّ هذه الحكم الى ابراهيم بن المدبر ، فقد جاء في الورقة 142أ «قلت قد رأيت في حاشية بعض الكتب أنّ ابراهيم بن المدبر كان صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس البديع التأسيس فمن ألفاظه . . الخ) .

ف4 ، وعبد الله بن المعتز (الدرّ 225ب) .

315ب ، ف5 ، ثمّ أنشد لنفسه هذه الابيات (الدرّ 226ب) .

ف7 ، ذكر في كتاب الفرج بعد الشدّة (51–52 والقراءة فيه مشوّهة للمعنى في كثير من المواضع) .

318ب ، ف2 ، وأمر (الدرّ 238أ) بإنزال .

ف3 ، وكان (الدرّ 230أ) المتوكل .

320أ ، ف2 ، قال المؤيّد (39/2) .

321ب ، (الدرّ 235أ) فغاض الناس .

ف1 ، وكان (الدرّ 235ب) المتوكل .

322أ ، المؤيّد (40/2–41) .

322ب ، ف4 ، ذكر (الدرّ 235أ) النويري .

323 ، ف2 ، وكان (الدرّ 235أ) أبو السمط .

323ب ، ف1 ، قال (الدرّ 220أ) ابن خلكان .

324ب ، ف1 ، الملك المؤيد (45/2) في مختصره .

325أ ، ف1 ، قيل (الدرّ 224ب) إن أبا العيناء .

ف2 ، دخل (الدرّ 224ب و241ب) يومًا .

ف4 ، قيل (الدرّ 223ب) كان أبو العيناء .

ف5 ، شكى (الدرّ 223ب) الى عبيد الله .

ف6 ، وإنما (الدرّ 223ب) قال ذلّ الأسر .

326ب ، ف4 ، وظرائفه غزيرة . (بعد أخبار أبي العيناء انتقل الدرّ 225أ الى أخبار ابن المعتز وقدم لذلك بقوله : «حكاية لطيفة أردت أن أذكرها ولو خرجت عن المقصود لكن الكلام يسوق بعضه وقد رأيت في بعض المجاميع أن عبد الله بن المعتز كان يقول أربعة من الشعراء سارت . .» الخ (وقد تقدّمت في ابن وادران) وبعدها ذكر حكاية لمحمد بن حازم وقد تقدّمت في ابن وادران ص 282 أ ثم أبو الحسن علي بن المنجم 226ب ثم المبرّد 227–229أ وختم بملاحظة وهي «وهذا كله وإن كان خارجا الخ ص 331ب) .

328 ، ف4 ، حكى (الدرّ 227أ) المبرد .

328ب ، ف2 ، والمبرد (الدرّ 227أ) .

ف3 ، حكى أبو الهاشم (الدرّ 227ب) .

330أ ، ف1 ، قال ابن خلكان (الدرّ 227ب) .

332ب ، ف1 ، وكان أبو العميثل (الدرّ 232ب) .

333أ ، ف3 ، ابن دريد (الدرّ 233ب) .

ف4 ، ولد (الدرّ 334أ) بالبصرة .

ف5 ، ويقال (الدرّ 334أ ، وزاد بعد قوله ، وأحاط فيها بأكثر المقصور : «قال المسعودي وقد عارضه في هذه القصيدة المعروفة جماعة الشعراء منهم أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم الانطاكي التنوخي وغيره ، وقد اعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين شرحوها وتكلموا على ألفاظها . ومن أجود شروحها وأبسطها شرح الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن ابراهيم اللخمي البُستي ، وكان متأخرا توفي في صدر سنة سبعين وخمسمائة ، وشرحها الامام أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب الجامع في اللغة . وشرحها غيرهما أيضًا» . وذكر ذلك أيضًا في ابن خلكان 324/4) .

335أ ، ف4 ، قوله (الدرّ 335أ) حال الجريض .

335ب ، ف2 ، ذكر (الدرّ 230ب) ابن كثير .

336ب ، ف2 ، قال (الدرّ 237ب «قال في كتاب المرادي للنيسابوري») المرادي النيسابوري . . يقرأ عليّ ريقة (في الاصل «ريقه» ولعلها تحريف لرُقية أو وُريْقة») .

338أ ، ف2 ، قال (الدرّ 237أ وجزء كبير من هذا الخبر أتى عليه القطع بالواقع بالورقة) أحمد بن حمدون .

ف3 ، قال (الدرّ 237أ جزء كبير من ذا الخبر والشعر الوارد فيه قد أتى عليه القطع في جانب الورقة) أحمد بن المفضل الكاتب .

341ب ، ذُكر (الدرّ 240ب) أن من شعراء المتوكل .

343أ ، ف3 ، أوّل (في الدرّ 202أ : «فصل ، ولـمّا آل بنا الغرض الى هنا نذكر الآن من دخل إفريقية من أمراء بني العباس ونسرد أسماءهم على الولاء من غير إطناب والله الموفق للصواب واليه الملجأ والمآب . ولـمّا كان قيام بني العباس بالمشرق وتشتت جمع بني أمية كثرت الفتن بإفريقية واشتغل بنو العباس بتمهيد البلاد في المشرق وهاجت فتن الخوارج بالمغرب ، وقام أبو الخطاب رأس الخوارج بإفريقية وكثر ضررهم اشتدت شوكتهم أرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الاشعث بن عتبة الخزاعي سنة أربع وأربعين وقال ابن نباتة الذي بعث محمد بن الاشعث أمير المؤمنين عبد الله السفاح سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، والاول أصحّ ، فحارب الخوارج . . » الخ) من دخل افريقية .

344ب ، ف2 ، وهو (الدرّ 203أ) أخو يزيد المذكور .

345ب ، ف2 ، ولاّه (لم يذكر الدرّ (203ب) الولاة الذين ولاهم الرشيد في سنة تولية ابراهيم بن الاغلب كما في ابن وادران ، ولا ذكر على أية ولاية كان ابراهيم قبل توليه افريقية ، وهي ولاية الموصل وأعمالها . ولم يقدّم أيضا سنة 185 ، على قول آخر ، سنة ولايته . وذكر خلافا لما هنا أنه مات سنة ستّا وثمانين [ومائة] . انظر ابن خلدون ط . بيروت 8691 القسم الاول المجلد الرابع ص 397–441 «أخبار القائمين بالدولة العباسية من العرب المستبدين بالنواحي ونبدأ منهم ببني الاغلب ولاة إفريقية وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم . . . » وهو مليء بالاخطاء) الرشيد .

346أ ، وأدركه حمامه (الدرّ 203ب . وجاء فيه بعد هذه العبارة «ومات في ست وثمانين ومائة» وهو خطأ فيما يبدو ، لأن وفاته في سنة سبع وتسعين ومائة . ويصححه ما تقدم (203ب) حيث وردت عبارة «ولم تطل أيامه

وأركه حمامه» متعلقة بخلفه عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب : «ومنهم عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب . فمكث سنتين ولم تطل أيامه حتى أدركه حمامه فتولى بعده زيادة الله بن الاغلب») .

ف1 ، (الدرّ 302 ب : «ومنهم عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب ، فمكث سنتين ولم تطل أيامه حتى أدركه حمامه فتولى بعده زيادة الله بن الاغلب بأمر المأمون وهو محارب لاخيه الامين فأولى زيادة الله على إفريقية وبرقة والمغرب كله سنة إحدى ومائتين . فقام عليه منصور الطنبذي وحاصره اثنتي عشرة سنة والطنبذي هذا من قواد الجند كان فيه ميل لمحمد الامين . وكان الطنبذي قام مع جماعة من الجند ونسبه أهل القيروان الى الجور. وآخر الامر انتصر زيادة الله على الطنبذي وهزمه وملك القيروان وإفريقية بعد حروب يشيب لها الطفل الرضيع وفتح الله عز وجل لزيادة الله وبنى سور القيروان وهدم الجامع ما عدا المحراب وانفق عليه ستة وثمانين ألفًا كما ذكرنا عند موته . . ») كانت ولايته من قِبل المأمون . . فمكث سنتين (يظهر أنه قد اختلط الامر هنا لأن ما سيأتي يتعلق بزيادة الله وليس بأبي العباس عبد الله) . . أبو العباس عبد الله (والصحيح زيادة الله) على الطنبذي .

346ب ، ف1 ، قال ابن رشيق (في كشف الظنون وغيره ينسب لابن رشيق علي بن حسن كتابان في التاريخ أحدهما ميزان العمل والآخر يعرف باسم تاريخ ابن رشيق) .

348أ ، ف1 خدمه الخصيان . (الدرّ 402ب : «واستعمل بعده الامير محمد الاغلب وعلى الجزيرة أحمد بن يعقوب . ولما مات الامير محمد قام بالامر بعده ولده أحمد سنة إحدى وستين ومائتين . ومنهم الامير احمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن الاغلب ، قام بالامر بعد أبيه وهو الذي بنى ماجل القيروان وجامع تونس وله وقعة مشهورة») .

348ب ، ف3 ، ابراهيم بن أحمد (جاء في الدرّ إن الذي قام بالامر بعد

زيادة الله بن محمد هو ابن أخيه الامير أحمد) .

ف4 ، ماجل القيروان (جاء في الدرّ (204) أنّ الذي تولّى بعد محمد هو ابنه أحمد وذكر أنه «هو الذي بنى ماجل القيروان وجامع تونس وله وقعة مشهورة») .

349أ ، فـ2 ، بالذّرَب (الذرب ، داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه) . . ولده عبد الله . (جاء في الدرّ (204أ) بعد قوله وكانت ولايته خمسًا وعشرين سنة «وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي بأرض كتامة يدعو الى الرّضا من آل محمد ﷺ كذا حكاه ابن سعدون القيرواني ، انتهى ومنهم الامير أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن محمد المتقدم ذكره . . ») .

350أ ، فـ2 ، شعَر لحيته (هنا جاء في الدرّ «فماطله العامل» . ولا ذكر فيه لعبارة «بالذهاب الى الحمامات» المذكورة في البلدان لليعقوبي والمسالك للبكري باسم ذات الحمام ولا إشارة فيه كذلك «لسقوط شعر لحيته») .

350ب . . ستّ وتسعين ومائتين . (جاء في ترتيب ولاة بني الاغلب في الدرّ 204أ : أبو العباس أحمد بن ابراهيم . وبعده : أبو ابراهيم محمد بن ابراهيم بن محمد بن الاغلب . وجاء فيه أيضًا أن الذي قام بالامر بعد زيادة الله بن محمد هو ابن أخيه الامير أحمد . وأن الذي تولّى بعد محمد هو ابنه أحمد ، وذكر أنه «هو الذي بنى ماجل القيروان وجامع تونس وله وقعة مشهورة») .

المحتوى

- 1 -

العناوين الرئيسية والعناوين الفرعية في كتاب دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

أبواب الكتاب

– 2 –
المحتوى المفصّل

العنوان — الورقة

الباب الاوّل

الباب الثاني

الباب الثالث

في دولة أمير المؤمنين أبي جعفر عبد الله المأمون 120أ–253ب

إفادات

– 1 –

ذكر «المسوّدة»
في كتاب
دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

الورقة 2ب ، «قد كنت ظفرت فيما ظفرت به من الأوراق بمسوّدة لم يبيض ويرتّب منه السياق ، فجعلت أتصفّح ما فيه ، وأتأمل في معانيه ، فإذا هو في دولة الرشيد من بني العباس وبنيه»

الورقة 48أ ، «قد كنت ليلة الخميس ثالث عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف اشتغلت بالنظر في هذه المسودّة قبل تبييضها وقد أرّقني السهر ومللت النظر فأخذت مضجعي ونمت وقد استغرقني النوم (ويروى رؤيا رآها في المنام ، ويقدم لكلّ ما سبق بقوله «فقير الديان حسين بن محمد وادران»

الورقة 219ب ، «نقلته من بعض الخطوط»

الورقة 223ب ، «كذا وجدناه غير معزّو»

الورقة 230ب ، «كذا وجدناه بالمسودّة غير معزو والظاهر أن هذا ليس جميعه مخاطبة سهل للمأمون وإنما أدخل غيره مع تبيينه»

الورقة 240ب ، «كذا نقلناه من المسودّة»

الورقة 309ب ، «كذا وجدناه في المسودّة»

الورقة 324أ ، «كذا في المسودّة»

الورقة 324أ ، «كذا في المسودّة»

الورقة 324أ ، «حتّى مات من الضرب وحبست أصحابه ، انتهى كلّه من المسودّة»

الورقة 333ب ، «كذا في المسودّة»

الورقة 346 . . . ، «كذا وجدته في المسودّة»

الورقة 364أ ، «مع ما نقلناه من المسودّة بعزو لابن الشباط وابن الشماع» .

- 2 -
موضع ذكر المؤلف
في كتاب
دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

2ب-3أ : « . . وبعد ، فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير ، المرتجي فيض النوال والغفران عُبيد الله حسين بن محمد وادران ، قد كنتُ ظفرت فيما ظفرت به من الاوراق بمسوّدة تاريخ لم يبيّض ويرتّب منه السياق ، فجعلت أتصفح ما فيه ، وأتأمّل في معانيه ، فإذا هو في دولة الرشيد من بني العباس وبنيه ، ومع هذا قد أُخبرت أنّه قد جمعه بعض أبناء /3/ جنسنا النُّجباء ممّن تقدّم عصرنا وقارن الآباء ، غير أنه لم يجدّد منحاته الشوقية ، وينقّح رشحاته الذوقية ، فبينما أنا في رياض تلك السطور ، أقتطف من أزهار ذلك المنثور ، اذْ أبهاني شارق أنواره ، وناجاني طارق أخباره أن أبيِّض تلك السطور الجلية ، وأنقح تلك المعاني السنيّة ، بأن أميّز مراتب ذلك المكتوب ، وأجعل له هيئة و أسلوب (كذا ، ويظهر أنه أسقط الاعراب لمناسبة السجع) ، مع ما أدمجنا فيه من الانقال ، ووشحنا حُلّته بهواتف الفِكر والبال ، ليكون من جالس مصابيحَ غُرره اغتنى عن كلّ جليس بنفائس دُرره اثنى عن كل أنيس ، اذْ تبسُّم طيب أخباره يرقص رؤوس العلماء طربًا ، وتجاذب نشْقُ أريجه يُزهق نفوس الحُكماء عجبًا ؛ وها أنا أجمع غرائبه المستفِزّة للخواطر ، وأُؤلف بدائع عجائبه المستلذّة لذوي البصائر، وقد جاء بحمد الله تعالى نزهة لذوي الألباب ، مرتبًا على ستة أبواب . الباب الاول في دولة أمير المؤمنين المجيد أبي جعفر هارون الرشيد . . »

84أ : «وروي أنه عند ذكره (الضمير يعود على عبد الله بن المبارك المحدّث المشهور) تنزل الرحمة ، قال فقير الديّان حسين بن محمّد بن وادران : قد كنت ليلة الخمسين ثالث عشر شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف اشتغلت بالنظر في هذه المسودّة قبل تبييضها وقد أرّقني السَّهَر ومللت النظر فأخذت مضجعي ونمت وقد استغرقتُ النوم وإذا أنا بهيئة لم أشعرها بعد الانتباه وكأنّ شخصًا يخاطبني وهو يقول لي : ثلاثة تنزل الرحمة عند ذكرهم ، الحسن والحسين وعبد الله بن المبارك . فانتبهت وأنا أقول ذلك واستيقظت عند قولي والحسين ولم أذكر الثالث الا يقظة ولم أشعر بغير ذلك ولم أتذكّر الرجل على أيّ هيئة هو ، وقد سررت برؤياي والحمد لله» .

343أ : (آخر خلافة المتوكل ، الباب السادس) « . . وهنا ألقى القلم رحله وطوى وألقت عصاها واستقرّ بها النوى إذ هذا آخر ما وجدناه مما جمع في أخبار بني العباس وقد أوعدنا فيما سبق بتبييضه وتنقيحه لتتشنّف الاسماع وتروق بأخبارهم الانفاس والحمد لله على بلوغ المقاصد والآمال مما أردنا تنقيح ما أهمل وانخرم وكان في زوايا الاهمال» .

(ثم هناك مباشرة عنوان) خاتمة في ذكر عمال بني العباس بافريقية ومن دخلها من عمالهم . . . » .

361ب : (آخر الكلام عن الاغالبة) هذا آخر ما أردناه من غرضنا من هذا الكتاب والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب ولكن حيث انتهى بنا الكلام الى المقتدر وكان هو الثامن عشر فينبغي أن نذكرهم أسماءهم ومددهم على سبيل العد والتحصيل ليحصل العلم بهم من غير إطناب ولا تطويل فنقول إنّ أولهم . (الخ) .

364أ : « . . فكان المقتدر هو آخر الخلفاء من بني العباس بافريقية . ثم صارت الخلافة لبني العبيد الفواطم بافريقية ، وقُسّموا بالبلاد مع بني العباس الى أن استولوا على مصر وغيرها . انتهى كذا نقلناه من تاريخ المؤيد ، من أماكن

منه . وراجعنا فيه ذكر بني الاغلب ، مع ما نقلناه من المسوّدة بعزو لابن الشبّاط وابن الشمّاع وغيرهما الا أنّ فيه تخليط ، فصححنا ذلك من المختصر للمؤيد رحمه الله تعالى . وهذا آخر ما أردناه من هذا الكتاب ، والله الموفق /353ب/ للصواب . . (دعاء) قال مؤلفه الفقير الى الله الديّان حسين بن محمد وادران : ووافق الفراغ . . »

364ب : «قال مؤلفه الفقير الى الله الديّان حسين بن محمد وادران ووافق الفراغ من تبييض هذا الكتاب في أول جزء من نصف السدس الخامس في أوّل سبع مت السبع السابع من الخمس الخامس من السدس الخامس من الربع الثالث من الثلث الثاني وهو ثاني الخمس الاول من العشر الثامن من ثاني السدس السادس من الهجرة النبوية . . »

- 3 -
التواريخ والوفيات
في كتاب
دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

ص 4ب : الرشيد تولى ليلة الجمعة ، منتصَف ربيع الأول من سنة سبعين ومائة .

ص 5ب : وكان عمره حين ولي اثنتين وعشرين سنة . مولده بالريّ ، في سنة ثمان وأربعين ومائة .

ص 5ب : الهادي مات وله من العمر ستّا وعشرين سنة ، وخلافته سنة وثلاثة أشهر .

ص 6ب : وُلد له ولده محمد الأمين من زبيدة في شوال من سنة ولايته .

ص 6ب : وفيها عَزل الرشيد الثغور كلّها من الجزيرة وقنّسرين ، وجعلها حيّزًا واحداً ، فسُمّيت العواصم .

ص 6ب في سنة ثلاث وسبعين ومائة توفيت الخيزران .

ص 6ب : خروج يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه على الرشيد ، وظهور أمره بالديلم ، سنة ست وسبعين ومائة .

ص 14ب : وفاة مالك رضي الله عنه في ربيع الاول سنة تسع وسبعين ومائة ، وقيل سنة ثمان وسبعين ومائة . ومولده سنة خمس وتسعين للهجرة وقيل تسعون سنة .

ص 15ب : عبد الله العمري وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن

عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنهم . وتوفي سنة أربع وثمانين ومائة بعد مالك بنحو ست سنين ، وهو ابن ست وستين سنة .

ص 20أ : عبد الصمد بن علي عمّ ابراهيم بن صالح بن علي قريب الرشيد ولد في سنة أربع ومائة ، وولد أخوه محمد بن علي ، والد السفّاح والمنصور، سنة ستين للهجرة ، فكان بينهما في المولد أربع وأربعون سنة .

ص 20أ : توفي محمد بن علي سنة ست وعشرين ومائة .

ص 20ب : توفي عبد الصمد بن علي سنة خمس وثمانين ومائة ، فكان بينهما في الوفاة تسع وخمسون سنة . فانطر كم كانت بينهما في المولد والوفاة ، مع أنّ الاخوة لا تقتضي بعد هذه المسافة بين الاخوين .

ص 24ب : سنة خمسين ومائة توفي أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زُوطى .

ص 25أ : ولادة أبي حنيفة سنة ثمانين للهجرة ، وقيل ولد سنة إحدى وستين . وقيل إنه توفي في اليوم الذي ولد فيه الشافعي ، وذلك في رجب من هذه السنة ، وقيل في جمادى الاولى . وقبره ببغداد .

ص 25ب : سنة إحدى وثمانين توفي أبو يوسف القاضي .

ص 29ب : وفاة معاوية بن أبي سفيان وضي الله تعالى عنه سنة ستين في رجب ، وكانت مدّة خلافته تسعة عشر سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا ، وكان عمره خمسًا وسبعين سنة ، وقيل سبعين وقيل غير ذلك .

ص 30أ : توفي أبو البختري بن وهب المذكور سنة مائتين في خلافة المأمون .

ص 30ب : يزيد بن مزيد بن زائدة ، وهو ابن أخي معن بن زائدة ، كان واليًا بأرمينية فعزله الرشيد سنة اثنتين وسبعين ومائة .

ص33ب : توفي يزيد بن مزيد الشيباني سنة خمس وثمانين ومائة .

ص 36أ : توفي موسى الكاظم في شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة ببغداد مسمومًا وقيل في سنة سبع وثمانين ومائة . والأصح أنه سنة ثلاث وثمانين في حبس الرشيد .

ص 36أ : كان عمره أربع وخمسين سنة ، ودفن ببغداد وقبره مشهور يزار .

ص37أ : توفي جعفر الصادق سنة ثمان وأربعين ومائة بالمدينة ، ودفن بالبقيع . وولد سنة ثمانين ، وأمه بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

ص 40ب : توفي العباس بن الاحنف سنة تسع وثمانين ومائة .

ص 42ب : أبو نواس ، مولده بالاهوار سنة خمس وثلاثين ومائة .

ص49ب : سنة إحدى وأربعين ومائة كان خروج الراوندية على المنصور .

ص50أ : سنة إحدى وخمسين ومائة قُتل معن بن زائدة الشيباني .

ص50ب : مروان بن أبي حفصة توفي في سنة إحدى وثمانين ومائة . وكان مولده سنة خمس ومائة .

ص 59ب : الرشيد أوقع بالبرامكة سنة سبع وثمانين ومائة ، فقتل جعفر بالأنبار ، مستهلّ صفر من هذه السنة عند عوْدِه من الحج .

ص60أ : يحيى بن خالد مات محبوسًا بالرقة ، في المحرم سنة تسعين ومائة ، وعمره سبعون سنة . ومات الفضل بن يحيى بالمكان أيضًا في المحرم سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وعمره خمس وأربعون سنة .

ص 69أ : المنصور ، مات لستّ خلون من ذي الحجة من هذه السنة ، وقد هجس في نفسه أنه يموت في ذلك الشهر وخَبّر به . ووُلد في ذي الحجة ، وولّي في ذي الحجة ، وهجس قي نفسه أنه أموت في ذي الحجة من هذه السنة . مات ببئر ميمونة مُحْرِمًا في التاريخ ، وعمره ثلاث وستّون سنة ، ومدّة خلافته

اثنان وعشرون سنة وثلاثة أشهر وكَسْر .

ص 69ب : توفي الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني في يوم واحد ، في مكان واحد ، سنة سبع وثمانين ومائة بالريّ .

ص 70أ : سيبويه ، توفي بقرية من قرى شيراز ، يقال لها البيضاء ، وعمره نيف وأربعون سنة . وكانت وفاته سنة ثمانين ومائة ، وقيل سنة سبع وسبعين ومائة . وقيل توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، وقيل سنة ثمان وثمانين ومائة . وقيل في سنة أربع وتسعين ومائة وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وأنه توفي بمدينة ساوه . وذكر أنه مات بشيراز وقبره بها .

ص81ب : الفضيل بن عياض ، توفي في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة. وقيل سنة سبع وثمانين ومائة . وكان مولده بسمرقند وانتقل الى مكة ومات بها .

ص 89أ : في سنة اثنتين وتسعين ومائة سار الرشيد من الرقّة الى خراسان فنزل بغداد ورحل عنها الى النهروان ، لخمس خلون من شعبان ، واستخلف على بغداد ابنه الأمين . ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فيها مات الرشيد لثلاث خلون من جمادى الآخرة ، وكان به مرض من حين ابتدأ بسفره ، اشتد عليه بجرجان في صفر ، فسار الى طوس ، فمات بها في التاريخ المذكور . وكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يومًا . وعمره سبع وأربعون سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام .

ص 89ب : في سنة سبع وثمانين ومائة خلع الروم ملكتهم ، وكانت امرأة تدعى رُمِني ، وملّكوا عليهم نقفور .

سار الرشيد سنة تسعين ومائة حتى نزل على هرقلة وحصرها ثلاثين يومًا ، ثم سار متّجهًا في شوال من سنة تسعين المذكورة وبث عساكره في بلاد الروم ففتحوا الصفصاف وملقونية . وبعث نقفور بالجزية عن رعيته وعن رأسه أيضًا

ورأس ولده وبطارقته وغزا قبرس في هذه السنة بعد نقضهم الصلح . ثم قصد غزو الترك في سنة أثنتين وتسعين .

ص 104أ : سنة خمس وتسعين ومائة وفيها مات أبو نواس الحسن بن هانيء الشاعر . وكان عمره تسعًا وخمسين سنة . وقيل إنه توفي ببغداد سنة مائتين . والظاهر أنّ الثاني هو الصواب ، لأن أبا نواس يحكي أنه أدرك مقتل الأمين ، ورثاه .

ص 104أ : سنة مائتين وفيها أمر المأمون أن يحصى ولد العباس فبلغوا ثلاثًا وثلاثين ألفًا ، ما بين ذكر وأنثى . وفيها توفي معروف الكرخي الزاهد .

ص 104ب : وتوفي أبو نواس سنة أربع وتسعين ومائة . وهذا مخالف لما تقدّم عن المؤيد والخطيب .

ص 110أ : ابن المعتزّ ، في اليوم الثاني من بيعته ، وهو يوم الأحد لِسبع بقين من شهر ربيع الاول سنة ستّ وتسعين ومائتين . ووُلد لسبع بقين من شعبان سنة تسعين .

ص 111ب : واستقر المقتدر في الخلافة . وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة . وبقي المقتدر خليفة الى سنة عشرين وثلاثمائة . خلافته أربعًا وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا وستة عشر يومًا ، وعمره ثمان وثلاثون سنة .

ص 113أ : في سنة خمس وتسعين ومائة أبطل الأمين اسم المأمون من الخطبة ، وخطب لابنه موسى .

ص 113أ : في سنة أربع وتسعين ومائة عزل أخاه القاسم .

ص 114ب : ولّى الامين علي بن عيسى على بلاد الجبال ونهاوند وقُم وأصفهان ، في سنة خمس وتسعين .

ص 115ب : سنة ثمان وتسعين فدخل طاهر بن الحسين بغداد .

ص 116ب : سنة ثمان وتسعين ومائة استولى طاهر على بغداد .

ص 118ب : قتل الأمين كان لستّ بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة .

ص 119أ : كانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وكسرًا ، وكان عمره ثمانيًا وعشرين سنة .

ص 120أ : المأمون بن هارون الرشيد بن محمّد المهدي بن أبي جعفرالمنصور الهاشمي العباسي . أمه أم ولد ، اسمها مراجل ، توفيت في ولادتها. ومولده في ربيع الاول سنة سبعين ومائة ، ليلة وفاة عمّه الهادي واستخلاف أبيه الرشيد .

ص 120ب : بويع للمأمون قبل موت أخيه . ولم يتخلّف عنه الا بغداد . وسلّم عليه بالخلافة من سنة خمس وتسعين ومائة ، حين انهزم جيش الأمين وقُتل عليّ بن عيسى بن ماهان وحُمل رأسه الى المأمون بخراسان ، وكان بدء استخلافه .

ص 122أ : فكان بين خروج طاهر الى وجه علي بن عيسى وقبْض يعقوب بن الليث الصفّار على محمّد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بمدينة نيسابور خمسًا وستين سنة .

ص 129أ : استقرّ الأمر للمأمون بعد قتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة اكتنى بأبي جعفر .

ص 130أ : فكتب المأمون الى طاهر بن الحسين سنة تسع وتسعين أن يتنحّى عن العراق ويسلّم ما افتتحه من البلاد الى الحسن بن سهل ، وأن يتوجه الى الرقّة ؛ وقد وَلِيَه الموصلُ والشام والجزيرة والمغرب .

ص 130ب : قام ابن طَبَاطَبَا العلوي سنة مائتين بالكوفة يدعو الناس الى الرضا من آل محمد .

ص 131أ : فوجه المأمون في آخر هذه السنة الى أبي السرايا هرثمة بن

أعين .

ص 131ب : قدوم هرثمة على المأمون بمرو . ضربه وحبسه ودسّ اليه من قتله وهو بالحبس ، وقالوا مات . كانت وفاته سنة مائتين .

ص 132أ : توفي طاهر بن الحسين يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين بمدينة مرو ، وكان مولده سنة تسع وخمسين ومائة .

ص 136ب : الفضل بن سهل وأخوه الحسن أصلهما من سَرَخْس ، وكانا مجوسيين (الدر 34أ و79أ) أسلما على يد المأمون ، سنة تسعين ومائة ؛ وأنّ أباهما سهلا أسلم على يد المهدي . دخل غالب السعودي على الفضل ، وهو بالحمام في سرخس ومعه جماعة ، فقتلوه ، وذلك يوم الخميس ثاني شعبان سنة اثنتين ومائتين . وقيل ثلاث ومائتين ، وعمره ثمان وأربعون سنة . وعمره كان ستين سنة . ومات والده ، سهل ، سنة اثنتين أيضًا ، بعد مقتل ابنه بقليل . وعاشت أمه وأمّ أخيه الحسن بن سهل حتى أدركت عُرْس بُوران على المأمون .

ص 137ب : قتل الفضل يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان من السنة المذكورة . فبعث المأمون خلفهم وجيء بهم ، وهم أربعة من المماليك ، فقتلهم .

ص 140أ : بيعة المأمون لعلي الرّضا كانت لليلتين خَلَتا من رمضان ، يوم الثلاثاء سنة إحدى ومائتين .

ص 140ب : أوّل يوم من المحرّم من سنة اثنين ومائتين بويع لابراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخُلع المأمون . فلمّا كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد ابراهيم المنبر ، فبايعه الناس .

ص 141ب : وصل المأمون في السنة الثالثة بعد المائتين الى العراق ، الى مدينة طوس ، فأقام عند قبر أبيه أيامًا من شهر صفر . فلمّا كان أواخر الشهر مات عليّ الرّضا بن موسى الكاظم الذي أولاه المأمون عهد الخلافة . فصلّى

عليه المأمون ودفنه الى جانب قبر أبيه الرشيد . مات عليّ الرِّضا سنة ثلاث ومائتين ، بأن أكل عنبًا فأكثر منه ، فمات فجأة بطوس . وكان مولده بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائتين .

كانت ولادة عليّ الرِّضا يوم الجمعة ، في بعض شهور سنة ثلاث وخمسين ومائة . وتوفي آخر يوم من صفر سنة ثلاث ومائتين . وقيل خامس ذي الحجة ، وقيل عاشر ذي الحجة بمدينة طوس . وكان سبب موته أنه أكل عنبًا فأكثر منه ، وقيل مسمومًا ، فاعتلّ منه ومات .

وكان الحسن قد غلبت عليه السَّوداء حتى قُيِّد في حديد وأُودِع في بيت .

ص 144أ : زين العابدين رضي الله تعالى عنه ، المشهور عن الجمهور أنه توفي سنة أربع وتسعين في أولها . وقيل خمس وتسعين .

ص 144ب : فيها – أعني سنة أربع وتسعين – مات سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمان . رضي الله تعالى عنهم .

ص 144 : وقيل توفي زين العابدين سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين . وقيل سنة مائة . وقيل سنة تسع وتسعين . وعمره ثمانية وخمسون سنة . مات بالمدينة ودفن بالبَقيع . في قبره عمّه الحسن ، رضي الله تعالى عنهما . وخلّف ولده محمد الباقر . ولد سنة سبع وخمسين . وكان عمره لـمّا قُتل جدّه الحسين ثلاث سنين . وكانت وفاته سنة ستة عشرة ومائة . وقيل في غيرها وعمره ثلاث وسبعون سنة . ومات بالـحُمَيْمة ودفن بالبقيع . وهو جدّ موسى الكاظم بن جعفر الصادق .

ص 145أ : وكان المأمون قد أصهره بأن زوّجه ابنته أمّ حبيب ، في سنة اثنتين ومائتين .

ص 145ب : ابراهيم بن المهدي صار في أيدي المأمونية أسيرًا . وآلَ الحالُ

الى أن اختفى ابراهيم ، فكانت أيامه سنة وإحدى عشر شهرًا واثنى عشر يومًا .

ص 145ب : وقد وصل المأمون من خراسان الى همدان آخر ذي الحجة من هذه السنة ، أعني سنة ثلاث ومائتين .

ص 145ب : وكانت في هذه السنة (203) بخراسان وما وراء النهر زلازل عظيمة ، دامت مقدار سبعين يومًا ، فخربت البلاد وهلك فيها خلق كثير . وكان معظمها ببلخ والجورجان والفارياب والطالقان .

ص 146أ : قيل قدم المأمون بغداد في السنة الرابعة بعد المائتين بعد أن مرّ بجُرجان ، فأقام بها شهرًا ثم سار منها ، ينزل في المنزِل يومًا ويومين ، الى أن بلغ النهروان ، فأقام بها ثمانية أيام . ثم سار الى بغداد ووصلها بعد ارتفاع النهار لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر . وكان لباسه ولباس أصحابه الخضرة . فلبس بنو هاشم وأهل بغداد الخضرة . فكان الناس يدخلون عليه في الثياب الخضر ويحرِقون كل ملبوس يرونه من السّواد . ودام ذلك ثمانية أيام .

ص 146أ : ونزل المأمون بالرصافة ثم تحوّل الى قصره على دجلة . وتحول لبس بغداد الى الخضرة . فتكلّم بنو العباس وقواد خراسان في ذلك . فبلغ المأمونَ . فلما كان يوم السبت ، الثالث والعشرين من صفر ، جلس للناس وعليه الخضرة . قيل مكث بلُبْس الخضرة بعد قدومه بغداد تسعًا وعشرين يومًا ، ثم عاد الى السواد .

ص 146ب : وهو الذي حجّ بالناس في هذه السنة .

ص 155أ : ندب المأمون أخاه اسحاق وولاّه نيابة الشام ومصر ، وولّى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم . وذلك سنة ثلاثة عشرة ومائتين . وكان قد سوّغ خراج مصر لعبد الله بن طاهر ، سنة عشرة ومائتين حين أركبه اليها واستنقذها من يدي عُبيد بن السّرّي بن الحكم ، المغلّب عليها .

ص 158ب : الفضل بن الربيع استتر في رجب سنة ستّ وتسعين ومائة .

ثم ظهر لابراهيم بن المهدي ، حين ادّعى الخلافة الى أن اختل أمرُه فاستتر الفضل بن الربيع ثانيًا ، وبقي مختفيًا الى أن عفا عنه المأمون . ومات في ذي القعدة سنة ثمان ومائتين ، وقيل في ربيع الأول . وسنّه ثمان وستون سنة .

ص 167أ : النَّضِر بن شُميل البصري النحوي مات سنة أربع ومائتين وقيل سنة ثلاث .

ص 167أ : مات في هذه السنة ، أعني سنةَ أربع ومائتين الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفِي ، الفقيه الحنفي أكبر أصحاب أبي حنيفة .

ص 167ب : وفيها مات أيضًا اسحاق بن الفرات التّجيبي ، قاضي مصر . ومات أيضًا فيها ابن داود سليمان بن داود ابن الجارود الطيالسي ، صاحب المسند ، أحد الحفاظ .

ص 167ب : ولد أبو داود سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ومات سنة أربع ومائتين . وفيها أيضًا مات أشهب صاحب مالك .

ص 168أ : ولد أشهب سنة أربعين ومائة . ومات في مصر ، سنة أربع ومائتين ، بعد الشافعي بشهر . وقد اتفق هو والشافعي في سنة المولد والوفاة .

ص 168ب : وُلد عبد يزيد ، جدّ الشافعي ، سنة خمسين ومائة بغزة. وقيل بعسقلان وقيل باليمن . والاول أصحّ . وقيل ولد في يوم توفي فيه أبو حنيفة رحمه الله تعالى . ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه الى مكة ، وهو ابن سنتين .

ص169ب : الشافعي ، حُمل على بغل في قيد الى بغداد . فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة ، فاجتمع بالرشيد . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة ، وقيل بسنتين . وعاد الشافعي الى مكة ثم عاد الى بغداد سنة خمس وتسعين ومائة . ثم رجع الى مكة ورجع الى بغداد أيضًا سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم انتقل منها الى مصر فأقام بها الى أن مات .

ص 172ب : مات الشافعي سنة أربع ومائتين . ودفن بعد العصر من يومه بالقَرافة الصغرى . وقبره يزار بها بالقرب من المُقَطَّم . وعمره لما مات خمس وخمسون سنة ، وقيل ثمان وخمسون .

ص 175ب : مصر حكم بها القاضي يحيى بن أكتم ثلاثة أيام ، ثم عزله في محنة الناس بالقول بخلق القرآن .

ص 176أ : فلما عزل محمّد بن القاضي أحمدَ بن أبي دوًاد عن القضاء فوّض الولاية الى يحيى بن أكتم . ثم عُزل في سنة أربعين ومائتين وولى رتبته جعفر بن عبد الواحد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي .

176ب : ثم حجّ يحيى بن أكتم ، ورجع يريد العراق . فلما وصل الى الرَّبذة توفي بها يوم الجمعة منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وقيل غرة سنة ثلاث . ودفن هناك وعمره ثلاث وثمانون سنة .

ص183أ : قيل مات أبو العتاهية وابراهيم الموصلي وأبو عمرو الشيباني النحوي في يوم واحد . وليس بصحيح ، لأن ابراهيم مات بعده بسنتين ، وأبو عمرو مات سنة ستّ ومائتين .

ص 183ب : أبو عمرو الشيباني النحوي اللغوي . قيل عاش مائة وثماني عشرة سنة وكان يكتب بيده الى أن مات .

ص183ب : والأصح أنه مات سنة ستّ ومائتين ببغداد ، وعمره مائة وعشر سنين . ولم يمت في سنة مات فيها أبو العتاهية .

ص183ب : في سنة أحد عشَر ومائتين ، أمَر المأمون أن يُنادى بُرئت الذمة ممّن ذكر معاوية بخير ، أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ .

وفيها توفي أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش النحوي البصري .

ص 184أ : الأخفش الأصغر المتأخّر ، وهو علي بن سليمان بن الفضل ، وكان نحويًا أيضًا ، توفي سنة خمس عشرة ، وقيل سنة ست عشرة وثلاثمائة .

وفيها [211هـ] توفي أبو العتاهية الشاعر . كانت ولادة أبي العتاهية سنة ثلاثين ومائة وتوفي يوم الاثنين لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة ومائتين، وقيل سنة ثلاث عشرة بغداد ، وقبره على نهر عيسى قبالة قنطرة الزياتين .

ص 188أ : قتل بشّار على الزندقة سنة ستّ وستين ومائة . وكان قد نيّف على التسعين .

ص 189أ : توفي قطرب النحوي سنة ست ومائتين .

ص 189ب : العكوك ، مات في سنة ثلاثة عشر ومائتين ببغداد . وكان مولده سنة ستين ومائة ، وهو أبو الحسن عليّ بن جبلة بن المسلّم بن عبد الرحمان الخراساني . وُلد أعمى . وقيل أصابه جُدري وهو ابن تسع سنين فعمي .

ص 190ب : الجاحظ ، دخل بغداد سنة أربع ومائتين حين قدمها المأمون .

ص190ب : الفرّاء ، توفي سنة سبع ومائتين في طريق مكة ، وعمره ثلاثة وستّون سنة .

ص 199أ : المأمون تزوّج ببوران ، عقد عليها في سنة اثنتين ومائتين ، ودخل بها في شعبان سنة عشر ومائتين بفَم الصُّلْح ، وهي بلدة قريبة من واسط .

ص 200أ : بوران توفيت وهي في صحبة المأمون ، وعاشت بعده زمانًا الى أن توفيت يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين . وكانت وفاتها ببغداد . ويقال إنها دُفنت بقبّة مقابلة مقصورة جامع السّلطان ، وأنها باقية الى الآن ، ويقال إن اسمها خديجة والأصح بوران .

ص 203أ : ولدت عريب في سنة إحدى وثمانين ومائة .

ص 206أ : عاشت عَريب ستّا وتسعين سنة .

ص : الظفر بابراهيم بن المهدي ليلة الأحد من شهر ربيع الآخر لثلاث عشرة بقين منه ، سنة عشر ومائتين وهو متنقّب في زيّ امرأة .

ص 214ب : سنة خمس ومائتين ولّى المأمون محمد بن سماعة قضاء بغداد ، ومحمّد بن رجاء قضاء الشرقية ، والواقدي قضاء العسكر .

ص 215أ : الواقدي ، كانت ولادته سنة ثلاثين ومائة ، وتوفي عشية يوم الاثنين حادي عشر ذي الحجة سنة سبع ومائتين ، وهو يومئذ قاضي الجانب الغربي من بغداد . وقيل بالجانب الشرقي وصلّى عليه ابن سماعة التميمي ودفن بمقابر الخيزران . وعمره ثمان وتسعون سنة .

ص 228أ : بطليموس الحكيم في زمن انطيبوس أحد ملوك الروم بعد اليونان بملوك كثيرة . ذُكر في كتاب المجِسْطي أنه رصد الشّمس بالاسكندرية لبُخْتَ نَصْر سنة ثمانمائة وثمانين سنة .

ص 234ب : وفاة النظام سنة إحدى وعشرين ومائتين وله من السنّ ستًا وثلاثون سنة .

ص 235ب : الأصمعي ، كانت ولادته سنة اثنتين وقيل ثلاث وعشرين ومائة . وتوفي في صفر سنة ستّ عشرة وقيل خمس عشرة ومائتين بالبصرة ، وقيل بمرو . قيل عاش ثمان وثمانين سنة .

ص 237 أ : عبد الله بن المبارك مات على عهد الرشيد سنة إحدى وثمانين ومائة ، وزبيدة توفيت سنة ستّ عشرة ومائتين . عرّس بها الرشيد سنة خمس وستين ومائة ، وقيل توفيت أم جعفر زبيدة زوجة الرشيد سنة ستّ عشر ومائتين .

ص 238ب : يحيى بن يعمر التابعيّ ، توفي سنة تسع وعشرين ومائة .

ص 238ب : قيل في ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة ومائتين أظهر المأمون في الناس بدعتين ، تفضيل عليّ بن أبي طالب والقول بخلق القرآن .

ص239أ : حمل الناس على القول بخلق القرآن في السنة الثامنة عشرة بعد المائتين .

ص 240ب : وابتدع بدعة ثالثة ايضًا ، وهي التكبير عقيب الصلوات . فبدىء بذلك في جامع المدينة والرصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ستّ عشرة ومائتين ، ثم استمروا على ذلك في بقية الصلوات .

ص 242ب : توفي أبو الفضل عمرو بن مسعدة في سنة أربع عشرة ومائتين .

ص 244ب : ركب المأمون في العسكر قاصدًا بلاد الروم من بغداد ليغزوهم ، واستخلف على بغداد وأعمالها اسحاق بن ابراهيم بن مصعب . وسار منها في آواخر المحرم سنة خمسة عشر ومائتين ، فوصل الرقّة .

ص 245أ : المعتصم ، كان عامل مصر أولاه أخوه المأمون إياه سنة ثلاثة عشرة ، وأولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم في تلك السنة .

ص 245أ : عاد المأمون لى بلاد الرّوم سنة عشر ومائتين . وأقام المأمون ببلاد الروم من منتصف جمادى الاولى الى النصف من شعبان ، ثم عاد الى دمشق . وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهري على الديار المصرية في شعبان من هذه السنة . فركب له المأمون من دمشق يوم الاربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة . ودخل الديار المصرية في المحرم من سنة تسع عشرة ومائتين ، فظفر بعبدوس الفهري .

ص 251أ : لا زال المأمون ببلاد الروم ، الى أن دخلت سنة ثمانية عشر ومائتين ، فمرض لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة . ومات سنة ثماني عشرة ومائتين في رجب . قيل يوم الخميس وقت الظهر . وقيل بعد العصر لثلاث عشر ليلة بقيت من رجب . وقيل يوم الخميس لسبع عشرة ليلة

خلت من رجب بالبذندون من أرض الروم ، وحمل ودفن بطرسوس . وله من العمر على حساب مولده ثمانية وأربعون سنة وأربعة أشهر وخمسة أيام . وقيل توفي لثمان خلون من رجب . وقيل يوم الاربعاء لثمان خلون من رجب ، وعمره ثمان وأربعون سنة . وقيل تسع وأربعون سنة وشهران وثمانية عشر يومًا . وقيل مات خارج طرسوس بأربع مراحل ، فحمل الى طرسوس حتى دفن بها . وقيل إنه نقل بعد ذلك الى أذنه فدفن بها ، بدار جلعان خادم الرشيد . وصلى عليه المعتصم ، فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا سوى أيام دعي له بالخلافة وأخوه الامين محاصر ببغداد . وكان مولده النصف من ربيع الاول سنة سبعين ومائة .

ص 254أ : مولد المعتصم يوم الاثنين لعشرخلون من رمضان سنة ثمانين ومائة . وقيل لعشر خلون من شعبان . وقيل كان مولده سنة ثمانية وسبعين .

ص 254أ : بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس . وكان إذ ذاك مريضًا ، فأحضر العباس بن المأمون ، وبايع له فبايعه الناس . ثم ركب في جنود الى بغداد وصحبه العباس بن المأمون . فدخلها يوم السبت مستهلّ شهر رمضان .

ص 256أ : المعتصم غضب على حيدر الافشين سنة خمسة وعشرين ومائتين ، وأمر بسجنه .

ص 256ب : في السنة السادسة والعشرين أمطرت أهل نيما ببَرَد كالبيْض .

ص 257أ : قيل في سنة ستّ وعشرين ومائتين غضب المعتصم على الافشين ، حيدر بن كاووس ، وحبسه حتى مات في حبسه . وأُخرج فصُلب ثم أحرقت جثته .

ص 262 : احترق الكرج سنة خمس وعشرين ومائتين وجددها

المعتصم .

ص 263 : وفاة أبي دلف كانت سنة خمس وعشرين ومائتين .

ص 263 : وبنى المعتصم سامراء ، ابتدأها سنة عشرين ومائتين .

ص 263ب : بابك الخرّمي كان أوّل ظهوره في سنة إحدى ومائتين على عهد المأمون . واستفحل أمره في أيام المعتصم . فسار الافشين اليه في سنة عشرين ومائتين . وأرسل اليه المعتصم بابنه مع بُغا الكبير .

ص 263ب : وقد التقى الافشين مع بابك في هذه السنة فأنهزم بُغا . فأنتصر له الافشين وقابله ، فأنهزم بابك في سنة إحدى وعشرين . ولا زال الامر كذلك الى سنة اثنتين وعشرين ، فأمّر المعتصم الافشين فدَهَم بابك فهزمه ، وآفتتح مدينته ودخلها يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان من السنة المذكورة .

ص 264أ : كان دخول الافشين الى سامراء يوم الخميس ثالث صفر من سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ومعه بابك الخرّمي وأخوه عبد الله ، وجعل بابك على فيل . وأمر بقتله وحمل رأسه الى خراسان وصلب جثته على خشبة بسرّ من رأى . ليلة قتله هي ليلة الخميس لثلاثة عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة .

ص 264أ : وأتم المعتصم سيره حتى دخل سامرّاء في سنة ثلاث وعشرين ومائتين .

ص 270ب : المعتصم ، وقبض علي الفضل بن مروان سنة إحدى وعشرين ومائتين ، في رجب . فحبسه وأخذ أمواله بعد أن عزله عن الوزارة ، وجعل مكانه ابن الزيات ، إلاّ أنه فصل بينهما بأحمد بن عمّار .

ص 271أ : توفي الفضل بن مروان في شهر ربيع الآخر سنة خمسين ومائتين ، وعمره ثمانون سنة . ويقال عاش ثلاثًا وتسعين سنة .

ص 273ب : علية بنت المهدي ، أخت ابراهيم بن المهدي والرشيد وأمها

أم ولد مغنية يقال لها مكنونة ، ولدت في سنة ستين ومائة .

276ب : توفيت عُلية سنة عشر ومائتين وهي بنت خمسين سنة .

ص 285أ : اسحاق الموصلي عمي في آخر عمره قبل موته بسنتين . ومولده سنة وخمسين ومائة . وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وخمسين ومائة وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين بعلّة الذرب . وقيل في شوال سنة وثلاثين ومائتين ، والاوّل أصح . وكانت وفاته في خلافة المتوكل .

ص 287ب : توفي أبو تمام رحمه الله بالموصل في ذي القعدة ، وقيل في جمادى الاولى سنة ثمان وعشرين . وقيل في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . ومولده سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وقيل غير ذلك .

ص 288ب : المعتصم ولد سنة ثمان وسبعين ومائة في شعبان وتوفي وله من العمر ثمانية وأربعون عامًا وأقام في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وقيل يومين .

ص 289أ : انهزم جيش المبرقع فسَرّ ذلك المعتصم وشكر رجاء بن أيوب على فعله . وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين .

ص 289ب : المقنع دخل المسلمون قلعته وقتلوا من بها من أشياعه وكان ذلك سنة ثلاث وستين ومائة في خلافة المهدي .

ص 291أ : المعتصم وقع له صُداع فمات لثمانية أيام . وسنّه ثمانية وأربعون سنة .

ص 290أ : توفي المعتصم بالله بسامرّاء يوم الخميس لتسع عشر خلت من ربيع الاول سنة سبع و عشرين ومائتين . ومولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة . وقال غيره لعشر خلون من رمضان سنة ثمانين . وقيل سنة ثمان وسبعين . وقيل توفي لثماني عشرة مضت من ربيع الاول

بسامرّاء ، وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين . وكان مولده سنة سبع وسبعين ومائة . وقيل وله من السنين على حساب مولده في قول ستة وأربعون سنة وستة أشهر وستة أيام . وفي قول ثمانية وأربعون سنة وستة أشهر وتسعة أيام . ودفن بالجوسق الكبير . وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام .

ص 291أ : بويع له بالخلافة يوم الاربعاء لثمانية عشر خلون من ربيع الاول سنة سبع وعشرين ومائتين قبل أن مات أبوه بيوم . وقيل يوم الخميس لثماني عشرة ليلة مضت من ربيع الاول من هذه السنة في اليوم الذي مات فيه أبوه المعتصم ، ولعلّهما بيعتان ، بيعة خاصة وبيعة عامة . وأمّه أم ولد يقال لها قراطيس ، قصدت الحج فتوفيت بالحيرة ، لأربع خلون من ذي القعدة من هذه السنة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى .

ص 295أ : عمرو بن الاهتم كانت وفاته سنة سبع وخمسين .

ص 296أ : توفي المازني بالبصرة سنة تسع وعشرين ومائتين ، وقيل سنة ستّ وثلاثين ومائتين .

ص 297ب : مات البويطي في السجن يوم الجمعة قبل الصلاة في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين .

ص 297ب : بشر المريسي توفي في ذي الحجة سنة ثماني عشرة ومائتين .

ص 300أ : أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي وقد بايعه العامة في سنة إحدى ومائتين على القيام بالامر بالمعروف والنّهي عن المنكر .

ص 304ب : وفاة المعتصم بسرّ من رأى يوم الاربعاء لستّ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وكان عمره ستّا وثلاثين سنة وشهورًا ، وقيل سبعًا وثلاثين سنة ، وكانت ولايته خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام .

كان مولده سنة ستّ وتسعين ومائة بطريق مكة ، ومات وهو ابن ستّ

وثلاثين سنة ، وكانت مدة خلافته خمسًا سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل سبعة أيام واثنتي عشرة ساعة . وقيل خلافته خمس سنين وسبعة أشهر ، وتوفي يوم الثلاثاء بسرّ من رأى . وقيل عمره اثنان وثلاثون سنة .

ص 304ب : وقيل توفي بسامرّا في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

ص 306أ : مات فيه الواثق لست بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة .

ص 305ب : المتوكل على الله كانت بيعته وقت زوال الشمس من يوم الاربعاء لستّ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وكان عمره إذ ذاك ستّا وعشرين سنة .

ص 312أ : في تلك السنة باذربيجان زَلزلة عظيمة أقامت تُعاودهم سبعة أيام حتى دكّت المدينة ، وهلك عالم عظيم تحت الردم ، وشرعوا في مدينة غيرها . وانتصر بُغا المذكور على ابن البعيث .

ص 313ب : ايتاخ اشتراه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة . وأذن له في ذلك في سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وولّى وصيف الخادم الحجابة عِوضًا عنه ، فمات عطشًا في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين .

ص 320أ : في سنة إحدى وأربعين ومائتين توفّي الإمام أحمد بن حنبل .

ص 320أ : ومات ابن ابي دؤاد في خلافة المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين .

ص 321أ : موت الجاحظ كان بوقوع مجلّدات عليه ، فقتلته في محرم سنة خمس وخمسين ومائتين ، في خلافة المهتدي بالله .

ص 321ب : ابن السّكيت ، سُلّوا لسانه من قفاه ! فمات لساعته في رجب سنة أربع وأربعين ومائتين وعمره ثمان وخمسون سنة .

ص 322ب : حيْص بيْص لا يحفظ مولده . وتوفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة .

ص 324أ : وسرّ من رأى ، ويقال لها سامرّا أيضًا ، تلقب بالعسكر سكنها أبو الحسن العسكري وكان مقامه بها عشرين سنة وتسعة أشهر ، وتوفي بها في جمادى الاخيرة سنة أربع وخمسين ومائتين . وكانت ولادته بالمدينة المشرّفة يوم الاحد ثالث عشر رجب ، وقيل يوم عرفة سنة أربع عشرة ، وقيل ثلاث عشرة ومائتين . والده محمد الجواد توفي سنة عشرين ومائتين في خلافة المعتصم، وولد سنة خمس وتسعين ومائة . وولده الحسن العسكري بن عليّ الزكيّ بن محمد الجواد هو حادي عشر الائمة الاثني عشر ، ولد سنة ثلاثين ومائتين وتوفي سنة ستين ومائة في ربيع الاول ، وقيل في جمادى الاولى .

ص 324ب : محمد المنتظر ويقال له القائم والمهدي والحجة ، ولد سنة خمسين ومائتين . دخل سردابًا في دار أبيه بسرّ من رأى وأمّه تنظر ، فلم يعد يخرج اليها وعمره حينئذ تسع سنين ، وذلك في سنة خمس وستين ومائتين ، وفيه خلاف .

ص 326ب : كانت ولادة أبي العيناء سنة إحدى وتسعين ومائة بالاهوار. ونشأ بالبصرة وتوفي بها في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة ثمانين ومائتين .

ص 329ب : ولادة المبرد ضُحى يوم الإثنين سنة عشر ومائتين . وقيل سنة سبع ومائتين . وتوفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة . وقيل من ذي القعدة يسنة ستّ وثمانين . وقيل خمس وثمانين ومائتين ببغداد . ودفن في مقابل باب الكوفة في دار اشتريت له .

ص 325أ : ابن خلكان يرى المبرد في المنام وذلك في الاسكندرية في بعض شهور سنة ستّ وثلاثين وستمائة .

ص 332أ : عبد الله بن طاهر مات في خلافة الواثق ، يوم الاثنين لأحد عشر ليلة خلت من ربيع الاول سنة ثلاثين ومائتين بمدينة مرو . وقيل بنيْسابور. وعاش مثل أبيه ثمان وأربعين سنة .

ص 332ب : أبو العميثل مات في سنة أربعين ومائتين .

ص 335أ : ابن دريد ، كانت ولادته بالبصرة في سكة صالح ، سنة ثلاث وعشرين ومائتين وتوفي يوم الاربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ببغداد . ودفن بالمقبرة العباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح ، بالقرب من الشارع الاعظم . ويقال إنه عاش ثلاثًا وتسعين سنة لا غير . وتوفي في يوم وفاته أبو هاشم عبد السلام ابن أبي علي الجُبّائي المتكلم المعتزلي .

ص 336أ : المتوكل أخذ العهد لأولاده الثلاثة وكتب بينهم كتاب التّراضي منهم وكان ذلك يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين .

ص 337أ : عليّ بن الجهم ، توفي في سنة خمس وسبعين ومائتين بسُرّ من رأى .

ص 342أ : المتوكل رام التنقّل من سامرّا الى دمشق . وسار اليها فدخلها في صفَر سنة أربع وأربعين ومائتين ، وعزَم على المقام بها ونقْل دواوين الملك .

ص 342ب : ابتدأ المتوكل في عمارة قصره الجعفري سنة خمس وأربعين ومائتين وتحوّل اليه في السنة التي مات فيها ، وبقي به الى أن دخلت عليه الجماعة المذكورة فقتلوه ، وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان باتفاق من ابنه المنتصر ومن بُغا الصغير الشرابي .

ص 342ب : وبايعوا المنتصر . وكان ذلك يوم الاربعاء الخامس من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين . وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام ، وعمره إذ ذاك نحو أربعين سنة . والمنتصر لم تطل أيامه . فقد اعتلّ ثلاثة أيام ومات يوم الأحد بسامرّا لخمس بقين من ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائتين ، فكانت خلافته ستة أشهر ويومين .

ص 343أ : استخلف بعده أحمد المستعين بن محمد المعتصم ، وهو ثاني عشرهم . اتفق عليه كبراء الدولة ، فأولوْه وهو ابن ثمان وعشرين سنة وكان المستعين أكبر من المنتصر بما يزيد على السنتين ، لأن المنتصر مات وعمره خمس وعشرون سنة .

ص 343أ : أول من دخل افريقية من عمّال بني العباس الأشعث بن عقبة الخزاعي . أرسله أبو جعفر المنصور سنة أربع وأربعين ومائة .

وقيل هو من عمال السفّاح ، أرسله سنة ثلاث وثلاثين ومائة .

ص 343ب : بنى سور القيروان من الطوب سبعة عشر ذراعًا في شهر ربيع الاول من السنة المذكورة (133هـ) ، وكمُل في شهر رجب الفرد سنة ستّ وأربعين .

ص 343ب : عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة أبن ابي صفرة ، يلقب هَزار مُرْد ، سيّره المنصور الى افريقية سنة إحدى وخمسين ومائة .

ص 344أ : يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ، وجهه المنصور الى افريقية سنة خمس وخمسين ومائة بعد قتل عمر بن حفص المذكور. دخل القيروان لعشر بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ورتّب أمر القيروان وجعل كل صناعة في مكانها . وهدم جامع القيروان ما عدا المحراب وبناه ، واشترى العمود الأخضر .

ص 345أ : وكانت ولاية يزيد خمسة عشر عامًا . ومات بالقيروان سنة سبعين ومائة وخلفه ولده من بعده وكانت هذه السنة هي التي مات فيها الهادي واستُخلف مكانه الرشيد .

ص 344ب : ولاية روْح بن حاتم بن قبيصة الازدي ، وجّهه الرشيد الى افريقية سنة إحدى وسبعين ومائة وعَزل ولد أخيه يزيد عن افريقية وولاه الموصل ، ووجه عمّه روْح المذكور الى افريقية .

ص 345أ : ظهورُ الادارسة بالمغرب سنة اثنتين وسبعين ومائة .

ص 345أ : ولاية هرثمة بن أعين الهاشمي بالولاء ، ولاه الرشيد افريقية سنة تسع وسبعين ومائة . فقدمها لثلاث خلون من ربيع الآخر من تلك السنة . وبنى بلد المنستير سنة ثمانين . وقيل بنى القصر الكبير بالمنستير سنة ثمانين على يد زكرياء بن قادم ، وبنى سور مدينة طرابلس .

ص 345ب : هرثمة حبسه المأمون في سنة مائتين ، ثم أرسل اليه من قتله . وقيل قتله الفضل بن سهل بغير علم المأمون .

ص 345ب : الرشيد ولّى افريقية ابراهيم بن الاغلب ، وقدم ابراهيم الى افريقية من سنته ، وبنى مدينة القصر على ثلاثة أميال من القيروان ، وهدم دار الامارة التى كانت بالقيروان وانتقل الى القصر وجعله دار الامارة . وصار بها أسواق وحمّامات وفنادق وجامع ، وذلك سنة خمس وثمانين ومائة ومات سنة سبع وتسعين ومائة في آخر خلافة الامين .

ص 346أ : أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب كانت ولايته من قِبل المأمون في سنةٍ مات فيها والده ابراهيم المذكور . فمكث سنتين ثم قام عليه منصور الطُّنْبُذي .

ص 346أ : مات في خلافة المأمون ، سنة إحدى ومائتين ، فولي بعده أخاه زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب وكانت ولايته من قِبل المأمون سنة إحدى ومائتين .بنى سور القيروان ، وأدار سور سوسة ، وبنى جامع القيروان بعد هدمه ما عدا محرابه وبنى قنطرة باب الربيع وحصن الرباط بسوسة ، وفتح في أيامه جزيرة صقلية على يد قاضيه أسد بن الفرات ، وكان قاضي القيروان .

ص 346ب : مات أسد بن الفرات محاصرًا لسرقوصة ، في ربيع الآخر سنة ثلاث عشر ومائتين . واستولى المسلمون على الجزيرة واستوطنوها . ودفن أسد هناك . وصارت الجزيرة بأيدي المسلمين ، تتداول عليها الولاة من قِبل

القَرونيين ولاةِ بني العباس ومن بعدهم . وهي بأيدي المسلمين الى ما بعد الاربعين وخمسمائة ، ثم افتكها العدوّ ورجعت الى الكفار .

ص 347أ : زيادة الله مات سنة ثلاث وعشرين ومائتين في خلافة المعتصم. أحمد بن محرز القاضي توفي سنة إحدى وعشرين ومائتين قبل موت زيادة الله ولما مات زيادة الله ولي بعده أخوه أبو عقال الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب . ومات سنة ستّ وعشرين ومائتين في خلافة المعتصم وقبل وفاته بسنة. وكانت مدة الاغلب سنتين وتسعة أشهر .

ص 347أ : ولاية أبي العباس محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب من قبل المعتصم في السنة المذكورة .

ص 347ب : وكان على عهده أميرًا على صقلية العباسُ بن الفضل بن يعقوب بن فزارة . تولاها سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ففتح فيها الفتوحات الجليلة وفتح قصريانة يوم الخميس منتصف شوال من سنة سبع وثلاثين وبنى فيها مسجدًا وصلّى فيه الجمعة ، وذلك في خلافة المتوكل . ومات أبو العباس بن الاغلب سنة اثنتين وأربعين ومائتين .

ص 347ب : ولاية أبي ابراهيم أحمد بن محمد ، كانت ولايته بعد أبيه من قِبل الخليفة المتوكل على الله .

ص 347ب : عصى عليه أهل تونس سنة أربعين ومائتين .

ص 347ب : توفي العباس بن الفضل الفزاري ، صاحب صقلية ، سنة سبع وأربعين ومائتين ، فولّى الناس عليهم ابنه عبد الله بن العباس . خلفه خفاجة بن سفيان أميرًا ، فغزا وفتح فيها ثم اغتاله رجل من عسكره وهرب الى المشركين .

ص 348أ : فولّى الناس بعد قتله ابنه محمد بن خفاجة على صقلية الى سنة سبع وخمسين ، فقتله خدمه الخصيان .

ص 348أ : بقي أبو ابراهيم الاغلبي على عمل افريقية الى خلافة المستعين سنة تسع وأربعين ومائتين ، وتولى موضعه أخوه أبو محمد زيادة الله بن محمد .

كانت ولايته بعد أخيه من قبل الخليفة أحمد المستعين بالله . لم تطل أيامه ومات بعد ثمانية عشر شهرا من ولايته . وكانت وفاته سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين .

وتولى بعده ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد . كانت ولايته بعد موت أخيه من قبل المستعين بالله .

ظهرت السامانية ، وتولّى نصر بن أحمد الساماني فيما وراء النهر ، وذلك سنة إحدى وستين ومائتين .

ص 348ب : وفيها عصى أهل برقة على أحمد بن طولون . وكانت برقة خرجت على افريقية وصارت مصرية .

ص348ب : ولاية ابراهيم بن أحمد بن الاغلب ، وكان يكثر الاقامة بتونس فبني بها الجامع ، وبنى أيضا ماجل القيروان وأسس مدينة رقادة سنة ثلاث وستين وتمّها سنة أربع وستين ومائتين . فكان عملها في سنة واحدة ، وبنى بها الجامع ، وانتقل بالملك اليها ومات سنة ثمان وثمانين ومائتين بالذّرَب وقيل ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين بصقلية ، فجُعل في تابوت وحُمل الى افريقية ودُفن بالقيروان ، فكانت ولايته خمسًا وعشرين سنة .

ولاية عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب بعد نحو الستة أشهر من خلافة المكتفي. انتقل الى مدينة تونس ، وجعل مقامه بها .

ص 349ب : كان مقتل عبد الله سنة خمس وتسعين . وقيل سنة ستّ وتسعين ومائتين . استقل أبو مضر زيادة الله بن عبد الله بن الاغلب بالامر بعد قتل أبيه ودفنه بمدينة تونس .

ص 349ب : في أيامه قوي أمر أبي عبد الله الشيعي القائم بدعوة الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب . فأرسل اليه زياد الله جميع عسكره من تونس الى بلد سبيبة وقد أمّر عليهم ابراهيم بن الاغلب ، وهو من بني عم زيادة .

ص 350أ : كان زيادة الله المذكور آخرهم وبه انقرضت أيّامهم . فكانت مدة ملكهم مائة سنة واثنتي عشرة سنة بالتقريب ، لأن جدّهم ابراهيم بن الاغلب كان ولاه الرشيد على افريقية سنة أربع وثمانين ومائة . ودامت أيامهم الى أن انقرضت في خلافة المقتدر بالله سنة ستّ وتسعين ومائتين .

ص 350ب : كان ابتداء دولة بني عبيد الشيعة بافريقية سنة ستّ وتسعين ومائتين ، حين انقرضت منها بنو الاغلب وتمحّضت لبني العبيد الشيعة ، وخُطب لهم بها وانقطع ذكر بني العباس منها .

ص 350ب–353أ : 1 – أبو العباس عبد الله السفاح . بويع له بالخلافة في ربيع الاول وقيل الآخر بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين مائة . ومات بالانبار بالجُذري في ذي الحجة سنة ستّ وثلاثين ومائة . وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، ومدة خلافته من لدن قتْل مروان الجعد الاموي أربع سنين . وكانت له بيعة أخرى قبل قتله بثمانية أشهر .

2 – أبو جعفر المنصور . بويع له بعد موت أخيه السفاح بالحجاز . ومات لستّ خلوْن من ذي الحجة ، ببئر ميمونة سنة ثمان وخمسين ومائة . ودفن بباب المعلّى وعمره ثلاث وستون سنة . وخلافته اثنتان وعشرون سنة ، وثلاثة أشهر وكسر .

3 – محمد المهدي بن عبد الله المنصور . بويع له بعد موت أبيه في منتصف ذي الحجة ببغداد ، وتوفي بأسبدان لثمانية بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة . وعمره ثلاث وأربعون سنة . وخلافته عشر سنين وشهر .

4 – موسى الهادي بن محمد المهدي . بويع له يوم مات أبوه بعسكر

المهدي ، وكان بجُرجان . وتوفي ليلة الجمعة منتصف ربيع الاول سنة سبعين ومائة وعمره ستّ وعشرون سنة . وخلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر .

5 – هاورن الرشيد .

6 – محمد الامين .

7 – عبد الله المأمون .

8 – محمد المعتصم .

9 – هارون الواثق .

10 – جعفر المتوكل .

11 – محمد المنتصر بن جعفر المتوكل . بويع له يوم قتل أبوه المتوكل في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين . ومات في ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائتين بسامرا ، وعمره خمس وعشرون سنة وستة أشهر . وخلافته ستة أشهر ويومين .

12 – أحمد المستعين بن محمد المعتصم . بويع له يوم دفن المتوكل ، وخلع يوم الجمعة رابع المحرم ، فاتح سنة اثنتين وخمسين ومائتين . وقتل مخلوعًا في تلك السنة ، وعمره أربع وعشرون سنة ، وخلافته الى أن خلع ثلاث سنين وتسعة أشهر وكسرًا .

13 – أبو عبد الله محمد المعتز . وقيل اسمه الزبير ، وهو ابن جعفر المتوكل ، بويع له وهو مسجون في المحرّم سنة إحدى وخمسين ومائتين ، وتمّ له الامر بعد خلع المستعين . وخُلع المعتزّ يوم الاربعاء لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ودفن بسامرا مع المنتصر . وعمره أربع وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يومًا ، وخلافته من بيعته الى خلعه أربع سنين وسبعة أشهر الا سبعة أيام .

14 – محمد المهتدي بن هارون الواثق . يوم خلْع المعتز . وخُلع المهتدي في منتصف رجب سنة ستّ وخمسين ومائتين . ومات لاثنتي عشرة ليلة بقيت

من الشهر المذكور . ودفن بمقبرة المنتصر ، وعمره ثمان وثلاثين سنة . وخلافته أحد عشر شهرًا ونصف .

15 – أبو العباس أحمد المعتمد بن جعفر المتوكل . أُخرج من الحبس وبويع له حين خلع المهتدي . وتوفي لأحد عشر ليلة بقين من رجب ببغداد سنة تسع وسبعين ومائتين . وعمره خمسون سنة وستة أشهر وخلافته ثلاث وعشرون سنة وستة أيام .

فمات الموفق في خلافة المعتمد في صفر سنة ثماني وسبعين ومائتين . وبايعوا بالعهد لابنه أبي العباس المعتضِد وخلعوا المفوّض من /352ب/ العهد ، وتولى المعتضد ما كان يتولاه أبوه الموفق .

16 – أبو العباس أحمد المعتضد بن طلحة الموفّق بن جعفر المتوكل . بويع له حين مات عمّه المعتمد ، وتوفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين . ومولده كان في ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وخلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا .

17 – أبو الحسن علي المكتفي بالله بن أحمد المعتضد . بويع له بالرقّة ، وأُخذت له البيعة ببغداد حين مات أبوه ، وتوفي لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين ، بعد أن مرض عدة شهور وعمره ثلاث وثلاثون سنة وخلافته ستة سنين وستة أشهر وتسعة عشر يومًا .

18 – أبو الفضل جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر . بويع له يوم مات أبوه ، وعمره ثلاث عشرة سنة . وقتل سنة عشرين وثلاثمائة . وتولّى بعده محمد القاهر بالله بن المعتضد .

وعُمر المقتدرِ لـمّا قتل ثمان وثلاثون سنة . وخلافته أربع وعشرون سنة

وأحد عشر شهرًا وستة عشر يومًا .

واستخلف في أيامه في العَزلة الاولى عبد الله بن المعتز يومًا واحدًا ، وفي العزلة الثانية محمد القاهر المذكور يومين . ورجعت الخلافة الى المقتدر الى أن قتل في السنة المذكورة . وتولى بعده ثانيًا محمد القاهر المذكور .

فكان المقتدر هو آخر الخلفاء من بني العباس بافريقية . ثم صارت الخلافة لبني العبيد الفواطم بافريقية .

– 4 –
نسب وخرائط
نسب أمراء بني الاغلب

1 – ابراهيم بن الاغلب	(ابراهيم الاول)
2 – ابنه ـ أبو العباس ، عبد الله بن ابراهيم	(عبد الله الاول)
3 – أخوه ـ أبو محمد ، زيادة الله بن ابراهيم	(زيادة الله الأول)
4 – أخوه ـ أبو عقال ، الاغلب بن ابراهيم	
5 – أخوه ـ أبو العباس ، محمد بن الاغلب	(محمد الاول)
6 – ابنه ـ أبو ابراهيم ، أحمد بن محمد	
7 – أخوه ـ زيادة الله بن محمد	(زيادة الله الثاني)
8 – ابن اخيه ـ أبو عبد الله ، محمد بن أحمد	(محمد الثاني)
9 – أخوه ـ أبو اسحاق ، ابراهيم بن أحمد	(ابراهيم الثاني)
10 – ابنه ـ أبو العباس ، عبد الله بن ابراهيم	(عبد الله الثاني)
11 – ابنه ـ أبو مضر ، زيادة الله بن عبد الله	(زيادة الله الثالث)

سنوات حكم أمراء بني الأغلب

1 – ابراهيم بن الاغلب	(197–184)
2 – أبو العباس ، عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب	(201–197)
3 – أبو محمد ، زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب	(223–201)
4 – أبو عقال ، الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب	(226–223)
5 – أبو العباس ، محمد بن الاغلب	(242–226)

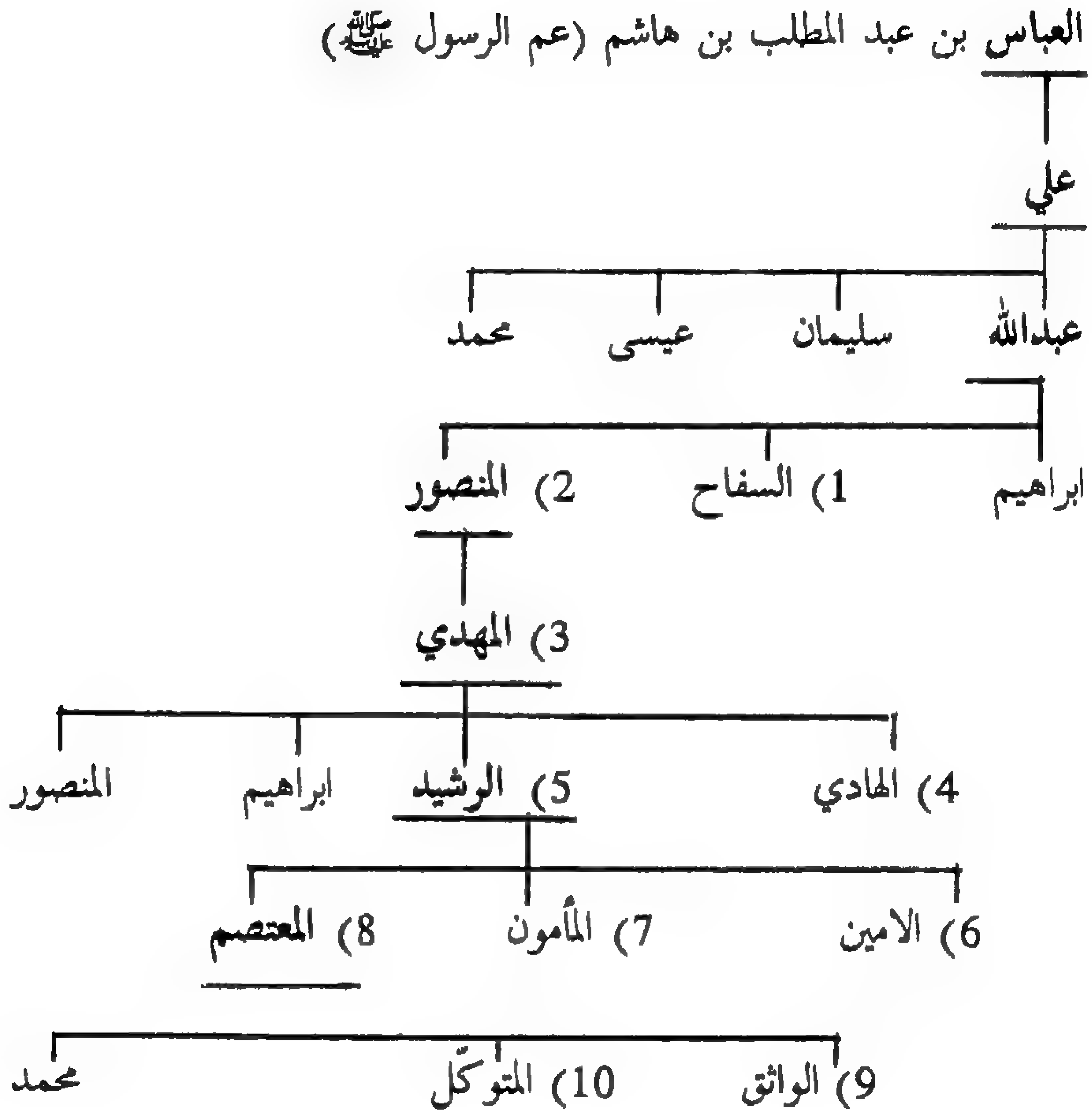
6 – أبو ابراهيم ، أحمد بن محمد بن الاغلب بن
ابراهيم بن الاغلب (249–242)
7 – أبو محمد زيادة الله بن محمد (250–249)
8 – أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله
ابراهيم بن الاغلب (261–250)
9 – أبو اسحاق ، ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم
ابن الاغلب (289–261)
10 – أبو العباس ، عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن عبد الله
ابن ابراهيم بن الاغلب (290–289)
11 – أبو مضر ، زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد
ابن محمد بن عبد الله ابن ابراهيم بن الاغلب (296–290)

مدة ولاية أمراء الاغالبة وتداول الامارة في أسرتهم

1 – رأس ـ ابراهيم بن الاغلب (ابراهيم الاول)	13سنة
2 – ابن ـ أبو العباس ، عبد الله بن ابراهيم (عبد الله الاول)	4 سنوات
3 – أخ ـ أبو محمد ، زيادة الله بن ابراهيم (زيادة الله الاول)	22 سنة
4 – أخ ـ أبو عقال ، الاغلب بن ابراهيم	3 سنوات
5 – أخ ـ أبو العباس ، محمد بن الاغلب (محمد الاول)	16 سنة
6 – ابن ـ أبو ابراهيم ، أحمد بن محمد	7 سنوات
7 – أخ ـ زيادة الله بن محمد (زيادة الله الثاني)	سنة واحدة
8 – ابن اخ ـ أبو عبد الله ، محمد بن أحمد (محمد الثاني)	11 سنة
9 – أخ ـ أبو اسحاق ، ابراهيم بن أحمد (ابراهيم الثاني)	28 سنة
10 – ابن ـ أبو العباس ، عبد الله بن ابراهيم (عبد الله الثاني)	سنة واحدة
11 – ابن ـ أبو مضرَ ، زيادة الله بن عبد الله (زيادة الله الثالث)	6 سنوات

مدة حكمهم 112 سنة تقريبًا .

نسب العباسيين
والخلفاء الاوائل بالتسلسل



بدء خلافته وانتهاؤها

الرشيد 170هـ/786م

الامين 193هـ/890م

المأمون 198هـ/813م

المعتصم 218هـ/833م

الواثق 227هـ/842م

المتوكل 232هـ/847م–247هـ/861م

خريطة للعراق ، مركز الخلافة العباسية

خريطة لبغداد

الفهارس

ملاحظة : الآيات القرآنية تطلب تحت «آيات» أو «القرآن» في الفهرس العام والسنة تحت اسم «محمد» ﷺ أو أحد الصحابة رضي الله عنهم .

فهرس الفهارس :

– 1 –
فهرس الكتب والمؤلفين
في
كتاب دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

– 2 –
فهرس عام لمختلف الأسماء والمعاني
في
كتاب دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

°أسماء مدن ومواضع

* معان عامة .

– أ –

— ب —

— ت —

– ث –

– ج –

- ح -

— د —

— ذ —

– ر –

— ز —

– س –

– ص –

– ض –

– ط –

– ظ –

– ع –

– غ –

– ف –

— ق —

— ن —

— ي —

– 3 –

فهرس الشعر
في
كتاب دولة الرشيد من بني العباس وبنيه

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
		– ء –	
أشياءُ	البسيط	أبو نواس	103ب
بكاءُ	البسيط	ضُعف	108ب
وزنّاءُ	البسيط	أبو نواس	182ب
الدّاءُ	الطويل	أبو نواس	102أ
الأعداءُ	الطويل	البحتريّ	340ب
بالداءِ	البسيط	حيْص بيْص	322أ
الأحشاءِ	الكامل	ابن الزيات الوزير	287ب
الطائي	الكامل	الحسن بن وهب ، وقيل ديك الجن	287ب
بيضاءِ	الكامل	عبد الله بن المعتزّ	315أ
الحياءِ	الوافر	أبو نواس	47أ
للعلماء	الطويل	بعضهم	26أ
ووراثه	الكامل	ابن عَروبة المدنيّ	166ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
		ب —	
كلْبًا	الطويل	خالد بن يزيد بن معاوية	204ب
متحبِّبا	الطويل	يحيى بن أكثم	177أ
عجيبًا	مجزوء الرمل	عيسى بنّ عبد الله المراكبيّ	203أ
الأدَبا	المنسرح	ابن عبده الأسدي	166ب
من غلبَا	البسيط	ابراهيم بن المهدي	209ب
ضُروبَا	مجزوء الرمل	عيسى بن عبد الله المَراكبي	205أ
والبه	مجزوء الكامل	علي بن [أبي] ثابت	44أ
نصيبُ	مجزوء البسيط	رجل	152ب
حرْب	المجتث	ابراهيم بن المهدي	107ب
المتجنّبُ	الطويل	مصعب	46ب
يُعذَّبُ	الطويل	اسماعيل بن جامع	11ب
ضربوه	مجزوء الرمل	كوثر خادم الامين	93أ
غالبُهْ	الطويل	صوت لحكَم الوادي	9أ
سَكوبُ	الخفيف	الرشيد	75ب
لَعازِبُ	الطويل	شاعر	269أ
ينتسبُ	المنسرح	عبد الصّمد بن المعذّل	278أ
الكتب	الطويل	دعبل	255ب
ويستجيبُ	الوافر	جارية	244أ
ذنوبُ	الطويل	محمد بن مسلم الشعري	178ب
متقرِّبُ	الكامل	عريب	201أ
ثعلبُ	الكامل	العلاّف	329ب
مُذنبُ	الطويل	شاعر	269أ
السَّحابُ	مخلع البسيط	محمد بن حازم	280أ

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
الحبُّ	الطويل	عُلية	276أ
السّلَبِ	البسيط	أبو تمام	269أ
الذّهبِ	البسيط	أبو نواس	199ب
والذّيبِ	البسيط	حمّاد عجرد	188ب
البابِ	السريع	الغلام	216ب
الحَسَبِ	المنسرح	شاعر	180ب
التّصابي	السريع	أبو العتاهية	182أ
مَغْضبَه	الرمل	أبو السمط مروان	338ب
الشبابِ	الوافر	الجاحظ	321أ
وذيابِ	الكامل	محمد بن حازم	280ب
للحسابِ	الوافر	محمد بن حازم	281أ
الشّبابِ	الوافر	محمد بن حازم	281ب
منها به	المتقارب	أبو نواس	105ب

— ت —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
أزلتَ	الوافر	مسلم بن الوليد	137أ
وظبّةً	الطويل	العُجيْف العُقيْلي	57أ
جريتُ	الوافر	ربيعة الرقّي	13أ
لا أتلفّتُ	الطويل	تميم بن جميل	271ب
بآفاتِ	الرجز	النظام	235أ
واللّيتِ	البسيط	طفيلي	195ب
السماواتِ	البسيط	أبو نواس	101ب
النّائحاتِ	الوافر	ابن الرشيد	74أ
مُتُّ	السريع	غناء	105أ
قد أتى	الكامل	الرشيد	88ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
منيتي	الطويل	والدُ البنين	85ب
وتعلّتِ	الطويل	والد البنت	85ب
اقشعَرّتِ	الطويل	[الخنساء]	9ب
استُحلّتِ	الطويل	ابن بواب الحاجب	160ب
استُحلّتِ	الطويل	الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع	119ب
اقتربتْ	البسيط	صوت	273أ
ومن آتِ	البسيط	عبد الله بن المعتزّ	315ب

— ج —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
الفَرَجَا	البسيط	آت	153أ
فَرَجَا	البسيط	منشد	276ب
اللّجَجَا	البسيط	محمد بن بشير	276ب
الدُّجَى	الرجز	ابن دريد	333ب
المخرجُ	الكامل	شاعر	268ب
الفرَجِ	البسيط	بهلول	72ب
المُهَجْ	الكامل	مغنية	231ب

— ح —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
لاحَا	مجزوء الرمل	مخارق	212ب
كلحَا	البسيط	أبو نواس	100ب
صالحُ	الرجز	ابن دريد	333ب
بالنّجاح	الوافر	جرير	295ب
أبطُحُ	الطويل	حيْص بيْص	322أ
وأقْداحُ	رجز	الحسن بن وهب	162ب
المُبَرحُ	الطويل	ذو الرمة	56ب
الرِّماحْ	مجزوء الكامل	والبة بن الحباب	43ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
الجودِ	البسيط	مسلم بن الوليد	35أ
واحدِ	السريع	أبو نواس	42ب
بالمهدودِ	الخفيف	ابن مناذر	58ب
والولدِ	المنسرح	اسحاق الموصلي	94أ
لم يعُدِ	المنسرح	دنانير	38أ
الحاشدِ	السريع	الفضل بن يحيى	43أ
ما تُجْدي	السريع	المأمون	216أ
المُسْندِ	السريع	ابن مناذر	59أ
لا يُجدي	الطويل	بذل	94ب
وخدِي	الطويل	بذل	94ب
وسهادي	الكامل	أبو نواس	98ب
يجتدِي	الطويل	الرقاشي ، وقيل أبو نواس	60أ
الوَلدِ	المنسرح	أبو بكر العلاف الضّرير	110ب
بالعهدِ	الطويل	ابن البواب الحاجب	160أ
الأسدِ	البسيط	عبد الصمد بن المعذّل	163ب
أبو زيادِ	الوافر	المأمون	164ب
بواحدِ	الطويل	الشافعي متمثّلا	166أ
لبيدِ	الوافر	الشافعي	171أ
بُرْدِ	الطويل	حمّاد عجرد	185ب
داوودِ	البسيط	بشّار بن برد	188أ
والإبعادِ	الكامل	النظام	235أ
عهدي	الطويل	أبو السمط مروان	323أ
بالجدود	الخفيف	أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي	331أ
بعدي	الكامل	شاعر	340أ
تتجدَّدِ	الطويل	أبو تمام	285ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
البارِدِ	الكامل	مكتوب	296أ
الحاسدِ	الكامل	مكتوب	296أ
والبُعْدِ	البسيط	جحظة البرمكي	335أ
عيدِ	الخفيف	عليّ بن الجهم	338ب
وجودِ	الخفيف	طنين	283ب
فزدهُ	الوافر	الواثق	305ب
ولا تعُدُّي	الوافر	الشاعر	201ب
كالوردِ	البسيط	أبو نواس	217أ
في العددِ	البسيط	أبو تمام	279ب
الابدِ	البسيط	عُلية	276أ
عندي	الطويل	سعيد	283أ
ويغتده	الطويل	علوية	219أ
أبدي	الكامل	سهل بن هارون	231ب
وغْدِ	مجزوء الرمل	ابراهيم بن المدبِّر	341ب
		– ذ –	
نافذِ	الكامل	اسحاق الموصلي	215ب
		– ر –	
سارًا	الوافر	اسحاق الموصلي	217ب
إزارًا	الوافر	طاهر بن الحسين	109أ
العنْبرا	السريع	بشّار	184ب
الأشعارًا	السريع	حمّاد عجرد	187ب
الهَجْرَا	المتقارب	محمّد بن علي	340ب
الشّعرًا	الطويل	مروان	338أ
الكِبارًا	الوافر	طاهر بن الحسين	115ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
زاجرُ	السريع	أبو نواس	101أ
السُّترُ	الكامل	أبو نواس	101ب
نَـهارُ	المنسرح	أبو نواس	216ب
أحاذرُ	مجزوء الكامل	ابراهيم بن العباس	162ب
غيورُ	الطويل	الفضل بن الربيع	158أ
كثيرُ	الطويل	حمّاد عجرد	185أ
ناشرُ	الطويل	قال بعضهم	119ب
أطيرُ	الخفيف	أبان اللاحقي	278ب
المطّرُ	البسيط	محمد بن بشير الرياشي	278أ
خيرُ	السريع	حمّاد عجرد	186ب
يُدارُ	الوافر	عبد الله بن طاهر	220ب
لا تجسُرُ	متقارب	عريب	200ب
الجهْرُ	الطويل	أبو نواس	101أ
مَخْدورُ	البسيط	ابراهيم بن المهدي	211ب
أسيرُ	الكامل	ابراهيم بن المهدي	208ب
السُّمْرُ	الطويل	أبو تمام	261ب
ومحتضره	المديد	العَكَوَّك	188ب
بسرِّه	المجتث	شاعر	267ب
صغرهْ	السريع	الرشيد	75ب
وقار	الطويل	أبو نواس	101ب
أو شاعرِ	السريع	رجل	26أ
في نارِ	السريع	أبو نواس	101أ
الدهرِ	الطويل	الجنبي	51ب
رَجْلِ	البسيط	الأعشى	210ب
ولا يدري	السريع	أبو يعقوب الخريمي	25ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
المخبرِ	الكامل	مسلم بن الوليد	35أ
منظر	الطويل	محمد بن مُناذر	59أ
بأطهارِ	البسيط	الأخطل	244ب
غـزيرِ	المتقارب	النظام	235أ
الشـاري	الرجز	الوليد بن يزيد	31أ
أمير	الطويل	أبو نواس	103ب
إن ظهرْ	المتقارب	شاعر	267ب
القدَرْ	مجزوء السريع	الامين	115ب
عُذْري	السريع	ابراهيم بن العباس	162ب
النّار	السريع	بشّار بن برد	187ب
الكبائرِ	الطويل	أبو نواس	99ب
الكافرِ	السريع	حمّاد عجرد	187أ
دار	السريع	أبو هشام الباهلي	187ب
المشيرِ	المتقارب	قيل	113أ
والخدور	الوافر	هاتف	251ب
فكري	الكامل	أبو العتاهية	181ب
والقَفْرِ	الطويل	الشافعي	169ب
الكبيرِ	مجزوء الكامل	ابراهيم بن المدبر	341ب
والبصرِ	البسيط	العباس بن الأحنف	39ب
الصّخْرِ	الطويل	شاعر	267أ
الدُّثْرِ	الكامل	محمد بن حازم	282أ
عسير	الوافر	أبو نواس	103ب
الثغور	الوافر	بعض الشعراء	6ب
بمطهَّرِ	الطويل	خزيْمة بن الحسين على لسان زبيدة	118أ
يُسْرِ	الكامل	حمّاد عجرد	185ب

— س —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
تدمعْ	مجزوء الرمل	أبو الشيص	90أ
وقَعْ	الرجز	شاعر	68أ
مذيعْ	المتقارب	المأمون	244أ

– ف –

أسفَا	البسيط	أبو العالية	236أ
ضعيفُ	الكامل	الشافعي	171أ
لا يُساعفُ	مجزوء الخفيف	مكتوبٌ	211أ
التَّلفُ	الكامل	الحسين بن الضحّاك الخليع	161أ
حتفِ	المتقارب	أبو نواس	104ب
السُّيوفِ	الكامل	سعدون المجنونٌ	73ب
فَانكشف	المتقارب	جارية	106ب
المُنيفة	الرجز	غلام	243ب
وصُفوفِ	الطويل	ليلى أُخت الوليد بن يزيد	31ب
يكفي	السريع	علية	275ب
يكف	البسيط	سعيد	283ب

– ق –

حقّا	الطويل	المعتضد	352ب
إذ خفقا	المديد	عليّ بن المنجم	337أ
تصديقُ	السريع	المريسي	236ب
مخلوقُ	البسيط	بعض الشعراء	237أ
أحمَقُ	الطويل	شاعر	267ب
ولا يتخرّقُ	الطويل	عُلية	276أ

— ك —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
يزولُ	الكامل	ابن للرشيد	74أ
قليلُ	الطويل	العتاهية	184أ
قليلُ	الطويل	مغنية	231ب
مالُ	الطويل	ابراهيم بن العباس	162ب
عَقْلُ	مجزوء الوافر	بعض الندماء	220أ
الأوابِلُ	الطويل	المأمون	244أ
قليلُ	الطويل	مُنشد	219ب
والفضلُ	الطويل	مكتوب	270ب
سبيلُ	البسيط	علية	276أ
متّصِلُ	البسيط	محمد بن حازم	280ب
المعذّلُ	لُمجزوء الكامل	الجمّاز	279ب
القُلَلُ	البسيط	الامام أبو الحسن العسكري	324أ
أجمَلُ	الطويل	محمد بن البعيث	312أ
قالوا	الطويل	علُّوية	218ب
خالُ	الطويل	العباس بن الاحنف	39أ
الكِلَلُ	البسيط	اسماعيل بن جامع	9أ
سبيلُ	الطويل	إسحاق الموصلي	284ب
قليله	الطويل	غيلان	98ب
قاتله	الطويل	سيبويه	71أ
عاملُهُ	البسيط	عبد الله بن المعتزّ	315ب
سؤاله	الكامل	أبو تمام	286أ
ساحلُهْ	الطويل	قيل	50أ
مثله	المتقارب	عبد الله بن معاوية	63ب
نؤمله	الطويل	مروان بن أبي حفصة	344ب
حلُّها	الكامل	ابراهيم بن المهدي	208ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
البطَلِ	البسيط	مسلم بن الوليد الانصاري	32أ
للمال	البسيط	المعلّى الطائي	155أ
النّصْلِ	الطويل	الكُميت	157أ
ومطْلِ	المديد	عقيد مولى صالح بن الرشيد	38أ
والإرتحالِ	الخفيف	بعض الشعراء	60ب
المتكاملِ	الكامل	الامين	95ب
بالنّعلِ	الكامل	أبو السمط مروان	323أ
حالِ	البسيط	اسحاق الموصلي	107أ
القبلِ	مجزوء البسيط	أبو نواس	103أ
من الكُحل	البسيط	مسلم بن الوليد	33أ
لياليَ	الكامل	أبو تمام	286ب
الشمولِ	المنسرح	عبد الصّمد بن المعذّل	279أ
سبيلِ	الخفيف	عبد الصّمد بن المعذّل	279أ
حالِ	البسيط	الواثق	304ب
النّيلِ	الخفيف	البحتري	341أ
شاغلِ	السريع	امرىء القيس	102أ
المْوصِلِ	الكامل	أبو السمط مروان	339أ
ثُماله	الوافر	عبد الصمد المعذّل وقيل للمبرد	329أ
فمن لها	الكامل	الحسن بن وهب	309ب
لعلّها	الكامل	سليمان بن وهب	310أ
بالي	الطويل	عمرو بن الاهتم	294ب
العالي	الكامل	أبو تمام	286ب
الآمال	الكامل	أبو تمام	286ب
مذالِ	الخفيف	عبد الصّمد بن المعذّل	279ب
البوالي	الخفيف	محمد بن بشير الرياشي	277ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
الأعمالِ	الكامل	شاعر	268ب
عقلِ	الطويل	شاعر	269أ
بابلِ	السريع	عبد الله بن طاهر (لابن الرومي)	220أ
الشّمُولِ	مجزوء الرمل	ابراهيم بن المهدي	212أ
الطويلِ	الكامل	غناء	231ب
بالرُّذْلِ	الطويل	ابن حمدون	202أ
زَلَلي	البسيط	عَريب	204ب
حالِ	المديد	حماد عجرد	189ب
الاخطلِ	الكامل	جرير	185ب
عاجلِ	السريع	أبو العتاهية	182أ
وخِلِّي	الخفيف	ابراهيم بن العباس	162أ
يَحْلُلِ	الكامل	ابو السماط مروان	307ب
ومفصَلِ	الطويل	رجل	163ب
مُنفصِلْ	الرجز	جوار	274ب
الأملْ	الرمل	أبو نواس	142أ
المَثَلْ	مجزوء المتقارب	ابراهيم الصولي	137أ
مُطلْ	مجزوء الكامل	أبو العتاهية	182أ
خَوَلْ	الخفيف	أبو نواس	44ب

— م —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
والإقدامَا	الرجز	معن	32ب
أعلمَا	الطويل	أبو يوسف	23أ
مُقسّمَا	الطويل	جرير	9ب
ومَطْعمَا	الطويل	حاتم الطائي	57ب
المذَمّمَا	الكامل	شاعر	326أ

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
الهمُّ	الكامل	شاعر	115أ
حكيمِ	الخفيف	العباس بن الاحنف	41أ
جَناكُما	الطويل	حسنة	86ب
السُّقَمِ	المديد	أبو نواس	216ب
بالسّلامِ	المنسرح	يحيى بن أكثم	177أ
الخيامِ	الوافر	شاعر	180أ
ولِمْ تَلمِ	البسيط	ابراهيم بن المهدي	208ب
دَمي	البسيط	ابراهيم بن المهدي	208ب
وفمِ	المديد	الحكم	220ب
القِدَمِ	البسيط	المأمون	220ب
اللئيمِ	الوافر	شاعر	268ب
المتندّمِ	البسيط	شاعر	268ب
بفَمِ	البسيط	شاعر	269أ
سهْمي	الخفيف	محمد بن بشير الرياشي	277ب
كريمِ	الوافر	محمد بن حازم	280ب
أقمِ	المنسرح	حمزة بن بيض	166ب
المعمّمِ	الطويل	ابن سناء الملك	289ب
الأجذمِ	الكامل	عنترة	102أ
دَمِي	البسيط	أبو تمام	285ب
المُستَهِمِ	الطويل	عَريب	200ب
سهْمِي	الكامل	شاعر	208أ
سقمي	المديد	عقيد	273ب
حَرٍ أمّهْ	المجتث	المتوكل	323أ
الظُّلَمْ	المتدارك	المأمون	200أ
تحتلمْ	البسيط	البحتري	339أ

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
مُنهزِمْ	مجزوء الكامل	الصيمري	339ب
هشامْ	السريع	ابراهيم بن العباس	161ب
الغَنَمْ	الخفيف	بشّار بن برد	188أ
النِّعمْ	المتقارب	شاعر	67ب

— ن —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
عَوانًا	المتقارب	ابراهيم بن العباس	162أ
آمينا	البسيط	أبو نواس	45ب
وأحزانا	البسيط	أبو نواس	41
بعندنَا	الطويل	جارية	8أ
أبانا	مجزوء الكامل	عبد الصّمد بن المعذّل	278ب
فأرْوانا	البسيط	جارية	244ب
لا تصحبينا	الوافر	من العوام	232أ
الظنّا	الطويل	المأمون	244أ
المظنّهْ	مجزود الكامل	محمد بن بشير الرياشي	277أ
يكونُ	الخفيف	الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع	119ب
حزينُ	الطويل	جرير	55أ
رَضْوانُ	البسيط	البحتري	339أ
كائنُ	الطويل	محمد البعيث	316أ
امتنانِ	الوافر	المأمون	216ب
الدِّنانِ	الوافر	عمرو بن شبة	220ب
الحُزْنِ	الطويل	غناء	231ب
ديني	. . . .	الامين	93أ
قبضتني	الكامل	محمد بن بشير الرياشي	277ب
والمتن	المنسرح	سهل بن هارون	232ب

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
المأمونِ	الخفيف	جارية	252أ
مفتونِ	البسيط	جارية	178أ
الخافقين	الوافر	بعض أصحاب ابن أبي دوّاد	319ب
مكانِ	الخفيف	الرشيد	204أ
الزمانِ	الخفيف	مكتوب	85ب
المساكينِ	السريع	ابن المبارك	83ب
والسنِّ	المديد	أبو نواس	100ب
الحدَثانِ	الطويل	أبو نواس	100ب
الاذقانِ	الكامل	بعض العلماء	15أ
شيبانِ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	49ب
الرّحمانِ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	49ب
بالمجانينِ	البسيط	امرىء القيس	179ب
الدّينِ	البسيط	الشافعي	171ب
والحزَنِ	السريع	بذل	94ب
منّي	الرجز	امرأة	51أ
أعطاني	البسيط	مسلم بن الوليد	34ب
لساني	الخفيف	الحرمازي	39ب
السكنِ	الخفيف	أبو نواس	103ب
ودينِ	الطويل	مروان	338أ
والطين	المنسرح	ابن الزيات الوزير	291ب
الهَيمان ، تَدانِ	الطويل	ابن الرومي	180أ
يسقيني	البسيط	يحيى بن أكتم	178أ
خراسانِ	السريع	بعضهم	264ب
إذا لاقاني	الكامل	مروان	337ب
الالوان	الكامل	شاعر	340أ

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
هِجانِ	الطويل	عمر بن أبي ربيعة	9أ
الخَتَنْ	مجزوء الخفيف	محمّد بن حازم الباهلي	199ب
لم يكنْ	المتقارب	الشافعي	171ب

— هـ —

القافية	البحر	الشاعر أو من جرى على لسانه ذلك الشعر	الصفحة
الملاهي	مجزوء الوافر	أبو نواس	101أ
يكفيها	البسيط	أبو العتاهية	182أ
إدلالها	المتقارب	أبو العتاهية	183أ
أذيالها	المتقارب	أبو العتاهية	183أ
بزوالها	الطويل	شاعر	165أ
دوره	مجزوء الكامل	ضُعف	108ب
مُقْلتيه	مجزوء الرمل	أبو نواس	107أ
تِيه	مجزوء الرمل	عبد الله بن أيوب التميمي	93أ
التّيهِ	السريع	حماد عجرد	186أ
يُسمّيه	السريع	حماد عجرد	186أ
ذكريه	السريع	حماد عجرد	186أ
بهجائيه	السريع	حماد عجرد	186أ
ينساها	البسيط	قائل	38ب
أو خالّها	الكامل	ربيعة الرقّي	11
ازدادَهَا	الكامل	عدي بن زيد	54ب
ساقيها	مجزوء الرمل	أبو نواس	103ب
هلالّها	الكامل	مروان بن أبي حفصة	48أ
تاركُهْ	الطويل	أبو العتاهية	181ب
أمسيهِ	السريع	بشّار	184ب

- 4 -

المراجــع

ابن الاثير (ـ360 هـ) ، **الكامل في التاريخ** . القاهرة 1303، طبع دمشق (د . ت .) طبعة أوروبا 1876، طبعة القاهرة 1375هـ

ابن تغري بردي (ـ478هـ) ، انظر **النجوم الزاهرة** .

ابن خلدون (ـ808هـ) ، **التاريخ والمقدمة** ، دار الكتاب اللبناني .

ابن خلكان (ـ186هـ) ، انظر **وفيات الاعيان** .

ابن طيفور (ـ280هـ) ، أحمد بن أبي طاهر ، **كتاب بغداد** ، وصلنا منه الجزء السادس فقط ، حققه محمد زاهد الكوثري ، القاهرة 1949 .

ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر والمغرب** ، طبع أوروبا .

ابن العماد ، انظر **شذرات** .

ابن كثير (ـ477هـ) ، **البداية والنهاية** ، طبع القاهرة 1932 .

أبو الفدا (276–237هـ) ، عماد الدين بن اسماعيل ، **المختصر في أخبار البشر** ، المعروف بتاريخ أبي الفدا ، المطبعة الحسينية بمصر 1325هـ .

ابن الوردي (ـ947هـ) ، **تتمة المختصر في أخبار البشر** ، **تاريخ ابن الوردي** ط . بغداد 1969 . مجلدان ، دار المعرفة بيروت ، د . ت .

الاعلام للزركلي ، طبعة القاهرة 1954 .

الاغالبة ، انظر محمد اسماعيل . . وتاريخ مملكة الاغالبة .

الاغاني ، لابي الفرج الاصفهاني (ـ356هـ) و**مختصر الاغاني** .

تهذيب ابن عساكر ، طبعة دمشق 1351 .

البلاذري ، **فتوح البلدان** ، طبع أوروبا 1866 .

تاريخ افريقية والمغرب ، للرقيق القيرواني (القرن الخامس) ، **قطعة** . . تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ، نشر السقطي ، تونس 1967 .

تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي (ـ463هـ) ، طبعة القاهرة 1931 .

تاريخ الخميس في أحوال النفس والنفيس للحسين بن محمد الدياربكري (ـ966هـ) ، مجلدان ، طبع مصر 1283هـ .
تاريخ الخلفاء ، للسيوطي (ـ911هـ) ، القاهرة 1351هـ .
تاريخ ابن شداد ، **الجمع والبيان في أخبار افريقية والقيروان** ، نقلا عن النويري ، **نهاية الارب** ، ج 24 بتحقيق د . حسين نصار ود . عبد العزيز الاهواني ، القاهرة 1983 .
تاريخ الطبري (ـ310هـ) ، طبعة القاهرة 1939 .
تاريخ مملكة الاغالبة ، ابن وردان (كذا) ، دراسة وتقديم وتعليق د . محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة 1988/1408 ، 87 ص . (هذا الكتاب غير جدير بعنوانه لا في الدراسة ولا في التقديم ولا في التعليق) .
التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد لابن عبد البر ، ط . المغرب 1967/1387 .
تهذيب ابن عساكر (ـ175هـ) ، **التاريخ الكبير** لابن عساكر ، تهذيب الشيخ بدران ، دمشق 1346 ، **ومختصر من التاريخ الكبير** كذلك لابن منظور .
جمهرة المراجع البغدادية ، اعداد كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي ، بغداد 1962 .
الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، [(هذا الكتاب نقل بلفظه من المؤيد . . المجلد الثاني ، ص 7–21)] ، دار الغرب الاسلامي 1985 .
حلية الاولياء وطبقات الاصفياء للحافظ أبي نعيم الاصفهاني (ـ430هـ) دار الكتاب العربي ، ط3 بيروت 1400/(1985 ؟) 1980 .
الخطط للمقريزي (548هـ) ، «ظفر بمسودة الاوحدي (ـ117هـ) فأخذها وزادها زوائد غير طائلة» .
الخلافة العباسية ، فاروق عمر ، بغداد 1969 .
دول الاسلام ، للذهبي (ـ748هـ) ، حيدر آباد الدكن 1364هـ .
الدولة العباسية ، انظر شعبان عبد الحي .
ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي لثعلب ، تحقيق د . نوري حمودي القيسي ود . حاتم صالح الضامن ، المجمع العلمي العراقي 1987/1407 .
ديوان مسلم بن الوليد ، طبع دار المعارف مصر .
ديوان ابي نواس .
الذهبي ، انظر **دول الاسلام** .
الرقيق ، انظر **تاريخ افريقية** .

سلوان المطاع لابن ظفر ، طبع تونس 1279 .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، مكتبة القدسي .
شعبان ، محمد عبد الحي ، **الدولة العباسية** ، بيروت 1981.
الطبري ، **تاريخ الامم والملوك** ، المطبعة الحسينية المصرية . والطبعة الاوروبية .
عيون الاخبار لابن قتيبة ، طبع دار الكتب ، مصر .
الفتوح لابن أعثم الكوفي (ـ314هـ) ، طبع حيدر آباد الدكن ، الهند .
المسعودي (ـ345هـ) ، **مروج الذهب ومعادن جواهر الادب** ، مطبعة السعادة 1958 .
الفرج بعد الشدة ، للتنوخي ، القاهرة 1357هـ .
كتاب بغداد ، انظر ابن طيفور .
محمود اسماعيل عبد الرازق ، **الاغالبة** ، القاهرة 1366 . وله أيضًا الخوارج في المغرب العربي ، الدار البيضاء ، 1973.
المختصر ، انظر أبو الفدا .
المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ، دمشق 1365هـ .
مصارع العشاق لابي جعفر السراج ، مطبعة الجوائب 1301 .
معجم الادباء لياقوت الحموي (ـ626هـ) . مطبعة عيسى البابي الحلبي .
المكتبة العربية الصقلية ، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم ، جمعها وحققها المستشرق ميخائيل أماري ، ليبسك 1857 ، الباب السابع والخمسون ، من تاريخ تونس ، تأليف حسين بن محمد ابن وادران ص 540–544 أورد مقتطعات منه متعلقة بصلقية . وبهامشه هذا التعليق حول مصدر النص ، وهم السنيور هونيقر عن السيد ألفونس روسو نقلا عن ابن أبي الضياف :

[Estratti recatimi dal Sig. Honnegar nel 1847 da Tunis. Ritraggo il titolo da una lettera dell' erudito Mr. Alphonse Rousseau che ha alle mani altri estratti di questa opera. un cenno biografico, scritto nel 1854 da sid Ahmed- ibn Diaf, segretario del Bey di Tunis e favoritomi dallo stesso Mr. Rousseau, ci fa conoscere esattamente il nome dell' autore; e ch'ei vissi nella seconda meta del XVIII secolo. Mr. Cherbonneau ha dato la versione fruncese di alcuni squarcif d'Ibn Wuedran nella Revue de l'Orient, dicemre 1853 p. 417 seg.].

مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الاصفهاني ، تحقيق السيد صقر .
النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، لابن تغري بردي ، طبع دار الكتب المصرية .

الورقة لابن الجراح ، دار المعارف 1953 .
الوزراء والكتاب للجهشياري (ـ331هـ) ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، طبعة القاهرة 1938 .
وفيات الاعيان لابن خلكان ، طبعة القاهرة 1948 ، وطبعة بيروت بتحقيق د . احسان عباس .
اليعقوبي ، **تاريخه** ، دار صادر بيروت 1960 .

مخطوطات

المختار في الدرّ المكنون المنتظم في أخبار الرشيد وأبنائه الامين والمأمون والمعتصم ، دار الكتب الوطنية تحت رقم 4816 أحمدية ، أو 13337 .
صلة السمط وسمة المرط في شرح سمط الهدي في الفخر المحمدي ، تأليف أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي المصري ، **سمط الهدي أو القصيدة الشقراطيشية** ، لأبي محمد عبد الله بن يحيى بن علي بن زكريا التوزري المشهور بالشقراطيسي ، مخطوط بدار الكتب الوطنية . منه الجزء الاول والثالث 5605 ومخطوط ح ح عبد الوهاب 18564 و18565 الجزء الثاني في مجلدين .
كتاب الاصطفاء في أخبار الخلفاء لابي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري (مخطوط لـ M. de Gayanges) .
العمراني ، **مختصر تاريخ الخلفاء** ، مخطوط ليدن رقم 595 .

مراجع بالاجنبية

F. Gabrieli, (*al-Amin, al-Ma'mun*) in *El*, et *Documenti relativi al califato di al-Amin . . in Rev. Lin.*, ser. 6 III (1927), 191-220.
J. Sauvaget, *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman. Eléments de bibliographie,* éd. refondue et complétée par Cl. Cahen, Paris, 1961.
H. Kennedy, *al-Mahdi,* 1228-1229 b.
F. Omar, *The Abbasid Caliphate,* Bagdad 1969.
H. Kennedy, *The Early 'Abbasid Caliphate,* Londres 1981.
D. Sourdel, *Le Visirat 'abbaside,* Damas 1959.

Histoire des Aghlabites, éd. Noël Desvergers, Paris 1841, ce texte a été publié aussi par Amari, p. 464 et suivant.
M. Talbi, *l'Emirat aghlabide,* Paris, Vrin 1968.
M. Kaabi, *Les Tahirides,* Tunis 1979.
E. Daniel, *Khurasan, under 'Abbasid rule,* Minniapolis 1979.
B. Lewis, *'Abbasides,* in *EI* 2.
Ency. de l'Islam.
Index Islamicus.
G. A. L.
G. A. S.

Toutefois cet ouvrage d'histoire événémentielle et biographique, attribué abusivement à Husayn b. Muhammad Wadiran, ne manque pas de nous rapporter d'intéressantes relations, notament celles concernant la chute des Barmékides, l'établissement de l'Etat tahiride et la révolte de Mansur at-Tunbudi en Ifriqya. Enfin, nous devons à ce ms., gros de 364 folios, une quarantaine de pages inédites sur quelques philosophes, médecins et musicologues grecs, attribuées à Sahl b. Harun al-Katib. Ces pages sont loin d'être identiques avec ce que rapportent Ibn Abi Usaybi°a, al-Qifti et même Ibn Fatik. Elles sont d'une originalité évidente. C'est dire l'intérêt que nous portons à l'édition de ce manscrit.

PRÉFACE

Le ms. d'Ibn Wadiran sur l'histoire °Abbasside et Aghlabide: retrouvé*

L'ouvrage d'Ibn Wadiran mal connu par Cherbonneau, au siècle dernier et dont on a perdu l'original tunisien qui se trouvait à la Bibliothèque de Gâmi° az-Zitouna, a été retrouvé récemment à la Bibliothèque nationale de Tunis (sous le n° 1446).

En effet, la traduction que donna A. Cherbonneau de cet ouvrage, sous le titre de *"Précis historique de la dynastie des Aglabites"*, a été faite d'après une copie sur l'original qui n'en reproduit qu'une très mince partie. Or le manuscrit en question traite en gros du *"ta'rih dawlat ar-Rachid min bani l-°Abbas wa banih"*. Il est acèphale et anonyme. Ibn Wadiran est un historien mineur beaucoup plus tardif que ne le pensait Cherbonneau dans l'Introduction de sa traduction *(in Revue de l'Orient, de l'Algérie et de ses colonies, Alger 1853, p. 417.)*. Le premier examen de l'ouvrage, dont nous avons donné le résultat, confirme qu'il s'agit d'une œuvre posthume d'un tunisien, qui écrivait au début du XI[e] siècle de l'hégire (XVII[e] J.-C.). Le retrouvant en brouillon et se rendant compte de sa grande valeur, Ibn Wadiran, qui vivait encore en 1189/1758-59, s'est appliqué à mettre le ms. au net avec quelques additions. C'est une véritable *Bibliotheca* sur six califes °abbasides à partir d'ar-Rachid, suivi d'un précis historique sur les gouverneurs de Kairouan sous domination °abbaside jusqu'à la chute des Aghlabides en Ifriqiya.

Les sources auxquelles l'auteur (ou les deux auteurs) fait appel sont très nombreuses et généralement assez tardives. On peut citer à titre d'exemples quelques-unes parmi les moins connues: Tarih al-Badri (m. 894/1489), Qutb as-surur du chroniqueur kairouanais ar-Raqiq et Kitab lubb al-labib.. d'un certain al-as°ari. Mais la source la plus en honneur dans cette histoire est celle d'Abu l-Fida' dans son *Muhtasar.*

---

* Resumé de la communication donnée par moi-même au XXIX Congrès international des Orientalistes, Paris 16-22/7/1973. Voir Actes du C.I.O.I. - Histoire et Civilisation, L'Asiathèque, Paris 1975.



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم	:	228 - 2000 - 2 - 1993
التنضيد	:	دار صادر — بيروت
الطباعة	:	دار صادر — بيروت

IBN WADIRAN

HISTOIRE DES ABBASIDES

(Dawlat ar-Rachid min Bani l-Abbas wa banih)

TEXTE INTRODUIT, ÉTABLI ET ANNOTÉ
PAR
MONGI KAABI



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

IBN WADIRAN

HISTOIRE DES